الكتاب الثاني من أغنية الجليد والنار

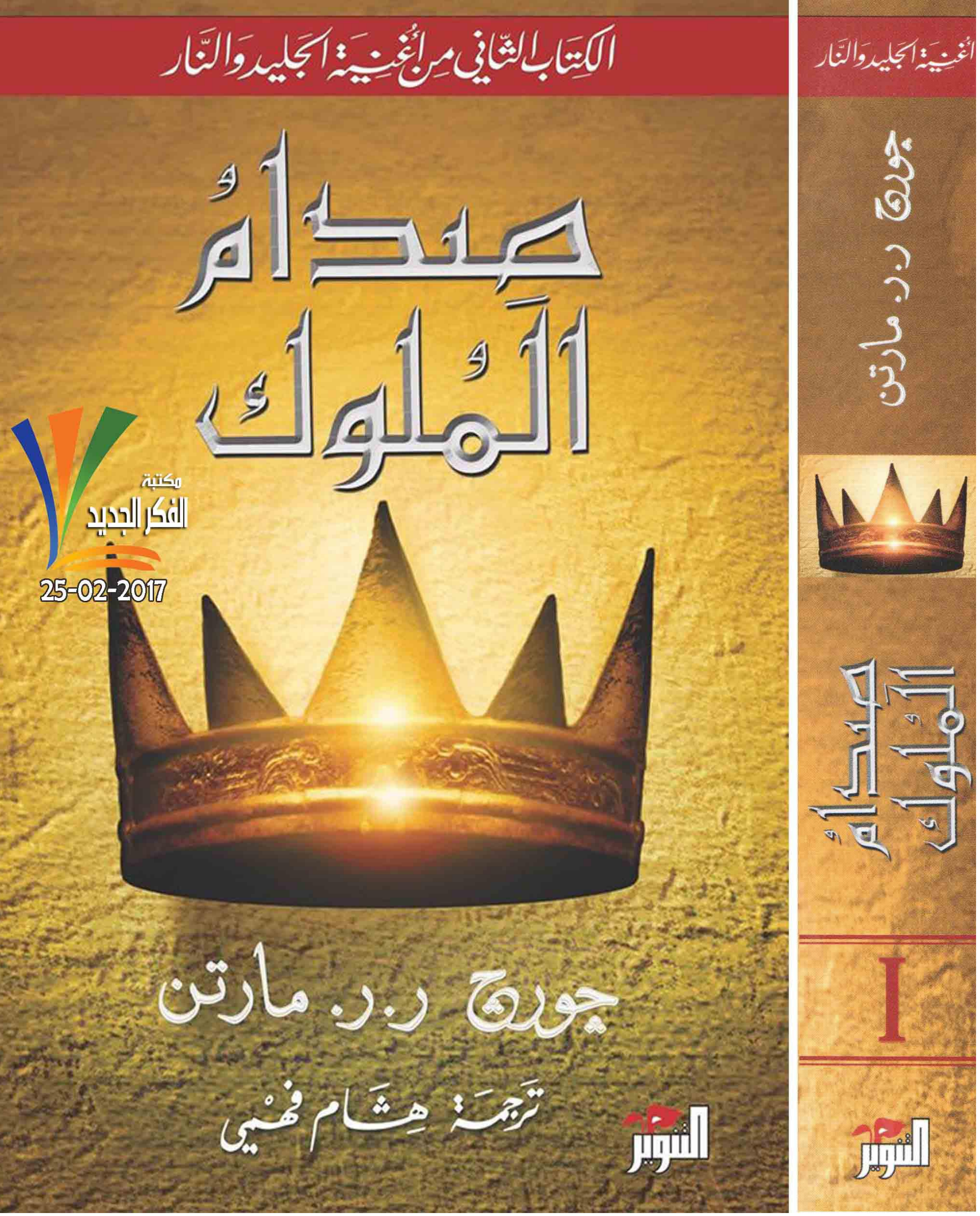
صدام الملوك



جورج ر. ر. مارتن

ترجمة هشام فهمي

التنوير


الكتاب الثاني من أغنية الجليد والنار
صدام الملوك
مكتبة الفكر الجديد
25-02-2017
جورج ر.ر. مارتن
ترجمة هشام فهمي
التنوير
أغنية الجليد والنار
جورج ر.ر. مارتن
صدام الملوك
I
التنوير

چورج ر. ر. مارتن

أغنيَّة الجَليد والنَّار

صِدام الملوك

الكتاب الثاني الجزء الأول

الكتاب: صِدام الملوك I (الكتاب الثاني من أغنيَّة الجَليد والنَّار) / رواية

المؤلف: چورچ ر. ر. مارتن

ترجمة: هشام فهمي

عدد الصفحات: 528 صفحة

الترقيم الدولي: 978-977-6483-92-7

رقم الناشر: 2015/22115

الطبعة الأولى: 2017

هذه ترجمة مرخّصة لكتاب:

A Clash of Kings by *George R.R. Martin*

Published by agreement with the author and the author's agents, The Lotts Agency Ltd

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - سنتر كريستال، الهزيم - الطابق الأول

هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة – 2 شارع فؤاد سراج الدين (السرايا الكبرى سابقا) - جاردن سيتي

هاتف: 00227963545

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس

هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar - altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar - altanweer.com

چورچ ر. ر. مارتن

أغنيَّة الجَليد والنَّار

صِدام الملوك

الكتاب الثاني الجزء الأول

ترجمة: هشام فهمي

التنوير

إلى چون وجايل
من أجل كلِّ ما جمعَ بيننا من طعامٍ وشراب



خريطة الشَّمال
مدينة
قلعة
بلدة
أطلال
ش
الساحل المتجمِّد
خليج الجليد
جزيرة الدببة
الغابة المسكونة
الجـدار
برج الظلال
القلعة السَّوداء
قلعة البحر
أراضي الهديَّة
سكاين
خليج الفقمات
سكاجوس
المستوقد الأخير
كارهولد
البحيرة الطويلة
التلال الوحيدة
قلعة الخوف
ربوة الغابة
غابة الذئاب
رأس التنين البحري
الساحل الحجري
وينترفِل
النهر الباكي
مربَّع تورين
روابي القبـور
الأخاديد
الفرع المكسور
بوابة الكِباش
الميناء الأبيض
قلعة الأرملة
بلدة الرَّوابي
الرُّمح الملحي
خندق كايلن
القلعة العتيقة
الخليج الناهش
خليج المياه الأجاجة
إصبع فلينت
العُنُق
جزيرة الحصى
جزيرة التلِّين
رأس الكراكن
جروف فلينت
القلعة الرماديَّة
ستارتون
الثلاث أخوات
التوأمتان
جُزُر الحديد
رأس النسور
سيجارد
خليج الرجال الحديديين
العُش
البوَّابة الدامية
وادي آرِن
بايك
الفرع الأخضر
الفرع الأزرق
الجلمود
الفرع الأحمر
Map by James Sinclair



خريطة الجنوب
مدينة –
قلعة –
بلدة –
أطلال –
ش
جُزُر الحديد
ويك القديمة
ويك الكُبرى
بايك
خليج الرجال الحديديين
سيجارد
طريق الملوك
الفرع الأخضر
الفرع الأزرق
الفرع الأحمر
نهر الثالوث
الثلاث أخوات
وادي آرن
العُش
البوّابة الدامية
مدينة النوارس
خليج السرطانات
الجلمود
ريفرَرن
الناب الذهبي
كاسترلي روك
لانسبورت
طريق الذهب
هارنهال
جزيرة الوجوه
عين الآلهة
طريق الملوك
ميدنبوول
الرأس المتصدّع
دراجونستون
داسكِندال
الحلقوم
روزبي
كينجز لاندنج
النهر الأسود
الخليج الأسود
المرعى
طريق البحر
غابة الملوك
الطريق الوردي
بتربريدج
نهر المانتر
آشفورد
هايجاردن
ستورمز إند
تارث
خليج السُفن الغارقة
الغابة المطيرة
تخوم دورن
رأس الغضب
الصخرة الحمراء
بحر دورن
البلدة القديمة
ستارفول
دورن
الذراع المكسورة
صَنْسبير
الكَرمة
Map by James Sinclair

تمهيد

شَقَّ ذيل المذنَّب الفَجر كجرحٍ أحمر ينزف من كبد السَّماء التي اصطبغَت بمزيجٍ من الوردي والأرجواني فوق جروف دراجونستون.

كان المِايستر يقف في الشُّرفة المكشوفة للرِّيح خارج مسكنه. إلى هنا تأتي الغِدفان بَعد التَّحليق الطَّويل، وقد لوَّثت فضلاتها التِّمثالين اللذين يرتفع كلٌّ منهما اثني عشر قدمًا، أحدهما يُمَثِّل وايفرن[1] والآخَر كلبًا من كلاب الجحيم[2]، بينما يطلُّ من على أسوار القلعة العتيقة ألفٌ من الكراجل[3] الأخرى. كان جيش المسوخ الحجريَّة يبثُّ فيه شعورًا بعدم الرَّاحة في بداية مجيئه إلى دراجونستون، لكنه اعتادَ وجودها مع مرور الزَّمن حتى باتَت بمثابة أصدقاءٍ له؛ والآن وقفَ بين صديقيه هذين ليتطلَّع ثلاثتهم إلى السَّماء بتوجُّس.

لم يكن المِايستر كرسن يُؤمن بالنُّذر، وعلى الرغم من سنوات عُمره المديد لم يسبق له أن رأى مذنَّبًا يتوهَّج بهذه الصُّورة على الإطلاق، أو بهذا

(1) الوايفرن مخلوق أسطوري شبيه بالتنِّين، لديه جسد كالسحلية وساقان وذيل سمكة، ولا ينفث النَّار.

(2) كلاب الجحيم مخلوقات خياليَّة يرد ذِكرها في أساطير شعوبٍ عدَّة، وتوصَف بأنها سوداء اللَّون وحمراء العينين، وشديدة القوَّة ولها حضور شبحي ورائحة كريهة.

(3) الكراجل مخلوقات أسطوريَّة ذات مظهر مشوَّه مخيف، تم تصويرها في منحوتات عدَّة، وبالأخص على الجدران الخارجيَّة لعددٍ من كنائس العصور الوُسطى، حيث تتَّخذ شكل ميزاب ناتئ.

اللَّون الرَّهيب، لون الدَّم واللَّهب والغروب. تساءلَ إن كانت كراجله رأت مثيلًا له من قبل، إذ سبقَ وجودها هنا وجوده بزمنٍ طويلٍ للغاية، وستظلُّ هنا بَعد أن يرحَل بكثير. ليت الألسنة الحجريَّة قادرة على الكَلام...

استندَ إلى سور الشُّرفة شاعرًا بملمس الأحجار السَّوداء الخشن تحت أصابعه والأمواج تتلاطَم في الأسفلِ، وقال لنفسه: كراجل متكلِّمة ونبوءات في السَّماء، يا للحماقة! أيصحُّ أن أفكِّر كطفلٍ طائش وأنا رجلٌ هَرِمٌ يقف على عتبة القبر؟ هل تخلَّت عنه الحكمة التي لم يدَّخر جهدًا طول حياته لاكتسابها كما تخلَّت عنه صحَّته وقوَّته؟ إنه مِايستر تعلَّم وتدرَّب في قلعة البلدة القديمة العظيمة، وهناك طوَّق عُنقه بسلسلة جماعته، فإلى أيِّ شيءٍ استحالَ الآن وقد ملأَت الخُرافة رأسه كأنه مجرَّد فلَّاح أجير جاهل؟

ومع ذلك... ومع ذلك... كان المذنَّب يتَّقد طول الوقت الآن، حتى في النَّهار، بينما يتصاعَد البُخار الرَّمادي الباهت من فتحات بُركان دراجونمونت السَّاخنة وراء القلعة، وصبيحة الأمس أتى غُداف أبيض حاملًا خبرًا من «القلعة» نفسها، خبرًا طالَ توقُّعه وطالَ الخوف من مجيئه، خبرًا يُعلِمهم بنهاية الصَّيف. نُذُرٌ كلها، وأكثر عددًا من أن يُنكِرها أو يتجاهَلها، حتى إنه يُريد أن يَصرُخ بأعلى صوته: ما الذي يعنيه كلُّ هذا؟!

- «مِايستر كرسن، لديك ضيوف»، قال پايلوس بصوتٍ خافت كأنه يكره أن يقطع على كرسن تأمُّلاته الوقور، بينما لو أدركَ الهراء الذي ملأَ رأس العجوز لحظتها لصاحَ دهشةً. «الأميرة ترغب في رؤية الغُداف الأبيض». پايلوس على صوابٍ دائمًا، والآن كان يدعوها «الأميرة» بما أن السيِّد والدها ملك، ملك صخرةٍ في عرض البحر المالح العظيم تتصاعَد منها الأدخنة والأبخرة، لكنه ملك على الرغم من ذلك. «المهرِّج معها كذلك».

أدارَ العجوز ظَهره للفَجر وقد أبقى يده على تمثال الوايڤرن كي يقف بثباتٍ، وقال: «خُذني إلى مقعدي ودَعهما يَدخُلان».

أمسكَ پايلوس ذراعه وقادَه إلى الدَّاخل. في شبابه كان كرسن يمشي بخطواتٍ سريعةٍ رشيقة، لكنه الآن يدنو من يوم ميلاده الثَّمانين، وساقاه

أصبحتا هشَّتين مرتعشتين. قبل عامين سقطَ المِايستر وكسرَ وَركه، ومنذ ذلك الحين والكسر لم ينجَبر كما ينبغي، وفي العام الماضي عندما كان طريح فِراش المرض، أرسلَت «القلعة» پايلوس من البلدة القديمة قبل أيام قلائل من إغلاق اللورد ستانيس الجزيرة. قالوا إنه جاءَ ليُساعِده في مهامِّه، لكن كرسن كان يُدرِك الحقيقة، أن پايلوس هنا ليحلَّ محلَّه عندما يموت. لم يكن يُمانِع، فعلى أحدهم أن يأخذ مكانه في النِّهاية، وبأسرع مما كان ليرغب في الحقيقة.

تركَ الرَّجل الشَّاب يُساعِده على الجلوس وراء كُتبه وأوراقه، ثم قال: «اذهب وتعالَ بها. من السيِّئ أن نَترُك الليدي تنتظر»، ولوَّح بيده بحركةٍ تدلُّ على العجالة من رجلٍ لم تَعُد العجالة شيئًا يقوى عليه. كانت بشرته مجعَّدةً مليئةً بالبُقع، والجلد رقيقًا كورقة حتى إنه يستطيع أن يرى شبَكة العروق وأشكال العظام من تحته، ولكم صارت يداه دائمتي الارتجاف، هاتان اليدان اللتان كانتا دومًا ثابتتين قويَّتين في الماضي.

عادَ پايلوس والفتاة معه وقد بدَت خجولًا كالمعتاد، ومن ورائها جاءَ مهرِّجها بمشيته الجانبيَّة الغريبة التي تجمع بين جَرِّ القدمين والتَّواثُب، وقد وضعَ على رأسه خوذةً مصنوعةً من صفيح دلوٍ قديم، رُبِطَ حول قمَّتها حزام ثُبِّتَت فيه قرون وعلٍ يتدلَّى منها عدد من الأجراس الصَّغيرة التي تُعلَّق في أعناق الأبقار، ومع كلِّ خطوةٍ متمايلةٍ يخطوها كانت الأجراس تُجَلجِل فيُصدِر كلٌّ منها رنينًا مختلفًا عن الآخَر، كلانجا-دانج بونج-دونج رينجا-لينج كلونج كلونج كلونج!

قال كرسن: «مَن جاءَ لزيارتنا في هذه السَّاعة المبكِّرة يا پايلوس؟».

أجابَته الطِّفلة وعيناها الزَّرقاوان تَرمُقانه بنظراتهما البريئة: «إنها أنا أيها المِايستر، ومعي ذو الوجه المرقَّع». وجهها هي لم يكن بالوجه الجميل للأسف، فمن السيِّد والدها ورثَت فكَّه المربَّع البارز، ومن أمِّها الأذنين الكبيرتين، وأضيفَ إلى هذا التشوُّه الذي أصابَها، والذي تبقَّى معها كتذكارٍ دائم لصراعها مع الدَّاء الأرمد الذي كادَ يودي بها وهي لا تزال في المهد. عبر نِصف وجنتها وبطول عُنقها كانت بشرتها جافَّةً ميتةً، وقد تشقَّق جِلدها

وتقشَّر وشاعَت فيه البُقع السَّوداء والرَّماديَّة، فإذا لمسته فكأنك تلمس حجرًا. تابعَت الصَّغيرة: «بايلوس قال إننا نستطيع أن نرى الغُداف الأبيض».

رَدَّ كرسن: «بكلِّ تأكيد». كأنه يقدر على أن يحرمها هذا وقد حُرِمَت الكثير جدًّا في سنينها القليلة بالفعل. كان اسمها شيرين، وفي يوم ميلادها المقبل ستصير في العاشرة من عُمرها، وهي أتعس طفلةٍ عرفها المِايستر كرسن في حياته على الإطلاق. قال العجوز لنفسه: تعاستها هي عاري، علامة أخرى على فشلي، ثم قال مخاطِبًا الشَّاب: «مِايستر بايلوس، هلَّا تفضَّلت بإحضار الطَّائر من المِغدفة[1] لتراه الليدي شيرين؟».

- «بكلِّ سرور». كان بايلوس شابًّا مهذَّبًا، لم يتجاوَز الخامسة والعشرين من العُمر، لكن شديد الوقار كرجلٍ في السِّتِّين. ليته فقط يتحلَّى بالمزيد من حِسِّ الدُّعابة، بالمزيد من الحياة، فذلك بالضَّبط ما يحتاجه هذا المكان. الأماكن الجهيمة في حاجةٍ إلى الخفَّة وليس الوقار، ودراجونستون بلا أدنى شَكٍّ مكان جهيم، قلعة وحيدة تقف في منتصَف هذا القَفر البليل، لا يُحيط بها غير الملح والعواصف، بينما يُلقي عليها الجبل الدَّاخن ظِلَّه من الوراء. على كلِّ مِايستر أن يذهب حيث أرسَلوه، وقد جاءَ كرسن إلى هنا مع سيِّده اللورد قبل اثني عشر عامًا، وقضى تلك الأعوام في الخدمة، وأبلى بلاءً حسنًا في خدمته، وإن كان لم يستطِع قَطُّ أن يُحِبَّ دراجونستون أو يَشعُر أنها بيته حقًّا. في الآونة الأخيرة كان كثيرًا ما يستيقظ من أحلامه المزعجة التي تُسيطِر عليها المرأة الحمراء، ليجد أنه لا يُدرِك أين هو.

أدارَ المهرِّج وجهه المرقَّع بالألوان ليُراقِب بايلوس وهو يصعد الدَّرجات الحديديَّة المنحدِرة إلى المِغدفة، فرنَّت الأجراس مع حركة رأسه، وقال: «تحت البحر الطُّيور تكسوها الحراشف بدلًا من الرِّيش. أعرفُ، أعرفُ، أوه، أوه، أوه».

حتى بالنِّسبة لمهرِّجٍ، كان ذو الوجه المرقَّع شيئًا مثيرًا للشَّفقة حقًّا، فلربما

(1) المِغدفة عبارة عن قفصٍ كبير بمثابة عُش لطيور الغُداف.

كان في الماضي يستطيع أن يُفَجِّر الضَّحكات بدُعابةٍ صغيرة، لكن البحر استلبَ منه هذه الموهبة، ومعها نِصف عقله وذاكرته كلها. كان بدينًا ضعيفًا وكثيرًا ما يُصيبه التشنُّج والرَّعشة، وفي أغلب الأحيان لا يُمكنك أن تستوعب شيئًا مما يقوله. الفتاة كانت الوحيدة التي يُضحِكها الآن، الوحيدة التي تعبأ بحياته أو موته.

فتاة صغيرة قبيحة ومهرِّج حزين، والمِايستر ثالثهم... حكاية كفيلة بإراقة دموع الرِّجال. أشارَ كرسن إليها بالاقتراب قائلًا: «اجلسي معي يا طفلتي. الوقت مبكِّرٌ للغاية على الزِّيارات. الفَجر طلعَ منذ قليلٍ فقط، ومن المفترَض أن تكوني متدثِّرةً في فِراشك».

قالت شيرين: «رأيتُ أحلامًا مخيفةً. كانت التَّنانين قادمةً لتأكلني».

كانت الصَّغيرة مبتلاةً بالكوابيس منذ فترةٍ أطول من أن يتذكَّرها كرسن، فقال لها بلهجةٍ لطيفة: «لقد تكلَّمنا عن هذا من قبل، الحياة لا يُمكن أن تَدُبَّ في التَّنانين لأنها منحوتة من الحجارة يا صغيرتي. في الماضي البعيد كانت جزيرتنا أقصى نُقطة مراقَبة غَربيَّة تابعة لمعقل ڤاليريا الحُر العظيم، والڤاليريُّون هُم من شيَّدوا القلعة، وكانت لديهم طُرق لتشكيل الحجارة لم نَعُد نُدرِكها. ينبغي في كلِّ قلعةٍ أن يُقام بُرج حيثما يلتقي سوران من أجل الدِّفاع عنها، وقد أقامَ الڤاليريُّون هذه الأبراج على شكل تنانين بغية أن يجعلوا قلعتهم تبدو مهيبةً أكثر، تمامًا كما توَّجوا الأسوار بألفٍ من الكراجل بدلًا من الميازيب التَّقليديَّة»، وأخذَ يدها الورديَّة الصَّغيرة في يده المبقَّعة الهشَّة واعتصرَها برقَّةٍ مضيفًا: «ليس هناك ما يستحقُّ الخوف إذن كما ترين».

قالت شيرين وقد بدا عليها عدم الاقتناع: «وماذا عن هذا الشَّيء في السَّماء؟ دالا وماتريس كانتا تتكلَّمان عند البئر، وقالت دالا إنها سمعَت المرأة الحمراء تقول لأمِّي إنها أنفاس التَّنانين. إذا كانت التَّنانين تتنفَّس، ألا يعني هذا أن الحياة تَدُبُّ فيها بالفعل؟».

قال المِايستر كرسن لنفسه بامتعاض: المرأة الحمراء. سيِّئٌ بما فيه الكفاية أنها ملأَت رأس الأمِّ بالجنون، أفيجب أن تُسَمِّم أحلام البنت كذلك؟ عليه أن

يُوَجِّه تحذيرًا صارمًا لدالا ويقول لها ألَّا تَنشُر تلك الحكايات. «الشَّيء الذي في السَّماء مذنَّب يا حُلوتي، نجم مذيَّل ضائع في الأعالي، وسيختفي عمَّا قريب ولن نراه في حياتنا هذه ثانيةً. سترين».

أجابَته شيرين بهزَّةٍ شُجاعة من رأسها، ثم قالت: «أمِّي تقول إن الغُداف الأبيض يعني أن الصَّيف انتهى».

– «هذا صحيح يا سيِّدتي، فالغِدفان البيضاء تأتي من قلعة البلدة القديمة فقط»، وتحسَّس كرسن السِّلسلة المحيطة بعُنقه، التي صُنِعَت كلُّ حلقةٍ فيها من معدنٍ مختلف يَرمُز إلى إتقانه لفرعٍ من فروع المعرفة. سلسلة المِايستر هي العلامة المميِّزة لجماعته، وكان كرسن يرتدي سلسلته في ريعان شبابه بمنتهى البساطة، أمَّا الآن فقد صارَت تُثقِل عُنقه وتُشعِره بملمسها البارد على جلده. «إنها أكبر حجمًا وأذكى من الغِدفان الأخرى، وتُرَبَّى على حمل أهمِّ الرَّسائل على الإطلاق. هذا الغُداف جاءَنا ليُعلِمنا بأن مجمع المِايسترات انعقدَ ودرسَ التَّقارير والقياسات التي قامَ بها كلُّ مِايستر في جميع أنحاء البلاد، وأعلنَ أن هذا الصَّيف العظيم قد انتهى أخيرًا بَعد أن دامَ عشرة أعوام ودورتين قمريَّتين وستَّة عشر يومًا؛ أطول صيفٍ في ذاكرة البَشر».

– «هل سيسود البَرد الآن؟». كانت شيرين من أطفال الصَّيف ولم تعرف معنى البَرد الحقيقي قَطُّ.

أجابَ كرسن: «مع الوقت، لكن قد تشاء الآلهة أن تُنعِم علينا بخَريفٍ دافئ ومحاصيل وفيرة كي نكون مستعدِّين للشِّتاء القادم». يقول العامَّة إن الصَّيف الطَّويل يعني مجيء شتاءٍ أطول، لكن المِايستر لم يرَ سببًا لإثارة خوف الطِّفلة بتلك الحكايات.

جلجلَ ذو الوجه المرقَّع أجراسه ودندنَ: «تحت البحر الصَّيف بلا نهاية، وتُزَيِّن عرائس البحر شَعرها بشقائق النُّعمان، وتغزل ثيابًا من الطُّحلب الفضِّي. أعرفُ، أعرفُ، أوه، أوه، أوه».

ضحكَت شيرين قائلةً: «أحبُّ أن أرتدي ثوبًا من الطُّحلب الفضِّي».

قال المهرِّج: «تحت البحر يَسقُط الثَّلج، والمطر جافٌّ كالعظام. أعرفُ أعرفُ، أوه، أوه، أوه».

سألته الصَّغيرة: «هل سيَسقُط الثَّلج حقًّا؟».

- «نعم»، قال كرسن. لكن ليس قبل سنوات كما أتمنَّى، وليس لوقتٍ طويل. «آه، ها هو پايلوس ومعه الطَّائر».

أطلقَت شيرين صيحةً فَرِحَةً، وحتى كرسن قال لنفسه إنه لا يستطيع إنكار جاذبيَّة الطَّائر الأبيض كالثَّلج والأكبر حجمًا من أيِّ صقر، بعينيه السَّوداوين اللَّامعتين اللتين تعنيان أنه ليس مجرَّد غُداف أمهق، بل غُداف أبيض أصيل من «القلعة». قال المِايستر: «إليَّ»، ففردَ الغُداف جناحيه ووثبَ ليُحَلِّق ويخفق بصوتٍ صاخب في هواء الغُرفة، قبل أن يَحُطَّ إلى جواره على المنضدة.

قال پايلوس: «سأذهبُ لإحضار إفطارك»، فأومأ كرسن برأسه ثم قال محدِّثًا الغُداف: «هذه هي الليدي شيرين». حرَّكَ الطائر رأسه ذا اللَّون الشَّاحب إلى أعلى وأسفل كأنه ينحني، ونعبَ: «ليدي! ليدي!».

فغرَت الصَّغيرة فاها وقالت مذهولةً: «إنه يتكلَّم!».

- «كلمات قليلة فقط. هذه الطُّيور ذكيَّة كما قلتُ».

عادَت أجراس ذي الوجه المرقَّع تُصدِر رنينها وهو يقول: «طائرٌ ذكي، رجلٌ ذكي، مهرِّجٌ ذكيٌّ ذكي. أوه، مهرِّجٌ ذكيٌّ ذكيٌّ ذكي»، ثم بدأ يترنَّم: «الظِّلال تأتي لترقُص يا سيِّدي، لترقُص يا سيِّدي، لترقُص يا سيِّدي»، وأخذَ يحجل من قدمٍ إلى أخرى مواصلًا: «الظِّلال تأتي لتبقى يا سيِّدي، لتبقى يا سيِّدي، لتبقى يا سيِّدي». كان يهزُّ رأسه بحركةٍ حادَّة مع كلِّ كلمة، لترتفع جلجلة الأجراس المدلَّاة من قرون الوعل وتتردَّد في المكان.

أطلقَ الغُداف صرخةً ووثبَ في الهواء خافقًا بجناحيه، ثم استقرَّ على السُّور الحديدي لسُلَّم المِغدفة، وبدا كأن حجم شيرين يتقلَّص وهي تقول بوجلٍ: «إنه يُرَدِّد هذه الأغنيَّة طول الوقت. قلتُ له أن يَكُفَّ عن غنائها لكنه يَرفُض. اجعله يتوقَّف. إنها تُخيفني».

تساءلَ العجوز في قرارة نفسه: وأنَّى لي أن أفعل ذلك؟ في الماضي كان يُمكنني أن أُسكِته إلى الأبد، لكن الآن...

لقد جاءهم ذو الوجه المرقَّع وهو صبيٌّ صغير. كان طيِّب الذِّكر اللورد

ستفون قد عثرَ عليه في ڤولانتيس على الجانب الآخَر من البحر الضيِّق، بَعد أن أرسَله الملك -الملك القديم، إيرس تارجاريَن الثَّاني، الذي لم يكن مجنونًا إلى هذا الحَدِّ حينئذٍ- للبحث عن عروسٍ للأمير ريجار الذي كان بلا أختٍ يتزوَّجها، وقبل أسبوعين من عودته من مهمَّته صُفر اليدين، كتبَ حضرة اللورد إلى كرسن قائلًا: «عثرنا على مهرِّج رائع. إنه مجرَّد صبي، لكنه رشيق كالقرود وخفيف الظِّل كدستةٍ كاملة من رجال الحاشية، ويُجيد ألعاب الحواة والأحاجي والحيل السِّحريَّة، كما يُغَنِّي بصوتٍ عذبٍ بأربع لُغات. لقد اشترينا حُريتَّه ونأمل أن نعود به معنا. سيسعد روبرت به كثيرًا، ولربما يُعَلِّم ستانيس كيف يضحك مع مرور الوقت كذلك».

شعرَ كرسن بالحُزن لمَّا تذكَّر تلك الرِّسالة، فستانيس لم يتعلَّم الضَّحك من أحدٍ قَطُّ، وبالذَّات من هذا الصَّبي ذي الوجه المرقَّع. العاصفة هبَّت على حين غرَّةٍ وارتفعَ عُواؤها المدوِّي، وأثبتَ خليج السُّفن الغارقة أنه اسم على مسمَّى، عندما تحطَّمت سفينة اللورد ذات السَّاريتين المسمَّاة «الرِّيح الفخور» على مرأى من قلعته التي وقفَ ولداه الكبيران على أسوارها، ليشهدا سفينة أبيهما وهي تتهشَّم على الصُّخور قبل أن تبتلعها المياه. مئة من البحَّارة والمجذِّفين غرقوا مع اللورد ستفون باراثيون والسيِّدة زوجته يومها، وبَعدها ظَلَّ المَدُّ أيامًا يُلقي مجموعاتٍ جديدة من الجُثث المنتفخة على الشَّريط السَّاحلي تحت قلعة ستورمز إند.

جرفَت المياه الصَّبي إلى الشَّاطئ في اليوم الثَّالث. كان المِايستر كرسن قد نزلَ مع بقيَّة الرِّجال ليُساعِد في التعرُّف على الجُثث، وعندما عثروا على المهرِّج كان عاريًا وقد التصقَت الرِّمال المبتلَّة بجلده الأبيض المجعَّد. في البدء حسبَه كرسن جثَّةً أخرى، لكن عندما أمسكَه چومي من كاحليه ليَجُرَّه إلى عربة الموتى، سعلَ الصَّبي الماء الذي امتلأ به صدره واعتدلَ جالسًا؛ وحتى فارقَ چومي الحياة كان يُقسِم أن جسد ذي الوجه المرقَّع كان باردًا رطبًا تمامًا.

لم يستطِع أحد قَطُّ تفسير ما حدثَ خلال هذين اليومين اللذين قضاهما

المهرِّج ضائعًا في البحر، وإن راقَ الصيَّادين أن يقولوا إن حوريَّة بحرٍ علَّمته كيف يتنفَّس تحت الماء مقابل أن يضع فيها نُطفته، أمَّا ذو الوجه المرقَّع نفسه فلم يقل شيئًا على الإطلاق، فالصَّبي اللَّمَّاح خفيف الظِّل الذي كتبَ عنه اللورد ستفون لم يَبلُغ ستورمز إند حقًّا، ومن عثروا عليه كان شخصًا آخَر عليل الجسد والعقل في آنٍ واحد، بالكاد يقدر على الكلام ناهيك عن إبداء خفَّة الظِّل. غير أن وجهه لم يدع مجالًا للشَّكِّ في هويَّته، فمن دأب أهل مدينة ڤولانتيس الحُرَّة أن يَدُقُّوا الأوشام على وجوه العبيد والخدم، ومن عُنقه إلى فروة رأسه كان الصَّبي موشومًا بمربَّعاتٍ من الأخضر والأحمر.

- «الصَّبي البائس فقدَ عقله، ويتألَّم، وعديم الجدوى لأيِّ أحد، خصوصًا نفسه»، قال السير هاربرت العجوز، الذي كان أمين قلعة ستورمز إند في تلك السَّنوات. «أرحم ما يُمكن فِعله معه، أن تملأ كأسه بحليب الخشخاش[1] وتسقيه إياه. سيغيب في نوم بلا ألم حتى تأتي النِّهاية. كان ليدعو لك بالبركة من أجل هذا لو كان لا يزال محتفظًا بعقله». لكن كرسن رفضَ، وفازَ في النِّهاية، مع أنه حتى اليوم وبَعد مرور كلِّ تلك السِّنين ما زال يجهل إن كانت بهجة ذلك الانتصار قد طالَت ذا الوجه المرقَّع بشكلٍ أو بآخَر.

- «الظِّلال تأتي لتَرقُص يا سيِّدي، لتَرقُص يا سيِّدي، لتَرقُص يا سيِّدي»، ترنَّم المهرِّج مؤرجحًا رأسه لترنَّ أجراسه وتُصَلصِل، بونج دونج، رينجا-لينج، بونج دونج، بينما صرخَ الغُداف الأبيض: «سيِّدي! سيِّدي! سيِّدي! سيِّدي!».

قال المِايستر للأميرة الخائفة: «المهرِّج يُغَنِّي ما يُغَنِّيه، لكن لا ينبغي أن تأخذي كلماته على محمل الجد. قد يتذكَّر أغنيَّةً أخرى غدًا فلا تسمعي هذه ثانيةً أبدًا». يُغَنِّي بصوتٍ عذبٍ بأربع لُغات، قال اللورد ستفون في رسالته...

دلفَ پايلوس إلى الغُرفة قائلًا: «أستميحك عذرًا أيها المِايستر».

قال كرسن مبتسمًا: «أرى أنك نسيت الثَّريد». لم يكن هذا من عادة پايلوس على الإطلاق.

(1) حليب الخشخاش مشروب حقيقي مخدِّر ومسكِّن للألم.

- «لقد عادَ السير داڤوس ليلة أمس أيها المِايستر. كانوا يتكلَّمون عنه في المطبخ، وخطرَ لي أنك ستُريد أن تعرف على الفور».

- «داڤوس... تقول ليلة أمس؟ أينِ هو؟».

- «مع الملك. لقد أمضى معظم اللَّيل في صُحبته».

في زمنٍ سابق كان اللورد ستانيس ليُوقِظه من نومه مهما تأخَّرت السَّاعة، كي يكون حاضرًا معه ويُعطيه المشورة. قال كرسن مستاءً: «كان ينبغي أن تُوقِظوني»، وحَلَّ أصابعه من أصابع شيرين قائلًا: «معذرةً يا سيِّدتي، لكن يجب أن أتكلَّم مع السيِّد والدكِ. ناوِلني ذراعك يا پايلوس. هذه القلعة مليئة بالسَّلالم، ويبدو لي أنهم يُضيفون المزيد منها كلَّ ليلة على سبيل إغاظتي لا أكثر».

تبعَتهما شيرين وذو الوجه المرقَّع إلى الخارج، لكن سرعان ما أصيبَت الصَّغيرة بالضَّجر من خطوات العجوز الأقرب إلى الزَّحف، واندفعَت تتجاوَزهما والمهرِّج يتمايَل وراءها وقد أخذَت أجراس الأبقار المعلَّقة على رأسه ترنُّ بدويٍّ مجنون.

ذكَّره نزول سلالم بُرج «تنِّين البحر» المستديرة بأن القلاع ليست بالأماكن التي تُعامِل الواهنين بلُطفٍ بالمرَّة. لا بُدَّ أنه سيجد اللورد ستانيس في قاعة «المائدة المرسومة» الواقعة في أعلى «الطَّبلة الحجريَّة»، الحصن المشيَّد في مركز دراجونستون الذي اكتسبَ اسمه من الطريقة التي تُرَدِّد بها جدرانه العتيقة أصوات الهدير والهزيم عندما تحتدم العواصف. كي يصلا إليه، عليهما أن يَعبُرا الرُّواق ويَمُرَّا عبر الأسوار الوُسطى والدَّاخليَّة التي تَحرُسها الكراجل وتستقرُّ فيها البوَّابات الحديديَّة السَّوداء، ثم يصعدا عددًا آخَر من السَّلالم لا يرغب كرسن في أن يُفكِّر فيه. الشَّباب يصعدون السَّلالم درجتين درجتين، أمَّا بالنِّسبة للمسنِّين ذوي الأوراك الهشَّة فكلُّ درجةٍ عذاب. على الأقل پايلوس معه ليُساعِده على الحركة، وهو ممتنٌّ لهذا.

مَرَّا في مشيتهما البطيئة في الرُّواق بصَفٍّ من النَّوافذ المُقَنْطَرَة الطَّويلة التي تُطِلُّ على الفِناء الدَّاخلي والحائط السَّاتر ومن ورائه قريَّة الصيَّادين.

في السَّاحة كان الرُّماة يُطلِقون سهامهم على أهداف التَّدريب مع نداء «ثبِّت، اسحَب، أطلِق»، لتُصدِر السِّهام صوتًا كسرب من الطُّيور يثبُ محلِّقًا في الهواء، بينما تحرَّك الحرَّاس فوق الأسوار جيئةً وذهابًا ناظرين من بين الكراجل إلى الجيش المعسكِر في الخارج. كان هواء الصُّبح ملبَّدًا بالدُّخان المتصاعد من نيران الطَّهي المنتشرة في كلِّ مكان، إذ جلسَ ثلاثة آلاف رجل ليتناوَلوا طعام الإفطار تحت رايات لورداتهم، ووراء المعسكر الممتد ازدحمَ المرفأ بالسُّفن، حيث لم يُسمَح ولو لقارب واحدٍ ظهرَ على مرأى من دراجونستون خلال نِصف العام المنصرم بالمغادَرة ثانيةً، حتى كادَ قادس[1] اللورد ستانيس ذو الثَّلاثة مستويات والثَّلاثمئة مجذاف المسمَّى «الثَّورة» يبدو أصغر حجمًا بالمقارَنة ببعض القراقير[2] والأكواج[3] الأخرى ذات البطون الكبيرة التي أحاطَت به.

تعرَّف الحرَّاس الواقفون خارج «الطَّبلة الحجريَّة» المِايسترين في الحال وسمحوا لهما بالدُّخول، وفي الدَّاخل قال كرسن لپايلوس: «انتظِر هنا، من الأفضل أن أراه بمفردي».

- «لكن هناك الكثير من الدَّرجات أيها المِايستر».

ابتسمَ كرسن وقال: «هل تحسبني نسيت؟ لقد صعدتُ هذه الدَّرجات كثيرًا جدًّا لدرجة أني أعرفُ اسم كلٍّ منها».

على أنه شعرَ بالنَّدم على قراره هذا في منتصَف الطَّريق إلى أعلى، فتوقَّف ليلتقط أنفاسه ويريح وَركه من الألم بعض الشَّيء، قبل أن يسمع صوت احتكاك الحذاء الجِلدي بالحجر قادمًا من أعلى ويرى السير داڤوس سيوورث أمامه مباشرةً.

---

(1) القادس نوع من السُّفن المزوَّدة بمجاذيف، يتميَّز ببدنه الطَّويل الرَّفيع، والقدرة على الملاحة في الظُّروف غير المواتية، واستُخدِم في الحرب والتِّجارة والقرصنة.

(2) القرقور سفينة ضخمة تحمل آلات الحرب والمؤن والعتاد، وتتَّسع لعددٍ كبير من المجذفين والبحَّارة.

(3) الكوج سفينة صغيرة الحجم لها شراع واحد مربَّع، وتُبنى عادةً من خشب البلُّوط.

كان داڤوس رجلًا نحيلًا، طُبِعَ نَسبه الوضيع على ملامحه التَّقليديَّة بمنتهى الوضوحِ ووخطَ الشَّيب لحيته القصيرة، يضع على كتفيه الهزيلتين معطفًا أخضر رَثًّا وسَّخه الملح ورذاذ البحر ولوَّحت الشَّمس لونه، ويرتدي من تحته سُترةً وسراويل بُنيَّيْن كشَعره وعينيه، وقد تدلَّى على صدره جراب من الجِلد البالي معلَّق في شريط يُحيط بعُنقه، وغطَّى قُفَّاز جِلدي يده اليُسرى المجدوعة.

توقَّف الرَّجل عندما رأى كرسن، وقال المِايستر: «سير داڤوس، متى عُدت؟».

- «قبل أن يُنير النَّهار، ساعتي المفضَّلة». يُقال إن لا أحد يملك نِصف مهارة داڤوس ذي اليد القصيرة في التحكُّم في المراكب ليلًا، وقبل أن يُنَصِّبه اللورد ستانيس فارسًا كان أشهر المهرِّبين في الممالك السَّبع كلها وأكثرهم مراوَغةً وتضليلًا.

- «إذن؟».

هَزَّ الرَّجل رأسه وقال: «كما حذَّرته، إنهم لن يقوموا أيها المِايستر، ليس من أجله. إنهم لا يُحِبُّونه».

قال كرسن لنفسه: نعم، لا يُحِبُّونه، ولن يفعلوا أبدًا. إنه قويٌّ وقدير وعادل... نعم، عادلٌ أكثر مما تقتضي الحكمة... لكن هذا لا يكفي، ولم يكن كافيًا قَطُّ. «هل تكلَّمت معهم كلهم؟».

- «كلهم؟ لا، مع من وافَقوا على مُقابَلتي فقط. علية القوم هؤلاء لا يُكِنُّون لي أيَّ حُبٍّ أنا الآخَر، وبالنِّسبة لهم سأظلُّ فارس البصل دائمًا»، قالها وكوَّر قبضته اليُسرى ذات الأصابع القصيرة، التي كان اللورد ستانيس قد بترَ أطرافها كلها عند المَفصِل الأخير باستثناء الإبهام. «تناولتُ الطَّعام مع چوليان سوان وپنروز العجوز، بينما وافقَ آل تارث على مقابَلةٍ في منتصَف اللَّيل في بُستان، أمَّا بقيَّتهم... بريك دونداريون مفقود ويقول البعض إنه قُتِلَ، واللورد كارون مع رنلي، برايس كارون البرتقالي رجل حَرس قوس قزح».

- «حَرس قوس قزح؟».

أجابَ المهرِّب السَّابق: «رنلي كوَّن حَرسه الملكي الخاص، لكن هؤلاء السَّبعة لا يرتدون الأبيض، وكلٌّ منهم يرتدي لونًا يختلف عن الآخَر. لوراس تايرل يقودهم».

فكرةٌ كتلك من شأنها أن تستهوي رنلي باراثيون حقًّا؛ نظام جديد مبهر للفروسيَّة مزوَّد بكُسوةٍ جديدة فاخرة تُجاهِر به. حتى في صباه كان رنلي يُحِبُّ الألوان الزَّاهية والأقمشة الفاخرة، ويُحِبُّ الألعاب كذلك، فكان يجري في أروقة ستورمز إند يضحك ويصيح: «انظُروا إليَّ، انظُروا إليَّ، أنا تنِّين»، أو «انظُروا إليَّ، أنا ساحر»، أو «انظُروا إليَّ، انظُروا إليَّ، أنا إله المطر». الصَّبي الصَّغير الجريء ذو الشَّعر الأسود الثَّائر والعينين الضَّاحكتين أصبحَ رجلًا ناضجًا الآن، في الحادية والعشرين من العُمر ولا يزال يلعب. انظُروا إليَّ، أنا ملك، فكَّر كرسن مغتمًّا، آهٍ يا رنلي، رنلي يا صغيري الغالي الجميل، هل تُدرِك ما تفعله؟ وهل ستُبالي إذا أدرَكت؟ وهل هناك من يهتمُّ بك سواي؟ ثم إنه سألَ السير داڤوس: «وما الأسباب التي أعطاك اللوردات إياها لرفضهم؟».

- «آه، بالنِّسبة لهذا، بعضهم رَدَّ عليَّ بكلماتٍ ناعمة أو فظَّة، والبعض الآخَر اختلقَ أعذارًا أو أعطى وعودًا أو اكتفى بالكذب لا أكثر»، وهَزَّ كتفيه مضيفًا: «الكلام مجرَّد قبضُ ريح في النِّهاية».

- «ألم تستطِع أن تأتي إليه بأيِّ أمل؟».

أجابَ داڤوس: «الأمل الكاذب فقط، وأنا لا أفعلُ هذا. لقد أخبَرته بالحقيقة كاملةً».

تذكَّر المِايستر كرسن اليوم الذي نُصِّبَ فيه داڤوس فارسًا بَعد حصار ستورمز إند. كان اللورد ستانيس قد دافعَ عن القلعة مع رجال حاميته الصَّغيرة لما يَقرُب من عام كاملٍ ضدَّ جيش اللوردين ردواين وتايرل العرمرم، وحتى البحر كان مغلَقًا أمامهم وقوادس ردواين الحربيَّة تُراقِبه ليل نهار وقد ارتفعَت عليها رايات «الكرمة» ذات اللَّون الخمري. داخل ستورمز إند نفسها كانت الخيول قد أُكِلَت منذ فترةٍ طويلةٍ بالفعل، وكذلك القِطط والكلاب، ولم يتبقَّ من طعامٍ لرجال الحامية غير الجذور والجرذان. ثم جاءَت ليلة كان القمر

فيها محاقًا وتوارَت النُّجوم وراء السُّحب السَّوداء، ليلة تحدَّى فيها داڤوس المهرِّب حصار ردواين البحري وصخور خليج السُّفن الغارقة على حَدٍّ سواء. كانت سفينته الصَّغيرة سوداء البدن والأشرعة والمجاذيف، وعلى متنها حمولة مكدَّسة من البصل والسَّمك المملَّح، كمِّيَّة صغيرة لكنها كانت كافيةً لإبقاء رجال الحامية على قيد الحياة حتى بلغَ إدارد ستارك ستورمز إند أخيرًا ليكسر الحصار.

كافأَ اللورد ستانيس داڤوس بأراضٍ ممتازة وحصنٍ صغير في «رأس الغضب» وكرَّمه كفارس... لكنه قضى كذلك أن يفقد مَفصِلًا من كلِّ إصبعٍ في يده اليُسرى عوضًا عن السِّنين التي أمضاها في التَّهريب. أذعنَ داڤوس، بشرط أن يُنَفِّذ ستانيس الحُكم بنفسه، فلم يقبل أن يتلقَّى العقاب على يد شخصٍ أقلَّ منزلةً، وهكذا استخدمَ اللورد ساطور جزَّار لتكون ضربته نظيفةً مُحكَمَةً. اختارَ داڤوس بَعدها اسم سيوورث لعائلته الجديدة، واتَّخذ لرايته سفينةً سوداء على خلفيَّةٍ رماديَّةٍ باهتة، ورسمَ على الأشرعة بصلة. كان المهرِّب السَّابق مغرمًا بترديد أن اللورد ستانيس أسدى له خدمةً عندما قلَّل عدد الأظفار التي ينبغي عليه تنظيفها وتشذيبها.

لا، رجلٌ كهذا لن يُعطيك أملًا كاذبًا أبدًا، أو يُهَوِّن قسوة الحقيقة. «سير داڤوس، من شأن الحقيقة أن تكون مُرَّة الابتلاع أحيانًا، حتى بالنِّسبة لرجلٍ مِثل اللورد ستانيس. إنه لا يُفَكِّر إلَّا في العودة إلى كينجز لاندنج بكامل قوَّته، لينتزع السُّلطة من أعدائه ويستحوذ على ما هو له شرعًا، إنما الآن...».

- «إذا قادَ هذا الحشد الصَّغير إلى كينجز لاندنج، فهو ذاهبٌ إلى حتفه. إنه لا يملك أعدادًا كافية، ولقد قلتُ له هذا، لكنك تعرف كبرياءه»، ورفعَ داڤوس يده المغطَّاة بالقُفَّاز مُردِفًا: «ستَنبُت أصابعي مرَّةً أخرى قبل أن يُصغي هذا الرَّجل لصوت العقل».

تنهَّد العجوز وقال: «لقد فعلت كلَّ ما في وسعك، والآن عليَّ أن أضمَّ صوتي إلى صوتك»، وعادَ يصعد السَّلالم بخطواتٍ متعَبة.

كان مقرُّ اللورد ستانيس باراثيون عبارةً عن قاعةٍ مستديرةٍ فسيحة ذات

جدران من الحجر الأسود غير المطلي، وأربع نوافذ مرتفعة ضيِّقة يُطِلُّ كلٌّ منها على إحدى جهات البوصلة الأربعة، وفي منتصَف القاعة كانت المائدة الضَّخمة التي استمدَّت اسمها منها، اللَّوح هائل الحجم المنحوت من الخشب، الذي صُمِّمَ وصُنِعَ بأمرٍ من إجون تارجاريَن قبل غزوته. بلغَت المائدة المرسومة أكثر من خمسين قدمًا طولًا، وربما نِصف هذا الرَّقم عرضًا في أعرض أجزائها، لكن أقلَّ من أربعة أقدام في أضيق جزء، وكان نجَّارو إجون قد جعلوها على شكل أراضي وستروس، مُشَكِّلين كلَّ خليجٍ وشِبه جزيرةٍ بمناشيرهم حتى لم تَعُد هناك أيُّ خطوطٍ مستقيمة في المائدة على الإطلاق، وعلى السَّطح رُسِمَت خريطة الممالك السَّبع كما كانت في أيام إجون، الأنهار والجبال، المُدن والقلاع، البُحيرات والغابات؛ كلها اكتسبَ لونًا قاتمًا بَعد ما يَقرُب من ثلاثمئة عام من المعالَجة بالورنيش.

مقعد واحد لا أكثر كان في القاعة، موضوعًا بعنايةٍ عند المكان الذي تحتلُّه دراجونستون على ساحل وستروس على الخريطة، ومرفوعًا بما يكفي لإعطاء الجالس نظرةً شاملةً على سطح المائدة، وعلى المقعد جلس رجل يرتدي سُترةً طويلةً ضيِّقةً من الجِلد وسراويل من الصُّوف البُنِّي الخشن. رفعَ الرَّجل ناظريه عندما دلفَ المِايستر كرسن إلى القاعة، وقال: «كنتُ أعرفُ أنك ستأتي أيها العجوز، سواء استدعَيتك أم لا». كانت هناك لمحة من الدِّفء في صوته، وهذا شيء نادر الحدوث.

كان ستانيس باراثيون -سيِّد دراجونستون، وببَركة الآلهة الوريث الشَّرعي لعرش ممالك وستروس السَّبع الحديدي- رجلًا عريض الكتفين ناحل الأطراف، لوجهه وبَشرته شَدَّةٌ كالجِلد الذي قدَّدته الشَّمس حتى أصبحَ بقسوة الفولاذ. «صُلب» هي الكلمة التي يستخدمها النَّاس عند الكلام عن ستانيس، وصُلبًا كان حقًّا، وعلى الرغم من أنه لم يَبلُغ من العُمر الخامسة والثَّلاثين بعدُ، فلم يتبقَّ على رأسه غير النَّزر اليسير من الشَّعر الأسود الخفيف الذي يدور وراء أُذنيه كظِلٍّ لتاج. كان أخوه، الملك الرَّاحل روبرت، قد أطلقَ لحيته في سنواته الأخيرة، تلك اللِّحية التي لم يرَها المِايستر كرسن قَطُّ، لكنهم

قالوا إنها كانت كثَّةً ثائرةً تُثير الرَّهبة في النَّاظرين. وكأنه رَدٌّ من ناحيته، حافظَ ستانيسٍ على شَعر لحيته قصيرًا مشذَّبًا، لينتظم كظِلٍّ أزرق ضارب إلى السَّواد عبر فَكِّه المربَّع ووجنتيه الغائرتين. عيناه جُرحان مفتوحان أسفل حاجبيه الكثيفين، زُرقتهما داكنة كالبحر تحت سماء اللَّيل، وفمه قمين بإلقاء أكثر المهرِّجين طرافةً في هوَّة اليأس، فَمٌ مخلوقٌ للعبوسِ والزَّمِّ وتوجيه الأوامر الصَّارمة، ذو شفتين رفيعتين شاحبتين وعضلات فَكٍّ مشدودة كالأوتار، فَمٌ نسيَ كيف يبتسم ولم يعرف معنى الضَّحك قَطُّ. أحيانًا عندما يُهَيمِن الصَّمت والسُّكون على العالم في جوف اللَّيل، كان المِايستر كرسن يتخيَّل أنه يسمع اللورد ستانيس يَصِرُّ بأسنانه في الجانب الآخَر من القلعة.

قال العجوز: «في وقتٍ سابق كنت لتُوقِظني».

- «في وقتٍ سابق كنت شابًّا، أمَّا الآن فأنت عجوز مريض وتحتاج إلى النَّوم». لم يتعلَّم ستانيس قَطُّ أن يُزَوِّق كلماته أو يُرائي ويتملَّق. إنه يقول ما يُفَكِّر فيه دائمًا، وليذهب إلى الجحيم من لا يروقه هذا. «كنتُ أعرفُ أنك ستعلم بما قاله داڤوس سريعًا. هذا دأبك دائمًا، أليس كذلك؟».

قال كرسن: «لن أقدر على تقديم المساعَدة لك إذا لم أفعل. لقد قابلتُ داڤوس على السَّلالم».

- «وأعتقدُ أنه أخبرَك بكلِّ شيء. كان يَجدُر بي أن أُقَصِّر لسانه مع أصابعه».

- «لم يكن ليَصلُح مندوبًا عنك إذن».

- «كان مندوبًا فقير النَّفع في كلِّ الأحوال. لوردات أراضي العواصف لن يقوموا من أجلي، فيبدو أنهم لا يُحِبُّونني، وعدالة دعواي لا تعني شيئًا لهم. سيجلس الجُبناء منهم وراء أسوارهم لينتظروا ويروا في أيِّ اتِّجاهٍ تَهُبُّ الرِّيح ولمن يلوح النَّصر، والشُّجعان أعلَنوا بالفعل تأييدهم رنلي... رنلي!». لفظَ الاسم كأنه يَبصُق سُمًّا من على لسانه.

- «أخوك كان سيِّد ستورمز إند طول الثَّلاث عشرة سنة الماضية، وهؤلاء اللوردات هُم حمَلة رايته الذين أقسَموا له على الولاء، و...».

قاطعَه ستانيس: «حمَلة رايته والعدل أن يحملوا رايتي أنا. إنني لم أطلب

دراجونستون ولم أرغب فيها قَطُّ، لكني أخذتها لأن أعداء روبرت كانوا هنا وقد أمرَني باقتلاعهم. لقد بنيتُ أسطوله وقمتُ بعمله بطاعة الأخ الصَّغير لأخيه الكبير، الطَّاعة التي ينبغي أن يدين لي بها رنلي. وكيف يَشكُرني روبرت بَعد كلِّ هذا؟ يُسَمِّيني سيِّد دراجونستون ويُعطي ستورمز إند ودخولها لرنلي. ستورمز إند تنتمي لعائلة باراثيون منذ ثلاثمئة عام، وشرعًا كان يجب أن تكون من نصيبي عندما أخذَ روبرت العرش الحديدي».

كانت مَظْلِمَةً قديمةً يُعاني منها ستانيس في أعماقه، الآن أكثر من أيِّ وقتٍ سابق. هذا هو صميم نُقطة ضَعف سيِّده، فدراجونستون على الرغم من قِدمها وقوَّتها لا تحظى إلَّا بولاء حفنةٍ من اللوردات الأقلِّ شأنًا، وأراضي جُزرهم الحجريَّة غير مأهولةٍ بما يكفي من السُّكَّان لمَدِّ ستانيس بالرِّجال الذين يحتاجهم. حتى في وجود المرتزِقة الذين جاءَ بهم عبر البحر الضيِّق من مدينتي مير ولِيس الحُرَّتين، كان الجيش المخيِّم خارج الأسوار أصغر بكثير من أن يستطيع إسقاط آل لانستر بكلِّ قوَّتهم.

رَدَّ المِايستر كرسن بحذر: «روبرت ظلمَك حقًّا، وإن كانت لديه أسبابه، فدراجونستون ظلَّت زمنًا طويلًا معقلًا لعائلة تارجاريَن، وأخوك احتاجَ رجلًا قويًّا ليَحكُم هنا، بينما كان رَنلي مجرَّد طفل».

قال ستانيس بصوتٍ تردَّدت نبرته الغاضبة في أرجاء القاعة الخاوية: «ولا يزال طفلًا، طفلًا سارقًا يصبو إلى اختطاف التَّاج من فوق رأسي. ماذا فعلَ رنلي بالضَّبط كي يستحقَّ العرش غير حضور جلسات المجلس لتبادُل الدُّعابات مع الإصبع الصَّغير، وعندما تُقام المباريات يرتدي دِرعه الفاخرة ويسمح لنفسه بأن يُسقِطه رجال أفضل منه عن حصانه. هذا هو مبلغ أخي رنلي وقَدره، ويحسب أنه يجب أن يكون ملكًا. قُل لي، لماذا ابتلَتني الآلهة بهذين الأخوين؟».

- «لا أستطيعُ الإجابة نيابةً عن الآلهة».

- «يبدو لي أنك نادرًا ما تُجيب عن أيِّ شيءٍ هذه الأيام. مَن المِايستر الذي يستعين به رنلي؟ لعلَّ من الأفضل أن أُرسِل لأستدعيه، فقد تروقني مشورته

أكثر. ما الذي قاله هذا المِايستر في رأيك عندما قرَّر أخي أن يسرق تاجي؟ ما المشورة التي قدَّمها زميلك للحمي ودمي الخائن؟».

- «سأندهشُ لو أن اللورد رنلي طلبَ المشورة أصلًا يا جلالة الملك».

أصغر أبناء اللورد ستفون باراثيون كبرَ وصارَ رجلًا جريئًا لكن طائش، يُحَرِّك الاندفاع تصرُّفاته بدلًا من التَّدبير، وفي هذا -كما في أشياءَ أخرى كثيرة- كان رنلي يُشبِه أخاه روبرت، وفي الآن نفسه على النَّقيض تمامًا من ستانيس.

- «جلالة الملك»، ردَّد ستانيس بمرارة. «تُلَقِّبني بالملك سخريةً، لكن ملك على أيِّ شيءٍ أنا؟ دراجونستون وبضع صخورٍ أخرى في البحر الضيِّق، تلك هي مملكتي»، ونزلَ سلالم مقعده ليقف أمام المائدة فيَسقُط ظِلُّه على مَصَبِّ النَّهر الأسود والغابة المرسومة التي تحتلُّ كينجز لاندنج مكانها الآن. هناك وقفَ مُسَدِّدًا النَّظرات العابسة إلى المملكة التي يسعى إلى الظَّفر بها، قريبة في متناوَل اليد، وبعيدة إلى أقصى حَد. «اللَّيلة سأتناولُ العَشاء مع اللوردات حمَلة رايتي، إن جازَ أن أعتبرهم هكذا. سلتيجار، ڤيلاريون، بار إمون، كلُّ هؤلاء التَّافهين. ذلك القُرصان اللايسيني سالادور سان سيكون حاضرًا كذلك ومعه آخِر كشف حسابٍ بما أدين به له، أمَّا مورروش عريس البحر فسيُحَذِّرني من حالات المَدِّ والجَزر وعواصف الخَريف، بينما سيُهَمهِم اللورد صنجلاس ببضع كلماتٍ وَرِعَة عن مشيئة «السَّبعة»، ويُبدي سلتيجار رغبته في أن يعرف مَن سينضمُّ إلينا مِن لوردات أراضي العواصف، ويُهَدِّدني ڤيلاريون بأن يأخذ جنوده ويعود إلى دياره ما لم نضرب في الحال. ماذا أقولُ لهم؟ ماذا أفعلُ الآن؟».

أجابَ المِايستر كرسن: «آل لانستر هُم أعداؤك الحقيقيُّون يا سيِّدي، فإذا تحالَفت مع أخيك ضدهم...».

قاطَعه ستانيس بلهجةٍ لا تحتمل النِّقاش: «لن أتفاوَض مع رنلي أبدًا ما دامَ يُسَمِّي نفسه ملكًا».

قال المِايستر باستسلام: «ليس رنلي إذن». كان سيِّده بالِغ العناد والترفُّع، وعندما يعزم على أمرٍ ما فلا سبيل لتغيير رأيه. «ثمَّة آخَرون يُمكنهم أن

يدعموك في مسعاك. لقد أُعلِن ابن اللورد إدارد ستارك ملكًا في الشَّمال، ووراءه قوَّة وينترفل وريفررَن كلها».

قال ستانيس: «صبيٌّ أخضر، وملك زائف آخَر. هل من المفترَض أن أقبل مملكةً ناقصةً؟».

- «مؤكَّد أن نِصف مملكةٍ خيرٌ من لا مملكة على الإطلاق، وإذا ساعدت الصَّبي على الانتقام لمقتل أبيه، فـ...».

- «ولماذا أنتقمُ لإدارد ستارك؟ إنه لم يعنِ لي شيئًا. أوه، لن أنكرَ أن روبرت أحبَّه حقًّا، أحبَّه كأخ له، فكم مرَّةً سمعتُ أنا هذه الكلمة؟ ند ستارك لم يكن أخا روبرت، وإنما أنا، لكنك لم تكن لتعرف الفارق من الطَّريقة التي عامَلني بها. لقد دافعتُ عن ستورمز إند وحافظتُ عليها من أجله، وشاهدتُ رجالًا صالحين يتضوَّرون جوعًا بينما أقامَ مايس تايرل وپاكستر ردواين الولائم خارج أسواري، فهل شكرَني روبرت؟ لا، بل شكرَ ستارك لأنه رفعَ الحصار عندما لم يَعُد لدينا من طعام غير الجرذان والفجل. لقد بنيتُ أسطولًا بأمرٍ من روبرت وأخذتُ دراجونستون باسمه، فهل ربَّت على يدي وقال: أحسنت يا أخي، ماذا كنتُ لأفعلُ من دونك؟ لا، بل لامَني على السَّماح لويلم داري بتهريب ڤسيرس وشقيقته الرَّضيعة، كأن مَنْعه كان في إمكاني. لقد جلستُ في مجلسه طيلة خمسة عشر عامًا، وساعدتُ چون آرن على حُكم المملكة بينما يسكر روبرت ويُعاشِر البغايا، فهل نصَّبني أخي يدًا للملك عندما ماتَ چون؟ لا، بل هرعَ إلى صديقه الغالي ند ستارك وعرضَ عليه هذا الشَّرف، وانظُر إلى ما آلَ إليه كلاهما».

قال المِايستر كرسن برِفق: «ليكن يا سيِّدي، لقد تعرَّضت لإجحافٍ عظيم بالفعل، لكن الماضي واراه التُّراب، بينما ما زال في مقدورك أن تكسب المستقبَل إذا تحالفت مع آل ستارك. هناك آخَرون يُمكنك أن تجسَّ نبضهم كذلك. ماذا عن الليدي آرن؟ لو أن الملكة قتلَت زوجها حقًّا، فلا بُدَّ أنها ترغب في العدالة. إن لديها ابنًا صغيرًا، وريث چون آرن، فإذا خطبت شيرين له...».

بترَ ستانيس كلامه قائلًا باعتراض: «الصَّبي ضعيف وسقيم، وأبوه نفسه كان يرى هذا عندما طلبَ مني أن أربِّيه في دراجونستون. كان ليتنفع من الخدمة كمُرافِق لفارس، لكن ابنة لانستر الملعونة سمَّمت اللورد آرن قبل أن نفعل هذا، والآن تُخَبِّئه لايسا في «العُش». أؤكِّدُ لك أنها لن تسمح بأن يفترق الصَّبي عنها أبدًا».

قال المِايستر بإلحاح: «فلترسِل شيرين إلى «العُش» إذن. دراجونستون بيت شديد الكآبة بالنِّسبة لطفلة. دَع مهرِّجها يذهب معها، كي يكون بمثابة وجهٍ مألوف».

قطَّب ستانيس جبينه مفكِّرًا وقال: «مألوف ودميم... ومع ذلك قد يستحقُّ الأمر المحاوَلة».

تدخَّل صوت امرأةٍ في حوارهما قائلًا بحدَّة: «أينبغي أن يتسوَّل سيِّد الممالك السَّبع الشَّرعي المساعَدة من الأرامل والغاصِبين؟».

التفتَ المِايستر كرسن وحنى رأسه شاعرًا بالضِّيق من أنه لم يسمعها تَدخُل، وقال: «سيِّدتي».

حدَجَها اللورد ستانيس بنظرةٍ عابسة، ورَدَّ: «أنا لا أتسوَّلُ شيئًا من أيٍّ أحد. احرصي على أن تتذكَّري هذا يا امرأة».

- «يَسُرُّني أن أسمع هذا يا سيِّدي». كانت الليدي سيليس طويلة القامة كزوجها، ناحلة الوجه والجسد، وبارزة الأُذنين وحادَّة الأنف، ويستقرُّ فوق شفتها العُليا شاربٌ خفيفٌ للغاية تنتف شُعيراته يوميًّا وتلعنه بانتظام، لكنه لا ينفكُّ يعود للنُّمُوِّ من جديد. كانت باهتة العينين وقاسية الفم وصوتها لاسعٌ كالسِّياط، والآن شقَّت به الهواء قائلةً: «الليدي آرن تدين لك بالولاء، وكذا آل ستارك وأخوك رنلي والآخَرون كلهم. إنك ملكهم الشَّرعي الوحيد، ولا يليق بك أن تُناشِدهم وتتفاوَض معهم على ما هو حقٌّ لك ببَركة الإله».

قالت «الإله» وليس «الآلهة». لقد ظفرَت بها المرأة الحمراء قلبًا وقالبًا، جعلَتها تُنكِر آلهة الممالك السَّبع قديمها وجديدها، لتَعبُد مَن يُسَمُّونه إله الضِّياء.

قال اللورد ستانيس الذي لا يُشارِك زوجته حرارة إيمانها الجديد: «فليحتفظ إلهكِ ببَركته. ما أحتاجُ إليه هو السُّيوف وليس البَركة. ألديكِ جيش مخبَّأ في مكانٍ ما ولم تُخبِريني بأمره؟». لم تحمل نبرتِه أيَّ عاطفة، فطيلة عُمره وستانيس يَشعُر بعدم الرَّاحة في حضرة النِّساء، حتى زوجته نفسها، التي تركَها في دراجونستون مع ابنتهما عندما ذهبَ إلى كينجز لاندنج لينضمَّ إلى مجلس روبرت، ومنذ ذلك الحين ورسائله إليها قليلة وزياراته أقلُّ، وعلى الرغم من أنه كان يقوم بواجبه في فِراش الزَّوجيَّة مرَّةً أو مرَّتين في العام، فإنه لم يكن يفعل هذا على سبيل المُتعة، والأبناء الذين كان يأمل في مجيئهم من صُلبه لم يأتوا قَطُّ.

قالت له: «أخواي وأعمامي وأبناؤهم لديهم جيوش. ستحتشد عائلة فلورنت تحت رايتك».

- «عائلة فلورنت لا تستطيع أن تحشد أكثر من ألفيِّ رجلٍ في أفضل الأحوال»، رَدَّ ستانيس الذي يُقال إنه يعرف قوَّة كلِّ عائلةٍ في الممالك السَّبع بلا استثناء. «كما أنكِ تضعين ثقةً أكبر بكثير مني في أخويكِ وأعمامكِ يا سيِّدتي. أراضي عائلة فلورنت تقع على مقربةٍ شديدة من هايجاردن، وعمُّك اللورد لن يُخاطِر بإثارة غضبة مايس تايرل».

دنَت منه الليدي سيليس قائلةً: «ثمَّة سبيل آخَر. ألقِ نظرةً خارج النَّوافذ يا سيِّدي وسترى العلامة التي تنتظرها تُزَيِّن السَّماء، أحمر لونها، أحمر كاللَّهب، أحمر كقلب الإله الحَق النَّاري. إنها رايته ورايتك أيضًا، فانظُر كيف تتجلَّى في السَّماوات كأنفاس التنِّين الحارَّة، وأنت سيِّد دراجونستون. معنى هذا أن أوانك آنَ يا جلالة الملك. إنه يقينٌ فوق كلِّ يقين، وقدَرك أن تُبحِر من هذه الصَّخرة البائسة المهجورة مِثل إجون الفاتح من قبلك، لتكتسح كلَّ ما في طريقك كما فعلَ. ما عليك إلَّا أن تقول الكلمة وتُسَلِّم بقُدرة إله الضِّياء».

سألها ستانيس: «وكم سيفًا سيضع إله الضِّياء في يدي؟».

أجابَت زوجته واعدةً: «كلَّ ما تحتاجه، سيوف ستورمز إند وهايجاردن كبداية، وجميع اللوردات حمَلة رايتيهما».

- «ستجدين أن داڤوس يُخالِفكِ الرَّأي. لقد أقسَموا بهذه السُّيوف لرنلي بالفعل. إنهم يُحِبُّون أخي الصَّغير ذا الطِّباع السَّاحرة كما أحبُّوا روبرت من قبل، وكما لم يُحِبُّوني قَطُّ».

ردَّت: «نعم، لكن إذا حدثَ أن ماتَ رنلي...».

ضيَّق ستانيس عينيه وظَلَّ يَرمُق زوجته، حتى عجزَ كرسن عن التزام الصَّمت أكثر من هذا، واندفعَ يقول: «لا يُمكنك أن تأخذ هذا بعين الاعتبار. جلالة الملك، أيًّا كانت الحماقات التي اقترفَها رنلي...».

- «حماقات؟ إنني أعدُّها خيانات»، قال ستانيس، ثم التفتَ إلى زوجته وأجابها: «أخي شابٌّ وقوي، ومُحاط بجيشٍ ضخم، بالإضافة إلى حَرس قوس قزح هؤلاء».

- «لقد نظرَت مليساندرا في اللَّهب ورأته ميتًا».

مصعوقًا قال كرسن: «أن تَقتُل أخاك... سيِّدي، هذا شَرٌّ مستطير لا يوصَف بكلمات... اصغ إليَّ أرجوك».

تمعَّنت فيه الليدي سيليس قائلةً: «وبم ستُخبِره أيها المِايستر؟ كيف أنه سيربح نِصف مملكةٍ إذا زحفَ إلى آل ستارك وباعَ ابنتنا للايسا آرن؟».

قال اللورد ستانيس: «لقد سمعتُ نصيحتك يا كرسن، والآن سأسمعُ نصيحتها. يُمكنك الانصراف».

حنى المِايستر كرسن ظَهره المتيبِّس، وغادرَ الغُرفة ببُطءٍ شاعرًا بنظرات الليدي سيليس المسلَّطة عليه، ولدى بلوغه نهاية السَّلالم كان يَبذُل كلَّ ما تبقَّى من طاقته بالفعل ليستطيع الوقوف مشدود القامة. قال لپايلوس: «ساعِدني».

صرفَ كرسن الشَّاب عندما عادَ إلى مسكنه سالمًا، ثم خرجَ بخُطى عرجاء إلى شُرفته من جديد، ليقف بين الكرجلين ويُحَدِّق في البحر. كانت واحدة من سُفن سالادور سان تمرُّ بالقلعة في هذه اللَّحظة، بدنها المخطَّط بالألوان الزَّاهية يَمخُر المياه الخضراء الرَّماديَّة بينما ترتفع مجاذيفها وتنخفض، وراقبَها كرسن حتى غابَت وراء لسانٍ من الأرض، ثم قال لنفسه: ليت مخاوفي تغيب بهذه السُّهولة. أهذا ما عاشَ كلَّ تلك السِّنين من أجله؟

عندما يرتدي المِايستر سلسلة جماعته، فإنه يتخلَّى عن الأمل في أن تكون له ذُرِّيَّة، لكن كثيرًا ما أحسَّ كرسن بالأبوَّة على الرغم من ذلك. روبرت وستانيس ورنلي، ثلاثة أبناء ربَّاهم بَعد أن ابتلعَ البحر الغاضب أباهم اللورد ستفون، فهل أبلى في تربيتهم بلاءً بهذا السُّوء حتى أصبحَ عليه ألَّا يُحَرِّك ساكنًا بينما يَقتُل واحد منهم الآخَر؟ لا، لا يُمكنه أن يسمح بهذا، ولن يسمح به أبدًا.

المرأة هي قلب المسألة. ليس الليدي سيليس، بل الأخرى، المرأة الحمراء كما أطلقَ عليها الخدم وقد أصابَهم الخوف من نُطق اسمها. قال كرسن لكلب الجحيم الحجري: «أمَّا أنا فسأنطقُ اسمها، مليساندرا، هي!».

مليساندرا الآشايِيَّة، المشعوذة، آسِرة الظِّلال، وراهبة راهلور إله الضِّياء، قلب النَّار، رَب اللَّهب والظِّل.

مليساندرا التي لا ينبغي السَّماح لجنونها بأن ينتشر أبعد من دراجونستون.

بدا مسكنه كئيبًا معتمًا حتى بَعد سطوع النَّهار، وبيدين ثقيلتين أشعلَ العجوز شمعةً وحملها إلى غُرفة العمل أسفل سلالم المِغدفة، حيث ترتصُّ قوارير دهاناته وعقاقيره وأدويته على الرُّفوف بترتيبٍ محكَم. على الرَّف السُّفلي، وراء صَفٍّ من الجرار الخزفيَّة الصَّغيرة، وجدَ قنينةً من الزُّجاج ذي اللَّون النِّيلي لا يتجاوَز حجمها حجم خنصره. خشخشَت القنينة عندما رجَّها ونفخَ طبقةً من الغُبار من عليها، ثم حملها إلى منضدته وألقى نفسه على المقعد، قبل أن يخلع السِّدادة ويَسكُب محتويات القنينة، لتتدحرج دستة من البلَّورات التي تُشبِه البذور في الحجم على الرَّق الذي كان يقرأه من قبل. تألَّقت البلَّورات كالجواهر في ضوء الشَّمعة، لونها أرجوانيٌّ شديد العُمق، لدرجة أن المِايستر وجدَ نفسه يُفَكِّر أنه لم يرَ هذا اللون على حقيقته من قبل على الإطلاق.

شعرَ بالسِّلسلة المحيطة بعُنقه شديدة الثِّقل وهو يمدُّ يده ليمسَّ واحدةً من البلَّورات بخفَّةٍ بطرف إصبعه الصَّغير. شيءٌ بالِغ الصِّغر يملك سُلطان الحياة والموت. كانت البلَّورات مصنوعةً من نبتةٍ معيَّنة لا تنمو إلَّا في جُزر بحر اليَشب

في النِّصف الآخَر من العالم، وينبغي أن تُعَتَّق أوراق تلك النَّبتة وتوضَع في نقيعٍ من الزَّيزفون والماء المسكَّر وعددٍ من التَّوابل النَّادرة من جُزر الصَّيف، وبَعدَها يتمُّ التخلُّص من الأوراق، لكن يُضاف الدَّردار إلى العقَّار كي يُصبِح ثخينًا ثم يُترَك حتى يتبلوَر. إنها عمليَّة بطيئة معقَّدة، وضروريَّاتها باهظة الثَّمن ويَصعُب الحصول عليها، وإن كان الخيميائيُّون في لِيس يُجيدونها، وكذلك طائفة الرِّجال عديمي الوجوه في براڤوس... بالإضافة إلى المِايسترات في جماعته بالطَّبع، وإن لم يكن هذا شيئًا يتكلَّمون عنه خارج أسوار «القلعة». العالم كله يعرف أن المِايستر يُضيف الحلقة الفضِّيَّة إلى سلسلته عندما يتعلَّم فَنَّ العلاج، لكن العالم يختار أن يتناسَى أن هؤلاء الرِّجال الذين يعرفون كيف يُعالِجون النَّاس قادرون على قتلهم كذلك.

لم يَعُد كرسن يتذكَّر الاسم الذي يُطلِقه الآشايئيُّون على النَّبتة، أو حتى الاسم الذي يُطلِقه قتَلة السُّموم اللايسينيُّون على البلَّورات، لكنهم في «القلعة» أعطوا هذا السُّم اسمًا بسيطًا هو «الخنَّاق»، فعندما يذوب في النَّبيذ من شأنه أن يجعل عضلات الحَلق تنقبض بقوَّةٍ لا تقدر عليها أيُّ قبضة لتسدَّ القصبة الهوائيَّة تمامًا، ويُقال إن لون وجه الضحيَّة يستحيل إلى أرجوانيٍّ شديد العُمق كالبلَّورة الشَّبيهة بالبذرة التي نبتَ منها هذا الموت، وإن كان هذا ما يَحدُث مع من يختنقون بلقيمةٍ من طعام أيضًا.

واللَّيلة سيُقيم اللورد ستانيس مأدبةً للوردات حمَلة رايته، ومعهم زوجته... والمرأة الحمراء، مليساندرا الآشاييَّة.

قال المِايستر لنفسه: يجب أن أستريح، يجب أن أكون بكامل قوَّتي مع حلول الظَّلام. لا ينبغي أن ترتجف يداي أو تخور شَجاعتي. ما سأفعله شنيع، لكن لا مناص منه. إذا كان للآلهة وجود، فلا بُدَّ أنها ستُسامِحني. كان نومه لا يُشعِره بأيِّ راحةٍ إطلاقًا في الفترة الأخيرة، لكن من شأن غفوةٍ أن تمنحه شيئًا من النَّشاط قبل المهمَّة المقيتة التي تنتظره. بخطواتٍ واهية متعَبة ذهبَ إلى فِراشه، لكن حتى بَعد أن أغلقَ عينيه ظَلَّ يرى ضوء المذنَّب أحمر ناريًّا زاهيًا

لأقصى درجةٍ في غمار ظُلمة أحلامه، وإذ اكتنفه النَّوم أخيرًا قال لنفسه بآخِر ما لديه من وعي: لعلَّه مذنِّبي أنا، نذير الدَّم يُنبِئ بالقتل... نعم...

كان الظَّلام قد سادَ بالكامل بالفعل عندما استيقظَ المايستر ليرى الموجودات في غُرفة نومه سوداء تمامًا ويَشعُر بالوجع في كلِّ مفصلٍ في جسده. دفعَ نفسه إلى الجلوس معتدلًا ورأسه ينبض بالصُّداع، ثم قَبضَ على عُكَّازه واتَّكأ عليه لينزل بلا ثباتٍ من الفِراش. تأخَّر الوقت كثيرًا، ولم يستدعوني. دائمًا ما كان كرسن يُستَدعى إلى المآدب ويجلس بالقُرب من المملحة ومن اللورد ستانيس. سبحَ وجه سيِّده في الهواء أمامه، ليس الرَّجل الذي صاره بل الصَّبي الذي كانه، يقف في الظِّلِّ شاعرًا بالبَرد بينما تسطع الشَّمس على أخيه الأكبر. كلُّ شيءٍ فعله ستانيس سبقَه روبرت إليه، وفعله أفضل منه. الصَّبي المسكين... يجب أن يُسرِع إليه من أجل صالِحه.

وجدَ المِايستر البلَّورات حيث تركَها، فجمعَها من على الرَّق. لم يكن كرسن يملك أيًّا من تلك الخواتم ذات الفصوص المفرَّغة، التي يُقال إن قتَلة السُّموم في لِيس يُفَضِّلون استخدامها، لكن عددًا وافرًا من الجيوب مختلفة الأحجام كان مخيَّطًا في كُمَّيِّ معطفه الفضفاضين من الدَّاخل، فدَسَّ بذور الخنَّاق في أحدها، ثم فتحَ الباب مناديًا: «بايلوس، أين أنت؟». لم يتلقَّ جوابًا، فنادى ثانيةً بصوتٍ أعلى: «بايلوس، أريدُ مساعَدتك». لم يتلقَّ جوابًا هذه المرَّة أيضًا، ما كان غريبًا، فحُجيرة المِايستر الشَّاب تقع في منتصَف عطفة السُّلَّم، ويُمكنه أن يسمعه بسهولة. في النِّهاية اضطرَّ كرسن لأن يزعق مناديًا الخدم، وقال لهم: «أسرِعوا، لقد نمتُ أطول من اللَّازم. لا بُدَّ أنهم يأكلون الآن... ويشرَبون... كان يجب أن يُوقِظني أحد». ما الذي حدثَ للمِايستر بايلوس؟ إنه لا يفهم حقًّا.

مرَّةً أخرى قطعَ الرُّواق الطَّويل، وعبْر النَّوافذ الضَّخمة أتَت ريح اللَّيل هامسةً ومحمَّلةً برائحة البحر الغنيَّة، وتراقصَت أضواء المَشاعل على أسوار دراجونستون وفي المعسكر المنصوب وراءها، حيث رأى المئات من البُقع التي اشتعلَت فيها نار الطَّهي، كأن حقلًا من النُّجوم هوى على الأرض. في

السَّماء اتَّقد المذنَّب بالحُمرة والغِل، وقال المِايستر لنفسه: أنا أكبر سنًّا وأكثر حكمةً من أن أخاف تلك الأشياء.

كانت أبواب القاعة الكبيرة مثبَّتةً في فم تنِّين حجري، وعندها قال للخدم أن يَترُكوه في الخارج، مفكِّرًا أن من الأفضل أن يَدخُل بمُفرده كي لا يتبدَّى ضَعفه. هكذا اتَّكأ على عُكَّازه بشدَّةٍ ليصعد الدَّرجات القليلة المتبقية، وتقدَّم أسفل الأسنان الهابطة من سقف المدخل، ففتحَ اثنان من الحرس البابين الأحمرين الثَّقيلين أمامه، لينصبَّ وابلٌ من الضَّوضاء والضَّوء عليه من الدَّاخل. ثم خطا كرسن في حُلقوم التنِّين.

فوق ضجَّة السَّكاكين والأطباق والهمهمات الخفيضة القادمة من الموائد، سمعَ ذا الوجه المرقَّع يُغَنِّي بصُحبة أجراس الأبقار: «... لتَرقُص يا سيِّدي، لتَرقُص يا سيِّدي». الأغنيَّة الكريهة ذاتها التي كان يُرَدِّدها هذا الصَّباح. «الظِّلال تأتي لتبقى يا سيِّدي، لتبقى يا سيِّدي، لتبقى يا سيِّدي». كانت الموائد السُّفلى مزدحمةً بالفُرسان والرُّماة والرَّبابنة، الذين أخذوا يُمَزِّقون أرغفة الخُبز الأسود ليغمسوها في أطباق يخنة السَّمك. لا تُسمَع هنا أصوات الضَّحك الصَّاخب أو الصِّياح الفَظ التي تحطُّ من وقار أصحابها كما في مآدب الآخَرين، فاللورد ستانيس لا يسمح بهذا.

عمدَ كرسن إلى المنصَّة المرتفعة حيث جلسَ اللوردات مع الملك، ماشيًا في دورةٍ واسعةٍ بعيدًا عن ذي الوجه المرقَّع الذي انشغلَ بالرَّقص على رنين أجراسه، فلم يرَ أو يسمعِ المِايستر يقترب. واثبًا من قدم إلى أخرى ارتطمَ المهرِّج بكرسن ليطير عُكَّازه من يده ويضرب الاثنان الأرض معًا في كتلةٍ متشابكةٍ من الأذرُع والسِّيقان افترشَت البساط، بينما تفجَّرت عاصفة مفاجِئة من الضَّحك من حولهما. لا شَكَّ أن المنظر هزليٌّ للغاية.

زحفَ ذو الوجه المرقَّع فوقه بنِصف جسده، ودنا منه بوجهه الملوَّن وقد سقطَت خوذته الصَّفيحيَّة ذات القرون والأجراس من على رأسه، وقال: «تحت البحر يَسقُط المرء إلى أعلى. أعرفُ، أعرفُ، أوه، أوه، أوه»، ثم راحَ يُقَهقِه وتدحرجَ من فوق العجوز ووثبَ واقفًا ليُعاوِد الرَّقص.

رسمَ المِايستر ابتسامةً واهنةً على شفتيه وكافحَ لينهض وقد قرَّر أن يُحاوِل تحقيق أفضل استفادةٍ ممكنة من الموقف، لكن الألم البالغ الذي سرى في وَركه جعله يخشى أنه كسرَه مرَّةً أخرى. ثم إنه شعرَ بيدين قويَّتين تلتقطانه من تحت إبطيه وتوقفانه على قدميه، فغمغمَ: «أشكرك يا سيِّدي» وهو يلتفت ليرى وجه الفارس الذي جاءَ لمساعَدته...

- «مِايستر كرسن»، قالت الليدي مليساندرا بصوتها العميق المنكَّه بموسيقى بحر اليَشب. «يَجدُر بك أن تأخذ حذرك أكثر». كديدنها، كان الأحمر يكسوها من قمَّة رأسها حتى أخمص قدميها، فُستانها الطَّويل الفضفاض مشغول من الحرير الوضَّاء كالنَّار وذو كُمَّين واسعين طُرِّزَت عليهما أشكال زخرفيَّة مدوَّرة، تكشف الشُّقوق العميقة في صدره عن نسيجٍ آخَر من تحته له لون داكن قانٍ كالدَّم، وحول عُنقها ارتدَت قلادةً من الذَّهب الأحمر أضيق من أيِّ سلسلةٍ يرتَديها مِايستر، تُزَيِّنها ياقوتة كبيرة واحدة. لم يكن شَعرها بلون ثمار البرتقال أو الفراولة كذوي الشَّعر الأحمر التَّقليديِّين، بل كان ذا لونٍ نُحاسيٍّ مصقول يَبرُق في ضوء المشاعل، وحتى عيناها كانتا حمراوين... لكن بشرتها ملساء بيضاء من غير سوء، تمامًا كالقشدة. نحيلةً كانت، ورشيقةً، وأطول قامةً من معظم الفُرسان، ذات نهدين ممتلئين وخصرٍ نحيف ووجهٍ كالقلب في شكله، وبمجرَّد أن تَسقُط عليها أبصار الرِّجال فلا يقوى أحدهم على تنحيتها عنها بهذه البساطة أو السُّرعة، حتى إذا كان مِايسترًا. وصفَها كثيرون بالجَمال، لكنها لم تكن جميلةً، بل حمراء، رهيبة وحمراء.

- «أشكركِ يا سيِّدتي».

قالت مليساندرا بكياسة: «رجلٌ في سنِّك ينبغي أن يَنظُر أين يخطو، فاللَّيل حالكٌ ومفعمٌ بالأهوال».

كان يعرف هذه العبارة التي تُعَدُّ دعاءً ما لدى المؤمنين بعقيدتها. لا يهمُّ، فأنا أيضًا لديَّ إيماني. قال لها: «فقط الأطفال يخافون الظَّلام»، لكن بينما ينطق هذه الكلمات سمعَ ذا الوجه المرقَّع يستأنف أغنيَّته من جديد: «الظِّلال تأتي لترَقُص يا سيِّدي، لترَقُص يا سيِّدي، لترَقُص يا سيِّدي».

قالت: «أمامنا الآن أُحجية، مهرِّج ذكي وعجوز حكيم أحمق»، ثم انحنَت والتقطَت خوذة ذي الوجه المرقَّع من حيث سقطَت، وثبَّتتها على رأس كرسن، فأصدرَت الأجراس رنينًا خفيفًا والدَّلو الصَّفيحي ينزل على أُذنيه، بينما تابعَت مليساندرا: «تاجٌ يتماشى مع سلسلتك يا سيِّدي المِايستر»، ومن كلِّ مكانٍ حولهما ارتفعَت ضحكات الرِّجال السَّاخرة.

زَمَّ كرسن شفتيه مكافحًا لتهدئة الغضب المتصاعد داخله. إنها تظنُّه هشًّا عاجزًا، لكنها ستُدرِك العكس قبل أن تنقَضي اللَّيلة. قد يكون عجوزًا، لكنه لا يزال مِايسترًا تعلَّم في «القلعة». قال لها وهو يخلع خوذة المهرِّج من على رأسه: «لا أحتاجُ تاجًا غير الحقيقة».

- «في هذا العالم حقائق لا يُعَلِّمونها في البلدة القديمة»، قالتها مليساندرا ودارَت مبتعدةً عنه في دوَّامةٍ من الحرير الأحمر، لتشقَّ طريقها عائدةً إلى المائدة العالية حيث جلسَ الملك ستانيس وزوجته، فناولَ كرسن الدَّلو ذا القرون لذي الوجه المرقَّع وتحرَّك في أعقابها.

وكان المِايستر پايلوس جالسًا في مكانه.

لم يكن في وسع العجوز غير الوقوف والحملقة، حتى قال أخيرًا: «مِايستر پايلوس، إنك... إنك لم توقِظني».

قال پايلوس وقد تورَّد وجهه خجلًا: «جلالته أمرَني بأن أتركك تستريح، قال لي إن لا حاجة إليك هنا».

نقلَ كرسن ناظريه بين الفُرسان والرَّبابنة واللوردات الجالسين بصمتٍ في أماكنهم. كان اللورد سلتيجار المُسِنُّ الفَظُّ يرتدي معطفًا مزركَشًا بأشكال سرطان البحر المطرَّزة بالعقيق الأحمر، واختارَ اللورد ڤيلاريون الوسيم معطفًا من الحرير الأخضر البحري يتناسق دبُّوسه ذو شكل فَرس البحر المصنوع من الذَّهب الأبيض مع شَعره الأشقَر الطَّويل، بينما لَفَّ اللورد بار إمون -الصَّبي السَّمين ذو الأربعة عشر عامًا- نفسه بالمخمل البنفسجي المقلَّم بالفقمات البيضاء، وظَلَّ السير آكسل فلورنت بسيط المنظر حتى في معطفه الخَمري وفراء الثَّعلب حول كتفيه، أمَّا اللورد صنجلاس المعروف

بوَرعه فقد زيَّنت أحجار القمر الكريمة كلًّا من عُنقه وخصره وأصابعه، وخطفَ الرُّبَّان اللايسيني سالادور سان الأبصار بالحرير القرمزي والذَّهب والجواهر. وحده السير داڤوس ارتدى ثيابًا بسيطةً لم تتعدَّ سُترةً بُنِّيَّة ومعطفًا أخضر من الصُّوف، ووحده السير داڤوس التقَت عيناه بعيني المِايستر وفي نظراتهما لاحَت الشَّفقة.

- «أنت أشدُّ مرضًا وأكثر تشوُّشًا من أن تكون ذا فائدةٍ لي أيها العجوز». كان الصَّوت كصوت ستانيس تمامًا، لكن لا يُمكن أن يكون هو، لا يُمكن أن يكون هو. «پايلوس سيكون مستشاري من الآن فصاعدًا. إنه يتولَّى أمر الغِدفان بالفعل، بما أنك لم تَعُد تستطيع الصُّعود إلى المِغدفة. لن أسمح بأن تَقتُل نفسك في خدمتي».

أغمضَ المِايستر كرسن عينيه وفتحَهما كأنه لا يُصَدِّق. ستانيس، يا صغيري العابس الحزين، يا ولدي الذي لم أُنجبه، لا تفعل هذا. ألا تدري كيف رعيتك وعشتُ من أجلك وأحببتك رغم كلِّ شيء؟ نعم، أحببتك، أكثر من روبرت وحتى رنلي، فالحُبُّ كان ينَقُصك أنت، وأنت أكثر من احتاجَني. على أن كلَّ ما قاله هو: «كما تأمر يا سيِّدي، لكني... لكني جائع، أفلا تسمح لي بمكانٍ على مائدتك؟». إلى جانبك، مكاني إلى جانبك...

نهضَ السير داڤوس من على الدِّكَّة قائلًا: «يُشَرِّفني أن يجلس المِايستر هنا إلى جواري».

- «كما تشاء»، قال اللورد ستانيس والتفتَ يُخاطِب مليساندرا التي جلسَت إلى يمينه في موقع التَّكريم العالي، بينما جلسَت الليدي سيليس إلى يساره وعلى وجهها ابتسامة ساطعة هشَّة كالجواهر التي تحلَّت بها.

رمقَ كرسن البُقعة التي جلسَ فيها داڤوس وقال لنفسه بفتور: بعيدة جدًّا. كان نِصف اللوردات حمَلة الرَّاية يجلسون بين المهرِّب والمائدة العالية. ينبغي أن أكون أقرب إليها إذا أردتُ أن أضع الخنَّاق في كأسها، لكن كيف؟

كان ذو الوجه المرقَّع يتواثَب مرحًا والمِايستر يدور ببُطءٍ حول المائدة نحو داڤوس سيوورث، وصاحَ المهرِّج بسعادةٍ وهو يُلَوِّح بسمكة قُد كأنها

صولجان: «هنا نأكل السَّمك، وتحت البحر تأكلنا الأسماك. أعرفُ، أعرفُ، أوه، أوه، أوه».

انزاحَ السير داڤوس ليُفسِح مكانًا على الدِّكَّة، وقال بكآبةٍ بينما جلسَ كرسن إلى جواره: «يَجدُر بنا جميعًا أن نرتدي ثياب المهرِّجين اللَّيلة، فما يَحدُث الآن تهريج. لقد أبصرَت المرأة الحمراء النَّصر في اللَّهب، وعليه ينوي ستانيس أن يبدأ الزَّحف على الرغم من الأعداد القليلة. أخشى أننا سنرى كلنا ما رآه ذو الوجه المرقَّع قبل أن تَفرُغ تلك المرأة مما تفعله، قاع البحر».

دَسَّ كرسن يديه في كُمَّيه كأنه يَنشُد الدِّفء، وتحسَّست أصابعه الكُتل الصُّلبة التي صَنعَتها البلُّورات في الصُّوف، ثم رفعَ صوته قائلًا: «أيها اللورد ستانيس».

التفتَ ستانيس عن المرأة الحمراء، لكن الليدي سيليس هي من ردَّت: «اسمه الملك ستانيس. يبدو أنك نسيت نفسك أيها المِايستر».

- «إنه عجوز شارد العقل»، قال لها الملك بخشونة. «ما الأمر يا كرسن؟ قُل ما لديك».

- «بما أنك عزمت على الإبحار، فمن الضَّروري أن تتحالَف مع اللورد ستارك والليدي آرن...».

قال ستانيس باراثيون: «أنا لا أتحالَفُ مع أحد».

وأضافَت الليدي سيليس وهي تلتقط يده: «تمامًا كما لا يتحالَف النُّور مع الظَّلام».

أومأ ستانيس برأسه مؤمِّنًا على كلامها، وأردفَ: «آل ستارك يسعون إلى سرقة نِصف مملكتي، كما سرقَ آل لانستر عرشي، وسرقَ أخي المحبوب ما هو لي شرعًا من رجالٍ وخدمٍ ومعاقل. كلهم غاصبون، وكلهم أعدائي».

فكَّر كرسن قانطًا: لقد فقدته. لو يستطيع فقط أن يقترب من مليساندرا دون أن يراه أحد... إنه لا يحتاج إلى أكثر من لحظةٍ واحدة تُتاح فيها كأسها له. قال

واليأس يَغمُر كلماته: «أنت الوريث الشَّرعي لأخيك روبرت، وسيِّد الممالك السَّبع الحقيقي، وملك الأنداليِّين والرويْنار والبَشر الأوائل، لكن حتى مع هذا لا يُمكنك أن تأمل في النَّصر بلا حُلفاء».

قالت الليدي سيليس: «إن لديه حليفًا، راهلور إله الضِّياء، قلب النَّار، رَبُّ اللَّهب والظِّل».

رَدَّ العجوز بإصرار: «الآلهة في أفضل الأحوال حُلفاء لا يُعتمَد عليهم، وذلك الإله ليس له سُلطان هنا».

- «أهذا ما تحسبه؟». سقطَ الضَّوء على الياقوتة المعلَّقة على حَلق مليساندرا وهي تُدير رأسها، وللحظةٍ بدَت كأنها تتوهَّج كالمذنَّب. «ما دُمت ستتفوَّه بتلك الحماقات أيها المِايستر، فحريٌّ بك أن ترتدي تاجك من جديد».

قالت الليدي سيليس: «نعم، خوذة ذي الوجه المرقَّع تُناسِبك أيها العجوز. آمرك أن تضعها على رأسك ثانيةً».

وردَّد المهرِّج: «تحت البحر لا يرتدي أحد القُبَّعات. أعرفُ، أعرفُ، أوه، أوه، أوه».

كانت عينا اللورد ستانيس مظلَّلتين بحاجبيه الثَّقيلين وفمه مكبوسًا عن آخِره وقد أخذَ فَكُّه يتحرَّك بصمت، فدائمًا ما يُصِرُّ بأسنانه عندما يغضب. دمدمَ أخيرًا: «أيها المهرِّج، هذا أمرٌ من السيِّدة زوجتي، أعطِ كرسن خوذتك».

لا، هذا ليس أنت، ليس أسلوبك، لقد كنت عادلًا دومًا، صُلبًا دومًا لكنك لم تكن قاسيًا لمجرَّد القسوة إطلاقًا، إنك لا تفهم الاستهزاء، تمامًا كما لم تفهم الضَّحك قَطُّ.

دنا منه ذو الوجه المرقَّع راقصًا لترنَّ أجراسه، كلانجا-لانج، دينج-دينج، كلينك-كلانك-كلينك-كلانك، وجلسَ المِايستر صامتًا بينما ثبَّت المهرِّج الدَّلو ذا القرون على رأسه، وجعله وزنه الثَّقيل يحني رأسه.

قالت الليدي سيليس على خلفيَّةٍ من رنين الأجراس: «ربما عليه أن يُلقي نصائحه غناءً من الآن فصاعدًا».

رَدَّ اللورد ستانيس: «أنتِ تتمادين يا امرأة. إنه رجل عجوز، ولقد خدمَني بإخلاص».

فكَّر كرسن وقد رأى السَّبيل فجأةً: وسأظلُّ أخدمك حتى آخِر نفسٍ في صدري يا سيِّدي الحبيب، يا ولدي الوحيد المسكين. كانت كأس السير داڤوس أمامه، لا تزال نِصف ممتلئةٍ بالنَّبيذ الأحمر اللَّاذع، فأخرجَ رقاقةً صُلبةً من البلَّور من كُمِّه وأطبقَ عليها بإحكامٍ بين سبَّابته وإبهامه وهو يمدُّ يده إلى الكأس، وتضرَّع في قرارة نفسه: حركات رشيقة ناعمة، لا ينبغي أن أرتبك الآن، ويبدو أن الآلهة استجابَت له، ففي غمضة عينٍ لم يَعُد هناك شيء بين إصبعيه. لم تكن يداه بهذا الثَّبات لسنين طويلة، ولا مرنتين لهذه الدَّرجة. الوحيد الذي رآه هو داڤوس، لكنه واثق بأن لا أحد غيره فعلَ. هكذا نهضَ حاملًا الكأس وقال: «لعلِّي كنتُ أحمقَ حقًّا. ليدي مليساندرا، هلَّا تقاسَمتِ كأسًا من النَّبيذ معي على شرف إلهكِ إله الضِّياء؟ هلَّا شربنا معًا نخب قُدرته؟».

حدجَته المرأة الحمراء بإمعان، وقالت: «إذا أردتَ».

كان يَشعُر بنظرات الجميع المسلَّطة عليه. تشبَّث داڤوس به وهو ينهض من على الدِّكَّة، مُطبِقًا على كُمِّه بأصابعه التي قصَّرها اللورد ستانيس، وهمسَ: «ماذا تفعل؟».

أجابَ المِايستر كرسن: «ما ينبغي فِعله، من أجل البلاد ومن أجل روح سيِّدي»، ونفضَ يد داڤوس لتهتزَّ الكأس وتنسكب قطرة من النَّبيذ على البساط.

قابلَته عند منتصَف المائدة العالية وأعيُن كلِّ مَن في المكان عليهما، لكن كرسن لم يرَ سواها، الحرير الأحمر والعينين الحمراوين والياقوتة الحمراء عند حَلقها والشَّفتين الحمراوين اللتين ارتسمَت عليهما بسمة باهتة إذ وضعَت يدها فوق يده حول الكأس، ليَشعُر ببَشرتها ساخنةً كالمحمومين. ما زال يُمكنك أن تَسكُب النَّبيذ أيها المِايستر».

بصوتٍ مبحوحٍ همسَ: «لا، لا».

- «كما ترغب»، والتقطَت مليساندرا الآشايِيَّة الكأس من يده وأخذَت منها جرعةً طويلةً، حتى لم يتبقَّ فيها غير نِصف رشفةٍ في القاع عندما أعادَتها إليه قائلةً: «دورك».

كانت يداه ترتجفان، لكنه أجبرَ نفسه على أن يكون قويًّا، فلا ينبغي أن يَشعُر مِايستر من «القلعة» بالخوف. أحسَّ بمذاق النَّبيذ اللَّاذع على لسانه قبل أن يَترُك الكأس لتَسقُط وتتهشَّم على الأرض، وقالت المرأة والياقوتة على عُنقها تومض بالأحمر: «إن لديه سُلطانًا هنا يا سيِّدي، والنَّار تُطَهِّر».

حاولَ كرسن أن يَرُدَّ، لكن الكلمات احتبسَت في حَلقه، واستحالَ السُّعال إلى صفيرٍ رفيع رهيب وهو يُكافِح لامتصاص الهواء، وأطبقَت أصابع من حديد على عُنقه. وإذ تهاوى على رُكبتَيه ظَلَّ يهزُّ رأسه، ظَلَّ يُنكِرها، يُنكِر قوَّتها ويُنكر سِحرها ويُنكِر إلهها وجلجلَت الأجراس المعلَّقة في قرونه مغنيةً: أحمق، أحمق، أحمق، بينما رمقَته المرأة الحمراء من أعلى بأسفٍ ولهب الشُّموع يتراقَص في أحمر عينيها العميق.

آريا

في وينترفل كانوا يُطلِقون عليها «آريا وجه الحصان»، وكانت تحسب أن هذا أسوأ شيءٍ ممكن، حتى سمَّاها الصَّبي اليتيم لومي أخضر اليد «رأس الجِزَل».

عندما تحسَّست رأسها وجدَته مليئًا بالجِزَل بالفعل. لقد حسبَت أن يورن يهمُّ بقَتلها عندما جرَّها إلى ذلك الزُّقاق، لكن العجوز الفَظَّ ثبَّتها في مكانها بإحكام ليَجزَّ جدائل وعُقد شَعرها بخنجره. تذكَّرت كيف أطارَ النَّسيم حَفنات الشَّعر البُنِّي المتَّسخ لتتناثَر على الأرض المعبَّدة بالحجارة نحو السِّبت الذي ماتَ فيه أبوها، وكيف قال لها يورن بغلظةٍ والفولاذ الحادُّ يحتكُّ برأسها: «سآخذُ معي رجالًا وصِبيةً من المدينة. اثبُت في مكانك يا ولد!»، ولمَّا انتهى كانت فروة رأسها عبارةً عن زغبٍ وجُذامةٍ لا أكثر.

بَعد ذلك أخبرَها أنها بدايةً من الآن وحتى يَبلُغوا وينترفل ستكون آري الصَّبي اليتيم. «لن يكون الخروج من البوَّابة صعبًا، لكن الطَّريق مسألة أخرى، فعليكِ أن تقطعي مسافةً طويلةً في صُحبةٍ سيِّئة. إن معي ثلاثين هذه المرَّة، رجالًا وصِبية في طريقهم إلى «الجِدار»، لكن إياكِ أن تحسبي أنهم يُشبِهون أخاكِ النَّغل في شيء»، وهزَّها مُتابعًا: «لقد تركَني اللورد إدارد أنتقي مَن أشاءُ من الزَّنازين، وبالطَّبع لم أجد أيَّ سادةٍ صغار هناك. نِصف هؤلاء الشِّرذمة على استعدادٍ لتسليمكِ إلى الملكة في غمضة عين من أجل الحصول على عفو، ولربما بعض القِطع الفضِّيَّة كذلك، ونِصفهم الثَّاني سيفعل المِثل،

لكن بَعدما يغتصبونكِ أولًا، فانفردي بنفسكِ وتبوَّلي في الغابة. أصعب جزء سيكون التبوُّل، فلا تشربي أكثر من حاجتكِ».

كان الخروج من كينجز لاندنج سهلًا بالفعل كما قال لها. حُرَّاس لانستر الواقفون على البوَّابة كانوا يُوقِفون الجميع، لكن يورن نادى واحدًا منهم بالاسم، فأشاروا لعرباتهم بالمرور دون أن يلتفت أحدهم إلى آريا، فهُم يبحثون عن فتاةٍ كريمة النَّسب، ابنة يد الملك، وليس عن صبيٍّ هزيل مقطَّع الشَّعر. لم تلتفِت آريا إلى الوراء ولو مرَّة، وتمنَّت لو يثور فيضان من النَّهر الأسود ليكتسِح المدينة كلها، «جُحر البراغيث» والقلعة الحمراء والسِّپت الكبير، يكتسِح كلَّ شيءٍ وكلَّ شخص، خاصَّةً الأمير چوفري وأمه. لكنها كانت تعرف أن ذلك لن يَحدُث، وعلى كلِّ حالٍ سانزا لا تزال في المدينة، ما يعني أن الفيضان سيجرفها بدورها. قرَّرت آريا مع هذا الخاطِر أن تتمنَّى العودة إلى وينترفل بدلًا من ذلك.

على أن يورن كان مخطئًا بشأن التبوُّل، الذي اتَّضح أنه ليس الجزء الأصعب على الإطلاق. لومي أخضر اليد وذلك المسمَّى هوت پاي كانا الجزء الأصعب. كانا من الأيتام الذين حصدَهم يورن من الشَّوارع واعدًا إياهم بطعام لبطونهم وأحذيةٍ لأرجُلهم، أمَّا الآخَرون فقد أتى بهم من الزَّنازين، وقال لهم جميعًا عندما بدأوا رحلتهم: «حَرس اللَّيل يحتاجون رجالًا صالحين، لكننا سنضطرُّ للاكتفاء بكم». أخذَ يورن من الزَّنازين عددًا من الرِّجال البالغين كذلك، منهم اللِّص والصيَّاد غير القانوني والمُغتصِب وأمثالهم، لكن أسوأهم الثَّلاثة الذين عثرَ عليهم في الزَّنازين السَّوداء، والذين يبدو أنهم أثاروا خوفه هو نفسه، لأنه أبقاهم مكبَّلي الأيدي والأقدام في مؤخِّرة إحدى العربات، وأقسمَ أنه لن يفكَّ الحديد عنهم قبل أن يصلوا إلى «الجِدار». أحدهم كانت في وجهه فجوة تحتلُّ مكان أنفه المقطوع، والثَّاني الأصلع البدين مُقرِف المنظر له أسنان مدبَّبة وعلى خدَّيه قروح ينزُّ منها القيح، وعيناه ليستا كعيني إنسان.

خرجوا من كينجز لاندنج بخمس عرباتٍ محمَّلة بالمؤن التي سيأخُذونها معهم إلى «الجِدار»: جلود حيوانات ولفَّات من القُماش، قضبان من الحديد

الخام وقفص غِدفان، كُتب وورق وحِبر، حزمة من التَّبغ المُر وبرطمانات من الزَّيت وعُلب من الأدوية والتَّوابل. سحبَت مجموعات من أحصنة الجَرِّ العربات، وكان يورن قد أحضرَ حصانين وستَّة حمير للصِّبية، وفكَّرت آريا أنها تُفَضِّل أن تركب حصانًا حقيقيًّا، لكن ركوب الحمار أفضل من ركوب العربة على كلٍّ حال.

لم يُعِرها الرِّجال انتباهًا، وإن لم يُحالِفها الحَظُّ لهذا الحَدِّ مع الصِّبية. كانت تَصغُر أصغر الأيتام عُمرًا بعامين كاملين، فضلًا عن ضآلة حجمها ونحولها، وفسَّر لومي وهوت پاي صمتها بكونها خائفةً أو حمقاء أو صمَّاء. «انظُر إلى هذا السَّيف الذي يحمله رأس الجِزَل معه»، قال لومي ذات صباحٍ وهُم يقطعون طريقهم ببُطءٍ مرورًا بالبساتين وحقول القمح. كان صبيًّا فيَ ورشة صبَّاغ قبل أن يُقبَض عليه متلبِّسًا بالسَّرقة، لذا اصطبغَت ذراعاه باللَّون الأخضر حتى المِرفقين، وعندما يضحك يُصدِر صوتًا كنهيق الحمير التي يركبونها. «من أين حصلَ جرذ مِثل رأس الجِزَل على سيفه؟».

مضغَت آريا شفتها عابسةً وهي تَرمُق ظَهر معطف يورن الذي بهتَ لونه الأسود في طليعة العربات، لكنها عزمَت على ألَّا تهرع إليه لتَطلُب مساعَدته.

قال هوت پاي: «لعلَّه مُرافِق صغير لأحد الفُرسان، أو مجرَّد تابع تافه لأحد اللوردات، هذا كلُّ شيء». كانت أمُّه خبَّازةً قبل أن تموت، تدفع عربتها في الشَّوارع طول اليوم مناديةً: «فطير ساخن! فطير ساخن!».

- «بالطَّبع ليس مُرافِقًا، انظُر إليه. أراهنُ أن هذا ليس سيفًا حقيقيًّا أصلًا، أراهنُ أنه سيف لُعبة مصنوع من الصَّفيح».

كرهَت آريا أن يتهكَّما على إبرتها، فاندفعَت تقول بحدَّةٍ وهي تلتفِت لتحدجهما بنظرةٍ قاسية: «إنه فولاذ مطروق في قلعة يا أحمق، وخيرٌ لك أن تخرس».

أطلقَ الصَّبيَّان اليتيمان صيحةً مستهزِئة، ثم سألَ هوت پاي: «ومن أين حصلت على سيفٍ كهذا يا وجه الجِزَل؟».

قال لومي مصحِّحًا: «رأس الجِزَل. سرقَه غالبًا».

صاحَت: «غير صحيح!». كان چون سنو هو من أعطاها «الإبرة». ربما

عليها أن تَترُكهما يُناديانها برأس الجِزَل، لكنها لن تسمح لهما باتِّهام چون بالسَّرقة.

قال هوت پاي: «إذا كان قد سرقَه، يُمكننا أن نأخذه منه إذن. إنه ليس ملكه على كلِّ حال، وسيف مِثل هذا سينفعني».

قال لومي محفِّزًا: «هَلُمَّ إذن، خُذه منه، أتحدَّاك».

ركلَ هوت پاي حماره واقتربَ به قائلًا: «أنت يا وجه الجِزَل، أعطِني هذا السَّيف». كان شَعره بلون القَش وقد سفعَت الشَّمس وجهه السَّمين فبدأ يتقشَّر. «أنت لا تعرف كيف تستخدمه».

كان من الممكن أن تقول آريا: بل أعرفُ. لقد قتلتُ ولدًا، ولدًا بدينًا مِثلك، طعنته في بطنه وماتَ، وسأقتلك أنت أيضًا ما لم تدعني وشأني... إلَّا أنها لم تجرؤ، فرغم أن يورن لم يكن يعرف بأمر صبيِّ الاسطبل، فقد خشيَت ردَّة فِعله إذا عرفَ. إنها واثقة تمامًا بأن بعض الرِّجال الآخَرين في مجموعتهم قتَلة بدورهم، خصوصًا الثَّلاثة المكبَّلين بالأغلال، لكن الملكة لا تبحث عنهم، لذا فالأمر مختلف.

نهقَ لومي أخضر اليد قائلًا: «انظُر إليه، أراهنُ أنه سيبكي الآن. هل تُريد أن تبكي يا رأس الجِزَل؟».

في منامها ليلة الأمس بكَت آريا وهي تَحلُم بأبيها، ولمَّا جاءَ الصَّباح استيقظَت بعينين جافَّتين محمرَّتين، وليس بإمكانها أن تذرف دمعةً واحدةً أخرى ولو كانت حياتها تعتمد عليها.

قال هوت پاي: «سيُبَلِّل سراويله».

- «دعاه وشأنه»، قالها الصَّبي ذو الشَّعر الأسود الأشعث الذي ركبَ وراءهم، الذي أطلقَ عليه لومي اسم «الثَّور»، بسبب خوذته ذات القرنين التي يُلَمِّعها طول الوقت لكن لا يرتديها أبدًا. لم يكن لومي يجرؤ على السُّخرية من الثَّور، فهو أكبر منهم سِنًّا وكبير الحجم بالنِّسبة لسِنِّه، وعريض الصَّدر وقويُّ الذِّراعين.

قال لومي: «أفضل لك أن تُعطي هوت پاي السَّيف يا آري، إنه يُريده بشدَّة. لقد ركلَ ولدًا حتى الموت، وأراهنُ أنه سيفعل بك المِثل».

وعلَّق هوت پاي مزهوًّا: «طرحته أرضًا وركلته في خصيتيه، وظللتُ أركله حتى تمزَّق لحمه وتهتَّكت خصيتاه وسالَ منهما الدَّم واسودَّ قضيبه، فخيرٌ لك أن تُعطيني السَّيف».

سحبَت آريا سيف التَّدريب الخشبي من حزامها، وقالت له غير راغبةٍ في الشِّجار: «يُمكنك أن تأخذ هذا».

رَدَّ معترضًا: «إنها مجرَّد عصا»، واقتربَ منها أكثر بحماره وحاول أن يمدَّ يده إلى مقبض إبرتها.

وجعلَت آريا العصا الخشبيَّة تصفِر وهي تشقُّ الهواء إذ هوَت بها على مؤخِّرة حماره، الذي نهقَ وأسقطَ راكِبه أرضًا، قبل أن تثب هي من فوق حمارها وتكز الصَّبي البدين في بطنه وهو يُحاوِل النُّهوض، فعادَ يستلقي على الأرض مُطلِقًا أنَّةً، ثم إنها نزلَت على وجهه بضربةٍ من عصاها، ليُصدِر أنفه طقطقةً كغُصن شجرةٍ ينكسر ويسيل الدَّم من منخريه، وعندما بدأ هوت پاي يُوَلوِل ألمًا، دارَت آريا ملتفتةً إلى لومي الذي جلسَ على حماره مفغور الفم، وصاحَت فيه: «هل تُريد السَّيف أنت أيضًا؟»، لكن كان من الواضح أنه لا يُريده، لأنه رفعَ يديه المصبوغتين بالأخضر أمام وجهه وصرخَ فيها أن تبتعد عنه.

صاحَ الثَّور: «وراءك!»، فدارَت آريا على عقبيها بسرعةٍ لتجد هوت پاي على رُكبتيه، وقد كوَّر قبضته حول صخرةٍ كبيرة مليئة بالبروزات، فتركَته يقذفها وخفضَت رأسها فلم تُصِب غير الهواء، ثم انقضَّت هي عليه. رفعَ يده لكنها ضربَتها ثم هوَت بضربتين خاطِفتين على وجنته ورُكبته، وحاولَ أن يُمسِكها لكنها وثبَت جانبًا بحركةٍ راقصةٍ ووجَّهت ضربةً أخرى بالسَّيف الخشبي على مؤخِّرة رأسه. سقطَ الصَّبي البدين ونهضَ واندفعَ وراءها متعثِّرًا ووجهه المحتقن ملطَّخ بالتُّراب والدَّم، فأخذَت آريا وضع راقصي المياه وانتظرَت حتى أصبحَ على مسافةٍ كافيةٍ منه لتُسَدِّد ضربةً شديدة العُنف بين ساقيه، فلو كان لسيفها الخشبي رأسٌ مدبَّب لخرجَ من بين فلقتي مؤخِّرته. عندما انتزعَها يورن من فوقه أخيرًا، كان هوت پاي يفترِش الأرض باكيًا بَعد أن ضربَته آريا مرَّةً وثانيةً وثالثةً، وقد توسَّخت سراويله باللَّون البُنِّي وفاحَت منها رائحة نتنة.

«كفى!»، هدرَ الأخ الأسود وهو يُخَلِّص السَّيف الخشبي من بين أصابعها. «هل تُريد أن تَقتُل هذا الأحمق؟»، والتفتَ إلي لومي وبعض الآخَرين الذين أخذوا في الولولة، وزعقَ فيهم: «اخرسوا وإلَّا أخرستكم بنفسي. استمرُّوا وسأقيِّدكم وراء العربات وأجرُّكم جرًّا حتى «الجِدار»»، ثم بصقَ وأضافَ: «اعتبِر الكلام موجَّهًا لك مرَّتين يا آري. تعالَ معي يا ولد، فورًا».

كانوا يَنظُرون إليها جميعًا، حتى الثَّلاثة ذوو الأغلال في مؤخِّرة العربة. طقطقَ البدين أسنانه المدبَّبة معًا وفَحَّ في وجهها، لكنها تجاهَلته.

جرَّها العجوز مسافةً بعيدةً عن الطَّريق إلى كُتلةٍ متشابكةٍ من الأشجار وهو يرغي ويزبد طول الوقت: «لو كانت لديَّ ذرَّة عقل، لتركتك في كينجز لاندنج. هل تسمعني يا ولد؟». دائمًا ما يُزَمجِر بتلك الكلمة مضيفًا إليها نبرةً لاذعةً كي يضمن أن تسمعها. «حِلَّ سراويلك وأنزلها، هَلُمَّ، لا أحد سيراك هنا، هيا». أطاعَته آريا بعبوس، فقال لها: «هناك، قُبالة شجرة البلُّوط هذه، نعم، هكذا». لفَّت ذراعيها حولَ جذع الشَّجرة، وضغطَت وجهها في الخشب الخشن، فقال: «والآن اصرُخ، اصرُخ بأعلى صوتك».

لنفسها قالت آريا بعناد: لن أفعل، لكن عندما نزلَ يورن بالسَّيف الخشبي على ظَهر فخذيها، تفجَّرت الصَّرخة من فمها رغمًا عنها. «أتحسب أن هذا مؤلم؟ جرِّب هذه إذن»، وهوَت العصا مصفِرةً لتَصرُخ آريا ثانيةً وتتشبَّث بالشَّجرة لتمنع نفسها من السُّقوط. «واحدة أخرى»، فتمسَّكت بالشَّجرة أكثر وهي تمضغ شفتها، وجفلَت عندما سمعت العصا تشقُّ الهواء، وهذه المرَّة جعلَتها الضَّربة تثب وتعوي. لن أبكي، لن أفعل ذلك، أنا من آل ستارك أبناء وينترفل، الذِّئب الرَّهيب رمزنا، والذِّئاب الرَّهيبة لا تبكي. كانت تحسُّ بخيط الدَّم الذي سالَ على ساقها اليُسرى وقد اشتعلَت فخذاها وأليتيها ألمًا، وقال يورن: «لعلِّي نلتُ انتباهك الآن. المرَّة القادمة عندما تضرب أحد إخوتك بهذه العصا، سينولك ضِعف ما نالَ، مفهوم؟ والآن غطِّ نفسك».

هؤلاء ليسوا إخوتي، فكَّرت آريا وهي تميل لترفع سراويلها ثم تُوثِقها بالأربطة والحزام، لكنها كانت أعقل من أن تُصارِحه بأفكارها.

كان يورن يتطلَّع إليها، وسألها: «هل جُرحت؟».

قالت لنفسها: بهدوء المياه الرَّاكدة، تمامًا كما علَّمها سيريو فورل، ثم أجابَته: «بعض الشَّيء».

رَدَّ بحدَّة: «وهذا الصَّبِي هوت پاي جروحه أسوأ منكِ. ليس هو من قتلَ أباكِ يا فتاة، وليس ذلك اللِّص لومي أيضًا، وضربهما لن يُعيده».

غمغمَت آريا بكآبة: «أعرفُ».

- «سأُخبِركِ بشيءٍ لا تعرفينه. ما حدثَ لم يكن من المفترَض أن يَحدُث. لقد كنتُ أستعدُّ لمغادَرة المدينة بالفعل وقد ابتعتُ وحمَّلت العربات وكل شيء، ثم يأتي لي رجل ومعه لي صبيٌّ وكيس من النُّقود ورسالة، لا عليكِ بمن أرسلها، يقول لي إن اللورد إدارد سيرتدي أسود حَرس اللَّيل، يقول لي أن أنتظِر لأنه سيأتي معي. لماذا تحسبينني كنتُ هناك؟ لكن شيئًا غامضًا حدثَ».

تنهَّدت آريا وقالت: «چوفري. يَجدُر بأحدهم أن يَقتُله».

قال يورن: «أحدهم سيفعل، لكنه لن يكون أنا، ولا أنتِ»، وألقى لها سيفها الخشبي، وأثناء عودتهما إلى الطَّريق قال لها: «معي القليل من التَّبغ المُر في العربة. امضغيه وسيُخَفِّف الألم».

وخفَّف التَّبغ المُر الألم بعض الشَّيء بالفعل، وإن كان مذاقه كريهًا وجعلَ بُصاقها بلون الدَّم، وعلى الرغم من هذا وجدَت نفسها مرغَمةً على المشي في اليوم التَّالي واليوم الذي تلاه والذي تلاه، بما أن الألم لم يخفَّ لدرجة أن تستطيع ركوب الحمار. أمَّا هوت پاي فكان أسوأ حالًا، واضطرَّ يورن لتحريك بعض البراميل كي يستطيع الصَّبي التمدُّد في مؤخِّرة واحدةٍ من العربات فوق أجولة الشَّعير، وكلما داسَت عجلة على صخرةٍ كان يُطلِق أنينًا متوجِّعًا، بينما ابتعدَ لومي أخضر اليد عن آريا لأقصى مسافةٍ ممكنة على الرغم من أن ضررًا لم يُصِبه، وقال لها الثَّور وهي تمشي إلى جوار حماره: «إنه يرتعش كلما نظرت إليه». لم تُجِبه، إذ بدا أن عدم الكلام مع أحدٍ على الإطلاق أكثر أمنًا.

تمدَّدت تلك اللَّيلة على دثارها الخفيف فوق الأرض الصُّلبة ورمقَت المذنَّب الأحمر العظيم الذي بدا بهيًّا ومخيفًا في الآن نفسه. أطلقَ عليه الثَّور

اسم «السَّيف الأحمر»، مدعيًا أنه يبدو كسيفٍ لا يزال نصله متَّقدًا وقد خرجَ للتَّوِّ من كير الحدَّاد، وعندما ضيَّقت آريا عينيها ونظرَت من الزَّاوية الصَّحيحة استطاعَت بدورها أن ترى السَّيف، وإن لم يكن سيفًا جديدًا، بل «جليد»، سيف أبيها العظيم المصنوع من الفولاذ الڤاليري المموَّج، والأحمر هو دماء اللورد إدارد التي صبغَت النَّصل بَعد أن قطعَ عدالة الملك السير إلين رأسه. لقد جعلَها يورن تَنظُر بعيدًا عندما حدثَ هذا، لكن بدا لها أن المذنِّب يبدو كما فعلَ «جليد»... بَعدها.

عندما غابَت في النَّوم أخيرًا حلمَت بالوطن. طريق الملوك يمرُّ بوينترفل قبل أن ينتهي بـ«الجِدار»، ويورن وعدَها بأنه سيتَرُكها هناك دون أن يملك أحدٌ أيَّ فكرةٍ عن هويَّتها. إنها تشتاق لرؤية أمِّها من جديد، وروب وبران وريكون... لكن چون سنو كان أكثر من فكَّرت فيه، وتمنَّت لو أمكنَ بشكلٍ ما أن يَبلُغوا «الجِدار» قبل وينترفل، كي ينفش چون شَعرها ويُناديها بـ«أختيَ الصَّغيرة». كانت لتقول له إنه أوحشَها، وكان ليقول في اللَّحظة ذاتها إنها أوحشَته أيضًا، كعادتهما الدَّائمة في قول الأشياء في آنٍ معًا. لكم تمنَّت أن يَحدُث هذا، لكم تمنَّت أن يَحدُث أكثر من أيِّ شيءٍ آخَر.

سانزا

بزغَ الصَّباح يوم ميلاد الملك جوفري مُشرقًا كثير الرِّيح، التي دفعَت السَّحاب في السَّماء، ليلوح من خلاله الذَّيل الطَّويل الممتدُّ من المذنَّب العظيم. كانت سانزا تتطلَّع إليه من نافذة غُرفتها في البُرج، عندما وصلَ السير آريس أوكهارت ليُرافقها إلى مضمار المباريات، فسألَته: «ما الذي يعنيه في رأيك؟».

أجابَ السير آريس من فوره: «يعني المجد لخطيبك. انظُري كيف يتوهَّج عبر السَّماء في يوم ميلاد جلالته، كما لو أن الآلهة نفسها رفعَت رايةً على شَرفه. لقد سمَّاه العامَّة «مذنَّب الملك جوفري»».

لا ريب أن هذا ما قالوه لجوفري، لكن سانزا لم تكن واثقةً بصحَّته، فقالت: «سمعتُ بعض الخدم يُسَمُّونه «ذيل التنِّين»».

- «الملك جوفري يجلس حيث جلسَ إجون التنِّين من قبل، في القلعة ذاتها التي شيَّدها ابنه. إنه خليفة التنِّين، والأحمر لون عائلة لانستر، وهذه علامة أخرى. ليس لديَّ شَكٌّ في أن الآلهة أرسلَت هذا المذنَّب لتُبَشِّر بصعود جوفري إلى العرش. معناه أنه سينتَصر على أعدائه».

أهذا صحيح؟ هل يُمكن أن تكون الآلهة بهذه القسوة؟ إن أمَّها من أعداء جوفري الآن، وشقيقها روب عدوٌّ آخَر. لقد ماتَ أبوها بأمر الملك، فهل جاءَ الدَّور على روب والسيِّدة والدتها؟ المذنَّب أحمر اللَّون بالفعل، لكن جوفري ينتمي إلى عائلة باراثيون تمامًا كما ينتمي إلى عائلة لانستر، ورمز عائلة باراثيون وعلٌ أسود على خلفيَّةٍ ذهبيَّة. أفلم يكن من المفترَض أن تُرسِل الآلهة لجوف مذنَّبًا ذهبيًّا إذن؟

أغلقَت سانزا مصراعي النَّافذة والتفتَت بعيدًا عنها بحركةٍ حادَّة، فقال السير آريس: «تبدين رائعة الجَمال اليوم يا سيِّدتي».

- «أشكرك يا سيِّدي». كانت سانزا تعرف أن چوفري سيقضي بأن تحضر دورة المباريات المُقامة على شَرفه، ولهذا أولَت وجهها وثيابها عنايةً خاصَّةً، فارتدَت فُستانًا من الحرير الأرجواني الفاتح وشَبكة شَعر من أحجار القمر أهداها إياها من قبل. كان الفُستان طويل الكُمَّين ليُخفي ما على ذراعيها من كدمات، هي هديَّة من چوفري أيضًا، فعندما نما إليه نبأ تنصيب روب ملكًا في الشَّمال كانت غضبته عاتيةً، وأرسلَ السير بوروس ليضربها.

- «هيا بنا؟»، قال السير آريس ومَدَّ ذراعه لتتأبَّطها، فتركَته يقودها إلى خارج غُرفتها. إذا لم يكن هناك مفرٌّ من أن يُلازمها أحد فُرسان الحَرس الملكي كظِلِّها، فهي تُفَضِّل أن يكون هو وليس أَحدًا من الآخَرين، فالسير بوروس سريع الغضب، والسير مرين بارد الأسلوب، والنَّظرة الميتة في عيني السير ماندون تُشعِرها بعدم الرَّاحة، بينما يُعامِلها السير پرستون كطفلةٍ بَلهاء. السير آريس أوكهارت -على عكس هؤلاء- لطيف المعشر ويُعامِلها بدماثة، حتى إنه اعترضَ ذات مرَّةٍ عندما أمرَه چوفري بأن يضربها. صحيحٌ أنه ضربَها في النِّهاية، لكن ليس بالقوَّة نفسها كالسير مرين أو السير بوروس، وعلى الأقل جادلَ قبل أن يُطيع الأمر. الآخَرون يُطيعون بلا مناقَشة... باستثناء كلب الصَّيد، وإن لم يَحدُث أن أمرَه چوف بأن يُعاقِبها من قبل، فهو يستعين دائمًا بالخمسة الآخَرين لهذا الغرض.

كان للسير آريس شَعر بُنِّيٌّ فاتح ووجه ليس بالقبيح، واليوم جعلَ من نفسه صورةً بالغة الأناقة وقد ثبَّت معطفه الحريري الأبيض عند الكتف بدبُّوس على شكل ورقة شجرٍ ذهبيَّة، وارتدى سُترةً زيَّنت صدرها شجرة سنديان غزيرة الفروع مشغولة بخيوطٍ ذهبيَّةٍ برَّاقة. سألَته سانزا وهما ينزلان السَّلالم وقد تأبَّطت ذراعه: «مَن تحسبه سيفوز بمراتب الشَّرف اليوم؟».

أجابَ السير آريس مبتسمًا: «أنا، لكني أخشى أنه سيكون فوزًا بلا طعم، فالمضمار صغير ومتواضع، ولن يشترك في المباريات غير أربعين على

الأكثر، بمن فيهم مُرافِقو الفُرسان والمُحارِبون غير النِّظاميِّين. ليس هناك الكثير من الشَّرف في إسقاط صبيٍّ غِرٍّ عن ظَهر حصانه».

تذكَّرت سانزا دورة المباريات السَّابقة وكم كانت مختلفةً. كان الملك روبرت قد أقامَها على شَرف أبيها، ومن جميع أنحاء البلاد أتى كبار اللوردات والأبطال الذين تُحكى عنهم الحكايات لِيُشارِكوا فيها، وجاءَت المدينة كلها لتتفرَّج. تذكَّرت كم كانت بهيَّةً تُكَلِّلها الفخامة؛ الحقل المليء بالسُّرادقات المنصوبة بطول النَّهر وكيف علَّق كلُّ فارسٍ تُرسه أمام بابه، والصَّف الطَّويل من الرَّايات الحريريَّة التي تُرَفرِف في الهواء، وألق نور الشَّمس المنعكِس على الفولاذ اللَّامع ومهامز الخيل المذهَّبة. طول النَّهار دوَّت أصوات الأبواق والحوافر، وامتلأَت اللَّيالي بالولائم والأغاني. تلك كانت أكثر الأيام سِحرًا في حياتها على الإطلاق، لكنها تبدو الآن كذكرى من زمنٍ آخَر، فقد ماتَ روبرت باراثيون، وماتَ أبوها مقطوع الرَّأس باعتباره خائنًا على عتبة سِپت بيلور الكبير، والآن هناك ثلاثة ملوكٍ في البلاد، والحرب مشتعلة وراء نهر الثَّالوث، بينما تمتلئ المدينة بالبائسين اليائسين. لا عجب أنهم أقاموا دورة مباريات چوف وراء أسوار القلعة الحمراء الحجريَّة السَّميكة.

- «هل تعتقد أن الملكة ستحضر؟». كانت سانزا تَشعُر دومًا بأمانٍ أكثر في وجود سرسي التي تكبح جماح ابنها.

- «أخشى أنها لن تفعل يا سيِّدتي. المجلس مجتمع لمسألةٍ عاجلة»، أجابَ السير آريس، ثم خفضَ صوته مضيفًا: «اللورد تايوين استقرَّ في هارنهال بدلًا من أن يقود جيشه إلى المدينة كما أمرَت الملكة، وجلالتها مستشيطة غضبًا»، ولاذَ بالصَّمت مع مرور طابورٍ من حَرس لانستر بهما، وقد ارتدوا المعاطف القرمزيَّة والخوذات ذات ريشة الأسد. السير آريس مولعٌ بالنَّميمة، لكن فقط عندما يستوثِق من أن لا أحد غير مرغوب يسمعه.

نصبَ النجَّارون المنصَّة والمضمار في الفِناء الخارجي. كان المنظر بائسًا في الحقيقة، والحُضور القلائل الذين جاءوا لِيُشاهِدوا المباريات لم يملأوا أكثر من نِصف المقاعد. معظم المتفرِّجين كانوا من حَرس المدينة ذوي المعاطف الذَّهبيَّة أو حَرس عائلة لانستر ذوي المعاطف القرمزيَّة، أمَّا

اللوردات والليديهات فلم يحضر منهم غير القِلَّة القليلة التي تبقَّت في البلاط. كان اللورد جايلز روزبي يَسعُل في منديلٍ مربَّع من الحرير الوردي، والليدي تاندا محاطةً بابنتيها، لوليس البليدة الهادئة وفاليس ذات اللِّسان اللَّاذع. الأمير چالابار شو ذو البشرة الأبنوسيَّة كان منفيًّا بلا ملاذٍ آخَر، والليدي إرميساند مجرَّد رضيعةٍ جالسة في حِجر مُرضِعتها. يقولون إنهم سيُزَوِّجونها قريبًا من أحد أبناء عمومة الملكة، كي يُسيطِر آل لانستر على أراضيها.

كان الملك مستترًا من الشَّمس تحت ظُلَّةٍ قرمزيَّة، وقد أراحَ ساقه باستهتارٍ على ذراع كرسيه الخشبي المنقوش، وجلسَت الأميرة مارسلا والأمير تومن وراءه، فيما وقفَساندور كليجاين في مؤخِّرة المقصورة الملكيَّة منتبهًا وقد أراحَ يديه على حزام سيفه، وانسدلَ معطف الحَرس الملكي الأبيض المثبَّت بدبُّوسٍ محلًّى بالجواهر من على كتفيه العريضتين، وقد بدا لون قُماش المعطَف الثَّلجي غير طبيعيٍّ بشكلٍ ما فوق الصُّدرة البُنِّيَّة الخشنة والسُّترة الجلديَّة المرصَّعة بالأزرار الحديديَّة اللتين ارتداهما. «الليدي سانزا»، أعلنَ كلب الصَّيد باقتضابٍ بصوته الخشن كالمنشار في الخشب عندما رآها، وقد ارتعشَ جانِب فمه كما يفعل كلما تكلَّم، بسبب النُّدوب التي خلَّفها الحريق في وجهه وعُنقه.

هزَّت الأميرة مارسلا رأسها بتحيَّةٍ خجول على ذِكر اسم سانزا، أمَّا الأمير تومن الصَّغير ذو الجسم الممتلئ فوثبَ من مكانه بحماسةٍ قائلًا: «هل سمعتِ يا سانزا؟ سأشترِكُ في المباريات اليوم. أمِّي سمحَت لي بالرُّكوب». كان تومن في الثَّامنة من العُمر لا أكثر، يُذَكِّرها بأخيها الصَّغير بران لكون الاثنين في السِّنِّ نفسها.

بران في وينترفل الآن، قعيد لكن آمِن، وكانت سانزا لتدفع أيَّ ثَمَنٍ لتكون معه في هذه اللَّحظة. قالت لتومن برصانة: «كم أخشى على حياة خصومك إذن».

قال چوف وهو ينهض: «خصومه سيكونون محشوِّين بالقَش». كان الملك يرتدي واقي صدرٍ مذهَّبًا نُقِشَ عليه أسدٌ فغرَ فاه بالزَّئير، كأنه يتوقَّع

أن تبتلعهم الحرب في أيِّ لحظة. إنه في الثَّالثة عشر من العُمر اليوم، وطويل القامة بالنِّسبة لسِنِّه، له ذَهب شَعر أبناء عائلة لانستر وخُضرة أعيُنهم.

قالت وهي تنحني تحيَّةً: «جلالة الملك».

وانحنى السير آريس بدوره قائلًا: «أستميحك عُذرًا يا جلالة الملك، يجب أن أجهِّز نفسي للمضمار».

صرفَه چوفري بإشارةٍ مقتضبةٍ من يده وقد أمعنَ النَّظر في سانزا من قمَّة رأسها حتى أخمص قدميها، ثم قال: «يَسُرُّني أنكِ ارتديتِ أحجاري الكريمة».

إذن فقد قرَّر الملك أن يلعب دور الشَّهم النَّبيل اليوم. بَثَّ هذا شعورًا بالارتياح في سانزا، فقالت: «أشكرك عليها... وعلى كلماتك الرَّقيقة. أتمنَّى لك يوم ميلادٍ مباركًا يا جلالة الملك».

- «اجلسي»، قال چوف بلهجةٍ آمرة وهو يُشير إلى الكرسي الفارغ المجاور له. «هل سمعتِ؟ لقد ماتَ الملك الشحَّاذ».

- «مَن؟». للحظةٍ خشيَت سانزا أنه يقصد أخاها روب.

- «ڤسيرس، آخِر أبناء الملك المجنون إيرس. كان يهيم في المُدن الحُرَّة مِن قبل أن أولَد ويدعو نفسه ملكًا. أمِّي تقول إن الدوثراكي توَّجوه أخيرًا... بالذَّهب المصهور»، وأطلقَ ضحكةً وتابعَ: «هذا طريف، أليس كذلك؟ التنِّين كان رمزهم، فلو أن ذئبًا قتلَ أخاكِ الخائن لكان الأمر بالطَّرافة نفسها تقريبًا. ربما أُطعِمه للذِّئاب فعلًا بَعد أن أوقِع به. هل قلتُ لك إنني أنوي أن أواجهه في قتالٍ فردي؟».

- «كم أحبُّ أن أرى هذا يا جلالة الملك». أكثر مما تتوقَّع. ألقَت سانزا ردَّها بنبرةٍ هادئةٍ مهذَّبة، وعلى الرغم من ذلك ضيَّق چوفري عينيه محاولًا أن يستشفَّ إن كانت تسخَر منه، فسارعَت تسأله: «هل ستشترك في المباريات اليوم؟».

عقدَ الملك حاجبيه مجيبًا: «السيِّدة والدتي قالت إن هذا لن يليق لأن المباريات مُقامة على شَرفي، ولولا هذا لكنت البطل اليوم، أليس كذلك أيها الكلب؟».

ارتعشَ فم كلب الصَّيد وهو يردُّ: «ضد هذه الشِّرذمة؟ طبعًا، ولِمَ لا؟».

تذكَّرت سانزا أنه كان بطل دورة المباريات التي أقيمَت على شَرف أبيها، فسألَته: «هل ستُشارِك في النِّزال اليوم يا سيِّدي؟».

أجابَها كليجاين بصوتٍ امتلأَ بالازدراء: «الأمر لا يستحقُّ أن أسلِّح نفسي حتى. إنها دورة للبعوض».

قال الملك ضاحكًا: «لكلبي نباحٌ هادرٌ حقًّا. ربما عليَّ أن آمُره بأن يُقاتِل بطل اليوم حتى الموت». كان چوفري مغرمًا بجعل الرِّجال يتقاتَلون حتى الموت.

- «عندئذٍ سيَنقُص فُرسانك واحدًا». لم يُرَدِّد كلب الصَّيد قَسم الفُرسان قَطُّ، لكن أخاه فارس، وهو يبغض أخاه.

دوَّت الأبواق، فعادَ الملك يستقرُّ في كرسيه والتقطَ يد سانزا. في السَّابق كان هذا كفيلًا بأن يجعل ضربات قلبها تتسارَع، لكن ذلك كان قبل أن يستجيب لالتماسها الرَّحمة بأن قدَّم لها رأس أبيها. الآن تملؤها لمسته بالاشمئزاز، لكنها أعقل من أن تُبدي هذا، فجعلَت نفسها تجلس بمنتهى الثَّبات.

نادى مُنادٍ: «السير مرين ترانت فارس الحَرس الملكي».

دخلَ السير مرين من الجهة الغَربيَّة للسَّاحة مدرَّعًا بالصَّفائح المعدنيَّة البيضاء البرَّاقة التي نُقِشَت بالذَّهب، وقد امتطى جوادًا أبيض كالحليب له لِبدة رماديَّة مسترسلة، وخفقَ معطفه من ورائه كحقلٍ اكتسى بالثُّلوج، وفي يده حملَ رُمحًا طوله اثنا عشر قدمًا.

صاحَ المُنادي: «السير هوبر سليل عائلة ردواين من «الكرمة»»، فدخلَ السير هوبر من الشَّرق راكبًا فَحلًا أسود عليه كسوة جمعَت بين اللَّونين الخمري والأزرق، وهما اللَّونان نفساهما اللذان رُسِمَت بهما الخطوط على رُمحه، بينما زيَّن عنقود العنب رمز عائلته التُّرس الذي يحمله. كان التَّوأمان ردواين ضيفيَّ الملكة بغير إرادتهما، تمامًا مِثل سانزا نفسها التي تساءلَت عن صاحِب فكرة أن يشترك الأخوان في دورة مباريات چوفري، وخمَّنت أنها ليست فكرتهما.

بإشارةٍ من قيِّم الاحتفالات، سدَّد المُقاتلان رُمحيهما وهمزَ كلٌّ منهما حصانه، لترتفع صيحات الحرَّاس المتفرِّجين واللوردات والليديهات

الجالسين على المنصَّة، وفي منتصَف السَّاحة التقى الفارسان بصدمةٍ هائلة من الفولاذ والخشب، وانفجرَ الرُّمح الأبيض قبل الرُّمح المخطَّط إلى آلاف الشَّظايا بفارِق ثانيةٍ واحدة، ليترنَّح هوبر ردواين من عُنف الارتطام، وإن تمكَّن بشكلٍ ما من أن يظلَّ فوق سَرجه. دارَ الفارسان بحصانيهما عند طرفي المضمار القَصيَّين والتقطَ كلٌّ منهما رُمحًا جديدًا من مُرافِقه، بينما صاحَ السير هوراس ردواين توأم السير هوبر مشجِّعًا أخاه. لكن في المحاوَلة الثَّانية سدَّد السير مرين رأس رُمحه ليضرب السير هوبر في صدره ويُسقِطه من على ظَهر الحصان فيضرب الأرض بضجَّةٍ مسموعة. أطلقَ السير هوراس سبابًا وهرعَ ليُساعِد أخاه المضَعضَع على الخروج من المضمار.

أعلنَ الملك چوفري: «أداء سيِّئ».

جاءَت صيحة المُنادي: «السير بالون سوان من ستونهلم في منطقة «الدَّيدب الأحمر»»، فدخلَ السير بالون وقد زيَّن خوذته العظيمة جناحان أبيضان منبسطان، بينما تقاتلَت البجعات البيضاء والسَّوداء على تُرسه. ثم صاحَ المُنادي من جديد: «موروس سليل عائلة سلينت ووريث اللورد چانوس سيِّد هارنهال».

- «انظُروا إلى هذا الأبله المختال»، صاحَ چوف مستهزئًا بصوتٍ سمعَه نِصف مَن في السَّاحة. كان موروس مجرَّد مُرافِقٍ لفارس، وحديث العهد في هذا كذلك، وتجلَّت مُعاناته في التحكُّم في رُمحه وتُرسه للجميع. كانت سانزا تعرف أن الرُّمح هو سلاح الفارس، بينما عائلة سلينت كلها وضيعة النَّسب، واللورد چانوس لم يكن أكثر من قائدٍ لحَرس المدينة قبل أن يرفعه چوفري لسيادة هارنهال ويَضُمَّه إلى مجلسه.

فكَّرت سانزا بمرارة: ليته يَسقُط ويُكَلِّل نفسه بالخزي، ليت السير بالون يقتُله. عندما أعلنَ چوفري موت أبيها، كان چانوس سلينت هو من قبضَ على رأس اللورد إدارد المقطوع من شَعره ورفعَه عاليًا ليراه الملك والجمهور، بينما انفجرَت سانزا في البكاء والصُّراخ.

ارتدى موروس معطفًا ذا مربَّعاتٍ من الأسود والذَّهبي فوق درعٍ سوداء عليها زخارف ذهبيَّة ملولَبة، وعلى تُرسه كان الرُّمح الدَّامي الذي اختارَه أبوه

رمزًا لعائلته الجديدة، لكن يبدو أنه لم يكن يدري ماذا يفعل بالتُّرس وهو يحثُّ حصانه على التقدُّم، فضربَ رأس رُمح السير بالون الرَّمز المربَّع على تُرسه مباشرةً، وأسقطَ موروس رُمحه وهو يُكافِح للحفاظ على توازُنه لكنه أخفقَ، وعلقَت قدمه في رِكاب الحصان وهو يَسقُط، فجَرَّ الحصان الهارب الشَّاب حتى نهايةِ المضمار ورأسه يرتطم بالأرض. أطلقَ چوف صيحةً ساخرةً، بينما تساءلَت سانزا مرتاعةً في قرارة نفسها إن كانت الآلهة قد سمعَت دُعاءها المحمَّل برغبة الانتقام، لكن عندما نجحوا في تحرير موروس سلينت من حصانه وجدوه ينزف لكن حيًّا. «لقد اخترنا الخصم الخطأ لك يا تومن»، قال الملك لأخيه. «الفارس المصنوع من القَشِّ يستطيع النِّزال أفضل من هذا».

بَعدها جاءَ دور السير هوراس ردواين الذي أبلى بلاءً أحسن من توأمه، وتغلَّب على فارس مُسِنٍّ زيَّنت كسوة حصانه الجريفينات[1] الفضِّيَّة على خلفيَّةٍ من خطوط الأزرق والأبيض، لكن على الرغم من بهاء مظهره كان أداء العجوز ضعيفًا، فقال چوفري متبرِّمًا: «هذا عرض رديء».

قال كلب الصَّيد: «لقد حذَّرتك، إنهم بعوض لا أكثر».

كان الملك قد بدأ يُصاب بالسَّأم، وهو ما أثارَ توتُّر سانزا، فخفضَت نظرها وقرَّرت أن تلتزم الصَّمت مهما حدثَ. عندما يعتلُّ مزاج چوفري باراثيون، فمن شأن أيِّ كلمةٍ طائشة أن تُشعِل واحدةً من نوبات ثورته.

صاحَ المُنادي: «لوثور برون، مُحارِب غير نظامي في خدمة اللورد بايلش. السير دونتوس الأحمر سليل عائلة هولارد». كان المُحارِب غير النِّظامي رجلًا صغير الحجم يرتدي درعًا مليئةً بالانبعاجات وخاليةً من الرُّموز، وقد دخلَ من فوره من جانِب السَّاحة الغَربي، بينما غابَ كلُّ أثرٍ لخصمه، إلى أن لاحَ للأعيُن أخيرًا فَحل كستنائي كُسوته كدوَّامة من الحرير القرمزي والأحمر الدَّموي، لكن السير دونتوس نفسه لم يكن على متنه. ظهرَ الفارس بَعد لحظاتٍ وهو يسبُّ ويترنَّح، وقد ارتدى واقي صدرٍ وخوذةً مزيَّنةً بالرِّيش، ولا شيء آخَر. كانت ساقاه مصفرَّتين نحيلتين، وتمايلَ ذَكره بشكلٍ

(1) الجريفين مخلوق أسطوري له جسم أسد ورأس وجناحا عُقاب.

مقزِّز وهو يهرع وراء حصانه. هدرَ المتفرِّجون وضجُّوا بالشَّتائم، بينما أمسكَ السير دونتوس الحصان من لِجامه محاولًا أن يمتطيه، لكنِ الحيوان رفضَ أن يثبت في مكانه، والفارس كان ثملًا لأقصى حَدٍّ وحاولَ أن يضع قدمه الحافية في الرِّكاب عدَّة مرَّاتٍ ولم ينجح. عندئذٍ كان ضحك المتفرِّجين يُدَوِّي في المكان كله... جميعهم باستثناء الملك. في عيني چوفري كانت نظرة تَذكُرها سانزا جيِّدًا، النَّظرة ذاتها التي أطلَّت منهما في ذلك اليوم في سِپت بيلور الكبير عندما حكمَ بالموت على اللورد إدارد ستارك. في النِّهاية استسلمَ السير دونتوس الأحمر وجلسَ في التُّراب وخلعَ خوذته ذات الرِّيش، وصاحَ: «أنا الخاسر، أحضِروا لي نبيذًا».

نهضَ الملك وصاحَ: «برميل نبيذ من الأقبية! سأجعله يغرق فيه!».

سمعَت سانزا نفسها تشهق وتندفع قائلةً: «لا، لا يُمكنك أن تفعل هذا».

أدارَ چوفري رأسه لها وقال: «ماذا قلتِ؟».

لم تُصَدِّق سانزا أنها تكلَّمت حقًّا. هل جُنَّت؟ تقول له لا أمام نِصف الحاشية؟ إنها لم تعنِ أن تقول شيئًا، لكن... السير دونتوس كان ثملًا وسخيفًا وعديم القيمة، لكنه لا يقصد إساءةً.

- «هل قلتِ إنني لا يُمكنني؟ أهذا ما قلتِه؟».

ردَّت سانزا: «أرجوك. قصدتُ فقط أنه... أنه طالِعٌ سيِّئ يا جلالة الملك إذا... إذا قتلت رجلًا في يوم ميلادك».

قال چوفري: «أنتِ تكذبين. حريٌّ بي أن أُغرِقكِ معه بما أنكِ تهتمِّين لأمره هكذا».

خرجَت الكلمات منها يائسةً راجفةً وهي تقول: «أنا لا أبالي به إطلاقًا يا جلالة الملك. فلتُغرِقه أو تقطع رأسه، إنما... اقتله غدًا إذا أردت، لكن أرجوك... ليس اليوم، ليس في يوم ميلادك. لن أحتمل أن يُصيبك طالِع سيِّئ، طالع شنيع حتى بالنِّسبة للملوك... كلُّ المغنِّين يقولون هذا...».

رمقَها چوفري مقطِّبًا وجهه. كان يعرف أنها تكذب، وهي تعي هذا، وسوف يجعلها تنزف من أجل ما قالته.

- «الفتاة على حق»، قال كلب الصَّيد بصوته المبحوح. «ما يزرعه الرَّجل

يوم ميلاده يحصده طيلة أيام العام». كانت نبرته خاليةً من أيٍّ تعبير، كأنه لا يكترث مقدار ذرَّةٍ إن صدَّقه الملك أم لا. أمن الممكن أن هذا حقيقيٌّ فعلًا؟ لم تكن سانزا تعرف، وما قالته كان مجرَّد كلام تُحاوِل أن تتحاشَى به العقاب.

اعتدلَ چوفري بغير رضا في جلسته، وطرَقَعَ أصابعه ناحية السير دونتوس قائلًا: «خُذوه. سآمرُ بقتل هذا المهرِّج غدًا».

قالت سانزا: «هو كذلك حقًّا، مهرِّج. كم أنت لمَّاح لترى هذا. إنه يَصلُح لأن يكون مهرِّجًا لا فارسًا، أليس كذلك؟ يَجدُر بك أن تُلبسه ثياب المهرِّجين وتجعله مهرِّجًا حقيقيًّا. إنه لا يستحقُّ رحمة الموت السَّريع».

تفحَّصها الملك لحظةً، ثم قال: «لعلَّكِ لستِ بالغباء الذي تظنُّه أمِّي»، ورفعَ صوته معلنًا: «هل سمعت سيِّدتي يا دونتوس؟ من اليوم أنت مهرِّجي الجديد. يُمكنك أن تنام مع فتى القمر وترتدي ثياب المهرِّجين».

اعتدلَ السير دونتوس ليجلس على رُكبتيه وقد أفاقَ مع احتكاكه الوشيك بالموت، وقال: «أشكرك يا جلالة الملك، وأنتِ يا سيِّدتي، أشكركِ».

قادَه اثنان من حَرس لانستر بعيدًا، بينما اقتربَ قيِّم الاحتفالات من المقصورة وسألَ: «هل أستدعي مُنازِلًا جديدًا لبرون يا جلالة الملك، أم نشرع في النِّزال التَّالي؟».

- «لا هذا ولا ذاك. هؤلاء بعوض وليسوا فُرسانًا. كنتُ لآمرَ بقتلهم جميعًا لولا أنه يوم ميلادي. المباريات انتهَت. فليَغرُبوا جميعًا عن وجهي».

انحنى قيِّم الاحتفالات، لكن الأمير تومن لم يتحلَّ بطاعته، وقال معترضًا: «لكن من المفترَض أن أُنازِل الرَّجل القَش».

- «ليس اليوم».

- «لكني أريدُ أن أركب!».

- «لا أبالي بما تُريده».

- «أمِّي قالت إنني سأركب!».

قالت الأميرة مارسلا مؤكِّدةً: «هذا ما قالته».

قال الملك ساخرًا: «أمِّي قالت. لا تكوني طفوليَّةً هكذا!».

ردَّت مارسلا بكبرياء: «نحن أطفال، من المفترَض أن نكون طفوليِّين!».

ضحكَ كلب الصَّيد قائلًا: «لديها حقٌّ تمامًا».

قال چوفري وقد غُلِبَ على أمره: «ليكن. حتى أخي لن يكون أسوأ من هؤلاء الآخَرين. أحضِر الطَّاووس[1] أيها القيِّم، فتومن يُريد أن يكون بعوضةً».

أطلقَ تومن صيحة فرح وهرعَ لِيُجَهِّزوه ولحم ساقيه الصَّغيرتين الثَّخينتين يهتزُّ بقوَّة، ونادَته سانزا قائلَةً: «حظًّا سعيدًا».

نصَبوا الطَّاووس في أقصى المضمار بينما تم تزويد حصان الأمير القزم بسَرجه. كان خصم تومن عبارةً عن مُحاربٍ جلديٍّ في حجم طفل، محشو بالقَشِّ ومثبَّت على محور، في يده تُرس وفي الثَّانية رُمح مصنوع من البطانة. كان أحدهم قد ركَّب قرني وعل على رأس الفارس، وتذكَّرت سانزا أن الملك روبرت أبا چوفري كان يضع قرونًا على خوذته... وكذلك عمَّه اللورد رنلي شقيق روبرت، الذي استحالَ خائنًا وتوَّج نفسه ملكًا.

ساعدَ اثنان من مُرافِقي الفُرسان الأمير على ارتداء درعه المزخرفة ذات اللَّونين الفضِّي والقرمزي، ومن رأس خوذته امتدَّت ريشات حمراء طويلة، وعلى تُرسه أخذَ أسد لانستر ووعل باراثيون المتوَّج يمرحان معًا. عاونَه الصَّبيان على ركوب حصانه القزم، ثم تقدَّم السير أرون سانتاجار قيِّم السِّلاح في القلعة الحمراء وناولَ تومن سيفًا طويلًا ذا نصلٍ غير حاد له شكل ورقة الشَّجر، صُنِعَ ليُناسِب يد الأمير ذي الثَّمانية أعوام، فرفعَ تومن السَّيف عاليًا وصاحَ بصوتٍ صبيانيٍّ مرتفع: «كاسترلي روك!»، ووكزَ الحصان واندفعَ فوق الأرض الممهَّدة نحو الطَّاووس. أطلقَت الليدي تاندا واللورد جايلز صيحات تشجيعٍ ضعيفة، فضمَّت سانزا صوتها إليهما، بينما جلسَ الملك وتفرَّج صامتًا.

هرولَ الحصان القزم برشاقةٍ حاملًا تومن الذي لوَّح بسيفه بقوَّةٍ وسدَّد ضربةً مُحكمةً لتُرس الفارس أثناء اندفاعته، فدارَ الطَّاووس وطارَ معه الرُّمح المبطَّن ليضرب الأمير على مؤخِّرة رأسه بعُنف، ليَسقُط من فوق السَّرج

---

(1) الطاووس مجسَّم على شكل إنسان، يُستخدَم في التَّدريب على النِّزال، وعادةً ما يُثبَّت تُرس في إحدى يديه، وفي الثَّانية سيف أو رُمح غير حاد.

وتُخَشخِش درعه كجوالٍ من القدور القديمة وهو يصطدم بالأرض. طارَ سيفه من يده وخَبَّ الحصان بعيدًا عبر الفِناء، بينما تفجَّرت الضَّحكات السَّاخرة من الحضور، وكانت ضحكات چوفري هي الأعلى والأطول.

صاحَت الأميرة مارسلا: «أوه!»، واندفعَت خارجةً من المقصورة نحو أخيها الصَّغير.

وجدَت سانزا نفسها وقد تملَّكتها شَجاعة خرقاء غريبة، فقالت للملك: «يَجدُر بك أن تذهب معها، فلربما تأذَّى أخوك».

هَزَّ كتفيه قائلًا: «وماذا في ذلك؟».

- «يَجدُر بك أن تُساعِده وتُخبِره أنه أبلى بلاءً حسنًا في الرُّكوب». كان يبدو أن سانزا لا تستطيع أن تمنع نفسها من الكلام.

- «لقد سقطَ عن حصانه في التُّراب. هذا ليس بلاءً حسنًا».

تدخَّل كلب الصَّيد قائلًا: «انظُر، الصَّبي شُجاع وسيُحاوِل ثانيةً».

فكَّرت سانزا وهُم يُساعِدون الأمير تومن على ركوب الحصان القزم: ليت تومن كان الأخ الأكبر وليس چوفري. ليس لديَّ مانع في الزواج بتومن.

فاجأَتهم الأصوات التي أتَت من مبنى البوَّابة دون سابق إنذار، وصلصلَت السَّلاسل والشَّبكة الحديديَّة تُسحَب إلى أعلى، ثم انفتحَ المصراعان الضَّخمان لتُصدِر مفصلاتهما صريرًا. سألَ چوفري: «مَن قال لهم أن يفتحوا البوَّابات؟». كانت بوَّابات القلعة الحمراء مغلَقةً منذ أيام مع الاضطرابات السَّائدة في المدينة.

خرجَ صَفٌّ من راكبي الخيل من تحت الشَّبكة الحديديَّة يصحَبهم رنين الفولاذ وهدير الحوافر، فخطا كليجاين من فوره مقتربًا من الملك وقد وضعَ يده على مقبض سيفه الطَّويل. كان الزُّوَّار منهَكين مغبَّرين ويرتدون دروعًا كثيرة الانبعاجات، وإن حملوا راية لانستر ذات الأسد الذَّهبي على خلفيَّته القرمزيَّة. بعضهم كان يرتدي المعاطف الحمراء وقمصان الحلقات المعدنيَّة كجنود لانستر، لكن أكثرهم من المُحارِبين غير النِّظاميِّين والمرتزِقة الذين يرتدون دروعًا غير متناسقة ويحملون أسلحةً من الفولاذ الحاد... وكان هناك آخَرون، رجال همجيُّون مخيفو المنظر خرَجوا من واحدةٍ من حكايات

العجوز نان القديمة، الحكايات المرعبة التي أحبَّها بران، يرتدون الفرو الرَّثَّ والجِلد المقوَّى بالزَّيت المغلي ولهم شَعر طويل ولحى ثائرة. كان بعضهم يضع ضمَّاداتٍ ملوَّثة بالدِّماء على جبهته أو يلفُّها حول يده، والبعض الآخَر تَنقُصه أعين وآذان وأصابع.

وفي وسطهم، على صهوة حصانٍ أحمر طويل وفوق سرج عالٍ يحتضنه من الأمام والخلف، كان تيريون لانستر أخو الملكة القزم الذي يُسَمُّونه العِفريت. كان قد تركَ لحيته تنمو لتُغَطِّي وجهه المضغوط إلى الدَّاخل حتى أصبحَت كُتلةً متشابكةً كثَّةً من الشَّعر الأصفر والأسود الخشن كالسِّلك، وعلى ظَهره انسدلَ معطف مصنوع من فرو قِطط الظِّل الأسود المخطَّط بالأبيض. كان يُمسِك العِنان بيده اليُمنى، بينما وضعَ ذراعه اليُسرى في مِعلاقٍ من الحرير الأبيض، لكن فيما عدا ذلك بدا متنافر الملامح كما تذكَّرته سانزا من زيارته لوينترفل، وبجبهته المنتفخة وعينيه غير المتماثلتين كان لا يزال أقبح رجلٍ رأته على الإطلاق.

لكن تومن همزَ حصانه القزم واندفعَ به بلا تردُّدٍ عبر السَّاحة وهو يصيح بسرور، فتحرَّك واحد من الهمجيِّين -رجل ضخم الجثَّة ثقيل الحركة، كثيف الشَّعر جدًّا لدرجة أن ملامحه كادَت تغيب وراءه- والتقطَ الصَّبي بدرعه وسيفه من فوق السَّرج وأودعَه على الأرض إلى جوار خاله، وتردَّد صدى ضحكات تومن اللَّاهثة على الجُدران وتيريون يُرَبِّت على واقي ظَهره، وأدهشَ سانزا أن رأت أن الاثنين طولهما واحد. جاءَت مارسلا تجري بَعد أخيها، ورفعَها القزم من خصرها ودارَ بها في دائرةٍ وهو يصيح، ثم عادَ الرَّجل الصَّغير يضعها على الأرض وطبعَ قُبلةً خفيفةً على جبهتها، قبل أن يقطع السَّاحة بخطواتٍ متمايلة نحو چوفري وفي أعقابه اثنان من رجاله، مرتزِق أسود الشَّعر والعينين يتحرَّك بخفَّة القِطَّة، وشاب نحيف ذو محجر عينٍ خاوٍ، ومن ورائهما جاءَ تومن ومارسلا.

ركعَ القزم على رُكبته أمام الملك قائلًا: «جلالة الملك».

قال چوفري: «أنت».

- «أنا»، قال العِفريت. «وإن كنتُ أستحقُّ تحيَّةً ألطف من هذه بصفتي خالك وأكبُرك سِنًّا».

قال كلب الصَّيد: «قالوا إنك مُتَّ».

نظرَ الرَّجل الصَّغير إلى الرَّجل الكبير بعينين إحداهما خضراء والثَّانية سوداء، وكلتاهما باردة تمامًا، وقال: «كنتُ أُخاطِب الملك وليس كلبه».

قالتِ الأميرة مارسلا: «أنا سعيدة لأنك لم تَمُت».

- «أُشارِكُكِ الرَّأي يا حُلوتي»، ثم التفتَ إلى سانزا قائلًا: «سيِّدتي، أنا آسفٌ لخسارتك. الآلهة قاسية حقًّا».

لم تستطِع سانزا التفكير في كلمةٍ تقولها له. كيف يُمكن أن يكون آسفًا لخسارتها؟ أيسخر منها؟ ليست الآلهة هي القاسية، بل چوفري.

قال القزم: «آسفُ لخسارتك أيضًا يا چوفري».

- «أيُّ خسارة؟».

- «خسارة أبيك على ما أعتقد؟ كان رجلًا ضخمًا قويًّا أسود اللِّحية. ستتذكَّره إذا حاولت. كان الملك قبلك».

- «أوه، هو، نعم، كان هذا مُحزِنًا للغاية، أن يَقتُله خنزير برِّي».

- «أهذا ما يقولونه يا جلالة الملِك؟».

قطَّب چوفري وجهه، فشعرَت سانزا أن عليها أن تقول شيئًا. ما الذي كانت السِّپتة موردن تُرَدِّده لها؟ الليدي درعها اللَّباقة، نعم. هكذا ارتدَت درعها وقالت: «يُؤسِفني أن السيِّدة والدتي أخذَتك أسيرًا يا سيِّدي».

رَدَّ تيريون: «أناسٌ كثيرون للغاية آسفون لهذا، وقد يأسف البعض أكثر بمراحل قبل أن أنتهي، لكن أشكركِ على رقَّتكِ. چوفري، أين يُمكنني أن أجد أمَّك؟».

أجابَ الملك: «إنها مع أعضاء مجلسي. أخوك چايمي يخسر المعركة وراء المعركة»، وحدجَ سانزا بنظرةٍ غاضبة كأنه خطؤها. «لقد أسرَه آل ستارك وخسرنا ريڤرزن، والآن أخوها الأحمق يُسَمِّي نفسه ملكًا».

ابتسمَ القزم ابتسامته المعوجَّة وقال: «كلُّ أصناف النَّاس يُسَمُّون أنفسهم ملوكًا هذه الأيام».

لم يدرِ جوف ماذا يستنتج من هذا، وإن بدا مرتابًا مرتبكًا، ثم قال: «نعم. طيِّب، أنا مسرور لأنك لم تَمُت يا خالي. هل أحضرت لي هديَّةً ليوم ميلادي؟».

- «نعم، عقلي».

- «أفضلُ رأس روب ستارك»، قال جوف موجِّهًا نظرةً خبيثةً إلى سانزا. «تومن، مارسلا، هيا بنا».

تخلَّف ساندور كليجاين عنهم لحظةً وقال محذِّرًا: «لو كنتُ مكانك لحفظت لساني أيها الرَّجل الصَّغير»، ثم تحرَّك بخطوات واسعة وراء مليكه.

هكذا تُرِكَت سانزا وحدها مع القزم ووحوشه. حاولَت أن تُفَكِّر في شيءٍ آخَر تقوله، وفي النِّهاية خرجَت منها الكلمات: «لقد جرحت ذراعك».

- «واحد من رجالكم الشَّماليِّين أصابَني بكرةٍ شائكة في معركة الفرع الأخضر، ونجوتُ منه بالوقوع من فوق حصاني»، ثم استحالَت ابتسامته السَّاخرة إلى تعبيرٍ ألطف وهو يُمعِن النَّظر في وجهها ويقول: «أألم فقدان أبيكِ هو ما يجعلكِ بهذا الحُزن؟».

ردَّت سانزا في الحال: «أبي كان خائنًا، وأخي والسيِّدة والدتي خائنين كذلك». الاستجابة التي تعلَّمتها بسُرعة. «أنا مخلصة لمحبوبي جوفري».

- «بلا شَك، مخلصة كغزالٍ مُحاط بالذِّئاب».

- «بالأُسود»، همسَت بلا تفكير وتطلَّعت حولها بتوتُّر، لكن لم يكن هناك أحد قريب يسمع.

مَدَّ لانستر يده والتقطَ يدها وضغطَها قائلًا: «أنا مجرَّد أسدٍ صغير يا طفلتي وأقسمُ لك أنني لن أفترسكِ»، ثم انحنى مضيفًا: «لكن يجب أن تسمحي لي بالانصراف الآن، فلديَّ عمل عاجل مع الملكة والمجلس».

راقبَته سانزا إذ ابتعدَ وجسده يتمايَل من جانبٍ إلى جانب مع كلِّ خطوة كشيءٍ من مسرحيَّةٍ غرائبيَّة. كلامه معي أرقُّ من جوفري، لكن الملكة كانت تُكَلِّمني برقَّةٍ هي الأخرى. إنه لانستر رغم كل شيء، أخوها وخال جوف، وليس صديقًا لي. ذات يوم كانت تُحِبُّ الأمير جوفري من صميم قلبها، وتحترم أمَّه الملكة وتثق بها، لكنهما رَدَّا الحُبَّ والثِّقة برأس أبيها، وسانزا لن ترتكب هذا الخطأ ثانيةً أبدًا.

تيريون

بدا السير ماندون مور في ثياب الحَرس الملكي ذات اللَّون الأبيض البارد كجثَّةٍ ملفوفة بالأكفان وهو يقول: «جلالتها أمرَت بعدم إزعاج المجلس المنعقِد».

قال تيريون: «لن أشكِّل إلَّا إزعاجًا صغيرًا يا سيِّدي»، وسحبَ الرَّق من كُمِّه وتابعَ: «إنني أحملُ رسالةً من أبي اللورد تايوين لانستر، يد الملك، وها هو خَتمه».

- «جلالتها لا ترغب في الإزعاج»، كرَّر السير ماندون ببُطءٍ كأن تيريون أبله ولم يسمَعه أول مرَّة.

كان چايمي قد قال له ذات مرَّةٍ إن مور أخطر رجال الحَرس الملكي (مستثنيًا نفسه كالمعتاد)، لأن ملامحه لا تشي بالمرَّة بما قد يفعله في اللَّحظة التَّالية، وكان تيريون ليُرَحِّب بأيِّ إشارةٍ من الرَّجل. على الأرجح سيَقتُل برون وتيميت الفارسِ إذا وصلَ الأمر لرفْع السِّلاح، رغم أنها لن تكون بشارة خيرٍ إطلاقًا إذا استهلَّ وجوده هنا بقَتل أحد حُماة چوفري. لكن أين سُلطته إذنْ لو تركَ الرَّجل يصرفه؟ جعلَ نفسه يبتسم، وقال: «سير ماندون، أنت لم تلتقِ برفيقيَّ. هذا تيميت بن تيميت، يد حمراء من قبيلة الرِّجال المحروقين، وهذا برون. لعلَّك تَذكُر السير ڤارديس إيجن الذي كان قائد حَرس أهل بيت اللورد آرن، أليس كذلك؟».

- «أعرفُ الرَّجل». كانت عينا السير ماندون ذاتي لونٍ رماديٍّ شاحب، مُطفَأتين على نحوٍ عجيب ولا حياة فيهما البتَّة.

قال برون مصحِّحًا بابتسامةٍ خفيفة: «كنت تعرفه».

لم يُحاوِل السير ماندون أن يبدو عليه أنه سمعَ ما قيلَ، بينما قال تيريون بكياسة: «على كلِّ حال، ينبغي حقًّا أن أرى أختي وأقدِّم لها الرِّسالة يا سيِّدي، فهلَّا تلطَّفت وفتحت لنا الباب؟».

لم يستجب الفارس الأبيض، وكان تيريون على وشك محاوَلة استخدام القوَّة للمرور، عندما تنحَّى السير ماندون جانبًا فجأةً وقال: «يُمكنك الدُّخول، أمَّا هما فلا».

انتصارٌ صغير، لكن حُلو المذاق. لقد نجحَ في اختباره الأول، وهكذا دخلَ تيريون لانستر من الباب وهو يكاد يَشعُر بقامته تستَطيل، ليَبتُر خمسة من أعضاء مجلس الملك الصَّغير حوارهم، وتقول أخته سرسي بنبرةٍ جمعَت بين الإنكار والنُّفور: «أنت».

- «أرى الآن ممَّن تعلَّم چوفري الدَّماثة»، قال تيريون وتوقَّف ليُسَدِّد نظرات الإعجاب إلى تمثالي أبي الهول الڤاليريَّيْن اللذين يَحرُسان الباب، وقد أحاطَ نفسه بهالةٍ من الثِّقة بالنَّفس واللا مبالاة، فسرسي تشتمُّ الضَّعف كما تشتمُّ الكلاب الخوف.

جاسَت فيه عينا أخته الخضراوان الجميلتان بلا أدنى أثرٍ للعاطفة، وسألَته: «ماذا تفعل هنا؟».

- «أوصِّلُ رسالةً من السيِّد والدنا»، وتقدَّم بتؤدةٍ إلى المائدة ووضعَ الرَّقَّ المطويَّ بإحكام بينهما.

التقطَ الخصيُّ ڤارس الرِّسالة وأدارَها في يديه الرَّقيقتين المدهونتين بالمساحيق، وقال: «لُطف بالِغ من اللورد تايوين، وشمع الخَتم ذو درجةٍ جميلة من الذَّهبي»، وتفحَّص الخَتم بعنايةٍ مُردِفًا: «كلُّ شيءٍ فيه يوحي بأصالته».

قالت سرسي: «إنه أصيل بالطَّبع»، ونتشَت الرِّسالة من يديه لتكسر الشَّمع وتفرد الرَّق.

راقبَها تيريون وهي تقرأ. كانت أخته قد اتَّخذت مقعد الملك لنفسها، ما جعلَه يستنتج أن چوفري -تمامًا مِثل روبرت- لا يُزعِج نفسه كثيرًا بحضور

اجتماعات المجلس، فصعدَ تيريون إلى مقعد اليد وقد بدا له هذا مناسبًا تمامًا.
قالت الملكة أخيرًا: «هذا سُخف. السيِّد والدي أرسلَ أخي ليحلَّ محلَّه في المجلس، ويدعونا لأن نقبل تيريون يدًا للملك حتى يحين الوقت ويستطيع الانضمام إلينا بنفسه».
داعبَ المِايستر الأكبر پايسل لحيته البيضاء الكثيفة وهَزَّ رأسه بتثاقُلٍ قائلًا: «يبدو أن من الواجب أن نُرَحِّب بك إذن».
- «بالتَّأكيد»، قال چانوس سلينت الأصلع ذو اللُّغد الثَّقيل، الذي يبدو في واقع الأمر كضِفدعة، ضِفدعةٍ متأنِّقة معتدَّة بنفسها دون وجه حق. «إننا في أمسِّ الحاجة إليك يا سيِّدي، فالتمرُّد في كلِّ مكان، وهناك هذا النَّذير المروِّع في السَّماء، والشَّغب في طُرقات المدينة...».
قالت سرسي محتدَّةً: «وخطأ مَن هذا أيها اللورد چانوس؟ رجالك ذوو المعاطف الذَّهبيَّة مكلَّفون بالحفاظ على النِّظام. أمَّا أنت يا تيريون فيُمكنك أن تخدمنا بشكلٍ أفضل في ميدان المعركة».
رَدَّ ضاحكًا: «لا، شكرًا، لقد نلتُ كفايتي من ميادين المعارك. إنني أفضِّلُ أن أجلس على كرسيٍّ لا حِصان، وأن أحمل كأسًا من النَّبيذ لا بلطةً. هل تعرفين ما يقولونه عن هدير الطُّبول وبريق الشَّمس على الدُّروع وكيف تصهل الجياد العظيمة وترمح؟ حسن، الطُّبول أصابَتني بالصُّداع، وبريق الشَّمس على درعي طبخَني كإوزَّةٍ في عيد الحصاد، وتلك الجياد العظيمة تتغوَّط في كلِّ مكان! لكني لا أشتكي، فبَعد كرم الضِّيافة الرَّائع الذي استمتعتُ به في وادي آرن، أجدُ أن الطُّبول وبراز الخيل ولسعات الذُّباب من أشيائي المفضَّلة».
ضحكَ الإصبع الصَّغير وقال: «أحسنت القول يا لانستر، أوافِقك الرَّأي تمامًا».
ابتسمَ تيريون له وهو يتذكَّر خنجرًا معيَّنًا ذا مقبض من عظام التِّنين ونصلٍ من الفولاذ الڤاليري. يجب أن نتكلَّم عن هذا، وقريبًا. تُرى هل سيجد اللورد پيتر ذلك الموضوع مُضحِكًا أيضًا؟ قال لهم: «رجاءً دعوني أقدِّم ما أستطيعُ من خدمات، حتى وإن صَغُرَت».
قرأت سرسي الرِّسالة مجدَّدًا، ثم سألته: «كم رجلًا أحضرت معك؟».

- «بضع مئات، أغلبهم رجالي، فأبي لم يرغب في الاستغناء عن أيٍّ من رجاله. إنه في حرب رغم كلِّ شيء».

- «وما فائدة البضع مئات هؤلاء إذا زحفَ رنلي على المدينة أو أبحرَ ستانيس من دراجونستون؟ أطلبُ جيشًا فيُرسِل لي أبي قزمًا. الملك هو من يُنَصِّب اليد بتصديقٍ من المجلس، وجوفري نصَّب السيِّد والدنا يدًا».

- «والسيِّد والدنا نصَّبني».

- «لا يُمكنه أن يفعل هذا دون موافَقة جوف».

- «اللورد تايوين في هارنهال مع جيشه إذا كنتِ ترغبين في مُناقَشة الأمر معه»، قال تيريون بكياسة، ثم التفتَ يُخاطِب الآخَرين قائلًا: «أيها السَّادة، هلَّا سمحتم لي بالانفراد بأختي؟».

نهضَ ڤارس بخفَّةٍ وقد رسمَ ابتسامته المداهِنة على وجهه، وقال: «لا بُدَّ أنك اشتقت لسماع صوت أختك العذب. أيها السَّادة، من فضلكم، لنمنحهما بعض الوقت معًا. مشكلات بلادنا واضطراباتها باقية».

نهضَ چانوس سلينت بتردُّد والمِايستر الأكبر پايسل بتثاقُل، لكنهما نهضا على كلِّ حال، وتبعهما الإصبع الصَّغير قائلًا: «هل أخبِر الوكيل أن يُجَهِّز مسكنًا في حصن ميجور؟».

- «أشكرك أيها اللورد پيتر، لكني سأستقرُّ في مسكن اللورد إدارد السَّابق في بُرج اليد».

قال الإصبع الصَّغير ضاحكًا: «أنت أشجع مني يا لانستر. إنك تعرف مصير آخِر يدين، أليس كذلك؟».

- «آخر يدين؟ إذا كنت ترغب في إخافتي، فلِمَ لا تقول آخِر أربعة؟».

رفعَ الإصبع الصَّغير حاجبًا وقال: «أربعة؟ هل لاقى اليدان السَّابقان للورد آرن نهايةً مؤسفةً ما في البُرج؟ أخشى أني كنتُ صغيرًا ولم أهتم بهما كثيرًا».

- «يد إيرس تارجارين الأخير قُتِلَ أثناء نهْب كينجز لاندنج، وإن كنتُ أشكُّ أنه وجدَ الوقت ليستقرَّ في البُرج، فقد مارسَ مهام منصبة مدَّة أسبوعين فقط. اليد الذي سبقَه أُحرِقَ حتى الموت، وقبلهما جاءَ يدان آخَران ماتا طريدَيْن مُعدِمين في المنفى واعتبرا نفسيهما محظوظَيْن. أعتقدُ أن السيِّد

والدي كان آخِر يد يَخرُج من كينجز لاندنج بألقابه وأملاكه وأعضائه كلها سليمة».

قال الإصبع الصَّغير: «مُدهش. هذا سبب أقوى يجعلني أفضِّل النَّوم في زنزانة».

قد تنال تلك الأمنية، فكَّر تيريون لكنه قال: «الشَّجاعة بنت عم التهوُّر، أو أن هذا ما سمعته. أيًّا كانت اللَّعنة التي تَسكُن بُرج اليد، فأتمنَّى أن أكون صغيرًا بما يكفي لألَّا ألفت انتباهها».

ضحكَ چانوس سلينت وابتسمَ الإصبع الصَّغير، وتبعهما المِايستر الأكبر پايسل إلى الخارج وقد انحنى بوقار.

قالت أخته حينما صارا وحدهما أخيرًا: «أتمنَّى أن أبي لم يجعلك تقطع كلَّ تلك المسافة لتُعَذِّبنا بدروس التَّاريخ».

تنهَّد تيريون وقال لها: «لكم اشتقتُ لوقْع صوتكِ الجميل!».

ردَّت سرسي: «لكم اشتقتُ لاقتلاع لسان ذلك الخصيِّ بكُلَّابةٍ ساخنة! هل فقدَ أبونا عقله أم أنك زوَّرت هذه الرِّسالة؟»، وقرأَت الرَّقَّ من جديد وضيقُها يتعاظَم، ثم أضافَت: «لماذا يبتليني بك؟ لقد أردته أن يأتي بنفسه»، وسحقَت أصابعها رسالة اللورد تايوين واستطردَت: «أنا الوصيَّة على چوفري، وأرسلتُ له أمرًا ملكيًّا!».

قال تيريون: «وهو تجاهَله. إن لديه جيشًا كبيرًا ويستطيع أن يفعل هذا، وهو ليس أول من يفعلها على كلِّ حال، أليس كذلك؟».

شدَّت سرسي فمها ورأى تيريون وجهها يحتقن وهي تقول: «لو أعلنتُ أن هذه الرِّسالة مزوَّرة وقلتُ لهم أن يُلقوك في زنزانة فلا أحد سيتجاهَل هذا، أؤكِّدُ لك».

كان يعرف أنه يطأ أرضًا غير صلبةٍ الآن، وأيُّ خطوةٍ خاطئة كفيلة بأن يَسقُط وتبتلعه. هكذا رَدَّ بلهجةٍ لطيفة: «لا أحد، وخصوصًا أبانا، هذا الذي يملك جيشًا. لكن لِمَ ترغبين في إلقائي في زنزانةٍ يا شقيقتي العزيزة وقد قطعتُ هذه المسافة الطَّويلة كلها لأُساعِدكِ؟».

- «وأنا لا أحتاجُ مساعَدتك. وجود أبي هنا هو ما أمرتُ به».

قال: «نعم، لكن مَن ترغبين في وجوده حقًّا هو چايمي».

كانت أخته تتوسَّم في نفسها المَكر، لكنه تربَّى معها، ويستطيع أن يقرأ ملامحها كما يقرأ واحدًا من كُتبه المفضَّلة، وما قرأه الآن هو الغضب، والخوف، واليأس. «چايمي...».

قاطَعها: «... أخي مِثلما هو أخوكِ. أعطيني دعمكِ وأعدكِ بأننا سنُحَرِّر چايمي ونُعيده إلينا سالمًا».

قالت سرسي: «كيف؟ صبيُّ ستارك وأمُّه لن ينسيا أننا قطعنا رأس اللورد إدارد».

وافقَها تيريون: «هذا صحيح، لكنكِ ما زلتِ تحوزين ابنتيه، أليس كذلك؟ لقد رأيتُ الفتاة الكبيرة في السَّاحة مع چوفري».

أجابَت الملكة: «سانزا فقط. القصَّة المُعلنَة أن المزعِجة الصَّغيرة لديَّ أيضًا، لكنها كذبة. لقد أرسلتُ مرين ترانت ليقبض عليها عندما ماتَ روبرت، لكن معلِّم الرَّقص الملعون تدخَّل وفرَّت الفتاة ولم يرها أحد منذ ذلك الحين. إنها ميتة في الغالب. كثيرون جدًّا ماتوا يومها».

كان تيريون يأمل في وجود ابنتي ستارك الاثنتين، لكن قد تكفي واحدة منهما. «كلِّميني عن أصدقائنا في المجلس».

رمقَت سرسي الباب وسألَته: «ماذا عنهم؟».

- «يبدو أن أحدًا منهم لا يروق أبي. كان يتساءَل عندما تركته عن شكل رؤوسهم على الأسوار إلى جوار رأس اللورد إدارد»، ومالَ إلى الأمام عبر المائدة وقال: «هل أنتِ متأكِّدة من إخلاصهم؟ هل تثقين بهم؟».

بحدَّةٍ ردَّت سرسي: «أنا لا أثقُ بأحد، لكني أحتاجهم. هل يعتقد أبي أنهم يتلاعَبون بنا؟».

- «يرتابُ بالأحرى».

- «لماذا؟ ما الذي يعرفه؟».

هَزَّ تيريون كتفيه قائلًا: «يعرف أن حُكم ابنكِ القصير لم يكن غير استعراضٍ طويل من الحماقات والكوارث حتى الآن، ما يعني أن أحدهم يُسدي چوفري نصائح في غاية السُّوء».

حدجَته سرسي بنظرةٍ متفحِّصة، وقالت: «چوف لا يفتقر إلى النَّصائح السَّديدة، لكن طيلة عُمره وهو عنيد، والآن يرى وقد باتَ ملكًا أن عليه أن يفعل ما يروقه، لا ما يُملَى عليه».

قال تيريون: «التِّيجان تفعل أعجب الأشياء طرًّا بالرؤوس التي تستقرُّ فوقها. ما حدثَ مع إدارد ستارك، أهو من صُنع چوفري؟».

تجهَّمت ملامح سرسي وهي تُجيب: «كانت تعليماته أن يعفو عن ستارك ويسمح له بالانضمام لحَرس اللَّيل، ما كان كفيلًا بإبعاده عن طريقنا إلى الأبد، ولربما استطعنا التَّصالُح مع ابنه كذلك، لكن چوف قرَّر من تلقاء نفسه أن يُعطي الغوغاء عرضًا أفضل، وماذا كان بمقدوري أن أفعل؟ لقد طلبَ رأس اللورد إدارد أمام نِصف المدينة، وأذعنَ چانوس سلينت والسير إلين بمنتهى التَّرحاب وقطعا عُنق الرَّجل دون كلمةٍ واحدةٍ مني!»، وضمَّت قبضتها مضيفةً: «السِّپتون الأعلى يَزعُم أننا دنَّسنا سِپت بيلور بالدَّم بَعد أن كذبنا عليه بخصوص نيَّتنا».

قال تيريون: «يبدو أن لديه حقًّا بالفعل. إذن چانوس سلينت هذا اشتركَ في الأمر، أليس كذلك؟ أخبِريني، من صاحِب الفكرة العبقريَّة وراء منحه هارنهال وضمِّه إلى المجلس؟».

- «الإصبع الصَّغير قامَ بالتَّرتيبات. كنا في حاجةٍ إلى رجال سلينت، لأن اللورد إدارد كان يتآمَر مع رنلي وكتبَ إلى اللورد ستانيس عارضًا عليه العرش. كان يُمكن أن نخسر كلَّ شيء، وكان ذلك وشيكًا بالفعل، فلو لم تأتِ لي سانزا وتُخبِرني بخُطط أبيها كلها...».

مندهشًا قال تيريون: «حقًّا؟ ابنته؟». لقد بدَت سانزا له دائمًا طفلةً لطيفةً، رقيقةً ومهذَّبةً.

- «الفتاة كانت غارقةً في الحُبِّ حتى النُّخاع، وكانت لتفعل أيَّ شيءٍ من أجل چوفري، إلى أن قطعَ رأس أبيها وقال إنها رحمة، ليقضي بالتَّالي على هذا الحُب».

- «لدى جلالته أسلوب فريد لكسب قلوب رعاياه»، قال تيريون بابتسامةٍ

ملتوية. «أكانت رغبة چوفري أيضًا أن يصرف السير باريستان سلمي من حَرسه؟».

تنهَّدت سرسي وأجابَت: «چوف أرادَ أحدًا يُلام على موت روبرت، وفارس اقترحَ السير باريستان. ولِمَ لا؟ لقد أعطى هذا چايمي قيادة الحَرس الملكي ومكانًا في المجلس الصَّغير، وأتاحَ لچوف أن يُلقي عظمةً لكلبه، فهو مولعٌ جدًّا بساندور كليجاين. كنا على استعدادٍ لأن نعرض على سلمي بعض الأراضي ومنزلًا ذا بُرج، وهذا أكثر مما استحقَّ ذلك العجوز الأحمق عديم القيمة».

- «سمعتُ أن العجوز الأحمق عديم القيمة فتكَ باثنين من رجال سلينت عندما حاوَلا القبض عليه عند بوَّابة الطِّمي».

بدَت أخته شديدة الاستياء وهي تقول: «كان ينبغي أن يُرسِل چانوس رجالًا أكثر. إنه ليس بالكفاءة التي تمنَّيناها».

قال تيريون ضاغطًا على كلماته ليُذَكِّرها: «السير باريستان كان قائد حَرس روبرت باراثيون الملكي. هو وچايمي آخِر اثنين من حَرس إيرس تارجاريَن السَّبعة، والعامَّة يتكلَّمون عنه كما يتكلَّمون عن سروين ذي التُّرس المرآة والأمير إيمون الفارس التنِّين. ماذا تحسبينهم سيعتقدونه عندما يرون باريستان الباسِل يركب إلى جوار روب ستارك أو ستانيس باراثيون؟».

أشاحَت سرسي بنظرها قائلةً: «لم أضع هذا في الاعتبار».

قال تيريون: «لكن أبي فعلَ، ولهذا أرسلَني إلى هنا، لأضع نهايةً لتلك الحماقات وأُجبِر ابنكِ على الطَّاعة».

- «چوف لن يكون أسهل انقيادًا مني».

- «قد يكون».

- «ولِمَ؟».

- «لأنه يعرف أن أذًى لن يُصيبه منكِ أبدًا».

ضيَّقت سرسي عينيها وقالت: «إذا كنت تحسب أني سأسمحُ لك بأن تُؤذي ابني، فأنت مريض بالحُمَّى».

زفرَ تيريون. لقد أغفلَت المقصد كعادتها المتكرِّرة، فقال لها مُطَمْئِنًا:

«جوفري في أمانٍ معي تمامًا كما هو معكِ، لكن الصَّبي سيكون أميلَ إلى الإصغاء ما دامَ يَشعُر بالتَّهديد»، وأمسكَ يدها مُردِفًا: «أنا أخوكِ، وأنتِ تحتاجينني سواء أقررتِ بهذا أم لا، وابنكِ يحتاجني إذا كان يأمل أن يحتفظ بذلك الكرسي الحديدي القبيح».

قالت أخته وقد بدَت مصدومةً من لمسته لها: «طيلة عُمرك وأنت داهية».

رسمَ على شفتيه ابتسامةً واسعةً وقال: «بطريقتي الصَّغيرة».

- «قد يستحقُّ الأمر المحاوَلة... لكن اصغِ إليَّ جيِّدًا يا تيريون. إذا قبلتك، ستكون يد الملك اسمًا لكن يدي أنا حقيقةً. ستُطلِعني على كلِّ خُططك ونيَّاتك قبل أن تتصرَّف، ولن تفعل شيئًا على الإطلاق دون مُوافَقتي، هل تفهمني؟».

- «أوه، أفهمكِ».

- «وهل تُوافِق؟».

قال كاذبًا: «بالتَّأكيد، أنا تحت أمركِ يا أختاه». حتى تنتفي حاجتي إلى هذا! «طيِّب، الآن وقد صارَت غايتنا واحدةً، فلا ينبغي أن تكون هناك أسرار بيننا. تقولين إن جوفري أمرَ بإعدام اللورد إدارد، وفارس هو من صرفَ السير باريستان من الخدمة، والإصبع الصَّغير أهدانا اللورد سلينت، فمن اغتالَ چون آرن؟».

انتزعَت سرسي يدها منه قائلةً: «وما أدراني؟».

- «الأرملة الحزينة في «العُش» تعتقد أنه أنا، فما الذي أعطاها تلك الفكرة يا تُرى؟».

- «لا أدري حقًّا. ذلك الأحمق إدارد ستارك اتَّهمني بالشَّيء ذاته، ولمَّح إلى أن اللورد آرن شَكَّ في... أو اعتقدَ أن...».

- «أنكِ تُضاجِعين عزيزنا چايمي؟».

وصفعَته سرسي.

قال تيريون وهو يَفرُك وجنته: «أتحسبينني أعمى مِثل أبينا؟ لا يهمُّني مَن تنامين معه... وإن كان لا يبدو من العدل أن تفتحي ساقيكِ لأخٍ دون الثَّاني».

وصفعَته سرسي.

- «رِفقكِ يا سرسي، إنني أُمازِحكِ لا أكثر. الحقُّ يُقال إنني أفضِّلُ عاهرةً لطيفةً عليكِ، فلم أفهم قَطُّ ما يراه چايمي فيكِ بخلاف انعكاسه».

وصفعَته سرسي.

كانت وجنتاه محمرَّتين متَّقدتين الآن، لكنه ابتسمَ وقال: «قد أغضبُ إذا استمررتِ في هذا».

أوقفَ قوله يدها، وردَّت: «ولِمَ أبالي إذا غضبت؟».

قال تيريون: «إن معي بعض الأصدقاءِ الجُدد، ولن يُعجِبوكِ على الإطلاق. كيف قتلتِ روبرت؟».

- «هو قتلَ نفسه، ونحن ساعَدناه لا أكثر. عندما رأى لانسل أنه ينوي اصطياد خنزيرٍ بري، أعطاه نبيذًا قويًّا، نوعه اللَّاذع المفضَّل لكن مقوًّى ثلاث مرَّاتٍ عمَّا اعتادَ عليه، والمأفون السَّكران أحبَّه. كان يُمكنه أن يتوقَّف عن تجرُّعه في أيِّ وقتٍ شاءَ، لكن لا، لقد أفرغَ قِربةً كاملةً في جوفه وقال للانسل أن يُحضِر أخرى، والخنزير قامَ بالباقي. كان يَجدُر بكِ أن تحضر المأدبة يا تيريون، فلم أذُق لحم خنزيرٍ شهيًّا كهذا من قبل قَطُّ. لقد طهوه بالفِطر والتُّفَّاح، وكان له مذاق النَّصر».

- «لقد وُلِدتِ لتكوني أرملةً حقًّا يا أختاه». كان روبرت باراثيون يروق تيريون في الحقيقة، على الرغم من كونه أخرقَ وصَلِفًا كبيرًا... ولا شَكَّ أن مقت أخته لروبرت لعبَ دورًا في هذا. «والآن عليَّ أن أنصرِف إذا كنتِ قد فرغتِ من صفعي»، وثنى ساقيه ونزلَ من مقعده بصعوبة.

قالت سرسي عابسةً: «لم أعطيك الإذن بالانصراف. أريدُ أن أعرف كيف تنوي تحرير چايمي».

- «سأُخبركِ عندما أعرفُ. الخُطط كالفاكهة، تتطلَّب درجةً معيَّنةً من النُّضج، أمَّا الآن فأفكِّرُ في الخروج إلى الشَّوارع وأخذ قياسات هذه المدينة»، وأراحَ يده على رأس أبي الهول المجاور للباب، وقال: «طلبٌ واحد قبل أن أتركَكِ، من فضلكِ تأكَّدي من عدم وقوع مكروه لسانزا ستارك، فلن ينفعنا أن نفقد كلتا الفتاتين».

هَزَّ تيريون رأسه للسير ماندون خارج قاعة المجلس وقطعَ الرُّواق المقنطَر

الطَّويل، يتبعه برون، بينما لم يكن هناك أثر لتيميت بن تيميت، فسألَ: «أين يدنا الحمراء؟».

– «شعرَ برغبةٍ مُلِحَّةٍ في الاستكشاف. إن أمثاله لم يُخلَقوا للانتظار في الأروقة».

– «آملُ ألَّا يَقتُل أحدًا مهمًّا». رجال القبائل الذين نزلَ بهم تيريون من معاقلهم في جبال القمر مخلصون على طريقتهم الضَّارية الخاصَّة، إلَّا أنهم متغطرسون ومشاكسون كذلك، ويجنحون إلى رَدِّ الإهانة -حقيقيَّةً كانت أو متخيَّلةً- بالسِّلاح. «حاوِل أن تجده، واعمل أيضًا على أن يُسَكَّن البقيَّة ويُطعَموا. أريدهم في الثُّكنة الواقعة أسفل بُرج اليد، لكن لا تجعل الوكيل يضع الغِربان الحجريَّة بالقُرب من إخوة القمر، وقُل له أن يُخَصِّص قاعةً كاملةً للرِّجال المحروقين وحدهم».

– «وأين ستكون أنت؟».

– «سأعودُ إلى «السِّندان المكسور»».

ارتسمَت ابتسامة وقحة على وجه برون، وقال: «هل تحتاج حراسةً؟ يقولون إن الشَّوارع مليئة بالأخطار».

– «سأطلبُ قائد حَرس أهل بيت أختي وأُذَكِّره بأني لانستر مِثلها بالضَّبط. ينبغي أن ينتبه إلى أن قَسمه لكاسترلي روك، وليس سرسي أو چوفري».

وبَعد ساعةٍ خرجَ تيريون من القلعة الحمراء، مصحوبًا بدستةٍ من حَرس لانستر بمعاطفهم القرمزيَّة وخوذاتهم القصيرة ذات ريشة الأسد. كانوا يمرُّون من تحت الشَّبكة الحديديَّة عندما لاحظَ الرؤوس المعلَّقة على الأسوار، وقد اسودَّت تمامًا بفعل العفن والقطران القديم وصارَت مستحيلة التَّمييز منذ فترةٍ طويلة، فنادى قائلًا: «أيها القائد ڤايلار، أريدُ إنزال هذه الرُّؤوس غدًا. أعطوها للأخوات الصَّامتات ليُنَظِّفنها». خطرَ له أن توفيق كلَّ رأسٍ مع الجثَّة الذي ينتمي إليها سيكون عذابًا، لكنه شَرٌّ لا بُدَّ منه، فحتى في خضَمِّ الحرب ينبغي الحفاظ على بعض الأصول.

قال ڤايلار بتردُّد: «جلالته قال لنا إنه يُريد أن تبقى رؤوس الخونة على الأسوار حتى يملأ تلك الخوازيق الثَّلاثة المتبقية هناك».

- «دعني أُخاطِر بتخمينٍ جنوني، أحدها من أجل روب ستارك والآخَران من أجل اللوردين ستانيس ورنلي، أليس كذلك؟».

- «بلى يا سيِّدي».

- «ابن أختي في الثَّالثة عشر من العُمر اليومِ يا ڤايلار، فحاوِل أن تتذكَّر هذا. أريدُ إنزال هذه الرُّؤوس غدًا، أو قد يحتلُّ رأس شخصٍ مختلف أحد الخوازيقِ الثَّلاثة الباقية. هل تفهمني أيها القائد؟».

- «سأُشرِفُ على إنزالها بنفسي يا سيِّدي».

- «عظيم»، قال تيريون ووكزَ حصانه وانطلقَ به تاركًا ذوي المعاطف الحمراء يتبعونه بأقصى سرعةٍ لديهم.

لقد قال لسرسي إنه ينوي أخذ قياسات المدينة، ولم يكن كاذبًا تمامًا. لم يرضَ تيريون لانستر عن الكثير مما رآه، فعلى الرغم من أن شوارع كينجز لاندنج كانت دومًا مزدحمةً وصاخبةً ومزعجةً، فالآن تفوح رائحة الخطر من كلِّ شبرٍ منها على نحوٍ لا يتذكَّره من زياراته السَّابقة. رأى جثَّةً مُلقاةً في بالوعة الصَّرفِ بالقُرب من شارع النسَّاجين وقطيعًا من الكلاب الضَّارية ينهش لحمها، دون أن يبدو على أحدٍ أنه يُبالي، مع أن وجود حَرس المدينة كان واضحًا وهُم يقطعون الأزقَّة أزواجًا في معاطفهم الذَّهبيَّة وقمصان الحلقات المعدنيَّة السَّوداء وهرَّاواتهم الحديديَّة في متناوَل أيديهم طول الوقت، بينما ازدحمَت الأسواق بأناسٍ يرتدون ثيابًا رثَّةً يُحاوِلون أن يبيعوا ما في بيوتهم من ممتلكاتٍ بأيِّ سِعر... وفي الآن نفسه وبوضوحٍ تام خلَت الأسواق من أيِّ مُزارِعين يبيعون طعامًا. كان ثمَّة بائع متجوِّل يُناديِ على جرذانٍ مشويَّة على سيخ صائحًا: «جرذان طازجة! جرذان طازجة!». لا شَكَّ أن النَّاس يُفَضِّلون أكل الجرذان الطَّازجة على الجرذان البائتة المتعفِّنة، لكن ما أثارَ رُعبه حقًّا أن الجرذان بدت شهيَّة المنظر أكثر من معظم ما يبيعه الجزَّارون. في شارع الدَّقيق رأى تيريون حُرَّاسًا يقفون على أبواب كلِّ محلَّين من ثلاثة، وفكَّر أن الخبَّازين أنفسهم يُمكنهم أن يجدوا مرتزِقةً أرخص من الخُبز عندما تُصبِح الأيام عجافًا.

قال لڤايلار: «لا يوجد طعام يَدخُل المدينة، أليس كذلك؟».

أجابَ القائد: «القليل جدًّا. الطُّرق مغلَقة من الجَنوب والغَرب بسبب الحرب الدَّائرة في أراضي النَّهر وحشد اللورد رنلي للمتمرِّدين في هايجاردن».

- «وما الذي فعلَته أختي العزيزة في هذا الصَّدد؟».

قال ڤايلار مُطَمْئِنًا: «إنها تتَّخذ الخطوات الضروريَّة لإعادة سلام الملك. اللورد سلينت ضاعفَ عدد حَرس المدينة ثلاث مرَّات، والملكة كلَّفت ألفًا من الحِرفيِّين بالعمل على الدِّفاعات. البنَّاؤون يقومون بتدعيم الأسوار، والنجَّارون يبنون العرَّادات[1] والمجانيق بالمئات، وصانعو السِّهام منشغلون بصُنعها، والحدَّادون يُطَرِّقون السُّيوف، ورابطة الخيميائيِّين تعهَّدت بعشرة آلاف من جرار النَّار الشَّعواء[2] بخلاف كلِّ هذا».

تحرَّك تيريون بغير راحةٍ فوق سَرجه. كان مسرورًا لأن سرسي لم تتلكَّأ، لكن النَّار الشَّعواء شيء لا يؤمَن جانبه، وعشرة آلاف جرَّةٍ تكفي لأن تتفحَّم كينجز لاندنج بأكملها. «أين وجدَت أختي النَّقد الكافي لكلِّ هذا؟». ليس سرًّا أن الملك روبرت تركَ العرش غارقًا في الدُّيون، ثم إنه من غير المعروف عن الخيميائيِّين أنهم يفعلون شيئًا بلا مقابل.

- «اللورد الإصبع الصَّغير يجد وسيلةً دائمًا يا سيِّدي. لقد فرضَ ضريبةً على من يرغبون في دخول المدينة».

- «نعم، سيَصلُح هذا»، قال تيريون وهو يُفَكِّر: وسيلة ذكيَّة، ذكيَّة وقاسية. عشرات الآلاف فرُّوا من القتال إلى الأمان المفترَض في كينجز لاندنج، ولقد رآهم على طريق الملوك، جماعات من الأمَّهات والأطفال والآباء المتوتِّرين، كلهم يَرمُق خيوله وعرباته بنظراتٍ كلها اشتهاء. سوف يبيعون كلَّ ما يملكون لا محالة بمجرَّد وصولهم إلى المدينة، بغية أن يضعوا تلك الأسوار العالية المُطَمْئِنَة بينهم وبين الحرب... وإن كانوا ليُفَكِّرون مرَّتين إذا عرفوا بأمر النَّار الشَّعواء.

(1) العرَّادة ضرب من المجانيق تُقذَف به الأحجار و السِّهام الكبيرة.

(2) النَّار الشَّعواء تُعرَف في عالم الواقع باسم نار الإغريق، وهي سائل حارق سريع الاشتعال تكرَّر استخدامه في المعارك البحريَّة قديمًا، ولا أحد يعرف مكوِّناته على وجه الدقَّة.

كان الخان الذي تعلو بابه لافتة السِّندان المكسور يستقرُّ على مرأى من تلك الأسوار، بالقُرب من بوَّابة الآلهة التي دخلوا منها هذا الصَّباح، واندفعَ صبيٌّ ليُساعِد تيريون على الترجُّل عن حصانه فور أن رآه يَدخُل فِناء الخان مع حُرَّاسه. قال القزم لڤايلار: «خُذ رجالك وعُد بهم إلى القلعة. سأقضي اللَّيلة هنا».

بدا قائد الحَرس متردِّدًا وهو يقول: «هل ستكون في أمانٍ يا سيِّدي؟».

- «بالنِّسبة لهذا أيها القائد، الخان كان مليئًا بالآذان السَّوداء عندما غادَرته هذا الصَّباح، ما يعني أن لا أحد في أمانٍ كاملٍ في وجود تشلا بنت تشيك»، وتحرَّك تيريون متمايلًا نحو الباب تاركًا ڤايلار يحزر معنى كلامه.

استقبلَته عاصفة من المرح وهو يدلف إلى قاعة الخان العامَّة، وتعرَّف على قهقهة تشلا الجشَّاء وموسيقى ضحكة شِاي الأكثر رقَّةً. كانت الفتاة جالسةً إلى مائدةٍ خشبيَّةٍ مستديرة على مقربةٍ من المستوقَد، ترشف النَّبيذ في صُحبة ثلاثة منِ الآذان السَّوداء الذين تركهم لحراستها، بالإضافة إلى رجلٍ ممتلئ الجسد يُوليه ظَهره، فافترضَ أنه صاحِب الخان... إلى أن نادَت شِايَ تيريون بالاسم فنهضَ المتطفِّل. «سيِّدي العزيز، كم أنا مسرور لرؤيتك»، قال الرَّجل بلهفةٍ وعلى وجهه المغطَّى بالمساحيق ابتسامة الخصيِّ النَّاعمة.

كان تيريون مشدوهًا وهو يقول: «لورد ڤارس، لم أتوقَّع أن أراك هنا». فليأخذه «الآخَرون». كيف عثر عليهم بهذه السُّرعة؟

رَدَّ ڤارس: «سامِحني على تطفُّلي، لكني شعرتُ بلهفةٍ مفاجئةٍ لرؤية الليدي الشَّابَّة».

- «الليدي الشَّابَّة»، قالت شِاي مستطعمةً الكلمات. «أنت نِصف مُحِق يا سيِّدي، فأنا شابَّة فعلًا».

في الثَّامنة عشر من العُمر، في الثَّامنة عشر وعاهرة، لكن سريعة البديهة ورشيقة كِقطَّةٍ تحت الأغطية، عيناها داكنتان واسعتان وشَعرها أسود ناعم، ولديها فمٌ عذب وليِّن وجائع... وملكي أنا! عليك اللَّعنة أيها الخصي. قال بكياسةٍ أرغمَ نفسه عليها: «أخشى أني أنا المتطفِّل يا لورد ڤارس. كنتَ منغمسًا في المرح لمَّا دخلتُ».

قالت شِاي: «**سِيدي ڤارس** أثنى على آذان تشلا وقال إنها قتلَت رجالًا **كثيرين بالضَّرورة كي تصنع قلادةً** رائعةً كهذه». أثارَ استياءه أن يسمعها تدعو **ڤارس بـ«سِيدي» بتلك النَّبرة** التي تدعوه بها وهما يلعبان في الفِراش. «وتشلا **قالت له إن الجُبناء وحدهم يَقتُلون** المهزومين».

- «**من الأشجع أن يُترَك** الرَّجل حيًّا ولديه فُرصة أن يغسل عاره بأن يستردَّ **أُذنه إذا استطاعَ**»، قالت تشلا السَّمراء صغيرة الحجم التي عُلِّقَ في قلادتها **البشعة** ما لا يقلُّ عن ستٍّ وأربعين أُذنًا جافَّة مجعَّدة. كان تيريون قد عدَّها ذات مرَّة. «بهذه الطَّريقة فقط يُمكنك أن تُثبِت أنك لا تخاف أعداءك».

صاحَت شِاي ضاحكةً: «ثم قال سِيدي إنه لم يكن لينام أبدًا لو كان من الآذان السَّوداء، خشية أن يَحلُم برجالٍ ذوي أُذنٍ واحدة».

قال تيريون: «هذه مشكلة لن أضطرَّ لمواجَهتها أبدًا، فأنا أشعرُ بالرُّعب من أعدائي، ولهذا أقتلهم جميعًا».

قهقهَ ڤارس وقال: «هل ستحتسي النَّبيذ معنا يا سيِّدي؟».

- «سأحتسي النَّبيذ»، قال تيريون وهو يجلس إلى جوار شِاي. كان يُدرِك ما يَحدُث هنا وإن لم تُدرِكه تشلا والفتاة. كان ڤارس يوصل رسالةً، وعندما قال: شعرتُ بلهفةٍ مفاجِئة لرؤية الليدي الشَّابَّة، فما قصده هو: لقد حاولت أن تُخَبِّهها، لكني عرفتُ مكانها ومَن تكون، وها أنا ذا. تساءلَ عمَّن خانَه، صاحِب الخان أم صبيُّ الاسطبل أم حارس على البوَّابة... أم أحد رجاله؟

قال ڤارس لشِاي وهو يصبُّ النَّبيذ في الكؤوس: «أحبُّ دائمًا أن أدخل المدينة من بوَّابة الآلهة، فالنُّقوش على مبنى البوَّابة رائعة الجمال بحق، وتجعلني أبكي كلما رأيتها. الأعيُن... إنها معبِّرة للغاية، أليس كذلك؟ تبدو كأنها تكاد تتبعكِ بنظراتها وأنتِ تَمُرِّين من تحت الشَّبكة الحديديَّة».

ردَّت شِاي: «لم ألاحِظها يا سِيدي، لكني سألقي نظرةً عليها غدًا إذا أردت».

فكَّر تيريون وهو يُدَوِّر النَّبيذ في كأسه: لا تُتعِبي نفسكِ يا حُلوتي، إنه لا يُبالي مقدار خردلةٍ بالنُّقوش. تلك الأعيُن التي يَزهو بها أعيُنه هو، وما يقصده أنه كان يُراقِب وأنه عرف بوجودنا هنا لحظة دخولنا من البوَّابة.

قال ڤارس: «توخي الحذر يا صغيرتي، فكينجز لاندنج ليست آمنةً جدًّا هذه الأيام. إنني أعرفُ هذه الشَّوارع جيِّدًا، لكني كدتُ أخشى أن آتي اليوم وأنا بمُفردي وأعزل. الخارجون على القانون في كلِّ مكانٍ في أوقاتنا العصيبة هذه، أوه، نعم، رجال سلاحهم بارد وقلوبهم أكثر برودةً». كانت ترجمة كلامه: حيثما يُمكنني الذَّهاب بمُفردي ودون سلاح، فمن الممكن أن يذهب آخَرون وفي أيديهم السُّيوف.

اكتفَت شِاي بضحكةٍ وقالت: «إذا حاوَلوا مضايَقتي ستعوز كلًّا منهم أُذن عندما تَفرُغ منه تشلا».

ضحك ڤارس كأن هذا أطرف شيءٍ سمعَه على الإطلاق، لكن عينيه كانتا خاليتين من الضَّحك تمامًا عندما أدارَهما إلى تيريون قائلًا: «سيِّدتك الشَّابَّة شديدة اللُّطف. لو كنتُ مكانك لاعتنيت بها لأقصى حَد».

- «هذا ما أنتويه. إذا حاولَ أحدٌ أن يُؤذيها... الحقيقة أني أصغر حجمًا من أن أكون أُذنًا سوداء، ولستُ أدَّعي الشَّجاعة». أرأيت؟ إنني أتكلَّمُ اللُّغة نفسها أيها الخصي. امسسها بأذى وسأقطعُ رأسك.

نهضَ ڤارس وقال: «سأترككما الآن. أعرفُ أنك مرهَق للغاية، لكني أردتُ أن أرحِّب بك يا سيِّدي وأُخبِرك كم أنا مسرور بوصولك. إننا في حاجةٍ ماسَّةٍ إليك في المجلس. هل رأيت المذنَّب؟».

قال تيريون: «أنا قصير القامة ولستُ أعمى». على طريق الملوك بدا المذنَّب كأنه يُغَطِّي نِصف السَّماء وقد فاقَ الهلال سطوعًا.

قال ڤارس: «يُسَمُّونه في الشَّوارع «الرَّسول الأحمر»، ويقولون إنه يأتي كنذيرٍ قبل مجيء ملك، ليُحَذِّر من النَّار والدِّماء التي تتبعه»، وفركَ الخصيُّ يديه المدهونتين بالمساحيق معًا وأردفَ: «هل تسمح لي بأن أغادرك بأحجيةٍ صغيرة أيها اللورد تيريون؟»، ولم ينتظر الإجابة وواصلَ: «في غُرفةٍ يجلس ثلاثة رجالٍ عُظماء، ملك وراهب وثريٌّ معه ذَهبه، وبينهم يقف مرتزِق، رجل تقليدي بلا حسبٍ أو نسبٍ أو ذكاءٍ خاص، وكلٌّ من الثَّلاثة العُظماء يَطلُب منه أن يَقتُل الاثنين الآخَرين. يقول الملك: افعلها، فأنا مليكك بالشَّرع والقانون، ويقول الرَّاهب: آمرك أن تفعلها باسم الآلهة، ويقول الثَّري: افعلها، ولك كلُّ

ما معي من ذَهب. قُل لي إذن، من يعيش ومن يموت؟»، وانحنى الخصيُّ بشدَّةٍ وأسرعَ يُغادِر المكان خاطيًا بخُفَّيه النَّاعمين.

أطلقَت تشلا نخيرًا عندما رحلَ، بينما قطَّبت شِاي وجهها قائلةً: «إنه الثَّري، أليس كذلك؟».

رشفَ تيريون من نبيذه مفكِّرًا وغمغمَ: «ربما، وربما لا. يبدو أن المسألة تعتمد على المرتزِق نفسه»، ثم وضعَ كأسه وقال: «هيا، لنصعد إلى أعلى».

اضطرَّت لأن تنتظره على قمَّة السَّلالم، فساقاها نحيلتان ليِّنتان بينما ساقاه قصيرتان غير مكتملتي النُّمو وتُؤلِمانه بشدَّة، لكنها كانت تبتسم عندما بلغَها أخيرًا، وقالت مداعِبةً وهي تُمسِك يده: «هل أوحشتك؟».

قال تيريون: «للغاية». كان طولها يزيد على الأقدام الخمسة بقليلٍ، ومع ذلك عليه أن يرفع عينيه إليها... لكنه وجد في حالتها أنه لا يُمانِع، فالتطلُّع إلى مُحيَّاها الجميل من أسفل لا بأس به على الإطلاق.

قالت وهي تقوده إلى غُرفتها: «ستفتقدني طيلة الوقت في قلعتك الحمراء وأنت وحدك تمامًا في فِراشك البارد في بُرج اليد هذا».

- «صحيحٌ تمامًا». كان تيريون ليُبقيها إلى جواره بكلِّ ترحاب، لكن السيِّد والده نهاه عن ذلك. لن تأخذ العاهرة معك إلى البلاط، قال اللورد تايوين آمرًا، ومجيء تيريون بها إلى المدينة كان أقصى تحدٍّ يقدر عليه. كلُّ سُلطته هنا مستمدَّة من أبيه، وعلى الفتاة أن تتفهَّم هذا. وعدَها قائلًا: «لن تكوني بعيدةً، وسيكون لديك منزل بخدم وحَرس، وسأزورِك كلما استطعتُ».

ركلَت الباب لتُغلِقه، وعبر ألوَاح زُجاج النَّافذة القاتمة استطاعَ أن يُمَيِّز سِبت بيلور الكبير متوِّجًا تَلَّ ڤيزينيا، وإن جذبَ انتباهه منظر آخَر عندما انحنَت شِاي وشدَّت فُستانها من حافَّته وسحبَته فوق رأسها، ثم ألقَته بعيدًا ليلوح أنها لا تؤمن بارتداء الثِّياب الدَّاخليَّة. «لن تتمكَّن من الرَّاحة أبدًا»، قالت وهي تقف أمامه عاريةً متورِّدةً تسرُّ العين، وقد وضعَت يدها على وَركها. «ستُفَكِّر فيَّ كلما خلدت إلى فِراشك، وعندها ستنتصب ولن تجد أحدًا يُساعِدك ولن تستطيع النَّوم أبدًا حتى...»، وارتسمَت على شفتيها تلك الابتسامة الخبيثة التي يُحِبُّها تيريون مستكمِلةً: «ألهذا يُسَمُّونه بُرج اليد يا سِيدي؟».

قال آمرًا: «اصمُتي وقبِّليني».

تذوَّق طعم النَّبيذ على شفتيها، وأحسَّ بنهديها المشدودَيْن الصَّغيرَيْن ينضغطان عليه وهي تحلُّ أربطة سراويله بأصابعها. «أسَدي»، همسَت عندما قطعَ القُبلة ليخلع ثيابه. «مولاي الجميل، عملاقي ابن لانستر». دفعَها تيريون إلى الفِراش، وعندما ولجَها صرخَت بصوتٍ كفيل بإيقاظ بيلور المبارَك في قبره، وتركَت أظفارها ثقوبًا في ظَهره. في حياته لم يَشعُر بألمٍ أحبَّه كهذا على الإطلاق.

أحمق، قال لنفسه بَعد أن فرغا وتمدَّدا في منتصَف حشيَّة الفِراش المرتخية بين الملاءات المتشابكة، ألن تتعلَّم أبدًا أيها القزم؟ إنها عاهرة عليك اللَّعنة، تحبُّ نقودك لا قضيبك. هل تَذكُر تايشا؟ لكن عندما مسَّت أصابعه حلمتها بخفَّةٍ شعرَ بها تنتصب، ورأى العلامة التي خلَّفتها عضَّته في نهدها في خضمِّ نشوته.

سألته وهو يُطَوِّق لحم النَّهد الدَّافئ اللَّدن بيده: «ماذا ستفعل الآن يا سِيدي وقد أصبحتَ يد الملك؟».

غمغم وقد دَسَّ وجهه في عُنقها الممشوق: «سأفعلُ شيئًا لن تتوقَّعه سرسي أبدًا، سأقيمُ العدل».

بران

يُفَضِّل بران الجلوس على المقعد الحجري الصُّلب المجاور للنَّافذة، على الرَّاحة تحت الأغطية على فِراشه المحشوِّ بالرِّيش. في الفِراش يَشعُر كأن الجُدران تنطبِق عليه والسَّقف ينضغِط بثِقَلٍ من فوقه، وفي الفِراش تكون غُرفته زنزانةً ووينترفل سجنه، لكن من خارج النَّافذة لا يزال العالم الواسع يُناديه. هو لا يستطيع أن يمشي أو يتسلَّق أو يصطاد أو يُقاتِل بسيفٍ خشبيٍّ كما اعتادَ أن يفعل من قبل، لكنه ما زال يستطيع أن يَنظُر. إنه يُحِبُّ أن يتفرَّج على النَّوافذ إذ يبدأ الوهج يلوح منها في كلِّ أرجاء وينترفل، مع اشتعال الشُّموع والمستوقَدات من وراء ألواح الزُّجاج ذات الشَّكل الماسي في الأبراج والقاعات، ويُحِبُّ أن يُصغي لغناء الذِّئبين الرَّهيبَيْن للنجوم.

في الفترة الأخيرة كان يَحلُم كثيرًا بالذِّئاب، ويقول لنفسه عندما يعلو عُواء الذِّئبين الرَّهيبَيْن: إنهما يُكَلِّمانني كما يُكَلِّم الأخ أخاه، بل ويكاد يفهمهما... ليس تمامًا، وليس حقًّا، لكن تقريبًا... كأنهما يُغَنِّيان بلُغةٍ كان يُجيدها ذات يومٍ وإن نسيَها بشكلٍ ما. قد يكون الصَّبيَّان والدر خائفَيْن منهما، إلَّا أن دماء الذِّئاب تجري في عروق أبناء ستارك كما أخبرَته العجوز نان من قبل، وإن أضافَت محذِّرةً: «لكنها أقوى في البعض من البعض الآخَر».

عُواء سَمر طويل وحزين، مليء باللَّوعة والاشتياق، بينما عُواء شاجيدوج أكثر ضراوةً ووحشيَّةً. تردَّد صدى صوتيهما عبر السَّاحات والقاعات حتى ارتفعَ رنينه في القلعة كلها، فبدا كأن قطيعًا عظيمًا من الذِّئاب الرَّهيبة يَسكُن وينترفل بدلًا من اثنين منها لا أكثر... الاثنين اللذين تبقَّيا ممَّن كانوا ستَّة.

تُرى هل يفتقدان أخويهما وأختيهما مِثلي؟ هل يُناديان جراي ويند وجوست ونايميريا وطَيف ليدي؟ هل يُريدان أن يعودوا إلى بيتهم ليكونوا قطيعًا واحدًا معًا؟

- «مَن يدري ما يدور في عقول الذِّئاب؟»، قال السير رودريك كاسل عندما سأله بران عن سبب العُواء المستمر. كانت السيِّدة والدة بران قد عيَّنت الفارس العجوز أمينًا لوينترفل في غيابها، وواجباته لا تَترُك له الكثير من الوقت للأسئلة عديمة الجدوى.

- «يُريدان الحرِّية»، أعلنَ فارلن قيِّم وَجار الكلاب، الذي لا يُكِنُّ للذِّئاب الرَّهيبة حُبًّا أكثر مما تفعل كلابه. «إنهما يكرهان الحبس، ومَن يلومهما؟ الكائنات الضَّارية مكانها البراري لا القلاع».

- «يُريدان الصَّيد»، قال جايج الطَّاهي مؤمِّنًا على كلامه وهو يُلقي مكعَّباتٍ من شحم الماشية في قِدرٍ ضخمة من اليخنة. «الذِّئاب تستطيع الشَّمَّ أفضل من أيِّ إنسانٍ، وغالبًا اشتمَّا رائحة فريسةٍ ما».

لم يُوافِقهما المِايستر لوين الرَّأي، وقال: «غالبًا ما تعوي الذِّئاب للقمر، أمَّا هذان فيعويان للمذنَّب. أترى كم هو ساطِع؟ من الوارد أنهما يحسبانه القمر».

وحينٍ أفضى بران بهذا لأوشا، ضحكَت الهَمجيَّة بصوتٍ عالٍ قائلةً: «هذان الذِّئبان أذكى من مِايستركم بكثير، إنهما يعرفان حقائق نسيَها العجوز منذ زمن». الطَّريقة التي قالتها بها جعلَته يرتجف، وعندما سألها عن معنى المذنَّب أجابَت: «الدَّم والنَّار أيها الصَّبي، ولا خير على الإطلاق».

سألَ بران السِّپتون كايل عن المذنَّب وهما يتصفَّحان بعض المخطوطات التي استنقَذوها من حريق المكتبة، فقال له: «إنه السَّيف الذي يَقتُل الفصول»، وبَعدها بفترةٍ قصيرة جاءَ الغُداف الأبيض من البلدة القديمة حاملًا نبأ الخَريف، فلا شَكَّ أن الرَّجل كان مُحِقًّا إذن.

على أن العجوز نان خالفَته الرَّأي، وتلك المرأة عاشَت سنينًا أطول من أيٍّ منهم، وقالت وهي ترفع رأسها وتتنشَّق الهواء: «التَّنانين». كانت شِبه ضريرةٍ ولم ترَ المذنَّب حقًّا، وإن ادَّعت أنها تشمُّ رائحته، وقالت بإصرار: «إنها التَّنانين أيها الصَّبي». كعادتها، لا تُخاطِبه نان بـ«الأمير» أبدًا.

وقال هودور: «هودور»، الكلمة الوحيدة التي لا يقول غيرها.

ولا يزال عُواء الذِّئبين الرَّهيبَيْن يرتفع عاليًا، جاعلًا الحُرَّاس على الأسوار يُدمدِمون باللَّعنات، وكلاب الصَّيد تنبح بهياج في الوَجار، والخيول تَرفُس في الاسطبلات، والصَّبيَّيْن والدر يرتجفان إلَى جوار النَّار. حتى المِايستر لوين اشتكَى من الأرق، بينما بران هو الوحيد الذي لم يُمانِع. كان السير رودريك قد حبسَ الذِّئبين في أيكة الآلهة بَعد أن عَضَّ شاجيدوج والدر الصَّغير، لكن الصَّوت يُمارِس حيلًا غريبةً بين أحجار وينترفل، ليبدو كأن الذِّئبين يقفان تحت نافذة بران مباشرةً، وفي أحيانٍ أخرى كان ليُقسِم أنهما يتواثَبان هنا وهناك على الأسوار الواقية كأنهما يَحرُسانها.

كم يتمنَّى أن يراهما.

ما كان يراه هو المذنَّب المعلَّق في السَّماء فوق قاعة الحُرَّاس وبُرج الجرس ومن ورائهما القلعة الأولى بتكوينها المكتنز المستدير، وقد استحالَت كراجلها أشباحًا سوداء علي خلفيَّة الغسق الأرجواني كلون الكدمات. في السَّابق كان بران يعرف كلَّ حجرٍ في تلك المباني من الدَّاخل والخارج، فقد تسلَّقها جميعًا وصعدَ على الجُدران بالبساطة ذاتها التي يجري بها بقيَّة الصِّبية نازلين السَّلالم، فأصبحَت الأسطُح مخبأه السِّرِّي والغِربان فوق البُرج المكسور أصدقاءه.

ثم سقطَ.

لا يَذكُر بران السَّقطة، لكنهم يقولون إنه سقطَ، فلا بُدَّ أن هذا صحيح وأنه كان على شفا الموت. عندما رأى الكراجل التي أبلَتها عوامل الطَّقس فوق القلعة الأولى حيث كانت السَّقطة، تمكَّن منه إحساس غريب بالشَّدِّ في معدته، والآن لا يستطيع التسلُّق أو المشي أو الجري أو النِّزال بالسَّيف، وكلُّ أحلام الفُروسيَّة في مخيِّلته راحَت هباءً.

عوى سَمر يوم سقطَ ولأيام طويلة بَعدها بينما كان بران مكسورًا طريح الفِراش، كما أخبرَه روب قبل أن يُغادِر إلى الحرب. لقد بكاه سَمر، وانضمَّ إليه شاجيدوج وجراي ويند في حُزنه، وليلة جاءَ الغُداف الدَّامي بخبر موت

أبيه أدركَ الذِّئبان هذا أيضًا. ليلتها كان بران في بُرج المِايستر مع ريكون، يتكلَّم عن أطفال الغابة، عندما أغرقَ سَمر وشاجيدوج صوت لوين بعُوائهما.

مَن يندبان هذه المرَّة؟ هل قتلَ أحدهم الملك في الشَّمال الذي كان أخاه روب حتى فترةٍ قريبة؟ هل سقطَ أخوه النَّغل چون سنو من فوق «الجِدار»؟ هل ماتَت أمُّه أو إحدى أختيه؟ أم أن هناك سببًا آخَر كما يتصوَّر المِايستر والسِّپتون والعجوز نان؟ قال لنفسه مغتمًّا: لو كنتُ ذئبًا رهيبًا حقًّا لفهمتُ الأغنيّة. في أحلام الذِّئاب التي يراها يعدو صاعدًا الجبال، جبالًا جليديَّةً حادَّة الضُّلوع وأعلى من أيِّ بُرج، وفوق القمَّة يقف تحت القمر المكتمل والعالم كله من تحته كما كان من قبل.

صاحَ بران بنبرةٍ متردِّدة: «آووو!»، ثم إنه ضَمَّ يديه حول فمه ورفعَ رأسه إلى المذنَّب وعوى: «آووووووووووووو-ووووو! آهوووووووووووووو!».
بدا الصَّوت سخيفًا، مرتفعًا وأجوف ومرتجفًا كعُواء طفلٍ صغير وليس ذئبًا، غير أن سَمر جاوبَه بصوته العميق الذي طغى على صوت بران الرَّفيع، وانضمَّ إليهما شاجيدوج ليصنع جوقةً من ثلاثتهم، وعوى بران من جديدٍ وتجدَّد عُواء الثَّلاثة معًا، آخِر من تبقَّوا من قطيعهم.

جذبَت الضَّوضاء حارسًا إلى غُرفته، هايهِد ذا الكيس الدُّهني على أنفه، الذي دَسَّ رأسه من فُرجة الباب ليرى بران يعوي في النَّافذة، فقال: «ماذا تفعل أيها الأمير؟».

كان شعور غريب ينتاب بران كلما دعاه أحدهم بـ«الأمير»، على الرغم من أنه وريث روب، وروب هو الملك في الشَّمال الآن. أدارَ رأسه ليعوي في وجه الحارس: «آووووووو! آوو--وو-ووووووووووو!».

قطَّب هايهِد وجهه وقال: «توقَّف عن هذا».

- «آوو-ووو-ووووو! آوو-ووو-وووووووووووووووو!».

انسحبَ الحارس، وعندما عادَ كان معه المِايستر لوين الذي ارتدى ثيابه الرماديَّةَ بالكامل وسلسلته المشدودة حول عُنقه، وقال: «بران، هذان الحيوانان يُصدِران ضجَّةً كافيةً دون مساعَدتك»، وقطعَ الغُرفة ووضعَ يده على جبهة الصَّبي مضيفًا: «لقد تأخَّر الوقت، وينبغي أن تكون نائمًا بعُمق».

أزاحَ بران يد العجوز وقال: «إنني أكلِّمهما».
- «هل أجعل هايهِد يحملك إلى سريرك؟».
- «يُمكنني الذَّهاب إلى السَّرير وحدي». كان ميكن قد دَقَّ صفًّا من القضبان الحديديَّة في الجدار، ليستطيع بران أن يسحب نفسه عبر الغُرفة بذراعيه، وهي العمليَّة البطيئة العسيرة التي أوجعَت كتفيه، وإن كان يكره أن يُحمَل كذلك. «وعلى كلِّ حالٍ لستُ مضطرًّا لأن أنام إذا كنتُ لا أرغبُ».
- «ينبغي أن ينام الجميع يا بران، حتى الأمراء».
قال بران: «إنني أتحوَّل إلى ذئب عندما أنام»، وأشاحَ بوجهه ليَرمُق اللَّيل من جديد وتساءلَ: «هل تَحلُم الذِّئاب؟».
- «كلُّ المخلوقات تحلمُ على ما أعتقدُ، لكن ليس مِثل البَشر».
- «وهل يَحلُم الموتى؟»، سأله بران وهو يُفكِّر في أبيه. في السَّراديب المظلمة أسفل وينترفل كان ثمَّة نحَّات يَنقُش ملامح أبيه في الجرانيت.
أجابَ المِايستر: «البعض يقول نعم والبعض يقول لا، أمَّا الموتى أنفسهم فلا يُعَلِّقون على تلك المسألة».
- «وهل تَحلُم الأشجار؟».
- «الأشجار؟ كلا».
- «بل تَحلُم»، قال بران بيقينٍ مفاجئ. «إنها تَحلُم أحلام الأشجار، وأنا أحلمُ بشجرةٍ أحيانًا، شجرة ويروود كالتي في أيكة الآلهة. إنها تُناديني... لكن أحلام الذِّئاب أفضل، ففيها أشمُّ رائحة كلِّ شيء، وأحيانًا أحسُّ بمذاق الدَّم على لساني».
شَدَّ المِايستر لوين سلسلته حيث حكَّت عُنقه، وقال: «ليتك تقضي المزيد من الوقت مع بقيَّة الصِّبية».
- «إنني أكرهُ بقيَّة الصِّبية»، قاطَعه بران قاصدًا الصَّبيَّيْن والدر بالتحديد، ثم قال: «آمرك بأن تصرف الوالدريْن».
رَدَّ لوين بصرامة: «الصَّبيَّان فراي ربيبان لدى السيِّدة والدتك، وأُرسِلا لينشآ هنا بأمرٍ صريح منها، وليس لك أن تَطرُدهما، وليس من اللُّطف أن تفعل. أين سيذهبا إذاً صرفناهما؟».

- «إلى ديارهما. إنها غلطتهما أنك تَرفُض أن يكون سَمر معي».

- «صبيُّ فراي لم يَطلُب أن يتعرَّض للهجوم، تمامًا كما لم أطلب التعرُّض إليه من قبله».

- «شاجيدوج هو مَن هاجمَه». كان ذئب ريكون الأسود الكبير شديد الضَّراوة لدرجة أن بران نفسه كان يخشاه أحيانًا. «سَمر لم يعضَّ أحدًا من قبل».

- «سَمر مزَّق حَلق رجلٍ في هذه الغُرفة بالتَّحديد، أم أنك نسيت؟ الحقيقة أن تلك الجراء الجميلة التِي عثرت عليها مع أخويك وسط الثُّلوج كبرَت وصارَت وحوشًا خطرة، والصَّبيَّان فراي حكيمان بما يكفي لأن يحذرا منها».

- «يَجدُر بنا أن نضع الوالدريْن في أيكة الآلهة. فليلعبا «سيِّد المعبر» هناك كما أحبَّا، ولينم سَمر معي هنا مجدَّدًا. لِمَ لا تُصغون إليَّ ما دمتُ الأمير؟ أردتُ أن أركب دانسر كذلك، لكن آلبلي لا يسمح لي بالخروج من البوَّابة».

- «وهو على حَق. غابة الذِّئاب تعجُّ بالأخطار، وكان ينبغي أن تُعلِّمك رحلتك الأخيرة إلى هناك هذا. هل تُريد أن يختطفك خارج ما على القانون ويبيعك إلى عائلة لانستر؟».

قال بران بعناد: «سَمر سيُنقِذني. من المفترَض أن يكون مسموحًا للأُمراء بركوب البحر وصيد الخنازير البريَّة في غابة الذِّئاب والنِّزال بالرِّماح».

- «بران يا صغيري، لماذا تُعذِّب نفسك هكذا؟ قد تفعل بعض تلك الأشياء ذات يوم، لكنك مجرَّد ولدٍ في الثَّامنة الآن».

- «أفضِّلُ أن أكون ذئبًا. عندها سأعيشُ في الغابة وأنامُ حينما أريدُ، وأعثرُ على آريا وسانزا كذلك. سأعرفُ أين هما من رائحتيهما وأذهبُ لإنقاذهما، وأُحارِبُ إلى جوار روب مِثل جراي ويند عندما يذهب إلى المعركة، وأمزِّقُ حَلق قاتِل الملك بأنيابي تمزيقًا، ثم ستنتهي الحرب ويعود الجميع إلى وينترفل. لو كنتُ ذئبًا...»، وعادَ يعوي من جديد: «آوو-ووو-وووووووووو!».

رفعَ لوين صوته قائلًا: «الأمير الحَقُّ يُرَحِّب بـ...».

وقاطَعه بران عاويًا بصوتٍ أعلى: «آآهووووووو! أووو-أووو-أووو!».

قال المِايستر باستسلام: «كما تشاء أيها الصَّغير»، وبنظرةٍ نِصفها حُزن ونِصفها امتعاض غادرَ الغُرفة.

فقدَ العُواء نكهته بمجرَّد أن أصبحَ بران بمُفرده، وبَعد فترةٍ لاذَ بالصَّمت وقال لنفسه مستاءً: لقد رحَّبتُ بهما، كنتُ سيِّد وينترفل، كنت سيِّدًا حقيقيًّا، ولا يُمكنه أن يقول العكس. عندما وصلَ الوالدران من «التَّوأمتين»، كان ريكون هو من أرادَهما أن يرحلا، وصرخَ الطِّفل ذو الأعوام الأربعة بأنه يُريد أمَّه وأباه وروب، وليس هذين الغريبين، فكان على بران أن يُهَدِّئه ويُرَحِّب بابني فراي، فقدَّم لهما الطَّعام والشَّراب وأجلسهما إلى جوار المستوقَد، وحتى المِايستر لوين نفسه قال بَعدها إنه أبلى بلاءً حسنًا.

غير أن ذلك كان قبل اللُّعبة.

تتطلَّب اللُّعبة جذع شجرة وعصًا ومسطَّحًا مائيًّا، والكثير جدًّا من الصِّياح. أكَّد والدر ووالدر لبران أن الماء هو الجزء الأهمُّ على الإطلاق، حيث يُمكنك أن تستعيض بلوحِ خشبٍ قوي أو صَفٍّ من الأحجار عن الجذع، وتستخدم فرع شجرةٍ بدلًا من العصا، وليس من الضروري أن تصيح، لكن من غير الماء ليست هناك لُعبة. بطبيعة الحال لم يكن المِايستر لوين والسير رودريك ليسمحا للأطفال بالتِّجوال في غابة الذِّئاب بحثًا عن جدول ماء، فاكتفوا بواحدةٍ من البِرك التي يتصاعَد منها البُخار في أيكة الآلهة. لم يكن والدر ووالدر قد رأيا مياهًا ساخنةً تفور من الأرض من قبل، وإن أقرَّا بأن هذا سيجعل اللُّعبة أفضل كثيرًا.

كلاهما كان اسمه والدر فراي، وقال والدر الكبير إن هناك مجموعات كاملة ممَّن اسمهم والدر في «التَّوأمتين»، كلهم مسمَّى تيمُّنًا بجدِّهم اللورد والدر فراي. قال لهما بران بغطرسةٍ عندما سمعَ هذا: «لكلٍّ منا اسمه الخاص هنا في وينترفل».

تُمارَس اللُّعبة بأن تضع جذع الشَّجرة عبر الماء بالعرض، ويقف أحد اللَّاعبين في المنتصَف حاملًا العصا باعتباره سيِّد المعبر، وعندما يأتي إليه لاعب آخَر يقول له: «أنا سيِّد المعبر، مَن هناك؟»، فيكون على اللَّاعب الآخَر أن يُلقي خطابًا يصفُ فيه من هو ولِمَ ينبغي أن يُسمَح له بالعبور. يستطيع السيِّد

أن يجعل الآخَرين يُقسِمون على أشياء ويُجيبون على أسئلته، وإن لم يكن من الضروري أن يقولوا الحقيقة، بينما القَسم مُلزِم، ما لم يتضمَّن كلامك كلمة «ربما»، أي أن الحيلة هنا أن تقول «ربما» دون أن ينتبه سيِّد المعبر. بَعدها يُمكنك أن تُحاول أن تُسقِطه في الماء لتُصبِح أنت سيِّد المعبر، لكن فقط إذا قلت «ربما»، وإلَّا ستَخرُج من اللُّعبة. يستطيع سيِّد المعبر أن يُسقِط أيَّ لاعبٍ يُريد في الماء في أيِّ وقت، وهو الوحيد المسموح له باستخدام العصا.

من الناحية العمليَّة كانت اللُّعبة تتلخَّص غالبًا في الصِّياح والضَّرب والسُّقوط في الماء، مع الكثير من الشِّجار الصَّاخب الذي يدور حول قول أحدهم «ربما» من عدمه. غالبًا ما كان والدر الصَّغير هو سيِّد المعبر، وكان الصَّغير على الرغم من أنه طويلًا ممتلئ الجسم ولديه وجه أحمر وبطن كبير مستدير، أمَّا والدر الكبير فكان حادَّ الملامح نحيلًا وأقصر قامةً بنِصف قدم.

قال والدر الصَّغير مفسِّرًا: «إنه يَكبُرني باثنين وخمسين يومًا، وكان أكبر مني حجمًا في البداية لكن نموِّي كان أسرع منه».

وأضافَ والدر الكبير (الأصغر حجمًا): «إننا ابنا عم ولسنا أخوين. أنا والدر بن چاموس، وأبي ابن اللورد والدر من زوجته الرَّابعة. هو والدر بن مريت، وجدَّته كانت زوجة اللورد والدر الثَّالثة، سليلة عائلة كراكهول. إنه يسبقني في تسلسُل الوراثة مع أني أكبُره سِنًّا».

قال الصَّغير محتجًّا: «باثنين وخمسين يومًا فقط، ولا أحد منا سيُصبِح سيِّد «التَّوأمتين» أيها الأحمق».

رَدَّ الكبير: «أنا سأصبحُ سيِّد «التَّوأمتين». على كلِّ حال هناك آخَرون اسمهم والدر. السير ستفرون لديه حفيد اسمه والدر الأسود، وهو الرَّابع في تسلسُل الوراثة، وهناك والدر الأحمر ابن السير إمون، ووالدر النَّغل الذي لا يتضمَّنه التَّسلسُل أصلًا، لأن اسمه والدر ريڤرز وليس والدر فراي، كما أن هناك بناتٍ اسمهن والدا كذلك».

- «وتير أيضًا، دائمًا ما تنسى تير».

قال والدر الكبير بلا مبالاة: «اسمه والتير وليس والدر، ثم إنه بَعدنا في تسلسُل الوراثة، فلا أهميَّة له. الواقع أني لم أحبه قَطُّ».

قضى السير رودريك أن يتقاسَما غُرفة چون سنو القديمة، بما أن چون في حَرس اللَّيل الآن ولن يعود أبدًا، ولقد كرهَ بران هذا لأنه شعرَ أن ولدي فراي يُحاوِلان سرقة مكان چون.

كان بران يتفرَّج مغتمًّا بينما يتبارى الوالدران مع تورنيپ صبيِّ الطَّاهي وباندي وشايرا ابنتي چوزث، وقد عيَّن الوالدران بران حكمًا ليُقَرِّر إن كان أحدهم قد قال «ربما» أم لا، لكنهم نسوا أمره تمامًا بمجرَّد أن بدأوا اللَّعب. سرعان ما جذبَ الصِّياح وبعثرة الماء آخَرين: پالا عاملة وَجار الكلاب، وكالون ولد كاين، وتومتو الذي ماتَ أبوه توم السَّمين مع أبي بران في كينجز لاندنج؛ ولم يمضِ وقت طويل حتى كانوا كلهم غارقين في الماء وملوَّثين بالأوحال، ورأى بران پالا وقد غطَّاها اللَّون البُنِّي من رأسها إلى قدميها وعلقَ الطُّحلُب في شَعرها بينما تقطَّعت أنفاسها من فرط الضَّحك. لم يسمع بران كلَّ هذا الضَّحك منذ اللَّيلة التي أتى فيها الغُداف الدَّامي، وفكَّر بمرارة: لو كانت ساقاي سليمتين لأسقطتهم جميعًا في الماء، ولما كان للمعبر سيِّد سواي.

أخيرًا جاءَ ريكون يجري إلى أيكة الآلهة وفي أعقابه شاجيدوج، وشاهدَ بينما تصارعَ تورنيپ ووالدر الصَّغير على العصا، إلى أن فقدَ تورنيپ توازُنه وسقطَ في الماء ليَرُشَّه في كلِّ مكانٍ وهو يُلَوِّح بذراعيه، ثم صاحَ ريكون: «أنا! إنه دوري! أريدُ أن ألعب!»، فأشارَ إليه والدر الصَّغير بالتقدُّم وبدأ شاجيدوج يتبعه، فقال له آمرًا: «لا يا شاجي، الذِّئاب لا تلعب. انتظِر مع بران». ولقد أطاعَه شاجي...

... إلى أن ضربَ والدر الصَّغير ريكون بعصاه على بطنه، وقبل أن يرتدَّ إلى بران طرفه كان الذِّئب الأسود يطير بسُرعة السَّهم فوق لوحِ الخشب، وكان هناك دم في الماء، والوالدران يَصرُخان كأن هناك من أشعلَ فيهما النَّار، وريكون يجلس في الوحل ويضحك، وهودور جاءَ يعدو بجسده العملاق صائحًا: «هودور! هودور! هودور!».

الغريب أن بران قرَّر بَعدها أنه يُحِبُّ الوالدرين. لم يلعبوا «سيِّد المعبر» ثانيةً منذ ذلك اليوم، وإن تنوَّعت ألعابهم الأخرى بين «الوحوش والعذارى»

و«قِطط وفئران» و«تعالَ إلى قلعتي»، وغيرها. هكذا بدأ الوالدران وريكون في صُحبتهما السَّطو على الفطائر وأقراص العسل في المطبخ، وتسابَقوا حول الأسوار، وألقوا العظام إلى الجراء في الوَجار، وتدرَّبوا بسيوفٍ خشبيَّة تحت نظر السير رودريك الثَّاقب، حتى إن ريكون أراهما السَّراديب العميقة تحت الأرض، حيث كان النحَّات يَنقُش مقبرة السيِّد والده. صرخَ بران في أخيه لمَّا علمَ بهذا: «لم يكن لديك حق! هذا مكاننا نحن، مكان أبناء ستارك!»، لكن ريكون لم يكترث إطلاقًا.

انفتحَ باب غُرفة نومه، ودخلَ المِايستر لوين حاملًا برطمانًا أخضر، وهذه المرَّة كانت معه أوشا وهايهد. «أعددتُ لك عقَّارًا للنَّوم يا بران».

رفعَته أوشا بذراعيها النَّاحلتين. كانت طويلةً بالنِّسبة لامرأة وقويَّةً للغاية، وحملَته إلى فِراشه بلا أيِّ مشقَّة.

قال المِايستر لوين وهو يخلع سِدادة البرطمان: «سيجعلك تنام نومًا عميقًا بلا أحلام».

قال بران وهو يُريد أن يُصَدِّقه: «حقًّا؟».

- «نعم، اشرب».

وشربَ بران. كان العقَّار ثخينًا وله مذاق كالطَّباشير، وإن كان محلًّى بالعسل، فاستطاعَ ابتلاعه بسهولة.

قال لوين: «ستُصبِح أفضل مع حلول الغد»، ومنحَ بران ابتسامةً وربَّت على كتفه قبل أن ينصرف.

لم تلحق به أوشا وسألَت بران: «أهي أحلام الذِّئاب ثانيةً؟».

أومأ برأسه إيجابًا.

- «لا ينبغي أن تُقاوِم بهذه القوَّة أيها الصَّبي. إنني أراك تُكَلِّم شجرة القلوب، ولعلَّ الآلهة تُحاوِل الرَّدَّ عليك».

- «الآلهة»، تمتمَ وقد بدأ يَشعُر بالنُّعاس بالفعل، وتشوَّش وجه أوشا أمامه وصارَ ضبابيًّا. نوم عميق بلا أحلام.

لكنه وجدَ نفسه في أيكة الآلهة عندما أطبقَ عليه الظَّلام، يتحرَّك بصمتٍ تحت أشجار الحارس بلونيها الأخضر والرِّمادي وأشجار البلُّوط القديمة

كالزَّمن ذاته، وفكَّر متهلِّلًا: إنني أمشي! جزءٌ منه كان يعرف أنه مجرَّد حُلم، لكن حتى الحُلم بالمشي أفضل من واقع غُرفته بجُدرانها وسقفها وبابها.

كان الظَّلام سائدًا بين الأشجار، لكن المذنَّب أضاءَ طريقه وجعل خُطاه واثقةً وهو يتحرَّك على أربع قوائم سليمة وقويَّة وسريعة. أحسَّ بالأرض من تحته، والطَّقطقة الخافتة التي تُصدِرها أوراق الشَّجر السَّاقطة، والجذور السَّميكة والحجارة الصُّلبة، والطَّبقات العميقة من دُبال التُّربة. كان إحساسًا رائعًا.

أفعمَت الرَّوائح المُسْكِرَة المفعمة بالحياة رأسه، رائحة العطن الخضراء الموحِلة القادمة من البِرك السَّاخنة، وعِطر التُّربة الغنيَّة التي تتعفَّن تحت حوافره، والسَّناجب في أشجار البلُّوط كثيرة العُقد. جعلَته رائحة السَّناجب يتذكَّر مذاق الدِّماء الحارَّة وكيف تتكسَّر العظام بين أسنانه، وامتلأَ فمه باللُّعاب. كان قد أكلَ منذ نِصف يوم على الأكثر، لكن ليس هناك ما يدعو للابتهاج في اللَّحم الميت، حتى لحم الأيل. كان يسمع صرير السَّناجب وحفيفها من فوقه وقد لاذَت بأوراق الأشجار، لكنها لن تنزل أبدًا إلى حيث يتسكَّع مع أخيه.

كان يشمُّ رائحة أخيه كذلك، الرَّائحة المألوفة القويَّة الغنيَّة بالتُّربة، الرَّائحة السَّوداء كفرائه، وقد أخذَ يتواثَب ثائرًا عند الأسوار. كان يدور ويدور، ليلةً بَعد ليلةٍ بَعد ليلة، بلا كمد، يبحث... يبحث عن فريسة، عن طريقٍ للخروج، عن أمِّه، عن إخوته، عن قطيعه... يبحث ويبحث ولا يَعثُر على شيءٍ أبدًا.

ارتفعَت الأسوار من وراء الأشجار أكوامًا فوق أكوام من صخور بني الإنسان الخالية من الحياة، التي تلوح من ثغرةٍ صغيرة مفتوحة في الخشب الحي. ارتفعَت الأسوار مرقَّطةً بالرَّمادي ومبقَّعةً بالطَّحالب، لكن سميكةً قويَّةً وأعلى من أن يستطيع أيُّ ذئب أن يقفز، وسَدَّ الحديد البارد والخشب الجارح كلَّ الفتحات في الأحجار المكوَّمة التي تُطوِّقهما. كان أخوه يتوقَّف عند كلِّ فتحةٍ ويُكَشِّر عن أنيابه غضبًا، لكن كلَّ الطُّرق ظلَّت مغلَقةً.

لقد فعل الشَّيء نفسه أول ليلة وتعلَّم أنه بلا طائل. الزَّمجرة لن تَشُقَّ أيَّ طُرُقٍ هنا، والدَّوران حول الأسوار لن يدفعها لأن تنفتح، ورفْع السَّاق ووضع

علامتك على شجرةٍ لن يُبعِد أيَّ بَشريٍّ عنك. لقد ضاقَ العالم من حولهما، لكنْ وراء الأيكة المسوَّرة ما زالت تقع صخور كهوف بني الإنسان الرَّماديَّة الضَّخمة. جاءَه الصَّوت فجأةً قائلًا: وينترفل، ومن وراء جروف بني الإنسان العالية كالسَّماء يُناديه العالم الحقيقي، وهو يعرف أن عليه أن يُلَبِّي النِّداء أو يموت.

آريا

كانوا يمضون على الطَّريق مِن الفَجر إلى الغَسق، يمرُّون بالغابات والبساتين والحقول بالغة الجَمال، وعبر القُرى الصَّغيرة والبَلدات التِّجاريَّة المزدحمة والمعاقل القويَّة، وعندما يحلُّ الظَّلام يُخَيِّمون ويلتهمون طعامهم على ضوء «السَّيف الأحمر»، ويتولَّى الرِّجال الحراسة بالتَّناوُب. كانت آريا تلمح نيرانًا تومض من بين الأشجار في مخيَّمات المسافرين الآخَرين، وبدا لها أن عدد المخيَّمات يزداد كلَّ ليلة، كما تزداد الحركة على طريق الملوك بالنَّهار.

يأتي المسافرون في الصُّبح والظُّهر والمساء، مُسِنِّين وأطفالًا ورجالًا منهم كبير الحجم وضئيله، وفتياتٍ حافيات وأمَّهات تضمُّ كلٌّ منهن رضيعها إلى صدرها، بعضهم يقود عربات المَزارع والبعض يركب متخبِّطًا في مؤخِّرة عرباتٍ تَجُرُّها الثِّيران، لكن عددًا أكبر امتطى أحصنة الحقل والخيول القزمة والبغال والحمير، أيَّ شيءٍ يُمكنه أن يمشي أو يجري أو يتدحرَج. كانت امرأة ما تجرُّ بقرةً حلوبًا على ظَهرها فتاة صغيرة، ورأت آريا حدَّادًا يدفع عربة يدٍ وفيها أدواته، المَطارق والمِلقَط وحتى السِّندان، وبَعد قليلٍ رأت رجلًا آخَر يدفع عربة يدٍ أخرى، وإن كانت هذه تحوي رضيعين ملفوفَين بدثار. أغلبهم يقطع الطَّريق سيرًا على الأقدام، وقد حمَّلوا ممتلكاتهم على أكتافهم وفي أعيُنهم لاحَت نظرات متعَبة متشكِّكة، يتَّجهون جَنوبًا صوب المدينة، صوب كينجز لاندنج، بينما يتَّجه يورن ومن معه شَمالًا، ما جعلَ عددًا محدودًا للغاية من المسافرين يلتفت إليهم ويُوَجِّه لهم كلمةً مقتضبةً. تساءلَت آريا عن سبب كونهم الوحيدين الذين يَسلُكون هذا الاتِّجاه.

مسافرون كثيرون كانوا مسلَّحين، ورأت آريا سكاكين وخناجر ومناجل وفؤوسًا، وسيوفًا هنا وهناك، بينما صنعَ بعضهم هرَّاواتٍ من فروع الأشجار أو حفرَ عصيًّا كثيرة البروزات. كانوا يتحسَّسون أسلحتهم ويُسَلِّطون أنظارهم مع مرور العربات بهم، وفي النِّهاية يَترُكون الرَّكب يمضي، فثلاثون رجلًا عدد كبير، أيًّا كانت قيمة ما لديهم في تلك العربات.

كما قال لها سيريو فورل: انظُري بعينيكِ، واسمعي بأُذنيكِ.

في يوم أخذَت امرأة مجنونة في الصُّراخ فيهم من على جانب الطَّريق: «يا حمقى! سيَقتُلونكم يا حمقى!». كانت نحيفةً كالفزَّاعة، زائغة النَّظرات ودامية القدمين. في الصَّباح التَّالي توقَّف تاجر أنيق يمتطي فَرسًا رماديَّةً إلى جوار يورن، وعرضَ عليه شراء عرباته بكلِّ ما فيها بِرُبع ثَمنها، وقال: «إنها الحرب، وسوف يأخذون ما يُريدون، فأفضل لك أن تبيعني ما لديك يا صديقي»، فأشاحَ يورن بوجهه عنه ولوى كتفيه المحنيَّتين وبصقَ على الأرض.

لاحظَت آريا القبر الأول يومها، كومة الثَّرى الصَّغيرة المحفورة لطفل على جانب الطَّريق. كانت هناك بلَّورة تستقرُّ في التُّربة الطريَّة، وأرادَ لومي أنْ يأخذها، لكن الثَّور قال له أن يدع الأموات وشأنهم، وبَعد بضعة فراسخ لمحَ يارد المزيد من القبور، فإذا به صَفٌّ كامل محفور حديثًا. بَعدها لم يكن يوم يمرُّ دون أن يروا قبرًا آخَر على الأقل.

في مرَّةٍ استيقظَت آريا في الظَّلام شاعرةً بالخوف بلا سببٍ واضح، لترى «السَّيف الأحمر» يتقاسَم السَّماء مع مئات النُّجوم من فوقها. بدَا لها الهدوء الذي سادَ ليلتها غريبًا، وإن بلغَ مسامعها غطيط يورن الخشن وطقطقة النَّار، وحتى تململ الحمير الخافت، لكن على الرغم من هذا شعرَت كأن العالم يحبس أنفاسه، وجعلَها الصَّمت ترتجف، فعادَت إلى النوم وهي تقبض على إبرتها. ثم، عندما طلعَ النَّهار ولم يستيقظ پارد، أدركَت آريا أن الصَّوت الذي افتقدَته ليلًا كان صوت سُعاله. هكذا كان القبر المحفور لواحدٍ منهم هذه المرَّة، ودفَنوا المرتزِق حيث نامَ. جرَّده يورن من ممتلكاته الثَّمينة قبل أن يُواروه التُّراب، فأخذَ رجل حذاءه وآخَر خنجره، بينما اقتسمَ رجلان قميصه المعدني وخوذته، وأعطى يورن سيفه الطَّويل إلى الثَّور قائلًا:

«بذراعيك هاتين تستطيع أن تتعلَّم كيف تستخدمه». في النِّهاية ألقى صبيٌّ اسمه تاربر حفنةً من جوزات البلُّوط فوق جثَّة پارد، كي تنمو منها شجرة تُعَلِّم مرقده الأخير.

ليلتها توقَّفوا في قريةٍ عند خان مغطَّى بفروع اللَّبلاب، حيث أحصى يورن ما معه من عُملةٍ في كيس النُّقود، وقرَّر أن معهم ما يكفي لوجبةٍ ساخنة. «سننام في الخارج كما هي العادة، لكن لديهم حمَّامًا هنا إذا كان أحدكم يرغب في القليل من الماء السَّاخن والصَّابون».

لم تجرؤ آريا على الاستحمام، على الرغم من أن رائحتها صارت كريهةً لأقصى حَدٍّ كرائحة يورن، فمخلوقات كثيرة من التي تعيش في ثيابها الآن قطعَت معها كلَّ هذه المسافة من «جُحر البراغيث»، ولم يبدُ لها أن من الصَّواب أن تُميتها غرقًا. انضمَّ تاربر وهوت پاي والثَّور إلى صَفِّ الرِّجال المتوجِّهين إلى أحواض الاستحمام، بينما ازدحمَ البقيَّة في قاعة الخان العامَّة، كما أرسلَ يورن لومي حاملًا دوارق بيرة إلى الثَّلاثة الذين تُرِكوا مكبَّلين بالأصفاد في مؤخِّرة إحدى العربات.

تناولَ من استحمُّوا ومن لم يستحمُّوا عَشاءً من فطائر الخنزير السَّاخنة والتُّفَّاح المخبوز، بل ودعاهم صاحب الخان إلى دورٍ من البيرة على حسابه. «لديَّ أخٍ ارتدى الأسود منذ سنوات. كان خادمًا ويتمتَّع بالذَّكاء، لكن هناك من ضبطه يسرق الفلفل من على مائدة سيِّدنا اللورد. إنه يُحِبُّ مذاق الفلفل لا أكثر. كانت مجرَّد حفنة من الفلفل، لكن السير مالكوم رجل قاسٍ. ألديكم فلفل على «الجِدار»؟»، ولمَّا هَزَّ يورن رأسه نفيًا تنهَّد الرَّجل وقال: «يا للخسارة، لينك يُحِبُّ الفلفل».

أخذَت آريا رشفاتٍ قصيرة من دورقها وهي تلتهم الفطير السَّاخن، متذكِّرةً أن أباها كان يسمح لهم أحيانًا بشُرب كوبٍ من البيرة، التي كانت سانزا تمتعض من مذاقها وتقول إن النَّبيذ أحلى بكثير، بينما راقَت آريا بما فيه الكفاية. أشعرَها التَّفكير في سانزا وأبيها بالأسى.

اكتظَّ الخان بالنَّازحين جَنوبًا، وضجَّت القاعة العامَّة بالسُّخرية عندما أخبرَهم يورن أنهم ذاهبون في الاتِّجاه الآخَر، وقال صاحِب الخان بثقة:

«سرعان ما ستعودون أدراجكم. لا أحد يذهب شَمالًا والحقول نِصفها محروق ومَن تبقَّوا من الأهالي متحصِّنون داخل معاقلهم. هنا ترحل مجموعة فَجرًا ومع مجيء الغَسق تحلُّ مكانها مجموعة أخرى».

قال يورن بإصرار: «كلُّ هذا لا يعنينا في شيء، ولا فارق لدينا بين تَلي ولانستر. حَرس اللَّيل لا دخل لهم في شؤون البلاد».

اللورد تَلي جدِّي. هذا يصنع فارقًا لديها هي، لكنها لم تتكلَّم وأخذَت تمضع شفتها وهي تُصيخ السَّمع.

قال صاحِب الخان: «المسألة أكبر من لانستر وتَلي. هناك الهمجيُّون الذين نزلوا من جبال القمر، فجرِّب أن تقول لهؤلاء إن لا دخل لك. وهناك عائلة ستارك أيضًا تحت قيادة اللورد الشَّاب، ابن يد الملك الرَّاحل».

اعتدلَت آريا في جلستها وأرهفَت السَّمع. هل يقصد روب؟

قال رجل أصفر الشَّعر يحمل دورقًا في يده: «سمعتُ أن الصَّبي يخوض المعركة على ظَهر ذئب».

قال يورن: «كلام فارغ».

- «الرَّجل الذي سمعتُ منه هذا رآه بنفسه، وأقسمَ أنه ذئب كبير كالحصان».

- «كونه أقسمَ لا يجعل ما قاله حقيقيًّا يا هود. أنت مثلًا تُقسِم طول الوقت أنك سترُدَّ ما تدين به لي، وحتى الآن لم أرَ منك قِطعة عُملةٍ واحدة»، قال صاحِب الخان، فانفجرَ الحضور ضاحكين واحتقنَ وجه الرَّجل ذو الشَّعر الأصفر.

تدخَّل رجل شاحب الوجه يرتدي معطفًا أخضر وسَّخه السَّفر: «إنه عام سيِّئ فيما يخصُّ الذِّئاب. القُطعان حول بُحيرة «عين الآلهة» أصبحَت أكثر جرأةً من أيِّ وقتٍ مضى، وتَقتُل كما تشاء من خِرافٍ وأبقارٍ وكلابٍ دون تفرقة، ولا تخاف البَشر على الإطلاق. دخول المرء تلك الغابات ليلًا يُكلِّفه حياته لا محالة».

- «آه، تلك مجرَّد حكايات أخرى خالية من الحقيقة كغيرها».

قالت عجوز: «سمعتُ الكلام نفسه من ابنة عمَّتي، وهي ليست من النَّوع

الذي يكذب. تقول إن هناك قطيعًا عظيمًا فيه المئات من الذِّئاب قاتلة البَشر، تقودهم ذئبة أنثى من الجحيم السَّابعة».

ذئبة أنثى. تجرَّعت آريا البيرة والتَّساؤلات تُفعِم عقلها. هل تقع «عين الآلهة» على مقربةٍ من نهر الثَّالوث؟ تمنَّت لو أن معها خريطة. لقد تركَت نايميريا بالقُرب من الثَّالوث رغمًا عنها لمَّا قال چوري إن لا خيار هنالك، وإنهم سيَقتُلون الذِّئبة إذا عادَت معهما لأنها عضَّت چوفري، رغم أنه استحقَّ هذا. يومها أخذَا في الصِّياح والصُّراخ وإلقاء الأحجار، وأخيرًا بَعد أن أصابَتها بعض أحجار آريا، كفَّت الذِّئبة الرَّهيبة عن اللَّحاق بهما. ربما لا تتذكَّرني أصلًا، وإذا تذكَّرتني فلا بُدَّ أنها ستكرهني.

قال ذو المعطف الأخضر: «سمعتُ أن ذئبة الجحيم تلك دخلَت قريةً ذات يوم... كان يوم السُّوق والنَّاس في كلِّ مكان، وإذا بها تَدخُل وتنتزع رضيعًا من بين يدي أمِّه، وعندما بلغَت الحكاية أسماع اللورد موتون وأبنائه، أقسَموا أنهم سيقضون عليها، واقتفوا أثرها إلى وكرها ومعهم قطيع من كلاب صيد الذِّئاب، وبالكاد استطاعوا النَّجاة بحياتهم، أمَّا الكلاب فلم يرجع منها ولو واحد».

اندفعَت آريا تقول قبل أن تستطيع كبح نفسها: «هذه مجرَّد حكاية، الذِّئاب لا تأكل الرُّضَّع».

سألَ ذو المعطف الأخضر: «وما الذي تعرفه عن هذا يا فتى؟».

قبضَ يورن على ذراعها قبل أن تستطيع التَّفكير في إجابة، وقال: «البيرة أسكرَت الصَّبي، هذا كلُّ ما هنالك».

- «كلا، الذِّئاب لا تأكل الرُّضَّع...».

- «إلى الخارج يا ولد... وابقَ هناك حتى تتعلَّم أن تخرس تمامًا عندما يتكلَّم الرِّجال»، ودفعَها بقوَّةٍ نحو الباب الجانبي الذي يقود إلى الاسطبلات. «اذهب وانظُر إن كانوا قد سقوا الخيول».

خرجَت آريا تتميَّز غيظًا، ودمدمَت وهي تَركُل صخرةً صغيرةً: «إنها لا تأكل الرُّضَّع!».

تدحرجَت الصَّخرة حتى استقرَّت تحت العربات، وسمعَت آريا صوتًا ودودًا يُنادي: «أيها الصَّبي، أيها الصَّبي الجميل».

كان واحد من الثَّلاثة المكبَّلين بالحديد يُكلِّمها، فدنَت آريا من عربتهم بخطواتٍ حذرة وقد وضعَت يدها على مقبض إبرتها.

رفعَ السَّجين دورقًا فارغًا، فأصدرَت سلاسله صليلًا وهو يقول: «الرَّجل يرغب في مقدارٍ آخَر من البيرة، الرَّجل يُشعُر بالظَّمأ من ارتداء هذه القيود الثَّقيلة». كان أصغر الثَّلاثة سِنًّا، نحيل الجسد وحسن القسمات ودائم الابتسام، شَعره أحمر اللَّون على جانب رأسه وأبيض على الجانب الثَّاني، وقد تلبَّد واتَّسخ تمامًا بفِعل الحبس والسَّفر. قال لمَّا رأى الطَّريقة التي تَرمُقه بها آريا: «الرَّجل يرغب في حمَّامٍ أيضًا، والصَّبي يُمكنه أن يكسب صديقًا».

قالت آريا: «لديَّ أصدقاء».

قال عديم الأنف: «لا أرى أحدًا منهم هنا». كان سمينًا ثخين الجِلد ضخم اليدين، وغطَّى الشَّعر الأسود ذراعيه وساقيه وصدره وحتى ظَهره، فذكَّر آريا برسم رأته ذات مرَّةٍ في كتابٍ لقردٍ من جُزر الصَّيف. كانت الفجوة في وجهه تجعلَ النَّظر إليه طويلًا صعبًا.

فتحَ الأصلع فمه وفَحَّ في وجهها كسحليَّةٍ بيضاء ضخمة، وعندما تراجعَت آريا مُجفِلةً فغرَ فاه عن آخِره وهَزَّ لسانه لها، أو بقايا لسانه بالأحرى، فقالت مغضبةً: «كُفَّ عن هذا».

قال الوسيم ذو الشَّعر الأحمر والأبيض: «الرَّجل لا يختار رفاقه في الزَّنازين السَّوداء». ذكَّرها شيء ما في طريقة كلامه بسيريو. ثمَّة تشابُه بشكلٍ ما بين الاثنين، لكن ثمَّة اختلاف أيضًا. «هذان الاثنان لا يتحلَّيان بأيِّ تهذيب، ولذا يَطلُب الرَّجل منك المعذرة. اسمك آري، أليس كذلك؟».

قال عديم الأنف: «رأس الجِزَل، رأس الجِزَل وجه الجِزَل فتى العصا. احترس يا لوراث وإلَّا ضربك بعصاه».

- «لا مفرَّ من أن يخجل الرَّجل من صُحبته يا آري»، قال الوسيم، ثم أشارَ إلى نفسه مضيفًا: «هذا الرَّجل له شرف أن يكون چاكَن هاجار، من مدينة لوراث الحُرَّة فيما مضى. ليته كان في وطنه الآن. رفيقا هذا الرَّجل المذمومان

هما رورچ...»، وأشارَ بدورقه إلى عديم الأنف. «... والعضَّاض». فَحَّ العضَّاض في وجهها من جديد، ليكشف عن أسنانه المصفرَّة ذات الرُّؤوس المدبَّبة. «ينبغي أن يكون للرَّجل اسم، أليس كذلك؟ العضَّاض لا يستطيع الكلام، العضَّاض لا يستطيع الكتابة، لكن أسنانه شديدة الحدَّة، وعندما يُناديه الرَّجل بالعضَّاض يبتسم. أأنت مسحور أم ماذا؟».

تراجعَت آريا بعيدًا عن العربة قائلةً: «لا». لا يُمكنهم أن يمسُّوني بأذى، إنهم مكبَّلون.

قلبَ دورقه قائلًا: «على الرَّجل أن يبكي».

قذفَ رورچ عديم الأنف دورقه في وجهها مُطلِقًا سُبَّةً، وإن جعلَته قيوده لا يُحكِم التَّسديد، ومع ذلك كان الدَّورق الثَّقيل المصنوع من القصدير ليصطدم برأسها مباشرةً، لولا أنها وثبَت جانبًا. صاحَ فيها: «أحضِر لنا البيرة الآن أيها الحشرة! الآن!».

- «اخرس!». حاولَت آريا أن تتصوَّر ما كان سيريو ليفعله في هذا الموقف، ثم إنها سحبَت سيف التَّدريب الخشبي.

قال رورچ: «اقترب وسأدسُّ هذه العصا في شَرجك وأنيكك بها حتى تدمى».

ضربة الخوف أمضى من السَّيف. جعلَت آريا نفسها تدنو من العربة وكلُّ خطوةٍ تخطوها أصعب من سابقتها. بشراسة الوولفرين، بهدوء المياه الرَّاكدة. تردَّدت الكلمات في عقلها كالغِناء، وفكَّرت أن سيريو لم يكن ليخاف الآن. كانت على وشك أن تلمس العجلة عندما نهضَ العضَّاض فجأةً وحاولَ أن يقبض عليها، ليتعالى صليل الأغلال الحديديَّة، التي أوقفَت يديه على بُعد نِصف قدم لا أكثر من وجه آريا، ففَحَّ مرَّةً أخرى.

وضربَته هي بعُنفٍ بين عينيه الصَّغيرتين مباشرةً.

تراجعَ العضَّاض مترنِّحًا وهو يَصرُخ بألم، ثم ألقى بوزنه كله إلى الأمام، فانزلقَت حلقات السَّلاسل ودارَت وشُدَّت عن آخِرها، وسمعَت آريا صرير الخشب الجاف القديم والحلقات الحديديَّة الكبيرة تُكافِح للتحرُّر من ألواح أرضيَّة العربة، ورأت يدين شاحبتين ضخمتين تُلَوِّحان أمامها في محاولةٍ

للإمساك بها وقد انتفخَت العروق في ذراعي العضَّاض، لكن القيود ظلَّت متماسكةً، وأخيرًا تراجعَ الرَّجل وتهاوى أرضًا، وسرى الدَّم من قروح وجهه.

قال مَن سمَّى نفسه چاكِن هاجار: «الصَّبي لديه شَجاعة أكثر من العقل».

تراجعَت آريا بتؤدةٍ بعيدًا عن العربة، وعندما شعرَت باليد توضَع على كتفها، دارَت على عقبيها رافعةً سيفها الخشبي من جديد، لكنه كان الثَّور لا أكثر، فسألته بحدَّة: «ماذا تفعل؟».

رفعَ يده بحركةٍ دفاعيَّة مجيبًا: «يورن أمرَنا بعدم الاقتراب من هؤلاء الثَّلاثة».

- «إنهم لا يُخيفونني».

قال الثَّور: «إذن فأنت أحمق، فهُم يُخيفونني أنا!»، ووضعَ يده على مقبض سيفه، فبدأ رورچ يضحك. «لنبتعد عنهم».

جرَّت آريا قدميها على مضض، لكنها تركَت الثَّور يقودها إلى مقدِّمة الخان، بينما تبعَتهما ضحكات رورچ وفحيح العضَّاض. «هل تُريد القتال؟»، سألته شاعرةً بالرَّغبة في أن تضرب شيئًا.

رمقَها مندهشًا وقد سقطَت خُصلٌ مبتلَّةٌ من شَعره الأسود الكثيف على عينيه ذواتي اللَّون الأزرق العميق، وقال: «سأؤذيك».

- «لن تفعل».

- «أنت لا تعرف كم أنا قوي».

- «وأنت لا تعرف كم أنا سريع».

سحبَ سيف پارد الطَّويل، وقال: «أنت من طلبت. هذا فولاذ رخيص، لكنه سيف حقيقي».

وسحبَت آريا إبرتها قائلةً: «وهذا فولاذ ممتاز، أي أنه حقيقي أكثر من سيفك».

هَزَّ الثَّور رأسه وقال: «أتعِد ألَّا تبكي إذا جرحتك؟».

قالت: «أعدك إذا وعدتني بالمِثل»، ودارَت جانبًا متَّخذةً وضع راقصي المياه، لكن الثَّور لم يتحرَّك، بل كان يتطلَّع إلى شيءٍ ما وراءها، فسألته: «ما الأمر؟».

عقدَ حاجبيه عن آخِرهما وأجاب: «ذوو المعاطف الذَّهبيَّة».

قالت آريا لنفسها: مستحيل، لكنها رأتهم قادمين على طريق الملوك عندما التفتَت، ستَّة منهم يرتدون قمصان الحلقات المعدنيَّة السَّوداء والمعاطف الذَّهبيَّة ككلِّ حَرس المدينة. كان أحدهم ضابطًا، يرتدي درع صدرٍ سوداء من المينا تُزَيِّنها أربعة أقراصٍ ذهبيَّة. توقَّفوا أمام الخان، فبدا لآريا كأنَّ صوت سيريو يهمس لها: انظُري بعينيك، وما رأته عيناها كان الرَّغوة البيضاء تحت سَرج كلِّ حصان، ما يعني أن راكبي الخيول انطلقوا بها بأقصى سُرعةٍ لمسافةٍ طويلة. بهدوء المياه الرَّاكدة أخذَت الثَّور من ذراعه وسحبَته إلى وراء سياجٍ من الشُّجيرات الطَّويلة المورقة.

قال لها: «ماذا هناك؟ ماذا تفعل؟ دَعني».

همسَت وهي تسحبه إلى أسفل: «بهدوء الظِّلال!».

كان بعض رجال يورن الآخَرين يجلسون أمام مدخل الحمَّام في انتظار دورهم، فصاحَ فيهم واحد من ذوي المعاطف الذَّهبيَّة: «أيها الرجال، أأنتم المجموعة التي غادرَت للانضمام لحَرس اللَّيل؟».

أجابَه أحدهم بحذر: «ربما».

وقال رايزن العجوز: «نُفَضِّل أن ننضمَّ إليكم يا أولاد، فقد سمعنا أن البرد شديد على «الجِدار»».

ترجَّل الضَّابط وقال: «معي تفويض بالتَّحفُّظ على صبيٍّ معيَّن...».

خرجَ يورن من الخان مداعبًا لحيته السَّوداء المتشابكة، وقاطَعه: «ومَن يُريد هذا الصَّبي؟».

كان بقيَّة ذوي المعاطف الذَّهبيَّة يترجَّلون ليقفوا إلى جوار خيولهم، وسألَ الثَّور آريا هامسًا: «لماذا نختبئ؟».

همسَت آريا في أُذنه التي لا تزال تحمل رائحة الصَّابون: «إنهم يُريدونني أنا، فاصمت».

قال الضَّابط: «الملكة تُريده أيها العجوز، وإن لم يكن هذا من شأنك»، وسحبَ شريطًا من حزامه وأضافَ: «هاك، خَتم جلالتها وتفويضها».

هَزَّ الثَّور رأسه بشَكٍّ وراء سياج الشُّجيرات، وقال: «ولماذا تُريدك الملكة أنت بالذَّات يا آري؟».

لكمَته في كتفه قائلةً: «صمتًا!».

داعبَت أصابع يورن الشَّريط ذا كُتلة الشَّمع الذَّهبي، وقال بازدراء: «جميل، لكن المشكلة أن الصَّبي أصبحَ في حَرس اللَّيل، وأيًّا كان ما فعله في المدينة لا يعني مقدار قطرةٍ من بول الآن».

- «الملكة لا تُبالي بوجهة نظرك أيها العجوز، ولا أنا كذلك. سآخذُ الصَّبِي معي».

فكَّرت آريا في الهرب، لكنها أدركَت أنها لن تبتعد كثيرًا وهي تركب حمارًا بينما يركبون الخيول. إنها متعبَة بحَقٍّ من الهرب. لقد هربَت حين جاءَ السير مرين ليأخذها، وهربَت ثانيةً عندما قتَلوا أباها. لو كانت راقصة مياهٍ حقيقيَّة، لخرجَت إليهم بإبرتها وقتلَتهم جميعًا لتكفَّ عن الهرب إلى الأبد.

قال يورن بعناد: «لن تأخذ أحدًا. ثمَّة قوانين تَحكُم هذه الأشياء».

استلَّ ذو المعطف الذَّهبي سيفًا قصيرًا، وقال: «ها هو قانونك».

رمقَ يورن السَّيف، وردَّ: «هذا ليس قانونًا، بل مجرَّد سيف، ويتصادَف أن معي واحدًا أيضًا».

ابتسمَ الضَّابط قائلًا: «أيها العجوز الأحمق، إن معي خمسة رجال».

بصقَ يورن وقال: «وأنا معي ثلاثون».

ضحكَ ذو المعطف الذَّهبي، وقال آخَر كبير الحجم وضيع الشَّكل ذو أنفٍ مكسور: «هذه الشِّرذمة؟»، ثم صاحَ وهو يسحب سيفه: «مَن الأول؟».

التقطَ تاربر مذراةً من كومة قَشٍّ، وقال: «أنا».

- «لا، أنا»، زعقَ البنَّاء الممتلئ كَتچاك وهو يُمَرِّر مطرقته على المئزر الجِلدي الذي يرتديه دائمًا.

وتقدَّم كورز حاملًا سكِّين السَّلخ وردَّد: «أنا».

وشَدَّ كوس قوسه الطَّويل قائلًا: «أنا وهو».

- «كلنا»، قال رايزن مختطفًا عُكَّازه الطَّويل المصنوع من الخشب القوي.

خرجَ دوبر من الحمَّام مكوِّمًا ثيابه بين يديه، ولمَّا رأى ما يَحدُث ألقى كلَّ ما فيه يده باستثناء خنجره، وسألهم: «أهذا قتال؟».

- «أظنُّ هذا»، أجابَ هوت پاي وهو يزحف على أربعٍ بحثًا عن صخرةٍ كبيرةٍ يقذفها، بينما لم تُصَدِّق آريا ما تراه عيناها. إنها تكره هوت پاي بحرارة، فلماذا يُخاطِر بحياته من أجلها؟!

حافظَ ذو الأنف المكسور على نبرة الاستهانة في صوته وهو يقول: «من الأفضل أن تضعن تلك الحجارة والعصيَّ أيتها الفتيات قبل أن تُصفَعن على مؤخِّراتكنَّ. لا واحدة منكن تعرف من أيِّ طرفٍ يُمسَك السَّيف».

- «أنا أعرف!». لن تسمح آريا بأن يموتوا من أجلها مِثل سيريو، لن تسمح أبدًا! هكذا دفعَت جسدها عبر سياج الشُّجيرات وفي يدها إبرتها، وأخذَت وضع راقصي المياه.

قهقهَ ذو الأنف المكسور ساخرًا، وتطلَّع إليها الضَّابط من أعلى إلى أسفل، ثم قال: «أبعِدي هذا السَّيف أيتها البنت، فلا أحد يُريد أن يُؤذيكِ».

صرخَت غاضبةً: «لستُ بنتًا!». ماذا بهم؟ لقد قطَعوا كلَّ تلك المسافة من أجلها، وها هي ذي أمامهم، لكنهم يبتسمون لها لا أكثر. «أنا مَن تُريدون!».

- «هو من نُريد»، قال الضَّابط مشيرًا بطرف سيفه القصير إلى الثَّور الذي تقدَّم ليقف إلى جوارها، وفي يده سيف بارد الرَّخيص.

لكنه أخطأ عندما أبعدَ عينيه عن يورن ولو لحظةً، فتلك اللَّحظة هي كلُّ ما استغرقَه الأخ الأسود ليضغَط نصل سيفه على تُفَّاحة حَلق الضَّابط، ويقول: «لن تأخذ أيهما، ما لم تكن تُريدني أن أرى إن كانت تُفَّاحتك قد نضجَت. إن معي عشرة إخوة أو خمسة عشر آخَرين داخل هذا الخان، إذا كنت ما زلت في حاجةٍ إلى الاقتناع. لو كنتُ مكانك لتخلَّيت عن ممزِّق الأحشاء هذا، ووضعتُ فلقتيَّ مؤخِّرتي على هذا الحصان البدين وانطلقتُ عائدًا إلى المدينة»، ثم بصقَ وضغطَ رأس سيفه بقوَّةٍ مضيفًا: «الآن». وعندما حَلَّ الضَّابط أصابعه ليُسقِط سيفه أرضًا، قال يورن: «سنحتفظ بهذا، فدائمًا ما نحتاج الفولاذ الجيِّد على «الجِدار»».

- «كما تقول... في الوقت الحالي. هيا بنا يا رجال»، ودَسَّ ذوو المعاطف

الذَّهبيَّة سيوفهم في أغمدتها وعادوا يمتطون خيولهم، بينما أردفَ الضَّابط: «خيرٌ لك أن تُسارِع بالعودة إلى جداركم هذا أيها العجوز، فعندما أمسكُ بك المرَّة القادمة، سآخذُ رأسك مع رأس الصَّبي النَّغل».

قال يورن: «رجال أفضل منك حاوَلوا من قبل»، وصفعَ كفل حصان الضَّابط بجانب سيفه المسطَّح، لينطلق جاريًا على طريق الملوك، وتبعَه بقيَّتهم.

بدأ هوت باي يهتف عندما غابوا عن الأنظار، لكن يورن بدا غاضبًا للغاية وهو يزعق فيه: «أيها الأحمق! هل تحسب أنه انتهى منا؟ المرَّة القادمة لن يقف متبخترًا ويُناولني شريطًا مختومًا. قولوا للبقيَّة أن يَخرُجوا من الحمَّام، فعلينا أن نتحرَّك. قد نتمكَّن من أن نسبقهم بعض الشَّيء إذا ركبنا طول اللَّيل»، ثم التقطَ السَّيف القصير الذي أسقطَه الضَّابط وسألهم: «مَن يُريد هذا؟».

صاحَ هوت باي: «أنا!».

- «لا تستعمله ضد آري»، وناولَ السَّيف للصَّبي من مقبضه، ثم اتَّجه نحو آريا، وإن قال موجِّهًا كلامه للثَّور: «الملكة تُريدك بشدَّة يا ولد».

قالت آريا حائرةً: «لماذا تُريده هو؟!».

رمقَها الثَّور عابسًا وقال: «ولماذا تُريدك أنت؟ أنت مجرَّد جرذ حقير!».

- «وأنت لست أكثر من نغل!». أم أنه يتظاهَر فحسب بأنه نغل؟ «ما اسمك؟».

أجابَ كأنه ليس واثقًا تمامًا بالإجابة: «جندري».

قال يورن: «لا أرى سببًا يدعو أحدًا لأن يُريد أيكما، لكن لا أحد يُمكنه أن يأخذكما في جميع الأحوال. اركبا هذين الحصانين، ومع أول لمحةٍ لذوي المعاطف الذَّهبيَّة انطلقا نحو «الجِدار» كأن تنِّينًا يُطارِدكما. بقيَّتنا لا يُمثِّلون لهم شيئًا».

علَّقت آريا: «باستثنائك أنت. ذلك الرَّجل قال إنه سيأخذ رأسك أيضًا».

رَدَّ يورن: «آه، بالنِّسبة لهذا، إذا استطاعَ أن يقطعه من فوق كتفيَّ، فهنيئًا له به».

چون

نادى چون بصوتٍ خفيض: «سام؟».

كان الهواء يعبَق برائحة الورق والغُبار والسِّنين، ومن أمامه ارتفعَت الرُّفوف الخشبيَّة العالية حتى السَّقف المعتم، وقد تكدَّست عليها الكُتب ذات الأغلفة الجِلديَّة، وصناديق المخطوطات العتيقة، بينما تسرَّب من بين أكوام الورق وهجٌ أصفر خافت يأتي من مصباح غير مرئي. أطفأَ چون الفتيل المكسوَّ بالشَّمع الذي يحمله، مفضِّلًا ألَّا يُخاطِرَ بالتحرُّك باللَّهب المكشوف وسط كلِّ هذه الأوراق القديمة الجافَّة، وبدلًا من هذا اتَّبع الضَّوء وشَقَّ طريقه في الممرَّات الضيِّقة تحت السُّقوف المقنطَرة المرتفعة. كان يبدو كظِلٍّ يسري بين الظِّلال بثيابه السَّوداء تمامًا وشَعره الدَّاكن ووجهه الطَّويل وعينيه الرَّماديَّتين، وقد غطَّى قُفَّازان أسودان من جِلد الخُلد يديه؛ اليُمنى لأنها محروقة، واليُسرى لأن أيَّ رجلٍ سيَشعُر بالحماقة وهو يرتدي قُفَّازًا واحدًا.

كان ساموِيل تارلي يجلس منكفئًا على طاولةٍ موضوعة في كُوَّةٍ محفورة في الحائط الحجري، والوهج يأتي من المصباح المعلَّق فوق رأسه. رفعَ عينيه عندما سمعَ خطوات چون، الذي بادَره: «هل قضيت اللَّيل كله هنا؟».

بدا سام مأخوذًا وهو يقول: «لا أدري. هل قضيته كله هنا؟».

- «إنك لم تتناوَل إفطارك معنا، ولم تنَم في فِراشك». كان راست قد اقترحَ أن سام تهرَّب من الخدمة، لكن چون لم يُصَدِّق ذلك لحظةً، فالتهرُّب يتطلَّب نوعًا خاصًّا من الشَّجاعة، الشَّيء الذي يملك سام نزرًا يسيرًا جدًّا منه.

- «أهو الصَّباح؟ لا توجد وسيلة لمعرفة الوقت هنا».

قال چون: «سام، أنت أحمق طيِّب. سوف تفتقد فِراشك وأنت نائم على الأرض الباردة الصُّلبة، أعدُك بهذا».

تثاءبَ سام، ثم قال: «المِايستر إيمون أرسلَني للعثور على خرائط لحضرة القائد. لم أعتقد قَطُّ أن... چون، الكُتب! هل رأيت شيئًا كهذا من قبل؟ هناك آلاف منها!».

تطلَّع حوله قائلًا: «مكتبة وينترفل فيها أكثر من مئة كتاب. هل وجدت الخرائط؟».

أجابَ سام: «أوه، نعم»، ولوَّح بيده عبر المائدة مشيرًا بأصابعه السَّمينة كأنها أصابعِ سُجق إلى الكُتب واللّفائف المكوَّمة أمامه. «دستة على الأقل»، وبسطَ لفافةً مربَّعةً من ورق الرَّقوق مضيفًا: «لقد بهتَت الألوان، لكن يُمكنك أن ترى أين عيَّن مَن رسمَ الخريطة مواقع قُرى الهَمج. ثمَّة كتاب آخَر... أين هو؟ كنتُ أقرأه منذ لحظات»، وأزاحَ بعض اللَّفائف جانبًا ليكشف عن مجلَّدٍ مُترِب مغلَّف بجلدٍ تعفَّن منذ زمن، وقال برهبة: «هذه وقائع رحلةٍ من بُرج الظِّلال وحتى نُقَطة لورن على السَّاحل المتجمِّد، دوَّنها جوَّال اسمه ردوين. إنها ليست مؤرَّخة، لكنه يَذكُر ملكًا في الشَّمال اسمه دورين ستارك، فلا بُدَّ إذن أن تلك الرِّحلة سبقَت «الغَزوة». لقد قاتَلوا عمالقةً يا چون! وثمَّة معامَلات تجاريَّة أيضًا تمَّت بين ردوين وأطفال الغابة. القصَّة كلها مذكورة هنا»، وقلبَ الصَّفحات بلمسةٍ في منتهى الخفَّة من إصبعه، واستطردَ: «ثم إنه رسمَ خرائط، كما ترى...».

- «ربما يُمكنك أن تُدَوِّن وقائع رحلتنا يا سام».

كان چون يقصد أن يُشَجِّعه، ولكنه تفوَّه بالقول الخطأ، فلا يحتاج سام الآن إلى من يُذَكِّره بما ينتظرهم يوم غد. أخذَ سام يُرَتِّب اللَّفائف بلا نظام معيَّن قائلًا: «هناك المزيد من الخرائط. لو كان لديَّ وقت لأبحث... كلُّ شيءٍ هنا مختلط، لكن يُمكنني أن أرتِّبه، أعرفُ أني أستطيعُ، لكن هذا سيستغرق وقتًا... بضع سنوات في الحقيقة».

قال چون: «مورمونت يُريد تلك الخرائط أسرع من هذا»، والتقطَ لفافةً من أحد الصَّناديق ونفخَ ما استطاعَ من غُبارٍ من عليها، وتفتَّت رُكنها بين أصابعه

وهو يَبسُطها، فغمغمَ وقد ضيَّق عينيه ليقرأ الكلمات الباهتة: «انظُر، هذه بدأت تتلف».

- «تعامَل بلُطف»، قال سام، ودارَ حول الطَّاولة ليلتقط اللُّفافة من يده، وحملها كما لو أنها حيوان جريح. «كانوا ينسخون الكُتب المهمَّة عندما يحتاجونها، وغالبًا نُسِخَ عدد من الكُتب الأقدم نِصفمئة مرَّةٍ على الأقل».

- «طيِّب، لا تُزعِج نفسك بنسخ هذه. 23 برميلًا من سَمك القُد المملَّح، 18 برطمانًا من زيت السَّمك، برميل من الملح...».

- «إنه جرد، أو فاتورة بيع ربما».

- «ومَن يُبالي بكَمِّ القُد المملَّح الذي كانوا يأكلونه منذ ستمئة عام؟».

قال سام: «أنا أبالي»، وأعادَ اللُّفافة إلى حيث أخذَها چون، وأردفَ: «يُمكنك أن تتعلَّم الكثير جدًّا من تلك الدَّفاتر، حقًّا وبلا مزاح، فمثلًا يُمكنك أن تعرف منها كم رجلًا كانوا في حَرس اللَّيل في حينها، وكيف عاشوا وماذا كانوا يأكلون...».

- «كانوا يأكلون طعامًا ويعيشون مِثلما نعيش».

- «ستجد الكثير مما يُدهِشك. هذا السِّرداب كنز حقيقي يا چون».

- «لو أن هذا رأيك». لم يكن چون مقتنعًا، فالكنوز تعني الذَّهب والفضَّة والجواهر، وليس الغُبار والعناكب والجلد المتعفِّن.

اندفعَ الصَّبي البدين يقول: «هذا رأيي». كان يَكبُر چون سِنًّا، رجلًا بالغًا طِبقًا للقانون، لكن من الصَّعب أن تُفكِّر فيه باعتباره أكثر من صبي. «لقد وجدتُ رسومًا للوجوه المحفورة في الأشجار، وكتابًا عن لُغة أطفال الغابة... أعمالًا لا تملكها «القلعة» ذاتها، مخطوطات من ڤاليريا القديمة، إحصاءات للفصول دوَّنها مايسترات ماتوا قبل ألف عام...».

- «ستظلُّ الكُتب هنا عندما نعود».

- «إذا عُدنا...».

- «الدُّب العجوز سيقود مئتي رجل مخضرم، ثلاثة أرباعهم من الجوَّالة، وكورين ذو النِّصف يد سيأتي بمئة أخ آخَر من بُرج الظِّلال. ستكون آمنًا كما لو أنك في قلعة السيِّد والدك في هورن هيل».

ارتسمَت ابتسامة حزينة على شفتي ساموِيل تارلي وهو يقول: «لم أكن آمنًا قَطُّ في قلعة أبي كذلك».

قال چون لنفسه: الآلهة دُعاباتها قاسية بحق. سوف يبقى پيپ وتودر -المتلهِّفان على الاشتراك في جولة التقصِّي العظيمة- في القلعة السَّوداء، بينما على ساموِيل تارلي -الصَّبي الخانع شديد البدانة الذي أقرَّ علنًا بجُبنه ولا يُجيد ركوب الخيل أكثر مما يُجيد المبارَزة- أن يُواجِه الغابة المسكونة. من المفترَض أن يأخذ الدُّب العجوز معه قفصين من الغِدفان التي ستحمل أخبار تقدُّمهم إلى إخوتهم على «الجِدار»، والمِايستر إيمون كفيف وأوهن من أن يركب معهم، ولهذا ينبغي أن يذهب وكيله بدلًا منه. «إننا نحتاجك من أجل الغِدفان يا سام، ويجب أن يُساعِدني أحدهم على كبح جماح جرِن كذلك».

ارتجفَت ذقن سام المشقوقة وهو يقول بنبرةٍ يائسةٍ تمكَّنت من صوته: «يُمكنك أن تعتني بالغِدفان، أو يعتني بها جرِن، أو أيُّ أحد، يُمكنني أن أريك كيف. ثم إنك تُجيد القراءة والكتابة، وتستطيع أن تكتُب رسائل اللورد مورمونت مِثلي تمامًا».

- «أنا وكيل الدُّب العجوز، وعليَّ أن ألبِّي أوامره وأُعنى بحصانه وأنصب خيمته، ولن يكون لديَّ وقت للعناية بالطُّيور كذلك. سام، لقد ردَّدت الكلمات، والآن أنت أخ في حَرس اللَّيل».

- «لا ينبغي أن يكون أخ في حَرسِ اللَّيل خائفًا هكذا».

- «كلنا خائفون، فمن الحمق ألَّا نخاف». جوَّالة كثيرون فُقِدوا خلال العامين المنصرمَيْن، حتى بنچن ستارك عمُّ چون. ثم إنهم عثروا على اثنين من رجال عمِّه صريعَيْن في الغابة، لكن الجثَّتين نهضَتا في برد اللَّيل. ارتعشَت أصابع چون المحترقة بحركةٍ عصبيَّة وهو يتذكَّر. كان لا يزال يرى الجثَّة الحيَّة في أحلامه، أوثور الميت ذا العينين المتَّقدتين بالأزرق واليدين السَّوداوين الباردتين، لكن ذلك كان آخِر شيءٍ يُريد سام أن يتذكَّره الآن. «ليس هناك ما يُخجِل في الخوف كما قال لي أبي، وما يهمُّ حقًّا هو كيف نُواجِهه. هلمَّ، سأساعدك على جمع الخرائط».

هَزَّ سام رأسه ببؤس. كانت مسافات رأسيَّة ضيِّقة للغاية تفصل بين الرُّفوف، فجعلَتهما يتحرَّكان واحدًا وراء الآخَر في طريقهما إلى الخارج. ينفتح السِّرداب على واحدٍ من الأنفاق التي يُسَمِّيها الإخوة السُّود «المسالك الدُّوديَّة»، تلك الممرات الملتوية التي تربط بين حصون وأبراج القلعة السَّوداء تحت الأرض. نادرًا ما تُستَخدم تلك المسالك الدُّوديَّة في الصَّيف، لكن الشِّتاء شأن آخَر، فعندما تتراكَم الثُّلوج على ارتفاع أربعين أو خمسين قدمًا، وتهبُّ الرِّياح الجليديَّة عاويةً من الشَّمال، تُصبِح الأنفاق الشَّيء الوحيد الذي يُحافِظ على تماسُك القلعة السَّوداء.

قريبًا، فكَّر چون وهما يصعدان. لقد رأى النَّذير الذي جاءَ المِايستر إيمون حاملًا نبأ نهاية الصَّيف، غُداف «القلعة» العظيم الأبيض الصَّامت كجوست. كان قد شهدَ شِتاءً ذات مرَّةٍ وأظفاره لا تزال ناعمةً، لكن الجميع اتَّفقوا على أنه كان شِتاءً قصيرًا ومعتدلًا، أمَّا هذا الشِّتاء القادم فسيكون مختلفًا. إنه يَشعُر بهذا في عظامه ذاتها.

كان سام يلهث بقوَّةٍ كمنفاخ الحدَّاد من ارتفاع السَّلالم الحجريَّة المنحدرة عندما بلغا السَّطح، حيث صارا مكشوفَيْن للرِّيح القارسة التي شدَّت معطف چون وطيَّرته بعُنف. كان جوست نائمًا ممدَّد الجسد إلى جوار حائط صومعة الغلال المبني بالطِّين وأعواد السَّنط، لكنه استيقظَ عندما ظهرَ چون وانتصبَ ذيله الأبيض ذو الشَّعر الكثيف وهو يُهَروِل إليهما.

ضيَّق سام عينيه ورفعَهما إلى «الجِدار» الذي حجبَ نِصف السَّماء من أمامهما، الجُرف الجليدي العملاق الذي يرتفع سبعمئة قدم كاملة. أحيانًا يبدو لچون أنه كائن حي له أمزِجته الخاصَّة التي تتبدَّل، إذ يتغيَّر لون الجليد مع كلِّ اختلافٍ في الضَّوء، ففي حينٍ يكون أزرق الأنهار المتجمِّدة العميق، وفي حينٍ هو الأبيض المتَّسخ كالثَّلج القديم، وعندما تمرُّ سحابة وتُخفي وجه الشَّمس يغمقُ ليصير رماديًّا باهتًا كنَواةٍ لُفِظَت من ثمرتها منذ زمنٍ بعيد. امتدَّ «الجِدار» شَرقًا وغَربًا على مدى البصر، ضخمًا لدرجةٍ جعلَت حصون القلعة الخشبيَّة وبروجها الحجريَّة تتقلَّص مقارنةً به إلى أشياءَ بالغة الضَّآلة... إنه حافة العالم.

ونحن ذاهبون وراءها.

انتشرَت سُحب رماديَّة خفيفة في سماء الصَّباح، لكن الخَطَّ الأحمر الباهت ظَلَّ واضحًا من خلفها. كان الإخوة السُّود قد أطلَقوا على الجِرم السَّماوي اسم «شُعلة مورمونت»، وقالوا (وكلامهم ليس بريئًا تمامًا من المزاح) إن الآلهة أرسلَته بلا شَكٍّ ليُنير طريق العجوز في الغابة المسكونة.

قال سام مظلِّلًا عينيه بالكُتب: «المذنَّب متَّقد للغاية الآن، حتى إنك تستطيع أن تراه نهارًا».

- «لا عليك بالمذنَّبات، فما يُريده الدُّب العجوز هو الخرائط».

سبقَهما جوست متواثبًا، وقد بدا المكان مهجورًا هذا الصَّباح مع ذهاب عددٍ كبير جدًّا من الجوَّالة إلى الماخور في بلدة المَناجذ، ليُنَقِّبوا عن الكنوز الدَّفينة -كما يُطلِقون على العاهرات هناك- ويشربوا حتى الثُّمالة. كان جرِن قد ذهب معهم بَعد أن عرضَ عليه پيپ وهالدر وتودر أن يبتاعوا له أول امرأةٍ احتفالًا بجولته الأولى، وأرادوا أن يذهب چون وسام معهم كذلك، لكن سام يخاف العاهرات كما يخاف الغابة المسكونة، وچون لا يرغب في أن يكون له دور في هذا، وقال لتودر: «لقد حلفتُ يمينًا».

سمعَ أصواتًا ترتفع بالإنشاد وهما يمرَّان بالسِّپت. بعض الرِّجال يُريد عاهراتٍ عشيَّة المعركة، والبعض يُريد الآلهة. تساءلَ چون عمَّن مِن الفِرقتين يجد نفسه شاعرًا بالارتياح بَعد أن ينال ما يُريده، فالسِّپت لا يجتذبه أكثر من الماخور بحال، لأن معابد آلهته تقع في البراري، حيث تبسط أشجار الويروود أغصانها البيضاء كالعظام. «السَّبعة» لا سُلطان لهم وراء «الجِدار»، لكن آلهتي ستكون في الانتظار.

كان السير إندرو تارث يعمل خارج مستودَع السِّلاح مع عددٍ من المجنَّدين المستجِدِّين الذين وصلوا ليلة أمسٍ مع كونوي، أحد الغِربان المتنقِّلين الذين يجوبون الممالك السَّبع ليجمعوا رجالًا جُددًا للخدمة على «الجدار». تكوَّن هذا المحصول الجديد من شيخ يتَّكئ على عُكَّاز، وصبيَّين أشقرين يبدو أنهما أخوان، وشاب متأنِّق يرتدي الحرير المتَّسخ، ورجل ذي قدم مشوَّهة يرتدي الأسمال، وأحمق دائم الابتسام يتخيَّل نفسه محاربًا. كان السِّير إندرو

يُري هذا الأخير كم هو مخطئ في ذلك التَّصوُّر، وعلى الرغم من أنه قيِّم سلاح أكثر اعتدالًا من السير أليسر ثورن، فإن دروسه لا تزال تترك كدماتٍ على أجساد متدرِّبيه. جفلَ سام مع كلِّ ضربة، أمَّا چون سنو فتابعَ تدريبات المبارَزة بتركيزٍ شديد.

- «ما رأيكَ فيهم يا سنو؟»، قال دونال نوي الذي وقفَ في مدخل مستودَع السِّلاح عاري الصَّدر تحت مئزرٍ جِلدي، وقد ظهرَ ما تبقَّى من ذراعه اليُسرى المقطوعة، الشَّيء الذي نادرًا ما يَحدُث. منظر نوي ليس سارًّا ببطنه الكبير وصدره الضَّخم وأنفه المسطَّح واللِّحية الكثَّة حول فمه، وإن رحَّب به چون في كلِّ الأحوال، فقد أثبتَ صانع السِّلاح أنه صديق جيِّد.

قال چون والسير إندرو يُهاجِم خصمه بعُنفٍ فيُطيح به: «رائحة الصَّيف تفوح منهم. أين عثرَ عليهم كونوي؟».

أجابَ الحدَّاد: «في زنزانة أحد اللوردات في بلدة النَّوارس. لِص وحلَّاق وشحَّاذ وصبيَّان يتيمان وفتى يعمل عاهرةً. بهؤلاء نحمي حمى البَشر».

- «سيَصلُحون»، قال چون مانحًا سام ابتسامةً جانبيَّةً. «كما صلحنا نحن».

جذبَه نوي مقرِّبًا إياه، وقال: «هل سمعت أخبار أخيك؟».

- «ليلة أمس». كان كونوي ورجاله قد جاءوا بالأخبار شَمالًا معهم، فكانت محور الحديث في القاعة العامَّة. لم يكن چون متأكِّدًا بعدُ من شعوره حيال هذا. روب ملكًا؟ الأخ الذي لعبَ معه وتشاجرَ معه وتقاسمَ أول كوب نبيذٍ شربه معه؟ لكن ليس لبن الأم، لا، والآن سيحتسي روب النَّبيذ الصَّيفي من كؤوسٍ محلَّاة بالجواهر، بينما أركعُ أنا عند جدولٍ ما وأمتصُّ الثَّلج الذَّائب بين يديَّ. أجابَ بإخلاص: «سيكون روب ملكًا صالحًا».

قال صانع السِّلاح رامقًا إياه بنظرةٍ صريحة: «حقًّا؟ أتمنَّى هذا يا فتى، وإن كنتُ قد قلتُ الشَّيء نفسه عن روبرت من قبل».

قال چون متذكِّرًا: «يقولون إنك صنعت مطرقته الحربيَّة».

- «أجل، كنتُ رجله، رجل باراثيون، حدَّادًا وصانع سلاح في ستورمز إند إلى أن فقدتُ ذراعي. أنا كبير بما يكفي لأن أتذكَّر اللورد ستفون قبل أن يبتلعه البحر، وأعرفُ أبناءه الثَّلاثة منذ مولدهم. دَعني أُخبِرك بهذا: روبرت لم يَعُد

كما كان على الإطلاق منذ ارتدى ذلك التَّاج. بعض الرِّجال كالسُّيوف، مخلوقون للقِتال، فإذا عُلِّقوا أصابَهم الصَّدأ».

- «وماذا عن أخويه؟».

فكَّر صانع السِّلاح لحظةً قبل أن يُجيب: «روبرت كان الفولاذ الحقيقي، وستانيس حديد خالص، أسود وصُلب وقوي، نعم، لكنه هَشٌّ كما الحديد، سينكسر قبل أن ينحني. أمَّا رنلي فهو النُّحاس، لامع ومزخرف ويحلو التطلُّع إليه، لكن لا يُساوي الكثير في النِّهاية».

ومن أيِّ معدنٍ قُدَّ روب؟ لم يسأل چون، فنوي من المخلصين لآل باراثيون، وغالبًا يعدُّ چوفري الملك الشَّرعي وروب خائنًا. في أخوَّة حَرس اللَّيل ثمَّة ميثاق غير مُعلَن يجعلهم لا يخوضون طويلًا في تلك المسائل، فالرِّجال يأتون إلى «الجِدار» من كلِّ أنحاء الممالك السَّبع، وليس من اليسير أن ينسوا من كانوا يُحِبُّونهم ويُخلِصون إليهم من قبل، مهما كان عدد الأيمان التي حلفوها... كما يعي چون نفسه بشدَّة الآن، وحتى سام الذي أقسمَ أبوه على الولاء لهايجاردن، التي يدعم سيِّدها اللورد تايرل الملك رنلي. من الأفضل عدم الدُّخول في تلك الأحاديث، فحَرس اللَّيل لا يتدخَّلون في شؤون البلاد.

قال چون: «اللورد مورمونت ينتظرنا».

ربَّت نوي على كتفه وابتسمَ قائلًا: «لن أعطِّلكما عن الدُّب العجوز إذن. فلتكن الآلهة معكم غدًا يا سنو. عودوا بعمِّك الغائب، هل تسمعني؟».

وعدَه قائلًا: «سنفعل».

كان حضرة القائد مورمونت قد نقلَ إقامته إلى بُرج الملك بَعد أن التهمَ الحريق بُرجه. تركَ چون جوست مع الحُرَّاس خارج الباب، وقال سام بتعاسةٍ وهما يبدآن الصُّعود: «المزيد من السَّلالم. كم أكرهُ السَّلالم!».

- «هذا شيء لن تُواجِهه في الغابة».

لمحَهما الغُداف بمجرَّد أن دخلا الغُرفة الشَّمسيَّة، وصرخَ: «سنو!»، فبترَ مورمونت محادَثته وقال لسام: «قضيت وقتًا طويلًا في العثور على تلك الخرائط»، وأزاحَ بقايا إفطاره ليُفسِح مكانًا على الطَّاولة، وأضافَ: «ضعها هنا. سألقي نظرةً عليها فيما بَعد».

رمقَ ثورين سمولوود -الجوَّال عصبي الملامح ذو الذَّقن الضَّعيفة والفم الأضعف المخفي تحت لحيته الخفيفة المشعثة- چون وسام بنظرةٍ باردة. إنه من رجال أليسر ثورن المخلصين، ولا يُكِنُّ لهما أيَّ مودَّة. قال لمورمونت متجاهلًا إياهما: «مكان حضرة القائد في القلعة السَّوداء، يُلقي الأوامر والتَّعليمات، هذا ما يبدو لي».

خفقَ الغُداف بجناحيه الأسودين الكبيرين مردِّدًا: «لي، لي، لي!».

قال مورمونت للجوَّال: «إذا جاءَ يوم وأصبحت القائد، فيُمكنك أن تفعل ما تُريد، لكن يبدو لي أنا أني لا مِتُّ ولا وضعَك الإخوة مكاني».

رَدَّ سمولوود بعناد: «أنا الجوَّال الأول الآن مع غياب بن ستارك ومقتل السير چارمي، ومن المفترَض أن تكون القيادة لي غدًا».

لم يكن مورمونت يرغب في أيِّ نقاش، وقال بحسم: «لقد أرسلتُ بن ستارك شَمالًا، وأرسلتُ السير وايمار من قبله، ولا أنوي أن أُرسِلك وراءهما وأجلسُ متسائلًا كم من الوقت ينبغي أن أنتظر قبل أن أعدَّك مفقودًا بدورك. ثم إن ستارك سيظلُّ الجوَّال الأول حتى نتيقَّن من موته، فإذا جاءَ ذلك اليوم، سأكونُ أنا من يختار من يخلفه، وليس أنت. والآن كُفَّ عن تضييع وقتي. سوف نتحرَّك مع أول خيوط الفَجر، أم أنك نسيت؟».

نهضَ سمولوود قائلًا: «كما تأمر يا سيِّدي»، وكشَّر في وجه چون في طريقه إلى الخارج، كأنها بشكلٍ ما غلطته.

- «الجوَّال الأول!»، قال الدُّب العجوز باستنكار، واستقرَّت عيناه على سام فأردفَ: «أهون عليَّ أن أعيِّنك أنت جوَّالًا أول! لديه من الوقاحة ما يجعله يقول في وجهي إنني عجوز جدًّا على الرُّكوب معه. هل أبدو عجوزًا لك يا ولد؟». كان الشَّعر الذي انسحبَ من على فروة رأس مورمونت المنقَّطة قد عادَ يجتمع تحت ذقنه في لحيةٍ شيباء خشنة غطَّت مساحةً كبيرةً من صدره، وقد ضربَها بقوَّةٍ قائلًا: «هل أبدو ضعيفًا؟».

فتحَ سام فمه وخرجَ منه صرير قصير، فهو يرهب الدُّب العجوز لأقصى حدٍّ، فتدخَّل چون بسرعةٍ قائلًا: «لا يا سيِّدي، إنك تبدو قويًّا كالـ... كالـ...».

قاطعَه مورمونت: «لا تتملَّقني يا سنو، فأنت تعلم أني لا أحبُّ هذا. دَعني

ألقي نظرةً على هذه الخرائط»، واطَّلع عليها بحركاتٍ خشنة، معطيًا كلًّا منها نظرةً سريعةً وصوتًا ينمُّ عن عدم الرِّضا، ثم قال: «أهذا كلُّ ما وجدته؟».

قال سام متلعثمًا: «أنا... ســسـسيِّدي... هناك... هناك المزيد، لـلـلـكن... الفوـفوضى...».

– «هذه خرائط قديمة»، قال مورمونت متذمِّرًا، وردَّد غُدافه صدى الكلمة الأخيرة صائحًا بحدَّة: «قديمة، قديمة!».

أشارَ چون قائلًا: «قد تنشأ القُرى وتضمحلُّ، لكن التِّلال والأنهار ستظلُّ في المواضع نفسها».

– «هذا صحيح. هل اخترت غِدفانك يا تارلي؟».

– «المِـمِـمِايستر إيمون يـينوي أن ينـينتقيها هذا المساء بَعد إـإـإطعامها».

– «أريدُ أفضل ما لديه، طيورًا ذكيَّة وقويَّة».

وقال طائره وهو يُسَوِّي ريشه: «قويَّة، قويَّة، قويَّة!».

– «إذا حدثَ أن ذُبِحنا في العراء، فأريدُ أن يعرف خليفتي أين وكيف مِتنا».

أصابَ الكلام عن الذَّبح ساموِيل تارلي بالخرس، فمالَ مورمونت إلى الأمام قائلًا: «عندما كنتُ صبيًّا في نِصف عُمرك يا تارلي، قالت لي أمِّي إني إذا وقفتُ وفمي مفتوح هكذا، سيظنُّه ابن عُرس وكره ويحشر نفسه في حَلقي. إذا كان لديك ما تقوله فقُله، وإلَّا فاحذر من ابن عُرس»، ولوَّح بيده بفظاظةٍ مضيفًا: «اذهب، فأنا مشغول وغير راغبٍ في الحماقات. لا شَكَّ أن المِايستر لديه عمل ما لك».

ازدردَ سام لُعابه وتراجعَ وهرعَ منسحبًا بسُرعةٍ حتى إنه كاد يتعثَّر في البساط، وقال حضرة القائد بَعدما ذهبَ: «أهذا الصَّبي أبله كبير كما يبدو حقًّا؟»، وردَّد الغُداف: «أبله!»، بينما لم ينتظر مورمونت إجابةً من چونٍ، وواصلَ: «السيِّد والده صاحِب مرتبةٍ عالية بين مستشاري الملك رنلي، وأفكِّر أن أُرسِله لـ... لا، من الأفضل ألَّا أفعل. رنلي لن يُعطي ولدًا بدينًا يرتجف كالورقة أيَّ اهتمام. سأُرسِلُ السير آرنل. إنه أكثر ثباتًا بكثير وأمُّه كانت من آل فوسواي ذوي التُّفَّاحة الخضراء».

– «إذا سمحت يا سيِّدي، ما الذي تُريده من الملك رنلي؟».

- «الشَّيء ذاته الذي أريده منهم جميعًا يا فتى، الرِّجال والخيول والسِّلاح والدُّروع والغلال والجُبن والنَّبيذ والصُّوف والمسامير... حَرس اللَّيل ليسوا مترفِّعين، ونأخذ ما يُقَدَّم لنا»، ونقرَ على ألواح الطاولة الخشنة بأصابعه مكملًا: «من المفترَض أن يَبلُغ السير أليسر كينجز لاندنج مع دورة القمر الجديدة، لكنني لا أدري إن كان ذلك الصَّبي چوفري سيُعيره انتباهًا. عائلة لانستر لم تكن صديقةً لحَرس اللَّيل قَطُّ».

- «ثورن معه يد الجثَّة الحيَّة ليُريهم إياها». كانت شيئًا بشعًا أسود الأصابع، ترتعش وتتحرَّك في البرطمان كما لو أنها لا تزال حيَّةً.

- «ليت كانت لدينا يد أخرى نُرسِلها إلى رنلي».

- «دايوين يقول إن من الوارد أن نجد أيَّ شيءٍ وراء «الجِدار»».

قال مورمونت ساخرًا: «نعم، دايوين يقول، وآخِر مرَّةٍ خرجَ في جولة قال إنه رأى دُبًّا طوله خمسة عشر قدمًا. يُقال إن أختي اتَّخذَت دُبًّا عشيقًا لها، وسأصدِّقُ هذا قبل أن أصدِّق وجود دُبٍّ طوله خمسة عشر قدمًا... مع أنه في عالم ينهض فيه الموتى... آه، ولو، على الرَّجل أن يُصَدِّق عينيه فقط. لقد رأيتُ المَوتى يمشون، لكني لم أرَ دِببةً عملاقة»، ثم رمقَ چون بنظرةٍ طويلة فاحصة، وقال: «لكننا كنا نتكلَّم عن الأيدي، فكيف حال يدك؟».

- «أفضل»، قال چون وخلعَ القُفَّاز ليُريه. كانت النُّدوب تُغَطِّي نِصف ذراعه حتى المِرفق، ولا يزال يَشعُر بالجِلد المرقَّش الملتهب مشدودًا رقيقًا، وإن كان في طريقه إلى الشِّفاء. «إنها تستحكُّني، لكن المِايستر إيمون يقول إن هذا جيِّد، وأعطاني دهانًا آخذه معي عندما نُغادِر».

- «هل تستطيع استخدام «المخلب الطَّويل» رغم الألم؟».

أجابَ چون وهو يثني يده فاتحًا ومغلِقًا الأصابع كما أراه المِايستر: «بما فيه الكفاية. سأمرِّنُ أصابعي كلَّ يوم كما قال المِايستر إيمون لتبقى نشطةً».

- «قد يكون أعمى، لكن إيمون لا يفعل الأشياء اعتباطًا. إنني أدعو الآلهة أن تُبقِيه معنا عشرين عامًا أخرى. هل تعرف أنه كان من الممكن أن يُصبِح ملكًا؟».

رَدَّ چون مأخوذًا بالمفاجأة: «لقد أخبرَني أن أباه كان ملكًا، لكن ليس... حسبتُ أنه أصغر الأبناء ربما».

- «إنه كذلك. أبو أبيه كان دايرون تارجاريَن الثَّاني، الذي ضَمَّ دورن إلى المملكة. كان جزء من المعاهَدة أن يتزوَّج أميرةً دورنيَّة، فأنجبَت منه أربعة أبناء، وكان مايكار أبو إيمون أصغرهم، وإيمون كان ثالث من أنجبَهم مايكار. اعلم أن كلَّ هذا حدثَ قبل أن أولَد، مهما حسبني سمولوود هَرِمًا».

- «المِايستر إيمون سُمِّيَ تيمُّنًا بالفارس التنِّين».

- «صحيح. يقول البعض إن الأمير إيمون كان أبا الملك دايرون الحقيقي، وليس إجون غير الجدير، لكن في كلِّ الحالات افتقرَ إيمون الخاص بنا إلى طبيعة الفارس التنِّين العسكريَّة، ويُحِبُّ أن يقول إنه كان بطيء القِتال وإنما سريع البديهة. لا غرو أن جدَّه صرفَه إلى «القلعة». كان في التَّاسعة أو العاشرة وقتئذٍ على ما أعتقدُ... والتَّاسع أو العاشر في تسلسُل الوراثة كذلك».

يعرف چونِ أن المِايستر إيمون شهدَ أكثر من مئة يومِ ميلاد، ومن الصَّعب عليه أن يتخيَّل هذا الرَّجل الواهن المنكمش الذَّابل الضَّرير صبيًّا صغيرًا في عُمر آريا.

تابعَ مورمونت: «كان إيمون يدرس عندما قُتِلَ عمُّه الأكبر وليُّ العهد في حادثٍ في دورة مباريات. كان قد خلَّف ابنين، لكنهما تبعاه إلى القبر بَعد فترةٍ لم تَطُل، خلال الوباء الرَّبيعي العظيم، وماتَ الملك دايرون أيضًا، فانتقلَ التَّاج إلى ابنه الثَّاني إيرس».

قال چون حائرًا: «الملك المجنون؟». إيرس كان الملك قبل روبرت، ولم يكن هذا منذ زمن بذلك الطُّول.

- «كلا، أقصدُ إيرس الأول. مَن خلعَه روبرت كان الثَّاني».

- «متى كانت تلك الأحداث؟».

أجابَ الدُّب العجوز: «منذ ثمانين عامًا أو نحوها، وقبل أن تسأل، لا، لم أكن قد وُلِدت بعدُ وقتها، وإن كان إيمون قد صاغَ نِصف دستةٍ من الحلقات في سلسلته في ذلك الحين. تزوَّج إيرس أخته كما كانت عادة آل تارجاريَن، وحكمَ عشرة أعوام أو اثني عشر. خلال هذه الفترة حلفَ إيمون يمينه وغادرَ

«القلعة» ليخدم في بلاط لوردٍ صغيرٍ ما... إلى أن ماتَ عمُّه الملك دون أن يَترُكَ وريثًا، وانتقلَ العرش الحديديّ إلى آخِر أبناء الملك دايرون الأربعة، مايكار أبي إيمون. استدعى الملك الجديد أبناءه كلهم إلى البلاط، وكان ليجعل إيمون جزءًا من مجلسه، لكنه رفضَ قائلًا إن هذا اغتصاب للموقع الذي ينتمي شرعًا للمِايستر الأكبر، وبدلًا من هذا خدمَ في حصن أخيه الأكبر، الذي كان اسمه دايرون أيضًا. هذا الأخ ماتَ كذلك تاركًا فتاةً واهنة العقل كوريثة. أعتقدُ أنها عدوى أصيبَ بها من عاهرةٍ ما. الأخ التَّالي كان إريون».

كان چون يعرف هذا الاسم، فاندفعَ يسأل: «إريون الوحش؟». كانت «الأمير الذي حسبَ نفسه تنِّينًا» واحدةً من أكثر الحكايات المخيفة التي روَتها لهم العجوز نان، وقد أحبَّها أخوه الصَّغير بران كثيرًا.

- «هو بالضَّبط، وإن كان قد سمَّى نفسه إريون اللَّهب السَّاطع. في ليلةٍ وهو ثمل شربَ جرَّةً من النَّار الشَّعواء بَعد أن قال لأصدقائه إنها ستُحيله إلى تنِّين، لكن الآلهة كانت عطوفةً فحوَّلته النَّار إلى جثَّة بدلًا من هذا. بَعدها بأقلِّ من عام ماتَ الملك مايكار في معركةٍ ضد لوردٍ خرجَ على القانون».

لم يكن چون جاهلًا تمامًا بتاريخ البلاد، فقد تأكَّد المِايستر لوين من تعليمه، فقال: «كان ذلك عام المجلس العظيم، عندما تجاوزَ اللوردات ابن الأمير إريون الرَّضيع وابنة الأمير دايرون وأعطوا التَّاج لإجون».

- «نعم ولا. في البداية عرَضوه بهدوءٍ على إيمون، وبهدوءٍ رفضَ قائلًا إن الآلهة تُريد منه أن يخدم لا أن يَحكُم، ثم إنه أصرَّ على أنه لن يحنث بيمينه أبدًا، على الرغم من أن السِّپتون الأعلى نفسه عرضَ أن يُعفيه. على كلِّ حال، لم يكن أحد يرغب في أن يجلس واحد من دم إريون على العرش، وابنة دايرون كانت محدودة العقل علاوةً على كونها أنثى، فلم يكن لديهم خيار غير الاتِّجاه إلى أخي إيمون الأصغر، إجون الخامس الذي لُقِّبَ بإجون المستبعَد وقد وُلِدَ ابنًا رابعًا لابنٍ رابع. كان إيمون يعرف -ولديه الحق- أن من يعترضون على حُكم أخيه سيسعون إلى استغلاله، وهكذا جاءَ إلى «الجِدار»، وهنا ظَلَّ بينما حكمَ أخوه وابنه وابن ابنه وماتوا على التَّوالي، إلى أن وضعَ چايمي لانستر نهايةً لآخِر ملك تنين».

نعبَ الغُداف: «ملك!»، ثم رفرفَ عبر الغُرفة ليَحُطَّ على كتف مورمونت مكرِّرًا: «ملك!» وهو يُحَرِّك رأسه إلى الأمام والخلف.

قال چون مبتسمًا: «إنه يُحِبُّ هذه الكلمة».

- «كلمة يَسهُل قولها، كلمة يَسهُل حبُّها».

وردَّد الطَّائر: «ملك!».

- «أظنه يُريدك أن ترتدي تاجًا يا سيِّدي».

قال مورمونت: «البلاد فيها ثلاثة ملوكٍ بالفعل، أي أن العدد الذي يروقني زائدٌ ملكين دُفعةً واحدةً»، وأخذَ يُداعِب الغُداف تحت منقاره دون أن تُغادِر عيناه چون سنو لحظةً.

أصابَه هذا بالقلق، فسألَ: «سيِّدي، لماذا حكيت لي ما حكيته عن المِايستر إيمون؟».

- «أمن الضَّروري أن يكون لديَّ سبب؟»، واعتدلَ مورمونت في مقعده مقطِّبًا جبهته وقال: «لقد تُوِّجَ أخوك روب ملكًا في الشَّمال، أي أن هذا شيء مشترَك بينك وبين إيمون، كلاكما له أخ ملك».

قال چون: «ونشترك في القَسم الذي ردَّدناه كذلك».

أطلقَ الدُّب العجوز نخيرًا مرتفعًا، فوثبَ الغُداف ليُحَلِّق في دائرةٍ في سماء الغُرفة. «أعطني رجلًا مقابل كلِّ قَسَمٍ رأيته يُنكَث ولن يفتقر «الجِدار» إلى من يُدافِعون عنه أبدًا».

- «كنتُ أعرفُ دومًا أن روب سيُصبِح سيِّد وينترفل».

صفرَ مورمونت، فعادَ الطَّائر يستقرُّ على ذراعه وهو يقول: «سيِّد قلعة شيء وملك شيء آخر»، ورفعَ يده إلى الغُداف بحفنةٍ من الذُّرة من جيبه وتابعَ: «سوف يكسون أخاك روب بحريرٍ ومخملٍ من مئة لونٍ ولون، بينما تعيش أنت وتموت مرتديًا قميص الحلقات المعدنيَّة الأسود، وسيتزوَّج هو أميرةً جميلةً ما ويُنجِب منها أبناءً، وأنت ستظلُّ بلا زوجةٍ دائمًا ولن تحمل طفلًا من دمك بين يديك أبدًا. روب سيَحكُم وأنت ستخدم، وسيدعوك النَّاس بالغُراب ويدعونه بجلالة الملك. سيُمَجِّد المغنُّون كلَّ شيءٍ صغيرٍ

يفعله بينما لن يُغَنِّي أحد كلمةً عن أعظم إنجازاتك. قُل لي إن لا شيء من هذا يُزعِجك يا چون وسأعدُّك كذَّابًا، واعلم أني أعرفُ الحقيقة».

شَدَّ چون قامته عن آخِرها حتى صارَت كوتر القوس، وقال: «ولو كنتُ منزعجًا حقًّا، فماذا يُمكنني أن أفعل وأنا مجرَّد نغل؟».

سأله مورمونت: «ماذا يُمكنك أن تفعل وأنت مجرَّد نغل؟».

أجابَ چون: «سأنزعجُ... وأصونُ قَسمي».

كاتلين

كان تاج ابنها قد خرجَ لتوِّه من كير الحدَّاد، وخُيِّلَ لكاتلين ستارك أنه يضغط بوزنه الثَّقيل على رأس روب.

لقد فُقِدَ تاج ملوك الشِّتاء العتيق منذ ثلاثة قرونٍ كاملة، بَعد تسليمه إلى إجون الفاتح، عندما ركعَ تورين ستارك أمامه معلنًا خضوعه، ولا أحد يدري ما فعلَه به إجون. على أن حدَّاد اللورد هوستر أدَّى عمله على أكمل وجه، فبدا تاج روب مشابهًا جدًّا للآخَر الذي وردَ وصفه في الحكايات التي تُحكى عن ملوك ستارك القُدامى: دائرة صغيرة مفتوحة من البرونز المطرَّق نُقِشَت عليها أبجديَّة البَشر الأوائل، تعلوها تسعة قضبان حديديَّة سوداء على شكل سيوفٍ طويلة. غابَ كلُّ أثرٍ للذَّهب والفضَّة والجواهر من التَّاج، فمن قديمٍ والبرونز والحديد معدنا الشِّتاء، كلاهما داكنٌ قويٌّ أثناء القتال ضد البرد.

كانوا ينتظرون مثول السَّجين أمامهم في قاعة ريڤررَن الكُبرى، ورأت روب يدفع التَّاج إلى الوراء على شَعره الكستنائي الكثيف، ثم يُحَرِّكه إلى الأمام ثانيةً بَعد لحظات، ثم إنه أدارَه رُبع دورة، كأن هذا سيجعله يستقرُّ بسهولةٍ أكثر على حافة رأسه. فكَّرت كاتلين وهي تَرقُبه: ليس من السَّهل أن يرتدي أحدهم تاجًا، لا سيَّما صبيٌّ في الخامسة عشر.

طلبَ روب سيفه عندما جاءوا بالأسير، فقدَّمه له أوليڤار فراي من المقبض، وسحبَ ابنها السَّيف من غِمده وأراحَه على حِجره كتهديدٍ واضح للعيان، وأعلنَ السير روبن رايجر قائد حَرس تَلي: «الرَّجل الذي طلبته يا جلالة الملك».

زعقَ ثيون جرايچوي: «اركع أمام الملك يا لانستر!»، ودفعَ السير روبن السَّجين لينزل على رُكبتيه.

خطرَ لكاتلين أنه لا يبدو كأسد، فهذا السير كليوس فراي هو ابن الليدي چنا أخت اللورد تايوين لانستر، لكنه لا يتمتَّع بشيءٍ من جَمال عائلة لانستر المشهور، الشَّعر النَّاعم والأعيُن الخضراء، وبدلًا من هذا ورثَ الشَّعر البُنِّي اللِّيفي والذَّقن الضَّعيفة والوجه النَّحيل من أبيه السير إمون فراي، الابن الثاني للورد والدر العجوز. كانت عيناه باهتتين دامعتين، وتطرفان بسرعةٍ لا يستطيع السَّيطرة عليها، لكن لعلَّ الضَّوء هو السَّبب لا أكثر، فالزَّنازين الواقعة أسفل ريڤررَن مظلمة ورطبة... ومتخمة هذه الأيام كذلك.

- «انهض يا سير كليوس». لم يكن صوت ابنها جليديًّا كصوت أبيه، إلَّا أن نبرته لم تكن كصبيٍّ في الخامسة عشر كذلك، فالحرب جعلَت منه رجلًا قبل أوانه، رجلًا يلتمعَ نور الصَّباح بخفوتٍ على حافة السَّيف الفولاذي المستقر فوق رُكبتيه.

لكن السَّيف لم يكن ما أثارَ قلق السير كليوس فراي، بل الوحش. سمَّاه ابنها جراي ويند، الذِّئب الرَّهيب الذي يُناهِز كلاب الإلكة[1] حجمًا، وله جسد نحيل رشيق وفرو داكن كالدُّخان وعينان كالذَّهب المصهور، وقد تناهَت رائحة الخوف إلى أنوف الحاضرين كلهم عندما تقدَّم الحيوان وتشمَّم السير كليوس. كان الفارس قد أُسِرَ في معركة الغابة الهامسة، حيث مزَّق جراي ويند حناجر نِصف دستةٍ من الرِّجال.

نهضَ الفارس مسرعًا وهو يميل بعيدًا بشدَّةٍ جعلَت عددًا من الموجودين يضحكون بصوتٍ عالٍ، وقال: «أشكرك يا سيِّدي».

- «يا جلالة الملك»، هدرَ اللورد چون أومبر الكبير، الأصخب دومًا بين حمَلة راية روب الشَّماليِّين وأخلصهم وأقواهم... أو أن هذا ما يُصِرُّ عليه. كان أول من نادى بابنها ملكًا في الشَّمال، ولا يسمح بأيِّ إساءةٍ لشَرف عاهله الجديد.

---

(1) نوع من الكلاب يُستخدَم في الحراسة والصَّيد، لا سيَّما حيوانات الإلكة، ومن هنا جاءَت التَّسمية، وإن كان يُستخدَم في صيد الذِّئاب والدِّببة كذلك.

صحَّح السير كليوس بتردُّد: «يا جلالة الملك، معذرةً».

خطرَ لكاتلين أنه ليس بالرَّجل الشُّجاع، ففيه منِ آل فراي أكثر من آل لانستر في الحقيقة، بينما كان ابن خاله قاتِل الملك ليُشَكِّل مسألةً أخرى تمامًا، فلم تكن عبارة التَّشريف تلك لتَخرُج من بين أسنان السير چايمي لانستر النَّضيدة أبدًا.

- «لقد أخرجتك من زنزانتك لتحمل رسالةً مني إلى ابنة خالك الملكة سرسي في كينجز لاندنج. ستُسافِر تحت راية سلام في صُحبة ثلاثين من أفضل رجالي».

قال السير كليوس وقد بدا جليًّا أنه تخفَّف من مخاوفه: «يَسُرُّني للغاية أن أحمل رسالة جلالته إلى الملكة».

قال روب: «عليك أن تفهم أني لا أعطيك حرِّيتك. لقد تعهَّد لي جدُّك اللورد والدر بدعمه ودعم عائلة فراي، وكثير من أعمامك وأبنائهم ركبوا معنا في الغابة الهامسة، أمَّا أنت فاخترت أن تُقاتِل تحت راية الأسد، ما يجعلك لانستر لا فراي. أريدُ تعهُّدًا منك بشَرفك كفارس أنك ستعود برَدٍّ الملكة بَعد إيصال رسالتي، لتستأنف سجنك».

أجابَ السير كليوس من فوره: «أتعهَّدُ بهذا».

- «كلُّ رجلٍ في هذه القاعة سمعَك»، قال السير إدميور تَلي شقيق كاتلين منذرًا، بصفته المتحدِّث باسم ريڤررَن ولوردات الثَّالوث في غياب أبيهما المحتضر. «إذا لم تَعُد، ستعرف البلاد كلها أنك تعهَّدت كذبًا».

رَدَّ السير كليوس بجمود: «سأفعلُ كما تعهَّدتُ. ما الرِّسالة؟».

- «عرضٌ بالسَّلام»، قال روب ناهضًا وفي يده سيفه الطَّويل، ودنا جراي ويند ليقف إلى جانبه، بينما خيَّم الصَّمت على القاعة. «أخبِر الملكة الوصيَّة على العرش أني سأضعُ هذا السَّيف في غِمده إذا وافقَت على شروطي، وأضعُ معه نهايةً للحرب بيننا».

في مؤخِّرة القاعة لمحَت كاتلين شبح اللورد ريكارد كارستارك النَّاحل الطَّويل يدفع كتفيه عبر صَفٍّ من الحُرَّاس ليَخرُج من الباب. لم يتحرَّك أحد آخَر، ولم يُلقِ روب بالًا للحركة، بل قال آمرًا: «الرَّق يا أوليڤار»، فأسرعَ مُرافِقه

يتناوَل منه السَّيف ويُناوله رَقًّا مطويًّا، بسطَه روب قائلًا: «أولًا، على الملكة أن تُطلِق سراح أختيَّ وتُزَوِّدهما بوسيلة نقلٍ عبر البحر من كينجز لاندنج إلى الميناء الأبيض. من المفهوم ضمنًا أن خِطبة سانزا لچوفري باراثيون تُعَدُّ مفصومةً. عندما أتلقَّى خبرًا من أمين قلعتي بأن أختيَّ قد عادتا سالمتين إلى وينترفل، سأطلقُ سراح ابني عمِّ الملكة، ويلم لانستر مُرافِق الفارس وأخيك تيون فراي، وأرسلُ من يصحبهما بأمانٍ إلى كاسترلي روك أو أيِّ مكانٍ آخَر ترغب في تسليمهما فيه».

تمنَّت كاتلين ستارك لو أنها تستطيع قراءة الأفكار المتوارية وراء كلِّ وجهٍ وكلِّ حاجبٍ معقود وشفتين مضمومتين.

- «ثانيًا، يُرَدُّ إلينا رُفات السيِّد والدي، كي يستريح إلى جوار أخيه وأخته في السَّراديب أسفل وينترفل كما كان ليرغب، ولا بُدَّ أيضًا من رَدِّ رُفات رجاله الذين ماتوا في كينجز لاندنج».

من ذهَبوا جَنوبًا أحياء يُرزَقون لن يعود منهم غير العظام الباردة. كان ند على حق، قال إن مكانه في وينترفل، فهل رضيتُ أن أسمعه؟ لا، قلتُ له، اذهبْ، يجب أن تكون يد روبرت من أجل عائلتنا وأجل أطفالنا... ما حدثَ كان من صُنعي، من صُنعي أنا وليس غيري...

- «ثالثًا، يُسَلَّم سيف أبي العظيم «جَليد» إلى يدي هنا في ريڤرَرَن».

راقبَت أخاها السير إدميور تَلي وقد تعانقَ إبهاماه فوق حزام سيفه وملامحه جامدة كالحجر.

- «رابعًا، تأمُر الملكة أباها اللورد تايوين بإطلاق سراح فُرساني واللوردات حمَلة رايتي، الذين أسرَهم في معركة فرع الثَّالوث الأخضر، وبمجرَّد أن يفعل هذا سأطلقُ سراح الأسرى الذين أخذناهم من الغابة الهامسة ومعركة المعسكرات، باستثناء چايمي لانستر وحده، الذي سيبقى رهينتي لضمان أن يُحسِن أبوه الأدب».

تمعَّنت في ابتسامة ثيون جرايچوي الخبيثة متسائلةً عن معناها. ذلك الشَّاب يبدو دائمًا كما لو أنه يعرف دُعابةً سرِّيَّةً لا يطَّلع غيره عليها، الشَّيء الذي لم يَرُق لكاتلين قَطُّ.

- «أخيرًا، لا بُدَّ أن يُعلِن الملك چوفري والملكة الوصيَّة التَّخلِّي عن أيِّ دعاوٍ للسِّيادة على الشَّمال. من الآن فصاعدًا نحن لسنا جزءًا من مملكتهما، بل مملكة حرَّة مستقلَّة كما كنا قديمًا. سيضمُّ نطاق سيطرتنا كلَّ أراضي ستارك الواقعة شَمال «العُنق»، وإضافةً إلى هذا الأراضي التي يرويها نهر الثَّالوث وروافده، نهايةً بـ«النَّاب الذَّهبي» غَربًا وجبال القمر شَرقًا».

- «الملك في الشَّمال!»، دوَّى چون أومبر الكبير وقبضته الضَّخمة تدقُّ الهواءكالمطرقة مع هتافه. «ستارك! ستارك! الملك في الشَّمال!».

طوى روب الرَّق وتابعَ: «المِايستر ڤايمان رسمَ خريطةً تُوَضِّح الحدود التي نُطالِب بها، وستأخُذ معك نسخةً للملكة. يجب أن ينسحب اللورد تايوين إلى ما وراء تلك الحدود، وينقطع عن الغارات والحرق والنَّهب، ولن تُطالِب الملكة الوصيَّة وابنها بأيِّ ضرائب أو دخول أو خدمات من شعبي، وسيُحَرِّران جميع لورداتي وفُرساني من كلِّ أقسام الولاء والتعهُّدات والنُّذور والدُّيون والالتزامات التي يدينون بها للعرش الحديدي وعائلتي باراثيون ولانستر. بالإضافة إلى هذا سيُوَصِّل لنا آل لانستر عشرةً من الرَّهائن كريمي النَّسب سنشترك في الاتِّفاق عليهم، على سبيل التعهُّد بالسَّلام. سأعاملُ هؤلاء كضيوفٍ مكرَّمين طِبقًا لمراكزهم، وما دُمتم ملتزمين بشروط هذه المعاهَدة دون أيِّ إخلال، سأطلقُ سراح رهينتين منهم كلَّ عام وأعيدهما بأمانٍ إلى عائلتيهما»، ثم ألقى الرَّق المطويَّ عند قدمي الفارس وقال: «هذه هي الشُّروط، فإذا قبلَتها الملكة، سأمنحها السَّلام، وإذا لم تقبل...»، وأطلقَ صفيرًا فتقدَّم جراي ويند مزمجرًا، فأكملَ: «... سأمنحها غابةً هامسةً أخرى».

- «ستارك!»، هدرَ چون الكبير من جديد، وهذه المرَّة انضمَّت إليه أصوات أخرى لتهتف: «ستارك، ستارك، الملك في الشَّمال!»، وألقى الذِّئب الرَّهيب رأسه إلى الوراء وراحَ يعوي.

كان وجه السير كليوس ممتقعًا تمامًا وهو يقول: «ستسمع الملكة رسالتك يا ســـ... جلالة الملك».

قال روب: «عظيم. سير روبن، اعمل على أن يتناوَل وجبةً طيِّبةً ويرتدي ثيابًا نظيفةً. سيتحرَّك مع أول خيوط الفجر».

أجابَ السير روبن رايجر: «كما تأمُر يا جلالة الملك».

- «انتهينا إذن». هكذا انحنى الفُرسان وحمَلة الرَّاية المجتمعون لروب وهو يدور ليُغادِر وجراي ويند في أعقابه، بينما أسرعَ أوليڤار فراي ليفتح الباب، وتبعتهم كاتلين إلى الخارج وأخوها إلى جوارها.

قالت لابنها في الشُّرفة التي تقود من مؤخِّرة القاعة: «أبليت بلاءً حسنًا، وإن كانت حركة الذِّئب تلك لهوًا يُناسِب صبيًّا لا ملكًا».

حَكَّ روب جراي ويند وراء أُذنه، وقال مبتسمًا: «هل رأيتِ النَّظرة على وجهه يا أمِّي؟».

- «ما رأيته هو اللورد كارستارك يُغادِر القاعة».

- «رأيته أيضًا»، قال روب وخلعَ التَّاج بكلتا يديه وأعطاه لأوليڤار قائلًا: «ضَع هذا الشَّيء في غُرفة نومي».

قال المُرافِق: «فورًا يا جلالة الملك»، وأسرعَ يُلَبِّي الأمر.

قال أخوها إدميور: «أراهنُ أن هناك آخَرين يُشارِكون اللورد كارستارك الشُّعور. كيف نتكلَّم عن السَّلام ورجال لانستر ينتشرون كالوباء في أراضي أبي، يسرقون محاصيله ويذبحون ناسه؟ أكرِّر أننا ينبغي أن نزحف على هارنهال».

- «لسنا نملك القوَّة»، قال روب وإنما بغير رضا.

قال إدميور بإصرار: «وهل نزداد قوَّةً بجلوسنا هنا؟ إن جيشنا يتضاءَل بصفةٍ يوميَّة».

محتدَّةً قالت كاتلين لأخيها: «وخطأ مَن هذا؟». بإلحاحٍ من إدميور أعطى روب لوردات النَّهر الإذن بالرَّحيل بَعد تتويجه، ليُدافِع كلٌّ منهم عن أراضيه الخاصَّة، فكان السير مارك پايپر واللورد كاريل ڤانس أول المغادرين، ثم تبعهما اللورد چونوس براكن الذي أقسمَ أن يستردَّ قلعته التي صارت هيكلًا محترقًا ويدفن موتاه، والآن أعلنَ اللورد چيسون ماليستر نيَّته العودة إلى مقرِّه في سيجارد، التي من الرَّحمة أن شيئًا من القتال لم يمسَّها بعدُ.

قال السير إدميور: «لا يُمكنكِ أن تَطلُبي من لوردات النَّهر أن يتكاسَلوا بينما تُنهَب حقولهم ويُقتَّل ناسهم، لكن اللورد كارستارك من الشَّمال، وستكون خسارةً إذا تخلَّى عنا».

رَدَّ روب: «سأتكلَّمُ معه. لقد فقدَ ابنين في الغابة الهامسة، فمَن يُمكنه أن يلومه إذا كان لا يرغب في السَّلام مع قاتليهما... قاتلي أبي؟».

قالت كاتلين: «إراقة المزيد من الدِّماء لن تُعيد أباك إلينا، ولا ابني اللورد كارستارك. كان ينبغي أن يُقَدَّم عرض، وإن كان رجل أحكم ليعرض شروطًا أحلى بعض الشَّيء».

- «أحلى من هذا وكنتُ لأتقيَّأ». كانت لحية ابنها قد نمَت بلونٍ أعمق من شَعره الكستنائي، ويحسب روب أنها تجعله يبدو قويًّا، ملكيًّا... وأكبر سِنًّا. لكن بلحيةٍ أو من غيرها لا يزال روب صبيًّا في الخامسة عشر، ولا تقلُّ رغبته في الثَّأر عن ريكارد كارستارك. لم يكن سهلًا على الإطلاق إقناعه بتقديم هذا العرض على الرغم مما فيه من تعنُّت.

- «سرسي لانستر لن تُوافِق أبدًا على مبادَلة أختيك باثنين من أبناء عمِّها. سوف تُريد أخاها كما تعي جيِّدًا جدًّا». كانت قد أخبرَته بالشَّيء نفسه من قبل، وإن وجدَت أنَ الملوك لا يُصغون بنِصف انتباه الأبناء.

- «لا أستطيعُ إطلاق سراح قاتِل الملك، حتى لو أردتُ. لن يرضى لورداتي عن هذا أبدًا».

- «لورداتك جعلوك ملكهم».

- «ويُمكنهم خلعي بالبساطة نفسها».

- «إذا كان تاجك هو الثَّمن الذي يجب أن ندفعه لنستعيد آريا وسانزا آمنتين، فمن المفترَض أن ندفعه عن طيب خاطر. نِصف لورداتك يرغبون في قتل لانستر في زنزانته، فإذا ماتَ وهو سجينك، سيقول النَّاس...».

- «... إنه استحقَّ القتل».

سألته كاتلين بحدَّة: «وماذا عن أختيك؟ هل ستستحقَّان الموت كذلك؟ أؤكِّدُ لك أن سرسي ستردُّ لنا الدَّم بالدَّم إذا مَسَّ أخاها أذى».

قال روب: «لانستر لن يموت. لا أحد يتكلَّم معه حتى دون إذنٍ مني. إن لديه طعامًا وماءً وقشًّا نظيفًا، وسائل راحة أكثر مما يستحقُّ، لكني لن أحرِّره، ولا حتى من أجل آريا وسانزا».

أدركَت كاتلين أن ابنها يتعالى عليها، وتساءلَت: أهي الحرب التي جعلَته يَكبُرُ بهذه السُّرعة، أم التَّاج الذي وضعوه على رأسه؟ «هل تخشى أن ينزل چايمي لانستر إلى الميدان ثانيةً؟ أهذه هي الحقيقة؟».

زمجرَ جراي ويند كأنه أحسَّ بغضب روب، ووضعَ إدميور تَلي يده بحنانٍ أخويٍّ على كتفها قائلًا: «كات، لا تقولي هذا. الصَّبي على حق».

- «لا تدعُني بالصَّبي»، قال روب مستديرًا إلى خاله، لتنصبَّ غضبته كلها على إدميور المسكين، الذي أرادَ أن يُساندِه فحسب. «إنني أكادُ أكونُ رجلًا بالغًا، كما أنني ملك، ملكك أيها الفارس، ولستُ أخشى چايمي لانستر. لقد هزَمته في ميدان المعركة مرَّةً، وسأهزمه ثانيةً إذا لزمَ الأمر، وإنما...»، وأزاحَ خصلةً من الشَّعر سقطَت على عينيه، وهَزَّ رأسه مكملًا: «كان من الممكن أن أبادل قاتِل الملك بأبي، ولكن...».

كان صوتها باردًا كنهرٍ من الجليد وهي تقول: «... ولكن ليس بالفتاتين. الفتيات لسن مهمَّات بما فيه الكفاية، أليس كذلك؟».

لم يُجِب روب وإن تبدَّى الألم في عينيه، هاتين العينين الزَّرقاوين، عيني أولاد عائلة تَلي، العينين اللتين ورثَهما منها. لقد جرحَته، لكنه ابن أبيه ولن يعترف بهذا أبدًا.

قالت لنفسها: لم يكن هذا يليق بي. ما الذي سيَحدُث لي بحَقِّ الآلهة؟ إنه يبَذُل أقصى ما لديه، يفعل أفضل ما يُمكنه، أرى هذا وأشعرُ به، لكن... لقد فقدتُ حبيبي ند، الصَّخرة التي شُيِّدَت عليها حياتي، ولا يُمكنني احتمال فقدان الفتاتين كذلك...

قال روب: «سأفعلُ كلَّ ما أقدرُ عليه من أجل أختيَّ. إذا كانت الملكة تملك عقلًا فستقبل شروطي، وإذا لم تفعل سأجعلها تندم على اليوم الذي تَرفُضني فيه». كان من الواضح أنه ضاقَ ذرعًا بالكلام في هذا الموضوع، عندما غيَّره قائلًا: «أمِّي، متأكِّدة من أنكِ لن تُوافقي على الذَّهاب إلى «التَّوأمتين»؟ ستكونين أبعد عن القتال هناك، ويُمكنك التعرُّف على بنات اللورد فراي، لتُساعِديني على اختيار عروسي عندما تنتهي الحرب».

فكَّرت كاتلين متعَبةً: يُريدني أن أرحل. يبدو أنه من غير المفترَض أن تكون للملوك أمَّهات، كما أني أقولُ له أشياءَ لا يرغب في سماعها. «أنت كبير كفايةً لتُقرِّر مَن تُفضِّل من بنات اللورد والدر دون مساعَدة أمِّك يا روب».

– «ثيون سيُغادِر غدًا، فاذهبي معه إذن. سيُساعِد رجال ماليستر على اصطحاب عددٍ من الأسرى إلى سيجارد، ثم يستقلُّ سفينةً إلى جُزر الحديد. يُمكنك أن تجدي سفينةً بدورك وتعودي إلى وينترفل خلال دورة قمرٍ إذا كانت الرِّيح مواتيةً. بران وريكون في حاجةٍ إليك».

أمَّا أنت فلا، أهذا ما تُريد أن تقوله؟ «السيِّد والدي ليس أمامه وقت طويل، وما دامَ جدُّك على قيد الحياة فمكاني في ريڤررَن إلى جانبه».

– «أستطيعُ أن آمركِ بالذَّهاب، أستطيعُ باعتباري ملكًا».

تجاهلَت كاتلين هذا، وقالت: «أكرِّرُ أني أفضِّلُ إرسال أحدٍ آخَر إلى پايك وبقاء ثيون قريبًا منك».

– «مَن أفضل من ابن بالون جرايچوي ليتعامَل معه؟».

– «چيسون ماليستر، تايتوس بلاكوود، ستڤرون فراي، أي أحد... لكن ليس ثيون».

جلسَ ابنها القرفصاء إلى جوار جراي ويند وراحَ ينفش فرو الذِّئب متفاديًا عينيها بشكلٍ عرَضي، وقال: «ثيون حاربَ معنا بشَجاعة، وقد قلتُ لكِ كيف أنقذَ بران من مجموعة الهَمج في غابة الذِّئاب. إذا رفضَ آل لانستر السَّلام، سأحتاجُ سُفن اللورد جرايچوي الطَّويلة».

– «ستضمن أن تأتيك السُّفن أسرع إذا احتفظت بابنه رهينةً».

– «لقد أمضى نِصف حياته رهينةً».

– «لسببٍ وجيه. بالون جرايچوي ليس رجلًا جديرًا بالثِّقة. تذكَّر أنه هو نفسه كان يرتدي تاجًا، ولو لفصلٍ واحد، ولعلَّه يتطلَّع إلى ارتدائه ثانيةً».

نهضَ روب قائلًا: «ولن ألومه على هذا. إذا كنتُ ملكًا في الشَّمال، فليُصبِح ملك جُزر الحديد بدوره إذا كانت هذه رغبته. سأعطيه تاجًا بكلِّ سرور، شريطة أن يُساعِدنا على إسقاط عائلة لانستر».

- «روب...».

- «سأرسلُ ثيون. طابَ يومك يا أمَّاه. جراي ويند، تعالَ»، قال روب وجَدَّ الخُطى مبتعدًا والذِّئب الرَّهيب إلى جواره.

لم تستطِع كاتلين غير أن تُشاهِده يذهب. ابنها والآن مليكها. كم هو شعورٌ غريب. في خندق كايلن قالت له: قُد، فقادَ. قالت بلهجةٍ حادَّة: «سأذهبُ لزيارة أبي. تعالَ معي يا إدميور».

- «يجب أن أتكلَّم مع الرُّماة الجُدد الذين يُدَرِّبهم السير دزموند. سأزوره فيما بَعد».

إذا ظَلَّ حيًّا، فكَّرت كاتلين وإن لم تتفوَّه بشيء. يُفَضِّل أخوها أن يُواجِه المعركة على مواجَهة غُرفة المرض تلك.

أقصر طريقٍ إلى الحصن المركزي حيث يحتضر أبوها يمرُّ بأيكة الآلهة، بما فيها من كلأٍ وزهور برِّيَّة وصفوف سميكة من أشجار الدَّردار والخشب الأحمر. كانت ثروة من الأوراق ذات الحفيف المسموع لا تزال متمسِّكةً بالغصون، متجاهلةً تمامًا النبأ الذي جاءَ به الغُداف الأبيض إلى ريڤررَن قبل أسبوعين. أعلنَ مجمع المِايسترات مجيء الخَريف، لكن الآلهة لم ترَ أن من المناسب أن تُخبِر الرِّياح والغابات بعدُ، ما أشعرَ كاتلين بامتنانٍ شديد. دائمًا ما يكون الخريف وقتًا مفعمًا بالمخاوف وشبح الشِّتاء يلوح في الأُفق، وحتى أكثر النَّاس حكمةً لا يعرف إن كان حصاده التَّالي هو الأخير أم لا.

تمدَّد هوستر تَلي سيِّد ريڤررَن على فِراشه في غُرفته الشَّمسيَّة، التي تُشرِف شَرقًا على ملتقى نهري الجُلمود والفرع الأحمر وراء أسوار القلعة. كان نائمًا عندما دلفَت كاتلين إلى المكان، شَعره ولحيته أبيضان تمامًا كالرِّيش الذي يُتخِم حشيَّة فِراشه، وقد أصيبَ جسده الذي كان ممتلئًا ذات يومٍ بالهزال والوهن، من جرَّاء الموت الذي ينتشر داخله.

إلى جوار الفِراش جلسَ أخو أبيها الملقَّب بالسَّمكة السَّوداء، لا يزال يرتدي قميص حلقاتٍ معدنيَّة أسود ومعطفًا وسَّخه السَّفر، وقد تغبَّر حذاؤه وتناثرَ عليه الوحل الجاف. سألَته: «هل يعلم روب أنك رجعت يا عمَّاه؟».

السير برايندن تَلي بمثابة عيني وأُذني روب، قائد كشَّافته وفِرَق استطلاعه.

- «لا، جئتُ من الاسطبلات إلى هنا مباشرةً لمَّا قالوا لي إن بلاط الملك معقود. أعتقدُ أن جلالته سيرغب في سماع الأنباء التي لديَّ على انفراد».

كان السَّمكة السَّوداء رجلًا نحيلًا فارع الطُّول، أشيب الشَّعر وواثق الحركة، وتبدو على وجهه الحليق آثار التعرُّض المستمر للرِّيح. «كيف حاله؟»، سألَها فأدركَت أنه لا يعني روب.

- «كما هو إلى حَدٍّ كبير. المِايستر سقاه نبيذ النَّوم وحليب الخشخاش لتخفيف الألم، فينام أغلبَ الوقت ويأكل قليلًا جدًّا. يبدو أضعف مع كلِّ يومٍ يمرُّ».

- «هل يتكلَّم؟».

- «نعم... لكن ما يقوله أصبحَ أقلَّ وأقلَّ معقوليَّةً. إنه يتكلَّم عن أشياءَ تُشعِره بالنَّدم، عن أعمال لم تكتمل، عن أناسٍ ماتوا منذ زمنٍ وأوقات فاتَت. أحيانًا لا يعرف في أيِّ فصلٍ نحن، أو مَن أكون، وفي مرَّةٍ ناداني باسم أمِّي».

قال السير برايندن: «ما زال يفتقدها. إن لديكِ وجهها. يُمكنني أن أراه في عظام وجنتيكِ وفكِّك».

ردَّت: «أنت تتذكَّرها أكثر مني. لقد مضى زمن طويل»، وجلسَت على الفِراش وأزاحَت خصلةً من الشَّعر الأبيض النَّاعم انسدلَت على وجه أبيها.

- «كلَّ مرَّةٍ أغادرُ فيها أتساءلُ إن كنتُ سأجده حيًّا أم ميتًا عندما أعودُ».

على الرغم من خلافاتهما، فثمَّة رابط عميق بين أبيها وأخيه الذي تبرَّأ منه ذات يوم.

- «على الأقل تصالحتما».

جلسا صامتَيْن بعض الوقت، قبل أن ترفع كاتلين رأسها وتقول: «كنت تتكلَّم عن أنباء ينبغي أن يسمعها روب؟».

تأوَّه اللورد هوستر وانقلبَ على جانبه كما لو أنه سمعَ، فنهضَ برايندن وقال: «لنتكلَّم في الخارج. من الأفضل ألَّا نُوقِظه». تبعَته إلى الشُّرفة الحجريَّة التي تَبرُز بجوانبها الثَّلاثة كمقدِّمة سفينة، ورفعَ عمُّها رأسه إلى أعلى مقطِّبًا جبهته وغمغمَ: «يُمكنك رؤيته بالنَّهار الآن. رجالي يُسَمُّونه «الرَّسول الأحمر»... لكن ما هي الرِّسالة؟».

رفعَت كاتلين عينيها إلى حيث شَقَّ خَطُّ المذنَّب الأحمر البعيد طريقه عبر

أزرق السَّماء العميق كخدش على وجه الإله. «چون الكبير قال لروب إن الآلهة القديمة رفعَت علمًا أحمر رمزًا للانتقام لنِد، ويعتقد إدميور أنه بشير بالنَّصر لريڤررَن، فهو يرى سمكةً طويلة الذَّيل بألوان عائلة تَلي، أحمر على أزرق»، وتنهَّدت وأضافَت: «ليتني أتحلَّى بثقتهما. القرمزي لون لانستر».

قال السير برايندن: «هذا الشَّيء ليس قرمزيًّا، ولا أحمر تَلي كطمي النَّهر كذلك. ما ترينه في الأعلى هو دم يا صغيرتي، دم يُلَطِّخ السَّماء».

- «دمنا أم دمهم؟».

قال عمُّها: «هل سمعتِ من قبلِ عن حربٍ سالَت فيها دماء طرفٍ واحد؟»، وهَزَّ رأسه وتابعَ: «أراضي النَّهر غارقة في الدَّم والنَّار حول «عين الآلهة» كلها، والقتال امتدَّ جَنوبًا حتى النَّهر الأسود وشَمالًا عبر الثَّالوث وحتى «التَّوأمتين» تقريبًا. مارك پايپر وكاريل ڤانس حقَّقا عددًا من الانتصارات الصَّغيرة، واللورد الجَنوبي الصَّغير بريك دونداريون يُغير على المُغيرين، يُهاجِم خطوط إمداد اللورد تايوين على حين غرَّةٍ ثم يختفي في الغابة من جديد. يُقال إن السير برتون كراكهول كان يزهو بأنه قتلَ دونداريون، إلى أن قادَ موكبه إلى أحد أفخاخ اللورد بريك وتسبَّب في مقتلهم جميعًا».

قالت كاتلين متذكِّرةً: «بعض رجال ند من كينجز لاندنج مع اللورد بريك. لتحفظهم الآلهة».

- «دونداريون وهذا الرَّاهب الأحمر الذي يركب معه ذكيَّان بما فيه الكفاية للحفاظ على نفسيهما إذا صحَّت الحكايات، لكن حكاية حمَلة راية أبيك محزنة أكثر. لم يكن يَجدُر بروب أن يسمح لهم بالرَّحيل أبدًا، فقد تفرَّقوا كطيور السمَّان ليُحاوِل كلٌّ منهم أن يحمي ما له، وهذه حماقة يا كات، حماقة. چونوس براكن جُرِحَ في القتال وسط خرائب قلعته، وقُتِل هندري ابن أخيه، وتايتوس بلاكوود كنسَ جنود لانستر من على أرضه، لكنهم أخذوا كلَّ بقرةٍ وخنزير وحبَّة قمح، ولم يَترُكوا له شيئًا يُدافِع عنه غير راڤنتري هول وصحراء خالية، أمَّا رجال داري فقد استردُّوا حصن سيِّدهم ولم يُحافِظوا عليه أكثر من أسبوعين، قبل أن ينقضَّ عليهم جريجور كليجاين ويَقتُل كلَّ مَن في الحامية، بما فيهم اللورد نفسه».

قالت كاتلين مرتاعةً: «داري كان مجرَّد طفل!».

- «نعم، وآخِرِ أفراد عائلته كذلك. كان الصَّبي ليجلب فديةً لا بأس بها، لكن ماذا يعني الذَّهب لكلب مسعور مِثل جريجور كليجاين؟ سيكون رأس هذا الحيوان هديَّةً رائعةً لأهلِ البلاد، أقسمُ على هذا».

كانت كاتلين تعرف سُمعة السير جريجور البغيضة، ولكن... «لا تُكَلِّمني عن الرُّؤوس يا عمَّاه وقد علَّقت سرسي رأس ند على خازوق فوق أسوار القلعة الحمراء وتركَته للذُّباب والغِربان». حتى الآن لم يزل من الصَّعب عليها أن تُصَدِّق أنه رحلَ حقًّا، وفي ليالٍ تستيقظ في الظَّلام والنَّوم لا يزال يكتنفها، وللحظةٍ تتوقَّع أنها ستجده إلى جوارها. «كليجاين ليس أكثر من مخلبٍ للورد تايوين». تؤمن كاتلين تمامًا بأن تايوين لانستر -سيِّد كاسترلي روك، وحاكِم الغرب، ووالد الملكة سرسي والسير چايمي قاتِل الملك وتيريون العِفريت، وجَد چوفري باراثيون الملك الصَّبي الجديد- هو الخطر الحقيقي.

قال السير برايندن: «هذا صحيح، وتايوين لانستر ليس بالأحمق. إنه يجلس آمنًا وراء أسوار هارنهال، يُطعِم جيشه من محاصيلنا ويُحرِق ما لا يستطيع سلبه. جريجور ليس الكلب الوحيد الذي أطلقَه، فالسير آموري لورك في الميدان كذلك، بالإضافة إلى مُرتزِق ما من كوهور يُفَضِّل تشويه النَّاس على قتلهم. لقد رأيتُ ما يُخَلِّفونه وراءهم، قُرى كاملة محترقة ونساءً مغتصبَات ممثَّلًا بجثثهن وأطفالًا مذبوحين تُركوا بلا دفنٍ ليجتذبوا الذِّئاب والكلاب الضَّارية... شيء يُثير غثيان الموتى أنفسهم».

- «سيشتعل إدميور غضبًا عندما يسمع هذا».

- «وهذا ما يُريده اللورد تايوين بالضَّبط. حتى الإرهاب هناك غرض منه يا كات، لانستر يرغب في استفزازنا لخوض المعركة».

قالت كاتلين بتبرُّم: «غالبًا سيُحَقِّق روب له تلك الرَّغبة. جلوسه هنا يجعله متوتِّرًا كالقِطط، وسيحثُّه إدميور وچون الكبير وغيرهما على الخروج». لقد حقَّق ابنها نصرين عظيمين، محطِّمًا چايمي لانستر في الغابة الهامسة وهازمًا جيشه الذي بلا قائد خارج أسوار ريفررَن في معركة المعسكرات، لكن الطَّريقة التي يتكلَّم بها عدد من حمَلة رايته عنه تجعله يبدو كما لو أنه إجون الفاتِح وقد وُلِدَ من جديد.

قوَّس برايندن السَّمكة السَّوداء حاجبه الأشيب الكثيف، وقال: «هُم أكثر حماقةً. أول قاعدة عندي للحرب يا كات: لا تُعطي العدوَّ شيئًا يرغب فيه أبدًا. اللورد تايوين يُريد القتال في ميدانٍ من اختياره هو، يُريدنا أن نزحف على هارنهال».

- «هارنهال». كلُّ طفلٍ في أراضي الثَّالوث يعرف حكاية هارنهال، القلعة العملاقة التي شيَّدها الملك هارن الأسود على ضفاف بحيرة «عين الآلهة» قبل ثلاثمئة عام، عندما كانت الممالك السَّبع لا تزال سبع ممالك، والرِّجال الحديديُّون أبناء الجُزر يَحكُمون أراضي النَّهر. بعجرفته البالغة، رغبَ هارن في أن تكون له أعلى قاعة وأطول بروجٍ في وستروس كلها، ومرَّت أربعون عامًا ارتفعَت فيها القلعة شيئًا فشيئًا كظِلٍّ عظيم على شاطئ البحيرة، بينما نهبَت جيوش هارن من جيرانه الحجارة والأخشاب والذَّهب والعُمَّال. ماتَ آلاف الأسرى إمَّا في المحاجر أو مقيَّدين بالسَّلاسل إلى المزلجات أو عملًا على الأبراج الهائلة الخمسة، وقُطِعَت أشجار ويروود عُمرها ثلاثة آلاف عام لتُصنَع العوارض والألواح من خشبها. أتى هارن على ثروات أراضي النَّهر وجُزر الحديد على حَدٍّ سواء ليُزَيِّن حُلمه، وعندما وقفَت هارنهال مكتملةً أخيرًا، وفي اليوم ذاته الذي اتَّخذ فيه هارن منها مقرَّه، رسا إجون الفاتح في كينجز لاندنج.

تذكَّرت كاتلين العجوز نان وهي تحكي الحكاية لأطفالها في وينترفل، التي يكون ختامها دائمًا أن «الملك هارن تعلَّم أن الأسوار السَّميكة والأبراج العالية بخسة الفائدة أمام التَّنانين، ذلك أن التَّنانين تطير». هلكَ هارن ونسله في المحرقة التي ابتلعَت القلعة بضخامتها الشَّديدة، وعانَت كلُّ عائلةٍ سيطرَت على هارنهال من حَظٍّ عاثر منذ ذلك الحين. قد تكون قويَّةً، لكنها مكان كئيب وملعون.

قالت كاتلين: «لا أريدُ أن يُحارِب روب في ظِلِّ تلك القلعة يا عمَّاه، لكن ينبغي أن نفعل شيئًا».

وافقَها عمُّها قائلًا: «وقريبًا. إنني لم أُخبِركِ بأسوأ جزءٍ يا صغيرتي. الرِّجال الذين أرسلتهم غَربًا عادوا بأخبارٍ عن جيشٍ جديد يحتشد في كاسترلي روك».

جيش لانستر آخَر. أصابَتها الفكرة بالغثيان. «يجب إخبار روب في الحال. من سيقود هذا الجيش؟».

أجابَ: «يُقال إنه السيرِ ستافورد لانستر»، والتفتَ ليتطلَّع إلى النَّهرين والنَّسيم يُحَرِّك معطفه ذا اللَّونينِ الأحمر والأزرق.

- «ابن أخ آخَر؟». عليهم اللَّعنة آل لانستر أبناء كاسترلي روك، إنهم عائلة كبيرة وشديدة الخصوبة حقًّا.

قال السير برايندن مصحِّحًا: «ابن عم، شقيق زوجة اللورد تايوين الرَّاحلة، أي قريب لهم من جهتين. إنه عجوز وعلى شيءٍ من الغباء، لكن لديه ابنًا هو السير دافن الذي يتمتَّع بهيبةٍ أكبر».

- «لنأمل إذن أن يقود الأب لا الابن الجيش إلى الميدان».

- «ما زال أمامنا بعض الوقت حتى تتوجَّب علينا مواجَهتهم. ستتكوَّن تلك الشِّرذمة من المُرتزِقة والمُحاربين غير النِّظاميِّين والصِّبية الخُضر القادمين من أزقَّة لانسپورت، وينبغي أن يتأكَّد السير ستافورد من تسليحهم وتدريبهم قبل أن يُخاطِر بخوض المعركة... وتأكَّدي أن اللورد تايوين ليس كقاتِل الملك، ولن يندفع بتهوُّرٍ إلى القتال، بل سينتظر بصبرٍ حتى يبدأ السير ستافورد الزَّحف قبل أن يَخرُج من وراء أسوار هارنهال».

قالت كاتلين: «ما لم...».

استحثَّها السير برايندن: «ماذا؟».

- «ما لم يُجبَر على مغادَرة هارنهال لمواجَهة تهديدٍ آخَر».

رمقَها عمُّها مفكِّرًا وقال: «اللورد رنلي».

- «الملك رنلي». إذا كانت ستَطلُب المساعَدة من الرَّجل، فعليها أن تُلحِق باسمه اللَّقب الذي أعطاه لنفسه.

ارتسمَت ابتسامة خطرة على وجه السَّمكة السَّوداء وهو يقول: «ربما، لكن سيرغب في مقابلٍ ما بالتَّأكيد».

قالت: «سيرغب في ما يرغب فيه الملوك دائمًا، البيعة».

تيريون

كان چانوس سلينت ابنًا لجزَّار، له ضحكة كصوت تقطيع اللَّحم. سألَه تيريون: «المزيد من النَّبيذ؟»، فرفعَ اللورد سلينت -الذي لبطنه شكل البرميل وسَعَته- كأسه مجيبًا: «لن أعترض، لن أعترض على الإطلاق. إنه نوع أحمر ممتاز. أهو من «الكرمة»؟».

- «من دورن». أشارَ تيريون، فصَبَّ خادمه النَّبيذ. باستثناء خدمه، كانت القاعة الصَّغيرة تضمُّه واللورد چانوس فقط، وقد جلسا إلى مائدةٍ صغيرة مُضاءة بالشُّموع والظَّلام يُحيط بهما. «لَقِيَّة رائعة في الحقيقة، لأن الخمور الدورنيَّة لا تكون غنيَّةً هكذا في المعتاد».

ردَّد الرَّجل الكبير ذو وجه الضِّفدعة وهو يأخذ جَرعةً كبيرةً: «غنيَّة». ليس چانوس سلينت بالرَّجل الذي يشرب النَّبيذ على رشفات، الشَّيء الذي لاحظَه تيريون من قبل وسجَّله في ذاكرته. «نعم، غنيَّة، هذه هي الكلمة التي كنتُ أبحثُ عنها بالضَّبط، هي بالضَّبط. إن لديك موهبة في التَّعامُل مع الكلام يا لورد تيريون، إذا سمحت لي بأن أقول هذا، وحكاياتك شديدة الطَّرافة، نعم، شديدة الطَّرافة».

- «يَسُرُّني أن هذا رأيك... لكني لستُ لوردًا مِثلك. يُمكنك مخاطَبتي بتيريون ببساطة أيها اللورد چانوس».

قال: «كما تشاء»، وصَبَّ المزيد من النَّبيذ في حَلقه، لتتساقَط قطرات منه على وجه سُترته الحريريَّة السَّوداء. كان يرتدي حرملةً قصيرةً من قُماش

الذَّهب مثبَّتة بمشبكٍ صغير على شكل رُمح رأسه مطليٌّ بالأحمر الدَّاكن، وكان ثملًا تمامًا.

تجشَّأ تيريون وقد غطَّى فمه على سبيل التَّهذيب. على عكس اللورد چانوس، لم يكن قد شربَ كثيرًا، وإن شعرَ بالامتلاء التَّام. أول شيءٍ فعله بَعد أن استقرَّ في بُرج اليد، أنه استخبرَ عن أفضل طاهيةٍ في المدينة وألحقَها بخدمته، واللَّيلة تناوَلا على العَشاء من طهيها حساء ذيل الثَّور، والخضراوات الصَّيفيَّة المقلَّبة مع جوز البيقان والعنب والشَّمار الأحمر والجبن المفتَّت، وفطيرة سرطان بحري ساخنة، وطَبقًا من القرع المتبَّل، بالإضافة إلى طيور السمَّان الغارقة في الزُّبدة. جاءَ كلُّ صنفٍ مصحوبًا بنوعه الخاص من النَّبيذ، واعترفَ اللورد چانوس بأنه لم يأكل بهذه الشَّهيَّة من قبل إطلاقًا، فقال تيريون: «لا شَكَّ أن هذا سيتغيَّر عندما تتَّخذ مقرَّك في هارنهال».

- «بكلِّ تأكيد. ما رأيك إذا طلبتُ من طاهيتك هذه أن تلتحق بخدمتي؟».

- «هناك حروب اندلعَت لأسبابٍ أهون من هذا»، قال تيريون، واشتركَ الاثنان في ضحكةٍ مرحةٍ طويلة. «جرأة منك أن تستقرَّ في هارنهال حقًّا. إنها مكان شديد الكآبة، وضخم، وصيانته تُكَلِّف الكثير... وبعضهم يقول إنها ملعونة كذلك».

ضحكَ سلينت استهزاءً بالفكرة، وقال: «هل من المفترَض أن أخاف كومةً من الحجارة؟ لقد وصفتني بالجرأة، وينبغي أن تكون جريئًا كي تترقَّى في هذا العالم، كما فعلتُ أنا وترقَّيتُ إلى هارنهال، نعم! ولِمَ لا؟ أنت تعرف، فأنت أيضًا رجل جريء كما يُخبِرني حدسي. صغير الحجم ربما، لكن جريء!».

- «أنت شديد اللُّطف. المزيد من النَّبيذ؟».

- «لا، لا، إنني حقًّا... أوه، لتحلَّ اللَّعنة بالآلهة، نعم، ولِمَ لا؟ الرَّجل الجريء يشرب حتى يرتوي!».

صَبَّ تيريون النَّبيذ في كأس اللورد سلينت قائلًا: «هذا صحيح. بالمناسبة، لقد ألقيتُ نظرةً على الأسماء التي طرحتها لحَلِّ محلِّك في قيادة حَرس المدينة».

- «رجال صالحون، رجال أكْفاء. أيٌّ من الستَّة سيَصلُح، لكنْ رأيي أن

تختار آلار ديم. إنه ذراعي اليُمنى، رجل عظيم عظيم، ومخلص. اختره ولن تأسف، إذا وافقَ عليه الملك».

رشفَ تيريون من نبيذه، وقال: «بالتَّأكيد. كنتُ أفكِّرُ في السير چاسلين بايووتر. إنه قائد بوَّابة الطَّمي منذ ثلاث سنواتٍ كاملة، وخدمَ ببسالةٍ خلال تمرُّد بالون جرايچوي، ونصَّبه الملك روبرت فارسًا في پايك، ومع ذلك لا أرى اسمه في قائمتك».

جرعَ اللورد چانوس سلينت من النَّبيذ ومضمضَ به فمه لحظةً، قبل أن يبتلعه ويقول: «بايووتر، نعم، رجل شُجاع بالتَّأكيد، لكن... هذا الرَّجل قاسٍ، كلب غريب الأطوار، والرِّجال لا يُحِبُّونه، ثم إنه معاق أيضًا وقد فقدَ يده في پايك. هذا ما منحَه الفروسيَّة. صفقة خاسرة في رأيي أن تُبادِل يدك بلقب سير»، وضحكَ وأضافَ: «السير چاسلين يُفرِط في تقدير نفسه وشَرفه في رأيي، وأفضل لك أن تدعه في مكانه يا لو... تيريون. آلار ديم هو رجلك المناسب».

- «ديم غير محبوب في الشَّوارع على حَدِّ علمي».

- «لكنه مرهوب، وهذا أفضل».

- «ما الذي سمعته عنه؟ كانت مشكلةً ما في ماخور على ما أظنُّ».

- «تلك الحادثة؟ لم تكن غلطته يا لو... تيريون، لا، إنه لم يقصد إطلاقًا أن يَقتُل المرأة. كانت غلطتها هي. لقد حذَّرها وأمرَها بالتَّنحِّي جانبًا وتركه يؤدِّي واجبه».

قال تيريون: «ولو... الأمَّهات وأطفالهنَّ... كان من المفترَض أن يتوقَّع أنها ستُحاول إنقاذ الرَّضيعة»، ثم ابتسمَ وأشارَ قائلًا: «جرِّب هذا الجبن، إنه رائع مع النَّبيذ. أخبرني، لماذا اخترت ديم لتلك المهمَّة الكريهة؟».

- «القائد الحقُّ يعرف رجاله يا تيريون، بعضهم مناسب لنوعٍ معيَّن من المهام والبعض لنوعٍ آخَر. التخلُّص من طفلةٍ لا تزال ترضع من ثدي أمِّها يتطلَّب نوعًا خاصًّا من الرِّجال، فهذا عمل لا يقوى عليه أيُّ شخصٍ تقليدي، حتى إذا كان التَّكليف مجرَّد عاهرةٍ ما وصغيرتها».

- «أعتقدُ أن معك حقًّا»، قال تيريون وقد سمعَ مجرَّد عاهرةٍ ما ليتَّجه

تفكيره إلى شِاي، وتايشا التي سبقَتها بزمنٍ طويل، وكلِّ الأخريات اللاتي تلقَّين ماله ونُطفته على مَرِّ السِّنين.

واصلَ سلينت وهو غافل عمَّا يدور في خلد تيريون: «رجل قاسٍ للمهام القاسية، هذا هو ديم، يفعل كما يُؤمَر ولا يتفوَّه بكلمةٍ بَعدها»، وقطعَ شريحةً من الجبن مضيفًا: «جبن جيِّد، لاذع المذاق. أعطِني سكِّينًا حادًّا وجبنًا لاذعًا فأكونُ في غاية السَّعادة».

هَزَّ تيريون كتفيه قائلًا: «استمتع به بينما تستطيع، فمع اشتعال النَّار في أراضي النَّهر وإعلان رنلي ملكًا في هايجاردن، سيُصبِح الجبن الجيِّد سلعةً نادرةً قريبًا. قُل لي إذن، من أرسلك وراء النَّغلة بنت العاهرة؟».

رمقَ اللورد چانوس تيريون بنظرةٍ حذرة، ثم ضحكَ ولوَّح بشريحةٍ من الجبن في وجهه قائلًا: «خبيثٌ أنت يا تيريون. كنت تحسب أنك ستخدعني، أليس كذلك؟ ليس بمجرَّد النَّبيذ والجبن يُفصِح چانوس سلينت عن أكثر مما ينبغي. هذا من دواعي فخري، لا أسئلة ولا كلمة واحدة بَعدها، ليس معي أنا».

- «مِثل ديم».

- «مِثله تمامًا. اجعله القائد عندما أغادرُ إلى هارنهال ولن تندم».

قضمَ تيريون قطعةً صغيرةً من الجبن. لاذع المذاق بالفعل، ومجزَّع بالنَّبيذ، اختيار ممتاز. «أيًّا كان من سيختاره الملك سيجد صعوبةً في سَدِّ الفراغ الذي ستَترُكه، هذا واضحٌ لي. اللورد مورمونت يُواجِه المشكلة ذاتها».

بدَت الحيرة على اللورد چانوس وهو يقول: «حسبتُ أنها الليدي مورمونت، تلك التي تُضاجِع الدِّببة، أليس كذلك؟».

- «أتكلَّمُ عن أخيها، چيور مورمونت، حضرة قائد حَرس اللَّيل. خلال زيارتي له على «الجِدار» ذكرَ أنه مشغول بمسألة العثور على رجلٍ يَصلُح لخلافته، فهُم يفتقرون بشدَّة إلى الرِّجال الأكْفاء هذه الأيام»، وارتسمَت على شفتي تيريون ابتسامة واسعة وهو يُضيف: «أتصوَّرُ أنه سينام باطمئنانٍ أكبر إذا كان لديه رجل مِثلك، أو مِثل آلار ديم الشُّجاع».

دوَّت ضحكة اللورد چانوس في القاعة مع صيحته: «احتمال بعيد!».

قال تيريون: «قد نظنُّ هذا، لكن الحياة تتَّخذ منعطفاتٍ عجيبة حقًّا. إدارد

ستارك على سبيل المثال يا سيِّدي، لا أعتقدُ أنه تخيَّل أبدًا أن حياته ستنتهي على عتبة سِپت بيلور».

رَدَّ اللورد چانوس مقهقهًا: «قليلون للغاية تخيَّلوا هذا».

قهقهَ تيريون أيضًا وقال: «من المؤسف أني لم أكن موجودًا لأشهد المنظر. يقولون إن ڤارس نفسه أخذَته المفاجأة».

كانت ضحكة اللورد چانوس صاخبةً قويَّةً للغاية هذه المرَّة، لدرجة أن بطنه الكبير ارتجَّ بشدَّة، وقال متهكِّمًا «العنكبوت الذي يعرف كلَّ شيء، يقولون، لكنه لم يعرف شيئًا عن ذلك!».

- «وأنَّى له أن يعرف؟»، قال تيريون وقد وضعَ اللَّمحة الأولى من البرودة في صوته. «لقد ساعدَ على إقناع أختي بأن يتمَّ العفو عن ستارك، بشرط أن يرتدي أسود حَرس اللَّيل».

حدجَ چانوس سلينت تيريون بنظرةٍ فارغة وهو يُغَمغِم: «إيه؟».

كرَّر تيريون بنبرةٍ أقوى بعض الشَّيء هذه المرَّة في حال لم يفهم الأحمق مَن يقصد: «أختي سرسي، الملكة الوصيَّة على العرش».

ابتلعَ سلينت القليل من النَّبيذ وقال: «نعم، بالنِّسبة لهذا... الملك هو من أمرَ به يا سيِّدي، الملك بنفسه».

- «الملك في الثَّالثة عشر من العُمر».

قال سلينت وقد ارتجفَ لُغده كعادته عندما يعبس: «لكنه الملك، سيِّد الممالك السَّبع».

قال تيريون بابتسامةٍ مستخِفَّة: «سيِّد واحدةٍ أو اثنتين منها على الأقل. هل تسمح أن أرى رُمحك؟».

مرتبكًا حدَّق فيه اللورد سلينت وردَّد: «رُمحي؟».

أشارَ تيريون مجيبًا: «المشبك الذي يُثَبِّت حرملتك».

خلعَ اللورد چانوس الحلية متردِّدًا وناوَلها لتيريون، الذي قال: «لدينا صاغة في لانسپورت يقومون بعملٍ أفضل. الطِّلاء الأحمر الدَّموي مبالَغ فيه بعض الشَّيء، إذا سمحت لي بالقول. قُل لي يا سيِّدي، هل غرست الرُّمح في ظَهر الرَّجل بنفسك أم أعطيت الأمر فقط؟».

- «أعطيتُ الأمر، وسأعطيه ثانيةً لو عادَ بي الزَّمن. اللورد ستارك كان خائنًا». كانت البُقعة الصَّلعاء في منتصَف رأس سلينت محمرَّةً كثمرة البنجر الآن، وقد انزلقَت حرملته القصيرة المصنوعة من قُماش الذَّهب من على كتفيه إلى الأرض. «لقد حاولَ أن يشتريني».

- «دون أن يتصوَّر أن صفقة شرائك تمَّت بالفعل».

قرعَ سلينت المائدة بكأسه صائحًا: «هل أنت سكران؟ إذا كنت تحسب أني سأجلسُ هنا وأسمحُ بالتَّشكيك في شَرفي...».

- «عن أيِّ شَرفٍ تتكلَّم؟ أعترفُ أنك أجريت صفقةً أكثر ربحًا من السير چاسلين، اللورديَّة ومعها قلعة مقابل طعنةٍ في الظَّهر، ولم تضطرَّ إلى طعْن الرَّجل بنفسك حتى»، وألقى تيريون الحلية إلى چانوس سلينت، فارتدَّت عن صدره وسقطَت على الأرض وهو ينهض.

- «أسلوبك لا يروقني أيها اللو... العِفريت. أنا سيِّد هارنهال وعضو في مجلس الملك، فمن تكون لتُوَبِّخني هكذا؟».

مالَ تيريون برأسه جانبًا، وقال: «أظنُّك تعلم من أكونُ جيِّدًا جدًّا. كم ابنًا لديك؟».

- «وما أهميَّة أبنائي لديك أيها القزم؟».

توهَّج غضبه على ملامحه وهو يقول: «قزم؟ كان ينبغي أن تتوقَّف عند العِفريت. أنا تيريون سليل عائلة لانستر، وذات يوم، إذا كنت تملك من العقل ما أعطَته الآلهة ليرقةٍ في البحر، ستهوي على رُكبتيك شكرًا لأنك تعاملت معي أنا وليس السيِّد والدي. والآن، كم ابنًا لديك؟».

رأى تيريون الخوف المفاجئ في عيني چانوس سلينت إذ أجابَ: «ثلاثة يا سيِّدي، وبنت. أرجوك يا سيِّدي...».

انزلقَ من مقعده ووقفَ قائلًا: «لست في حاجةٍ إلى التوسُّل. لك كلمتي بأن أذًى لن يُصيبهم. سيتلقَّى الولدان الصَّغيران من التَّربية والإعداد ما يؤهِّل كلًّا منهما لأن يكون مُرافِقًا لفارس، وقد يُنَصَّبا فارسين في الوقت المناسب إذا أخلصا في خدمتهما، كي لا يقول أحد أبدًا إن عائلة لانستر لا تُكافئ من يخدمونها. وسيرث ولدك الكبير لقب اللورد سلينت ورمزكم القبيح هذا»،

وركلَ الرُّمح الذَّهبيَّ الصَّغير ليتدحرج على الأرض، وأضافَ: «سوف تُعَيَّن له بعض الأراضي، ويُمكنه أن يبني مقرًّا لنفسه. لن يكون هارنهال، لكنه سيكفيه، كما أن عليه ترتيب زيجةٍ للفتاة».

استحالَ وجه چانوس سلينت من الأحمر إلى الأبيض وهو يقول متلعثمًا: «مـماذا... ماذا تنـ...». كان لُغده يرتعش الآن ككُتلةٍ من شحم الماشية.

- «ماذا أنوي أن أفعل بك؟». تركَ تيريون المغفَّل يرتجف لحظةً، قبل أن يُجيب: «السَّفينة «حُلم الصَّيف» ستُبحِر مع تيَّار الصَّباح، ورُبَّانها أخبرَني أنها سترسو في بلدة النَّوارس و«الأخوات الثَّلاث» وجزيرة سكاجوس، ثم قلعة البحر الشَّرقيَّة. بلِّغ حضرة القائد مورمونت تحيَّاتي الحارَّة عندما تراه، وقُل له إنني لم أنسَ احتياجات حَرس اللَّيل. أتمنَّى لك حياةً طويلةً وخدمةً موفَّقةً يا سيِّدي».

ارتدَّت الدِّماء إلى وجه چانوس سلينت بمجرَّد أن أدركَ أنه لن يُعدَم في الحال، ومَطَّ شفتيه قائلًا: «سنرى أيها العِفريت، القزم، فربما تركب أنت تلك السَّفينة، ما رأيك؟ قد تكون أنت الذَّاهب إلى «الجِدار»»، وأطلقَ ضحكةً عصبيَّةً وقعُها كالنُّباح وواصلَ: «أنت وتهديداتك، حسن، سنرى. إنني صديق الملك كما تعلم، وسنرى ما يقوله چوفري عن هذا، والإصبع الصَّغير والملكة، أوه، نعم، چانوس سلينت لديه أصدقاء كثيرون. أعدُك أننا سنرى من سيُبحِر صباحًا، نعم، سنرى»، ودارَ على عقبيه كالحارس الذي كانه ذات يوم، وقطعَ طول القاعة الصَّغيرة نحو الباب وحذاؤه يدقُّ الأرض الحجريَّة دقًّا، ثم إنه صعدَ الدَّرجات ودفعَ مصراعيَّ الباب... ووجدَ نفسه وجهًا لوجهٍ مع رجلٍ طويل القامة مربَّع الفك يرتدي واقي صدرٍ أسود ومعطفًا ذهبيًّا، وقد استقرَّت يد حديديَّة على معصمه الأيمن بدلًا من يده المبتورة. «چانوس»، قال الرَّجل وعيناه العميقتان تلتمعان من تحت جبهته البارزة وشَعره الكثيف الذي امتزجَ فيه الأبيض بالأسود، وتقدَّم ستَّة من ذوي المعاطف الذَّهبيَّة إلى داخل القاعة بهدوء، ليتراجَع چانوس سلينت.

نادى تيريون من مكانه: «لورد سلينت، أعتقدُ أنك تعرف السير چاسلين بايووتر، قائد حَرس المدينة الجديد».

خاطبَ السير چاسلين سلينت قائلًا: «هناك حمَّالة في انتظارك يا سيِّدي، فأرصفة المرفأ مظلمة وبعيدة، والشَّوارع ليست آمنةً ليلًا. يا رجال».

قادَ ذوو المعاطف الذَّهبيَّة قائدهم السَّابق إلى الخارج، بينما نادى تيريون السير چاسلين إليه، ثم ناوَله رَقًّا مطويًّا وقال: «إنها رحلة طويلة، وسيرغب اللورد سلينت في صُحبة. اعمل على أن ينضمَّ إليه هؤلاء السِّتَّة على متن «حُلم الصَّيف»».

ألقى بايووتر نظرةً على الأسماء، وابتسم قائلًا: «كما ترغب».

قال تيريون بهدوء: «ثمَّة واحد منهم، ديم، قُل للرُّبَّان إننا لن نُسيء الفهم إذا تصادفَ أن سقطَ من فوق حاجز السَّفينة قبل أن يَبلُغوا القلعة الشَّرقيَّة».

رَدَّ السير چاسلين: «معلوماتي أن تلك المياه الشَّماليَّة عاصفة للغاية يا سيِّدي»، وانحنى ثم انصرفَ ومعطفه يتموَّج من ورائه، وفي طريقه داسَ حرملة سلينت المصنوعة من قُماش الذَّهب.

جلسَ تيريون وحده يرشف مما تبقَّى من النَّبيذ الدورني الممتاز، وجاءَ الخدم وذهبوا رافعين الأطباق عن المائدة. قال لهم أن يَترُكوا النَّبيذ، وعندما انتهوا دخلَ ڤارس القاعة بخطواتٍ ناعمة وقد ارتدى ثوبًا أرجوانيًّا فضفاضًا وفاحَت منه رائحة زهور الخُزامَى، وقال: «أوه، تنفيذ في منتهى الحلاوة يا سيِّدي العزيز».

قال تيريون: «ما سبب المذاق المُر في فمي إذن؟»، وضغطَ صُدغيه بأصابعه مضيفًا: «قلتُ لهم أن يُلقوا آلار ديم في البحر، وأشعرُ بإغراءٍ شديد بأن أفعل بك المِثل».

رَدَّ ڤارس: «قد تُخَيِّب النتيجة أملك. العواصف تهبُّ وتهدأ، والأمواج تعلو وتنكسر، والسَّمك الكبير يأكل السَّمك الصَّغير، وأظلُّ أنا أجذفُ. هل تسمح لي بقليلٍ من النَّبيذ الذي استمتعَ به اللورد سلينت؟». أشارَ تيريون إلى الإبريق عابسًا، فملأَ ڤارس كأسًا وتذوَّق قائلًا: «آه، حُلو كالصَّيف ذاته»، وأخذَ رشفةً أخرى وتابعَ: «أسمعُ العنب يُغَنِّي على لساني».

- «كنتُ أتساءلُ عن مصدر تلك الضَّوضاء. قُل للعنب أن يَصمُت لأن رأسي على وشك أن ينفلق. إنها أختي، هذا ما رفضَ آية الإخلاص اللورد

چانوس أن يقوله، إن سرسي هي من أرسلَت ذوي المعاطف الذَّهبيَّة إلى الماخور».

أطلقَ ڤارس ضحكةً عصبيَّةً مكتومة، ما نبَّه تيريون إلى أنه كان يعرف طول الوقت بالفعل، فقال له باتِّهام: «لم تُخبرني بهذا الجزء».

قال ڤارس بأسى شديد حتى بدا كأن دموعه على وشك الانهمار: «أختك العزيزة بنفسها، شيء من الصَّعب أن تُخبِر به أحدًا يا سيِّدي، وكنتُ أخشى ردَّة فعلك. هلَّا سامحتني؟».

أجابَ تيريون منفعلًا: «كلا، عليك وعليها اللَّعنة». إنه يعرف أنه لا يستطيع أن يمسَّ سرسي، ليس بَعد، حتى لو كان يرغب، وهو لا يزال بعيدًا كلَّ البُعد عن التأكُّد من أنه يرغب، إلَّا أن المرارة تعتمل في نفسه من جرَّاء جلوسه هنا ليلعب دوره في تمثيليَّة العدالة، بمعاقَبة التَّافهين على شاكلة چانوس سلينت وآلار ديم، بينما تمضي أخته قُدمًا في سبيلها الوحشي. «ستُخبِرني في المستقبَل بما تعرفه أيها اللورد ڤارس، بكلِّ ما تعرفه».

ابتسمَ الخصيُّ بخبثٍ وهو يُجيب: «سيستغرق هذا وقتًا طويلًا للغاية يا سيِّدي العزيز، فأنا أعرفُ الكثير جدًّا».

- «ليس ما يكفي لإنقاذ تلك الطِّفلة على ما يبدو».

- «للأسف لا. كان هناك نغل آخَر، صبيٌّ أكبر سِنًّا، وقد اتَّخذتُ خطواتٍ لإبعاده عن طريق الأذى... وإن كنتُ أعترفُ بأني لم أتخيَّل قَطُّ أن تكون الرَّضيعة في خطر. ابنة زنى عُمرها أقلُّ من عامٍ واحد وأمُّها عاهرة، فأيُّ تهديدٍ شكَّلت؟».

قال تيريون بمرارة: «التَّهديد أنها ابنة روبرت، ويبدو أن هذا كان كافيًا لسرسي».

- «نعم، هذا محزن حقًّا، ويجب أن ألوم نفسي على ما حدثَ للطِّفلة المسكينة وأمِّها، التي كانت صغيرةً للغاية وأحبَّت الملك».

- «حقًّا؟». لم يرَ تيريون وجه الفتاة القتيلة، لكنها كانت في مخيِّلته شِاي وتايشا في آنٍ واحد. «تُرى هل من الممكن أن تُحِبَّ عاهرة أحدًا بحق؟ لا، لا تُجب. ثمَّة أشياء لا أحبِّذُ أن أعرفها». كان قد أسكنَ شِاي إيوانًا فسيحًا

مبنيًا من الخشب والحجارة، به بئر ماء واسطبل وتُحيط به حديقة، وخصَّص لها خدمًا يُلَبُّون احتياجاتها، وأهداها طائرًا أبيض من جُزر الصَّيف ليُسَلِّيها، وابتاعَ لها حريرًا وفضَّةً وجواهر تتحلَّى بها، وعيَّن حَرسًا لحمايتها، وعلى الرغم من كلِّ هذا بدَت ضَجِرَةً، وقالت إنها تُريد أن تكون معه أكثر وأن تخدمه وتُساعِده. «أنتِ تُساعِدينني هنا أكثر، بين الأغطية»، قال لها ذات ليلةٍ بَعد أن فرغا من الحُب، وقد استلقى إلى جوارها ووسَّد رأسه نهدها وراحَ ذَكره ينبض بالألم اللَّذيذ. لم يتلقَّ إجابةً إلَّا من عينيها، ورأى في نظراتهما أنها لم تكن الإجابة التي أرادَتها.

تنهَّد تيريون ومَدَّ يده نحو النَّبيذ، ثم إنه تذكَّر اللورد چانوس فدفعَ الإبريق بعيدًا، وقال: «يبدو أن أختي كانت تقول الحقيقة عن موت ستارك، وعلينا أن نَشكُر ابنها على هذا الجنون».

- «الملك چوفري أعطى الأمر، وچانوس سلينت والسير إلين باين نفَّذاه من فورهما وبلا تردُّد...».

- «... كأنهما كانا يتوقَّعاه. نعم، لقد خُضنا في هذه المنطقة من قبل وبلا نتيجة. إنها حماقة».

- «وجود حَرس المدينة في يدك يضعك في موقع يُتيح لك أن تحول دون ارتكاب جلالته المزيد من... الحماقات. لكن بالتَّأكيد ما زال ينبغي وضع حَرس أهل بيت الملكة في الاعتبار».

هَزَّ تيريون كتفيه قائلًا: «ذوو المعاطف الحمراء؟ ڤايلار ولاؤه لكاسترلي روك، ويعرف أني هنا بتفويضٍ من أبي، ما يجعل من الصَّعب على سرسي أن تستخدم رجاله ضدي... كما أن عددهم مئة فقط، بينما لديَّ مئة وخمسون رجلًا، بالإضافة إلى ستَّة آلاف من ذوي المعاطف الذَّهبيَّة، إذا كان بايووتر كما تَزعُم حقًّا».

- «ستجد أن السير چاسلين شُجاع وشريف ومطيع، ومُقِرٌّ بالجميل كذلك».

- «لمَن يا تُرى؟». لا يثق تيريون بڤارس على الإطلاق، وإن كان لا يُمكنه إنكار قيمته، فلا شَكَّ أنه يعرف أشياء كثيرة جدًّا. «ما الذي يجعلك متعاونًا

لهذه الدَّرجة أيها اللورد ڤارس؟»، سأله وهو يُمعِن النَّظر في يديه النَّاعمتين، ثم إلى وجهه الحليق ورأسه الأصلع بما عليهما من مساحيق، وابتسامته الصَّغيرة اللَّزجة.

- «أنت يد الملك، وأنا أخدمُ البلاد والملك وأخدمك».

- «كما خدمت چون آرن وإدارد ستارك؟».

- «لقد خدمتُ اللورد آرن واللورد ستارك بأفضل ما لديَّ، وأحزَنني وأزعجَني موتهما المبكِّر لأقصى درجة».

- «تخيَّل كيف أشعرُ إذن، فمن المحتمَل أن الدَّور دوري».

قال ڤارس وهو يُدَوِّر النَّبيذ في كأسه: «أوه، لا أظنُّ هذا. السُّلطة شيء غريب يا سيِّدي. تُرى هل فكَّرت في الأُحجية التي طرحتها عليك في ذلك اليوم في الخان؟».

- «لقد دارَت في عقلي مرَّةً أو اثنتين بالفعل. الملك والرَّاهب والثَّري... من يعيش ومن يموت؟ من الذي سيُطيعه صاحِب السَّيف؟ إنها أُحجية بلا حَل، أو أن حلولها عديدة بالأحرى. كلُّ شيءٍ يعتمد على من يحمل السَّيف».

قال ڤارس: «ومع ذلك هو مجرَّد نكرة، لا يملك تاجًا أو ذهبًا أو حظوةً من الآلهة، بل مجرَّد قِطعةٍ مدبَّبة من الفولاذ».

- «قِطعة الفولاذ تلك لديها سُلطة الحياة والموت».

- «بالضَّبط... لكن إذا كان ذوو السُّيوف هُم من يَحكُمون في الحقيقة، فلِمَ نتظاهَر بأن السُّلطة في أيدي ملوكنا؟ لماذا ينبغي على رجلٍ قوي يحمل سيفًا أن يُطيع ملكًا طفلًا مِثل چوفري، أو جلفًا سكِّيرًا مِثل أبيه؟».

- «لأن هؤلاء الملوك الأطفال والأجلاف السِّكيرين يستطيعون استدعاء المزيد من الرِّجال الأقوياء بسيوفهم».

قال ڤارس مبتسمًا: «إذن فمن يتمتَّع بالسُّلطة الحقيقيَّة هُم أصحاب السُّيوف الآخَرون. لكن أهذا صحيح؟ من أين أتت سيوفهم إذن؟ ولماذا يُطيعون؟ البعض يقول إن المعرفة سُلطة، والبعض يقول إن كلَّ السُّلطات تأتي من الآلهة، وغيرهم يقول إنها تُستمَدُّ من القانون، وعلى الرغم من هذا، يومها على عتبة سِپت بيلور، كان كلٌّ من السِّپتون الأعلى خادم الآلهة، وملكتنا

الوصيَّة على العرش بالقانون، وخادمك المطَّلع على كلِّ شيءٍ عاجزين تمامًا كأيِّ إسكافيٍّ أو صانع براميل بين الحاضرين. من قتلَ إدارد ستارك حقًّا في رأيك؟ چوفري الذي ألقى الأمر، أم السير إلين پاين الذي ضربَ عُنقه بالسَّيف... أم غيرهما؟».

حنى تيريون رأسه جانبًا، وقال: «هل تنوي الإجابة عن أُحجيتك اللَّعينة أم ستجعل رأسي يُؤلمني أكثر؟».

ابتسمَ الخصيُّ وقال: «إليك الإجابة إذن. السُّلطة تكمُن حيثما آمنَ النَّاس بوجودها، لا أكثر ولا أقل».

- «السُّلطة لُعبة حُواةٍ إذن؟».

غمغمَ ڤارس: «ظِلٌّ على الحائط، لكن الظِّلال يُمكنها أن تَقتُل، وكثيرًا ما يستطيع رجل صغير للغاية أن يُلقي ظِلًّا كبيرًا جدًّا».

ابتسمَ تيريون بدوره، وقال: «لورد ڤارس، لقد بدأتُ أصابُ بالولع بك على نحوٍ غريب. قد أقتلك في النِّهاية، لكني أظنُّ أني سأحزنُ عليك».

- «سأعتبرُ هذا مديحًا وافرًا».

- «ماذا تكون يا ڤارس؟ يقولون إنك عنكبوت». كان تيريون يرغب في أن يعرف حقًّا.

- «نادرًا ما يعرف الجواسيس والمُخبِرون حُبًّا من النَّاس يا سيِّدي، وأنا مجرَّد خادم مخلص للبلاد».

- «وخصِي، دعنا لا ننسى هذا».

- «نادرًا ما أفعلُ».

- «النَّاس يدعونني بنِصف الرَّجل أيضًا، ولو أني أعتقدُ أن الآلهة كانت أرحم معي. إنني صغير الحجم وساقاي مقوَّستان، ولا تتطلَّع إليَّ النِّساء بأيِّ شوق، لكني ما زلتُ رجلًا. شِاي ليست أول من تُشَرِّف فِراشي، وقد يأتي يوم أتَّخذُ فيه زوجةً وأنجبُ ابنًا، وبمشيئة الآلهة سيبدو كعمِّه ويُفكِّر كأبيه، أمَّا أنت فبلا أملٍ يجعلك تُحافِظ على بقائك. الأقزام دُعابة قدريَّة من الآلهة... أمَّا الخِصيانُ فمِن صُنع البَشر. مَن قطعَ أعضاءك يا ڤارس؟ ومتى ولماذا؟ من أنت حقًّا؟».

لم تهتزَّ ابتسامة الخصي، لكن في عينيه التمَع شيء لا يمتُّ بصِلَةٍ للضَّحك وهو يُجيب: «لُطف منك أن تسأل يا سيِّدي، لكن حكايتي طويلة وحزينة، وثمَّة أعمال خيانة لا بُدَّ أن نُناقِشها»، وسحبَ رَقًّا من كُمِّه قائلًا: «رُبَّان قادس الملك «الأيل الأبيض» يُخَطِّط للتَّسلُّل من المرسى بَعد ثلاثة أيامٍ من الآن ليعرض خدماته على اللورد ستانيس ومعها السَّفينة».

زفرَ تيريون قائلًا: «أعتقدُ أن علينا أن نجعل منه عبرةً تردع غيره، أليس كذلك؟».

- «من الممكن أن يُرَتِّب السير چاسلين اختفاءه، لكن من شأن محاكمةٍ أمام الملك أن تُساعِد على اطمئناننا لولاء الرَّبابنة الآخَرين المستمر».

وأن تُلهي ابن أختي كذلك. «كما تقول. خصِّص له جرعةً من عدالة چوفري».

وضعَ ڤارس علامةً على الورقة، ثم قال: «السير هوراس والسير هوبر ردواين قاما برشوة أحد الحُرَّاس، ليسمح لهما بالخروج من بوَّابةٍ جانبيَّة ليلة بَعد غد، وتَمَّ إجراء التَّرتيبات لهما كي يُبحِرا على متن القادس الپنتوشي «عدَّاء القمر» متنكرين كبحَّارين».

قال تيريون مبتسمًا: «هل يُمكننا أن نَترُكهما يعملان على المجاذيف بضع سنوات ونرى كم يروقهما هذا؟ لا، ستغضب أختي كثيرًا إذا فقدَت ضيفين غاليين مِثلهما. بلِّغ السير چاسلين، واجعله يقبض على الرَّجل الذي رشياه ويشرح له فضل الخدمة كأخٍ في حَرس اللَّيل، وضَع رجالًا حول «عدَّاء القمر»، فلربما يجد الأخوان ردواين حارسًا آخَر يُعاني من ضائقةٍ ماليَّة».

قال ڤارس: «كما تأمر»، ووضعَ علامةً أخرى على الورقة. «رجلك تيميت قتلَ ابن بائع نبيذ هذا المساء في وكرٍ للقِمار في شارع الفضَّة. اتَّهمه بالغِشِّ في لُعبة البلاطات».

- «وهل كان على حَق؟».

- «أوه، بلا شَك».

- «إذن فأهل المدينة الشُّرفاء يدينون لتيميت بالامتنان. سأعملُ على أن ينال شُكر الملك».

أطلقَ الخصيُّ ضحكةً عصبيَّةً ووضعَ علامةً أخرى، ثم قال: «لدينا أيضًا غزو من رجال الدِّين، فالمذنَّب جلبَ إلى المدينة كلَّ أنواع الرُّهبان والمبشِّرين والأنبياء على ما يبدو. إنهم يتسوَّلون في الحانات الرَّخيصة ومحال الأكل، ويتنبَّئون بالهلاك والدَّمار لكلٍّ من يتوقَّف ويُصغي إليهم».

هَزَّ تيريون كتفيه قائلًا: «إننا ندنو من الذِّكري الثَّلاثمئة لرسو إجون، فأظنُّ أن هذا متوقَّع. دَعهم يُثَرثِرون».

- «إنهم يَنشُرون الخوف يا سيِّدي».

- «حسبتُ هذا عملك».

غطَّى ڤارس فمه بيده، وقال: «قسوة بالغة منك أن تقول هذا. ثمَّة مسألة أخيرة، الليدي تاندا أقامَت حفلة عَشاءٍ صغيرة ليلة أمس، ومعي قائمة الطَّعام والضُّيوف لتطَّلع عليها. بَعد صَبِّ النَّبيذ، نهضَ اللورد جايلز ليرفع كأسًا في صحَّة الملك، وسُمِعَ السير بالون سوان يقول: سنحتاج ثلاث كؤوس من أجل هذا!، فضحكَ كثيرون».

رفعَ تيريون يده قائلًا: «كفى. السير بالون ألقى مزحةً لا أكثر. إنني لا أعبأُ بالكلام الموحي بالخيانة على موائد الطَّعام يا لورد ڤارس».

- «أنت حكيم بقدر ما أنت كريم يا سيِّدي»، واختفى الرَّق في كُمِّ الخصيِّ وهو يقول: «سأتركك الآن، فكلانا لديه عمل كثير».

جلسَ تيريون فترةً طويلةً بَعد ذهاب الخصيِّ يُراقِب الشَّمعة ويتساءل كيف ستتلقَّى أخته خبر صرْف چانوس سلينت. ليس بترحابٍ طبعًا إذا كان قادرًا على الحُكم، لكن فيما عدا إرسال كلمة احتجاج إلى اللورد تايوين في هارنهال، فهو لا يرى ما تستطيع سرسي أن تفعله بأيِّ شكل. إن لديه حَرس المدينة الآن، بالإضافة إلى مئةٍ وخمسين رجلًا قويًّا من مُحاربي القبائل، وقوَّةٍ متنامية من المرتزِقة الذين يُجَنِّدهم برون. يبدو إذن أنه محميٌّ تمامًا.

لا شَكَّ أن إدارد ستارك كان يتصوَّر الشَّيء نفسه.

كانت القلعة الحمراء مظلمةً ساكنةً عندما غادرَ تيريون القاعة الصَّغيرة، وفي انتظاره في غُرفته الشَّمسيَّة كان برون، الذي سأله عندما رآه: «سلينت؟».

- «سيُبحِر اللورد چانوس إلى «الجِدار» غدًا صباحًا. ڤارس يُريدني

أن أصدِّق أني استبدلتُ واحدًا من رجال چوفري بواحدٍ من رجالي، بينما الغالب أني استبدلتُ رجل الإصبع الصَّغير بآخَر يملكه ڤارس، لكن ليكن».

- «من الأفضل أن تعرف، تيميت قتلَ رجلًا...».

- «ڤارس أخبرَني».

لم يبدُ المرتزِق مندهشًا، وقال: «الأحمق ظَنَّ أن خداع رجلٍ بعينٍ واحدة سيكون أسهل. تيميت ثبَّت معصمه في المائدة بخنجرٍ ومزَّق حنجرته بيديه. لديه تلك الحيلة حيث يُجَمِّد أصابعه و...».

- «اعفني من التَّفاصيل الشَّنيعة، فالطَّعام يتقلَّب في معدتي بالفعل. ما أخبار التَّجنيد؟».

- «لا بأس على الإطلاق. ثلاثة رجالٍ جُدد اللَّيلة».

- «وكيف تعرف مَن تستأجر منهم؟».

أجابَ برون: «أفحصهم بنظري، وأستجوبهم لأعرف أين حارَبوا ومدى براعتهم في الكذب»، وابتسمَ وأكملَ: «وأعطيهم فُرصةً لقتلي بينما أفعل الشَّيء نفسه معهم».

- «وهل قتلت أحدًا؟».

- «لا أحد كان باستطاعتنا الانتفاع منه».

- «وإذا قتلك أحدهم؟».

- «سيكون هذا من ترغب في استئجاره».

كان تيريون ثملًا بعض الشَّيء ومتعَبًا للغاية، لكنه قال: «قُل لي يا برون، إذا طلبتُ منك أن تَقتُل طفلةً... بنتًا رضيعة مثلًا... هل ستفعلها؟ وبلا أسئلة؟».

أجابَ المرتزِق: «بلا أسئلة؟ كلا»، وفركَ سبَّابته وإبهامه معًا وأردفَ: «سأسألُ كم ستدفع».

ولِمَ أجدُ أيَّ حاجةٍ إذن إلى رجلك آلار ديم أيها اللورد سلينت؟ إن لديَّ مئة منه بالفعل.

أرادَ تيريون أن يضحك، وأرادَ أن يبكي، لكن أكثر من أيِّ شيءٍ آخَر أرادَ شِاي.

آريا

لم يزِد الطَّريق على أخدودين ضيِّقين عبر الحشائش.

الجزء الجيِّد، أن تدنِّي عدد المسافرين الشَّديد لن يجعل هناك من يشي بهم ويقول في أيِّ اتِّجاهٍ ذهبوا، فالطُّوفان البَشري الذي انهمرَ على طريق الملوك من قبل ليس إلَّا محض قطراتٍ هنا. الجزء السيِّئ، أن الطَّريق يلتفُّ على نفسه جيئةً وذهابًا كالثُّعبان، ليتشابَك مع دروب أصغر فأصغر، وفي أحيانٍ يختفي بالكامل، فقط ليُعاوِد الظُّهور بَعد مسافة نِصف فرسخ عندما يكونوا قد فقدوا الأمل في العثور عليه مجدَّدًا. كرهَت آريا الطَّريق حقًّا، فعلى الرغم من أن الأرض معتدلة كفايةً هنا، تتناثَر فيها التِّلال المائجة والحقول المدرَّجة وتُرَصِّعها المروج والغابات والوديان الصَّغيرة، التي تحتشد فيها أشجار الصَّفصاف عند جداول المياه البطيئة الضَّحلة—على الرغم من كلِّ هذا ظَلَّ سبيلهم بالغ الضِّيق والاعوجاج، حتى إن حركتهم غدَت أقرب إلى الزَّحف.

العربات بالتَّحديد هي ما أبطأَ تقدُّمهم، إذ تتحرَّك بمنتهى التَّثاقُل ومَحاور عجلاتها تُصِرُّ تحت وزن حمولتها الثَّقيلة. كانوا يُرغَمون على التوقُّف عشر مرَّاتٍ على الأقل كلَّ يوم لتخليص عجلةٍ انحشرَت في حُفرة، أو لمضاعَفة الجهد لصعود منحدَرٍ جعلَته الأوحال زَلِقًا، وذات مرَّة، في منتصَف دغلٍ كثيف من أشجار البلُّوط، وجدوا أنفسهم وجهًا لوجهٍ مع ثلاثة رجالٍ ينقلون حمولةً من الحطب على عربةٍ يَجُرُّها ثور، بلا وسيلةٍ لدوران أيٍّ من المجموعتين حول الأخرى. الحلُّ الوحيد كان الانتظار حتى فَكَّ الحطَّابون

ثورهم وقادوه عبر الأشجار، ثم دوَّروا العربة وربطوا الثَّور بها من جديد، قبل أن يتحرَّكوا في الجهة التي جاءوا منها. كان الثَّور أبطأ من العربات بمراحل، فلم يقطعوا مسافةً تُذكَر يومها.

لم تستطِع آريا الكَفَّ عن النَّظر وراءها، متسائلةً متى سيلحق بهم ذوو المعاطف الذَّهبيَّة، وفي اللَّيل تستيقظ مع أقلِّ صوتٍ وتمدُّ يدها إلى مقبض «الإبرة». إنهم لا يُخَيِّمون دون تعيين حراسةٍ منهم الآن، وإن كانت آريا لا تَشعُر بالثِّقة نحوهم، خصوصًا الصِّبية الأيتام، فربما استطاعَ هؤلاء البقاء على قيد الحياة في أزقَّة كينجز لاندنج، لكنهم ضائعون هنا في العراء لا محالة. عندما تتحرَّك بهدوء الظِّلال، تستطيع الانسلال منهم جميعًا وتمضي بخفَّةٍ مهتديةً بنور النُّجوم، لتُلَبِّي نداء الطَّبيعة في الغابة حيث لا يراها أحد، وفي ليلةٍ عندما كان لومي أخضر اليد يتولَّى الحراسة، تسلَّقت شجرة بلُّوط وتنقَّلت من غُصنٍ إلى آخَر حتى باتَت فوق رأسه تمامًا، ولم يرَها على الإطلاق. كان من الممكن أن تقفز فوقه مباشرةً، لكنها عرفَت أن صرخته ستُوقِظ المخيَّم كله، وقد يضربها يورن بالعصا ثانيةً.

يُعامِل لومي وبقيَّة الأيتام الثَّور على أنه شخصيَّة ذات أهميَّةٍ خاصَّة الآن، لأن الملكة تُريد رأسه، وإن كان هو نفسه رافضًا لكلِّ هذا، وقال لهم غاضبًا: «لم أفعل شيئًا للملكة أبدًا، كلُّ ما فعلته هو القيام بعملي، المنفاخ والملقط وهات وشِل. كان من المفترَض أن أصبح صانع سلاح، ثم يأتي السيِّد توبهو في يوم ويقول إنني سألتحقُ بحَرس اللَّيل، وهذا كلُّ ما أعرفه». يُكَرِّر عليهم كلامه ثم ينصرف إلى تلميع خوذته. كانت خوذةً جميلةً حقًّا، مدوَّرة وذات منحنيات ومقدِّمة مشقوقة طوليًّا، ويعلوها قرنا ثورٍ معدنيَّان ضخمان. تَرقُبه آريا وهو يُلَمِّع المعدن بخرقةٍ مبلَّلة بالزَّيت، إلى أن تلمع الخوذة تمامًا وتنعكس نار الطَّهي على فولاذها، لكنه لا يضعها على رأسه أبدًا.

– «أراهنُ أنه نغل ذلك الخائن»، قال لومي في ليلةٍ بصوتٍ خفيض كي لا يسمعه جندري. «اللورد الذِّئب، الذي قطعوا رأسه على عتبة بيلور».

قالت آريا بحسم: «لا، ليس هو». أبي كان لديه نغل واحد هو چون. شقَّت طريقها خلسةً بين الأشجار متمنيةً لو تستطيع أن تركب فَرسها وتهرع

إلى الدِّيار. إنها فَرس ممتازة، كستنائيَّة اللَّون وذات غُرَّة ناصعة البياض على جبهتها، ولطالما كانت آريا خيَّالةً ممتازةً كذلك، ويُمكنها أن تنطلق في أيِّ وقتٍ فلا ترى أحدًا منهم ثانيةً أبدًا ما لم ترغب في ذلك، لكنها عندئذٍ لن تجد من يتقصَّى الطَّريق أمامها، أو يُراقِبه من ورائها، أو يَحرُسها وهي غافية، وعندما يقبض عليها ذوو المعاطف الذَّهبيَّة ستكون وحيدةً تمامًا. أكثر أمنًا لها أن تبقى مع يورن والآخَرين.

قال لهم الأخ الأسود ذات صباح: «لسنا بعيدين عن «عين الآلهة». طريق الملوك لن يكون آمنًا حتى نَعبُر الثَّالوث، لذا سندور حول البحيرة مع شاطئها الغَربي، فمن المستبعَد أن يبحثوا عنا هناك»، وفي البُقعة التَّالية حيث يتقاطَع أخدودان معًا، أدارَ العربات غَربًا.

هنا تتراجَع المَزارع أمام الغابات، والقُرى والمعاقل أصغر ومتباعدة عن بعضها البعض، والتِّلال أعلى والوديان أعمق، والعثور على الطَّعام صارَ عسيرًا. كان يورن قد حمَّل العربات في المدينة بالسَّمك المملَّح والخُبز الجامد والدُّهن واللِّفت، وأجولة من الفاصوليا والشَّعير، وقوالب من الجبن الأصفر، لكن كلَّ لقيمةٍ أُكِلَت بالفعل، والآن وقد أصبحوا مُجبَرين على التعيُّش مما تُنبته الأرض، لجأ يورن إلى كوس وكورز اللذين قُبِضَ عليهما لاحترافهما السَّرقة من أراضي الغير، فكان يُرسِلهما في طليعة الرَّكب إلى الغابة، ومع حلول الغَسق يعودان بظبيٍ معلَّق من عمودٍ بينهما، أو بزوجين من طيور السمَّان يتدلَّيان من حزاميهما، بينما يعمل الصِّبية الأصغر على قطف التُّوت الأسود النَّابت على الطَّريق، أو يتسلَّقون الأسوار ليملأوا جوالًا بالتُّفَّاح إذا تصادفَ أن مرُّوا ببُستان.

كانت آريا بارعةً في التسلُّق وسريعةً في جمع الثِّمار، وتُحِبُّ الاختلاء بنفسها. في يوم وقعَت على أرنب بالصُّدفة المحضة، ووجدَته بنِّيًّا سمينًا طويل الأذنين وعصبي الأنف. تستطيع الأرانب العدو أسرع من القِطط، وإن كانت لا تقدر على تسلُّق الأشجار بنِصف براعتها، وهكذا ضربَت آريا الأرنب بعصاها وأطبقَت على أُذنيه، وطهاه يورن مع الفطر والبصل البرِّي. نالَت آريا ساقًا كاملةً بما أنه أرنبها، فتقاسمَتها مع جندري، وحصل كلٌّ من الآخَرين على نصيبٍ من اليخنة، حتى الثَّلاثة المقيَّدين. شكرَها چاكن هاجار بأدبٍ

على الوجبة اللَّذيذة، بينما لعقَ العضَّاض الدُّهن من على أصابعه المتَّسخة وفي عينيه نظرة راضية، أمَّا رورج عديم الأنف فضحكَ وقال: «الصيَّاد البارع، وجه الجِزَل رأس الجِزَل قاتِل الأرانب».

حاصرَهم عدد من عُمَّال الحقل في حقل ذُرةٍ خارج معقل يُدعى برياروتر، وطالَبوا بثمن الأكواز التي أخَذوها. تأمَّل يورن المناجل في أيديهم، ثم طوَّح لهم ببعض العُملات النُّحاسيَّة قائلًا بمرارة: «في زمنٍ ماضٍ كان مَن يرتدون الأسود يجدون الحفاوة في كلِّ مكانٍ من دورن إلى وينترفل، وحتى كبار اللوردات كانوا يعتبرون إيواءهم في بيوتهم شَرفًا، والآن يشترط الجُبناء من أمثالكم الثَّمن مقابل قضمةٍ من التُّفَّاح المَدُود». قالها وبصقَ.

رَدَّ واحد منهم بخشونة: «إنها ذُرة حُلوة، أفضل مما يستحقُّ طائر أسود عجوز كريه الرَّائحة مثلك. اخرُج من حقلنا حالًا، وخُذ هؤلاء اللُّصوص والقتَلة معك، وإلَّا علَّقناكم وسط الذُّرة لتُخيفوا الغِربان».

قاموا بشواء الذُّرة في قشرتها تلك اللَّيلة، ودوَّروا الأكواز بعصيٍّ طويلة مفرَّعة وأكلوها ساخنةً. راقَ مذاقها آريا كثيرًا، لكن يورن كان أكثر غضبًا من أن يأكل، وبدا كأن ثمَّة سحابة غائمة معلَّقة فوق رأسه، سوداء وخشنة كمعطفه، وقد راحَ يذرع المخيَّم بخطى متوتِّرة وهو يُدَمدِم لنفسه.

في اليوم التَّالي عادَ كوس عدوًا ليُحَذِّر يورن من مخيَّم أمامهم، وقال: «عشرون أو ثلاثون رجلًا يرتدون القمصان المعدنيَّة والخُوذات القصيرة، بعضهم جروحه بالغة، ويبدو أن أحدهم يحتضر كما تشي الأصوات التي يُصدِرها. كان صوته عاليًا للغاية، فاقتربتُ. لديهم حراب وتروس وحصان واحد أعرج. أعتقدُ أنهم هناك منذ فترة كما توحي رائحة المكان».

- «هل رأيت رايةً؟».

- «قِط أشجار مرقَّط بالأسود والأصفر على خلفيَّة بنِّيَّة بلون الطَّمي».

دَسَّ يورن ورقةً من التَّبغ المُر في فمه ولاكَها مفكِّرًا، ثم قال: «لا أدري، قد يكون طرفًا وقد يكون الآخَر، وإذا كانت إصاباتهم سيِّئة لهذه الدَّرجة، فغالبًا سيأخذون ما معنا من دواب أيًّا كانوا، وقد يأخذون ما هو أكثر. أعتقدُ أننا سندور دورةً واسعةً حولهم». أبعدَهم هذا أميالًا عديدة عن طريقهم وكلَّفهم يومين على الأقل، لكن العجوز قال إنه ثمن زهيد. «سيكون لديكم كلُّ الوقت

الذي تُريدونه على «الجِدار»، ما تبقَّى من أعماركم في الغالب، فلا يبدو لي إذن أن هناك داعيًا للاستعجال».

بدأت آريا ترى المزيد والمزيد من الرِّجال يَحرُسون الحقول لمَّا انعطَفوا شَمالًا ثانيةً. في أغلب الأحيان يقفون صامتين على جانب الطَّريق، يَرمُقون كلَّ من يمرُّ بنظراتٍ باردة، وفي أماكن أخرى يقومون بدوريَّاتٍ على متن الخيول، فيتحرَّكون بطول الأسلاك التي صُنِعَت منها أسوارهم وقد علَّق كلٌّ منهم بلطةً في سَرجه. في بُقعةٍ ما أبصرَت رجلًا كامنًا في شجرةٍ ميتة، في يده قوسه وعلى الفرع المجاور له كنانته، وبمجرَّد أن لمحَهم ثبَّت سهمًا في وترِ القوس، ولم تُفارِقهم نظراته لحظةً حتى غابَ آخِر العربات عن نظره. ظَلَّ يورن يسبُّ ويلعن طول الوقت، وقال مغضبًا: «ذلك القابع في الشَّجرة، لنرَ كم سيُحِبُّ البقاء هناك عندما يأتي «الآخَرون» ليأخذوه. سوف يَصرُخ مستنجدًا بحَرس اللَّيل، حتمًا سيفعل».

بَعدها بيوم لمحَ دوبر وهجًا أحمر في سماء المساء، فقال: «إمَّا أن الطَّريق يلتفُّ ثم ينبسطُ من جديد، أو أن الشَّمس تَغرُب في الشَّمال».

تسلَّق يورن مرتفَعًا ليُلقي نظرةً أفضل، ثم أعلنَ: «إنه حريق»، ولعقَ إبهامه ورفعَه مضيفًا: «من المفترَض أن تُبعِده الرِّيح بعيدًا عنا، لكن لا مانع من مراقَبته».

وهكذا راقَبوا الحريق، وإذ تسربلَ العالم بالظَّلام توهَّجت النِّيران أكثر فأكثر، حتى بدا كأن الشَّمال كله مشتعل، وبين الحين والآخَر كانت رائحة الدُّخان تَبلُغ أنوفهم، وإن ظَلَّ اتِّجاه الرِّيح ثابتًا ولم يدنُ اللَّهب منهم إطلاقًا. خمدَ الحريق مع طلوع الفَجر، لكن أحدًا منهم لم ينم بارتياح ليلتها.

كان النَّهار قد انتصفَ عندما وصلوا إلى المكان الذي كانت القرية تحتلُّه، ليجدوا الحقول خرابًا متفحِّمًا لأميالٍ في كلِّ جهة، والبيوت مجرَّد هياكل مسودَّة، وقد تناثرَت جُثث الحيوانات المحروقة والمذبوحة على الأرض، تحت غطاءٍ حَيٍّ من الغِربان آكلة الجيفة، التي تنعب غاضبةً إذا قطعَ عليها أحد وجبتها. كان الدُّخان لا يزال يتصاعَد من داخل المعقل، الذي بدا سياجه الخشبي قويًّا من بعيد، وإن اتَّضح العكس مع دنوِّهم.

تقدَّمت آريا العربات بفَرسها، ورأت جثثًا محروقةً معلَّقةً على خوازيق

حادَّة فوق الأسوار، وقد رفعَ أصحابها أيديهم أمام وجوههم كأنما يُحاوِلون مقاوَمة النِّيران التي التهمَتهم التهامًا. أمرَ يورن بالتوقُّف على مسافةٍ مناسبةٍ من المكان، وقال لآريا والصِّبية الآخَرين أن يَحرُسوا العربات ريثما يَدخُل مع مورش وكتچاك سيرًا على الأقدام. حلَّق سَرب من الغِدفان من داخل الأسوار عندما دخلوا من البوَّابة المحطَّمة، فنادَتها الغِدفان التي معهم في الأقفاص بنعيبٍ صارخٍ يُصِمُّ الآذان.

- «ألا ينبَغي أن نذهب وراءهم؟»، سألَت آريا جندري بَعد أن غابَ يورن والآخَران فترةً طالَت.

- «يورن قال أن ننتظر». بدا صوت جندري أجوف، ولمَّا التفتَت لتَنظُر إليه وجدَته يرتدي خوذته الفولاذيَّة اللَّامعة ذات القرنين المنحنيين.

عندما عادوا أخيرًا، كان يورن يحمل طفلةً صغيرةً بين ذراعيه، بينما حملَ مورش وكتچاك امرأةً في معلاقٍ مصنوع من لحافٍ قديم ممزَّق. كانت الفتاة في الثَّانية من العُمر على الأكثر وتبكي طيلة الوقت، تُصدِر نشيجًا خشنًا كأن هناك شيئًا عالقًا في حَلقها. إمَّا أنها لم تتعلَّم الكلام بعدُ، أو أنها نسيَت كيف تتكلَّم. المرأة كانت ذراعها اليُمنى تنتهي بمِرفقٍ دام، ولا يبدو أنها ترى شيئًا، حتى وهي تَنظُر إليه مباشرةً. كانت تتكلَّم لتقولَ كلمةً واحدةً فقط، «أرجوك، أرجوك، أرجوك»، تصيح بها مرَّةً بَعد مرَّة. وجدَ رورچ هذا طريفًا، وضحكَ من الفتحة التي كان أنفه يحتلُّها في وجهه، وبدأ العضَّاض يضحك بدوره، حتى انهالَ عليهما مورش بوابلٍ من الشَّتائم وأمرَهما بأن يخرسا.

جعلَهم يورن يُفسِحون مكانًا للمرأة في مؤخِّرة عربة قائلًا: «وأسرِعوا، فمع حلول الظَّلام سنجد ذئابًا هنا، وما هو أسوأ».

- «أنا خائف»، تمتمَ هوت پاي حين رأى المرأة ذات الذِّراع الواحدة تتلوَّى كالمحمومين في العربة.

قالت آريا معترفةً: «وأنا أيضًا».

اعتصرَ كتفها قائلًا: «لم أركل ولدًا حتى الموت حقًّا يا آري، كنتُ أبيع فطير أمِّي لا أكثر».

كانت آريا تسبق العربات بأطول مسافةٍ تجرؤ عليها، كي لا تسمع الفتاة الصَّغيرة تبكي أو المرأة تهمس: أرجوك. تذكَّرت قصَّةً حكتها العجوز نان

ذات مرَّة، عن رجلٍ سجنَه العمالقة الأشرار في قلعةٍ مظلمة، وإن كان شديد الشَّجاعة والذَّكاء، فاستطاعَ خداع العمالقة والهروب... لكنه لم يكد يخرج من القلعة حتى أخذَه «الآخَرون» وشربوا دماءه الحمراء السَّاخنة. الآن تُدرِك كيف كان يَشعُر.

ماتَت المرأة بَعد غروب الشَّمس، فحفرَ لها جندري وكتچاك قبرًا على جانب تَلٍّ تحت صفصافةٍ باكية، وعندما هبَّت الرِّيح خُيِّلَ لآريا أنها تسمع الأغصان الطَّويلة الممتدَّة تهمس: أرجوك، أرجوك، أرجوك، فانتصبَت الشُّعيرات القصيرة على مؤخِّرة عُنقها، وكادَت تعدو مبتعدةً عن القبر.

قال لهم يورن: «لا نار اللَّيلة». تكوَّن العَشاء من حفنةٍ من الفجل البرِّي عثرَ عليها كوس، وكوب من الفاصوليا الجافَّة، وماء من غدير قريب. كان للماء مذاق غريب، فقال لهم لومي إنه مذاق الجُثث التي لا بُدَّ أنَّها تتعفَّن في مكانٍ ما عكس التيَّار، وكان هوت پاي ليضربه لولا أن رايزن العجوز فصلَ بينهما.

شرِبَت آريا ماءً كثيرًا جدًّا، فقط كي تملأ معدتها بأيِّ شيء. لم تحسب أنها ستتمكَّن من النَّوم، لكنها نامَت بشكلٍ ما، وعندما استيقظَت كان الظَّلام دامسًا ومثانتها توشك على الانفجار، وقد تكوَّم النَّائمون حولها ملتفِّين بالأغطية والمعاطف. التقطَت إبرتها ونهضَت مِصغيةً، فسمعَت الوقع الخافت لقدمي أحد الحُرَّاس، والرِّجال يتقلَّبون في نومهم غير المريح، وغطيط رورج الخشن، والفحيح الغريب الذي يَخرُج من العضَّاض وهو نائم، ومن عربةٍ أخرى جاء الصَّوت الإيقاعي الثَّابت لاحتكاك الفولاذ بالحجر، حيث جلسَ يورن يَمضُغ التَّبغ المُر ويشحذ حافة خنجره.

كان هوت پاي واحدًا من الصِّبية السَّاهرين للحراسة، وسألَ آريا عندما رآها متَّجهةً نحو الأشجار: «إلى أين أنت ذاهب؟»، ولمَّا أشارَت بحركةٍ مبهمة نحو الغابة، قال: «لا، لن تذهب». إنه أكثر جرأةً الآن وقد أصبح معه سيف في حزامه، وإن كان مجرَّد سيفٍ قصير يتعامل معه كأنه ساطور. «العجوز قال أن يبقى الجميع قريبين اللَّيلة».

- «أريدُ أن أقضي حاجتي».

أشارَ قائلًا: «حسن، استخدم تلك الشَّجرة هناك. إنك لا تدري ما الموجود في الغابة يا آري، لقد سمعتُ عُواء ذئاب منذ قليل».

لن يروق يورن أن تتشاجَر معه، فحاولَت أن تبدو خائفةً وهي تُرَدِّد: «ذئاب؟ حقًّا؟».

- «سمعتها بنفسي».

- «لا أظنُّ أني أريدُ أن أبول إذن». عادَت إلى دثارها وتظاهرَت بالنَّوم حتى سمعَت خطوات هوت پاي تبتعد، ثم إنها تدحرجَت وتسلَّلت بهدوء الظِّلال إلى الغابة على الجانب الآخَر من المخيَّم. كان هناك حَرس واقفون في هذه الجهة أيضًا، إلَّا أن آريا لم تجد صعوبةً في تحاشيهم، وعلى سبيل الحيطة ابتعدَت ضِعف المسافة المعتادة، وعندما تأكَّدت من عدم وجود أحدٍ في الجوار، أنزلَت سراويلها وقرفصَت لتقضي حاجتها.

كانت تُفرغ مثانتها وثيابها متشابكة حول كاحليها، عندما سمعَت الحفيف القادم من تحت الأشجار، فقالت لنفسها مذعورةً: هوت پاي، لقد تبعني. ثم إنها رأت العينين اللَّامعتين في ظلام الغابة وقد توهَّجتا بنور القمر المنعكس فيهما. انقبضَت معدتها تمامًا وهي تلتقط إبرتها غير عابئةٍ إن بالَت على نفسها، وبدأت تُحصي الأعيُن.

عينان، أربع، ثمان، اثنتا عشرة، قطيع كامل...

خرجَ أحدها من تحت الأشجار، وحدَّق فيها كاشفًا عن أسنانه، وكلُّ ما استطاعَت التَّفكير فيه أنها كانت غبيَّةً حقًّا، وكم سيتبجَّح هوت پاي عندما يجدون جثَّتها نِصف المأكولة في الصَّباح التَّالي. غير أن الذِّئب استدارَ وجرى غائبًا في الظَّلام، وسرعان ما غابَت بقيَّة الأعيُن بدورها. مرتجفةً، نظَّفت آريا نفسها وربطَت سراويلها، ثم اتَّبعت صوت الاحتكاك البعيد إلى المخيَّم وإلى يورن، وتسلَّقت العربة لتجلس إلى جواره وقد اهتزَّ كيانها، وغمغمَت بصوتٍ مبحوح: «ذئاب في الغابة».

قال دون أن يَنظر إليها: «نعم، لا بُدَّ من وجودها هناك».

- «لقد أخافَتني».

بصقَ وقال: «حقًّا؟ يبدو لي أن أمثالك مغرَمون بالذِّئاب».

احتضنَت آريا نفسها مجيبةً: «نايميريا كانت ذئبةً رهيبةً، نوع آخَر، ولقد ضاعَت على كلِّ حال. أخذتُ وچوري نقذفها بالحجارة حتى هربَت، وإلَّا

لكانت الملكة قتلَتها. أراهنُ أنها لو كانت في المدينة، لما تركَتهم يقطعون رأس أبي». أثارَ فيها الكلام شعورًا بالحُزن البالغ.

قال يورن: «الصِّبية الأيتام ليس لهم آباء، أم أنك نسيت؟». كان التَّبغ المُر قد صبغَ لُعابه بالأحمر، فبدا فمه كأنه ينزف. «النَّوع الوحيد من الذِّئاب الذي يَجدُر بنا أن نخافه هو الذي يرتدي جِلد البَشر، كمن نفَّذوا مذبحة تلك القرية».

قالت بأسى: «أتمنى لو أني في الدِّيار الآن». لقد حاولَت بكلِّ قوَّتها أن تكون شُجاعةً، أن تكون شرسةً كالوولفرين وما إلى ذلك، لكنها تَشعُر في أحيانٍ أنها مجرَّد فتاةٍ صغيرة رغم كلِّ شيء.

قطعَ الأخ الأسود ورقةً من حزمة التَّبغ المُر الموضوعة على العربة، وحشا بها فمه قائلًا: «لربما كان من الأفضل أن أتركك حيث وجدتك يا ولد، كلكم في الحقيقة، فالمدينة أكثر أمنًا على ما يبدو».

- «لا أبالي. أريدُ أن أعود إلى الدِّيار».

لمعَت الرَّغوة على فم يورن كفقاقيع من الدَّم وهو يقول: «ثلاثون سنةً قضيتها في المجيء بالرِّجال إلى «الجِدار»، وطول كلِّ تلك السِّنين فقدتُ ثلاثةً فقط، عجوزًا ماتَ بالحُمَّى، وفتى من المدينة لدغَه ثعبان وهو يتغوَّط، وأحمق حاولَ أن يَقتُلني في نومي، فنال ابتسامةً حمراء تقديرًا لمجهوده»، وسحبَ خنجره على عُنقه ليُريها ما يعنيه. «ربما كان من الحكمة أن نستقلَّ سفينةً. أي نعم لا توجد فُرصة للعثور على المزيد من الرِّجال خلال الطَّريق، لكن مع ذلك... سيُسافِر الرَّجل الذَّكي بالسَّفينة، لكن أنا... ثلاثون سنةً وأنا أسافرُ على طريق الملوك»، ودَسَّ خنجره في غمده وقال: «نَم يا ولد، هل تسمعني؟».

وحاولَت آريا أن تنام حقًّا، غير أنها ظلَّت تسمع الذِّئاب تعوي وقد تمدَّدت تحت غطائها الرَّقيق... وصوتًا آخَر خافتًا، ليس أكثر من همسةٍ في الرِّيح، لعلَّه كان صراخًا.

داڤوس

أفعمَ الدُّخان المتصاعد من حريق الآلهة هواء الصَّباح وخضَّبه بلونٍ قاتم. كانت النَّار مضطرمةً فيهم جميعًا الآن، «العذراء» و«الأم»، و«المُحارب» و«الحدَّاد»، و«العجوز» بعينيها اللُّؤلؤيَّتين، و«الأب» بلحيته المذهَّبة، وحتى «الغريب» المنحوت ليبدو حيوانًا أكثر منه إنسان. التهبَ الخشب الجافُّ القديم المغطَّى بطبقاتٍ لا تُحصى من الطِّلاء والورنيش بضوءٍ قويٍّ نَهِم، لتلفح الحرارة الهواء البارد لفحًا، ومن ورائهم بدَت الكراجِل والتَّنانين الحجريَّة على أسوار القلعة ضبابيَّةً مشوَّشةً، كأن داڤوس يتطلَّع إليها عبر حجابٍ من الدُّموع. أو كأن الحركة بدأت تدبُّ في تلك الوحوش...

- «شيء مذموم»، قال آلارد، وإن كان لديه من العقل ما حدا به لأن يخفض صوته، وتمتمَ دايل متَّفقًا معه.

قال داڤوس: «صمتًا، تذكَّرا أين أنتما». أبناؤه رجال صالحون حقًّا، لكن صغار، وآلارد بالذَّات معروف باندفاعه. لو بقيتُ مهرِّبًا، لانتهى الأمر بآلارد على «الجِدار»، لكن ستانيس عتقَه من ذلك المصير. شيء آخَر أدينُ له به...

مئات جاءوا إلى بوَّابات القلعة ليشهدوا احتراق «السَّبعة»، وفاحَت في الجوِّ رائحة قبيحة، وحتى الجنود وجدوا أن من الصَّعب أن يمنعوا أنفسهم من الشُّعور بالقلق والتطيُّر من تلك الإهانة الفادحة للآلهة التي عبدَها معظمهم طيلة حياته.

دارَت المرأة الحمراء حولِ النَّار ثلاثًا، مبتهلةً مرَّةً بلسان آشاي، ومرَّةً بالڤاليريَّة الفُصحى، وثالثةً باللُّغة العاميَّة (التي لا يعرف داڤوس غيرها)،

ورفعَت صوتها قائلةً: «أيا راهلور، تعالَ إلينا في ظُلمتنا. أيا إله الضِّياء، لك نُقَدِّم هذه الآلهة الزَّائفة، هؤلاء السَّبعة الذين هُم واحد، وهو العدوُّ، داعين أن تتقبَّلهم منا وتجعل نورك يسطع علينا، فاللَّيل حالكٌ ومفعمٌ بالأهوال».
ردَّدت الملكة سيليس الكلمات كالصَّدى، وإلى جوارها وقفَ ستانيس يتفرَّج بملامح جامدة، فَكُّه صُلب كالحجر تحت الظِّلِّ الأزرق الضَّارب إلى السَّواد، الذي تُلقيه لحيته المشذَّبة بعناية. كان متأنِّقًا على غير العادة، كأنه ذاهب إلى السِّپت.

سِپت دراجونستون هو المكان الذي ركعَ فيه إجون الفاتح ليُصَلِّي عشيَّة إبحاره إلى وستروس، وإن لم تُنقذ هذه الحقيقة المكان من رجال الملكة، الذين قلبوا كلَّ مذبحٍ وأسقَطوا كلَّ تمثالٍ وحطَّموا الزُّجاج الملوَّن بمَطارق الحرب. ساعتها وقفَ السِّپتون بار مكتوف اليدين ولم يستطِع إلَّا أن يلعنهم، لكن السير هوبارد رامبتون قادَ أبناءه الثَّلاثة إلى السِّپت ليُدافِعوا عن آلهتهم، ونجحوا في إسقاط أربعةٍ من رجال الملكة بالفعل قبل أن يتكاثَروا عليهم. بَعدها أخبرَ جانسر صنجلاس -أكثر اللوردات كياسةً وتقوى- ستانيس بأنه لم يَعُد يستطيع تأييده في دعواه، والآن يتقاسَم الرَّجل زنزانةً ضيِّقةً قائظةً مع السِّپتون وابني السير هوبارد اللذين ظلَّا على قيد الحياة؛ وهكذا استوعبَ بقيَّة اللوردات الدَّرس بلا إبطاء.

لم تعنِ الآلهة الكثير لداڤوس المهرِّب طيلة حياته، وإن كان معروفًا عنه أنه، كمعظم النَّاس، يُقَدِّم القرابين إلى «المُحارب» قبل المعركة، وإلى «الحدَّاد» عندما يُبحِر بسفينته، وإلى «الأم» عندما ينتفخ بطنِ زوجته بحملٍ جديد. شعرَ بالغثيان وهو يراهم يحترقون، وليس من جرَّاء الدُّخان فقط.

كان المِايستر كرسن يستطيع وضع حَدٍّ لهذا! لقد تحدَّى العجوز إله الضِّياء فأهلكَه نُكرانه، أو أن هذا ما يقوله النَّمَّامون لبعضهم بعضًا. غير أن داڤوس يعرف الحقيقة، فلقد رأى المِايستر يُسقِط شيئًا في كأس النَّبيذ التي أخذَها منه. سُم. ماذا عساه يكون سوى هذا؟ لقد شربَ كأسًا من الموت ليُحَرِّر ستانيس من مليساندرا، لكن إلهها حماها بشكلٍ ما. كان ليُسعِده أن يَقتُل المرأة الحمراء من أجل هذا، لكن ما فُرصته في النَّجاح حيثما أخفقَ

مِايستر من قلعة البلدة القديمة؟ إنه مجرَّد مهرِّب رُقِّيَ إلى مرتبةٍ عالية، داڤوس ابن «جُحر البراغيث»، فارس البصل.

ألقَت الآلهة المحترقة ضوءًا جميلًا وقد أحاطَت بها غلالات من اللَّهب الرَّاقص. كان السِّپتون بار قد قال لداڤوس ذات مرَّةٍ إنها منحوتة من صواري السُّفن التي حملَت باكورة من خرجوا من عائلة تارجاريَن من ڤاليريا، وعلى مَرِّ القرون طُلِيَت وأعيدَ طلاؤها ومُوِّهَت بالذَّهب والفضَّة وحُلِّيَت بالجواهر. «جمالها سيُضاعِف رضا راهلور»، قالت مليساندرا عندما أخبرَت ستانيس أن يُسقِط الآلهة ويَجُرَّها إلى خارج بوَّابات القلعة.

كانت «العذراء» منطرحةً بالعرض فوق «المحارب» بذراعين مفتوحتين عن آخِرهما كأنها تحتويه، وبدا كأن رعدةً تسري في جسد «الأم» وألسنة اللَّهب تلعق وجهها، وقد انغرسَ في قلبها سيف طويل دبَّت النَّار في مقبضه الجِلدي. كان «الأب» أول من سقطَ، وراقبَ داڤوس يد «الغريب» تتلوَّى وتتجعَّد إذ اسودَّت الأصابع وتساقطَت واحدًا تلو الآخَر، حتى لم يتبقَّ منها غير فحم متَّقد. على مسافةٍ قريبة كان اللورد سلتيجار يَسعُل بعُنفٍ ويُغَطِّي وجهه المُجعَّد بمنديلٍ كتَّاني مطرَّز بأشكال سراطين البحر الحمراء، بينما تبادلَ عرسان البحر الدُّعابات وهُم يستمتعون بدفء النِّيران، واكتسى وجه اللورد بار إمون الصَّغير بلونٍ رماديٍّ مبقَّع، أمَّا اللورد ڤيلاريون فكان يُسَدِّد نظراته نحو الملك وليس الحريق.

كان داڤوس ليدفع ثمنًا كبيرًا ليعرف ما يُفَكِّر فيه، لكن رجلًا مِثل ڤيلاريون لن يُفضي إليه بما يُكِنُّه أبدًا، فأصلُ سيِّد المَد والجَزر ينحدر من ڤاليريا القديمة، وحدثَ ثلاث مرَّاتٍ أن تزوَّجت نسوة من عائلته أمراء من عائلة تارجاريَن، بينما تفوح رائحة السَّمك والبصل من داڤوس سيوورث. ولا تختلف الحال في شيءٍ مع بقيَّة اللوردات، فهو لا يثق بأحدٍ منهم، وكذا لن يَضُمُّوه هُم إلى مجالسهم السرِّيَّة أبدًا، كما أنهم يحتقرون أبناءه كذلك ويسخرون منهم. لكن أحفادي سيُنازِلون أحفادهم في دورات المباريات، وقد يمتزج نسلهم بنسلي ذات يوم، ومع الوقت ستخفق رايتي ذات السَّفينة السَّوداء الصَّغيرة عاليًا كحصان بحر ڤيلاريون أو سراطين سلتيجار الحمراء.

هذا إذا فازَ ستانيس بعرشه، أمَّا إذا خسرَ...

كلُّ ما أنا عليه أدينُ به له. ستانيس هو من رقَّاه إلى الفروسيَّة، ومنحَه موضع شرفٍ على مائدته، وقادسًا حربيًّا يُبحِر به بدلًا من مركب التَّهريب الشِّراعي الصَّغير، كما أن كلًّا من دايل وآلارد يقود قادسًا بدوره، وماريك رئيس المجذفين على متن «الثَّورة»، وماثوس يُساعِده على متن «بِثا السَّوداء»، كما اتَّخذ الملك من دڤان مُرافِقًا ملكيًّا، وذات يوم سيُنَصَّب فارسًا، والولدان الصَّغيران كذلك. ماريا سيِّدة لحصنٍ صغير في «رأس الغضب»، ولديها خدم يُخاطِبونها بـ«سيِّدتي»، ويستطيع داڤوس أن يصطاد الظِّباء الحمراء في غابته الخاصَّة. كلُّ هذا ناله من ستانيس باراثيون مقابل بضعة مفاصل أصابع. كان عادلًا ما فعله معي، بَعدما هزأتُ بقوانين الملك طيلة حياتي. إنه يستحقُّ ولائي. تحسَّس داڤوس الجراب الصَّغير المعلَّق في شريطٍ جِلدي يُحيط بعُنقه. إن أصابعه بمثابة حَظِّه، وهو في حاجةٍ إلى الحَظِّ الآن. كما نحتاجه كلنا، لا سيَّما اللورد ستانيس.

ارتفعَت ألسنة اللَّهب الباهتة إلى السَّماء الغائمة، ومعها الدُّخان الدَّاكن يتلوَّى ويتمعَّج، تدفعه الرِّياح نحوهم فتَطرُف أعيُن الرِّجال وتسيل منها الدُّموع فيَفرُكونها. أشاحَ آلارد بوجهه وهو يَسعُل ويشتم، وفكَّر داڤوس: عيِّنة مما هو آتٍ. كثيرون سوف يحترقون قبل أن تضع هذه الحرب أوزارها.

اكتسَت مليساندرا بالحرير القرمزي والمخمل الدَّموي، عيناها حمراوان كالياقوتة الضَّخمة التي تتلألأ على رقبتها كأنها تشتعل نارًا بدورها. «في مخطوطات آشاي القديمة كُتِبَ عن يوم سيأتي بَعد صيفٍ طويل، عندما تنزف النُّجوم وتبسط ريح الظَّلام الباردةُ أجنحتها على العالم، وفي ساعة الخوف تلك سيسحب مُحارِبٌ سيفًا وهَّاجًا من قلب النَّار، وسيكون ذلك السَّيف «جالِب الضِّياء»، سيفَ الأبطال الأحمر، ومَن يحمله سيكون آزور آهاي العائد من جديد، ومنه سيفرُّ الظَّلام»، ورفعَت صوتها كي يَبلُغ مسامع المحتشدين وأنشدَت: «آزور آهاي، حبيب راهلور! ابن النَّار ومُحارِب النُّور! تقدَّم، فسيفك ينتظرك! تقدَّم وخُذه بيدك!».

تقدَّم ستانيس باراثيون بخطواتٍ واسعة كجنديٍّ يسير إلى المعركة، فأسرعَ

مُرافِقاه لمعاوَنته، وشاهدَ داڤوس ابنه دڤان يُثَبِّت قُفَّازًا مبطَّنًا طويلًا على يد الملك اليُمنى، وقد ارتدى الصبيُّ سُترةً صفراء باهتة خُيِّطَ على صدرها قلب ناري، وارتدى بايرن فارنج سُترةً مشابهةً وهو يربط حرملةً جِلديَّةً سميكةً حول عُنق جلالته. تناهى إلى مسامع داڤوس من الوراء رنين الأجراس وجلجلتها، وصوت ذي الوجه المرقَّع يُغَنِّي في مكانٍ ما: «تحت البحر يتصاعَد الدُّخان في فقاقيع، ويحترق اللَّهب بالأخضر والأزرق والأسود. أعرفُ، أعرفُ، أوه، أوه، أوه».

خطا الملك في النَّار ضاغطًا على أسنانه بقوَّة، وقد رفعَ الحرملة الجِلديَّة أمامه لتقيه من اللَّهب، واتَّجه صوب «الأم» مباشرةً، وأطبقَ على السَّيف بيده المغطَّاة بالقُفَّاز، وانتزعَه من الخشب المحترق بشَدَّةٍ قويَّةٍ واحدة، ثم إنه تراجعَ رافعًا السَّيف عاليًا واللَّهب الأخضر كاليَشب يدور كإعصارٍ حول الفولاذ الأحمر كالكرز. اندفعَ الحُرَّاس ليُخمِدوا الجمرات الصَّغيرة التي علقَت بثياب الملك، بينما هتفَت الملكة سيليس: «سيفٌ من نار!»، والتقط السير آكسل فلورنت وبقيَّة رجال الملكة منها الهتاف ليُرَدِّدوا: «سيفٌ من نار! يتوهَّج! يتوهَّج! سيفٌ من نار!».

رفعَت مليساندرا يديها فوق رأسها ونادَت: «أبصِروا! آيةً وُعِدنا وآيةً شهدنا! أبصِروا «جالِب الضِّياء»! قد عادَ آزور آهاي من جديد! فليهتف الجميع لمُحارِب النُّور! فليهتف الجميع لابن النَّار!».

ردَّدت موجة خشنة من الأصوات الهتاف، فيما بدأ قُفَّاز ستانيس يشتعل، فأطلق الملك سُبَّةً وغمسَ رأس السَّيف في التُّربة الرَّطبة وأخمدَ النَّار ضربًا على ساقه.

وصاحَت مليساندرا: «يا إلهنا، اجعل نورك يسطع علينا!».

- «فاللَّيل حالكٌ ومفعمٌ بالأهوال»، ردَّت سيليس ورجالها، وتساءلَ داڤوس في أعماقه وأصابعه المقصَّرة ترتعش: أينبغي أن أردِّد تلك الكلمات بدوري؟ هل أدينُ لستانيس بهذا القدر؟ أهذا الإله النَّاري إلهه بحق؟

خلعَ ستانيس قُفَّازه وتركه يَسقُط أرضًا. كان التعرُّف على الآلهة التي احتوَتها المحرقة شِبه مستحيل الآن، ، وسقطَ رأس «الحدَّاد» في سحابةٍ من

الجمر والرَّماد، بينما أنشدَت مليساندرا بلُغة آشاي، يرتفع صوتها وينخفض كأمواج البحر، وفَكَّ ستانيس حرملته الجِلديَّة التي احترقَ سطحها وأصغى صامتًا. مغروسًا في الأرض، كان «جالِب الضِّياء» لا يزال متَّقدًا بالأحمر، لكن اللَّهب الذي تعلَّق بالسَّيف بدأ يتضاءل وينطفئ.

مع انتهاء الأغنيَّة، لم يكن شيء قد تبقَّى من الآلهة غير قطع من الخشب المتفحِّم، ونفدَ صبر الملك أخيرًا، فأخذَ زوجته من مِرفقها واصطحبَها عائدًا إلى داخل دراجونستون، وتركَ «جالِب الضِّياء» في مكانه. تخلَّفت المرأة الحمراء وهلةً لتُراقِب داڤن وبايرن فارنج إذ ركعا ولفَّا السَّيف المحروق المسودَّ بحرملة الملك الجِلديَّة، وفكَّر داڤوس: سيف الأبطال الأحمر يبدو في حالةٍ يُرثى لها. تخلَّف عدد من اللوردات كذلك ليتكلَّموا بأصواتٍ هادئة وقد وقفوا عكس اتِّجاه الدُّخان، لكنهم لاذوا بالصَّمت عندما رأوا داڤوس يَنظُر صوبهم. إذا سقطَ ستانيس فسيُسقِطوني وراءه قبل أن يرتدَّ إليَّ طرفي. إنه لا يُعَدُّ من رجال الملكة، تلك المجموعة من الفُرسان الطَّموحين واللوردات صغار الشَّأن الذين وهَبوا أنفسهم لإله الضِّياء، ومن ثَمَّ نالوا تأييد ومحسوبيَّة الليدي -لا، الملكة، تذكَّر هذا- سيليس.

كان الحريق قد بدأ يخمد بالفعل مع رحيل مليساندرا والمُرافِقين بالسَّيف الثَّمين، وانضمَّ داڤوس وولداه إلى الحشد الذي يمضي نحو السَّاحل والسُّفن الرَّاسية، وقال وهو يمشي: «دڤان أبلى بلاءً حسنًا».

قال دايل: «نعم، حملَ القُفَّاز دون أن يُسقِطه».

هَزَّ آلارد رأسه وقال: «تلك الشَّارة على سُترته، القلب النَّاري، ماذا تكون؟ إن رمز عائلة باراثيون هو الوعل المتوَّج».

رَدَّ داڤوس: «اللورد يستطيع اختيار أكثر من شارة».

ابتسم دايل قائلًا: «مِثل سفينةٍ سوداء وبصلة يا أبي؟»

ركلَ آلارد حجرًا وقال: «فليأخذ «الآخَرون» بصلتنا... وذلك القلب النَّاري أيضًا. حرق «السَّبعة» شيء مذموم».

سأَله أبوه: «منذ متى هذا التديُّن؟ وما الذي يعرفه ابن مهرِّبٍ عن أفعال الآلهة؟».

- «أنا ابن فارس يا أبي. إذا كنت لا تتذكَّر، فلماذا ينبغي أن يفعلوا هُم؟».
- «ابن فارس لَكن لست فارسًا، ولن تُصبح واحدًا أبدًا إذا تدخَّلت فيما لا يخصُّك. ستانِيس ملكنا الشَّرعي، وليس لنا أَن نُشَكِّك فيما يفعله. إننا نُبحِر بسُفنه ونُطيع أوامره وهذا كلُّ شيء».

قال دايل: «بالنِّسبة لهذا يا أبي، فبراميل الماء التي أعطوني إياها من أجل «الطَّيف» لا تروقني. إنها مصنوعة من الصَّنوبر الأخضر، وسيتلف الماء خلال رحلةٍ من أيِّ طول».

قال آلارد: «حصلتُ على الشَّيء نفسه من أجل «الليدي ماريا». رجال الملكة وضعوا أيديهم على كلِّ الخشب المعالَج».

رَدَّ داڤوس: «سأكلِّمُ الملك في هذا الشَّأن». من الأفضل أن يأتي الكلام منه لا من آلارد، فأبناؤه مُحارِبون بارعون وبحَّارة أبرع، لكنهم لا يعرفون كيف يُخاطِبون اللوردات. كانوا وضيعي النَّسب مِثلما كنتُ، لكنهم لا يُحِبُّون تذكُّر ذلك. عندما يَنظُرون إلى رايتنا، فكلُّ ما يرونه هو سفينة سوداء طويلة تُحَلِّق في الرِّيح، ويُغمِضون أعيُنهم عن البصلة.

وجدَ داڤوس المرفأ يعجُّ بالرِّجال كما اعتادَه دائمًا، وازدحَمَ كلُّ مرسى بالبحَّارة الذين يُحَمِّلون المؤن، وكلُّ خانٍ بالجنود المنهمكين في لعب البلاطات أو الشُّرب أو البحث عن عاهرة... وهو بحث بلا طائلٍ على كلِّ حال، بما أن ستانيس حرَّم وجودهن على جزيرته تمامًا. كانت السُّفن مصطفَّةً بطول السَّاحل، قوادس حربيَّة ومراكب صيد، وقراقير ضخمة وأكواج كبيرة البطون، وقد خُصِّصَ أفضل المراسي لأكبر السُّفن، «الثَّورة» سفينة القيادة الخاصَّة بستانيس، التي تتأرجَح على سطح الماء بين «اللورد ستفون» و«وعل البحر»، وسفينة اللورد ڤيلاريون «فخر دريفتمارك» ذات البدن الفضِّي مع أخواتها الثَّلاث، و«المخلب الأحمر» سفينة اللورد سلتيجار بزخارفها وزينتها، و«سيَّاف البحار» الثَّقيلة ذات المقدِّمة الحديديَّة الطَّويلة، و«ڤاليريان» سفينة سالادور سان الضَّخمة التي ألقَت مِرساتها على مسافةٍ أبعد في البحر، وقد أحاطَت بها دستتان من القوادس اللايسينيَّة الأخرى الأصغر حجمًا بأبدانها المخطَّطة.

ثمَّة خان صغير متهالك يستقرُّ عند نهاية الرَّصيف الحجري، حيث تتقاسَم «بثا السَّوداء» و«الطَّيف» و«الليدي ماريا» مساحة الحوض مع نِصف دستةٍ أخرى من القوادس ذات المئة مجذاف أو أقل، وكان داڤوس يَشعُر بالظَّمأ، فألقى التحيَّة على ابنيه وانصرفَ في اتِّجاه الخان، الذي يجثم خارجه كرجلٌ بارتفاع الخصر ضربَته مياه المطر بلا هوادةٍ حتى تآكلَ وانطمسَت معالمه تمامًا. على أن داڤوس يعدُّه صديقًا قديمًا، وقد ربَّت على الرَّأس الحجري في طريقه إلى الدَّاخل متمتمًا: «للحَظ».

على الجانب الآخَر من القاعة العامَّة الصَّاخبة، جلسَ سالادور سان يأكل حبَّات العنب من وعاءٍ خشبي، وأشارَ لداڤوس بالاقتراب عندما لمحَه، وقال: «تعال واجلس معي أيها السير الفارس، كُل عنبةً، كُل اثنتين، إنه شديد الحلاوة حقًّا». كان اللايسيني رجلًا أنيق المظهر حاضر الابتسامة، بهرجته أشهر من نارٍ على علم على جانبي البحر الضيِّق، واليوم ارتدى ثوبًا برَّاقًا من قُماش الفضَّة، ذا كُمَّينِ واسعين مطرَّزين بالأشكال الزُّخرفيَّة، طويلين لدرجة أن طرفيهما انسدلا وتكوَّما على الأرض، أمَّا الأزرار فمنقوشة على شكل قرودٍ من حجر اليَشب، بينما استقرَّت على خصلات شَعره البيضاء النَّاعمة قبَّعة خضراء أنيقة مزيَّنة بمروحةٍ من ريش الطَّاووس.

شَقَّ داڤوس طريقه بين الطاولات إلى كرسي. في العهد السَّابق لفروسيَّته اعتادَ شراء البضائع من سالادور سان، فاللايسيني مهرِّب كذلك، بالإضافة إلى كونه تاجرًا ومصرفيًّا وقُرصانًا شهيرًا، علاوةً على لقب أمير البحر الضيِّق الذي أطلقَه على نفسه. يجعلون من القُرصان أميرًا عندما يغتني بما فيه الكفاية. كان داڤوس هو من قامَ بالرِّحلة إلى لِيس لضَمِّ الشَّقي القديم إلى دعوى اللورد ستانيس.

سألَه داڤوس: «ألم تتفرَّج على حرق الآلهة يا سيِّدي؟».

- «الرُّهبان الحُمر لديهم معبد عظيم في لِيس، وطيلة الوقت يحرقون هذا وذاك ويهتفون لإلههم راهلور. إنهم يُضجِرونني بحرائقهم تلك، وقريبًا سيَشعُر الملك ستانيس بضجرٍ مماثلٍ منهم كما أتمنَّى». بدا غير مكترثٍ إطلاقًا بأن يسمعه أحد، وأخذَ يأكل عنبه لافظًا البذور على شفتيه، قبل أن

يَنقُفها بعيدًا بإصبعه. «سفينتي «الطَّائر ذو الألف لون» عادَت بالأمس يا سيِّدي العزيز. إنها ليست سفينةً حربيَّة، لا، بل تجاريَّة، وقد توقَّفت في طريقها في كينجز لاندنج. متأكِّد من أنك لا تُريد عنبةً؟ يُقال إن المدينة ملأى بالأطفال الجياع»، ودلَّى عنقود العنب أمام وجه داڤوس وابتسمَ.

- «ما أريده هو القليل من المِزر[1]، وما لديك من أنباء».

قال سالادور سان متذمِّرًا: «متعجِّلون أنتم دائمًا يا أهلِ وستروس، لكن قُل لي ما فائدة العجلة؟ من يستعجل في الحياة يستعجل الذَّهاب إلى القبر»، وتجشَّأ ثم أضافَ: «سيِّد كاسترلي روك أرسلَ ابنه القزم ليتولَّى شؤون كينجز لاندنج. لعلَّه يأمل أن يُخيف وجهه القبيح المهاجِمين، هه؟ ومَن يدري؟ ربما يقصد أن نموت ضحكًا عندما يَخرُج العِفريت إلى الشُّرفات. لقد طردَ القزم ذلك الجلف الذي كان يقود ذوي المعاطف الذَّهبيَّة، وعيَّن فارسًا ذا يدٍ حديديَّة بدلًا منه»، والتقطَ حبَّةً من العنب واعتصرَها بين سبَّابته وإبهامه، إلى أن انفجرَت قشرتها وسالَ عصيرها بين أصابعه.

دفعَت واحدة من السَّاقيات نفسها وسط الزِّحام وهي تذبُّ الأيدي التي امتدَّت لتتحسَّس جسدها، وطلبَ منها داڤوس دورقًا من المِزر، ثم التفتَ إلى سان قائلًا: «حدِّثني عن دفاعات المدينة».

هَزَّ القُرصان كتفيه مجيبًا: «الأسوار عالية وقويَّة، لكن أين الجُند الذين سيحمونها؟ أوه، صحيحٌ أنهم يبنون العرَّادات ونافثات اللَّهب، لكن الرِّجال ذوي المعاطف الذَّهبيَّة قليلو العدد والخبرة للغاية، وليس هناك غيرهم. ضربة خاطفة كما ينقضُّ الصَّقر على الأرنب البرِّي من عَلٍ وتكون المدينة العظيمة لنا. أعطنا ريحًا تَنفُخ أشرعتنا وسيجلس ملكك على عرشه الحديدي مساء غد. يُمكننا أن نُلبِس القزم ثياب المهرِّجين ونَخِزَ فلقتي مؤخِّرته برؤوس رماحنا لنجعله يَرقُص لنا، ولربما يهديني ملكك الكريم الملكة سرسي لتُدَفِّئ فِراشي ليلةً، فقد قضيتُ وقتًا طويلًا جدًّا بعيدًا عن زوجاتي في خدمته بالفعل».

---

(1) المِزر نوع من البيرة يستغرِق فترةً أقصر حتى يختمر، ومذاقه غير مُر.

- «ليس لديك أيُّ زوجات أيها القُرصان، بل محظيَّات فقط، ولقد تقاضَيت ثمنًا عادلًا مقابل كلِّ يوم وكلِّ سفينة».

قال سالادور سان بأسف: «تقاضَيته وعودًا فقط، لكن ما أشتهيه هو الذَّهب يا سيِّدي العزيز، وليس حبرًا على ورق»، وألقى عنبةً في فمه.

- «ستَحصُل على ذهبك حين نستولي على الخزانة في كينجز لاندنج. لا أحد في الممالك السَّبع كلها أشرف من ستانيس باراثيون، وسيَفي بوعده».

كان لسان داڤوس يتكلَّم بينما يقول عقله: يا له من عالمٍ مشوَّه لا أمل فيه عندما يكون المهرِّبون الصَّعاليك ضامنين للملوك.

- «هذا ما قاله مرارًا وتكرارًا، وأقولُ أنا أن نتحرَّك. المدينة ناضجة تمامًا الآن يا صديقي القديم، أكثر من هذا العنب نفسه».

عادَت السَّاقية بالمِزر، وأعطاها داڤوس عُملةً نُحاسيَّة، ثم قال لسالادور وهو يرفع الدَّورق إلى فمه: «قد نستطيع الاستيلاء على كينجز لاندنج كما تقول، لكن كم من الوقت سنتمكَّن من الحفاظ عليها؟ من المعروف أن تايوين لانستر في هارنهال ومعه جيش كبير، واللورد رنلي...».

- «آه، نعم، الأخ الأصغر. هذا هو الجزء السيِّئ يا صديقي، فالملك رنلي يتحرَّك. لا، إنه اللورد وليس الملك هنا، معذرةً. هناك ملوك أكثر من اللَّازم، حتى إن فمي تعبَ من الكلمة. الأخ رنلي غادرَ هايجاردن مع ملكته الشَّابَّة الجميلة ولورداته المزيَّنين بالزُّهور وفُرسانه بدروعهم اللَّامعة، بالإضافة إلى عددٍ ضخم من المُشاة، ويزحف الآن على طريقكم الوردي نحو المدينة العظيمة نفسها التي نتكلَّم عنها».

- «أخذَ عروسه معه؟».

هَزَّ سالادور كتفيه وقال: «لم يُخبرني بالسَّبب. لعلَّه كارهٌ للافتراق عن ذلك الخندق الدَّافئ بين فخذيها ولو ليَلةً، أو لعلَّه موقن من النَّصر».

- «يجب إبلاغ الملك».

- «تولَّيتُ هذا بالفعل يا سيِّدي العزيز، وإن كانت ملامح جلالته تكفهرُّ متى رآني، لدرجةٍ تجعلني أرتجفُ وأنا ماثل أمامه. هل تعتقد أنه سيُحِبُّني أكثر إذا ارتديتُ قميصًا من الشَّعر ولم أبتسم أبدًا؟ طيِّب، هذا شيء لن أفعله.

أنا رجل صادق، وعليه أن يتحمَّل ارتدائي الحرير والسَّميت[1]، وإلَّا فيُمكنني أن آخذ سُفني إلى مكانٍ آخَر يُحِبُّونني فيه أكثر. ذلك السَّيف ليس «جالِب الضِّياء» يا صديقي».

أصابَ تغيير الموضوع المفاجئ داڤوس بالانزعاج، فردَّد: «السَّيف؟».

- «السَّيف المنتزَع من النَّار، نعم. إنها ابتسامتي السَّارَّة هذه، تجعل الناس يحكون لي أشياء. كيف سينفع سيف محروق ستانيس؟».

رَدَّ داڤوس مصحِّحًا: «سيف متوهِّج».

قال سالادور سان: «بل محروق، ولتفرح لهذا يا صديقي. هل تعلم كيف صُنِعَ «جالِب الضِّياء»؟ سأحكي لك الحكاية. كان ذلك في زمنٍ حَلَّ فيه الظَّلام بكلِّ وطأته على العالم، وليُواجِهه البطل، كان عليه أن يحوز سيفًا يليق ببطل، أوه، سيفًا لم يشهد العالم له مثيلًا. وهكذا، طيلة ثلاثين يومًا وثلاثين ليلةً، ظَلَّ آزور آهاي يكدح في المعبد دون أن يذوق النَّوم، ليُطَرِّق السَّيف في النَّار المقدَّسة، يُسَخِّن ويدقُّ ويطوي، يُسَخِّن ويدقُّ ويطوي، أوه، نعم، إلى أن انتهى السَّيف، لكن عندما غمسَه في الماء ليُلَطِّف حرارة الفولاذ، انفلقَ السَّيف إلى ألف شظية. ولأنه بطل، فطبعًا لم يكن سينسى الأمر برمَّته، ويذهب ليبحث عن عنبٍ رائعٍ مِثل هذا، وعليه بدأ من جديد. استغرقَت منه المحاوَلة الثَّانية خمسين يومًا وخمسين ليلةً، وبدا هذا السَّيف أفضل من سابقه بكثير. اصطادَ آزور آهاي أسدًا ليُلَطِّف حرارة السَّيف بغمسه في قلب الوحش الأحمر، لكن مرَّةً أخرى تهشَّم الفولاذ وتشظَّى. عظيمًا كان ألمه وعظيمًا كان حُزنه ساعتها، إذ أدركَ ما ينبغي عليه أن يفعله، وعلى السَّيف الثَّالث كَدَّ مئة يوم ومئة ليلة، ولمَّا تأجَّج والتهبَ في النَّار المقدَّسة، استدعى آزور آهاي زوجته. ناداها باسمها، نيسا نيسا، وقال لها: اكشفي صدرِك، واعلمي أني أحبُّكِ أكثر من كلِّ شيءٍ آخَر في هذه الدُّنيا، وفعلَت هي كما قال، ولا أدري لِمَ، فأغمدَ آزور آهاي السَّيف الدَّاخن في قلبها الحي. يُقال إن صرخة الألم والنَّشوة التي أطلقَتها خلَّفت صدعًا على وجه القمر، لكن دماءها وروحها

---

(1) السَّميت نسيج حريري شديد الفخامة مضلَّع الحبكة.

وقوَّتها وشَجاعتها كلها أصبحَت جزءًا من فولاذ السَّيف. هذه هي حكاية صوْغ «جالِب الضِّياء»، سيف الأبطال الأحمر. هل تفهم ما أعنيه الآن؟ يجب أن تفرح لأن جلالته سحبَ مجرَّد سيفٍ محروق من النَّار، فالضَّوء الأكثر من اللَّازم يُؤذي الأعيُن يا صديقي، والنَّار تُحرِق». التهمَ سالادور سان عنبته الأخيرة وتلمَّظ، ثم قال: «متى تحسب أن الملك سيدعونا للإبحار يا سيِّدي العزيز؟».

أجابَ داڤوس: «قريبًا على ما أعتقدُ، إذا شاءَ إلهه».

- «إلهه يا صديقي السير وليس إلهك؟ أين إله السير داڤوس سيوورث، فارس سفينة البصلة؟».

رشفَ داڤوس من المِزر ليُعطي نفسه مهلةً للتَّفكير، وذكَّر نفسه: الخان مزدحم، وأنت لست سالادور سان. توخَّى الحذر في إجابتك. «الملك ستانيس هو إلهي، هو من صنعَني وبارَكني بثقته».

نهضَ سالادور سان قائلًا: «سأتذكَّرُ هذا. أستأذنُ بالانصراف، فهذا العنب أصابَني بالجوع، وطعامي ينتظرني على متن سفينتي «ڤاليريان»، ضأن مفروم بالفلفل ونوارس مشويَّة محشوَّة بالفطر والبصل والشَّمار. قريبًا سنأكل في كينجز لاندنج معًا، أليس كذلك؟ سنقيم وليمةً في القلعة الحمراء بينما يُغَنِّي القزم لنا لحنًا مرحًا. عندما ترى الملك ستانيس، أرجو أن تَذكُر له أنه سيدين لي بثلاثين ألف تنِّين ذهبي أخرى مع غياب القمر. كان حريًّا به أن يُعطيني تلك الآلهة. كانت أجمل من أن تُحرَق، ولربما جلبَت ثمنًا ممتازًا في پنتوس أو مير. على كلِّ حال، سأسامحه إذا أعطاني الملكة سرسي ليلةً»، وربَّت اللايسيني على كتف داڤوس، وخرجَ من الخان بخطواتٍ مختالة كأنه يملكه.

ظَلَّ السير داڤوس سيوورث مع شرابه فترةً وقد انشغلَ باله. منذ عام واحد كان مع ستانيس في كينجز لاندنج، عندما أقامَ الملك روبرت دورة مباريات احتفالًا بيوم ميلاد الأمير چوفري. تذكَّر الرَّاهب الأحمر ثوروس المايري والسَّيف النَّاري الذي حمله أثناء الالتحام الجماعي، وكيف قدَّم الرَّجل يومها عرضًا شائقًا مفعمًا بالألوان، بثوبه الأحمر الذي أخذَ يخفق في الهواء، واللَّهب الأخضر الباهت الذي تلوَّى حول سيفه، لكن الجميع كانوا يعلمون

أن لا سِحر في الأمر، وفي النِّهاية خمدَ اللَّهب وتلقَّى مُشعله ضربةً قاصمةً على الرَّأس من هرَّاوة يون رويس البرونزي التَّقليديَّة.

سيف ناري حقيقي سيكون أعجوبةً للنَّاظرين، لكن الثَّمن... عندما فكَّر في نيسا نيسا كانت صورة زوجته ماريا هي ما احتلَّ خياله، المرأة الطيِّبة السَّمينة ذات الثَّديين المتهدِّلين والابتسامة السَّمحة، أفضل امرأةٍ في العالم. حاولَ أن يتخيَّل نفسه وهو يُغمِد سيفًا في قلبها، فسرَت في جسده رعدة، وقال لنفسه بحسم: لستُ مصنوعًا من خام الأبطال. إذا كان ذلك ثمنًا لسيفٍ سحري، فهو ثمن أكبر مما يستطيع أن يدفع.

أنهى داڤوس المِزر وأزاحَ الدَّورق وغادرَ الخان، وفي الطَّريق إلى الخارج ربَّت على رأس الكرجل وتمتمَ: «للحَظ». جميعهم في حاجةٍ إليه الآن.

كان الظَّلام قد خيَّم بالكامل عندما جاءَ دڤان إلى «بِثا السَّوداء» ساحبًا حصانًا صغيرًا أبيض اللَّون كالثَّلج، وقال: «جلالته يأمرك بالانضمام إليه في قاعة المائدة المرسومة يا والدي. عليك أن تركب هذا الحصان وتأتي في الحال».

سرَّه أن يرى دڤان وقد بدا بهيًّا في ثياب المُرافِق الملكي، وإن أصابَه الاستدعاء بالقلق. هل سيدعونا للإبحار؟ سالادور سان ليس الرُّبَّان الوحيد الذي يرى أن كينجز لاندنج ناضجة للهجوم، لكن على المهرِّب أن يتعلَّم الصَّبر. ليس لدينا أمل في النَّصر. هذا ما قُلته للمِايستر كرسن يوم عدتُ إلى دراجونستون، ولم يتغيَّرَ شيء منذ ذلك الحين. عددنا قليل للغاية وأعداؤنا كُثر للغاية، فإذا غمَسنا مجاذيفنا في الماء سنموت. على أنه امتطى الحصان رغم هذه الخواطر، وعندما وصلَ إلى «الطَّبلة الحجريَّة» وجدَ دستةً من الفُرسان كريمي النَّسب واللوردات الكبار يُغادِرون، وحيَّاه كلٌّ من اللوردين سلتيجار وڤيلاريون بهزَّة رأس مقتضبة وواصَلا طريقهما، بينما تجاهَله الآخَرون بالكامل، لكن السير أكسل فلورنت توقَّف ليتبادَل معه كلمةً.

كان عمُّ الملكة رجلًا ضخم الجثَّة سميك الذِّراعين وذا ساقين مقوَّستين، لديه الأُذنان البارزتان المميِّزتان لعائلة فلورنت، وإن كانتا أكبر من أُذني بنت أخيه، ولا يمنعه الشَّعر الخشن الذي يَنبُت منهما من سماع أغلب ما يدور في

القلعة. خدمَ السير آكسل كأمينٍ لدراجونستون طيلة عشرة أعوام بينما شاركَ ستانيس في مجلس روبرت في كينجز لاندنج، لكن مؤخَّرًا سطعَ نجمه كأبرز رجال الملكة. «سير داڤوس، رؤيتك تُسعِدني كالمعتاد».

- «وأنت أيضًا يا سيِّدي».

- «لقد لاحظتك هذا الصَّباح بدوري. الآلهة الزَّائفة احترقَت بضوءٍ مبهج، أليس كذلك؟».

- «كان حريقها ساطعًا بالفعل». لا يثق داڤوس بهذا الرَّجل على الرغم من كياسته، فقد أعلنَت عائلة فلورنت تأييدها لرنلي.

- «تقول لنا الليدي مليساندرا إن راهلور يُتيح أحيانًا لعباده المخلصين أن يُبصِروا المستقبَل في اللَّهب. هذا الصَّباح بدا لي وأنا أشاهدُ الحريق أني أتطلَّعُ إلى دستةٍ من الرَّاقصات الجميلات، صبايا يلبسن الحرير الأصفر ويَدُرن ويتمايَلن أمام ملكٍ عظيم. أظنُّها رؤيا حقيقيَّة يا سيِّدي، لمحةً من المجد الذي ينتظر جلالته بَعدما نأخذ كينجز لاندنج وعرشه الشَّرعي».

لم يكن الرَّقص شيئًا يتذوَّقه ستانيس قَطُّ، فكَّر داڤوس، لكنه لم يجرؤ على أن يُضايِق عَمَّ الملكة، فقال: «لم أرَ سوى النَّار، لكن الدُّخان أدمعَ عينيَّ. أستأذنك بالانصراف يا سيِّدي، فالملك ينتظرني»، وواصلَ طريقه متسائلًا عمَّا جعلَ السير آكسل يحمل نفسه على هذه المحادَثة أصلًا. إنه رجل الملكة، وأنا رجل الملك.

كان ستانيس جالسًا إلى مائدته المرسومة، والمِايستر پايلوس يقف وراء كتفه، وأمامهما كومة غير مرتَّبة من الأوراق. قال الملك عندما دخلَ داڤوس: «أيها الفارس، تعالَ وألقِ نظرةً على هذه الرِّسالة».

بطاعةٍ اختارَ ورقةً عشوائيًّا، وقال: «تبدو جيِّدةً كفايةً يا جلالة الملك، لكن أخشى أني لا أستطيعُ قراءة الكلام». يستطيع داڤوس تمييز مفاتيح الخرائط والرُّسوم التَّخطيطيَّة ككلِّ مَن عداه، إنما الرَّسائل وغيرها من الكتابات فتقع خارج نطاق قُدراته. لكن ابني دڤان تعلَّم القراءة والكتابة، وستفون وستانيس الصَّغير ان كذلك.

زوَّى الملك ما بين حاجبيه، وقال بضِيق: «نسيتُ. پايلوس، اقرأها له».

- «جلالة الملك»، قال المِايستر، ثم التقطَ واحدًا من الرَّقوق وتنحنحَ وشرعَ يقرأ: «يعرفني كلُّ النَّاس باعتباري الابن الشَّرعي لستفون باراثيون، سيِّد ستورمز إند، من السيِّدة زوجته كاسانا سليلة عائلة إسترمونت، وعليه أعلنُ مستشهدًا بشَرف عائلتي أن ملكنا الرَّاحل، أخي الحبيب روبرت، لم يتْرُكْ ذُرِّيَّةً شَرعيَّةً من صُلبه، ما يجعل الصَّبي چوفري والصَّبي تومن والبنت مارسلا مسوخًا مولودةً من سفاح القُربى بين سرسي لانستر وأخيها چايمي قاتِل الملك. بحقِّ النَّسب والدَّم، أطرحُ اليوم دعوى استحقاقي عرش ممالك وستروس السَّبع الحديدي، وليُعلِن كلُّ المخلصين ولاءهم. تَمَّ في نور الإله، ممهورًا بتوقيع وخَتم ستانيس الأول سليل عائلة باراثيون، ملك الأنداليِّين والروينار والبَشر الأوائل، وسيِّد الممالك السَّبع».

أصدرَ الرَّق حفيفًا خافتًا وپايلوس يضعه على المائدة، وقال ستانيس مقطِّبًا: «اجعلها السير چايمي قاتِل الملك من الآن فصاعدًا. أيًّا كان عدا ذلك، فالرَّجل يظلُّ فارسًا. ولا أدري إن كان علينا أن ندعو روبرت بأخي الحبيب. إنه لم يُحِبَّني أكثر مما أجبرَه الواجب، وأنا كذلك».

قال پايلوس: «مجرَّد مجامَلة غير مؤذية يا جلالة الملك».

قال ستانيس بلهجةٍ قاطعة: «كذبة. احذفها»، ثم التفتَ مخاطبًا داڤوس: «المِايستر يقول لي إن في حوزتنا مئة وسبعة عشر غُدافًا، وأنوي أن أرسلها كلها. مئة وسبعة عشر غُدافًا ستحمل مئة وسبع عشرة نُسخةً من رسالتي إلى كلِّ ركنٍ من البلاد، من «الكرمة» إلى «الجِدار». قد تنجو مئة منها من العواصف والجوارح والسِّهام، أي أن مئة مِايستر سيقرأون الرَّسائل على عددٍ مماثلٍ من النَّاس في عددٍ مماثلٍ من غُرف العمل والنَّوم... ثم ستُلقى في النَّار غالبًا، وتتعهَّد الشِّفاه بالصَّمت. أولئك اللوردات الكبار يُحِبُّون چوفري، ورنلي، وروب ستارك. أنا ملكهم الشَّرعي، لكنهم سيُنكِرونني إذا استطاعوا، ولهذا أحتاجك».

- «أنا رهن إشارتك دائمًا وأبدًا يا مليكي».

أومأ ستانيس برأسه، وقال: «أريدك أن تُبحِر بـ«بِثا السَّوداء» شَمالًا، إلى بلدة النَّوارس و«الأصابع» و«الأخوات الثَّلاث»، وحتى الميناء الأبيض.

سيذهب ابنك دايل جَنوبًا على متن «الطَّيف»، مرورًا بـ«رأس الغضب» و«الذِّراع المكسورة»، وبطول ساحِل دورن حتى «الكرمة». سيحمل كلٌّ منكما صندوقًا من الرَّسائل، وستُسَلِّمان واحدةً في كلِّ ميناء ومعقل وقرية صيد. علِّقوها على أبواب السِّپتات والخانات ليقرأها كلُّ من يستطيع».

قال داڤوس: «هؤلاء قِلَّة».

عقَّب المايستر پايلوس: «السير داڤوس على حقٍّ يا جلالة الملك. من الأفضل أن تُقرأ الرَّسائل جهارًا».

قال ستانيس: «أفضل لكن أخطر. هذه الكلمات لن تُستَقبَل بأريحية».

قال داڤوس: «أعطِني فُرسانًا يقرأون الرَّسائل. سيُضفي هذا على كلامهم ثقلًا أكثر مني بكثير».

بدا الرِّضا على ستانيس، وقال: «يُمكنني أن أعطيك هؤلاء الرِّجال، نعم، فلديَّ مئة فارس يُؤثِرون القراءة على القتال. توخَّ العلانية أينما استطعت والسرِّيَّة أينما انبغى، واستخدم كلَّ حيل المهرِّبين التي تعرفها، الأشرعة السَّوداء والكهوف الخفيَّة، أيَّ شيءٍ يتطلَّبه الأمر. إذا نقصَ ما معك من رسائلٍ، اقبض على بعض السِّپتونات واجعلهم ينسخون المزيد. سوف أستغلُّ ابنك الثَّاني كذلك، سيأخذ «الليدي ماريا» عبر البحرِ الضيِّق إلى براڤوس وبقيَّة المُدن الحُرَّة، لتوصيل رسائل أخرى لمن يَحكُمون هناك. سيعرف العالم كله بدعواي وعار سرسي».

يُمكنك أن تُخبرهم، لكن هل سيُصَدِّقون؟ رمقَ داڤوس المِايستر پايلوس بنظرةٍ موحية استوعبَها الملك، فقال: «ربما يَجدُر بك أن تشرع في الكتابة الآن أيها المِايستر. سنحتاج عددًا ضخمًا من الرَّسائل، وقريبًا».

قال پايلوس: «كما تأمر»، وانحنى وانصرفَ من المكان.

انتظرَ الملك حتى غادرَ، قبل أن يقول: «ماذا لديك ولا ترغب في قوله في حضور مِايستري يا داڤوس؟».

- «مولاي، پايلوس رجل طيِّب، لكني لا أستطيعُ النَّظر إلى سلسلته دون أن أندب المِايستر كرسن».

قال ستانيس: «أهي غلطته أن العجوز ماتَ؟»، ونظرَ في النَّار مضيفًا:

«لم أرغب في وجود كرسن في تلك المأدبة. صحيحٌ أنه أغضبَني وأسداني نصيحةً سيِّئةً، لكني لم أرده أن يموت. كنتُ آملُ أن يعيش بضع سنين أخرى من الرَّاحة والطُّمأنينة، فقد استحقَّ هذا على الأقل، لكن...»، وضغطَ أسنانه معًا وأكملَ: «... لكنه ماتَ، وپايلوس يخدمني باقتدار».

- «پايلوس أهون ما في الأمر. الرِّسالة... تُرى ماذا كان رأي لورداتك فيها؟».

قال ستانيس ساخرًا: «سلتيجار أعلنَ أنها مثيرة للإعجاب. لو أرَيته محتويات مرحاضي لأعلنَ أنها مثيرة للإعجاب أيضًا. الآخَرون هزُّوا رؤوسهم إلى أعلى وأسفل كسربٍ من الإوز، باستثناء ڤيلاريون الذي قال إن الفولاذ هو ما سيحسم الأمر وليس كلمات على رَق، كأني لم أكن أعي هذا. فليأخذ «الآخَرون» لورداتي. أريدُ أن أسمع وجهة نظرك أنت».

- «كلامك غليظ وقوي».

- «وسليم».

- «وسليم، لكنك لا تملك دليلًا عليه، على مسألة سفاح القُربى، تمامًا كما لم تملكه منذ عام كامل».

- «ثمَّة دليل من نَوعٍ ما في ستورمز إند، ابن روبرت غير الشَّرعي الذي جاءَ إلى الحياة بسبب ما فعله أبوه ليلة زفافي، على الفِراش الذي أعدُّوه لي ولعروسي. كانت ديلينا من عائلة فلورنت، وعذراء عندما أخذَها روبرت، فاعترفَ بالطِّفل. اسمه إدريك ستورم، ويُقال إنه صورة طِبق الأصل من أخي. إذا رآه النَّاس ثم تطلَّعوا إلى چوفري وتومن ثانيةً، فأعتقدُ أن التَّساؤلات لا بُدَّ ستُخالِجهم».

- «لكن كيف يراه النَّاس وهو في ستورمز إند؟».

نقرَ ستانيس على المائدة المرسومة بأصابعه قائلًا: «إنه عائق، واحد من عوائق كثيرة»، ثم رفعَ عينيه وقال: «لديك المزيد لتقوله عن الرِّسالة. تكلَّم إذن، فلم أجعلك فارسًا كي تتعلَّم إلقاء المجامَلات الفارغة، يكفيني لورداتي. قُل ما لديك يا داڤوس».

حنى داڤوس رأسه، وقال: «هناك عبارة في النِّهاية، ماذا كانت؟ تَمَّ في نور الإله...».

رَدَّ الملك وقد أطبقَ فكَّيه: «نعم».

- «سيَنفُر شعبك من هذه الكلمات».

سأله ستانيس بحدَّة: «كما نفرتَ؟».

- «بدلًا من هذا يُمكنك أن تقول: تَمَّ على مرأى من الآلهة والبَشر، أو بنعمة الآلهة القديمة والجديدة...».

- «هل تديَّنت فجأةً أم ماذا أيها المهرِّب؟».

- «كنتُ سألقي عليك السُّؤال ذاته يا مولاي».

- «حقًّا؟ لأنه يبدو لي أنك لا تحبُّ إلهي الجديد أكثر من مِايستري الجديد».

- «أنا لا أعرفُ إله الضِّياء هذا، لكني كنتُ أعرفُ الآلهة التي أُحرِقَت هذا الصَّباح. «الحدَّاد» حافظَ على سلامة سُفني، بينما أعطَتني «الأم» سبعة أبناء أقوياء».

- «زوجتك أعطَتك سبعة أبناء أقوياء، فهل تُصَلِّي لها؟ ما أحرَقناه هذا الصَّباح كان خشبًا».

- «قد يكون هذا صحيحًا، لكني عندما كنتُ صبيًّا في «جُحر البراغيث»، أتسوَّلُ العُملات النُّحاسيَّة، كان السِّپتونات يُطعِمونني أحيانًا».

- «أنا من يُطعِمك الآن».

- «لقد خلعت عليَّ مكان شرفٍ على مائدتك، وفي المقابل أعطيك الحقيقة. شعبك لن يُحِبَّك إذا أخذت منه الآلهة التي عبدَها طيلة حياته، وأعطيتهم إلهًا اسمه نفسه غريب على ألسنتهم».

نهضَ ستانيس بحركةٍ حادَّةٍ قائلًا: «راهلور. ما الصَّعب في الاسم؟ تقول إنهم لن يُحِبُّونني؟ ومتى أحبُّوني؟ كيف أفقدُ شيئًا لم أمتلكه قَطُّ؟»، وتحرَّك نحو النَّافذة الجَنوبيَّة ليتطلَّع إلى البحر المُضاء بنور القمر، وواصلَ: «لقد كففتُ عن الإيمان بالآلهة يوم رأيتُ «الرِّيح الفخور» تتهشَّم عبر الخليج، وأقسمتُ أن أيَّ آلهةٍ تتوحَّش حتى تُغرِق أمِّي وأبي لن تعرف عبادةً مني أبدًا.

في كينجز لاندنج كان السِّبتون الأعلى يُصَدِّع دماغي بكلامٍ عن أن العدل والخير كلهما ينبعان من «السَّبعة»، لكن كلَّ ما رأيته من عدلٍ وخيرٍ كان من صُنع البَشر فقط».

- «إذا كنت لا تُؤمن بالآلهة...».

- «... فلماذا أزعجُ نفسي بهذا الإله الجديد؟ لقد طرحتُ هذا السُّؤال على نفسي. إن معرفتي بالآلهة قليلة واكتراثي بها أقلُّ، لكن الرَّاهبة الحمراء تتمتَّع بالقوَّة».

نعم، لكن أيُّ نوعٍ من القوَّة؟ «كرسن كان يتمتَّع بالحكمة».

- «لقد وثقتُ بحكمته وحيلك، فبِمَ نفعَني هذا أيها المهرِّب؟ أعادَك لوردات أراضي العواصف تجرُّ أذيال الخيبة. ذهبتُ إليهم شحَّاذًا وضحكوا مني. طيِّب، لا مزيد من الشِّحاذة ولا مزيد من الضَّحك. العرش الحديدي حقِّي شرعًا، فكيف آخذه؟ هناك أربعة ملوكٍ في البلاد، وثلاثة منهم لديهم رجال وذهب أكثر مني، وأنا لديَّ السُّفن... ولديَّ هي، المرأة الحمراء. أتعرف أن نِصف فُرساني يخافون مجرَّد النُّطق باسمها؟ حتى إذا كانت لا تستطيع أن تفعل شيئًا آخَر، فلا ينبغي الاستخفاف بساحرةٍ تُلقي كلَّ هذا الخوف في قلوب رجالٍ ناضجين. الرَّجل الخائف رجل مهزوم. ثم إنني أنوي أن أتبيَّن إن كانت تستطيع أن تفعل ما هو أكثر. عندما كنتُ صبيًّا وجدتُ أنثى باز[1] جريحةً، واعتنيتُ بها حتى استردَّت عافيتها. سمَّيتها ذات الجناح الفخور، وكانت تقبع على كتفي وتطير ورائي من غُرفةٍ إلى أخرى وتأكل الطَّعام من يدي، لكن لا تُحَلِّق إلى الأعالي أبدًا. أخذتها معي مرَّةً ومرَّةً إلى الصَّيد، لكنها لم ترتفع أعلى من قمم الأشجار قَطُّ. سمَّاها روبرت ذات الجناح الواهي، وكانت لديه أنثى سُنقر[2] اسمها قصفة الرَّعد لا تُخطئ ضربتها أبدًا. ذات يومٍ قال لي

(1) الباز طائر جارح طويل الذَّيل وحاد البصر، يعيش في الغابات، ويصطاد بالانقضاض على الفريسة بسرعةٍ كبيرة من مكانٍ خفي مرتفع.

(2) السُّنقر أضخم أنواع الصُّقور، وهو طائر صيد ثمين وذو قيمة عالية، ويختلف لون ريشه باختلاف مكان سكنه، حيث يتراوح بين الأبيض والبنِّي الدَّاكن.

عمُّنا الكبير السير هاربرت أن أجرِّب طائرًا آخَر، لأني أجعلُ من نفسي مثارًا للاستهزاء بذات الجناح الفخور، وكان محقًّا». أنهى ستانيس باراثيون كلامه وأدارَ ظَهره للنَّافذة والأشباح التي تَمخُر بحر الجَنوب، وقال: «(السَّبعة» لم يُعطوني شيئًا في حياتي ولو مجرَّد عصفور، وحانَ الوقت لأجرِّب صقرًا من نوعٍ آخَر يا داڤوس، صقرًا أحمر».

ثيون

ليس هناك مكان يَصلُح لرسوٍ آمنٍ في پايك، لكن ثيون جرايچوي أرادَ أن يُجيل النَّظر في قلعة أبيه من البحر، ويراها كما رآها آخِر مرَّةٍ قبل عشر سنوات، عندما حملَته سفينة روبرت باراثيون الحربيَّة بعيدًا عن دياره، ليكون ربيب إدارد ستارك وتابعه الشَّخصي. يومها وقفَ عند حاجز السَّفينة، وأصغى لضربات المجاذيف ودقَّات طبلة الرُّبَّان، بينما شاهدَ پايك تتضاءَل في الأُفق، والآن يرغب في أن يراها تتعاظَم ثانيةً، أن ترتفع من البحر من أمامه. هكذا، انصياعًا لرغباته، شقَّت «الميراهام» طريقها متجاوزةً بُقعة اليابسة، وقد أخذَت أشرعتها تخفق بعُنف، فيما انهالَت اللَّعنات من فم الرُّبَّان على الرِّياح وعلى طاقمه وعلى حماقات صغار اللوردات أبناء علية القوم.

رفعَ ثيون قلنسوة معطفه على رأسه ليتَّقي الرَّذاذ، وتطلَّع إلى داره. كان السَّاحل كله صخورًا حادَّةً وجُروفًا جهيمةً، وبدَت القلعة جزءًا لا يتجزَّأ من هذا التَّكوين، إذ جاءَت حجارة أبراجها وأسوارها وجسورها كلها من المَقْلع الأسود الرَّمادي ذاته، وتبلَّلت بالموج المالح نفسه، وترصَّعت بالرُّقع الخضراء الدَّاكنة المنتشرة من الطَّحالب عينها، وتلطَّخت بفضلات الطُّيور البحريَّة سِيَّها. في الماضي، كانت بُقعة اليابسة التي شيَّد آل جرايچوي عليها قلعتهم تمتدُّ كسيفٍ يخترق قلب المحيط، وراحَت الأمواج تضربها ليل نهار بلا هوادة، حتى انفطرَت الأرض وتحطَّمت قبل آلاف السِّنين، ولم يتبقَّ غير ثلاث جُزرٍ جَدباء قاحلة، ودستةٍ من أكوام الصُّخور العملاقة، التي ترتفع من الماء كأعمدة معبد إلهٍ ما للبحر، بينما ترغي الأمواج الغاضبة وتتكسَّر بينها.

ارتفعَت پايك موحشةً قاتمةً كالحة الملامح فوق تلك الجُزر والأعمدة كأنها جزء منها، يسدُّ سورها الواقي الرَّأس البحري المحيط بقاعدة الجسر الحجري الضَّخم، الممتد من قمَّة الجُرف وحتى الجزيرة الكُبرى، التي يحتلُّها الحصن الكبير بحجمه الهائل، بينما يستقرُّ كلٌّ من حصن المطبخ والحصن الدَّامي على جزيرته الخاصَّة من بُعد، وتتشبَّث الأبراج وغيرها من المباني الملحقة بالصُّخور وراء الحصون، وقد ربطَت بينها الممرَّات المقنطَرة المغطَّاة حيث تدنو الأعمدة من بعضها بعضًا، والمماشي الطَّويلة المتأرجحة المصنوعة من الخشب والحبال حيث تتباعَد.

استقرَّ البُرج المستدير العالي المسمَّى بُرج البحر، أقدم جزء في القلعة، فوق أقصى الجُزر عند رأس السَّيف المكسور، وقد تآكلَ العمود ذو الجانب المستقيم تمامًا الذي وقفَ فوقه، بفعل ضربات الأمواج اللا نهائيَّة، واكتسَت قاعدة البُرج بالأبيض نتيجة قرونٍ من الرَّذاذ المالح، وطوابقه الأعلى بأخضر الطَّحالب التي زحفَت عليه مكوِّنةً طبقةً سميكةً، وقمَّته المحزَّزة بالأسود بفِعل نار الحراسة التي تُشعَل كلَّ ليلة.

رأى ثيون راية أبيه تخفق فوق بُرج البحر، وعلى الرغم من أن «الميراهام» كانت بعيدةً جدًّا، ما جعله لا يتبيَّن شيئًا غير قُماش الرَّاية، فإنه يعرف الشِّعار الذي تحمله جيِّدًا، كراكن[1] عائلة جرايچوي الذَّهبي، الذي تمتدُّ أذرُعه وتتلوَّى على خلفيَّةٍ سوداء. انسابَت الرَّاية على ساريةٍ حديديَّة، ترتجف وتلتفُّ مع هبوب الرِّيح كطائرٍ يُكافِح لأن يُحَلِّق. على الأقل لا يرتفع هنا ذئب ستارك الرَّهيب فوق كراكن جرايچوي ويُلقي عليه ظِلَّه.

لم يرَ ثيون مشهدًا مؤثِّرًا كهذا من قبل، إذ لاحَ ذيل المذنَّب الأحمر النَّاعم عبر السُّحب الخفيفة المتناثرة في السَّماء وراء القلعة. كان المذنَّب وما يعنيه محور حديث رجال ماليستر طول الطَّريق من ريڤررَن إلى سيجارد. إنه مذنَّبي، قال ثيون لنفسه وهو يدسُّ يده في معطفه المبطَّن بالفرو، ليتحسَّس الجراب

---

(1) الكراكن وحش بحري أسطوري عملاق، يظهر على سطح البَحر كجزيرة، وله أذرُع أخطبوطيَّة طويلة تلتفُّ حول السُّفن وتُغرِقها.

المصنوع من المشمَّع القابع في جيبه، والذي يحوي الرِّسالة التي أعطاه روب ستارك إياها، ورقة في حُكم تاج.

سألَته ابنة الرُّبَّان وهي تلصق جسدها بذراعه: «هل تبدو القلعة كما تتذكَّرها يا سيِّدي؟».

أجابَ ثيون معترفًا: «تبدو أصغر، لكن لعلَّ المسافة هي السَّبب لا أكثر». «الميراهام» سفينة تجاريَّة كبيرة البطن من البلدة القديمة في الجَنوب، تحمل خمورًا وأقمشةً وحبوبًا للمقايَضة بالحديد الخام، ورُبَّانها تاجر جَنوبي كبير البطن كذلك، وقد جعلَ البحر الحجري الهائج حول دعائم القلعة شفتيه الممتلئتين ترتعشان رهبةً، فأبقى السَّفينة على مسافةٍ بعيدة، أبعد مما يروق ثيون. كان رُبَّان حديدي الميلاد يقود سفينةً طويلةً ليأخذهم بطول الجُروف ومن تحت الجسر العالي، الذي يرتفع فوق الهوَّة بين مبنى البوَّابة والحصن الكبير، لكن رُبَّان البلدة القديمة السَّمين هذا لا يملك من المهارة أو الطَّاقم أو الشَّجاعة ما يُؤَهِّله لأن يفعل شيئًا كهذا، وهكذا أبحَروا على مسافةٍ آمنة، وعلى ثيون أن يقنع برؤية پايك من بعيد، ومع ذلك لاقَت «الميراهام» مشقَّةً لا يُستهان بها لتظلَّ بعيدًا عن تلك الصُّخور.

قالت ابنة الرُّبَّان: «لا بُدَّ أنه مكان كثير الرِّيح».

ضحكَ قائلًا: «كثير الرِّيح وبارد ورطب، مكان قاسٍ بائس في الحقيقة... لكن السيِّد والدي قال لي ذات مرَّةٍ إن الأماكن القاسية تُنجِب رجالًا قساة، والرِّجال القساة يَحكُمون العالم».

كان وجه الرُّبَّان أخضر كماء البحر لمَّا جاءَ حانيًا رأسه لثيون، وقال: «ألنا الإذن بأن نتوجَّه إلى المرفأ الآن يا سيِّدي؟».

قال ثيون وابتسامة خفيفة تتلاعَب على شفتيه: «لكم الإذن». لقد حوَّل الوعد بالذَّهب رُبَّان البلدة القديمة إلى كتلةٍ من التزلُّف وانعدام النَّخوة، وكانت الرِّحلة لتختلف تمامًا لو كانت هناك سفينة طويلة من الجُزر تنتظر في سيجارد كما كان يأمل، فالرَّبابنة حديديُّو الميلاد يتَّسمون بالكبرياء وقوَّة الإرادة، ولا يُصيبهم منظر الدِّماء بالرَّهبة، فالجُزر أصغر من أن تستوعب رهبةً كتلك، والسُّفن الطَّويلة أصغر وأصغر. إذا كان كلُّ رُبَّانٍ ملكًا على

متن سفينته، كما يُقال كثيرًا، فلا غرو أنهم سمُّوا الجُزر أرض العشرة آلاف ملك، وعندما ترى ملوكك يتغوَّطون من فوق حاجز السَّفينة ويُصيبهم الدُّوار والغثيان أثناء عاصفة، فمن العسير عندئذٍ أن تركع أمامهم وتتظاهَر بأنهم آلهة. منذ آلاف السِّنين قال الملك أورون أحمر اليد: «الإله الغريق يصنع الرِّجال، لكن الرِّجال هُم من يصنعون التِّيجان».

كانت السَّفينة الطَّويلة لتقطع المسافة في نِصف الوقت كذلك، فما «الميراهام» إلَّا حوض متخبِّط في واقع الأمر، وهو لا رغبة لديه في أن يكون على متنها خلال عاصفة. على الرغم من ذلك لم يُخامِر ثيون شعور كبير بعدم الرِّضا، فها هو ذا لم يغرق، كما أن الرِّحلة احتوَت على أنواعٍ أخرى بعينها من التَّسلية. طوَّق ابنة الرُّبَّان بذراعه وقال لأبيها: «أبلِغني عندما نصل إلى لوردزپورت. سنكون في قمرتي في الأسفل»، ثم قادَ الفتاة إلى مؤخِّرة السَّفينة، بينما راقبَهما أبوها بوجوم صامتٍ وهما يبتعدان.

كانت قمرةِ الرُّبَّان في واقعِ الأمر، لكنه أخلاها لثيون عندما أبحَروا من سيجارد، أمَّا ابنة الرُّبَّان فلم تُكلَّف بتلبية حاجاته، وإن أتَت إلى فِراشه عن طِيب خاطر. كأس من النَّبيذ مع بضع همسات، وها هي ذي. للفتاة قوام أكثر امتلاءً بعض الشَّيء مما يروق ثيون، وبشرة منمَّشة ذكَّرته بلون الشُّوفان المطحون، لكن ثدييها ملآ يديه بشكلٍ مُرْضٍ، كما أنها كانت عذراء عندما أخذَها أول مرَّة، الشَّيء المدهش في سِنِّها هذه، لكن ثيون قرَّر أن هذا طريف حقًّا، ثم إنه لا يحسب إطلاقًا أن الرُّبَّان يُوافِق على ما يَحدُث، وهذا طريف أيضًا، خصوصًا عندما يتفرَّج على الرَّجل وهو يُكافِح لابتلاع غيظه وهو يُؤَدِّي فروض الطَّاعة للورد ابن الحسب والنَّسب، دون أن يُفارِق كيس العُملات الذَّهبيَّة الذي وُعِدَ به مخيِّلته.

قالت الفتاة وثيون يخلع معطفه المبتلَّ من على كتفيه: «لا بُدَّ أنك سعيد للغاية لرؤية ديارك من جديد يا سيِّدي. كم عامًا غِبت؟».

- «عشرة، أو ما يَقرُب من هذا، لا فارق. كنتُ صبيًّا في العاشرة عندما أخَذوني ربيبًا لإدارد ستارك في وينترفل». ربيب اسمًا، ورهينة واقعًا، رهينة نِصف عُمره... لكن هذا انتهى الآن. إن حياته ملكه من جديد، وليس هناك

ستارك واحد على مدى البصر. جذبَ ابنة الرُّبَّان إليه وقبَّلها على أُذنها قائلًا: «اخلعي معطفكِ».

خفضَت ناظريها وقد أصابَها الخجل فجأةً، لكنها فعلَت كما قال، وعندما سقطَ الثَّوب الثَّقيل المبقَّع بالرَّذاذ من على كتفيها إلى الأرض، انحنَت له انحناءةً صغيرةً وابتسمَت بترقُّب. إنها تبدو حمقاء حقًّا عندما تبتسم، لكنه لا يشترط الذَّكاء في نسائه أبدًا على كلِّ حال. قال لها: «تعالي هنا».

ذهبَت إليه قائلةً: «لم أرَ جُزر الحديد من قبل».

- «اعتبري نفسكِ محظوظةً إذن»، قال ثيون ويده تُمَشِّط شَعرها الأسود النَّاعم، الذي تشابكَت خصلاته بفعل الرِّيح. «الجُزر أماكن حجريَّة كئيبة، ما فيها من وسائل راحةٍ شحيح، ومن موارد ضئيل. الموت يحوم هنا طول الوقت، والحياة عسيرة وقاسية، والرِّجال يقضون لياليهم في شُرب المِزر والشَّكوى والجدل حول مَن منهم أعثر حظًّا، الصيَّادون الذين يُقاتِلون البحر، أم المزارعون الذين يكدحون للحصول على محصولٍ لا يُذكَر من التُّربة الفقيرة. إذا أردنا الحق، فالمعدِّنون حالهم أسوأ من الاثنين، يكسرون ظهورهم تحت الأرض في الظَّلام، ومن أجل ماذا؟ الحديد والرَّصاص والصَّفيح، تلك هي كنوزنا. لا عجب أن الرِّجال الحديديِّين القُدامى لجأوا للإغارة».

لم يبدُ على الحمقاء أنها تُصغي إليه، وقالت: «يُمكنني أن أذهب معك، سأفعل هذا إذا أردتَ...».

قال ثيون معتصرًا ثديها: «يُمكنكِ أن تذهبي، لكن ليس معي».

- «يُمكنني العمل في قلعتك يا سيِّدي. أستطيعُ تنظيف السَّمك والخَبز ومخض الزُّبد. أبي يقول إن يخنة سرطان البحر بالفلفل التي أطهوها هي أفضل ما تذوَّق على الإطلاق. يُمكنك أن تجد لي مكانًا في مطابخكم وسأطهوها لك».

- «وتُدَفِّئين فِراشي ليلًا؟»، قال ثيون ومَدَّ يده إلى أربطة صِدارها، وبدأ يحلُّها بأصابع متمرِّسة مرنة. «في زمنٍ سابقٍ كنتُ لأعود حاملًا إياكِ كغنيمة، وأجعلكِ زوجتي بمشيئتكِ أو رغمًا عنكِ. الرِّجال الحديديُّون القُدامى كانوا

يفعلون أشياءَ كهذه، فكانت للرَّجل زوجته الصَّخريَّة، عروسه الحقيقيَّة حديديَّة الميلاد مِثله، لكن هناك زوجاته الملحيَّات كذلك، النِّسوة اللاتي يُؤسَرن في الغارات».

عرَّى ثدييها، لكن ليس لهذا اتَّسعت عينا الفتاة وهي تقول: «سأكونُ زوجتك الملحيَّة يا سيِّدي».

قال ثيون: «أخشى أن تلك الأيام ولَّت»، وبدأ يُحَرِّك إصبعه في دوائر على واحدٍ من الثَّديين الثَّقيلين، قاصدًا الحلمة البنِّيَّة الممتلئة، وأضافَ: «لم نعد نستطيع ركوب الرِّيح بالنَّار والسَّيف آخذين ما نشاء. الآن نتعيَّش على حَكِّ الأرض وإلقاء الشِّباك في البحر كغيرنا، ونغبط أنفسنا على حُسن الطَّالع إذا كان لدينا ما يكفينا من القُد المملَّح والثَّريد خلال الشِّتاء»، وأخذَ حلمتها في فمه وضغطَ عليها بأسنانه حتى شهقَت.

همسَت في أُذنه وهو يمصُّ: «يُمكنك أن تضعه داخلي ثانيةً إذا أردت».

عندما رفعَ رِأسه عن ثدييها، كان فمه قد تركَ علامة حمراء داكنةً على الجلد، وقال لها: «ما أريده هو أن أعلِّمكِ شيئًا جديدًا. حلِّي أربطة سراويلي ومتِّعيني بفمكِ».

- «بفمي؟».

مَسَّ شفتيها الممتلئتين بإبهامه مجيبًا: «هذا ما خُلِقَت له هاتان الشَّفتان يا حُلوتي. إذا كنتِ زوجتي الملحيَّة، فعليكِ طاعة أوامري».

كانت متهيِّبةً في البداية، لكنها تعلَّمت بسرعةٍ لا بأس بها بالنِّسبة لفتاةٍ حمقاء مِثلها، الشيء الذي سرَّه، وكان ثغرها مبتلًّا شهيًّا كفرجها، ثم إنه ليس مرغمًا بهذه الطَّريقة على الإصغاء لثرثرتها البلهاء. قال لنفسه وهو يدسُّ يده بين خصلات شَعرها المتشابكة: في زمنٍ ماضٍ كنتُ لأحتفظ بها زوجةً ملحيَّةً حقًّا، في زمنٍ ماضٍ عندما كنا نتبع «النَّهج القديم»، ونعيش بالفأس وليس العصا، نأخذ كلَّ ما نُريد أن نأخذه، ثروةً كان أو نساءً أو مجدًا. في تلك الأيام لم يكن الرِّجال الحديديُّون يكدُّون في المناجم، فذلك كان عمل الأسرى الذين يعودون بهم من الغارات، ولا يُمارِسون الزِّراعة ورعاية الماعز والخراف وما شابه من الأعمال البائسة، فالحرب كانت تجارة الرِّجال

الحديديِّين الحقَّة. لقد خلقَهم الإله الغريق للنَّهب والاغتصاب، لاقتطاع الممالك وكتابة أسمائهم بالدَّم والنَّار والأغاني.

إجون الفاتِح هو من دمَّر «النَّهج القديم»، عندما أحرقَ هارن الأسود ورَدَّ مملكته إلى أهلِ نهر الثَّالوث الضُّعفاء، وجعلَ من جُزر الحديد مجرَّد مكانٍ بلا قيمةٍ في مؤخِّرة مملكةٍ أعظم بكثير، لكن الحكايات القديمة المحمَّلة بالأحمر الدَّموي لا تزال تُحكى حول كلِّ مستوقَدٍ وحُفرة نار في كلِّ ركنٍ من الجُزر، وحتى وراء أسوار پايك الحجريَّة العالية، ومن بين ألقابه الأخرى يُسَمَّى أبو ثيون سيِّد الحصاد، وتقول كلمات عائلة جرايچوي بإباء: نحن لا نزرع.

في سبيل إعادة «النَّهج القديم»، وليس خيلاء التِّيجان الفارغة، قامَ اللورد بالون بثورته العظيمة، قبل أن يَكتُب روبرت باراثيون نهايةً داميةً لهذا الأمل بمساعَدة صديقه إدارد ستارك، لكن كلا الرَّجلين ميت الآن، وفي مكانيهما يَحكُم مجرَّد صِبية الآن، والملكوت الذي شيَّده إجون الفاتِح انهارَ وتفسَّخ. قال ثيون لنفسه بينما أحاطَت شفتا ابنة الرُّبَّان بذَكره وانزلقَتا إلى أعلى وأسفل: إنه الموسم المنتظَر، الموسم، والعام، واليوم، وأنا الرَّجل، وارتسمَت على شفتيه ابتسامة ملتوية وهو يتساءل عمَّ سيقوله أبوه عندما يُخبِره أنه -هو، ثيون، أصغر أبنائه، الغِر والرَّهينة- أفلحَ حيثما أخفقَ اللورد بالون نفسه.

فاجأَته ذُروته كعاصفة، وتفجَّرت نُطفته لتملأ فم الفتاة، التي جفلَت وحاولَت أن تُبعِد رأسها، لكن ثيون أطبقَ على شَعرها وثبَّتها في مكانها بإحكام. بَعدها زحفَت لتستلقي إلى جواره في الفِراش، وسألَته: «هل أمتعتُ سيِّدي؟».

- «لا بأس بكِ».

غمغمَت: «مذاقه مالح».

- «مثل البحر؟».

أومأَت برأسها إيجابًا، وقالت: «لطالما أحببتُ البحر يا سيِّدي».

- «وأنا أيضًا»، قال وهو يُداعِب حلمتها بأصابعه بفتور. كان محقًّا، فالبحر يعني الحرِّيَّة لأهل جُزر الحديد، وكان قد غفلَ عن تلك الحقيقة حتى

رفعَت «الميراهام» أشرعتها في سيجارد، فتولَّدت في نفسه مشاعر قديمة مع الأصوات التي أحاطَت به، صرير الخشب والحبال، وصياح الرُّبَّان بالأوامر، وخفقان الأشرعة والرِّيح تملأها، الأصوات التي يألفها كضربات قلبه ذاتها، والتي بَثَّت فيه طمأنينةً بالغة. قال ثيون متعهِّدًا لنفسه: يجب أن أتذكَّر هذا، ويجب ألَّا أبتعد عن البحر ثانيةً أبدًا.

قالت ابنة الرُّبَّان بتوسُّل: «خُذني معك يا سيِّدي. ليس من الضَّروري أن أذهب إلى قلعتك. يُمكنني أن أبقى في بلدةٍ ما وأكون زوجتك الملحيَّة»، ومدَّت يدها تتحسَّس وجنته.

دفعَ ثيون جرايجوي يدها بعيدًا، ونزلَ من فوق الفِراش قائلًا: «مكاني في پايك، ومكانكِ على هذه السَّفينة».

- «لا أستطيعُ البقاء هنا الآن».

سألَها وهو يعقد أربطة سراويله: «ولِمَ لا؟».

أجابَته: «بِسبب أبي، سيُعاقِبني بمجرَّد أن ترحل يا سيِّدي، سيشتمني ويضربني».

سحبَ ثيون معطفه من على المشجب ووضعَه على كتفيه، وقال وهو يُثبِّت طيَّاته بمشبكٍ فضِّي: «هكذا الآباء. قولي له إنه يَجدُر به أن يسعد، فأنتِ تحملين طفلًا الآن على الأرجح بَعدما ضاجَعتكِ كلَّ هذه المرَّات، وشَرف حقيقي أن ينال أحدهم فُرصة تربية نغل ملك». رمقَته بنظراتها الغبيَّة، فتركَها هناك.

دارَت «الميراهام» حول بُقعةٍ مشجَّرة على السَّاحل، وتحت الجُروف المكسوَّة بأشجار الصَّنوبر كان الصيَّادون يسحبون شباكهم إلى دستةٍ من المراكب، فظَلَّ الكوج الكبير بمنأى عنها وقد سلكَ الرُّبَّان سبيلًا متعرِّجًا. اتَّجه ثيون إلى المقدِّمة ليُلقي نظرةً أفضل، ورأى القلعة أولًا، معقل عائلة بوتلي. في صِباه كانت القلعة مشيَّدةً من الخشب والأغصان المجدولة، لكن روبرت باراثيون دَكَّ ذلك البناء عن آخِره، وأعادَ اللورد ساوان بناءه من الحجارة، والآن يُكَلِّل حصن مربَّع صغير قمَّة التَّل، ومن الأبراج الرُّكنيَّة القصيرة تتدلَّى الأعلام ذات اللَّون الأخضر الباهت، وكلٌّ منها مزيَّن بسربٍ من الأسماك الفضِّيَّة.

تحت الحماية المشكوك فيها من القلعة الصَّغيرة المكتظَّة بالسَّمك، استقرَّت قرية لوردزپورت التي يعجُّ مرفأها بالسُّفن. عندما رأى لوردزپورت آخر مرَّة، كانت خرابًا يتصاعَد منه الدُّخان، وقد تناثرَت هياكل السُّفن الطَّويلة المحروقة والقوادس المحطَّمة على السَّاحل كعظام لَوِياثانات[1] ميتة، واستحالَت البيوت إلى جدران متداعية ورمادٍ بارد. بَعد عشر سنوات لم يتبقَّ من آثار كلٍّ هذا إلَّا القليل، إذ بنى الأهالي بيوتًا جديدةً من أحجار بيوتهم القديمة، وقطَّعوا أخشابًا طازجةً للسُّقوف، كما أقيمَ إلى جوار المرسى خان جديد يَكبُر القديم حجمًا مرَّتين، طابقه السُّفلي من الأحجار المقطَّعة، والطَّابقان العلويَّان من الأخشاب. على أن السِّپت الذي يقع وراء كلِّ هذا لم يُبنَ من جديد، وظَلَّ مجرَّد قاعدة سباعيَّة الجوانب، فغضبة روبرت باراثيون عكَّرت استساغة الرِّجال الحديديِّين للآلهة الجديدة على ما يبدو.

كان ثيون مهتمًّا بالسُّفن أكثر من الآلهة، ووسط عددٍ لا يُحصى من مراكب الصَّيد لمحَ قادسًا تجاريًّا من تايروش يُفرغ حمولته إلى جوار كوج إيبنيزي ثقيل طُلِيَ بدنه بالقار، بينما انتشرَ عدد كبير من السُّفن الطَّويلة، خمسون أو ستُّون على الأقل، في اتِّجاه البحر أو استقرَّ على حصى السَّاحل إلى الشَّمال، وقد حملَت الأشرعة رموزًا لعائلاتٍ من الجُزر الأخرى، قمر عائلة ونش الدَّامي، وبوق اللورد جودبراذر الحربي الأسود المربوط بالشَّرائط، ومنجل آل هارلو الفضِّي. بحثَ ثيون عن سفينة عمِّه يورون «النَّمِت» ذات البدن النَّحيل، لكنه لم يرَ أثرًا لتلك السَّفينة الحمراء الرَّهيبة، لكن سفينة أبيه الطَّويلة «الكراكن العظيم» كانت موجودةً، مقدِّمتها مزيَّنة بكبشٍ[2] حديديٍّ رماديٍّ اتَّخذ شكل سميِّه.

هل سبقَه اللورد بالون واستدعى رايات جرايچوي؟ دَسَّ يده في معطفه من جديدٍ وتحسَّس مشمَّع الجراب. لا أحد يعرف بهذه الرِّسالة غير روب

(1) اللَّوِياثان وحش بحري أسطوري هائل الحجم، له سبعة رؤوس.
(2) الكبش أو الكبَّاش آلة حربيَّة تُستخدَم في البرِّ لدَكِّ بوَّابات القلاع والحصون، وفي البحر لمهاجَمة السُّفن.

ستارك، فهما ليسا أحمقيْن ليأتمنا طائرًا على أسرارهما، لكن اللورد بالون ليس أحمق بدوره، ومن الوارد أنه خمَّن سبب عودة ابنه إلى الوطن أخيرًا، فتصرَّف بناءً على هذا. لم يَرُق له الخاطر، فقد انتهَت حرب أبيه بالهزيمة منذ سنين طويلة، وهذه ساعة ثيون، خطَّته، مجده، وفي الوقت المناسب تاجه. لكن إذا كانت السُّفن الطَّويلة تحتشد...

وجدَ أن الحيطة لا أكثر قد تكون الدَّاعي عندما فكَّر مليًّا، حركة دفاعيَّة خشية أن تفيض حمم الحرب وتتدفَّق نحو البحر. المسنُّون حذرون بطبيعتهم، وأبوه متقدِّم في السِّن الآن، وكذلك عمُّه ڤيكتاريون الذي يقود الأسطول الحديدي، أمَّا عمُّه يورون فمسألة مختلفة تمامًا، وإن لم يبدُ أن «الصَّمت» موجودة في المرفأ. قال ثيون لنفسه: هذا أفضل، فهكذا سأتمكَّنُ من توجيه ضربتي أسرع.

ذرعَ ثيون سطح «الميراهام» بتوتُّرٍ وهي تَمخُر الماء نحو البَر. لم يكن يتصوَّر أنه سيجد اللورد بالون بنفسه ينتظره على الرَّصيف، لكن من المؤكَّد أن أباه أرسلَ أحدًا آخَر يُقابله، الوكيل سايلاس كريه الأنفاس، أو اللورد بوتلي، أو حتى داجمر ذا الفك المفلوق. سيطيب له أن يتطلَّع إلى خلقة داجمر البشعة من جديد. ليس الأمر كأن أخبارًا عن وصوله لم تَبلُغهم مثلًا، فروب أرسلَ غِدفانًا من ريڤررَن، وعندما لم يجدوا سُفنًا طويلةً في سيجارد، أرسلَ چيسون ماليستر طيوره الخاصَّة إلى پايك، مفترضًا أن طيور روب لم تصل.

لكنه لم يرَ أيَّ وجوهٍ مألوفة، أو حَرس شَرَفٍ ينتظرون لاصطحابه من لوردزپورت إلى پايك، فقط الأهالي الذين انصرَفوا إلى أمورهم التَّافهة، عُمَّال الشَّاطئ يُدَحرِجون براميل النَّبيذ من القادس التِّجاري التايروشي، والصيَّادون يُنادون على حصيلة اليوم، والأطفال يجرون ويلعبون. كان واحد من رُهبان الإله الغريق يرتدي كسوة طائفته ذات ألوان مياه البحر، ويقود حصانين على الشَّاطئ المفروش بالحصى، بينما مالَت من فوقه مومس من إحدى نوافذ الخان، لتُنادي بعض البحَّارة الإيبنيزيِّين المارِّين.

احتشدَ عدد صغير من تجَّار لوردزپورت ليُقابِلوا السَّفينة، ورفعوا أصواتهم

بالأسئلة بينما يربط رجال «الميراهام» حبالها بالمرسى، فزعقَ الرُّبَّان مجيبًا إياهم من أعلى: «جئنا من البلدة القديمة، ونحمل تُفَّاحًا وبرتقالًا، ونبيذًا من «الكرمة»، وريشًا من جُزر الصَّيف، ومعي فلفل وجِلد مجدول ولفَّة من الحرير المايري، ومرآة لسيِّدتي، وقيثارتان خشبيَّتان مصنوعتان في البلدة القديمة، صوتهما في غاية العذوبة». نزلَ لوح العبور المتحرِّك مصدرًا صريرًا، وحطَّ على الأرض بصوتٍ مكتوم، فأردفَ الرُّبَّان: «كما أني أعدتُ وريثكم إليكم».

حدجَ أهل لوردزپورت ثيون بنظراتٍ بليدة خاوية، فأدركَ أن لا عِلم لهم بمَن يكون، واعتملَ الغضب في نفسه. هكذا دَسَّ تنِّينًا ذهبيًّا في يد الرُّبَّان قائلًا: «اجعل رجالك يأتون بأغراضي»، وقطعَ لوح العبور إلى الرَّصيف دون أن ينتظر ردًّا، وزعقَ: «يا صاحب الخان، أريدُ حصانًا».

- «كما تقول يا سيِّدي»، رَدَّ الرَّجل دون أن يُكَلِّف نفسه مجرَّد انحناءة، ما نبَّه ثيون إلى أنه نسيَ أن حديديِّي الميلاد قد يكونون وقحين أحيانًا. «لديَّ واحد قد يَصلُح لك. إلى أين أنت ذاهب يا سيِّدي؟».

- «پايك». ما زال الأحمق لم يتعرَّفه. كان حريًّا به أن يرتدي سُترته الأنيقة، ذات الكراكن المطرَّز على صدرها.

قال صاحب الخان: «ستُريد أن تتحرَّك قريبًا إذن لتَبلُغ پايك قبل حلول الظَّلام. سيذهب صبيِّي معك ويُريك الطَّريق».

جاءَ صوت عميق يقول: «لن تكون هناك حاجة إلى صبيِّك أو حصانك. سأصحبُ ابن أخي إلى بيت أبيه بنفسي».

كان المتكلِّم هو الرَّاهب الذي رآه يقود الحصانين على الشَّاطئ، وانحنى الأهالي مع اقترابه، وسمعَ ثيون صاحب الخان يُتَمتِم: «ذو الشَّعر الرَّطب».

كان الرَّاهب فارع القامة نحيل القوام، لديه عينان سوداوان قويَّتا النَّظرات وأنف معقوف، ويرتدي كسوةً مرقَّعةً من الأخضر والرَّمادي والأزرق، ألوان الإله الغريق الملتفَّة كالدَّوَّامة، وقد علَّق تحت إبطه قِربة ماءٍ بشريطٍ جلدي، بينما جُدِلَت حبال من عُشب البحر في لحيته غير المشذَّبة وشَعره الأسود الذي يصل إلى خصره.

وثبَت الذِّكرى إلى عقل ثيون فجأةً. كان اللورد بالون قد كتبَ في أحد

خطاباته المقتضبة النَّادرة أن البحر ابتلع أخاه الأصغر في عاصفة، وأنه تديَّن بَعد أن لفظَته المياه حيًّا على الشَّاطئ. سألَه بشَك: «العم آرون؟».

رَدَّ الرَّاهب: «ثيون ابن أخي، أبوك أمرَني بإحضارك. تعالَ».

- «لحظة يا عمَّاه»، والتفتَ إلى «الميراهام» قائلًا للرُّبَّان بلهجةٍ آمرة: «أغراضي».

نزلَ إليه أحد البحَّارة بقوسه المصنوع من خشب الطَّقسوس وكنانة السِّهام، لكن ابنة الرُّبَّان هي من أتَته بصُرَّة ثيابه الأنيقة، وقالت له بعينين محمرَّتين: «سيِّدي»، وحاولت أن تُعانِقه وهو يلتقط منها الصُّرَّة، هناك أمام أبيها وعمِّه رجل الدِّين ونِصف سُكَّان الجزيرة.

تراجعَ ثيون بحركةٍ سريعةٍ قائلًا: «لكِ شُكري».

- «أرجوك، إنني أحبُّك كثيرًا يا سيِّدي».

قال: «يجب أن أذهب»، وهرعَ وراء عمِّه الذي كان قد ابتعدَ على الرَّصيف بالفعل، فلحقَ به ثيون بخطواتٍ واسعة، وقال: «لم أتوقَّع أن أجدك هنا يا عمَّاه. حسبتُ أن مرور عشر سنواتٍ كاملة سيجعل السيِّد والدي والسيِّدة والدتي يأتيان بنفسيهما، أو يُرسِلان داجمر مع حَرس شَرف».

- «ليس لك أن تُناقِش أوامر سيِّد حصاد پايك»، قال الرَّاهب بلهجةٍ فاترة، على غير عادة الرَّجل الذي يتذكَّره ثيون تمامًا. كان آرون جرايچوي الألطف معشرًا بين أعمامه، لا مبالٍ في أسلوبه وسريع الضَّحك، ومغرمًا بالأغاني والمِزر والنِّساء. «أمَّا داجمر ذو الفَك المفلوق فقد ذهبَ إلى ويك القديمة بتعليماتٍ من أبيك، لحَضِّ عائلتي ستونهاوس ودروم على حشد رجالهما».

- «لأيِّ غاية؟ لماذا تحتشد السُّفن الطَّويلة؟».

- «لماذا تحتشد السُّفن الطَّويلة عادةً؟». كان عمُّه قد تركَ الحصانين مربوطيْن أمام الخان المطلِّ على الماء، وعندما وصلا إليهما التفتَ إلى ثيون قائلًا: «اصدُقني القول يا ابن أخي، هل تُصَلِّي لآلهة الذِّئاب الآن؟».

لم تكن الصَّلاة شيئًا يُمارِسه ثيون إلَّا نادرًا، لكن هذا ليس بالشَّيء الذي يُمكنك أن تعترف به لراهب، حتى إذا كان شقيق أبيك نفسه. هكذا أجابَ: «ند ستارك كان يُصَلِّي لشجرة. كلا، لستُ أبالي بآلهة ستارك مطلقًا».

- «عظيم. اركع».

كانت الأرض كلها حجارة ووحل، فقال ثيون معترضًا: «عمَّاه، إنني...».

- «قلتُ اركع، أم أنك صرت تترفَّع علينا باعتبارك اللورد الصَّغير القادم من الأراضي الخضراء وحَلَّ بيننا؟».

وركعَ ثيون. إن لديه هدفًا هنا، وقد يحتاج مساعَدة آرون لتحقيقه، والتَّاج يستحقُّ القليل من الوحل وبراز الخيول على سراويله، على ما يعتقد.

- «احنِ رأسك»، قال عمُّه رافعًا القِربة، ثم خلعَ السِّدادة وصَبَّ خيطًا رفيعًا من ماء البحر على رأس ثيون، ليتخلَّل شَعره ويسيل على جبهته إلى عينيه. انسابَ الماء على وجنتيه، وشعرَ بإصبعٍ باردٍ يزحف على ظَهره تحت معطفه وسُترته، كجدولٍ صغير يجري على عَموده الفقري، وأحرقَ الملح عينيه حتى إنه كتمَ صيحة الألم بصعوبة، وشعرَ بمذاق المحيط على شفتيه، بينما ترنَّم آرون جرايچوي: «دَع خادمك ثيون يولَد من البحر من جديد كما وُلِدتَ. بارِكه بالملح، بارِكه بالحجر، بارِكه بالصُّلب. أما زلت تعرف الكلمات يا ابن أخي؟».

قال ثيون متذكِّرًا: «عسى الميِّت ألَّا يموت أبدًا».

- «عسى الميِّت ألَّا يموت أبدًا»، ردَّد عمُّه. «بل يُبعَث من جديد، أقوى وأصلب. انهَض».

نهضَ ثيون وعيناه تطرفان بسرعةٍ ليحبس الدُّموع التي هيَّجها الملح، وبلا كلماتٍ إضافيَّة وضعَ عمُّه سدادة القِربة وحَلَّ وثاق حصانه وامتطاه، فحذى ثيون حذوه وتحرَّكا معًا تاركيْن الخان والمرفأ وراءهما، ليصعدا التِّلال الحجريَّة مرورًا بقلعة اللورد بوتلي، ومرَّت فترة دون أن ينبس الرَّاهب ببنت شفة.

أخيرًا قال ثيون: «لقد قضيتُ نِصف حياتي بعيدًا عن الدِّيار، فهل سأجدُ أن الجُزر تغيَّرت؟».

- «الرِّجال يصطادون في البحر ويَحفُرون في اليابسة ويموتون، والنِّساء يلدن أطفالهن بالدَّم والألم ويَمُتن، والنَّهار يتبع اللَّيل، والرِّيح ومواسم المَدِّ والجَزر كما هي. الجُزر كما خلقَها إلهنا».

لقد صارَ جهيمًا حقًّا بحقِّ الآلهة. «هل سأجدُ أختي والسيِّدة والدتي في بايك؟».

- «كلا، أمُّك مقيمة في هارلو مع أختها، فالجوُّ أكثر اعتدالًا هناك، وهي تُعاني من السُّعال. أختك أخذَت «الرِّيح السَّوداء» إلى ويك الكُبرى ومعها رسائل من السيِّد والدك، لكنها سرعان ما ستعود، اطمئن».

لم يكن ثيون يحتاج إلى أن يقول له أحد إن «الرِّيح السَّوداء» هي سفينة آشا الطَّويلة. إنه لم يرَ أخته منذ عشرة أعوام كاملة، لكنه يعرف هذا عنها على الأقل. من الغريب أن تُطلِق عليها هذا الأسم بينما يعني اسم ذِئب روب ستارك الرِّيح الرَّماديَّة. غمغمَ مبتسمًا: «الرَّمادي لون ستارك والأسود لون جرايچوي، لكن يبدو أن الرِّيح قاسم مشترَك بيننا». لم يُعَلِّق الرَّاهب بكلمةٍ واحدة، فبادَره ثيون: «وماذا عنك يا عمَّاه؟ لم تكن راهبًا عندما أخَذوني من بايك، وأذكرُ كيف كنت تغنِّي أغاني الغارات القديمة وأنت واقف على الطاولة وفي يدك قرن من المِزر».

قال آرون جرايچوي: «صغيرًا كنتُ، ومغرورًا، لكن البحر غسلَني من حماقاتي وغروري. ذلك الرَّجل غرقَ يا ابن أخي، وامتلأت رئتاه بماء البحر، وأكلَت الأسماك القشور من على عينيه. عندما نهضتُ من جديدٍ تفتَّحت بصيرتي».

إنه مجنون بقَدر ما هو عابس. لقد أحبَّ ثيون ما تذكَّره عن آرون جرايچوي القديم. «عمَّاه، لماذا يحشد أبي رجاله وسُفنه؟».

- «مؤكَّد أنه سيُخبِرك في بايك».

- «أريدُ أن أعرف مخطَّطه الآن».

- «لن تعرف شيئًا مني، فنحن مأمورون بألَّا نتكلم عن هذا مع أيٍّ أحد».

مغضبًا قال ثيون: «حتى معي؟». لقد قادَ رجالًا في الحرب، وخرجَ للصَّيد مع ملك، وفازَ بمرتبة شرفٍ في الالتحام الجماعي في دورة مباريات، وركبَ مع برايندن السَّمكة السَّوداء وچون أومبر الكبير، وقاتلَ في الغابة الهامسة، وضاجعَ فتياتٍ أكثر مما يتذكَّر، وعلى الرغم من ذلك يُعامِله عمُّه كأنه ما زال

طفلًا في العاشرة. «إذا كان لدى أبي مخطَّط للحرب، فيجب أن أعرف به. أنا لستُ أيَّ أحد، بل وريث پايك وجُزر الحديد».

قال عمُّه: «سوف نرى».

أصابَه القول كصفعةٍ على الوجه، وردَّد: «سوف نرى؟ كِلا أخويَّ ميت، وأنا ابن السيِّد والدي الحي الوحيد».

- «أختك حيَّة».

آشا، فكَّر والدَّهشة تَغمُره. إنها تكبُره بثلاثة أعوام، لكن... قال بإصرار بصوتٍ عالٍ: «تستطيع المرأة أن ترث فقط إذا لم يكن هناك وريث ذَكر في التَّسلسُل المباشر. لن أسمح بأن يغشَّني أحد في حقوقي، فاحذر».

زجرَه عمُّه: «تُحَذِّر خادمًا للإله الغريق يا ولد؟ يبدو أنك نسيت أشياء أكثر مما تظنُّ، ولا بُدَّ أنك أحمق كبير إذا كنت تتصوَّر حقًّا أن السيِّد والدك سيُسَلِّم هذه الجُزر المقدَّسة لواحدٍ من آل ستارك. والآن الزم الصَّمت، فالمسافة طويلة كفايةً دون ثرثرتك».

أمسكَ ثيون لسانه على مضض، وفكَّر: هكذا إذن. كأن عشرة أعوام في وينترفل تكفي لأن تجعل منه ستارك. لقد ربَّاه اللورد إدارد بين أولاده، لكن ثيون لم يكن منهم قَطُّ، والقلعة كلها من الليدي كاتلين إلى أصغر عاملةٍ في المطبخ، كانت تعرف أنه رهينة لضمان أن يُحسِن أبوه الأدب، وعامَله الجميع على هذا الأساس، وحتى چون سنو ابن الزِّنى كان يُعامَل باحترام أكثر منه.

كان اللورد إدارد يُحاوِل أن يلعب دور الأب بين الحين والآخَر، لكنه ظَلَّ دائمًا عند ثيون الرَّجل الذي جاءَ بالدَّم والنَّار إلى پايك وأخذَه من وطنه. عاشَ ثيون صِباه في خوفٍ مستمرٍّ من ملامح اللورد إدارد الصَّارمة وسيفه العظيم الدَّاكن، أمَّا زوجته فكانت نائيةً وشكَّاكةً أكثر. بالنِّسبة لأولادهما، فالصِّغار كانوا مجرَّد أحداث طيلة سنواته في وينترفل، وفقط روب وأخوه غير الشَّقيق چون سنو كانا كبيرين بما يكفي لأن يستحقَّا اهتمامه. النَّغل كئيب عابس، وسريع الإحساس بالإهانة، ويغار من أصل ثيون النَّبيل واحترام روب له، أمَّا روب نفسه فثيون يُكِنُّ له وُدًّا لا شَكَّ فيه، كأنه أخوه الصَّغير... وإن كان من الأفضل ألَّا يَذكُر ذلك، إذ يبدو أن الحروب القديمة لا تزال مشتعلةً في پايك،

ولا غرو في هذا، فجُزر الحديد تعيش في الماضي، لأن الحاضر أقسى وأمرُّ من أن يُحتَمَل، كما أن أباه وأعمامه مسنُّون، والمسنُّون هكذا دائمًا، يأخذون خصوماتهم وضغائنهم القديمة المكسوَّة بالتُّراب وشباك العناكب معهم إلى القبر، لا ينسون شيئًا ولا يغفرون أبدًا.

الشَّيء نفسه كان حاصلًا مع آل ماليستر، رفاقه في الرِّحلة من ريفررَن إلى سيجارد، فبينما لم يكن پاتريك ماليستر شابًّا سيِّئ الصُّحبة على الإطلاق، خصوصًا أن الاثنين يشتركان في حُبِّ النِّساء والنَّبيذ والصَّيد، إلَّا أن اللورد چيسون عندما رأى وريثه وقد صارَ مغرمًا أكثر من اللَّازم برِفقة ثيون، انتحى بپاتريك جانبًا ليُذَكِّره بأن سيجارد قد شُيِّدَت للدِّفاع عن السَّاحل ضد مغيري جُزر الحديد، وعلى رأسهم آل جرايچوي أولاد پايك، وأن بُرج عائلة ماليستر المسمَّى «بُرج الدَّوي» استمدَّ اسمه من النَّاقوس البرونزي الهائل في قمَّته، الذي يُدَقُّ لاستدعاء أهل البلدة وعُمَّال الحقل إلى داخل القلعة، عندما تلوح السُّفن الطَّويلة للعيان في الأُفق الغَربي.

- «دعك من أن النَّاقوس لم يُدَق إلَّا مرَّةً واحدةً فقط طيلة ثلاثمئة عام»، قال پاتريك لثيون في اليوم التَّالي وهو يُطلِعه على تحذيرات أبيه ويتقاسَم معه إبريقًا من نبيذ التُّفَّاح الأخضر.

قال ثيون: «عندما هاجمَ أخي سيجارد». كان اللورد چيسون قد قتلَ رودريك جرايچوي تحت أسوار القلعة، وأجبرَ الرِّجال الحديديِّين على الانسحاب إلى الخليج. «إذا كان أبوك يعتقد أني أكنُّ له عداوةً ما، فالسَّبب فقط أنه لم يعرف رودريك». ضحكَ الاثنان معًا على التَّعليق وهما ينطلقان إلى زوجة طحَّانٍ شابَّة حسناء يعرفها پاتريك. ليت پاتريك كان معي الآن. ماليستر أو لا، تظلُّ صُحبته ألطف بكثير من هذا الرَّاهب العجوز العابس الذي أصبحه عمُّه آرون.

التفَّ الدَّرب الذي يَسلُكانه إلى أعلى وأعلى بين التِّلال الحجريَّة العارية، وسرعان ما غابَ البحر عن أنظارهما، وإن ظلَّت رائحة الملح اللَّاذعة عالقةً في الهواء الرَّطب، وحافَظا على حركتهما المتهادية وهما يَمُرَّان بمزرعة راعٍ صغيرة ومنجمٍ مهجور. آرون جرايچوي المتديِّن الجديد هذا لا يعبأ بالكلامَ

حقًّا، وهكذا تحرَّكا والصَّمت يُخَيِّم عليهما حتى نفدَت قُدرة ثيون على احتماله أخيرًا، وقال: «روب ستارك سيِّد وينترفل الآن».

قال آرون ماضيًا في طريقه: «لا فارق كبيرًا بين ذئب وآخَر».

- «روب نقضَ ولاءه للعرش الحديدي وتوَّج نفسه ملكًا في الشَّمال. هناك حرب محتدمة».

- «غِدفان المِايستر تطير فوق الملح كما تطير فوق الصَّخر، وهذه الأخبار قديمة».

- «كلُّ هذا يعني أن يومًا جديدًا أتى يا عمَّاه».

- «كلُّ صباح يأتي لنا بيوم جديد، تمامًا كسابقه».

- «سيُخالِفونك الرَّأي في ريفرِرَن. يقولون إن المذنَّب الأحمر بشير عصرٍ جديد، إنه رسول من الآلهة».

قال الرَّاهب: «هو علامة حقًّا، ولكن من إلهنا نحن وليس آلهتهم. إنه وَسْمٌ متَّقد كالذي كان قومنا يحملونه قديمًا، لهب الإله الغريق المنبثق من مياه البحر ، ليُعلِن أن المَدَّ يرتفع. لقد حان الوقت لأن نفرد أشرعتنا ونَخرُج إلى العالم بالنَّار والسَّيف كما فعلَ هو».

ابتسم ثيون قائلًا: «متَّفقٌ تمامًا».

- «اتِّفاق الإنسان مع الإله كاتِّفاق قطرة ماءٍ مع عاصفة».

قطرة الماء هذه ستكون ملكًا يومًا ما أيها العجوز. كان ثيون قد اكتفى تمامًا من اكفهرار عمِّه، فوكزَ حصانه وتقدَّم به وعلى شفتيه تتلاعَب ابتسامة.

كانت الشَّمس تميل إلى المغيب بالفعل عندما بلغا أسوار پايك الحجريَّة الدَّاكنة، التي تتَّخذ شكلًا هلاليًّا وتمتدُّ بين جُرفين، بينما يقبع مبنى البوَّابة في المنتصَف، وترتفعُ ثلاثة أبراج مربَّعة على كلِّ جانب. ما زال ثيون يستطيع تمييز الآثار التي تركَتها أحجارُ مجانيق روبرت باراثيون، وإن لاحظَ أن بُرجًا جَنوبيًّا جديدًا قد أقيمَ من أطلال البُرج القديم، لون حجارته الرَّمادي أفتح درجةً من غيره، وما زالت رُقع الطَّحالب الخضراء لم تنتشر عليه. هذا هو المكان الذي فتحَ فيه روبرت ثَغرته، واقتحمَ المكان داهسًا الأنقاض والجُثث وفي يده مطرقته الحربيَّة وإلى جواره ند ستارك. شاهدَ ثيون كلَّ هذا من مكانٍ

آمنٍ في بُرج البحر، ولم يزل يرى المشاعل في أحلامه أحيانًا، ويسمع صوت الانهيار كالرَّعد المكتوم.

وجدَ البوَّابات مفتوحةً أمامه والشَّبكة الحديديَّة الصَّدئة مرفوعةً، وفي الشُّرفات راقبَ الحَرس بأعيُن الغُرباء وقد عادَ ثيون جرايچوي إلى بيته أخيرًا.

وراء السُّور الواقي يمتدُّ رأس بحري مساحته خمسون فدَّانًا، تتبايَن قسوته مع السَّماء والبحر. تقع الاسطبلات هنا، وأوجرة الكلاب كذلك، مع عددٍ من المباني الفرعيَّة المتناثرة هنا وهناك، بينما تربض الخراف والخنازير في حظائرها، وتتحرَّك كلاب القلعة بحرِّيَّة. إلى الجَنوب هناك الجُروف والجسر الحجري الواسع الذي يقود إلى الحصن الكبير. ترامى صوت انكسار الأمواج إلى مسامع ثيون وهو يثب عن ظَهر حصانه، الذي جاءَ عامل اسطبل ليأخذه، فيما رمقَه طفلان هزيلان وعدد من الخدم بنظراتٍ خاوية، لكن لم يكن هناكَ أثر للسيِّد والده أو أيٍّ أحدٍ آخَر يتذكَّره من صِباه. عودٌ غير حميد على الإطلاق. لم يترجَّل الرَّاهب، فقال له: «ألن تبقى اللَّيلة وتُشارِكنا الطَّعام والشَّراب يا عمَّاه؟».

- «قيلَ لي أن أُحضِرك، وقد أحضَرتك، والآن أعودُ إلى شؤون إلهنا»، ودار آرون جرايچوي بحصانه وتحرَّك به ببطءٍ تحت أعواد الشَّبكة الحديديَّة المدبَّبة الملوَّثة بالوحل.

دنَت منه عجوز شمطاء محنيَّة الظَّهر ترتدي ثوبًا رماديًّا قبيحًا، وقالت له بحذر: «سيِّدي، أنا هنا لأريك مسكنك».

- «بأمر مَن؟».

- «السيِّد والدك يا سيِّدي».

خلعَ ثيون قُفَّازيه، وقال: «تعرفين من أكونُ إذن. لماذا لم يأتِ أبي لتحيَّتي؟».

- «إنه ينتظرك في بُرج البحر يا سيِّدي، بَعدما تستريح من رحلتك».

وحسبتُ ند ستارك باردًا. «ومن تكونين؟».

- «هيليا، التي ترعي هذه القلعة للسيِّد والدك».

- «سايلاس كان الوكيل هنا. كانوا يُلَقِّبونه بكريه الأنفاس». حتى الآن يستطيع ثيون أن يتذكَّر رائحة النَّبيذ العطنة التي كانت تُفعِم أنفاس العجوز.

- «ماتَ منذ خمسة أعوام يا سيِّدي».

- «وماذا عن المِايستر كالن؟ أين هو؟».

- «نائم في البحر. ويِنداميريُعنى بالغِدفان الآن».

كأني غريب هنا. كلُّ شيءٍ كما هو، وكلُّ شيءٍ تغيرَّ. قال آمرًا: «اصحبيني إلى مسكني يا امرأة»، فانحنَت العجوز بحركةٍ متصلِّبة وقادَته عبر الرَّأس البحري إلى الجسر. على الأقل يظلُّ الجسر كما يتذكَّره، بحجارته العتيقة الزَّلقة من جرَّاء الرَّذاذ، والطَّحالب المنتشرة عليها، والبحر يرغي ويزبد تحت أقدامهما كوحشٍ ضارٍ عملاق، والرِّيح المالحة تتشبَّث بثيابهما.

متى تخيَّل ثيون عودته إلى وطنه، كان يرى نفسه دائمًا يعود إلى غُرفة النَّوم الوثيرة في بُرج البحر، التي كان ينام فيها طفلًا، لكن بدلًا من هذا قادَته العجوز إلى الحصن الدَّامي. هنا القاعات والغُرف أوسع وأفضل تأثيثًا، وإن كانت لا تقلُّ برودةً ورطوبةً عن غيرها. أُعطيَ ثيون جناحًا من الغُرف الباردة ذات السُّقوف العالية جدًّا حتى إن الظَّلام يبتلعها، وكان ليَشعُر برضا أكثر لو لم يكن يعلم أن هذه الغُرف بالتَّحديد هي التي منحَت الحصن الدَّامي اسمه، فقبل ألف عام ذُبِحَ أبناء ملك النَّهر هنا، ومُثِّل بجُثثهم في أسرَّتهم كي تُرسَل قِطع منها إلى أبيهم على البَر.

لكن أولاد جرايچوي لا يُقتَلون على أيدي إخوتهم في پايك إلَّا كل ردحٍ من الزَّمن، كما أن أخويه ميتان على كلِّ حال. لم يكن الخوف من الأشباح هو ما جعلَه يتطلَّع حوله بنفور، فمعلَّقات الجدران خضراء من فرط العفن المنتشر فيها، وحشيَّة الفِراش مرتخية وتفوح منها رائحة كريهة، والملاءات والأغطية قديمة ومتيبِّسة. سنوات كاملة جاءَت وراحَت منذ فُتِحَ هذا الجناح آخِر مرَّة، والرُّطوبة تَنخُر العظام. قال للشَّمطاء: «أريدُ طَستًا من الماء السَّاخن ونارًا في هذا المستوقَد، واعملي على أن يُوقِدوا المستوقَدات في الغُرف الأخرى لتَطرُد شيئًا من البرودة، واجعلي أحدًا يأتي لتبديل هذه الملاءات في الحال بحقِّ الآلهة».

- «نعم يا سيِّدي، كما تأمر»، قالت وولَّت الأدبار.

مَرَّ بعض الوقت قبل أن يُحضِروا الماء السَّاخن الذي طلبَه، فوجدَه فاترًا، وسرعان ما بردَ، ثم إنه كان ماء بحر، لكنه كفى لغسل تُراب الرِّحلة الطَّويلة من المرفأ عن وجهه ويديه. فيما أشعلَ اثنان من الخدم المستوقَدات، تجرَّد ثيون من ثيابه التي لوَّثها السَّفر، وارتدى ثيابًا نظيفةً ليلتقي أباه. اختارَ حذاءً طويل العُنق من الجلد الأسود اللَّين، وسراويل رماديَّةً تميل إلى الفضِّي من صوف الحِملان النَّاعم، وسُترةً مخمليَّةً سوداء طُرِّز كراكن عائلة جرايچوي الذَّهبي على صدرها. حول عُنقه وضعَ سلسلةً ذهبيَّةً رفيعةً، وحول خصره حزامًا من الجِلد المبيَّض، وعلَّق خنجرًا على وَركه وسيفًا طويلًا على الوَرك الآخَر، كلاهما في غمدٍ مخطَّط بالأسود والذَّهبي. سحبَ الخنجر واختبرَ نصله بإبهامه، ثم سحبَ مِشحذًا من جراب في حزامه ومرَّر حافة الخنجر عليه بضع مرَّات. «أنتظرُ أن أجد المكان دافئًا والملاءات نظيفةً عندما أعودُ»، قال للخدم منذرًا وهو يرتدي زوجًا من القُفَّازات السَّوداء، حريرهما مزيَّن بأشكالٍ شجريَّة خيوطها من ذهب.

عادَ ثيون إلى الحصن الكبير عبر ممشى حجري مغطًّى، يمتزج صدى خطواته بهدير مياه البحر اللا نهائي القادم من أسفل. للوصول إلى بُرج البحر القائم على عموده المتآكل، اضطرَّ لعبور ثلاثة جسورٍ أخرى، كلٌّ منها أضيق من سابقه، وآخِرها مصنوع من الخشب والحبال، فجعلَته الرِّيح المالحة المبتلَّة يتأرجَح تحت قدميه ككائنٍ حي. كان قلب ثيون في فمه بالفعل وقد قطعَ نِصف الطَّريق، وبعيدًا في الأسفل نثرَت الأمواج خيوطًا طويلةً من الرَّذاذ وهي تنكسر على الصَّخرة. في صِباه كان يجري جريًا على هذا الجسر، حتى في سواد اللَّيل، والآن همسَت له شكوكه: الصِّبية يؤمنون بأن لا شيء يُمكنه أن يؤذيهم، لكن الرِّجال البالغين أعقل من هذا.

كان الباب من الخشب الرَّمادي المدعَّم بالحديد، الخشب رطب وبالٍ والدِّعامات الحديديَّة صدئة، وقد وجدَه ثيون موصَدًا من الدَّاخل فدقَّه بقبضته، وأطلقَ سُبَّةً عندما اشتبكَت شظية بنسيج قُفَّازه.

بَعد وهلةٍ انفتحَ الباب من الدَّاخل، ولاحَ حارس يرتدي واقي صدرٍ أسود حديديًّا وخوذةً عظيمةً، وقال: «أنت الابن؟».

قال ثيون: «ابتعد عن طريقي، وإلَّا ستتعلَّم من أكونُ»، فانزاحَ الرَّجل جانبًا، وصعدَ ثيون الدَّرجات الملتوية إلى الغُرفة الشَّمسيَّة، حيث وجدَ أباه جالسًا إلى جوار مستوقَدٍ تحت معطفٍ من جِلد الفقمات البالي، يُغَطِّيه من قدميه إلى ذقنه. مع وقع الخطوات على الحجر، رفعَ سيِّد جُزر الحديد عينيه ليتطلَّع إلى آخِر من تبقَّى على قيد الحياة من أبنائه. كان أصغر حجمًا مما يتذكَّره ثيون، وشديد النُّحول. دائمًا ما كان بالون جرايچوي نحيلًا، إلَّا أنه يبدو الآن كأن الآلهة وضعَته في مرجلٍ وسلقَت كلَّ ما في جسمه من لحم حتى انفصلَ عن عظامه، فلم يتبقَّ شيء غير الجِلد والشَّعر. نحيلٌ كالعظام هو، وصُلب مثلها، وجهه يبدو كما لو أنه قُدَّ من حجر الصوَّان، وعيناه تحملان الطَّابع نفسه، سوداوان حادَّتان، لكن السِّنين والرِّيح المالحة أحالَتا شَعره إلى لونٍ رماديٍّ كالبحر في الشِّتاء، وأشاعَت فيه الشَّيب هنا وهناك، وإن انسابَ بلا رباطٍ حتى تجاوزَ أسفل ظَهره.

أخيرًا قال اللورد بالون: «تسعة أعوام؟».

– «عشرة»، أجابَ ثيون وهو يخلع قُفَّازه الذي تمزَّق.

قال أبوه: «صبيًّا أخَذوا، فماذا تكون الآن؟».

– «أنا رجل، دمك ووريثك».

أطلقَ اللورد بالون نخيرًا، وقال: «سنرى».

ردَّد ثيون مؤكِّدًا: «نعم، سنرى».

– «عشرة أعوام تقول، أي أن ستارك حظيَ بك مدَّةً مماثلةً لي، والآن تأتي مندوبًا عنه».

– «ليس هو، اللورد إدارد ماتَ، قطعَت الملكة ابنة لانستر رأسه».

– «كلاهما ماتَ، ستارك وروبرت هذا الذي حطَّم أسواري بأحجاره. لقد أقسمتُ أن أحيا حتى أرى كليهما في قبره، وقد كانَ»، وأردفَ مكشِّرًا: «لكن مفاصلي لا تزال تتوجَّع من البرد والرُّطوبة، تمامًا كما كانت تفعل وهما حيَّان، فما الفائدة إذن؟».

قال ثيون: «هناك فائدة»، واقتربَ مضيفًا: «إن معي رسالة...».

- «هل علَّمك ند ستارك أن ترتدي هذه الثِّياب؟»، قاطَعه أبوه وقد ضيَّق عينيه من تحت معطفه. «أكانت رغبته أن يُلبِسك المخمل والحرير ويجعل منك ابنته الحُلوة؟».

شعرَ ثيون بالدِّماء تصعد إلى وجهه، وقال: «لستُ ابنة أحد. سأبدِّلُ ثيابي إذا كانت لا تُعجِبك».

- «ستفعل». أزاحَ اللورد بالون الأغطية وألقاها، ودفعَ نفسه لينهض، فرأى ثيون أنه ليس بالطُّول الذي يتذكَّره. «تلك الحِلية الرَّخيصة حول عُنقك، هل اشتريتها بالذَّهب أم الحديد؟».

مَسَّ ثيون السِّلسلة الذَّهبيَّة. لقد نسيَ... ومَرَّ وقت طويل جدًّا... في «النَّهج القديم»، تستطيع النِّساء التزيُّن بالحُلِيِّ المُشتراة بالنُّقود، لكن المُحارِب لا يرتدي إلَّا الجواهر التي أخذَها من جُثث أعدائه الذين قتلَهم بنفسه، ما يُسَمِّيه أهل الجُزر «دفْع الثَّمن الحديدي».

- «وجهك مضرَّج بحُمرة الخجل كبنتٍ عذراء يا ثيون. سألتك سؤالًا، هل دفعت الثَّمن ذهبًا أم حديدًا؟».

أجابَ ثيون: «ذهبًا».

دَسَّ أبوه أصابعه تحت السِّلسلة، وشدَّها بعُنفٍ كان كفيلًا بأن يخلع رأس ثيون من على كتفيه لو لم تنقصم السِّلسلة أولًا. «ابنتي اتَّخذت من فأسٍ عشيقةً لها»، قال اللورد بالون. «ولن أسمح أن يُزَيِّن ابني نفسه كالعاهرات»، وألقى السِّلسلة المقطوعة على المستوقَد، حيث انزلقَت بين الجمرات. «ما كنتُ أخشاه تحقَّق، الأراضي الخضراء جعلَتك ناعمًا وأولاد ستارك جعلوك واحدًا منهم».

- «أنت مخطئ، ند ستارك كان سجَّاني، لكن دمي لا يزال ملحًا وحديدًا».

استدارَ اللورد بالون ليُدفئ يديه المعروقتين على المستوقَد، وقال: «ومع ذلك يبعثك جرو ستارك إليَّ كغُدافٍ مدرَّب يقبض على رسالته الصَّغيرة».

- «ليس هناك شيء صغير في الرِّسالة التي أحملها، والعرض الذي يُقَدِّمه كان من اقتراحي أنا».

بدَت الفكرة طريفةً للورد بالون الذي قال: «الملك الذِّئب يُصغي لنصائحك إذن؟».

- «يُصغي لي، نعم. لقد خرجتُ للصَّيد معه، وتدرَّبت معه، وتقاسَمتُ معه الطَّعام والشَّراب، وقاتلتُ إلى جانبه، ولهذا استحققتُ ثقته. إنه يعتبرني أخًا أكبر، و...».

- «لا!»، قال أبوه ملوِّحًا بإصبعه في وجهه. «ليس هنا، ليس في پايك، ليس على مسامعي، لن تُسَمِّيه أخاك، ذلك الذي أنجبَه الرَّجل الذي قتلَ أخويك، أم أنك نسيت رودريك وماورن اللذين كانا من لحمك ودمك؟».

- «لم أنسَ شيئًا». لم يَقتُل ند ستارك أيًّا من أخويه في الحقيقة، فرودريك أسقطَه اللورد چيسون ماليستر في سيجارد، وماورن سُحِقَ تحت أنقاض البُرج الجَنوبي القديم... على أن ستارك كان ليَقتُلهما بلا تردُّدٍ لو ألقى تيَّار المعركة بهما في طريقه. قال ثيون بإصرار: «أتذكَّر أخويَّ جيدًا جدًّا». إنه يتذكَّر في الغالب دعابات رودريك وهو ثمل، ومزاح ماورن القاسي وكذبه اللا نهائي. «وأتذكَّرُ عندما كان أبي ملكًا أيضًا»، وأخرجَ رسالة روب ومَدَّ يده بها قائلًا: «هاك. اقرأ... يا جلالة الملك».

كسرَ اللورد بالون الختم وبسطَ الرَّق، وجاسَت عيناه السَّوداوان في السُّطور جيئةً وذهابًا، ثم قال: «إذن سيُعطيني الصَّبي تاجًا من جديد، وكلّ المطلوب مني أن أدمِّر أعداءه»، ولوى شفتيه الرَّفيعتين راسمًا عليهما ابتسامة.

- «روب عند قلعة «النَّاب الذَّهبي» الآن، وبمجرَّد أن تَسقُط، سيَعبُر التِّلال في غضون يوم واحد. جيش اللورد تايوين في هارنهال، مفصول عن الغَرب، وقاتِل الملك أسير في ريڤررَن، وبخلاف السير ستافورد لانستر والجُند الخُضر عديمي الخبرة الذين جمعَهم، لم يبقَ هناك من يُواجِه روب في الغَرب. سيضع السير ستافورد نفسه بين جيش روب ولانسپورت، ما يعني أن المدينة ستكون بلا دفاعات عندما ننزل عليها من البحر. إذا كانت الآلهة معنا، فحتى كاسترلي روك نفسها قد تَسقُط قبل أن يُدرِك آل لانستر أننا نُهاجِمهم أصلًا».

دمدمَ اللورد بالون: «كاسترلي روك لم تَسقُط من قبل قَطُّ».

مبتسمًا قال ثيون: «حتى الآن». وكم سيكون هذا رائعًا.

لم يُبادِله أبوه الابتسام، وقال: «ألهذا إذن يُعيدك روب ستارك إليَّ بَعد كلِّ هذه السِّنين؟ كي تَحصُل عليَّ موافَقتي على خطَّته هذه؟».

رَدَّ ثيون مزهوًّا: «إنها خطَّتي». من صُنعي أنا، كما سيكون النَّصر لي أنا، والتَّاج عندما يحين الوقت. «سأقودُ الهجوم بنفسي إذا أذنت لي، وكمكافأةٍ أطلبُ منك أن تمنحني كاسترلي روك لتكون مقرِّي الخاص، بَعد أن نأخذها من آل لانستر». سيطرته على «الصَّخرة» ستُمَكِّنه من الحفاظ على لانسپورت وأراضي الغَرب الذَّهبيَّة، ما يعني ثروةً ونفوذًا لم تعرفهما عائلة جرايچوي في تاريخها كله.

قال أبوه: «إنك تُغدِق نفسك بالمكافآت على مجرَّد فكرةٍ وبضع كلماتٍ مكتوبة»، ثم قرأ الرِّسالة من جديد قبل أن يستطرد: «الجرو لا يَذكُر شيئًا عن أيِّ مكافآت، يقول فقط إنك تتكلَّم نيابةً عنه وإن عليَّ الإصغاء، وأن أعطيه سُفني وسيوفي، وفي المقابل سيُعطيني تاجًا»، ورفعَ عينيه الصوَّانيَّتين ليَنظُر في عيني ابنه مباشرةً، وكرَّر وقد اكتسبَ صوته حدَّةً ملحوظةً: «سيُعطيني تاجًا!».

- «مجرَّد اختيار غير موفَّق للكلمات. المقصود أن...».

- «المقصود هو ما قيلَ. الصَّبي سيُعطيني تاجًا، وما يُعطَى من الممكن أن يؤخَذ ثانيةً». ألقى اللورد بالون الرِّسالة في المستوقَد فوق السِّلسلة، فتجعَّد الرَّق واسودَّ واشتعلَت فيه النَّار.

مشدوهًا صاحَ ثيون: «هل جُننت؟».

هوى أبوه على وجهه بصفعةٍ موجعةٍ بظاهر يده، وقال: «صُن لسانك. أنت لست في وينترفل الآن، وأنا لستُ روب الصَّبي كي تُخاطِبني هكذا. أنا الجرايچوي الكبير، سيِّد حصاد پايك، ملك الملح والصَّخر، ابن رياح البحر، ولم يُخلَق من يمنحني تاجًا. إنني أدفعُ الثَّمن الحديدي، وسوف آخذُ تاجي بنفسي كما فعلَ أورون أحمر اليد منذ خمسة آلاف عام».

تراجعَ ثيون مبتعدًا عن غضبة أبيه المباغتة، وقال حانقًا ووجنته لا تزال تخزه: «خُذه إذن، سَمِّ نفسك ملك جُزر الحديد، لا أحد سيُبالي... حتى

تنتهي الحروب ويتطلَّع المنتصر حوله فيرى العجوز الأحمق قابعًا على ساحله وعلى رأسه تاج من حديد».

ضحكَ بالون جرايچوي، وقال: «طيِّب، لستَ جبانًا على الأقل، ولستُ بالأحمق. هل تحسب أني أحشدُ سُفني كي أتفرَّج عليها وهي تتمايل في المرسى؟ إنني أنوي أن أقتطع لنفسي مملكةً بالسَّيف والنَّار... لكن ليس من الغَرب، وليس بدعوةٍ من الملك روب الصَّبي. كاسترلي روك قويَّة للغاية، واللورد تايوين داهية حقيقي. نعم، قد نستطيع أن نأخذ لانسپورت، لكننا لن نُحافِظ عليها أبدًا. كلا، إنني جائعٌ لثمرةٍ أخرى... أي نعم قد لا تكون بالنَّضارة والحلاوة نفسيهما، لكنها تتدلَّى من شجرتها ناضجةً وبلا أيِّ دفاعات».

كان ثيون ليسأل أين، لكن مع نهاية كلام أبيه كان قد أدركَ الإجابة.

دنيرس

أطلقَ الدوثراكي على المذنَّب اسم «شيراك كَييا»، أي «النَّجم النَّازف»، وهمهمَ المسنُّون منهم أنه نذير شُؤم، لكن دنيرس تارجاريَن رأته أول مرَّةٍ ليلة أحرقَت گال دروجو، اللَّيلة التي صحَا فيها تنانينها، وحدَّثت نفسها وقد شخصَت ببصرها إلى سماء اللَّيل والعجب يُفعِم قلبها: إنه بشير قدومي، أرسلَته الآلهة ليهديني الطَّريق.

لكن عندما ترجمَت هذا الخاطر إلى كلمات، قالت وصيفتها دوريا بتوجُّس: «الأرض الحمراء تقع في هذا الاتِّجاه يا گاليسي، يقول الخيَّالة إنها مكان مقفر رهيب».

- «يجب أن نَسلُك الطَّريق الذي يُشير إليه المذنَّب»، قالت داني بإصرار... وإن كانت الحقيقة أنه الطَّريق الوحيد المفتوح أمامها. إنها لا تجرؤ على الالتفاف شَمالًا إلى محيط الكلأ الشَّاسع المسمَّى بحر الدوثراكي، فأول گالاسار يُقابِلونه في طريقهم سيبتلعها ومن معها من ثُلَّةٍ بائسة بلا مشقَّةٍ تُذكَر، فيُقتَل المُحارِبون ويُستَعبَد البقيَّة، وأراضي قوم الحملان الواقعة جَنوب النَّهر ستكون مغلقةً أمامهم كذلك، خصوصًا أن عددهم أقلُّ من أن يستطيعوا الدِّفاع عن أنفسهم، حتى ضد هؤلاء القوم المسالمين، وليس هناك ما يدفع شعب اللازارين لأن يُكِنَّ لهم مودَّةً. كان من الممكن أن تتحرَّك مع مجرى النَّهر، نحو موانئ ميرين ويونكاي وأستاپور، لكن راگارو حذَّرها من أن گالاسار الگال پونو يَسلُك هذا الاتِّجاه، دافعًا آلاف الأسرى أمامه، ليبيعهم في أسواق لحم الإنسان الحي المفتوحة كالقروح المتقيِّحة على سواحل

خليج النخَّاسين. عندئذٍ ردَّت معترضةً: «ولماذا أخشى ڤونو؟ لقد كان الگو الخاص بدروجو، ودائمًا ما خاطَبني بدماثة».

قال السير چورا مورمونت: «ڤونو الگو كان يُخاطِبكِ بدماثة، ولكن ڤونو الگال سيَقتُلكِ. لقد كان أول من تخلَّى عن دروجو، وذهبَ عشرة آلاف مُحارِب معه، وأنتِ لديكِ مئة».

كلا، لديَّ أربعة، والبقيّة نساء ورجال مسنُّون مرضى وصِبية لم يُجدَل شَعرهم قَطُّ. قالت: «لديَّ التَّنانين».

- «ما زالوا مجرَّد أفراخ، ومن شأن ضربةٍ واحدةٍ بالأراخ أن تفتك بهم، وإن كان الأرجح أن يستولي ڤونو عليهم لنفسه. بيضات التَّنانين كانت أثمن من الياقوت، لكن التنِّين الحي لا يُقَدَّر بثمن، وليس هناك سوى ثلاثة في العالم أجمع. كلُّ من سيراهم سيطمع فيهم يا مولاتي».

قالت بشراسة: «إنهم مِلكي». لقد وُلِدوا من إيمانها وحاجتها، مُنِحوا الحياة بموت زوجها وابنها غير الوليد والمايجي ميري ماز دور، وخطَت داني إلى داخل النَّار والحياة تدبُّ فيهم، وشربوا اللَّبن من ثدييها الممتلئيْن. «لا أحد سيأخذهم مني وأنا حيَّة».

- «ولن تحيي طويلًا إذا قابلتِ گال ڤونو، أو گال چاكو، أو أيًّا من الآخَرين. يجب أن تذهبي حيث لا يذهبون».

كانت داني قد جعلَته أول فُرسان حَرسها الملكي، وعندما اتَّفقت نصيحة مورمونت المجرَّدة من المشاعر والأهواء مع النُّذر، أصبحَ مسارها جليًّا، فجمعَت قومها وامتطَت فَرسها الفضِّيَّة. كان شَعرها قد احترقَ عن آخِره في محرقة زوجها، فألبسَتها وصيفاتها فروة الهراكار الذي فتكَ به دروجو، أسد بحر الدوثراكي الأبيض. عملَ رأسه المخيف بمثابة قلنسوةٍ تُغَطِّي فروة رأسها العارية، والجِلد كمعطفٍ انسدلَ من على كتفيها وظَهرها. غرسَ التنِّين ذو اللَّون الشَّاحب مخالبه السَّوداء الحادَّة في لبدة الأسد ولَفَّ ذيله حول ذراعها، بينما اتَّخذ السير چورا مكانه المعتاد إلى جانبها.

- «سنتبع المذنَّب»، قالت داني لگالاسارها، وبمجرَّد أن أصدرَت الأمر

لم يرتفع صوت بالاعتراض. لقد كانوا قوم دروجو من قبل، لكنهم قومها الآن، ويُسَمُّونها «التي لم تحترق»، و«أُم التّنانين»، وكلمتها عندهم قانون.

هكذا انقسمَ مضيُّهم إلى الرُّكوب ليلًا واللَّوذ بخيامهم من الشَّمس نهارًا، ولم يَفُت وقت طويل حتى ثبتَت لداني حقيقة كلمات دوريا، فهذه الأصقاع ليست رحيمةً على الإطلاق، ومن ورائهم امتدَّ الأثر الذي خلَّفوه من الخيول الميتة والمحتضرة، فقد استحوذَ پونو وچاكو والآخَرون على أفضلها من قُطعان دروجو، تاركين لداني العجوز والضَّاوي والسَّقيم والعاجز، وأيَّ حيوانٍ مكسور أو معتلِّ المزاج، دون أن يختلف الأمر مع البَشر. قالت لنفسها: إنهم ليسوا أقوياء، لذا ينبغي أن أكون قوَّتهم، ويجب ألا أُبدي خوفًا أو ضَعفًا أو شَكًّا. مهما سكنَت المخاوف قلبي، فيجب ألَّا يروا غير ملكة دروجو عندما ينظُرون إلى وجهي. أحسَّت أنها أكبر من سني عُمرها الأربعة عشر، وإذا كانت فتاةً صغيرةً حقًّا من قبل، فتلك المرحلة من حياتها ولَّت.

ماتَ الرَّجل الأول بَعد ثلاثة أيام من الزَّحف. كان عجوزًا أهتم ذا عينين زرقاوين غائمتين، وسقطَ متهالكًا من فوق سَرجه ولم يستطِع النُّهوض ثانيةً، وبَعد ساعةٍ فارقَ الحياة، ليحوم الذُّباب الدَّموي حول جثَّته ويحمل نُذر الشُّؤم إلى الأحياء. قالت وصيفتها إيري: «لقد عاشَ أطول من اللَّازم بالفعل، فلا ينبغي أن يبقى الرَّجل حيًّا بَعد أن تموت أسنانه كلها»، واتَّفق الآخَرون معها، أمَّا داني فأمرَتهم بقتل أضعف خيولهم المحتضرة كي يَدخُل الرَّجل الميت أراضي اللَّيل راكبًا. وبَعد ليلتين ماتَت فتاة صغيرة، واستمرَّ عويل أمِّها المكلومة طول اليوم، ولكن لم يكن هناك ما يُمكن فعله. كانت الطِّفلة المسكينة أصغر من أن تركب، إذن فليس لها كلأ أراضي اللَّيل الأسود السَّرمدي، ولا بُدَّ أن تولَد من جديد.

الصَّالح للأكل في القَفر الأحمر قليل، والماء أقلُّ وأقلُّ. في هذه الأرض البور الموحشة تتناثَر التِّلال الواطئة والسُّهول القاحلة التي تذرو الرِّيح رمالها، والأنهار التي عبَروها كانت جافَّةً تمامًا كعظام الموتى. اقتاتَت خيولهم على العُشب الشَّيطاني، الذي ينمو في كُتَل بنِّيَّة قاسية حول قواعد الصُّخور والشَّجر الميت، وأرسلَت داني كشَّافةً يستطلِعون ما يقع أمام الرَّكب، لكنهم لم يجدوا

آبارًا أو ينابيع، بل مجرَّد بِرَكٍ من المياه الرَّاكدة الضَّحلة ذات الطَّعم المُر، تتضاءَل بلا توقُّفٍ في حرارة الشَّمس. كلما توغَّلوا أكثر في الأرض الخراب صارَت البِرك أصغر، بينما تعاظمَت المسافات بينها، ولو كانت هناك آلهة في هذه البراري المهجورة التي قُدَّت من الرِّمال والحجارة والطَّمي الأحمر، فهي آلهة قاسية جافَّة، تصمُّ آذانها عن صلوات استجلاب المطر.

نفدَ النَّبيذ أولًا، وبَعد فترةٍ قصيرةٍ لحقَ به حليب الفَرس المختَّر، الذي يُحبُّه سادة الخيول أكثر من البِتع[1]، كما نفدَ مخزونهم من كلٍّ من أقراص الخُبز واللَّحم المجفَّف، بينما لم يَعثُر صيَّادوهم على أيِّ طرائد، فلم يملأ بطونهم غير لحم خيولهم الميتة. تبعَ الموتُ الموتَ، وسقطَ الأطفال الضُّعفاء والنِّساء الشَّمطاوات والمرضى والحمقى والغافلون ضحيَّةً للأرض الجَدباء، وأصابَ الهزال دوريا وغارَت عيناها، وباتَ شَعرها الذَّهبي النَّاعم هشًّا كالقَش.

تضوَّرت داني جوعًا واشتعلَت ظمأً كسائر قومها، وجَفَّ اللَّبن في ثدييها، وتشقَّقت حلمتاها وسالَ منهما الدَّم، ونحلَ جسدها أكثر فأكثر مع كل يوم يمرُّ حتى أصبحَت متيبِّسةً رفيعةً كالعصا، لكن خشيتها كلها كانت على تنانِّينها. لقد قُتِلَ أبوها قبل أن تولَد، وأخوها العظيم ريجار كذلك، وماتَت أمُّها وهي تأتي بها إلى الدُّنيا بينما هاجَت العاصفة في الخارج، والسير ويلم داري طيِّب القلب، الذي لا بُدَّ أنه أحبَّها بشكلٍ أو بآخَر، أخذَه مرض عضال وهي صغيرة جدًّا—كلُّ هؤلاء فارَقوا الحياة، وكذلك أخوها ڤسيرس، وشمسها ونجومها ﮔال دروجو، وحتى ابنها الذي لم يولَد... كلهم أخذَتهم الآلهة. لكنها لن تأخذ تنانيني، لن تأخذهم أبدًا.

لم يزد حجم التَّنانين على القِطط المهزولة، التي رأتها تتسكَّع ذات مرَّةٍ عند أسوار ضيعة الماچستر إليريو في پنتوس... إلى أن بسَطوا أجنحتهم، التي يَبلُغ مداها ثلاثة أضعاف طول كلٍّ منهم، وكلُّ جناح كمروحةٍ رقيقةٍ من الجِلد شِبه الشفَّاف، رائع الألوان، ومشدود عن آخِره بين العظام. عندما تتطلَّع إليهم

(1) البِتع هو نبيذ العسل.

جيِّدًا، ستجد أن معظم أجسادهم يتكوَّن من العُنق والذَّيل والجناحين. يا لهم من أشياء صغيرة، فكَّرت وهي تُطعِمهم بيدها، أو تُحاول إطعامهم بالأحرى، فالتَّنانين يَرفُضون الأكل، ويفحُّون ويتفلون مع كلِّ لقيمةٍ داميةٍ من لحم الحصان، ويتصاعَد البُخار من طاقات أنوفهم، ومع ذلك ما زالوا لا يمسُّون الطَّعام... إلى أن تذكَّرت داني شيئًا قاله لها ڤسيرس في طفولتهما: لا يأكل اللَّحم المطبوخ غير التَّنانين والبَشر. هكذا، عندما جعلَت وصيفاتها يشوين لحم الحصان حتى اسودَّ كالفحم، التهمَه التَّنانين بشراهةٍ وانقضُّوا عليه برؤوسهم كالثَّعابين، ومنذ ذلك الحين وهُم يأكلون أضعاف وزنهم من اللَّحم يوميًّا ما دام محترقًا، وأخيرًا بدأ حجمهم يَكبُر وبدَت عليهم القوَّة. تعجَّبت داني من نعومة حراشفهم والحرارة الشَّديدة التي تنبعث منهم محسوسةً للغاية، لدرجة أن في اللَّيالي الباردة كان البخار يبدو كأنه يَخرُج من أجسادهم كلها.

في كلِّ مساء، عندما يبدأ الكالاسار التحرُّك، تختار تنِّينًا يقبع على كتفها، بينما تحمل إيري وچيكوي الاثنين الآخَرين في قفصٍ من الخشب المجدول، معلَّق بين حصانيهما على مسافةٍ قريبةٍ منها، كي لا تغيب داني عن أنظارهما أبدًا، فهذا هو السَّبيل الوحيد لإبقائهما خاملَيْن.

قالت لخيَّالة دمها في صباح بَعد رحلةٍ ليليَّةٍ طويلة: «تنانين إجون كانت مسمَّاة على أسماء آلهة ڤاليريا القديمة. تنِّين ڤيزينيا كان ڤاجهار، ورينس تنِّينها كان ميراكسس، بينما امتطى إجون الرُّعب الأسود بالريون. يُقال إن أنفاس ڤاجهار كانت ملتهبةً لدرجة أنها تُذيب دِرع الفارس وتطهوه داخلها، وإن ميراكسس كان يبتلع خيولًا كاملةً، أمَّا بالريون... فنيرانه كانت سوداء كحراشفه، وجناحاه كانا هائلين، يبتلع ظلُّهما بلدانًا كاملةً وهو يمرُّ فوقها».

كان الدوثراكي يتطلَّعون إلى أفراخها بنظراتٍ قلقة. أكبر الثَّلاثة أسود لامع، وحراشفه مجزَّعة بالقرمزي الزَّاهي كجناحيه وقرنه. غمغمَ آجو: «كاليسي، هذا بالريون وقد حَلَّ من جديد».

قالت برصانة: «قد يكون ما تقوله صحيحًا يا دم دمي، لكنه سيحمل اسمًا جديدًا في هذه الحياة الجديدة. سأسمِّي الثَّلاثة تيمُّنًا بهؤلاء الذين أخذَتهم

الآلهة. الأخضر سيكون ريجال، لأجل أخي الباسل الذي ماتَ على ضفاف الثَّالوث الخضراء. الأبيض والذَّهبي سيكون ڤسيريون، فمع أن ڤسيرس كان قاسيًا وضعيفًا وخوَّافًا، لكنه كان أخي رغم كلِّ شيء، وسيفعل تنِّينه ما لم يستطِع أن يفعله».

سألَها السير چورا مورمونت: «والأسود؟».

أجابَته: «الأسود اسمه دروجون».

لكن حتى مع نموِّ تنانينها ظَلَّ كالاسارها يذوي ويموت، فمن حولهم صارَت الأرض موحشةً أكثر، وحتى العُشب الشَّيطاني نفسه أصبحَ نادرًا، ونفقَت خيولهم في دروبها واحدًا تلو الآخَر، ليتناقَص عددها بشدَّةٍ جعلَت بعض قومها مرغَمين على السَّير على الأقدام. أصيبَت دوريا بالحُمَّى وساءَت حالتها مع كلِّ فرسخٍ قطَعوه، وتشقَّقت شفتاها وشاعَت في يديها القروح الدَّامية، وتساقطَ شَعرها في كُتَل، حتى جاء مساء ولم تقدر على امتطاء حصانها. قال چوجو إن عليهم أن يَترُكوها أو يُقيِّدوها إلى سَرجها، لكن داني تذكَّرت ليلةً في بحر الدوثراكي، عندما علَّمتها الفتاة اللايسينيَّة أسرارها كي يُحِبَّها دروجو أكثر، فسقَت دوريا ماءً من قِربتها الخاصَّة، ورطَّبت جبهتها بقطعة قُماشٍ مبتلَّة، وأمسكَت يدها حتى ماتَت مرتجفةً. عندئذٍ فقط سمحَت داني للكالاسار بالتحرُّك.

لم يروا أثرًا لأيِّ مسافرين غيرهم، وبدأ الدوثراكي يُتَمتِمون بخوفٍ أن المذنَّب قادَهم إلى جحيم ما، فذهبَت داني إلى السير چورا ذات صباحٍ وهُم يُخَيِّمون وسط مجموعةٍ من الأحجار السَّوداء التي صقلَتها الرِّيح، وسألَته: «أنحن ضائعون؟ أما من نهايةٍ لهذا القَفر؟».

أجابَها بإنهاك: «هناك نهاية. لقد رأيتُ الخرائط التي رسمَها التُّجَّار يا مولاتي، وصحيحٌ أن قوافل قليلة تمرُّ من هذا الطَّريق، لكن ثمَّة ممالك عظيمة تقع شَرقًا، ومُدن ملأى بالعجائب، يي تي، كارث، آشاي الواقعة عند الظِّل».

- «وهل سنحيا لنراها؟».

- «لن أكذبكِ القول، هذا الطَّريق أصعب مما جرؤتُ على الظَّن». كان وجه الفارس مربدًّا مرهقًا، إذ لم يندمل تمامًا الجرح الذي أصابَه ليلة قاتلَ

خيَّالة دم گال دروجو، وكانت ترى كيف تنقبض ملامحه ألمًا عندما يركب حصانه، وبدا أنه يتأرجح بلا إرادةٍ منه فوق سَرجه وهُم يتحرَّكون. «ربما نهلك إذا مضينا قُدمًا... لكنني أعلمُ علم اليقين أننا هالكون إذا عُدنا أدراجنا».

طبعَت داني قُبلةً خفيفةً على وجنته، وشجَّعها أن رأته يبتسم. يجب أن أكون قويةً من أجله أيضًا. قد يكون فارسًا، لكني دم التنِّين.

بِركة الماء التَّالية التي عثروا عليها كانت شديدة السُّخونة، وتفوح منها رائحة الكِبريت الكريهة، لكن ما في قِربهم كان على وشك النَّفاد بالفعل، وهكذا برَّد الدوثراكي الماء في الجرار والقدور وشربوه فاترًا، فوجدوا أن مذاقه كريه كرائحته، لكن الماء هو الماء، وكلُّهم كان يُعاني العطش لأقصى درجة. رمقَت داني الأُفق بيأس. لقد فقدوا ثُلث عددهم، ولا يزال القَفر يمتدُّ أمامهم أجرد وأحمر وبلا حدود. المذنَّب يسخر من آمالي، قالت لنفسها وهي ترفع عينيها إلى حيث يشقُّ السَّماء، هل عبرتُ نصف العالم وشهدتُ ميلاد التَّنانين، فقط كي أموت معهم في هذه الصَّحراء القاسية الملتهبة؟ لا يُمكنها أن تُصدِّق هذا.

طلعَ الفَجر في اليوم التَّالي وهُم يقطعون سهلًا امتلأَت تُربته الحمراء بالشُّقوق والصُّدوع، وكانت داني على وشك أن تأمرهم بنصب المخيَّم، عندما عادَ كشَّافتها مهرولين بخيولهم، وصاحوا: «مدينة يا گاليسي، مدينة شاحبة كالقمر وجميلة كالصَّبايا، لا تَبعُد أكثر من ساعة».

قالت لهم: «أروني».

عندما لاحَت المدينة أمامها، كانت أسوارها وأبراجها تتلألأ بيضاء من وراء حجابٍ من الحرارة، فبدَت رائعة الجمال لدرجةٍ حدَت بداني لأن توقِن من أنها محض سراب. سألَت السير چورا: «أتعرف أيُّ مكانٍ هذا؟».

هَزَّ الفارس المنفي رأسه بتعب، وأجابَ: «لا يا مولاتي، فلم أتوغَّل شَرقًا إلى هذا الحد من قبل».

كانت الأسوار البيضاء البعيدة تعدُ بالرَّاحة والأمان، فرصة للتَّعافي واسترداد القوَّة، ولم ترغب داني في شيءٍ أكثر من أن تهرع صوبها، لكنها

التفتَت إلى خيَّالة دمها بدلًا من هذا، وقالت: «يا دم دمي، اسبقونا واعرفوا اسم هذه المدينة، وأيُّ نوع من التَّرحيب نتوقَّع».

قال آجو: «حاضر يا گاليسي».

لم يغب خيَّالتها طويلًا، ووثبَ راگارو من فوق حصانه وقد تدلَّى الأراخ المقوَّس العظيم من حزامه المرصَّع بالجواهر، الأراخ الذي أسبغَته عليه داني عندما سمَّته خَيَّال دمٍ لها. «المدينة ميتة يا گاليسي، وجدناها بلا اسم وبلا آلهة، والبوَّابات محطَّمة، ولا يتحرَّك في الشَّوارع غير الهواء والذُّباب».

قالت چيكوي مرتجفةً: «عندما تغيب الآلهة، تُعَربِد الأرواح الشرِّيرة ليلًا. الأفضل أن نعرض عن تلك الأماكن. هذا معلوم».

ردَّدت إيري: «هذا معلوم».

- «ليس معلومًا لي»، قالت داني، ووكزَت فَرسها وانطلقَت تُريهم الطَّريق، وأسرعَت تَعبُر أسفل قنطرة البوَّابة العتيقة المحطَّمة، لتَدخُل شارعًا يحفُّه الصَّمت التَّام، فتبعها السير چورا وخيَّالة الدَّم، ثم تبعهم بقيَّة الدوثراكي متباطئين. لم تستطِع داني تخمين الفترة التي مرَّت منذ هُجِرَت المدينة، لكن الأسوار البيضاء التي بدَت رائعة الجمال من بعيد، اتَّضح أنها متصدِّعة على وشك الانهيار حين تُرى من قُرب. في الدَّاخل كانت متاهة من الأزقَّة الضيِّقة كثيرة المنعطَفات، والمباني دانية من بعضها بعضًا للغاية، واجهاتها طباشيريَّة مصمتة، وخالية من النَّوافذ، وكلُّ شيءٍ أبيض، كأن الشَّعب الذي عاشَ هنا ذات يومٍ لم يكن يدري شيئًا عن الألوان. مرُّوا بأكوام من الدَّبش البارِق في نور الشَّمس حيث تهاوى بعض البيوت، وفي أماكن أُخرى رأوا آثار حرائق، وفي بُقعةٍ تلتقي فيها ستَّة أزقَّة لمحَت داني قاعدة تمثالٍ رخاميَّة خالية. يبدو إذن أن الدوثراكي زاروا هذا المكان، ولربما يقف التِّمثال المفقود الآن وسط غيره من الآلهة المسروقة في ڤايس دوثراك، ولعلَّها مرَّت به مئة مرَّةٍ دون أن تعي.

على كتفها أطلق ڤسيريون فحيحًا.

خيَّموا أمام أطلال قصرٍ جُرِّدَ من محتوياته كافَّة، في ساحةٍ مكشوفة للرِّيح ينمو فيها العُشب الشَّيطاني بين أحجار الرَّصف. أرسلَت داني رجالًا

للتَّفتيش في الخرائب، وذهبَ بعضهم على مضض، لكنهم ذهبوا على كلِّ حال... ثم عادَ عجوز ذو ندوب بَعد مدَّة قصيرة وهو يتواثَب ضاحكًا وقد ملأَت ثمار التِّين يديه. كانت صغيرةً ذابلةً، لكن قومها أقبَلوا عليها بمنتهى النَّهم، يتزاحَمون ويتدافَعون فيما بينهم، ليحشوا أشداقهم بالفاكهة ويلوكوها بسعادة.

عادَ باحثون آخَرون بقصص عن أشجار فواكه أخرى مخبَّأة في حدائق سرِّيَّة وراء أبواب مغلقة، وأراها آجو فِناءً مكتظًّا بأفرُع الكرم الملتوية وعناقيد العنب الأخضر الضَّئيل، واكتشفَ چوجو بئرًا ماؤها نقيٌّ بارد، لكنهم وجدوا عظامًا كذلك، وجماجم الذين لم يُدفَنوا البيضاء المكسورة، ما جعلَ إيري تُتمتِم: «أشباح، أشباح رهيبة. ينبغي ألَّا نبقى هنا يا گاليسي، هذا مكانها».

- «لستُ أخافُ الأشباح. التَّنانين أقوى من الأشباح». والثِّمار أهمُّ. «اذهبي مع چيكوي واعثُرا لي على رمالٍ نظيفة للاستحمام، ولا أريدُ أن أسمع هذا الكلام السَّخيف ثانيةً».

في جَوِّ خيمتها المعتدل فحَّمت داني قِطعًا من لحم الحصان فوق مستوقَدٍ وتأمَّلت خياراتها. إن لديهم هنا طعامًا وماءً لغذائهم، وما يكفي من العُشب لأن تستردَّ الخيول قوَّتها، وسيكون من الجميل حقًّا أن تستيقظ كلَّ يوم في المكان نفسه، وتتسكَّع بين الحدائق الظَّليلة وتأكل التِّين وتشرب الماء البارد قدر ما شاءَت.

عندما عادَت إيري وچيكوي بجرار الرَّمل الأبيض، خلعَت داني ثيابها كي تُنَظِّفا جسدها فركًا، وقالت چيكوي وهي تكشط الرَّمل عن ظَهرها: «شَعركِ بدأ ينمو من جديد يا گاليسي»، فرفعَت داني يدها إلى قمَّة رأسها لتتحسَّس الشُّعيرات النَّابتة. يُطلِق رجال الدوثراكي شَعرهم في جدائل طويلة مدهونة بالزَّيت، ولا يَقُصُّونه إلَّا عندما يُهزَمون. ربما عليَّ أن أفعل المِثل، لأذكِّرهم بأنَّ قوَّة دروجو تعيش فيَّ الآن. لقد ماتَ گال دروجو دون أن يُقَصَّ شَعره أبدًا، وهو فخر لا يستطيع كثيرون ادِّعاءه.

على الجانب الآخَر من الخيمة بسطَ ريجال جناحيه الأخضرين، ليخفق ويُحَلِّق على ارتفاع نِصف قدمٍ قبل أن يَسقُط على البساط، وعندما حَطَّ تلوَّى

ذيله إلى الأمام والخلف غضبًا، ورفعَ رأسه مطلقًا صرخةً. لو كان لديَّ جناحان لأردت أن أطير أيضًا. لقد امتطى قُدماء عائلة تارجاريَن التَّنانين وهُم ذاهبون إلى الحرب، وحاولَت داني أن تتخيَّل كيف سيكون شعورها وساقاها تتدلَّيان حول عُنق تنِّين يشقُّ عنان السَّماء. مِثل الوقوف على قمَّة جبل، لكن أفضل. سينبسط العالمُ كله من تحتي، وإذا ارتفعتُ بما فيه الكفاية، فربما أرى الممالك السَّبع نفسها، وأمدُّ يدي لألمس المذنَّب.

أيقظَتها إيري من أحلامِ الصَّحو، لتُخبِرها أن السير چورا مورمونت في الخارج، ينتظر أمرها بالدُّخول. قالت داني مستشعرةً الوخز في بَشرتها المفروكة بالرِّمال: «دعيه يَدخُل»، ولفَّت نفسها بفروة الأسد. كان الهراكار أكبر حجمًا منها بكثير، فغطَّت فروته كلَّ ما يحتاج تغطيةً.

قال السير چورا راكعًا: «أحضرتُ لك خوخةً». كانت الثَّمرة صغيرةً جدًّا، لدرجة أنها تستطيع إخفاءها في راحة يدها، وزائدة النُّضج أيضًا، لكن عندما قضمَت منها كان اللَّحم شديد الحلاوة حتى إنها كادَت تبكي، فأكلَتها بتؤدةٍ مستطعمةً كلَّ قضمة، بينما حكى لها السير چورا عن الشَّجرة التي قطفَها منها، في حديقةٍ بالقُرب من السُّور الغَربي.

قالت داني وعصير الخوخ اللَّزج يسيل على خدَّيها: «فاكهة وماء وظِل. رحمة من الآلهة أن تأتي بنا إلى هذا المكان».

قال الفارس بحزم: «يجب أن نستريح هنا حتى نتعافى، فالأرض الحمراء لا ترأف بالضُّعفاء».

- «وصيفتاي تقولان إن هناك أشباحًا هنا».

رَدَّ السير چورا بهدوء: «هناك أشباح في كلِّ مكان. إننا نحملها معنا أينما ذهبنا».

نعم، ڤسيرس، گال دروجو، ابني ريجو، إنهم معي دومًا. «قُل لي اسم شبحك يا چورا، فأنت تدري كلَّ شيءٍ عن أشباحي».

تجمَّدت ملامحه تمامًا وهو يُجيب: «كان اسمها لينيس».

- «زوجتك؟».

- «زوجتي الثَّانية».

رأت داني أن الكلام عنها يُؤلِمه، لكنها أرادَت أن تعرف الحقيقة، فسألَته: «أهذا كلُّ ما لديك لتقوله عنها؟». انزلقَت فروة الأسد من على كتفها، فأعادَت تثبيتها في مكانها مضيفةً: «هل كانت جميلةً؟».

قال السير چورا رافعًا عينيه من كتفها إلى وجهها: «جدًّا. أول مرَّةٍ رأيتها، حسبتُ أنها إلهة نزلَت إلى الأرض، «العذراء» نفسها وقد تجسَّدت. كان نسبها أعلى مني بكثير، إذ كانت صُغرى بنات اللورد لايتون هايتاور من البلدة القديمة، والثَّور الأبيض الذي كان يقود حَرس أبيكِ الملكي كان عمُّها الكبير. هايتاور عائلة عريقة، شديدة الثَّراء والترفُّع».

عقَّبت داني: «والإخلاص. أذكرُ أن ڤسيرس قال إن هايتاور من العائلات التي حافظَت على ولائها لأبي».

- «هذا صحيح».

- «هل رتَّب أبوك الزِّيجة؟».

- «كلا، زواجنا... إنها حكاية طويلة ومملَّة يا جلالة الملكة، ولا أرغبُ في إزعاجكِ بها».

قالت: «ليس لديَّ ما أفعله. من فضلك».

أجابَها مقطِّبًا وجهه: «كما تأمر مَولاتي. إن وطني... يجب أن تفهمي هذا كي تستوعبي الباقي. جزيرة الدِّببة جميلة لكن منعزلة، تخيَّلي أشجار سنديان قديمة متشابكةً وأشجار صنوبر طويلةً، وشُجيراتٍ شائكة مُزهرة، وأحجارًا رماديَّةً مكسوَّة بالطُّحلب، وجداول تجري مياهها الباردة كالجليد على جوانب التِّلال المنحدرة. بهو عائلة مورمونت مبني من جذوع الأشجار الضَّخمة ومحاط بسياجٍ من الطِّين، وبخلاف عددٍ قليل من المُزارعين، يعيش ناسي على السَّواحل ويصطادون من البحر، فالجزيرة تقع بعيدًا في الشَّمال، والشِّتاء هناك أشنع مما تتخيَّلين يا خاليسي، لكن الجزيرة كانت تُناسِبني تمامًا على الرغم من هذا، ولم أفتقر إلى النِّساء قَطُّ، إذ أخذتُ نصيبي من زوجات الصيَّادين وبنات المُزارعين قبل زواجي وبَعده. تزوَّجتُ صغيرًا بعروسٍ من اختيار أبي، فتاة من عائلة جلوڤر في «ربوة الغابة»، وعشنا معًا عشرة أعوام أو ما يَقرُب من ذلك، لا فارق. كانت عاديَّة الملامح، لكن طيِّبةً القلب، وأعتقدُ

أني أحببتها بصورةٍ ما، وإن كانت علاقاتنا الحميمة على سبيل الواجب وليس بدافع العاطفة. ثلاث مرَّاتٍ أجهضَت وهي تُحاوِل أن تمنحني وريثًا، ولم تتعافَ قَطُّ بَعد آخِر مرَّة، وماتَت بَعدها بفترةٍ وجيزة».

وضعَت داني يدها على يده، واعتصرَت أصابعه قائلةً: «أنا آسفةٌ حقًّا».

أومأَ السير چورا برأسه، وتابعَ: «وقتها كان أبي قد التحقَ بحَرس اللَّيل، وأصبحتُ سيِّد جزيرة الدِّببة خلفًا له. لم أعانِ نقصًا من عروض الزَّواج، لكن قبل أن أستطيع اتِّخاذ قرار، بدأ بالون جرايچوي تمرُّده على الغاصب، واستدعى ند ستارك راياته ليُساعِد صديقه روبرت. دارَت المعركة الأخيرة في پايك، وعندما أحدثَت مجانيق روبرت ثغرةً في أسوار الملك بالون، كان راهب من مير أول من عبرَها، لكنني لم أكن وراءه بكثير، ولهذا ربحتُ فُروسيَّتي. بَعدها قضى روبرت أن تُقام دورة مباريات خارج لانسپورت احتفالًا بانتصاره، وهناك رأيتُ لينيس للمرَّة الأولى. كانت فتاةً في نِصف عُمري، أتَت من البلدة القديمة مع أبيها لترى أخاها في مضمار النِّزال. لم أقدر على رفْع عينيَّ عنها، وفي نوبة جنونٍ طلبتُ منها أن تمنحني عطيَّةً أرتديها أثناء النِّزال، دون أن أحلم حتى بأن تستجيب لي، لكنها فعلَت. إنني مُقاتِل جيِّد يا كاليسي، لكنني لم أكن من فُرسان المباريات قَطُّ، لكن حالما أحاطَت عطيَّة لينيس بيدي صرتُ رجلًا مختلفًا. فزتُ بنزالٍ تلو الآخَر، وسقطَ اللورد چيسون ماليستر أمامي، ويون رويس البرونزي، والسير رايمان فراي، وأخوه السير هوستين، واللورد وِنت، والسير لايل كراكهول الملقَّب بالعُفر القوي[1]، وحتى السير بوروس بلاونت فارس الحَرس الملكي—كلهم أسقَطتهم عن أحصنتهم. في المباراة الأخيرة كسرتُ تسع رماح ضد چايمي لانستر بلا نتيجة، وأعطاني الملك روبرت إكليل البطل، فتوَّجتُ لينيس ملكةً للحُبِّ والجمال، وفي اللَّيلة ذاتها ذهبتُ إلى أبيها وطلبتُ يدها. عادةً كنتُ لأتلقَّى ردًّا محمَّلًا بالاحتقار، لكن اللورد لايتون وافقَ على طلبي، وتزوَّجنا هناك في لانسپورت، وطيلة أسبوعين كنتُ أسعد رجلٍ في العالم أجمع».

(1) العُفر نوع من الخنازير البرِّيَّة الضَّارية.

سألَته داني: «طيلة أسبوعين فقط؟». حتى أنا مُنحتُ سعادةً أكثر من هذه، مع دروجو الذي كان شمسي ونجومي.

- «الأسبوعان هما المدَّة التي استغرقناها في الإبحار من لانسپورت إلى جزيرة الدِّببة. كان وطني بمثابة خيبة أملٍ كبيرة للينيس، شديد البرودة والرُّطوبة والعُزلة، وقلعتي ليست سوى بهوٍ طويل من الخشب ولم نكن نُقيم حفلاتٍ تنكُّريَّة أو نستضيف عروض الممثِّلين، وليست لدينا احتفالات أو مهرجانات، وقد تمرُّ فصول كاملة دون أن يمرَّ مغنٍّ واحد يُطربنا، وليس هناك صائغ على الجزيرة كذلك. حتى الوجبات أصبحَت مشكلةً، فطاهيَّ لم يكن يعرف أكثر من بضع وصفاتٍ للشِّواء واليخنة، وسرعان ما فقدَت لينيس شهيَّتها للأسماك ولحم الغزلان. كنتُ أعيشُ من أجل بسمتها، فأرسلتُ إلى البلدة القديمة طلبًا لطاهٍ جديد، وجئتُ بعازف قيثارةٍ من لانسپورت، ولبَّيتُ لها كلَّ رغبةٍ وعثرتُ لها على كلِّ مَن أرادَت من صاغة وجواهريِّين وخيَّاطات، لكن شيئًا من هذا لم يكفها، فجزيرتنا غنيَّة بالدِّببة والأشجار ولا شيء آخَر. بنيتُ لها سفينةً جميلةً وأبحَرنا إلى لانسپورت والبلدة القديمة لنتفرَّج على الاحتفالات والمهرجانات، وذهبنا مرَّةً إلى براڤوس، حيث اقترضتُ مالًا من الكثير من المُرابين. لقد فزتُ بيدها وقلبها باعتباري بطل دورة مباريات، فاشتركتُ في دوراتٍ أخرى في سبيلها، لكن السِّحر كان قد زالَ، فلم أنجح في التفوُّق على الجميع ثانيةً، وكلُّ هزيمةٍ كان معناها خسارة حصانٍ آخَر ودرعٍ أخرى، فكلاهما ينبغي أن يُدفَع ثَمنه أو يُستبدَل. لم أستطِع تحمُّل التَّكلفة، وأخيرًا أصررتُ على العودة إلى الدِّيار، لكن هناك ساءَت الأمور أكثر من ذي قبل، فلم أقدر على دفع أجر الطَّاهي أو عازف القيثارة، وجُنَّ جنون لينيس عندما عرضتُ أن نرهن جواهرها. الباقي... ثمَّة أشياء فعلتها أخجلُ من الكلام عنها، من أجل الذَّهب، كي تستطيع لينيس الاحتفاظ بجواهرها وعازفها وطاهيها، وفي النِّهاية كلَّفني هذا كلَّ شيء. عندما سمعتُ أن إدارد ستارك قادم إلى جزيرة الدِّببة، كان شَرفي ضائعًا مني تمامًا، حتى إني فضَّلتُ أن آخذها معي إلى المنفى بدلًا من أن أبقى وأواجه حُكمه. قلتُ

لنفسي إن شيئًا لا يهمُّ غير الحُب الحقيقي، وفررنا إلى لِيس، حيث بعتُ سفينتي لنعيش بثَمنها».

كانت نبرته مفعمةً بالأسى، وتردَّدت داني في الضَّغط عليه أكثر، لكنها أرادَت بشدَّة أن تعرف نهاية القصَّة، فسألَته برِفق: «هل ماتَت هناك؟».

أجابَها: «بالنِّسبة لي فقط. في غضون نِصف عام كنتُ قد أنفَقتُ ذهبي كلَّه، واضطررتُ لأن أخدم كمرتزِق، وبينما قاتلتُ البراڤوسي على ضفاف نهر الروين، انتقلَت لينيس للإقامة في إيوان تاجرٍ لايسيني اسمه تريجار أورمولن. يقولون إنها كُبرى محظيَّاته الآن، وحتى زوجته نفسها تخشاها».

قالت داني مصدومةً: «هل تكرهها؟».

- «بقَدر ما أحبُّها. اسمحي لي بالانصراف يا مولاتي، فأنا متعَب للغاية».

أعطَته الإذن بالانصراف، لكن إذ رفعَ سديلة باب خيمتها لم تستطِع أن تمنع نفسها من أن تُناديه بسؤالٍ أخير: «كيف كانت الليدي لينيس تبدو؟».

ابتسامة حزينة ارتسمَت على وجه السير چورا وهو يُجيب: «الحقيقة أنها تُشبهكِ يا دنيرس»، وانحنى بشدَّةٍ مضيفًا: «طابَت ليلتك يا مولاتي».

ارتجفَت داني وضمَّت فروة الأسد على جسدها بإحكام. كانت تُشبهني. هذا يُفَسِّر الكثير مما لم تفهمه من قبل حقًّا. إنه يُريدني، يُحِبُّني كما أحبَّها، ليست محبَّة الفارس لمليكته، بل الرَّجل لامرأة. حاولَت أن تتخيَّل نفسها في أحضان السير چورا، تُقَبِّله وتُمَتِّعه، تسمح له بأن يلجها، لكن بلا طائل، فكلما أغلقَت عينيها استحالَ وجهه إلى وجه دروجو.

كان گال دروجو شمسها ونجومها، أول عشقٍ لها، ولا مناص من أن يكون الأخير. المايجي ميري ماز دور أقسمَت إنها لن تحمل طفلًا حيًّا في أحشائها أبدًا، فأيُّ رجلٍ هذا الذي يرغب في زوجةٍ عاقر؟ وأيُّ رجلٍ هذا الذي يملك أيَّ أملٍ في أنْ يكون نِدًّا لدروجو، الذي ماتَ دون أن يُقَصَّ شَعره، ويمتطي جواده الآن في أراضي اللَّيل، والنُّجوم گالاساره.

لقد سمعَت نغمة الاشتياق في صوت السير چورا عندما تكلَّم عن جزيرة الدِّببة. هو لن يحظى بي أبدًا، لكن يُمكنني ذات يومٍ أن أعيد إليه دياره وشرَفه. أستطيعُ أن أفعل هذا القَدر من أجله.

لم تُقلِق الأشباح منامها تلك اللَّيلة، وحلمَت بدروجو وليلة زفافهما التي ركبا فيها معًا أول مرَّة، وفي الحُلم لم يركبا حصانين، بل تنِّينان. في الصَّباح التَّالي استدعَت خيَّالة دمها وخاطبَتهم قائلةً: «يا دم دمي، إنني أحتاجُ إليكم. على كلٍّ منكم أن ينتقي ثلاثة خيول، أقوى وأصحَّ ما تبقَّى لدينا، ويُحَمِّلها بأكبر كَمٍّ ممكنٍ من الماء والطَّعام. أريدكم أن تنطلقوا من أجلي. سيتَّجه آجو إلى الجَنوب الغَربي، وراگارو جَنوبًا، وأنت يا چوچو ستتبع شيراك كَيا في الجَنوب الشَّرقي».

سألها چوچو: «عمَّ سنبحث يا گاليسي؟».

أجابَته: «عن أيِّ شيءٍ موجود، ابحثوا عن المُدن الأخرى، الحيِّ منها والميت، ابحثوا عن القوافل والنَّاس، ابحثوا عن الأنهار والبحيرات والبحر المالح العظيم. اعرفوا كم تمتدُّ هذه الأرض اليباب أمامنا وما يقع على الجانب الآخَر، فعندما أغادرُ هذا المكان لا أنوي أن أتحرَّك كالعميان ثانيةً. أريدُ أن أعرف أين سأذهبُ، وأفضل وسيلةٍ للوصول».

وهكذا ذهبوا والأجراس في شَعرهم ترنُّ بخفوت، بينما استقرَّت داني مع جماعتها الصَّغيرة من النَّاجين في المدينة التي أطلقوا عليها اسم ڤايس تولورو، الذي يعني «مدينة العظام» بلسان الدوثراكي. تبعَ اللَّيلَ النَّهارُ وتبعَه اللَّيل، تقطف النِّسوة الفواكه من حدائق الموتى، ويسوس الرِّجال خيولهم ويُصلِحون سروجها ورُكْبها وحَذْواتها، ويجول الأطفال في الأزقَّة الملتوية ليَعثُروا على عُملاتٍ برونزيَّة قديمة وقطعٍ من الزُّجاج البنفسجي وأباريق حجريَّة مقابضها منحوتة على شكل ثعابين. امرأة لدغَها عقرب أحمر، لكنها الوحيدة التي ماتَت، وبدأت الخيول تستعيد وزنها من جديد، بينما طبَّبت داني جرح السير چورا بنفسها، فبدأ يندمل بالفعل.

كان راگارو أول الرَّاجعين، وأبلغَها أن القَفر الأحمر يمتدُّ جَنوبًا ويمتدُّ حتى ينتهي عند شاطئٍ أجرد على المياه السامَّة، وبين هنا وهناك لا يوجد غير دوَّامات الرِّمال، والصُّخور التي صقلَتها الرِّيح، والنَّباتات المليئة بالأشواك الحادَّة. أقسمَ أنه مَرَّ بعظام تنِّين، وكانت ضخمةً للغاية لدرجة أنه عبرَ بحصانه

من الفَكِّ الأسود العظيم، لكن عدا ذلك لم يرَ شيئًا. أعطَته داني اثني عشر من أقوى رجالها وكلَّفتهم بخلع أحجار السَّاحة ليصلوا إلى التُّربة من تحتها، فإذا كان العُشب الشَّيطاني ينمو بين حجارة الرَّصف، فستنمو أنواع أخرى من الأعشاب عندما تُزال الأحجار. إن لديهم ما يكفي من آبار، ولا يفتقرون إلى الماء، وإذا زُرِعَت البذور هنا فستُزهِر السَّاحة.

عادَ آجو بَعد ذلك، وأقسمَ أن الجَنوب الغَربي مقفر وقاحل تمامًا، وأخبرَها أنه عثرَ على مدينتين أخريين أصغر من ڤايس تولورو، لكن لا تختلفان عنها فيما عدا ذلك. إحداهما كانت محاطةً بحلقةٍ من الجماجم المعلَّقة على حراب حديديَّةٍ صدئة، فلم يَجسُر على الدُّخول، لكنه استكشفَ الثَّانية بقدر ما استطاعَ، وأرى داني سوارًا حديديًّا وجدَه، ثُبِّتَت فيه حلية من الأوپال بحجم إبهامها. وجدَ آجو مخطوطاتٍ كذلك، لكنها كانت جافَّةً على وشك التفتُّت، فتركَها حيث هي. شكرَته داني وقالت له أن يشرع في إصلاح البوَّابات. ما دام الأعداء قد عبروا القَفر الأحمر لتدمير تلك المُدن في سالف الدَّهر، فقد يأتون من جديد. «وإذا حدثَ هذا، ينبغي أن نكون مستعدِّين».

غابَ چوجو طويلًا حتى إنها خشيَت أنه ضاعَ إلى الأبد، لكن أخيرًا، عندما كفُّوا عن ترقُّب عودته، رجعَ خيَّال الدَّم من الجَنوب الشَّرقي. رآه واحد من الحُرَّاس الذين عيَّنهم آجو أولًا، فأطلقَ صيحةً، وحثَّت داني الخُطى إلى الأسوار لترى بنفسها. أجل، لقد عادَ چوجو، لكن ليس بمفرده، فمن ورائه كان ثلاثة غُرباء يرتدون ثيابًا غريبةً ويمتطون مخلوقاتٍ حَدباء قبيحة تجعل أيَّ حصانٍ قزمًا بالمقارَنة. توقَّفوا أمام بوَّابات المدينة، ورفعوا أبصارهم ليتطلَّعوا إلى داني على السُّور من فوقهم، بينما رفعَ چوجو عقيرته قائلًا: «يا دم دمي، لقد ذهبتُ إلى مدينة كارث العظيمة، وعدتُ مع ثلاثةٍ يرغبون في رؤياكِ بأعيُنهم».

نظرَت داني إلى الغُرباء من أعلى، وقالت: «ها أنا ذي. انظُروا كما شئتم... لكن أخبِروني بأسمائكم أولًا».

أجابَ الرَّجل الشَّاحب ذو الشَّفتين الزَّرقاوين بلُغة الدوثراكي الخشنة: «أنا پيات پري، الدجَّال العظيم».

وأجابَ الرَّجل الأصلع ذو الجواهر في أنفه بڤاليريَّة المُدن الحُرَّة: «أنا زارو زون داكسوس من رابطة الثَّلاثة عشر، أمير تاجر من كارث».

وقالت المرأة ذات القناع الخشبي المصقول بعاميَّة الممالك السَّبع: «أنا كويث ابنة الظِّل. جئنا سعيًا إلى التَّنانين».

ردَّت عليهم دنيرس تارجاريَن: «لم يَعُد عليكم أن تسعوا، فقد وجدتموهم».

چون

تُسَمَّى القرية وايتري على خرائط سامِ القديمة، ولم يحسب چون أنها تستحقُّ أن يُطلَق عليها قرية أصلًا، فكلُّ ما فيها عبارة عن أربعة بيوتٍ متداعية تُحيط بزريبة غنم وبئر، والبيوت أحاديَّة الغُرف ومبنيَّة من الحجارة غير المملَّطة، وسقوفها مغطَّاة بطبقةٍ من النَّجيل، بينما أُسدِلَت على النَّوافذ قطع مهترئة من جلود الحيوانات. فوق كلِّ شيءٍ ارتفعَت شجرة ويروود هائلة الحجم، بغصونها الشَّاحبة وأوراقها الحمراء الدَّاكنة، وكانت أكبر شجرةٍ رآها چون سنو في حياته كلها، الجذع يُقارِب الثَّمانية أقدام عرضًا، والفروع ممتدَّة طويلًا طويلًا، حتى إن القرية بأكملها تستظلُّ بظِلِّها. على أن الحجم لم يُزعِجه كالوجه... بالتَّحديد الفم الذي لم يكن مجرَّد شِقٍّ محفور، بل تجويف محزَّز كبير بما يكفي لأن يبتلع خروفًا كاملًا.

لكن هذه ليست عظام خروف، ولا تلك جمجمة خروفٍ وسط الرَّماد.

قال مورمونت من فوق حصانه وقد عقدَ حاجبيه: «شجرة قديمة»، وردَّد غُدافه من فوق كتفه: «قديمة، قديمة، قديمة!».

- «وقويَّة»، قال چون مستشعرًا قوَّة الشَّجرة الباسقة بالفعل.

ترجَّل ثورين سمولوود إلى جوار الجذع وقد ارتدى دِرعًا داكنةً، وقال: «انظُروا إلى هذا الوجه. لا عجب أن البَشر كانوا يخشون تلك الأشجار في بداية مجيئهم إلى وستروس. إنني أشعرُ برغبةٍ في قطْع هذا الشَّيء القبيح ببلطةٍ بالفعل».

قال چون: «السيِّد والدي كان يُؤمِن بأن لا أحد يستطيع أن يكذب أمام

شجر القلوب، فالآلهة القديمة تعرف عندما يكذب البَشر».

- «أبي كان يُؤمِن بهذا أيضًا»، قال الدُّب العجوز. «دَعني ألقي نظرةً على هذه الجمجمة».

ترجَّل چون وعلى ظَهره يستقرُّ «المخلب الطَّويل» في غمد الكتف الجِلديِّ الأسود، السَّيف النَّغل طراز اليد ونِصف، الذي أعطاه الدُّب العجوز إياه لإنقاذه حياته، وإن قال الرِّجال عنه مازحين: سيفٌ نغلٌ لنغل. كان المقبض قد شُكِّلَ من جديدٍ من أجله، وزُيِّنَ بقبيعةٍ كرأس ذئب من الحجر الأبيض الباهت، لكن النَّصل نفسه مُطَرَّق من الفولاذ الڤاليري، قديم وخفيف وماضٍ إلى حَدٍّ مميت. ركعَ ودَسَّ يده المغطَّاة بالقُفَّاز في فجوة الفم، التي تلوَّنَ داخلها بأحمر النُّسغ الجاف وأسود النَّار، ورأى تحت الجمجمة جمجمةً أخرى أصغر حجمًا، فكُّها مكسور ونِصف مدفونةٍ في خليطٍ من الرَّماد وفُتات العظام.

ناولَ مورمونت الجمجمة، فرفعَها الدُّب العجوز بيديه معًا، وحدَّق في المحجرين الخاويين قائلًا: «الهَمج يُحرِقون أمواتهم، هذا معروف، لكني أتمنَّى الآن لو أني سألتهم عن السَّبب عندما كان بعضهم موجودًا».

تذكَّر چون سنو الجثَّة التي نهضَت حيَّةً، وعينيها المتوهِّجتين بالأزرق في الوجه الميت الشَّاحب، وملأه يقين بأنه يعرف السَّبب.

دمدمَ الدُّب العجوز: «ليت العظام قادرة على الكلام. كان صاحب هذا الرَّأس ليُخبِرنا بالكثير، كيف ماتَ، ومَن أحرَقه ولماذا، وأين ذهبَ الهَمج»، وزفرَ مضيفًا: «يُقال إن أطفال الغابة كانوا يستطيعون الكلام مع الموتى، لكني لا أستطيعُ»، ثم ألقى الجمجمة في ثغر الشَّجرة، حيث حطَّت مصدرةً سحابةً من الرَّماد النَّاعم. «فتِّشوا البيوت كلها. أيها العملاق، اصعد إلى قمَّة هذه الشَّجرة وألقِ نظرةً. أحضِروا كلاب الصَّيد أيضًا، فربما يكون الأثر طازجًا هذه المرَّة». النَّبرة التي نطقَ بها الجُملة الأخيرة كانت تشي بأنه لا يملك أملًا كبيرًا حقًّا.

دخلَ كلَّ بيتٍ رجلان، للتأكُّد من عدم إغفال أيِّ شيء، فوجدَ چون نفسه مع إديسون توليت عابس الملامح، الذي كان مُرافقًا لفارسٍ في السَّابق، وله

شَعر أشيب وقوام رفيع كالعصا، ويُسَمِّيه الإخوة الآخَرون إد الكئيب. «سيِّئ بما يكفي عندما ينهض الموتى ويسيرون»، قال لچون وهما يقطعان القرية، «والآن يُريدهم الدُّب العجوز أن يتكلَّموا كذلك؟ لا خير يُمكن أن يأتي من ذلك، أؤكِّدُ لك. ثم من يضمن ألَّا تكذب العظام؟ لماذا يجعل الموت الإنسان صادقًا أو حتى ذكيًّا؟ لا بُدَّ أن الموتى كائنات مملَّة لا تكفُّ عن الشَّكوي... الأرض باردة جدًّا، من المفترَض أن يكون قبري أكبر، لماذا يَحصُل هو على ديدان أكثر مني؟!».

اضطرَّ چون للانحناء ليَدخُل من الباب الواطئ، وفي الدَّاخل وجدَ الأرضيَّة من التُّربة الممهَّدة، لكن لا أثاث، ولا علامة تدلُّ على أن أناسًا كانوا يعيشون هنا، باستثناء القليل من الرَّماد تحت فتحة التَّهوية في السَّقف. قال: «مكان موحش جدًّا».

رَدَّ إد الكئيب: «وُلِدتُ في بيتٍ يُشبِه هذا كثيرًا، وكانت تلك سنوات بختي السَّعيد، فبَعدها مررتُ بأوقات عصيبة حقًّا». احتلَّت رُكن الغُرفة كومة من القَشِّ الجاف بمثابة سرير، ورمقَها إد بحنينٍ وأردفَ: «يُمكنني أن أدفعَ كلَّ ما في كاسترلي روك من ذهبٍ مقابل أن أنام في فِراشٍ ثانيةً».

- «أتُسَمِّي هذا فِراشًا؟».

- «إذا كان ألين من الأرض وهناك سقف من فوقه، فهو فِراش عندي»، قال إد الكئيب، ثم تشمَّم الهواء وغمغمَ: «أشمُّ رائحة روث».

كانت الرَّائحة خفيفةً للغاية، فقال چون: «روث قديم». من البادي أن البيت مهجور منذ فترة. ركعَ وفتَّش وسط القَشِّ بيديه، علَّه يجد شيئًا مخفيًّا تحته، ثم بدأ يفحَص الجُدران، ولم يستغرق وقتًا طويلًا حتى أعلنَ: «لا يوجد شيء هنا».

لم يكن أيُّ شيءٍ كما توقَّعه. وايتري هي رابع قريةٍ يمرُّون بها، ولا تختلف إطلاقًا عن سابقاتها، فما مِن سُكَّان، اختفوا جميعًا بممتلكاتهم الشَّحيحة وأيِّ حيواناتٍ كانت لديهم. ليس هناك في أيٍّ من القُرى ما يوحي بأنها هوجِمَت، لكنها ببساطة... خالية! سألَ چون: «ما الذي تحسبه حدثَ لهم؟».

أجابَ إد الكئيب: «شيء أسوأ مما نتخيَّل. إنني أستطيعُ تخيُّله في الحقيقة،

لكني لا أريدُ. سيِّئ بما يكفي أن تعرف أنك ذاهب إلى نهايةٍ شنيعة، دون أن تشغل عقلك بها قبل الأوان».

كان كلبا صيدٍ يتشمَّمان حول الباب عندما خرجا، بينما انتشرَت الكلاب الأخرى في أرجاء القرية، يسبُّها تشِت بصوتٍ عالٍ بغضبه الدَّائم الذي لا يبدو أنه يستطيع التخلِّي عنه، وقد جعلَ النُّور الذي تخلَّل أوراق الويرورود الحمراء بثور وجهه تبدو ملتهبةً أكثر من المعتاد. ضيَّق تشِت عينيه عندما رأى چون، فليس هناك وُدٌّ مفقود بينهما.

لم يُثمِر البحث في البيوت الأخرى شيئًا، وصاحَ غُداف مورمونت وهو يُحلِّق إلى شجرة الويرورود ليستقرَّ فوقها: «اختفوا! اختفوا! اختفوا! اختفوا!».

- «كان هناك هَمج في وايتري منذ عام واحدٍ فقط». بدا ثورين سمولوود كلوردٍ حقيقي أكثر من مورمونت نفسه، وقد ارتدى قميص الحلقات المعدنيَّة الأسود اللَّامع، الذي كان ملكًا للسير چارمي ريكر، وواقي صدره المزخرَف بالنُّقوش البارزة. المعطف الثَّقيل المنسدل على كتفيه مبطَّن بفرو السَّمُّور، ومثبَّت بمشبكٍ على شكل مطرقتين متقاطعتين من الفضَّة، رمز عائلة ريكر، وكان ملكًا للسير چارمي أيضًا... لكن الجثَّة الحيَّة الأخرى فتكَت بالسير چارمي، وحَرس اللَّيل لا يُبَدِّدون شيئًا.

قال چارمان بكويل، الرَّجل الصَّارم متبلِّد الحِس الذي يقود الكشَّافة: «منذ عام واحدٍ كان روبرت ملكًا، والبلاد في سلام. من الممكن أن يتغيَّر الكثير فيَّ غضون عام».

رَدَّ السير مالادور لوك بإلحاح: «شيء واحد لم يتغيَّر، الهَمج الأقلُّ يعنون همومًا أقلَّ. لن أحزن عليهم لحظةً مهما حدثَ لهم. كلهم لصوص وقتَلة».

سمعَ چون حفيفًا من الأوراق الحمراء من فوق، ثم افترقَ فرعان وأبصرَ رجلًا صغير الحجم يتنقَّل من فرعٍ إلى فرع ببساطةٍ كالسَّناجب. لا يتجاوَز بدويك الأقدام الخمسة طولًا، وإنَّ باحَت الخطوط الرَّماديَّة في شَعره بسِنِّه. يُلَقِّبه الجوَّالة الآخَرون بالعملاق، وقد جلسَ فوق ملتقى فرعين من الشَّجرة فوق رؤوسهم، وقال: «ثمَّة مياه إلى الشَّمال، بحيرة ربما، وعدد من تلال الصوَّان التي ترتفع غربًا، ليست عاليةً جدًّا، لكن لا شيء آخَر أيها السَّادة».

اقترحَ سمولوود: «يُمكننا أن نخيِّم هنا اللَّيلة».

رفعَ الدُّب العجوز عينيه إلى أعلى باحثًا عن لمحةٍ من السَّماء بين الأغصان البيضاء والأوراق الحمراء، ثم قال: «كلا. أيها العملاق، كم تبقَّى لدينا من نور النَّهار؟».

- «ثلاث ساعات يا سيِّدي».

قال مورمونت بحسم: «سنتقدَّم شَمالًا. إذا بلغنا تلك البحيرة، سنُخَيِّم على شاطئها، وربما نصطاد بعض السَّمك. چون، أحضِر لي ورقةً، فقد تأخَّرت في الكتابة للمِايستر إيمون بالفعل».

أخرجَ چون رَقًّا والحبر والرِّيشة من جراب سَرجه، وعادَ إلى حضرة القائد، الذي كتبَ بعجلة: «في وايتري. القرية الرَّابعة. كلها خالٍ. الهَمج اختفوا»، ثم قال مناولًا چون الرِّسالة: «اعثُر على تارلي وتأكَّد من أن يُرسِلها»، وأطلقَ صفيرًا ليأتي طائره من أعلى ويَحُطَّ على رأس حصانه. هَزَّ الغُداف رأسه صائحًا: «ذُرة!»، وأطلقَ الحصان صهيلًا.

امتطى چون حصانه الصَّغير ودارَ به وتحرَّك مسرعًا. بعيدًا عن ظِلِّ شجرة الويروود العظيمة، وقفَ رجال حَرس اللَّيل تحت أشجارٍ أدنى، يُعنون بخيولهم ويلوكون شرائح من اللَّحم المملَّح ويتبوَّلون ويَحُكُّون أجسادهم ويتكلَّمون، وعندما جاءَ الأمر بالحركة من جديد ماتَ الكلام وعادوا يركبون الخيول. سبقَهم كشَّافة چارمان بكويل، وتحرَّك ثورين سمولوود على رأس المقدِّمة كما يُفترَض، ثم جاءَ الدُّب العجوز مع القوَّة الأساسيَّة، وبَعده السير مالادور لوك مع طابور الأحصنة التي تحمل الأمتعة، وأخيرًا السير أوتين ويذرز مع حَرس المؤخِّرة. مئتا رجلٍ إجمالًا، وثلاثمئة من الدَّواب.

نهارًا اتَّبعوا آثار الطَّرائد وقيعانَ المجاري المائيَّة، طُرق الجوَّالة التي توغَّلوا عبرها أكثر في براري أوراق الشَّجر والجذور، وليلًا خيَّموا تحت السَّماء المزدانة بالنُّجوم وتطلَّعوا إلى المذنَّب. كان الإخوة السُّود قد غادَروا القلعة السَّوداء بروحٍ معنويَّةٍ عالية، يتبادَلون النِّكات ويتجاذَبون أطراف الحكي، لكن يبدو مؤخَّرًا أن سكون الغابة المستمرَّ قد ثبَّطهم جميعًا، فصارَ مزاحهم أقلَّ وفتيلهم أقصر، ولم يستطِع أحدهم أن يُقِرَّ بأنه خائف حقًّا

-فهُم من رجال حَرس اللَّيل رغم كلِّ شيء- لكن چون شعرَ بما يعتمل في أنفسهم. أربع قُرى خالية، ولا هَمج في أيِّ مكان، ويبدو أن الطَّرائد ذاتها فرَّت، والجوَّالة المخضرمون أنفسهم اتَّفقوا على أن الغابة المسكونة لم تبدُ مسكونةً هكذا من قبل قَطُّ.

خلعَ چون قُفَّازه في الطَّريق ليُعَرِّض أصابعه المحروقة للهواء، وقال في نفسه: كم تبدو قبيحةً. تذكَّر فجأةً كيف اعتادَ أن ينفش شَعر آريا، أخته الصَّغيرة النَّحيفة. تساءلَ عن حالها الآن، وأحزَنه بعض الشَّيء أن يُفَكِّر أنه قد لا ينفش شَعرها ثانيةً أبدًا. بدأ يثني يده فاتحًا ومغلقًا أصابعه. إذا تركَ يده التي يحمل بها السَّيف تستسلم للتيبُّس والخَرق، فإنه يعلم أن في ذلك نهايته، فالرَّجل يحتاج سيفه وراء «الجِدار».

وجدَ ساموِيل تارلي يسقي الخيول مع الوُكلاء الآخَرين. كان مسؤولًا عن ثلاثة، حصانه الخاص واثنين يحملُ كلٌّ منهما قفص غِدفان كبيرًا مصنوعًا من السِّلك والأماليد المجدولة. خفقَت الطُّيور بأجنحتها مع اقتراب چون، وصرخَت فيه من وراء القضبان، فبدا شيء من الصُّراخ ككلماتٍ حقيقيَّةٍ بصورةٍ مريبة، ما حدا به لأن يسأل سام: «هل تُعَلِّمها الكلام؟».

- «كلمات قليلة. ثلاثة منها يقولون «ثلج»».

قال چون: «طائر واحد ينعب اسمي كان يكفي، والثَّلج ليس بالشَّيء الذي يُريد أن يسمع به أخٌ أسود». كثيرًا ما يعني الثَّلج الموت في الشَّمال.

- «هل وجدتم شيئًا في وايتري؟».

أجابَ چون: «العظام والرَّماد والبيوت الخاوية»، وناولَ سام الرَّقَّ المطويَّ قائلًا: «الدُّب العجوز يُريد إرسال الأخبار إلى إيمون».

أخرجَ سام طائرًا من أحد القفصين، وملَّس على ريشه ثم ربطَ الرِّسالة بقدمه وقال: «طِر إلى الدِّيار أيها الشُّجاع، إلى الدِّيار»، فنعبَ الغُداف شيئًا غير مفهوم في وجهه، قبل أن يُلقي سام به في الهواء، ليرتفع خافقًا بجناحيه من بين الأشجار صوب السَّماء. «أتمنَّى لو استطاعَ أن يحملني معه».

- «حتى الآن؟».

قال سام: «نعم، لكني... لستُ خائفًا كما كنتُ من قبل، حقًّا. في اللَّيلة

الأولى، كلما سمعتُ أحدًا ينهض ليقضي حاجته، حسبته همجيًا يتسلَّل ليذبحني، وكنتُ أخشى أن أغمض عينيَّ فلا أفتحهما ثانيةً أبدًا، لكن... لكن الفَجر أتى في النِّهاية»، وارتسمَت على شفتيه ابتسامة باهتة، وأكملَ: «قد أكونُ جبانًا، لكني لستُ غبيًّا. إنني متعَب وظَهري يُؤلِمني من الرُّكوب والنَّوم على الأرض، لكنني أكادُ لا أشعرُ خوفًا على الإطلاق. انظُر»، ورفعَ يده كي يرى چون كم هي ثابتة، وأردفَ: «إنني أعملُ على خرائطي».

العالم غريب حقًّا. مئتا رجلٍ شُجاع تركوا «الجِدار»، والوحيد الذي لا يزداد خوفه هو سام، الصَّبيِ الذي اعترفَ بجُبنه علنًا. قال له مازحًا: «هناك فُرصة لأن نجعل منك جوَّالًا. المرَّة القادمة ستُريد أن تكون كشَّافًا مِثل جرِن. هل أكلِّم الدُّب العجوز؟».

صاحَ سام: «إياك!»، ورفعَ قلنسوة معطفه الأسود الضَّخم وامتطى حصانه بلا مرونة. كان حصان حرثٍ كبيرًا وبطيئًا وأخرق، لكن يستطيع احتمال وزنه أكثر من الأحصنة الأصغر حجمًا التي يركبها الجوَّالة. قال سام بأسى: «كنتُ آملُ أن نقضي اللَّيلة في القرية. سيكون من الجميل أن ننام تحت سقفٍ من جديد».

قال چون: «البيوت أقلُّ وأصغر من أن تسعنا جميعًا»، وعادَ يمتطي حصانه، ومنحَ سام ابتسامةً وانطلقَ. كان الرَّكب قد بدأ يتقدَّم بالفعل، فدارَ دورةً واسعةً حول القرية ليتفادى الزِّحام. لقد اكتفى من وايتري.

خروج جوست من بين الشُّجيرات كان مفاجئًا تمامًا، حتى إن الحصان نكصَ فزعًا وتراجعَ رافعًا قائمتيه الأماميَّتين. كان الذِّئب الأبيض يصطاد بعيدًا عن خَطِّ الزَّحف، وإن لم يُواتِه حَظٌّ أفضل من الرِّجال الذين أرسلَهم ثورين سمولوود بحثًا عن طرائد. قال لهم دايوين ذات ليلةٍ حول النَّار إن الغابة خالية أكثر من القُرى، فرَدَّ چون: «نحن مجموعة كبيرة، ولا بُدَّ أن الطَّرائد خافَت من الضجَّة التي نُصدِرها أثناء تحرُّكنا وفرَّت».

قال دايوين: «خافَت من شيءٍ ما بلا شك».

بمجرَّد أن هدأ الحصان، انطلقَ جوست متواثبًا إلى جواره ببساطة، ولحقَ

چون بمورمونت وهو يدور حول دغلٍ من الزُّعرور البرِّي، فسألَه الدُّب العجوز: «هل حلَّق الطَّائر؟».

– «نعم يا سيِّدي. سام يُعَلِّم الغِدفان الكلام».

قال الدُّب العجوز ساخرًا: «سيندم على هذا. تلك المخلوقات الملعونة تُصدِر الكثير من الضَّوضاء، لكنها لا تقول شيئًا يستأهل السَّمع أبدًا».

مضيا بصمتٍ فترةً، ثم قال چون: «إذا وجدَ عمِّي كلَّ تلك القُرى خاليةً كذلك...».

– «... كان ليجعل هدفه أن يعرف السَّبب»، أتمَّ اللورد مورمونت عبارته. «ولعلَّ شخصًا أو شيئًا أرادَ أن يظلَّ السَّبب مجهولًا. طيِّب، سيكون عددنا ثلاثمئة عندما ينضمُّ كورين إلينا، وأيُّ أعداء يقبعون في انتظارنا هنا لن يجدونا لقمةً سائغةً. سوف نَعثُر عليهم يا چون، أعدُك».

أو سيَعثُرون هُم علينا.

آريا

كان النَّهر كشريطٍ من الأخضر المزرق في شمس الصَّباح، وبطول ضفَّتيه نما البوص بكثافةٍ في الجزء الضَّحل من المياه. رأت آريا ثعبانًا ينزلق بخفَّةٍ على السَّطح، تنتشر التموُّجات من ورائه وهو يتحرَّك، وفي الأعلى حلَّق صقر بكسلٍ في دوائر. بدا أن السَّكينة تحفُّ المكان حقًّا... إلى أن لمحَ كوس الجثَّة، وأشارَ قائلًا: «هناك، وسط البوص»، ورأت آريا الجثَّة المنتفخة مشوَّهة المعالم، التي علقَ معطفها المشبَّع بالماء بفرع شجرةٍ عفِن، وقد أخذَ سرب من الأسماك الفضِّيَّة الدَّقيقة يقضم وجهها. قال لومي: «قلتُ لكم إن هناك جُثثًا، مذاقها في الماء».

بصقَ يورن عندما رأى جثَّة الجندي، وقال: «دوبر، انظُر إن كان معه ما يستحقُّ أن يؤخَذ، قميص واقٍ، سكِّين، نقود، أيُّ شيء»، وهمزَ حصانه وخاضَ به في النَّهر، لكن الحيوان وجدَ صعوبةً في الحركة في الطَّمي الرَّخو، كما أن المياه تزداد عُمقًا بَعد البوص، فتراجعَ يورن غاضبًا وحصانه مغطَّى بالوحل حتى الرُّكبتين، وقال: «لن نَعبُر من هنا. كوس، ستأتي معي في اتِّجاه منبع النَّهر بحثًا عن مخاضة، وليذهب ووث وجيرين في اتِّجاه المصب. سينتظر بقيَّتكم هنا، فعيِّنوا حراسةً».

وجدَ دوبر كيس نقودٍ جِلديًّا في حزام الرَّجل الميت، وداخله أربع عُملاتٍ نُحاسيَّة وخُصلة من الشَّعر الأشقر مربوطة بشريطٍ أحمر، فيما تجرَّد لومي وتاربر من ملابسهما وخاضا في الماء، ورفعَ لومي يدًا مليئةً بطمي لزج قذفَ به هوت پاي هاتفًا: «فطائر طمي! فطائر طمي!»، أمَّا في مؤخِّرة عربة السُّجناء،

فقد أخذَ رورج يسبُّ ويُطلِق التَّهديدات، ويقول لهم أن يحلُّوا وثاقه ويورن غائب، لكن أحدًا منهم لم يُعِره اهتمامًا. أمسكَ كورز سمكةً بيديه، ورأت آريا كيف فعلَها وهو يقف فوق بِركةٍ ضحلةٍ بهدوء المياه الرَّاكدة، ثم تندفع يده كالثُّعبان عندما تقترب الأسماك. لم يبدُ الأمر لها صعبًا كالإمساك بالقِطط، فالسَّمك لا يملك مخالب.

عادَ الآخَرون مع انتصاف النَّهار. أبلغَهم ووث بوجود جسرٍ خشبي على بُعد نِصف ميل في اتِّجاه تيَّار النَّهر، لكن أحدهم أحرقَه، فقطفَ يورن ورقةً من حزمة التَّبغ المُر، وقال: «قد نتمكَّن من جعْل الخيول تَعبُر سباحةً، وربما الحمير كذلك، لكن مستحيل أن نَعبُر بتلك العربات. ثم إن هناك دخانًا إلى الشَّمال والغَرب، المزيد من الحرائق، فلعلَّ من الأفضل إذن أن نبقى على هذا الجانب من النَّهر»، والتقطَ عصا طويلةً رسمَ بها في الطِّين دائرةً يَخرُج منها خَط، وقال: «هذه «عين الآلهة»، والنَّهر يتدفَّق منها جَنوبًا. نحن هنا»، وصنعَ ثُقبًا إلى جوار خَطِّ النَّهر تحت الدَّائرة، وأضافَ: «لا يُمكننا الدَّوران غَربًا حول البحيرة كما حسبتُ، والاتِّجاه شَرقًا يُعيدنا إلى طريق الملوك»، ثم حرَّك العصا إلى حيث يلتقي الخَطُّ والدَّائرة، وتابعَ: «ثمَّة بلدة هنا حسبما أذكرُ، المعقل مبني من الحجر، وهناك مقرٌّ للوردٍ صغير أيضًا، مجرَّد منزلٍ مزوَّد ببُرجٍ، لكن سيكون لديه حُرَّاس، وربما فارس أو اثنان كذلك. إذا اتَّبعنا النَّهر شَمالًا، سنصل قبل حلول الظَّلام. ستكون لديهم قوارب، ولذا أنوي أن أبيع كلَّ ما لدينا وأستأجر واحدًا»، وسحبَ العصا عبر دائرة البحيرة من أسفل إلى أعلى قائلًا: «إذا شاءَت الآلهة، ستكون الرِّيح مواتيةً، ونُبحِر عبر «عين الآلهة» إلى هارنتاون»، وغرسَ رأس العصا في قمَّة الدَّائرة خاتمًا: «يُمكننا أن نشتري دوابَّ جديدةً هناك، وإن لم يكن فسنحتمي بهارنهال. لطالما كانت الليدي وِنت صديقةً لحَرس اللَّيل».

قال هوت پاي بعينين متَّسعتين: «هناك أشباح في هارنهال».

بصقَ يورن وقال: «هذه أشباحك»، ثم ألقى العصا في الطِّين وصاحَ فيهم: «اركبوا».

تذكَّرت آريا الحكايات التي كانت العجوز نان تحكيها عن هارنهال.

الملك الشرِّير هارن تحصَّن داخلها، فأطلقَ إجون تنانينه محوِّلًا القلعة إلى محرقة. قالت نان إن الأرواح النَّاريَّة لا تزال تَسكُن الأبراج المسودَّة، وأحيانًا يخلد الرِّجال إلى النَّوم في أسرَّتهم، ويُعثَر على جُثثهم المتفحِّمة في الصَّباح. لم تكن آريا تُصَدِّق شيئًا من هذا، وعلى كلِّ حالٍ وقعَت تلك الأحداث منذ زمنٍ طويل. إنه سُخف حقيقي من هوت باي، ففي هارنهال لن تكون هناك أشباح، بل فُرسان، وحينئذٍ تستطيع آريا أن تُفصِح عن هويَّتها لليدي ونت، ويصحبها الفُرسان إلى الوطن ويُحافِظوا على سلامتها. هذا ما يفعله الفُرسان، يُحافِظون على سلامة النَّاس، بالذَّات النِّساء... بل وربما تُساعِد الليدي ونت الفتاة الباكية أيضًا.

لم يكن الطَّريق المحاذي للنَّهر كطريق الملوك بالطَّبع، لكنه ليس سيِّئًا في حَدِّ ذاته، ولمرَّةٍ تحرَّكت العربات بسلاسة. رأوا أول البيوت قبل ساعةٍ من حلول المساء، وكان كوخًا أنيقًا صغيرًا مسقوفًا بالقَش، وتُحيط به حقول القمح. تقدَّم يورن مناديًا سُكَّان الكوخ، لكن أحدًا لم يُجبه، فقال: «إمَّا أنهم موتى أو مختبئون. دوبر، راي، معي». دخلَ الرِّجال الثَّلاثة، ثم دمدمَ يورن عندما خرجوا: «القدور أُخِذَت، ولا يوجد أثر لأيِّ نقود، ولا حيوانات كذلك. غالبًا فَرَّ قاطنو المكان، ولربما مرَرنا بهم على طريق الملوك بالفعل». على الأقل لم يُضرِم أحد النَّار في البيت والحقل، كما أنهم لم يجدوا جُثثًا في الجوار. عثرَ تاربر على حديقةٍ وراء الكوخ، فقطفوا بعض البصل والفجل، وملأوا جوالًا بالكرنب قبل أن يُغادِروا.

على مسافةٍ أبعد على الطَّريق رأوا كوخ حطَّاب تُحيط به الأشجار والأخشاب المرصوصة بعنايةٍ في انتظار القَطع، وبَعدها كان بيت متداعٍ مبني على ركائز ارتفاعها عشرة أقدام تميل به نحو الماء، وفي الحالتين كان المكان مهجورًا. مرُّوا بالمزيد من حقول القمح والذُّرة والشَّعير، كلها يَنضُج في الشَّمس، وكلها خالٍ من أيِّ رجالٍ يجلسون في الأشجار أو يتحرَّكون جيئةً وذهابًا بالمناجل. ثم لاحَت لهم البلدة أخيرًا، مجموعة من البيوت البيضاء المنتشرة حول أسوار المعقل، وسِپت كبير بسقفٍ مكسوٍّ بالألواح الخشبيَّة،

ومنزل اللورد المبني فوق مرتفَعٍ أرضيٍّ واطئ إلى الغَرب... ولا أثر للنَّاس في أيٍّ مكان.

جلسَ يورن فوق حصانه وقد زَمَّ شفتيه من تحت لحيته المتشابكة، وقال: «لا يروقني هذا، لكننا هنا. سنذهب ونُلقي نظرةً، نظرةً حذرةً، فقد يكون بعض الأهالي مختبئين، وقد يكونون قد تركوا قاربًا أو أسلحةً نستفيد بها».

تركَ الأخ الأسود عشرةً منهم لحراسة العربات والفتاة الصَّغيرة الباكية، وقسَّم بقيَّتهم إلى أربع مجموعاتٍ من خمسة أفراد لتفتيش البلدة، وقال لهم محذِّرًا: «أريدُ أعيُنكم وآذانكم مفتوحةً»، قبل أن يقود حصانه إلى داخل المنزل ذي البُرج، ليرى إن كان هناك أثر للورد الصَّغير أو حَرسه.

وجدَت آريا نفسها مع جندري وهوت پاي ولومي، وكان ووث المكتنز ذو البطن الكبير يعمل مجذفًا على سفينةٍ من قبل، ما جعلَه أقرب مَن لديهم إلى بحَّار، فقال له يورن أن يأخذهم إلى ضفَّة البحيرة ليروا إن كانت هناك قوارب. شعرَت آريا بالشُّعيرات تنتصب على ذراعيها وهُم يتحرَّكون على ظَهر الخيول بين البيوت البيضاء الصَّامتة، إذ أثارَت هذه البلدة الخاوية خوفها بقَدر ما أثارَه المعقل المحترق الذي وجدوا فيه الفتاة الباكية والمرأة ذات الذِّراع الواحدة. لماذا يهرب النَّاس ويَهجُرون بيوتهم ويَترُكون كلَّ شيءٍ وراءهم؟ ما الذي يُمكنه أن يُخيفهم إلى هذا الحد؟

كانت الشَّمس تميل إلى المغيب، جاعلةً البيوت تُلقي ظلالًا طويلةً داكنةً، وبعثَ صوت ارتطام مفاجئ آريا على مَدِّ يدها إلى إبرتها، لكنه كان مجرَّد مصراع نافذةٍ تدفعه الرِّيح. بَعد شاطئ النَّهر المفتوح كان ضِيق البلدة وتضامُّ مبانيها يُثير أعصابها.

حين لمحَت البحيرة أمامهم من بين البيوت والأشجار، وكزَت آريا حصانها برُكبتيها بقوَّةٍ وانطلقَت متجاوزةً ووث وجندري، وخرجَت إلى الأرض المعشوشبة المجاورة للشَّاطئ المفروش بالحصى. جعلَت الشَّمس الغاربة صفحة الماء السَّاكنة تتوهَّج كلوحٍ من النُّحاس المطرَّق، وكانت أكبر بحيرةٍ وقعَت عليها عيناها في حياتها على الإطلاق، لا يلوح أيُّ أثرٍ لشاطئها البعيد. رأت آريا إلى يسارها خانًا متواضعًا مقامًا فوق الماء على دعائم خشبيَّة

ثقيلة، وإلى اليمين رصيف طويل يخترق البحيرة، بالإضافة إلى أرصفةٍ أخرى شَرقًا، كأصابع خشبيَّة تمتدُّ من البلدة، لكن القارب الوحيد الموجود على مدى البصر كان زورق تجذيف مقلوبًا متروكًا على الصُّخور تحت الخان، وقد ذاعَ العفن بوضوح في قاعه. قالت آريا كاسفة البال: «لقد رحلوا». ماذا يفعلون الآن؟

قال لومي عندما لحقَ بها الآخَرون: «هناك خان. أتعتقدون أنهم تركوا طعامًا أو مِزرًا؟».

رَدَّ هوت پاي: «لنذهب ونرَ».

قال ووث بحدَّة: «لا عليكم بالخان. يورن قال أن نَعثُر على قارب».

- «لقد أخذوا القوارب». بشكلٍ ما عرفَت آريا أنهم حتى لو فتَّشوا البلدة كلها، فلن يجدوا غير الزَّورق المقلوب. هكذا، شاعرةً بالقنوط، ترجَّلت عن حصانها وركعَت على شاطئ البحيرة، لتتموَّج المياه بنعومةٍ حول ساقيها، فيما بدأت بعض الحشرات المضيئة تَخرُج بأنوارها الوامضة. كانت المياه الخضراء دافئةً كالعَبرات، وإن خلَت من الملح، ومذاقها كالصَّيف والطَّمي والأشياء النَّامية، وقد غمسَت آريا وجهها فيها لتغسل ما طالَها خلال اليوم من غُبارٍ وعَرقٍ وأوساخ، وعندما اعتدلَت جرَت قطرات الماء على مؤخِّرة عُنقها وتحت ياقتها، ما بَثَّ فيها شعورًا طيِّبًا.

تمنَّت لو أنها تستطيع أن تخلع ثيابها وتسبح في المياه الدَّافئة كقُضاعةٍ نحيلة، ولربما تُواصِل السِّباحة حتى تَبلُغ وينترفل.

ناداها ووث لتأتي وتُساعِدهم على البحث، فأذعنَت وألقَت نظرةً داخل السَّقائف ومصفَّات القوارب، بينما راحَ حصانها يُجيل النَّظر في الشَّاطئ. عثروا على عددٍ من الأشرعة والمسامير ودلاء من القطران الجامد وهرَّةٍ أم مع هريراتها الوليدة، لكن لا قوارب.

كانت البلدة مظلمةً كغابة عندما ظهرَ يورن مع الآخَرين، وقال: «البُرج خاوٍ. ربما ذهبَ اللورد إلى الحرب، أو ليقود الأهالي إلى مكانٍ آمن، لا أدري. ليس هناك حصان أو خنزير واحد في البلدة، لكننا سنأكل. رأيتُ إوزَّةً طليقةً وبضع دجاجات، كما أن هناك أسماكًا طيِّبةً في البحيرة».

قالت آريا: «لم تَعُد هناك قوارب».

قال كوس: «يُمكننا إصلاح قاع الزَّورق المقلوب».

رَدَّ يورن: «قد يكفي أربعةً منا لا أكثر».

غمغمَ لومي: «ثمَّة مسامير، والأشجار في كلِّ مكانٍ حولنا. يُمكننا أن نبني قوارب كافيةً».

بصقَ يورن وقال: «هل تعرف شيئًا عن بناء القوارب يا صبيَّ الصبَّاغ؟»، فرمقَه لومي بنظرةٍ خاوية دون أن يُحير جوابًا.

قال جندري مقترحًا: «طَوف إذن. أيُّ أحدٍ يستطيع أن يبني طوفًا ويصنع عِصِيًّا لدفعه».

بدَت أمارات التَّفكير على يورن، ثم قال: «البحيرة أعمق من دفع الأطواف عبرها بالعِصي، لكن إذا بقينا في المنطقة الضَّحلة بالقُرب من الشَّاطئ... سيعني هذا أن نَترُك العربات. قد يكون هذا الخيار الأفضل. سأفكِّر في الأمر بتروٍّ».

سألَه لومي: «هل يُمكننا أن نبقى في الخان؟».

أجابَ العجوز: «سنبقى في المعقل ونُوصِد البوَّابات. أحبُّ الإحساس بالجُدران الحجريَّة من حولي وأنا نائم».

لم تستطِع آريا اللوذ بالصَّمت، واندفعَت تقول: «لا يَجدُر بنا أن نبقى هنا، فأهل البلدة أنفسهم لم يبقوا. لقد فرُّوا جميعًا، حتى اللورد».

صدرَت من لومي ضحكات كالنِّباح وهو يصيح: «آري خائف!».

ردَّت عليه محتدَّةً: «لا، لكنهم كانوا خائفين».

قال يورن: «ولد ذكي، لكن من عاشوا هنا كانوا في حالة حرب، شاءوا أم أبوا، بينما لسنا كذلك. حَرس اللَّيل لا يتدخَّلون، لذا فلا أعداء لنا».

ولا أصدقاء كذلك، قالت لنفسها، لكنها أمسكَت لسانها هذه المرَّة، فلومي والآخَرون كانوا يَنظُرون لها، ولم ترغب في أن تبدو جبانةً أمامهم.

كانت بوَّابة المعقل مرصَّعةً بالمسامير الحديديَّة، وفي الدَّاخل وجدوا زوجًا من قضبان الحديد بحجم شَتْلتين كبيرتين، مع حُفر تثبيت في الأرض ودعائم معدنيَّة في البوَّابة، وعندما ثبَّتوا القضيبين على الدَّعائم صنعا معًا

عارضتين ضخمتين متقاطعتين. قال يورن إن المكان ليس كالقلعة الحمراء بالطَّبع، عندما استكشَفوا المعقل من عاليه إلى سافله، لكنه أفضل من غيره بكثير، ومن شأنه أن يكفي لقضاء اللَّيلة. كانت الجُدران من الحجارة الخشنة غير المملَّطة، ترتفع عشرة أقدام كاملة، وثمَّة ممرٌّ ضيِّق من الخشب داخل الشُّرفات، وبوَّابة جانبيَّة ناحية الشَّمال. اكتشفَ جيرين بابًا أفقيًّا تحت أكوام القَشِّ في الحظيرة الخشبيَّة القديمة، يُفضي إلى نفقٍ ضيِّقٍ ملتف، فمضى فيه طويلًا تحت الأرض وخرجَ منه عند البحيرة. جعلَهم يورن يدفعون عربةً لتستقرَّ فوق الباب، لضمان ألَّا يأتي أحد من هذا الاتِّجاه، ثم قسَّمهم إلى ثلاثة مجموعات حراسة، وأرسلَ تاربر وكورز وكتچاك إلى منزل اللورد المهجور ليُراقِبوا من أعلى، ففي حوزة كورز بوق صيدٍ يَنفُخ فيه إذا تهدَّدهم خطر ما.

أدخَلوا عرباتهم ودوابَّهم وأوصَدوا البوَّابة وراءهم. كانت الحظيرة متداعيةً، لكن واسعةً بما يكفي لاحتواء نِصف حيوانات البلدة، والمأوى الذي يلوذ به أهل البلدة في أوقات القلاقل كان أوسع، واطئًا وطويلًا ومبنيًّا من الحجر، وسقفه مغطًّى بالقَش. خرجَ كوس من البوَّابة الجانبيَّة وعادَ بالإوزَّة ودجاجتين، وسمحَ لهم يورن بإشعال نارٍ للطَّهي. يضمُّ المعقل مطبخًا كبيرًا، وإن خلا تمامًا من القدور والغلَّايات. كُلِّفَ كلٌّ من جندري ودوبر وآريا بواجب الطَّهي، وقال دوبر لآريا أن تقتلع ريش الطُّيور بينما يقطع جندري الحطب، فسألَت: «ولِمَ لا أقطع أنا الحطب؟»، لكن أحدًا لم يُجِبها، فجلسَت عابسةً تقتلع ريش دجاجة، بينما جلسَ يورن على طرف الدِّكَّة يشحذ نصل خنجره.

عندما جهزَ الطَّعام، أكلَت آريا ساق دجاجةٍ والقليل من البصل، ولم يتكلَّم أحد كثيرًا، حتى لومي نفسه. انصرفَ جندري إلى حاله بَعدها، يُلَمِّع خوذته وقد شردَت نظراته تمامًا، بينما نشجَت الفتاة الصَّغيرة وبكَت، لكن عندما عرضَ عليها هوت پاي قطعةً من الإوزَّة التهمَتها بنهم وأرادَت المزيد.

مناوَبة الحراسة الثَّانية كانت من نصيب آريا، فوجَدَت فراشًا من القَشِّ في المأوى، لكن النَّوم لم يأتها بسهولة، فاستعارَت مشحذ يورن وشرعَت تشحذ «الإبرة»، فالسِّلاح البليد كالحصان العاجز كما قال لها سيريو فورل. جلسَ

هوت پاي القرفصاء على القَشِّ إلى جوارها مراقبًا ما تفعله، وسألَها: «من أين حصلت على سيفٍ ممتاز كهذا؟»، ولمَّا رأى النَّظرة التي حدجَته بها رفعَ يديه بحركةٍ دفاعيَّة، وقال: «لا أقصدُ أبدًا أنك سرقته، أردتُ فقط أن أعرف من أين جئت به، هذا كلُّ شيء».

غمغمَت: «أعطاني أخي إياه».

- «لم أعرف أن لديك أخًا».

توقَّفت آريا عن العمل لتحكَّ جِلدها تحت القميص. هناك براغيث في القَش، لكنها لم ترَ سببًا يجعل المزيد منها يُزعِجها. «لديَّ إخوة كثيرون».

- «حقًّا؟ أهُم أكبر منك أم أصغر؟».

ليس من المفترَض أن أتكلَّم هكذا. يورن قال أن أصون لساني. قالت كاذبةً: «أكبر، ولديهم سيوف أيضًا، سيوف طويلة كبيرة، ولقد علَّموني كيف أقتلُ من يُضايِقونني».

قال هوت پاي: «كنتُ أتكلَّمُ فقط ولا أضايِقك»، ثم انصرفَ تاركًا إياها وحدها، وضمَّت هي نفسها على الفِراش القَش، سامعةً صوت الفتاة الباكية من جانب المعقل البعيد. ليتها تَصمُت. لماذا تبكي هكذا طيلة الوقت؟

لا بُدَّ أنها غابَت في النَّوم، وإن كانت لا تَذكُر أنها أغلقَت عينيها، وفي المنام حلمَت بذئبٍ يعوي، وكان الصَّوت رهيبًا لأقصى درجة، حتى إنه أيقظَها في الحال. اعتدلَت آريا جالسةً وقلبها يدقُّ في صدرها بعُنف، ثم قالت ناهضةً: «هوت پاي، استيقِظ. ووث، جندري، ألم تسمعا؟»، وانتعلَت فردةً من حذائها طويل العُنق.

بدأ الرِّجال والصِّبية يتحرَّكون من حولها وينهضون من على الأسرَّة القَش، وسألَ هوت پاي: «ما الخطب؟»، وقال جندري: «سمعنا ماذا؟»، بينما قال آخَر: «آري رأى كابوسًا».

قالت بإصرار: «كلا، لقد سمعته، إنه ذئب».

ساخرًا قال لومي: «آري لديه ذئاب في رأسه»، فعقَّب جيرين: «دعها تعوي. إنها في الخارج ونحن هنا في الدَّاخل»، واتَّفق ووث معه قائلًا: «لم أرَ

ذئبًا يستطيع اقتحام معقلٍ من قبل»، أمَّا هوت پاي فأكَّد: «لم أسمع شيئًا على الإطلاق».

- «إنه ذئب!»، زعقَت فيهم وهي تختطف فردة الحذاء الأخرى. «شيء ما على غير ما يرام، شيء ما قادم، انهضوا!».

قبل أن يُغرِقوها باستهزائهم ثانيةً، جاءَ الصَّوت يشقُّ سكون اللَّيل... لكنه لم يكن ذئبًا هذه المرَّة، بل كورز يُطلِق نفيره منذرًا بخطرٍ دانٍ، وفي غمضة عينٍ كانوا يرتدون ثيابهم جميعًا ويختطفون ما لديهم من سلاح. جرَت آريا إلى البوَّابة مع تردُّد النَّفير من جديد، ومع انطلاقها مرورًا بالحظيرة ألقى العضَّاض نفسه إلى الأمام بعُنفٍ محاولًا انتزاع السَّلاسل المثبَّتة بأرضيَّة العربة، بينما صاحَ چاكن هاجار: «أيها الصَّبي! أيها الصَّبي الجميل! أهي الحرب؟ الحرب الحمراء؟ حرِّرنا أيها الصَّبي. الرَّجل يستطيع القتال. أيها الصَّبي!»، لكنها تجاهلَت نداءه وواصلَت طريقها بلا إبطاء، ووقتها كانت تسمع صياحًا وصهيلًا من وراء الجُدران بالفعل. تسلَّقت إلى الممرِّ الخشبيِّ الضيِّق، وكانت حواجز الشُّرفة مرتفعةً بعض الشَّيء، وآريا قصيرة بعض الشَّيء، فاضطرَّت لأن تَحشُر أصابع قدميها في الفجوات بين الأحجار كي تتمكَّن من الرُّؤية. للحظةٍ خُيِّلَ لها أن البلدة كلها ملأى بالحشرات المضيئة، ثم أدركَت أنهم رجال يحملون المشاعل، ينطلقون على خيولهم بين البيوت، ورأت سقفًا من القَشِّ يشتعل وتتصاعَد منه ألسنة اللَّهب البرتقاليَّة لتلعق باطن اللَّيل، وتبعَه سقف آخَر، ثم آخَر، وسرعان ما انتشرَت الحرائق في كلِّ مكان.

صعدَ جندري ليقف إلى جوارها مرتديًا خوذته، وقال: «كم عددهم؟».

حاولَت أن تُحصيهم، لكنهم كانوا يتحرَّكون بسرعةٍ شديدة، والمشاعل تدور في الهواء وهُم يقذفونها، وقالت: «مئة، مئتان، لا أدري. سيسعون إلينا عمَّا قريب». كانت تسمع صياحًا ممتزجًا بهدير اللَّهب.

قال جندري مشيرًا: «هناك».

أبصرَت طابورًا من الخيَّالة يتحرَّك بين المباني المحترقة نحو المعقل، وقد انعكسَ نور النَّار لامعًا على الخوذات المعدنيَّة، ونثرَ بُقعًا من البرتقالي والأصفر على الدُّروع. كان أحدهم يحمل رايةً على ساريةٍ طويلة، وخطرَ لها

أنها حمراء اللَّون، لكن ظلام اللَّيل جعلَ التأكُّد من هذا عسيرًا، خصوصًا مع النَّار المندلعة في كلِّ مكان. كلُّ شيءٍ كان إمَّا أحمر أو أسود أو برتقاليًّا.

انتشرَت النَّار من بيتٍ إلى آخَر، ورأتها آريا تبتلع شجرةً، يزحف اللَّهب على أفرُعها إلى أن صارَت شعلةً وهَّاجةً من البرتقالي الحي في قلب اللَّيل. كان الجميع قد استيقظوا الآن، يتَّخذون مواقعهم على الشُّرفات، أو يُناضِلون للسَّيطرة على الحيوانات المذعورة في الأسفل. سمعَت يورن يصيح بالأوامر، ثم ارتطمَ شيء بساقها، ونظرَت إلى أسفل لتجد الصَّغيرة الباكية متمسِّكةً بها، فزعقَت فيها: «ابتعدي! ماذا تفعلين هنا؟ اجري واختبئي في مكانٍ ما أيتها الحمقاء!»، ودفعَت الفتاة بعيدًا.

توقَّف الخيَّالة أمام البوَّابات، وصاحَ فارس يرتدي خوذةً طويلةً ذات ريشةٍ شائكة: «أنتم يا من في المعقل! افتحوا باسم الملك!».

- «نعم، وأيُّ ملكٍ هذا؟»، صاحَ رايزن العجوز، قبل أن يُطبِق ووث على فمه بيده ليُخرِسه.

صعدَ يورنَ إلى الشُّرفة المجاورة للبوَّابة، وقد ربطَ معطفه الأسود الباهت بعصا خشبيَّة، وصاحَ: «توقَّفوا! لقد رحل أهل البلدة!».

خاطَبه الفارس ذو الخوذة الطَّويلة: «ومن أنت أيها العجوز؟ أحد جُبناء اللورد بريك؟ إذا كان ذلك الأحمق البدين ثوروس في الدَّاخل، فسَله إن كانت هذه النِّيران تروق له».

رَدَّ عليه يورن: «ليس معي رجل كهذا هنا، بل مجرَّد صِبية لحَرس اللَّيل. ليس لنا دور في حربكم هذه»، ورفعَ العصا كي يروا لون معطفه مضيفًا: «انظروا، هذا أسود حَرس اللَّيل».

- «أو أسود عائلة دونداريون»، قال الرَّجل الذي يحمل راية العدو، ورأت آريا ألوانها الآن بوضوح أكبر على ضوء البلدة المشتعلة، الأسد الذَّهبي على الخلفيَّة الحمراء. «رمز اللورد بريك لسان برقٍ أرجواني على خلفيَّةٍ سوداء».

تذكَّرت آريا فجأةً الصَّباح الذي ألقَت فيه البرتقالة في وجه سانزا، فسالَ العصير على فُستانها الحريري السَّخيف عاجي اللَّون. كان هناك لورد صغير ما في دورة المباريات بالفعل، ووقعَت صديقة أختها البلهاء چين في غرامه.

على تُرسه كان لسان البرق، وقد أرسلَه أبوها ليقطع عُنق أخي كلب الصَّيد. كأن ألف عام مرَّت منذ ذلك اليوم، كأنه شيء حدثَ لشخصٍ آخَر في حياةٍ أخرى... لآريا ستارك ابنة يد الملك، وليس آري الصَّبي اليتيم، فأنَّى لآري أن يكون على درايةٍ باللوردات وما إلى ذلك؟

قال يورن محرِّكًا العصا ليتموَّج معطفه: «أأنت أعمى يا رجل؟ أترى لسان برقٍ لعينًا؟».

رَدَّ الفارس: «الرَّايات كلها تبدو سوداء ليلًا. افتحوا وإلَّا سنعدُّكم خارجين على القانون، متواطئين مع أعداء الملك».

بصقَ يورن وقال: «مَن قائدكم؟».

- «أنا». كانت انعكاسات البيوت المضطرمة تومض بخفوتٍ على دِرع جواده الحربي، بينما أفسحَ الآخَرون له الطَّريق، ثم تبدَّى أنه رجل بدين، على تُرسه رسم لمانتيكور[1]، وعلى واقي صدره الفولاذي زخارف ملولبة، وعبر مقدِّمة خوذته المفتوحة لاحَ وجهه الشَّاحب الذي يُذَكِّرك بالخنازير، وقال بصوتٍ عالٍ رفيع: «السير آموري لورك، حامل راية اللورد تايوين لانستر سيِّد كاسترلي روك، يد الملك، الملك الحقيقي چوفري. آمركم باسمه أن تفتحوا هذه البوَّابات».

تأجَّجت النِّيران في كلِّ ركنٍ من البلدة حولهم، وأفعمَ الدُّخان هواء اللَّيل، وفاقَت الجمرات الحمراء المتطايرة نجوم السَّماء عددًا. قال يرون مكشِّرًا: «لا أرى الدَّاعي. افعلوا ما شئتم بالبلدة، فهي لا تعني لي شيئًا، لكن دعونا وشأننا. نحن لسنا أعداءكم».

أرادَت آريا أن تصيح في الرِّجال في الأسفل: انظُروا بأعيُنكم، لكنها همسَت: «ألا يرون أننا لسنا لوردات أو فُرسانًا؟».

رَدَّ جندري هامسًا بدوره: «لا أحسبُ أنهم يُبالون يا آري».

تطلَّعت إلى وجه السير آموري، كما علَّمها سيريو أن تَنظُر، فرأت أن جندري على حق.

---

(1) المانتيكور حيوان خرافي، له رأس إنسان وجسم أسد، وجناحان كالوطواط، وثلاثة صفوف من الأسنان الحادَّة كسمكة القِرش.

صاحَ السير آموري: «لو أنكم لستم خونة، فافتحوا بوَّاباتكم. سنتأكَّد فقط من أنكم تقولون الحقيقة، ثم ننصرف إلى حال سبيلنا».

قال يورن وهو يَمضُغ التَّبغ المُر: «قلتُ لكم إن لا أحد هنا غيرنا. أعطيكم كلمتي».

ضحكَ الفارس ذو الخوذة الطَّويلة قائلًا: «الغُراب يُعطينا كلمته!».

وأضافَ أحد حاملي الرِّماح ساخرًا: «هل ضللت الطَّريق أيها العجوز؟ «الجِدار» بعيد في الشَّمال».

قال السير آموري: «آمركم مرَّةً أخرى باسم الملك چوفري أن تُثبِتوا الولاء الذي تدَّعونه وتفتحوا هذه البوَّابات».

تدبَّر يورن فترةً طويلةً دون أن يكفَّ عن المضغ، ثم إنه بصقَ وقال: «لا أظنُّ أننا سنفعل».

- «ليكن إذن. إنكم تتحدُّون أوامر الملك، ومن ثَمَّ تُعلِنون أنفسكم متمرِّدين، سواء ارتديتم المعاطف السَّوداء أم لا».

صاحَ يورن: «معي صِبية صغار هنا».

قال السير آموري: «الصِّبية الصِّغار والرِّجال المسنُّون يموتون على حَدٍّ سواء»، ورفعَ قبضته بحركةٍ فاترة، فجاءَ رُمح مندفعًا بعُنفٍ من بين الظِّلال التي أضاءَتها النِّيران من ورائه، ولا بُدَّ أن يورن كان المستهدَف، لكن ووث الذي وقفَ إلى جواره هو من أصيبَ، ليخترق رأس الرُّمح حَلقه ويتفجَّر خارجًا من مؤخِّرة عُنقه مخضَّبًا بالدِّماء القانية. أطبقَ ووث على العمود، ثم هوَت جثَّته الهامدة.

قال السير آموري بنبرةٍ ضَجِرة: «اقتحِموا الأسوار واقتلوهم جميعًا»، فحلَّق المزيد من الرِّماح في الهواء، وجذبَت آريا هوت پاي من ظَهر سُترته إلى أسفل، بينما تردَّدت في الخارج صلصلة الدُّروع واحتكاك السُّيوف بالأغماد ودَقُّ التُّروس بالرِّماح، وقد اختلطَ كلُّ هذا بالسِّباب ووقْع حوافر الخيول المندفعة.

طارَ مشعل دائرًا في الهواء فوق رؤوسهم مخلِّفًا أصابع من اللَّهب، قبل أن يَسقُط في تُراب السَّاحة، وصاحَ يورن: «استلُّوا أسلحتكم! انتشِروا ودافعوا

عن الأسوار أينما هاجَموها! كوس، أورج، احميا البوَّابة الجانبيَّة. لومي، اسحب هذا الرُّمح من ووث وقِف حيث كان».

أسقطَ هوت باي سيفه القصير حينما حاولَ استلاله، فدسَّته آريا في يده، ليقول لها متَّسع العينين: «لا أجيدُ المبارَزة».

قالت آريا: «إنها سهلة»، لكن الكذبة ماتَت في حنجرتها إذ أطبقَت يد على قمَّة السُّور. رأتها على ضوء البلدة المشتعلة بوضوحٍ تام كأن الزَّمن توقَّف، وكانت الأصابع ثخينةً خشنةً، تنمو بين مفاصلها شُعيرات سوداء تُشبه الأسلاك، وتحت ظُفر الإبهام الكثير من القذارة. ضربة الخوف أمضى من السَّيف، تذكَّرت وقد برزَت قمَّة الخوذة العظيمة من وراء اليد.

هوت آريا بإبرتها صارخةً: «وينترفل!»، ليخترق فولاذها المطرَّق في قلعة الأصابع بين المفاصل، فانبجسَت الدِّماء وطارَت الأصابع، واختفى الوجه ذو الخوذة فجأةً كما ظهرَ. صاحَ هوت باي: «وراءك!»، فدارَت آريا مسرعةً. كان الرَّجل الثاني ملتحيًا وبلا خوذة، وقد وضعَ خنجره بين أسنانه كي يستطيع التسلُّق بيديه معًا، وعندما رفعَ ساقه فوق السُّور، سدَّدت هي رأس سيفها إلى عينه، لكن «الإبرة» لم تمسَّه حقًّا، إذ تراجعَ إلى الوراء متفاديًا إياها، فقط ليَسقُط. آملُ أن يَسقُط على وجهه ويقطع لسانه. صرخَت في هوت باي: «راقِبهم هُم وليس أنا!». الرَّجل التَّالي الذي حاولَ أن يتسلَّق الجزء الذي يحميانه من الأسوار، كان من نصيبه الصَّبي اليتيم الذي راحَ يهوي بسيفه القصير على يده، حتى سقطَ الرَّجل.

لم تكن هناك سلالم مع مجموعة السِير آموري، لكن حجارة أسوار المعقل غير منتظمة أو مملَّطة ومن السَّهل تسلُّقها، وبدا أن أعداد أعدائهم بلا نهاية، فمقابل كلِّ واحدٍ جرحَته آريا أو طعنَته أو دفعَته إلى الوراء كان واحد آخَر يتسلَّق السُّور. بلغَ الفارس ذو الخوذة الطَّويلة القمَّة، لكن يورن لَفَّ رايته السَّوداء حول الخوذة وغرسَ خنجره في دِرع الرَّجل وهو يُحاوِل التملُّص من المعطف. كلما رفعَت آريا عينيها إلى أعلى رأت مزيدًا من المشاعل تشقُّ الهواء صانعةً ذيولًا طويلةً من اللَّهب تجاوزَت مدى بصرها، ولمحَت أسدًا ذهبيًّا على رايةٍ حمراء فخطرَ جوفري ببالها، وتمنَّت لو أنه كان هنا لتغرس

إبرتها في وجهه عابث الملامح. هاجمَ أربعة رجال البوَّابة بالفؤوس، فأرداهم كوس بسهامه واحدًا تلو الآخَر، بينما صارعَ دوبر رجلًا في الشُّرفة وطرحَه أرضًا، فهشَّم لومي رأسه بصخرةٍ قبل أن يُعاوِد النُّهوض، وأطلقَ ضحكةً ظافرةً طويلةً، بترَها لمَّا رأى السكِّين في بطنِ دوبر، وأدركَ أنه لن ينهض هو الآخَر. وثبَت آريا فوق جثَّة صبيٍّ مقطوع الذِّراع لا يتجاوَز چون عُمرًا، ولم تحسب أن هذا من صُنعها، لكن لم يكن هناك سبيل للتأكُّد، وسمعَت كايل يتوسَّل طالبًا الرَّحمة، قبل أن يُهَشِّم فارس على تُرسه رمز زُنبور وجهه بهرَّاوةٍ شائكة. من كلِّ شيءٍ فاحَت روائح الدَّم والدُّخان والحديد والبول، وإن امتزجَت كلها بَعد فترةٍ صانعةً رائحةً واحدةً. لم ترَ كيف تجاوزَ ذلك الرَّجل النَّحيل السُّور، إلَّا أنها انقضَّت عليه مع جندري وهوت پاي، ليُحَطِّم سيف جندري خوذته ويُطَيِّرها، فيبدو من تحتها رأسه الأصلع وملامحه الخائفة وأسنانه النَّاقصة ولحيته الشَّيباء، لكن حتى مع الشُّعور بالشَّفقة عليه الذي راودَها كانت تَقتُله بالفعل صائحةً: «وينترفل! وينترفل!»، بينما صرخَ هوت پاي: «هوت پاي!» إلى جوارها وهو يضرب عُنق الرَّجل الرَّفيع بسيفه مرارًا.

عندما ماتَ الرَّجل النَّحيل، اختطفَ جندري سيفه ووثبَ إلى السَّاحة ليُواصِل القتال، وتجاوزَته آريا ببصرها لترى أشباحًا من فولاذٍ تعدو عبر المعقل وضوء النَّار ينعكس على القمصان الواقية والأسلحة، فأدركَت أنهم اخترقوا الأسوار في بُقعةٍ ما، أو اقتحموا البوَّابة الجانبيَّة. هكذا وثبَت إلى جوار جندري، وحطَّت بالطَّريقة التي علَّمها سيريو إياها. امتلأَ اللَّيل بأصوات الفولاذ المتقارع وصراخ الجرحى والمحتضرين، ووقفَت آريا وهلةً لا تدري في أيِّ اتِّجاهٍ تتحرَّك، فالموت في كلِّ مكانٍ حولها.

ثم إنها وجدَت يورن هناك، يَرُجُّها بعُنفٍ ويزعق في وجهها: «يا ولد!» كما كان يزعق دائمًا. «اخرُج من هنا، انتهى الأمر، لقد خسرنا. اجمع من تستطيع، أنت وهو والآخَرون، الصِّبية، اخرُجوا بهم من هنا، الآن!».

- «كيف؟».

صرخَ: «الباب تحت الحظيرة».

ثم اختفى من أمامها في لمح البصر وسيفه في يده ليُواصِل القتال،

فجذبَت جندري من يده صائحةً: «قال أن نذهب، الحظيرة، طريق الخروج».
أومأَ الثَّور برأسه وانعكاس النَّار يلتمع في عينيه من وراء الشِّقَّين في خوذته، وناديا هوت پاي لينزل من أعلى السُّور، ثم عثرَ ثلاثتهم على لومي أخضر اليد الذي استلقى ينزف وقد اخترقَ رُمح رَبلة ساقه. عثروا على جيرين كذلك، لكن جرحه كان أبلغ من أن يستطيع الحركة، وبينما هروَلوا إلى الحظيرة لمحَت آريا الفتاة الباكية جالسةً في قلب المعمعة، يُحاصِرها الدُّخان والذَّبح، فأطبقَت على يدها وسحبَتها لتقف بينما واصلَ الآخَرون طريقهم. رفضَت الفتاة أن تتحرَّك من مكانها قيد أُنملة، حتى عندما صفعَتها آريا، التي لم تجد حَلًّا غير أن تَجُرَّها بيُمناها فيما حملَت إبرتها بيُسراها. كان اللَّيل أحمر قانيًا من أمامها، فقالت لنفسها: الحظيرة تحترق، وبالفعل كان اللَّهب يلعق جوانبها بألسنته حيث سقطَ مشعل على القَش، وتناهى صراخ الحيوانات الحبيسة في الدَّاخل إلى مسامع آريا. خرجَ هوت پاي من الحظيرة صائحًا: «هلمَّ يا آري! لقد رحلَ لومي! اتركها ما دامَت لا تُريد أن تأتي!».

بعنادٍ جرَّت آريا الفتاة الباكية بعُنفٍ أكثر، فاندفعَ هوت پاي إلى الدَّاخل وقد قرَّر التخلِّي عنهما... لكن جندري عادَ والنَّار تلتمع بشدَّةٍ على خوذته المصقولة، حتى بدا القرنان كأنهما يتوهَّجان بالبرتقالي، وانطلقَ إليهما ورفعَ الصَّغيرة على كتفه صارخًا: «اجرِ!».

كانت اندفاعتها عبر باب الحظيرة كدخول أتونٍ مستعر، الهواء مشبَّع تمامًا بالدُّخان، والحائط الخلفي صفحة من نارٍ من الأرض إلى السَّقف، بينما تَركُل خيولهم وحميرهم وترفع قوائمها وتَصرُخ. يا للحيوانات المسكينة! ثم رأت آريا العربة وثلاثة الرِّجال المكبَّلين بالأغلال المثبَّتة في أرضيَّتها. كان العضَّاض يُلقي نفسه محاولًا خلع السَّلاسل وقد سالَت الدِّماء على ذراعيه من حيث تمسَّكت الأصفاد بمعصميه، والسِّباب ينهال من رورج صراخًا وهو يَركُل الخشب، بينما هتفَ چاكن هاجار: «أيها الصَّبي! أيها الصَّبي الجميل!».

كان الباب الأفقي على بُعد أقدام معدودة، لكن الحريق ينتشر ملتهمًا الخشب القديم والقَشَّ الجافَّ أسرعَ مما تخيَّلت. تذكَّرت آريا وجه كلب الصَّيد المحروق البشع، وصاحَ جندري: «النَّفق ضيِّق. كيف نمرُّ بها؟».

- «اسحبها، ادفعها».

ونادى چاكُن هاجار من وسط سُعاله: «أيها الصَّبيَّان الطيِّبان، أيها الصَّبيَّان اللَّطيفان!».

وصرخَ رورچ: «اخلعا هذه السَّلاسل اللَّعينة!».

تجاهلَهما جندري، وخاطَبها قائلًا: «أنت أولًا، ثم هي، ثم أنا. أسرِع، النَّفق طويل».

تذكَّرت آريا شيئًا، فقالت له: «عندما كنت تقطع الحطب، أين تركت البلطة؟».

أجابَ: «عند المأوى»، ثم رمقَ الرِّجال المقيَّدين بنظرةٍ سريعةٍ وأردفَ: «كنتُ لأنقذ الحمير أولًا، فليس هناك وقت».

صاحَت فيه: «خُذها! أخرِجها من هنا! أخرِجها!».

ضربَت النِّيران ظَهرها بأجنحةٍ حمراء محمومة وهي تهرع مغادرةً سعير الحظيرة، وفي الخارجِ كان الجَوُّ باردًا على نحوٍ جميلٍ حقًّا، لكن الرِّجال كانوا يموتون في كلِّ مكانٍ حولها. رأت كوس يُلقي سلاحه ليستسلم، ورأتهم يَقتُلونه في مكانه، والدُّخان يُفعِم الهواء، ولا أثر ليورن، لكنها وجدَت البلطة حيث تركَها جندري إلى جوار كومة الحطب عند المأوى، وإذ حرَّرتها من الخشب امتدَّت يد مغطَّاة بالحلقات المعدنية تقبض على ذراعها، فدارَت آريا غارسةً رأس البلطة بين ساقي الرَّجل، ولم ترَ وجهه حتى، فقط الدَّم الأحمر الدَّاكن الذي سالَ بين حلقات قميصه الواقي. أمَّا العودة إلى الحظيرة فكانت أصعب شيءٍ فعلَته في حياتها على الإطلاق. رأت الدُّخان ينصبُّ صبًّا من الباب المفتوح كأفعى تتلوَّى، وسمعَت صرخات الدَّواب المسكينة في الدَّاخل، الحمير والخيول والرِّجال. ثم إنها مضغَت شفتها ومرقَت من الباب وقد انحنَت إلى حيث لم يكن الدُّخان كثيفًا.

كان أحد الحمير محاصرًا بحلقةٍ من النَّار، يَصرُخ رُعبًا وألمًا، وبلغَت أنف آريا رائحة شَعره المحروق، بينما اشتعلَ السَّقف بدوره وتساقطَت منه قِطع من الخشب المضطرم والقَشِّ والتِّبن. وضعَت آريا يدها على فمها وأنفها،

ومع أنها لم تستطِع أن ترى العربة من فرط الدُّخان، إلَّا أن صراخ العضَّاض المتواصل بلغَ أذنيها، لتزحف نحو الصَّوت.

ثم رأت عجلةً أمامها، قبل أن تثب العربة وتتحرَّك نِصف قدم وقد ألقى العضَّاض بنفسه ثانيةً، محاولًا اقتلاع الأغلال. رآها چاكن، لكن التنفُّس ذاته كان صعبًا، ناهيك بالكلام، فألقَت البلطة داخل العربة، ليلتقطها رورچ ويرفعها فوق رأسه، بينما سالَت أنهار من العَرق الأسود على وجهه عديم الأنف. كانت آريا تجري الآن وصدرها متهيِّج بالسُّعال، وسمعَت الفولاذ يضرب الخشب القديم ويضربه ويضربه، وبَعد لحظةٍ دوَّى صوت الانشقاق عاليًا كالرَّعد، وانفصلَ قاع العربة والشَّظايا تتفجَّر منه.

تدحرجَت آريا في النَّفق رأسًا لتَسقُط خمسة أقدام ويَدخُل الطِّين في فمها، لكنها لم تُبالِ، فلا بأس بالمذاق، مذاق التُّراب والماء والدُّود والحياة. تحت الأرض الجَوُّ برد وسلام وظلام، وفوقها لا شيء غير الدِّماء والأحمر الهادر والدُّخان الخانق وصراخ الخيول المحتضرة. حرَّكت حزامها كي لا تعترض «الإبرة» طريقها، وبدأت تزحف، وبَعد نحو عشرة أقدام في النَّفق ترامى إلى مسامعها الصَّوت كزئير وحشٍ عملاق، ومن ورائها ثارَت سحابة من الدُّخان السَّاخن والغُبار الأسود لها رائحة الجحيم ذاته.

كتمَت آريا أنفاسها وقبَّلت أرض النَّفق الموحلة وانفجرَت باكيةً، على مَن لا تدري.

تيريون

لم تكن الملكة مستعدَّةً لأن تنتظر حضور ڤارس، وقالت ساخطةً: «الخيانة في حَدِّ ذاتها شيء مُنحط، لكن هذه حقارة سافرة صارخة، ولستُ أحتاجُ أن يُخبِرني ذلك الخصيُّ المختال بما ينبغي فِعله مع الحُقراء».

التقطَ تيريون الرِّسالتين من يد أخته وقارَنهما جنبًا إلى جنب. كانت هناك نُسختان، لا يختلف النَّصُّ في إحداهما عن الأخرى إطلاقًا، وإن كتبَت كلًّا منهما يد مختلفة.

قال المِايستر الأكبر پايسل: «المِايستر فرنكن استلمَ الرِّسالة الأولى في قلعة ستوكوورث، والنُّسخة الثَّانية جاءت عن طريق اللورد جايلز».

داعبَ الإصبع الصَّغير لحيته قائلًا: «ما دامَ ستانيس جشَّم نفسه عناء الكتابة لهذين الاثنين، فلا ريب أن كلَّ لوردٍ آخَر في الممالك السَّبع رأى نُسخةً كذلك».

أعلنَت سرسي: «أريدُ أن تُحرَق هذه الرَّسائل، كلها بلا استثناء، فلا ينبغي أن تَبلُغ كلمة منها مسامع ابني أو أبي».

رَدَّ تيريون بلهجةٍ جافَّة: «أعتقدُ أن أبي سمعَ أكثر من مجرَّد كلمة، فمن المؤكَّد أن ستانيس أرسلَ طائرًا إلى كاسترلي روك وآخَر إلى هارنهال. أمَّا بالنِّسبة لحرق الرَّسائل، فما الفائدة؟ لقد فاتَ أوان هذا، الأغنيَّة ذاعَت والنَّبيذ انسكبَ والعاهرة حبلى. ثم إن المسألة ليست بذلك السُّوء في الواقع».

التفتَت إليه سرسي والغضب مشتعل في عينيها الخضراوين، وقالت: «هل

أصابَك الخبال أم ماذا؟ ألم تقرأ ما يقوله؟ إنه ينعت ابني بالصَّبي چوفري، ويجرؤ على اتِّهامي بسِفاحِ القُربى والزِّنى والخيانة، أنا!».

فقط لأنك مُذنبة فعلًا. من المدهش أن يرى كيف تُصَدِّر سرسي الانطباع بأنها تتميَّز غيظًا من اتِّهاماتٍ تعرف أنها صحيحة تمامًا. عليها أن تحترف التَّمثيل إذا خسرنا الحرب، إنها موهوبة حقًّا. انتظرَ تيريون حتى فرغَت، ثم قال: «من الضَّروري أن تكون لستانيس ذريعة يُبَرِّر بها تمرُّده. ماذا كنتِ تتوقَّعين أن يَكتُب؟ چوفري ابن أخي الشَّرعي، لكني أنوي أن آخُذ العرش على الرغم من ذلك؟».

- «لن أسمح بأن أوصَف بالعاهرة!».

عجبًا يا أختاه، إنه لم يدَّعِ أن چايمي نقدَك مالًا. تظاهرَ تيريون بتفحُّص المكتوب ثانيةً. ثمَّة عبارة مثيرة للاهتمام... «تَمَّ في نور الإله. اختيار غريب للكلمات».

تنحنحَ پايسل، وقال: «غالبًا ما تظهر هذه الكلمات في رسائل ووثائق المُدن الحُرَّة، وتعني على سبيل المثال: تَمَّ بشهادة الإله، إله الرُّهبان الحُمر. إنها الصِّيغة التي يستخدمونها».

قال الإصبع الصَّغير مذكِّرًا: «ڤارس أخبرَنا قبل سنوات أن الليدي سيليس صارَت على صلةٍ قويَّة براهبٍ أحمر».

نقرَ تيريون على الورق قائلًا: «ويبدو الآن أن السيِّد زوجها حذا حذوها. يُمكننا أن نستخدم هذا ضده. سنحثُّ السِّپتون الأعلى على أن يفضح ستانيس، وكيف انقلبَ على الآلهة كما انقلبَ على ملكه الشَّرعي».

قالت الملكة بنفاد صبر: «نعم، نعم، لكن ينبغي أولًا أن نمنع هذه القذارات من الانتشار أكثر. يجب أن يُصدِر المجلس مرسومًا يقضي أن يفقد كلُّ من يتكلَّم عن زنى المحارم أو يدعو چوف نغلًا لسانه».

أومأ المِايستر الأكبر پايسل برأسه، فصلصلَت حلقات سلسلته، وقال: «إجراء حكيم».

تنهَّد تيريون قائلًا: «بل هي حماقة. عندما تقطع لسان أحدهم، فأنت لا تُثبِت أنه كاذب، بل تقول للعالم فقط إنك تخشى ما يتفوَّه به».

سألَته أخته بإلحاح: «ماذا تُريدنا أن نفعل إذن؟».

- «القليل جدًّا. دعيهم يتهامَسون، فسرعان ما سيملُّون الحكاية. أيُّ أحدٍ يملك ذرَّة عقلٍ سيرى أنها محاوَلة خرقاء لتبرير اغتصاب التَّاج. هل يُقَدِّم ستانيس دليلًا؟ أنَّى له بدليلٍ بينما لم يَحدُث شيء من هذا قَطُّ؟». قالها تيريون ومنحَ أخته أعذب ابتساماته.

مرغمةً قالت: «هذا صحيح، ولكن...».

شبَّك پيتر بايلش أصابعه، وقال: «أخوكِ على حق يا جلالة الملكة. إذا حاوَلنا إسكات الكلام، فلن يُفضي هذا إلَّا إلى صبغِه بالمصداقيَّة، والأفضل أن نتعامَل مع تلك الأكاذيب الدَّنيئة بالازدراء الذي يليق بها، ونُكافِح النَّار بالنَّار في الوقت الرَّاهن».

رمقَته سرسي بنظرةٍ فاحصةٍ وهي تسأَله: «أيُّ نوعٍ من النَّار؟».

- «حكاية ذات طبيعةٍ مشابهة ربما، لكن قابلة للتَّصديق بسهولةٍ أكثر. لقد أمضى اللورد ستانيس معظم سنين زواجه بعيدًا عن زوجته، ولا ألومه في الحقيقة، فقد كنتُ لأفعل المِثل لو كانت الليدي سيليس زوجتي. على كلِّ حال، إذا أذَعنا أن بنتها ابنة سِفاح وأن ستانيس ديوث... العامَّة متلهِّفون على تصديق أسوأ الأشياء طرًّا في لورداتهم، خصوصًا رجل قاسٍ صارم يثور لكرامته مثل ستانيس باراثيون».

قالت سرسي: «إنه لم يكن محبوبًا قَطُّ، هذا صحيح»، وفكَّرت لحظةً ثم أضافَت: «نردُّ له الدَّين بعُملته نفسها إذن. نعم، يُعجِبني هذا. مَن نقول إنه عشيق الليدي سيليس؟ إن لديها أخوين على ما أعتقدُ، وأحد أعمامها معها في دراجونستون طيلة الوقت».

- «السير آكسل فلورنت هو أمين القلعة». يكره تيريون أن يُقِرَّ بهذا علانيةً، لكن مكيدة الإصبع الصَّغير واعدة حقًّا. لم يكن ستانيس شغوفًا بزوجته في يومٍ من الأيام، لكنه شائك جدًّا كالقُنفذ عندما يتعلَّق الأمر بشَرفه، كما أنه شكَّاك بطبعه. إذا استطاعوا أن يزرَعوا الفُرقة بينه وبين أتباعه، ستبدأ صفوفهم في الانشقاق. «قيلَ لي إن الصَّغيرة لديها أُذنا عائلة فلورنت».

أشارَ الإصبع الصَّغير بخمولٍ مجيبًا: «ذات مرَّةٍ قال لي مبعوث تجاري من

لِيس إن اللود ستانيس يُحِبُّ ابنته كثيرًا، بما أنه أقامَ لها تماثيل بطول أسوار دراجونستون وعرضها، فقلتُ له: إنها كراجل يا سيِّدي!»، وأطلقَ ضحكةً قصيرةً، وتابعَ: «قد يَصلُح السير آكسل لأن يكون أبا شيرين، لكن حسب تجربتي، فكلما كانت الحكاية غريبة وصادمة أكثر سيكون ترديدها أسهل. ستانيس لديه مهرِّج غريب حقًّا، أبله وجهه مغطًّى بالأوشام».

فغرَ المِايستر الأكبر پايسل فاه مرتاعًا، وقال: «مؤكَّد أنك لا تقصد التَّلميح إلى أن الليدي سيليس قد تأخذ مهرِّجًا إلى فِراشها».

قال الإصبع الصَّغير: «ينبغي أن تكون مهرِّجًا أحمق لترغب في أن تُضاجِع سيليس فلورنت. لا شَكَّ أن ذا الوجه المرقَّع ذكَّرها بستانيس، ثم إن أفضل الكذب على الإطلاق ما ينطوي على شيءٍ من الحقيقة يكفي لأن يتوقَّف سامعه ويُفكِّر. يتصادَف أن هذا المهرِّج وفيٌّ للفتاة لأقصى حَدٍّ ويُلازِمها كظِلِّها، بل وثمَّة شَبه بين الاثنين كذلك، فشيرين وجهها مرقَّع وشِبه متجمِّد كذلك».

قال پايسل حائرًا: «لكن هذا من جرَّاء الدَّاء الأرمد الذي كادَ يَقتُل المسكينة وهي رضيعة».

- «أفضِّلُ حكايتي، وكذا سيُفَضِّلها العوام. معظمهم يعتقد أنه إذا أكلَت امرأة لحم الأرانب وهي حامل، فسيولَد طفلها بأُذنين طويلتين مرنتين».

ارتسمَت على شفتي سرسي الابتسامة التي تحتفظ بها عادةً لچايمي وحده، وقالت: «لورد پيتر، أنت مخلوق لئيم».

- «أشكركِ يا جلالة الملكة».

أضافَ تيريون بلهجةٍ أقل دفئًا: «وكذَّاب متمكِّن للغاية». هذا الرَّجل أخطر مما تصوَّرتُ.

التقَت عينا الإصبع الصَّغير الخضراوان المائلتان إلى الرَّمادي بعيني تيريون غير المتماثلتين، دون أن يلوح فيهما أدنى أثر للاضطراب، وقال: «كلنا لديه مواهبه يا سيِّدي».

قالت الملكة المنغمسةً تمامًا في خواطر الانتقام ولم تنتبه لهما: «يديثُ

على زوجته مع مهرِّجٍ فقدَ عقله! سيُصبِح ستانيس أضحوكةً في كلِّ حانةٍ على هذا الجانب من البحرِ الضيِّق».

قال تيريون: «ينبغي ألَّا تأتي القصَّة منا، وإلَّا سوف تُعامَل باعتبارها كذبة تخدم مصالحنا نحن». وهي كذلك بالتَّأكيد.

مرَّةً أخرى زوَّدهم الإصبع الصَّغير بالإجابة: «العاهرات مولعات بالنَّميمة، ويتصادَف أني أملكُ ماخورًا واثنين وثلاثة، ولا شَكَّ أن ڤارس يستطيع أن يزرع بذور القصَّة في الحانات ومحال الأكل».

قالت سرسي مقطِّبةً وجهها: «ڤارس. أين هو؟».

- «أتساءلُ عن هذا عن نفسي يا جلالة الملكة».

قال المِايستر الأكبر پايسل بجدِّيَّة: «العنكبوت ينسج شباكه الخفيَّة ليل نهار. إنني لا أثقُ به أيها السَّادة».

قال تيريون وهو ينزل من على كرسيه: «مع أنه يُطري عليك كثيرًا». الحقيقة أنه يعرف ما يفعله الخصيُّ الآن، لكنه ليس بالشَّيء الذي يحتاج بقيَّة المستشارين أن يعرفوه. «أستأذنكم بالانصراف أيها السَّادة، فلديَّ أعمال أخرى».

ردَّت سرسي التي أصابَها الشَّكُّ من فورها: «أعمال تخصُّ الملك؟».

- «ليس شيئًا يستحقُّ أن تشغلي نفسك به».

- «دَع الحُكم لي».

- «أترغبين في إفساد مفاجأتي؟ ثمَّة هديَّة أصنعها لجوفري، سلسلة صغيرة».

- «ولِمَ يحتاج سلسلةً أخرى؟ إن لديه سلاسل من ذهبٍ وفضَّةٍ تكفيه عُمره كله. إذا حسبت لحظةً أنك تستطيع شراء حُبِّ جوف بالهدايا...».

- «مؤكَّد أن الملك يُحِبُّني كما أحبُّه تمامًا، لكني أومنُ بأنه سيُؤثِر تلك السِّلسلة بالتَّحديد على غيرها ذات يوم»، وانحنى الرَّجل الصَّغير، ثم سارَ متمايلًا إلى الباب.

كان برون ينتظره خارج قاعة المجلس، ليصحبه إلى بُرج اليد، وقال وهما يقطعان السَّاحة: «الحدَّادون في قاعة الاجتماعات، ينتظرون تشريفك».

- «ينتظرون تشريفي. أحبُّ وقع هذه الكلمة يا برون. تكاد تتكلَّم كرجل حاشيةٍ حقيقي، وربما أجدك تركع المرَّة القادمة».

- «نِك نفسك أيها القزم».

- «لديَّ شِاي لأفعل هذا معها». سمعَ تيريون الليدي تاندا تُناديه بمرح من على قمَّة السَّلالم الملتفَّة، فحَثَّ الخُطى متظاهرًا بأنه لا يسمعها، وقالَ لبرون: «قُل لهم أن يُجَهِّزوا نقَّالتِي. سأغادرُ القلعة بمجرَّد أن أفرغ هنا». كان اثنان من إخوة القمر يقفان حراسةً على الباب، فحيَّاهما تيريون ببشاشة، قبل أن تتجهَّم ملامحه وهو يَرمُق سلالم البُرج، فالصُّعود إلى مسكنه دائمًا ما يُصيب قدميه بألم شديد.

في الدَّاخل وَجدَ صبيًّا في الثَّانية عشر يفرد ثيابًا على الفِراش، مُرافِقه المثير للشَّفقة پودريك پاين الصَّموت الخجول، الذي ما زال تيريون يرتاب في أن أباه ابتلاه به على سبيل الدُّعابة السَّمجة. همهمَ الصَّبي وقد خفضَ بصره عندما دلفَ تيريون: «ثيابك يا سيِّدي من أجل اجتماعك، والسِّلسلة، سلسلة اليد». حتى عندما يستجمع شَجاعته ويتكلَّم، فلا يستطيع پود أن يرفع عينيه إليك أبدًا.

- «عظيم. ساعِدني على ارتدائها». كانتِ السُّترة من المخمل الأسود المغطَّى بحُلِيٍّ ذهبيَّة على شكل رؤوس أُسود، والسِّلسلة من الذَّهب الخالص، عبارة عن حلقة من الأيدي التي تقبض أصابع كلٍّ منها على معصم الأخرى، وجاءَه پود بمعطفٍ من الحرير القرمزي الموشَّى بالذَّهبي، مفصَّل ليُناسِب مقاسه، فلم يكن يتعدَّى حرملةً قصيرةً إذا ارتداه رجل عادي.

لم تكن قاعة الاجتماعات الخاصَّة باليد كبيرةً كقاعة الملك، وتُمَثِّل مجرَّد رقعةٍ من رحابة قاعة العرش، لكنِ تيريون يُحِبُّ ما فيها من البُسط المايريَّة ومعلَّقات الحوائط والأُلفة التي تبثُّها فيه. أعلنَ وكيله لدى دخوله: «تيريون لانستر، يد الملك». وجدَ أن هذا أيضًا يروقه، خصوصًا عندما ركعَ رهط الحدَّادين والصَّاغة وتجَّار الحدائد الذين جاءَ بهم برون بمجرَّد رؤيته.

دفعَ نفسه إلى أعلى ليجلسِ على المقعد العالي تحت النَّافذة الذَّهبيَّة المستديرة، وأشارَ لهم بالقيام قائلًا: «أيها المحترمون، أعرفُ أنكم مشغولون،

لذا سأختصرُ الكلام. پود، إذا سمحت»، فناوَله الصَّبي جوالًا من الخيش، سحبَ تيريون رباطه وقلبَه، لتَسقُط محتوياته المعدنيَّة على البساط الصُّوف بصوتٍ مكتوم. «جعلتهم يصنعون هذه في ورشة القلعة، وأريدُ ألفًا أخرى مِثلها».

ركعَ واحد من الحدَّادين ليفحص الحلقات الفولاذيَّة الضَّخمة الثَّلاث المعشَّقة معًا، وقال: «سلسلة هائلة».

رَدَّ القزم: «هائلة لكن قصيرة، مِثلي إلى حَدٍّ ما. أرغبُ في واحدةٍ أطول بكثير. ألك اسم؟».

- «يُسَمُّونني بطن الحديد يا سيِّدي». كان الحدَّاد قصيرًا مكتنزًا كبير البطن، يرتدي ثيابًا تقليديَّةً من الصُّوف والجِلد، لكن ذراعيه مفتولتان كعُنق ثور.

- «أريدُ أن تُرَكِّز كلُّ ورشةٍ في كينجز لاندنج على صُنع الحلقات وربطها، وليوضَع أيُّ عملٍ آخَر جانبًا. أريدُ أن ينصبَّ كلُّ رجلٍ يعرف فَنَّ تشكيل المعادن على هذه المهمَّة، سواء أكان صاحب ورشة أم عاملًا أو صبيًّا تحت التَّدريب. عندما أمرُّ من شارع الحديد، أريدُ أن أسمع المَطارق تدقُّ نهارًا وليلًا، وأريدُ رجلًا، رجلًا قويًّا يُشرِف على كلِّ هذا. أأنت هذا الرَّجل أيها المحترم بطن الحديد؟».

- «قد أكونُ كذلك يا سيِّدي، لكن ماذا عن القمصان الواقية والسُّيوف التي تُريدها الملكة؟».

وتحدَّث حدَّاد آخَر قائلًا: «جلالتها أمرَتنا بأن نصنع قمصان الحلقات المعدنيَّة والدُّروع، وسيوفًا وخناجر وفؤوسًا بأعدادٍ ضخمة، لتسليح ذوي المعاطف الذَّهبيَّة الجُدد يا سيِّدي».

- «تلك الأعمال يُمكن أن تنتظر. السِّلسلة أولًا».

قال الحدَّاد المتوتِّر بإصرار: «أستميحك عذرًا يا سيِّدي، لكن جلالتها قالت إن من لا يُحقِّقون الأعداد المطلوبة ستُحَطَّم أيديهم، قالت إنها ستُهَشَّم على السِّندان».

سرسي وعذوبتها، دائمًا تُجاهِد لتجعل العامَّة يُحِبُّوننا. «لا شيء سيَحدُث ليد أحد، لكم كلمتي».

قال بطن الحديد: «الحديد صارَ شحيحًا، وتلك السِّلسلة ستحتاج كثيرًا منه، بالإضافة إلى الفحم للنَّار».

وعدَه تيريون: «سيحرص اللورد بايلش على أن تتوفَّر لكم المبالغ المطلوبة». تمنى أن يستطيعُ الاعتماد على الإصبع الصَّغير في هذا على الأقل. «سآمرُ حَرس المدينة بمساعَدتكم على إيجاد الحديد. أذيبوا كلَّ حدوةِ حصان في المدينة إذا اضطررتم».

تقدَّم رجل أكبر سِنًّا، يرتدي سُترةً ثمينةً من الإستبرق ذات أبازيم من الفضَّة، تحت معطفٍ مبطَّن بفرو الثَّعلب، وركعَ يفحص الحلقات الفولاذيَّة التي أسقطَها تيريون على الأرض، ثم قال بتجهُّم: «سيِّدي، هذا عمل غير متقَن في أغلب الأحوال، ولا فَنَّ فيه. صحيحٌ أنه يُناسِب الحدَّادين التَّقليديِّين، من يَدُقُّون حدوات الخيول والقدور، لكني أستاذ في فَنِّ صياغة المعادن إذا سمحَ سيِّدي، وهذا العمل لا يَصلُح لي أو لزملائي المحترفين. إننا نصنع سيوفًا حادَّةً كالأغاني، ودروعًا تليق بإله، وليس هذا».

مالَ تيريون برأسه جانبًا وسلَّطَ نظرات عينيه غير المتماثلتين على الرَّجل قليلًا، ثم قال: «ما اسمك أيها الأستاذ؟».

- «سالوريون، بَعد إذن سيِّدي. إذا سمحَ لي حضرة يد الملك، سيُشَرِّفني أن أصنع له دِرعًا تليق بعائلته ومنصبه الرَّفيع». أطلقَ اثنان من الآخَرين ضحكةً مكبوتةً، لكن سالوريون اندفعَ مواصلًا دون أن يلتفت لهما: «من الصَّفائح والأقراص المعدنيَّة على ما أظنُّ، الأقراص مذهَّبة وضَّاءة كالشَّمس، والصَّفائح مطليَّة بلون لانستر القرمزي القاني، وأقترحُ أن تكون الخوذة على شكل رأس شيطان، يُتَوِّجها قرنان ذهبيَّان طويلان. عندما تَدخُل ساحة المعركة، سيَصرُخ الرِّجال ويفرُّون خوفًا».

قال تيريون لنفسه بضِيق: رأس شيطان، ما الذي يقوله هذا عني؟ «أيها المحترم سالوريون، إنني أنوي أن أخوض بقيَّة معاركي من على هذا المقعد. ما أحتاجه هو الحلقات وليس قرون الشَّياطين. دعني أقولُ لك الخلاصة: سوف تصنع السِّلسلة، أو ترتدي سلسلةً، الخيار لك»، ونهضَ مغادرًا المكان دون أن يُلقي نظرةً واحدةً وراءه.

كان برون ينتظر عند البوَّابة مع النقَّالة وفِرقةٍ من رجال الآذان السَّوداء بخيولهم، وقال له تيريون بَعد أن ساعَده على الرُّكوب: «تعرف وجهتنا». لقد فعلَ غاية ما في وسعه ليُطعِم المدينة الجائعة، فكلَّف عدَّة مئات من النجَّارين بناء قوارب الصَّيد بدلًا من المجانيق، وفتحَ غابة الملوك لأيِّ صيَّادٍ يَجسُر على عبور النَّهر، بل وأرسلَ ذوي المعاطف الذَّهبيَّة لجمع ما يَصلُح للأكل غَربًا وجَنوبًا... ومع ذلك لم يزل يرى نظرات الاتِّهام في الأعيُن أينما ذهبَ. على أن ستائر النقَّالة تقيه النَّظرات، كما تمنحه متَّسعًا للتَّفكير.

تأمَّل تيريون أحداث هذا الصَّباح وهُم يشقُّون طريقهم بتؤدةٍ عبر زقاق الظِّلَّة السَّوداء إلى سفح تَلِّ إجون العالي. غضبة أخته أعمَتها عن رؤية أهميَّة رسالة ستانيس باراثيون الحقيقيَّة، فاتِّهاماته لا تعني شيئًا بلا دليل، بينما ما يهمُّ فعلًا أنه يُسَمِّي نفسه ملكًا. فما الذي سيفعله رنلي إزاء هذا إذن؟ إنهما لن يجلسا معًا على العرش الحديدي بالطَّبع.

بحركةٍ فاتِرة أزاحَ السِّتار بعض الشَّيء صانعًا فرجةً يرى منها الشَّوارع. كان رجال الآذان السَّوداء يركبون على جانبيه وقد أحاطَت قلاداتهم البشعة بأعناقهم، بينما تقدَّمهم برون ليُفسِح الطَّريق. راقبَ تيريون المارَّة الذين يُراقِبونه، وبدأ يلعب لعبةً صغيرةً مع نفسه، محاولًا أن يفرز الجواسيس من البقيَّة. غالبًا أكثر من يبدو مثيرًا للرِّيبة بريء، أمَّا من تبدو عليهم البراءة فهُم من يجب أن أتوخَّى الحذر منهم.

كانت وجهته تقع وراء تَلِّ ريينس، والشَّوارع مزدحمة، ففاتَ ما يَقرُب من السَّاعة قبل أن تتوقَّف النقَّالة أخيرًا، وكان تيريون قد غفيَ، لكنه استيقظَ فجأةً مع سكون الحركة، وفركَ عينيه واتَّكأ على يد برون لينزل.

ارتفعَ البناء طابقين، السُّفلي من الحجارة والعُلوي من الخشب، واحتلَّ إحدى الزَّوايا بُرج مستدير صغير، بينما طُلِيَ عدد كبير من النَّوافذ بالرَّصاص، وعُلِّقَ مصباح دائري مزخرف من الحديد المذهَّب والزُّجاج القرمزي فوق الباب.

قال برون: «إنه ماخور. ماذا تنوي أن تفعل هنا؟».

- «ما الذي يفعله النَّاس عادةً في المواخير؟».

ضحكَ المرتزِق وقال: «ألا تكفيك شِاي؟».

- «كانت جمِيلةً بالنِّسبة لتابعة معسكرات، لكني لم أعد في المعسكر. شهيَّة الرِّجال الصِّغار كبيرة، ويُقال لي إن الفتيات هنا يلقن بملك».

- «هل كبرَ الصَّبي بما فيه الكفاية؟».

- «ليس چوفري، بل روبرت. هذا المكان كان مفضَّلًا لديه للغاية». مع أن چوفري قد يكون كبيرًا بما فيه الكفاية. فكرة مثيرة للاهتمام. «إذا أردت أنت والآذان السَّوداء أن تقضوا وقتًا طيِّبًا، فلا بأس، لكن فتيات شاتايا باهظات الثَّمن. ستجدون بيوتًا أرخص بطول الشَّارع. اترُكوا رجلًا واحدًا هنا يعرف أين يجد الآخَرين عندما أقرِّرُ العودة».

قال برون بينما ارتسمَت ابتسامات واسعة على وجوه رجال الآذان السَّوداء: «كما تقول».

في الدَّاخل استقبلَته امرأة طويلة القامة ترتدي ثوبًا من الحرير الهفهاف، بشرتها بلون الأبنوس وعيناها بلون خشب الصَّندل، وقالت منحنيةً بشدَّة: «أنا شاتايا، وأنت...».

- «دعينا لا نُمارِس عادة تبادُل الأسماء، فالأسماء شيء خطِر». كان الهواء يعبق برائحة نوعٍ غريب من التَّوابل، بينما عرضَت الأرضيَّة من تحته لوحةً مرسومةً بالفسيفساء لامرأتين تتطارَحان الغرام. «لديكِ منشأة تسرُّ الأنفُس».

- «لقد اجتهدتُ طويلًا لأجعلها هكذا. يُسعِدني أن حضرة اليد مسرور». كان صوتها كهرمانًا سائلًا، منكَّهًا بلكنات جُزر الصَّيف النَّائية.

قال تيريون بصرامة: «الألقاب خطِرة كالأسماء. أريني بعضًا من فتياتكِ».

- «من أقصى دواعي سعادتي أن أفعل. ستجدهن شديدات العذوبة بقدر ما هن جميلات، ومتمرِّسات في كلِّ فنون الهوى»، وتحرَّكت شاتايا بخفَّةٍ تاركةً تيريون يمشي متمايلًا وراءها بأقصى سرعةٍ تقدر عليها ساقاه، اللتان لا تتجاوَزان نِصف ساقيها طولًا.

من وراء السَّاتر المايري المزخرف المنقوش بأشكال الزُّهور وأوضاع العِشق والفتيات الحالمات، حدَّقا دون أن يراهما أحد في أرجاء القاعة العامَّة، حيث يعزف رجل عجوز نغمةً مرحةً على المزمار، بينما في فجوةٍ

مبطَّنة بالوسائد يُهَزهِز تايروشي سكران أرجواني الشَّعر فتاةً يافعةً عامرة الصَّدر وقد أجلسَها على رُكبتيه. كان قد خلعَ صِدارها، ويُمَيِّل كأسه ليصبَّ خيطًا رفيعًا من النَّبيذ على ثدييها ليلعقه عنهما. فتاتان أخريان كانتا تلعبان البلاطات إلى جوار واحدةٍ من النَّوافذ المطليَّة بالرَّصاص، منهما ذات النَّمش التي ترتدي سلسلةً من الزُّهور الزَّرقاء في شَعرها العسلي، والأخرى بشرتها ملساء سوداء كالسَّبَج المصقول، لها عينان واسعتان داكنتان ونهدان صغيران مدبَّبا التَّكوين. ارتدَت الاثنتان بدورهما غلالتين من الحرير الهفهاف المثبَّت عند الخصر بحزام مرصَّع بالخرز، وحدَّد نور الشَّمس المنصبُّ من زجاج النَّافذة الملوَّن جسَديهما الشَّابين الجميلين من خلال النَّسيج الخفيف، ما جعلَ تيريون يَشعُر بحركةٍ بين ساقيه. قالت شاتايا: «مع احترامي، أقترحُ أن تختار داكنة البشرة».

- «إنها صغيرة».

- «سِنُّها ستَّة عشر عامًا يا سيِّدي».

حدَّث نفسه مسترجعًا ما قاله برون: سِنٌّ مناسبة لچوفري. أول امرأةٍ عاشَرها كانت أصغر من هذا. تذكَّر تيريون كيف بدا عليها الخجل وهو يسحب فُستانها من فوق رأسها أول مرَّة. شَعر أسود فاحم وعينان زرقاوان يُمكنك أن تغرق فيهما، ولقد غرقَ، منذ زمنٍ طويل للغاية... يا لك من أحمق بائس أيها القزم. «أهذه الفتاة من ديارِكِ؟».

- «الصَّيف يجري في دمها يا سيِّدي، لكن ابنتي وُلِدَت هنا في كينجز لاندنج». لا بُدَّ أن دهشته تجلَّت على وجهه، لأن شاتايا تابعَت: «يُؤمِن قومي بأن لا عار هنالك في بيوت الهوى. في جُزر الصَّيف يلقى البارعون في منح المُتع أعظم التَّقدير، وكثيرون من شباب علية القوم من الذُّكور والإناث يخدمون بضع سنواتٍ بَعد البلوغ لتكريم الآلهة».

- «ما علاقة الآلهة بالأمر؟».

- «الآلهة خلقَت أجسادنا كما خلقَت أرواحنا، أليس كذلك؟ وأعطَتنا الأصوات كي نتعبَّد لها بالأغاني، والأيدي كي نُشَيِّد لها المعابد، وكذا أعطَتنا الرَّغبة كي نتزاوَج ونَعبُدها بهذه الطَّريقة أيضًا».

قال تيريون: «ذكِّريني أن أُخبِر السِّپتون الأعلى. لو كنتُ أستطيعُ التعبُّد بقضيبي، لصرتُ أكثر تديُّنًا بكثير»، ولوَّح بيده مضيفًا: «يُسعِدني أن أقبل اقتراحكِ».

- «سأستدعي ابنتي. تفضَّل».

قابلَته الفتاة عند بداية السَّلالم. كانت أطول قامةً من شِاي، وإن لم تُناهِز أمَّها طولًا، فانحنَت كي يستطيع تيريون تقبيلها. قالت بصوتٍ يحمل لمحةً خفيفةً للغاية من لكنة أمِّها: «أنا ألايايا. تفضَّل يا سيِّدي»، وأخذَته من يده وصعدَت به سُلَّمين، ثم قادَته عبر رواقٍ طويل. تردَّد شهيق وأنين المُتعة من وراء أحد الأبواب المغلقة، والضَّحك والهمس من وراء آخَر، وشعرَ تيريون بذَكره يضغط على أربطة سراويله. سيكون هذا مهينًا، قال لنفسه وهو يصعد سُلَّمًا آخَر وراء ألايايا إلى غُرفة البُرج، حيث كان باب واحد قادَته عبره وأغلقَته. في الدَّاخل وجدَ سريرًا مغطًّى بالسَّتائر، وصُوان ملابس طويلًا مزيَّنًا بنقوشٍ لأوضاع حميمة، ونافذةً ضيِّقةً من الزُّجاج المطلي بالرَّصاص، رُسِمَت عليه ماسات حمراء وصفراء منتظمة.

قال لها تيريون عندما انفردَ بها: «أنتِ جميلة جدًّا يا ألايايا، من قمَّة رأسكِ إلى أخمص قدميكِ كلُّ جزءٍ منكِ ساحر، لكن أكثر جزءٍ يهمُّني الآن هو لسانكِ».

- «سيجد سيِّدي أن لساني ممرَّن تمامًا. في صغري تعلَّمتُ متى أستخدمه ومتى لا أفعل».

قال تيريون مبتسمًا: «يسرُّني هذا. ماذا سنفعل الآن إذن؟ ألديكِ اقتراحات؟».

- «نعم. إذا فتحَ سيِّدي الصُّوان، سيجد ما يبحث عنه».

لثَمَ تيريون يدها ودخلَ إلى الصُّوان الخاوي، فأغلقَت ألايايا الباب وراءه، وتحسسَّ هو اللَّوح الذي يُشَكِّل ظَهر الصُّوان، ولمَّا شعرَ به ينزلق تحت أصابعه، أزاحَه جانبًا. كان الفراغ الواقع وراء الصُّوان حالك الظُّلمة، لكنه تلمَّس الهواء أمامه حتى وقعَت يده على شيءٍ معدني، فأطبقَت على درجة السُّلَّم الأولى، ثم إنه وجدَ الدَّرجة الثَّانية بقدمه، وبدأ ينزل.

تحت مستوى الشَّارع انفتحَت البئر على نفقٍ تُرابي، حيث وجدَ ڤارس في انتظاره حاملًا شمعةً.

لم يبدُ ڤارس كنفسِه على الإطلاق. من تحت خوذته الفولاذيَّة ذات الرِّيشة المحزَّزة لاحَ وجه تعلوه النُّدوب ولحية داكنة خشنة، وكان يرتدي الحلقات المعدنيَّة فوق الجِلد المقوَّى بالزَّيت المغلي، ومن حزامه تدلَّى خنجر وسيف قصير. قال لتيريون: «هل أرضَتك شاتايا يا سيِّدي؟».

- «أكثر من اللَّازم. أأنت واثق بأن هذه المرأة يُعتمَد عليها؟».

قال ڤارس: «لا أثقُ بشيءٍ في هذا العالم المتقلِّب الخدَّاع يا سيِّدي، لكن شاتايا لا تملك سببًا يدفعها إلى حُبِّ الملكة، وتعرف أن الفضل يعود لك في تخليصها من آلار ديم. هيا بنا؟»، وتحرَّك إلى مخرج النَّفق.

حتى مشيته مختلفة. كانت رائحة النَّبيذ الرَّخيص والثَّوم عالقةً بڤارس بدلًا من عبير زهور الخُزامى. قال له وهما يمضيان: «أحبُّ ثيابك الجديدة».

- «العمل الذي أزاوله لا يُتيح لي الحركة في الشَّوارع بين صفَّين من الفُرسان، لذا أتَّخذُ مظهرًا أنسب عندما أغادرُ القلعة، ومن ثَمَّ أعيشُ لأخدمك مدَّةً أطول».

- «الجِلد يليق بك. يَجدُر بك أن تحضر اجتماع المجلس القادم في هذه الصُّورة».

- «لن ترضى أختك عن هذا سيِّدي».

قال مبتسمًا في الظَّلام: «كانت أختي لتُبَلِّل ثيابها. بالمناسبة، لم أرَ أثرًا لجواسيسها إثري».

- «يُسعِدني أن أسمع هذا يا سيِّدي. بعض مأجوري أختك ينتمون لي أيضًا دون درايةٍ منها، وأكرهُ أن يتصرَّف أحدهم بإهمالٍ فيُرى».

- «وأنا أكرهُ أن أدسَّ نفسي في صُوانٍ وأعاني رغبةً بلا إشباعٍ دون طائل».

قال ڤارس مُطَمْئِنًا: «ليس دون طائل أبدًا. إنهم يعرفون أنكَ هنا. لا أدري إن كان أحدهم سيتحلَّى بالجرأة الكافية ليَدخُل ماخور شاتايا متظاهرًا بأنه زبون، لكني أوثرُ المغالاة في الحذر على التَّهاوُن فيه».

- «كيف يضمُّ ماخور مدخلًا سرِّيًّا؟».

- «النَّفق حُفِرَ ليد ملكٍ آخَر، لم يسمح له شَرفه بدخول مكانٍ كهذا علانيةً. شاتايا تكتم سِرَّ وجوده ببراعة».

- «لكنك عرفت بوجوده على الرغم من ذلك».

- «الطُّيور الصَّغيرة تُحَلِّق في عديد الأنفاق المظلمة. احذر، فالدَّرجات منحدرة».

خرجا من بابٍ أفقي في مؤخِّرة اسطبل، وقد قطعا ما يَقرُب من ثلاثة شوارعٍ تحت تَلِّ رِينس. صهلَ حصان في مربطه عندما صفقَ تيريون الباب، وأطفأ ڤارس الشَّمعة ووضعها على عارضةٍ خشبيَّة، بينما تطلَّع تيريون حوله. احتلَّ المَرابط بغل وثلاثة خيول، فدنا من الحصان الأرقط وألقى نظرةً على أسنانه، ثم قال: «عجوز، وأعتقدُ أنه يُعاني من غازات البطن».

أجابَ ڤارس: «ليس حصانًا تمتطيه في المعركة بالتَّأكيد، لكنه سيَصلُح، ولن يلفت الانتباه، على عكس غيره. وعُمَّال الاسطبل لا يرون أو يسمعون غير الحيوانات»، والتقطَ الخصيُّ معطفًا معلَّقًا على وتد، فوجده تيريون رثًّا خشنًا لوَّحت الشَّمس لونه، لكن واسعًا للغاية، وعندما قال ڤارس: «اسمح لي»، ووضعه على كتفي تيريوْن، فابتلعَه المعطف تمامًا، وكانت قلنسوته تكفي لإغراق وجهه في الظِّلال. قال ڤارس وهو يُعَدِّل المعطف عليه: «النَّاس يرون ما يتوقَّعون أن يروه. الأقزام ليسوا بالمشهد المعتاد كالأطفال، لذا سيرون طفلًا، صبيًّا في معطفٍ قديم يجلس على حصان أبيه ويُساعِده في عمله. على كلِّ حالٍ من الأفضل أن تأتي ليلًا عادةً».

- «هذا ما أنويه... بَعد اليوم. أمَّا الآن فشِاي تنتظرني». كان قد أسكنَها إيوانًا مسوَّرًا في أقصى شَمال المدينة الغَربي، على مقربةٍ من البحر، لكنه لم يجرؤ على زيارتها هناك خشية أن يكون متبوعًا.

- «أيُّ حصانٍ ستركب؟».

هَزَّ تيريون كتفيه مجيبًا: «لا بأس بهذا».

أنزلَ ڤارس سَرجًا ولجامًا من على وتد، وقال: «سأجهِّزه لك».

عدَّل تيريون المعطف على كتفيه، وذرعَ الاسطبل بتوتُّرٍ قائلًا: «فاتَتك جلسة ساخنة حقًّا. ستانيس توَّج نفسه على ما يبدو».

- «أعرفُ».
- «ويتَّهم أخي وأختي بزنى المحارم. تُرى كيف راودَته هذه الشُّكوك؟».
- «لعلَّه قرأ كتابًا وألقى نظرةً على شَعر صبيٍّ نغل، مِثلما فعلَ ند ستارك ومن قبله چون آرن، أو لعلَّ أحدهم همسَ شيئًا في أُذنه».
- «أحد مِثلك ربما؟».
- «أأنا محطُّ ريبة؟ لا، لم يكن أنا».
- «وهل تُقِرُّ بهذا لو كان أنت؟».
- «كلا، لكن لِمَ أفشي سرًّا احتفظتُ به زمنًا طويلًا؟ أن تخدع ملكًا مسألة، بينما الاختباء من الصُّرصور بين ثنايا البساط أو من الطَّائر في المدخنة مسألة أخرى تمامًا. ثم إن النُّغول كانوا موجودين دائمًا على مرأى من الجميع».
- «نغول روبرت؟ ماذا عنهم؟».

قال ڤارس وهو يُثبِّت السَّرج بصعوبة: «لقد أنجبَ ثمانيةً على حَدِّ علمي، أمَّهاتهم كان شَعرهن بلون النُّحاس والعسل والكستناء والزُّبد، بينما جاءَ الصِّغار كلهم بشَعرٍ أسود كالغِدفان... وجلَبوا الحَظَّ العاثر معهم مثلها كذلك. هكذا عندما انزلَقَ كلٌّ من چوفري ومارسلا وتومن من بين فخذي أختك بشَعرٍ ذهبيٍّ كالشَّمس، لم يكن إدراك الحقيقة عسيرًا».

هَزَّ تيريون رأسه مستاءً. لو أنها ولدَت طفلًا واحدًا فقط من زوجها، لكان هذا كافيًا لضحد الشُّكوك... لكن لما كانت سرسي عندئذٍ. «إذا لم تكن أنت ذلك الواشي، فمَن؟».

شَدَّ ڤارس حزام السَّرج قائلًا: «خائن ما لا شَك».
- «الإصبع الصَّغير؟».
- «لم أذكر أيَّ أسماء».

تركَ تيريون الخصيَّ يُساعِده على الرُّكوب، ثم قال من فوق ظَهر الحصان: «لورد ڤارس، أحيانًا أشعرُ أنك أفضل أصدقائي في كينجز لاندنج على الإطلاق، وأحيانًا أشعرُ أنك ألدُّ أعدائي».
- «غريب حقًّا. هذا ما أشعرُ به حيالك بالضَّبط أيضًا».

بران

فتحَ عينيه قبل أن تتسلَّل خيوط الضَّوء الشَّاحب الأولى من خَصاص نافذته بفترةٍ طويلة.

في وينترفل ضيوف، زائرون جاءوا من أجل احتفال عيد الحصاد، ما يعني أنه سيجدهم يُبارِزون طواويس التَّدريب في السَّاحة هذا الصَّباح، الفكرة التي كانت لتملأه حماسةً في الماضي، لكن ذلك كان قبل ما حدثَ، وليس الآن. سوف يتمرَّن الصَّبيَّان والدر بالرِّماح مع مُرافِقي فُرسان اللورد ماندرلي، لكن بران لن يُشارِك، فعليه أن يلعب دور الأمير في غُرفة أبيه، وكما قال المِايستر لوين: «أصغِ لما يُقال، فعسى أن تتعلَّم معنى السِّيادة الحقيقي».

لم يَطلُب بران قَطُّ أن يكون أميرًا، فالفُروسية الشَّيء الوحيد الذي طالما حلمَ به، الدُّروع اللَّامعة والرَّايات الخفَّاقة، والحِراب والسُّيوف، وجواد حربي بين ساقيه. لِمَ إذن ينبغي عليه أن يجلس ويسمع رجالًا مسنِّين يتكلَّمون عن أشياء لا يفقه نِصفها؟ ذكَّره الصَّوت القادم من داخله: لأنك مكسور. من الممكن أن يكون هذا اللورد أو ذاك قعيدًا على كرسيه الوثير، والوالدران قالا إن جدَّهما شديد الوهن لدرجة أنهم يحملونه في كلِّ مكانٍ على نقَّالة، لكن من المُحال أن ينطبق الشَّيء نفسه على فارسٍ يمتطي حصانًا، كما أن عليه أن يؤدِّي واجبه. «أنت وريث أخيك وابن ستارك في وينترفل»، قال السيد رودريك مذكِّرًا إياه بأن روب اعتادَ الجلوس مع السيِّد والدهما كلما أتى حمَلة رايته للزِّيارة.

وصلَ اللورد وايمان ماندرلي من الميناء الأبيض قبل يومين، وقد سافرَ

بالصَّندل ثم النقَّالة، لأنه أسمن من أن يحتمل حصان جلوسه عليه، ومعه جاءَ عدد ضخم من الأتباع، فُرسان ومُرافِقوهم، ولوردات وليديهات أقلُّ منزلةً، وحُجّاب وموسيقيُّون، بل وحاوٍ كذلك، يتألَّقون جميعًا تحت راياتهم وفي ثيابهم التي تألَّفت من نِصفمئةٍ من الألوان كما تبدَّى لبرانٍ، الذي رحَّب بهم في وينترفل وهو جالس على مقعد أبيه العالي ذي الذِّراعين المنحوتتين كذئبين رهيبين. بَعدها قال له السير رودريك إنه أبلى بلاءً حسنًا، ولو انتهى الأمر عند ذلك الحَدِّ لما وجدَ مانعًا، لكنها كانت البداية فحسب.

قال السير رودريك شارحًا: «الاحتفال حُجَّة لا بأس بها للزِّيارة، لكن لا أحد يُسافِر مسافة مئة فرسخ من أجل قطعةٍ من لحم البَطِّ ورشفةٍ من النَّبيذ. فقط مَن لديهم مسائل ذات أهميَّة يعرضونها علينا سيقطعون الرِّحلة».

رفعَ بران عينيه إلى السَّقف الحجري الخشن وحدَّق فيه. إنه يعرف أن روب كان ليقول له ألَّا يتصرَّف بطفوليَّة، ويكاد يسمعه يقولها بالفعل، ويسمع السيِّد والدهما كذلك. الشِّتاء قادم، وأنت تكاد تُصبِح رجلًا بالغًا يا بران، وعليك واجبات.

عندما دخلَ هودور مُحدثًا الضجَّة المعتادة وهو يبتسم ويُدَندِن بلا لحن، وجدَ الصَّبي مستسلمًا لمصيره، وعاوَنه على الاغتسال وتصفيف شَعره. قال له بران آمرًا: «السُّترة الصُّوف البيضاء اليوم، والدبُّوس الفضِّي. سيُريدني السير رودريك أن أبدو كالسَّادة». يُفَضِّل بران أن يرتدي ثيابه بنفسه قدر المستطاع، لكن يُثير غيظه أنه لا يستطيع أن يفعل بضعة أشياء الآن، مِثل وضْع سراويله أو ربْط حذائه، ما يتمُّ بسرعةٍ أكبر بمساعَدة هودور، الذي يُمارِس أيَّ شيءٍ بيُسرٍ عندما يتعلَّمه، ودائمًا ما كانت يداه رقيقتين على الرغم من قوَّته المدهشة. قال له بران: «أراهنُ أنك كنت لتُصبِح فارسًا أيضًا. لو لم تسلبك الآلهة عقلك، لأصبحت فارسًا عظيمًا».

رمقَه هودور بعينيه البنِّيَّتين ساذجتي النَّظرات، وقال: «هودور؟»، دون أن يلوح فيهما أثر للفهم.

قال بران مشيرًا: «نعم، هودور».

على الحائط إلى جوار الباب عُلِّقَت سلَّة مصنوعة بإحكامٍ من الأماليد

المجدولة والجِلد، وفيها فتحتان لساقي بران. دَسَّ هودور يديه في الأربطة وشَدَّ الحزام العريض حول صدره، ثم ركعَ إلى جوار الفِراش، فاستعانَ بران بالقضبان المثبَّتة في الحائط، ليحمل نفسه وهو يُلقي ساقيه الميتتين في السلَّة وعبر الفتحتين. كرَّر هودور وهو ينهض: «هودور». يُناهِز صبيُّ الاسطبل الأقدام السَّبعة طولًا، وعلى ظَهره يكاد رأس بران يحتكُّ بالسَّقف. ذات مرَّةٍ شَمَّ هودور رائحة الخُبز الطَّازج، فاندفعَ يجري إلى المطابخ، وأصيبَ بران بخبطةٍ عنيفة، حتى إن المِايستر لوين اضطرَّ لأن يخيِّط فروة رأسه. بَعدها أعطاه ميكن خوذةً قديمةً صدئةً بلا مقدِّمة من مستودع السِّلاح، لكن نادرًا ما ارتداها بران، فالوالدران يضحكان كلما رأياها على رأسه.

أراحَ يديه على كتفي هودور وهما ينزلان السَّلالم الملتفَّة، وفي الخارج كانت أصوات السُّيوف والدُّروع والخيول ترنُّ بالفعل في السَّاحة، صانعةً مقطوعةً عذبةً من الموسيقى. سألقي نظرةً، نظرةً سريعةً لا أكثر.

سوف يظهر صغار لوردات الميناء الأبيض في ساعةٍ لاحقةٍ من النَّهار مع فُرسانهم ورجالهم المسلَّحين، وحتى ذلك الحين تنتمي السَّاحة لمُرافِقيهم، الذين تتراوَح أعمارهم من العشرة إلى الأربعين. تمنَّى بران بكلِّ جوارحه لو أنه واحد منهم، لدرجة أن بطنه آلَمه من فرط الاشتياق.

في السَّاحة نُصِبَ طاووسان، كلٌّ منهما عبارة عن عمودٍ سميك يُثبَّت عارضةً متقاطعةً دوَّارة، في أحد طرفيها تُرس وفي الثَّاني رُمح من البطانة، وقد طُلِيَ التُّرسان بالأحمر والذَّهبي، وإن بدا أسدا لانستر المرسومان عليهما سمينين وغير منتظمي التَّكوين، وشوَّهتهما بالفعل الضَّربات الأولى التي هوَت عليهما. جذبَ مشهد بران في سلَّته أنظار من لم يروه سابقًا، لكنه تعلَّم أن يتجاهَل النَّظرات، وعلى الأقل يتمتَّع بالإطلال على منظرٍ جيِّدٍ من مكانه هذا على ظَهر هودور، إذ يرتفع فوق الجميع. رأى الصَّبيَّين والدر يمتطيان حصانيهما، وكانا يرتديان الدِّرعين الممتازتين اللتين أتيا بهما معهما من «التَّوأمتين»، المصنوعتين من الصَّفائح المعدنيَّة المطليَّة بالفضَّة البرَّاقة، والمزيَّنتين بنقوشٍ زرقاء. اتَّخذت ريشة خوذة والدر الكبير شكل قلعة، بينما فضَّل والدر الصَّغير شريطًا من الحرير الأزرق والرَّمادي، كما أن تُرسيهما

والشِّعارين على سُترتيهما ساعَدوا على التَّمييز بينهما، فاختارَ والدر الصَّغير شعارًا يتألَّف من بُرجي فراي التَّوأمين مع خنزير عائلة جدَّته البرِّي المخطط وحارث عائلة أمِّه، كراكهول وداري على التَّوالي، بينما تكوَّن شعار والدر الكبير من شجرة وغِدفان عائلة بلاكوود وثُعباني عائلة پايپر المضفورَيْن معًا. قال بران لنفسه وهو يُراقِبهما يلتقطان الرِّماح: لا بُدَّ أنهما ظاماَن للاحترام حقًّا، بينما لا يحتاج ابن ستارك غير ذئبه الرَّهيب. حصاناهما المرقَّطان سريعان وقويَّان ومدرَّبان أحسن تدريب، وانقضَّ الاثنان بهما جنبًا إلى جنب على الطَّاووسين، ليُصيب كلاهما تُرسه بضربةٍ نظيفة ويمرُّ بسرعةٍ قبل أن يدور الرُّمح على المحور ويُصيبه. سدَّد والدر الصَّغير الضَّربة الأقوى، وإن خطرَ لبران أن تحكُّم والدر الكبير في حصانه بدا أفضل. كان ليُضَحِّي بساقيه عديمتي الفائدة مقابل فُرصة أن يُواجِه أيهما.

ألقى والدر الصَّغير رُمحه المهشَّم جانبًا، ثم لمحَ بران فتقدَّم منه بالحصان، وأشارَ لهودور قائلًا: «يا له من حصانٍ قبيح!».

قال بران: «هودور ليس حصانًا».

وقال هودور: «هودور».

دنا والدر الكبير لينضمَّ إلى ابن عمِّه، وقال: «إنه ليس ذكيًّا كالحصان، هذا مؤكَّد»، فلكزَ عدد من صِبية الميناء الأبيض بعضهم بعضًا وضحكوا.

نقلَ هودور بصره بأسارير متهلِّلة من فراي إلى فراي غير واعٍ لاستهزائهما به، وهمهمَ: «هودور. هودور هودور؟».

أطلقَ حصان والدر الصَّغير صهيلًا، فقال ضاحكًا: «أترى؟ إنهما يتبادَلان الكلام. لعلَّ هودور تعني «أحبُّك» بلُغة الخيول».

شعرَ بران بالدِّماء تصعد إلى رأسه، وصاحَ: «صمتًا يا فراي!».

تقدَّم والدر الصَّغير بحصانه أكثر ليدفع هودور إلى الوراء بعض الشَّيء، وسألَ بران: «وماذا ستفعل لو لم أصمت؟».

قال والدر الكبير محذِّرًا: «سيُطلِق ذئبه عليك يا ابن العم».

- «دَعه يُطلِقه. لطالما أردتُ معطفًا من فراء الذِّئاب».

قال بران: «سَمر سيُمَزِّق رأسك السَّمين».

ضربَ والدر الصَّغير واقي صدره بقبضته، وقال ساخرًا: «هل يملك ذئبك أسنانًا من الفولاذ يخترق بها المعدن؟».

- «كفى!». دوَّى صوت المِايستر لوين فجأةً ليعلو فوق ضجيج السَّاحة ويشقَّ الهواء كلسانٍ من البرق. لا يدري بران كم سمعَ مما قيلَ... لكن من الواضح أنه يكفي لإشعال ثورته. «هذه التَّهديدات لا تليق، ولن أسمع المزيد منها. أهكذا تتصرَّف في «التَّوأمتين» يا والدر فراي؟».

رمقَه والدر الصَّغير من فوق حصانه بنظرةٍ عابسة، وأجابَ: «إذا أردتُ»، كأن لسان حاله يقول: أنت مجرَّد مِايستر. مَن أنت لتُقَرِّع واحدًا من أولاد فراي سادة «المعبر؟»

قال المِايستر: «لكنه ليس السُّلوك الذي ينبغي أن يتَّبعه ربيب لليدي ستارك في وينترفل. والآن، كيف بدأ كلُّ هذا؟»، ونقلَ عينيه من صبيٍّ إلى آخَر، وأضافَ منذرًا: «سيُخبِرني أحدكم، وإلَّا أقسمُ أن...».

أسرعَ والدر الكبير يعترف وقد بدا عليه شيء من الخجل على الأقل: «كنا نُداعِب هودور. أعتذرُ إذا أسأنا للأمير بران. كنا نقصد المرح فقط».

أمَّا والدر الصَّغير فبدا عليه التذمُّر وهو يقول: «وأنا، كنتُ أقصدُ المرح فقط».

استحالَ لون البُقعة الصَّلعاء على رأس المِايستر إلى الأحمر، ليشي بأن غضبته تفاقَمت في الحقيقة، وقال للصَّبيَّين فراي: «اللورد الصَّالح يُعين ويحمي الضُّعفاء والعاجزين، ولن أسمح لكما بأن تجعلا هودور موضوعًا للدُّعابات القاسية، مفهوم؟ إنه صبيٌّ طيِّب القلب ومطيع ومخلص، وهذا أكثر مما أستطيعُ أن أقوله عن أيكما»، ثم لوَّح بإصبعه في وجه والدر الصَّغير، وتابعَ: «وأنت ستبقى بعيدًا عن أيكة الآلهة وعن هذين الذِّئبين، وإلَّا وجبَ عليك العقاب»، ودارَ على عقبيه بسرعةٍ ليتموَّج كُمَّاه الواسعان في الهواء، وسارَ بضع خطواتٍ قبل أن يلتفت خلفه ويقول: «هلمَّ يا بران، اللورد وايمان ينتظر».

قال بران: «اذهب مع المِايستر يا هودور».

- «هودور»، قال هودور، ولحقَت خطواته الواسعة بخطوات المِايستر

السَّاخطة على سلالم الحصن الكبير، ثم فتحَ المِايستر لوين الباب وثبَّته، فاحتضنَ بران عُنق هودور وخفض رأسه وهما يَمُرَّان إلى الدَّاخل.

قال بران: «الوالدران...».

قاطَعه المِايستر لوين وقد بدا عليه التَّعب والسَّأم: «لا أريدُ أن أسمع المزيد عن هذا الأمر. انتهينا. كنت على حَقٍّ في الدِّفاع عن هودور، لكن لم يكن من المفترَض أن تكون هناك أصلًا. السير رودريك واللورد وايمان أفطَرا بالفعل في انتظارك. أينبغي أن آتي لأُحضرك بنفسي كأنك طفل صغير؟».

رَدَّ بران بخجل: «كلا. آسف، لكني أردتُ فقط أن...».

قال المِايستر لوين بلهجةٍ ألطف: «أعرفُ ما أردته، وليته قابل للتَّحقيق يا بران. ألديك أسئلة قبل أن نبدأ الاجتماع؟».

- «هل سنتكلَّم عن الحرب؟».

عادَت الحدَّة إلى صوت لوين وهو يُجيب: «لن تتكلَّم أنت عن شيء. إنك ما زلت طفلًا في الثَّامنة».

- «أكادُ أبلغُ التَّاسعة!».

- «أنت في الثَّامنة»، كرَّر المِايستر. «لا تلفظ شيئًا غير التَّحيَّات ما لم يُوَجِّه لك السير رودريك أو اللورد وايمان سؤالًا مباشرًا».

أومأَ بران برأسه قائلًا: «سأتذكَّرُ هذا».

- «لن أذكُر شيئًا للسير رودريك عما دارَ بينك وبين صبيَّي فراي».

- «أشكرك».

وضعوا بران في مقعد أبيه المصنوع من خشب السَّنديان، فوق الوسائد المخمليَّة الرَّماديَّة، ووراء طاولةٍ قابلة للفَكِّ والتَّركيب، وجلسَ السير رودريك إلى يمينه، والمِايستر لوين إلى يساره مسلَّحًا بريشات الكتابة وقنينة الحِبر وفرخًا من الرَّقوق يُدَوِّن عليه وقائع الاجتماع. تحسَّس بران خشب الطَّاولة الخشن، واعتذرَ إلى اللورد وايمان لتأخُّره.

قال اللورد وايمان بمودَّة: «لا أمير يأتي متأخِّرًا أبدًا، لكن من وصَلوا قبله جاءوا مبكِّرين، هذا كلُّ شيء». لوايمان ماندرلي ضحكة صاخبة مدوِّية، ولا غرو أنه لا يستطيع الجلوس فوق ظَهر حصان، حيث يبدو بالفعل أنه يفوق

أغلب الخيول وزنًا، ولديه صوت جهوري يتماشى مع حجمه، وقد بدأ بسؤال ويترفل أن تُصَدِّق على تعيين مأموري الجمارك الذين اختارَهم للميناء الأبيض، فالسَّابقون كانوا يُحَصِّلون الفضَّة لكينجز لاندنج بدلًا من دفعها للملك الجديد في الشَّمال، ثم قال: «الملك روب يحتاج عُملته الخاصَّة كذلك، والميناء الأبيض المكان المناسب تمامًا لسَكِّها»، ثم إنه عرضَ أن يتولَّى المسألة إذا وافقَ الملك، وانتقلَ من هذا الموضوع إلى وصفٍ لتقويته دفاعات المرفأ، ذاكرًا تكلفة كلِّ تحسينٍ بالتَّفصيل. وبالإضافة إلى سَكِّ العُملة الجديدة، عرضَ اللورد ماندرلي أيضًا أن يبني لروب أسطولًا حربيًّا، وقال: «لم نملك أيَّ قوَّةٍ في البحر منذ مئات السِّنين، منذ أشعلَ براندون الحارق النَّار في سُفن أبيه. امنحوني الذَّهب، وخلال عام واحدٍ سأشيِّد قوادس تكفي للاستيلاء على دراجونستون وكينجز لاندنج معًا».

أثارَ الكلام عن السُّفن الحربيَّة اهتمامِ بران، ومع أن أحدًا لم يسأله رأيه، إلَّا أنه وجدَ عرْض اللورد وايمان رائعًا حقًّا، وبعين خياله رأى السُّفن بالفعل، وتساءلَ إن كان سبقَ لمشلولٍ أن يقود سفينة حربٍ من قبل. على أن السير رودريك لم يَعِد إلَّا بإرسال العرض إلى روب ليدرسه، بينما خَطَّ المِايستر لوين ما قيلَ على الرَّق.

حلَّت الظَّهيرة ومضَت، وأرسل المِايستر لوين تيم المجدور إلى المطابخ لإحضار الغداء، فتناوَلوا وجبةً من لحم الدِّيك والجبن وخُبز الشُّوفان الأسمر. مزَّق اللورد وايمان طائرًا بأصابعه السَّمينة، وتساءلَ بتهذيبٍ عن ابنة عمِّه الليدي هورنوود، وقال: «لقد وُلِدَت في عائلة ماندرلي كما تعلمون، وربما يروقها أن تحمل اسمها من جديد بمجرَّد أن ينتهي حِدادها، إيه؟»، وقضمَ من جناح الطَّائر ورسمَ على شفتيه ابتسامةً واسعةً متابعًا: «الحقيقة أني أرمل منذ ثمانية أعوام كاملة، وحانَ الوقت لأن أتَّخذ لنفسي زوجةً جديدةً، أليس كذلك أيها السَّادة؟ إن الوحدة تُصيبنا جميعًا»، وألقى العظام جانبًا ومَدَّ يده إلى ورك، وواصلَ: «أو إذا كانت الليدي تُفَضِّل رجلًا شابًّا، فابني وندل غيرِ متزوِّج كذلك. إنه في الجَنوب الآن، يَحرُس الليدي كاتلين، لكن لا شَكَّ أنه سيرغب في عروسٍ بمجرَّد عودته. إنه صبيٌّ شُجاع ومرِح، الرَّجل

المناسب لأن يُعَلِّمها أن تضحك من جديد، إيه؟»، ومسحَ الدُّهن الذي سالَ على ذقنه بكُمِّه.

لم يكن بران يُبالي بأمور الزَّواج على الإطلاق، وقال لنفسه وصوت تقارُع السُّيوف يَبلُغه من النَّافذة: ليتني كنتُ معهم في السَّاحة.

انتظرَ حضرة اللورد حتى رُفِعَت الأطباق من على المائدة، قبل أن يفتح موضوع الرِّسالة التي تلقَّاها من اللورد تايوين لانستر، الذي أسرَ ابنه الأكبر وايليس في معركة الفرع الأخضر. «يعرض عليَّ أن أستردَّه بلا فدية، بشرط أن أسحب جنودي من جيش جلالة الملك وأتعهَّد بعدم القتال ثانيةً».

قال السير رودريك: «سوف تَرفُض بالطَّبع».

طمأنَهم اللورد قائلًا: «لا تُقلِقنَّكم هذه المسألة إطلاقًا، فالملك روب ليس لديه خادم أكثر إخلاصًا من وايمان ماندرلي. غير أني أكرهُ أن يُعاني ابني في هارنهال فترةً أطول مما ينبغي. إنها مكان كئيب وملعون كما يُقال، مع أني لستُ من النَّوع الذي يبتلع تلك الحكايات، لكن... انظُروا إلى ما جرى لچانوس سلينت مثلًا، رُفِعَ إلى لورديَّة هارنهال على يد الملكة، وخُلِعَ عنها على يد أخيها. يقولون إنهم شحَنوه إلى «الجِدار». أتمنَّى أن يتم ترتيب تبادُلٍ منصفٍ للأسرى قريبًا، فأنا أعرفُ أن وايليس لن يرغب في الجلوس ساكنًا بقيَّة الحرب. باسلٌ ابني هذا، وشرس ككلاب الحراسة».

مع نهاية الاجتماع كانت كتفا بران متيبِّستين من الجلوس في المقعد نفسه طويلًا. ليلتها، بينما جلسَ يتناوَل العَشاء، تردَّد نفير يُعلِن عن وصول ضيفٍ جديد. لم تأتِ الليدي دونيلا هورنوود بطابورٍ من الفُرسان والأتباع، بل جاءَت بنفسها فقط ومعها ستَّة من المسلَّحين المرهَقين، على ثيابهم البرتقاليَّة المغبَّرة رمز رأس الموظ[1]. قال بران عندما مثلَت أمامه لتُلقي عليه التحيَّة: «إننا في غاية الأسف لكلِّ ما عانيتِ يا سيِّدتي. وينترفل لن تنسى». كان اللورد

---

(1) الموظ أحد أنواع الأيائل، له عُنق قوي وقرنان جريديَّان، ويألف العيش في الغابات والمستنقعات.

هورنوود قد قُتِلَ في معركة الفرع الأخضر، وسقطَ ابنهما الوحيد في معركة الغابة الهامسة.

كانت امرأةً شاحبةً شديدة النُّحول، حفرَ الحُزن خطوطه على ملامحها كلها، وقد أجابَت: «يسرُّني أن أعرف هذا. إنني مرهَقة للغاية يا سيِّدي، وأشكرك إذا أعطيتني الإذن بالانصراف لأستريح».

قال السير رودريك: «بالتَّأكيد. لدينا ما يكفي من الوقت غدًا للكلام».

وحين جاءَ الغد، انقضى معظم الصَّباح في الكلام عن الغلال والخضراوات واللُّحوم المحفوظة، فبمجرَّد أن يُعلِن مِايسترات «القلعة» بداية الخريف، يدَّخر الحُكماء قسطًا من كلِّ حصاد... وإن بدا أن تحديد الكمِّيَّة التي ينبغي ادِّخارها يتطلَّب الكثير من الكلام. عرضَت الليدي هورنوود تخزين خُمس محصولها، قبل أن تتعهَّد برفع الكمِّيَّة إلى الرُّبع استجابةً لاقتراح المِايستر لوين. ثم إنها قالت لهم: «نغل رووس بولتون يحشد الرِّجال في «معقل الخوف». أتمنَّى أنه يعزم على قيادتهم جَنوبًا لينضمَّ إلى أبيه في «التَّوأمتين»، لكن عندما أرسلتُ إليه أسأله عن نيَّاته، أجابَني بأن لا أحد من آل بولتون يسمح بأن تستجوِبه امرأة، كأنه يحسب نفسه ابنًا شرعيًّا له حَقٌّ في أن يحمل هذا الاسم».

قال السير رودريك: «على حَدِّ علمي لم يعترف اللورد بولتون بالصَّبي قَطُّ. الحقيقة أني لا أعرفه».

أجابَت: «قليلون يعرفونه. كان يعيش مع أمِّه حتى عامين مضيا، عندما ماتَ دومريك الصَّغير وتركَ بولتونٍ بلا وريث، فأخذَه أبوه عندئذٍ إلى «معقل الخوف». الصَّبي شديد المكر بكلِّ المقاييس، ولديه خادم يكاد يُضاهيه في القسوة، رجل يُسَمُّونه ريك، يقولون إنه لا يستحمُّ أبدًا، ويَخرُج الاثنان للصَّيد معًا، النَّغل وريك هذا، وإن كانا لا يصطادان الغزلان. لقد سمعتُ حكاياتٍ لا تُصَدَّق، حتى بالنِّسبة لأحدٍ من آل بولتون. والآن وقد ذهبَ السيِّد زوجي وابني العزيز إلى الآلهة، فالنَّغل يتطلَّع إلى أرضي بنظراتٍ جائعة».

أرادَ بران أن يُعطي الليدي مئة رجلٍ للدِّفاع عن حقِّها، لكن السير رودريك اكتفى بأن قال: «يُمكنه أن يتطلَّع كما يشاء، لكني أعدُكِ بأن العواقب ستكون

وخيمةً عليه إذا فعلَ أكثر من ذلك. ستكونين آمنةً يا سيِّدتي... لكن قد تجدين من الحكمة أن تتزوَّجي ثانيةً في الوقت المناسب، عندما ينتهي حِدادك».

ردَّت بابتسامةٍ باهتةٍ تَعِبة: «مرَّت سنين منذ كنتُ قادرةً على حمل الأطفال، وما كان لديَّ من جمالٍ ولَّى، ومع ذلك يأتي الرِّجال يخطبون وُدِّي كما لم يفعلوا قَطُّ في شبابي».

سألَها المِايستر لوين: «ألا تجدين أحدًا من هؤلاء الخُطَّاب مُرْضِيًا؟».

أجابَت الليدي هورنوود: «سأتزوَّجُ ثانيةً إذا أمرَ جلالة الملك، لكن مورس آكل الغُراب سكِّير فَظ، ويَكبُر أبي نفسه سِنًّا، أمَّا ابن عمِّي الكريم ماندرلي، ففِراش زوجي الرَّاحل ليس كبيرًا بما يكفي رجلًا بضخامته، ومؤكَّد أني أصغر حجمًا وأوهن من أن أستلقي تحته».

يعرف بران أن الرِّجال ينامون فوق النِّساء عندما يتشارَكون الفِراش، فتخيَّل أن النَّوم تحت اللورد ماندرلي كالنَّوم تحت حصانٍ ساقط. أومأ السير رودريك برأسه بتعاطُف، وقال: «سيأتيكِ المزيد من الخُطَّاب يا سيِّدتي، وسنُحاوِل أن نجد لكِ أحدًا أفضل وضعًا».

- «ربما ليس من الضَّروري أن تبحث بعيدًا أيها الفارس».

ابتسمَ المِايستر لوين بَعد أن تركَتهم، وقال: «أعتقدُ أن الليدي معجبة بك يا سير رودريك».

تنحنحَ السير رودريك وبدا عليه الارتباك، بينما قال بران: «كانت حزينةً للغاية».

أومأَ الفارس إيجابًا، وقال: «حزينةً ورقيقةً ومليحةً جدًّا بالنِّسبة لامرأةٍ في سِنِّها، لكنها لا تزال تُمَثِّل خطرًا على مملكة أخيك».

بدهشةٍ قال بران: «هي؟».

أجابَه المِايستر لوين: «بلا وريثٍ مباشر، ستجد أن مُطالبين كُثرًا يتنافَسون على أراضي الليدي هورنوود. عائلات تولهارت وفلينت وكارستارك كلها لها صلة قرابةٍ بعائلة هورنوود من ناحية الإناث، وآل جلوفر يُرَبُّون ابن اللورد هاليس غير الشَّرعي في «ربوة الغابة». ليس لـ«معقل الخوف» حَقٌّ أعرفُ به

في أراضي الليدي، لكن أراضيه تُتاخِمها، كما أن رووس بولتون ليس بالرَّجل الذي يتغاضى عن فُرصةٍ كتلك».

شَدَّ السير رودريك شواربه قائلًا: «في تلك الحالات ينبغي أن يجد لها اللورد وليُّ الأمر زوجًا مناسبًا».

سأَلَه بران: «لِمَ لا تتزوَّجها أنت؟ قلت إنها مليحة، كما أنها ستكون أمًّا لابنتك بِث».

وضعَ الفارس العجوز يده على ذراع بران، وقال: «فكرة لطيفة يا سمو الأمير، لكنني مجرَّد فارس، ومسنٌّ كذلك. قد أستطيعُ الحفاظ على أراضيها بضع سنين، لكن فور أن أموت، ستجد الليدي هورنوود نفسها في الورطة ذاتها ثانيةً، وقد يضع هذا بِث في خطرٍ كذلك».

قال بران مفكِّرًا في أخيه نِصف الشَّقيق چون: «فليكن نغل اللورد هورنوود الوريث إذن».

رَدَّ السير رودريك: «سيسرُّ ذلك آل جلوڤر، وربما روح اللورد هورنوود كذلك، لكنني لا أظنُّ أن خطوةً كتلك ستجعل الليدي هورنوود تُحِبُّنا، فالصَّبي ليس من دمها».

قال المِايستر لوين: «وإن كان، لا بُدَّ من أخْذ الفكرة بعين الاعتبار. الليدي دونيلا تجاوزَت سنوات خصوبتها كما قالت. لو لم يكن النَّغل، فمَن؟».

كان بران يسمع مُرافِقو الفُرسان يتدرَّبون على المبارَزة في السَّاحة، ويتناهى إليه رنين الفولاذ على الفولاذ، فقال: «أيُمكنني الانصراف؟».

قال السير رودريك: «كما ترغب يا سمو الأمير. لقد أبليت بلاءً حسنًا».

تورَّد وجه بران غبطةً. ليس عمل اللورد مملًّا كما خشيَ، وبما أن الليدي هورنوود كانت موجزةً عن اللورد ماندرلي بكثير، فقد تبقَّت له بضع ساعاتٍ من نور النَّهار ليزور سَمر. يُحِبُّ أن يقضي بعض الوقت مع ذِئبه كلَّ يوم، عندما يسمح السير رودريك والمِايستر.

ما كادَ هودور يَدخُل أيكة الآلهة حتى برزَ سَمر من تحت شجرة سنديان، كأنه كان يعرف أنهما قادمان، ولمحَ بران شبحًا أسود نحيلًا يُراقِب من بين

الشُّجيرات، فنادى: «شاجي، إليَّ، شاجيدوج، تعالَ»، لكن ذئب ريكون اختفى سريعًا كما ظهرَ.

يعرف هودور بُقعة بران المفضَّلة، فأخذَه إلى حافة البِركة، تحت أفرُع شجرة القلوب الممتدَّة، حيث كان اللورد إدارد يركع ليُصَلِّي. كانت التموُّجات تنتشر على صفحة الماء عندما وصلا، جاعلةً انعكاس شجرة الويروود يومض ويتراقَص، بينما الرِّيح خامدة، وهو ما أصابَ بران بالحيرة لحظةً.

ثم انبثقَت أوشا كالانفجار من قلب مياه البِركة التي تناثرَت في كلِّ مكان، على حين غرَّةٍ لدرجة أن سَمر وثبَ إلى الوراء مزمجرًا، بينما قفزَ هودور بعيدًا مولولًا: «هودور، هودور!»، وراحَ يُرَدِّدها بجزع حتى ربَّت بران على كتفه يُهَدِّئه، ثم سألَ أوشا: «كيف يُمكنك السِّباحة هنا؟ أليس الماء باردًا؟».

قالت أوشا: «كنتُ أرضعُ من كُتل الجليد في صِغري أيها الصَّبي. إنني أحبُّ البرد»، ثم سبحَت إلى الصُّخور وخرجَت والماء يقطر منها. كانت عاريةً وبشرتها منقَّطة من القشعريرة، ودنا سَمر منها وتشمَّمها بينما أضافَت: «أردتُ أن ألمس القاع».

- «لم أكن أعرفُ أن هناك قاعًا».

قالت مبتسمةً: «وقد لا يكون. فيمَ تُحَملِق أيها الصَّبي؟ ألم ترَ امرأةً من قبل؟».

- «بل رأيتُ». تحمَّم بران مع أختيه مئات المرَّات، ورأى الخادمات في البِرك السَّاخنة كذلك، لكن أوشا بدَت مختلفةً عنهن، قوامها جامد نحيف ولَيس بضًّا ذا منحنيات، وساقاها رفيعتان وتريَّتان، وثدياها مسطَّحان ككيسي نقودٍ فارغين. قال لها: «لديكِ ندوب كثيرة».

قالت: «وكلُّ ندب منها ربحته عن جدارة»، والتقطَت ثوبها البنِّي ونفضَت ورق الشَّجر الذي علَقَ به، ثم سحبَته على جسدها.

- «أكنتِ تُقاتِلين العمالقة؟». تدَّعي أوشا أنه لا يزال هناك عمالقة وراء «الجدار». قد أرى واحدًا ذات يوم...

أجابَت: «كنتُ أقاتلُ رجالًا»، وأضافَت وهي توثق حبلًا حول ثوبها

كالحزام: «غِربانًا سود في أغلب الأحيان، وقتلتُ واحدًا منهم أيضًا»، ونفضَت الماء من شَعرها الذي نما منذ جاءَت إلى وينترفل حتى تجاوزَ أُذنيها، فبدَت أكثر نعومةً من المرأة التي حاولَت أن تسرقه وتَقتُله ذات مرَّةٍ في غابة الذِّئاب. «سمعتُ ثرثرةً اليوم في المطابخ عنك وعن صبيَّي فراي».

- «ممَّن؟ وماذا قال؟».

أجابَت مبتسمةً بقسوة: «إن من يسخر من عملاقٍ أحمق لا شَك، وإنه لعالم مجنون عندما يُدافِع طفل عاجزٌ عن هذا العملاق».

قال بران: «هودور لم يُدرِك أنهما كانا يسخران منه، وعلى كلِّ حالٍ هو لا يتشاجَر أبدًا». تذكَّر يومًا وهو صغير ذهبَ فيه إلى السُّوق مع أمِّه والسِّپتة موردن، وكان هودور قد راحَ معهم ليحمل المشتريات، لكنه تاهَ منهم، وعندما وجدوه كان بعض الصِّبية قد حاصَروه في زُقاقٍ ويخزونه بالعِصِي، بينما أخذَ هو يَصرُخ: «هودور!» وقد انكمشَ خوفًا واحتضنَ نفسه، لكنه لم يرفع يديه ولو مرَّة ضد معذِّبيه. «السِّپتون كايل يقول إن لديه روحًا وديعةً».

قالت: «نعم، ويداه قويَّتان بما يكفي لانتزاع عُنق رجلٍ من على كتفيه إذا أرادَ. على كلِّ حال، من الأفضل أن ينتبه في وجود والدر هذا، وأنت كذلك. هذا الكبير الذي يدعونه الصَّغير، لديَّ إحساس بأنه اسم على مسمَّى، كبير من الخارج وصغير من الدَّاخل، ووضيع حتى النُّخاع».

- «لن يجرؤ على أن يمسَّني بأذى أبدًا. إنه يخاف سَمر مهما ادَّعى العكس».

- «لعلَّه ليس غبيًّا كما يبدو إذن». تتصرَّف أوشا بحذرٍ دائمًا في وجود الذِّئبين الرَّهيبين. كان سَمر وجراي ويند قد مزَّقا ثلاثةً من الهَمج إلى أشلاء دامية يوم أُسِرَت. «أو لعله كذلك، ما يعني المتاعب أيضًا»، وربطَت شَعرها وسألَته: «هل راودَك المزيد من أحلام الذِّئاب إياها؟».

- «كلا». إنه لا يُحِبُّ الكلام عن أحلامه.

قالت أوشا ضاحكةً: «من المفترض أن يكذب الأمير أفضل من هذا. طيِّب، أحلامك شأنك، وأنا لديَّ عمل في المطابخ، فمن الأفضل أن أعود

إليه قبل أن يبدأ جايج في الصِّياح والتَّلويح بمغرفته الخشبيَّة الكبيرة. أستأذنك بالانصراف يا سمو الأمير».

فكَّر بران وهودور يحمله صاعدًا السَّلالم إلى غُرفة نومه: لم يكن ينبغي أن تأتي على ذِكر أحلام الذِّئاب. كافحَ كي لا ينام قدرما استطاعَ، لكن النَّوم اكتنفَه في النِّهاية كما يفعل دومًا. في تلك اللَّيلة حلمَ بشجرة الويروود. كانت تَنظُر إليه بعينيها الحمراوين العميقتين، وتُناديه بفمها الخشبي الملتوي، ومن بين فروعها الشَّاحبة جاءَ الغُراب ذو الأعيُن الثَّلاث يخفق، يَنقُر وجهه ويَصرُخ باسمه بصوتٍ بحدَّة السُّيوف.

أيقظَه دويُّ الأبواق، فدفعَ بران نفسه لينام على جانبه شاعرًا بالامتنان لمَن قاطعَ الحُلم. سمعَ جلبة الخيول والرِّجال، فقال لنفسه: المزيد من الضُّيوف، ويبدو من أصواتهم أنهم سكارى. قبضَ على القضبان وسحبَ نفسه من السَّرير إلى المقعد المجاور للنَّافذة. على راياتهم كان عملاق في أغلالٍ محطَّمة أخبرَهِ أنهم رجال أومبر الذين نزلوا من الأراضي الشَّمالية الواقعة وراء النَّهر الأخير.

في اليوم التَّالي جاءَ اثنان منهم للاجتماع؛ عمَّا چون الكبير، وهما رجلان صاخبان في شتاء العُمر، لكلٍّ منهما لحية بيضاء كمعطفيهما المصنوعين من فراء الدِّببة. ذات يوم حسبَ غُراب مورس ميتًا فنقرَ عينه وفقأها، فوضعَ مكانها قطعةً من زُجاجِ التِّنين، وطبقًا لحكاية العجوز نان، فإنه أطبقَ على الغُراب بقبضته وانتزعَ رأسه بأسنانه، فلقَّبوه بآكل الغُراب. على أن العجوز نان رفضَت أن تُخبِر بران بسبب تلقيب أخيه هوثر بباقِر العاهرة.

بمجرَّد جلوسهما طلبَ مورس الإذن بالزَّواج بالليدي هورنوود، وقال: «چون الكبير ذراع الذِّئب الصَّغير اليُمنى القويَّة، والكلُّ يعرف صحَّة هذا، فمَن أفضل من رجلٍ من عائلة أومبر يحمي أراضي الأرملة؟ وأيُّ أومبر أفضل مني؟».

قال المِايستر لوين: «الليدي دونيلا لا تزال في حِداد».

رَدَّ مورس ضاحكًا: «لديَّ علاج لحُزنها تحت ثيابي»، فشكرَه السير رودريك بكياسةٍ ووعدَ بأن يعرض الأمر على الليدي والملك.

أمَّا هوثر فكان يُريد سُفنًا، وقال: «الهَمج يتسلَّلون من الشَّمال بأعدادٍ أكبر مما رأيتُ من قبل، يَعبُرون خليج الفقمات بقوارب صغيرة، وينزلون على شواطئنا، والغِربان في قلعة حَرس اللَّيل الشَّرقيَّة أقلُّ عددًا من أن يستطيعوا التصدِّي لهم، كما أن الهَمج سرعان ما يتوارون كبنات عرس. نحتاجُ سُفنًا طويلةً، نعم، ورجالًا أقوياء يُبحِرون بها. چون الكبير أخذَ رجالًا كثيرين معه، ونِصف محاصيلنا ذبلَ لافتقارنا لمن يحملون المناجل».

شَدَّ السير رودريك شواربه، وقال: «لديكم غابات من أشجار الصَّنوبر الطَّويلة وأشجار السَّنديان القديمة، واللورد ماندرلي لديه سفَّانون وبحَّارة بكثرة، ومعًا يُمكنكم بناء وتشغيل ما يكفي من السُّفن الطَّويلة لحماية شواطئكم كلها».

قال مورس أومبر ساخرًا: «ماندرلي؟ جوال السُّخام المترهِّل هذا؟ سمعتُ أن رعاياه أنفسهم يُلَقِّبونه بالشِّلْق[1] استهزاءً. الرَّجل يكاد لا يستطيع المشي، وإذا ثقبت بطنه بسيف، سيَخرُج منه عشرة آلاف ثعبان ماء».

رَدَّ السير رودريك: «إنه بدين، لكن ليس غبيًّا. سوف تعملون معه أو تُفَسِّرون رفضكم للملك»، ولدهشة بران انصاعَ الرَّجلان الشَّرسان للأمر، وإن دمدما تذمُّرًا.

أثناء الاجتماع وصلَ رجال جلوڤر من «ربوة الغابة»، ومجموعة كبيرة من رجال تولهارت من «مربَّع تورين». تركَ جالبارت وروبت جلوڤر قلعتهما بين يدي زوجة روبت، لكن وكيلهم هو من جاءَ إلى وينترفل، وقال: «الليدي تطلب منكم أن تغفروا غيابها، فطفلاها أصغر من أن يحتملا الرِّحلة، وهي تكره أن تُفارِقهما». سرعان ما تبيَّن بران أن الوكيل وليس الليدي جلوڤر هو من يَحكُم في «ربوة الغابة». أخبرَهم الرَّجل بأنه يدَّخر عُشر حصاده فقط في الوقت الحالي، فقد قال له ساحر متجوِّل إنه سيكون هناك صيف شبحيٌّ مثمر قبل أن يتمكَّن البرد من العالم. أبدى المِايستر لوين رأيه في

(1) الشِّلْق أو الجلكَى نوع من الأسماك يُشبه ثعابين الماء، له فم حادُّ الأسنان ليمتصَّ دماء الأسماك الأخرى.

السَّحرة المتجوِّلين، بينما أمرَ السير رودريك الرَّجل بادِّخار خُمس محصوله، واستجوبَه باهتمام عن ابن اللورد هورنوود غير الشَّرعي، الصَّبي لارنس سنو. في الشَّمال يحملُ كلُّ نغول علية القوم لقب سنو، وقد أثنى الوكيل على هذا الصَّبي الذي يَبلُغ من العُمر اثني عشر عامًا، وأشادَ بذكائه وشَجاعته.

قال المِايستر لوين بَعد الاجتماع: «قد تكون فكرتك إزاء النَّغل موفَّقةً يا بران. أعتقدُ أنك ستُصبِح لوردًا صالحًا لوينترفل ذات يوم».

– «كلا». يعرف بران أنه لن يصير لوردًا أبدًا كما لن يصير فارسًا. «قلت لي بنفسك إن روب سيتزوَّج واحدةً من بنات فراي، والوالدران يقولان المِثل. سوف يُنجِب أبناءً يُصبِحون لوردات وينترفل من بَعده، وليس أنا».

قال السير رودريك: «قد يكون هذا صحيحًا يا بران، لكني تزوَّجتُ ثلاث مرَّات ولم تمنحني زوجاتي غير البنات، والآن ليس لديَّ غير بِث. أخي مارتن أنجبَ أربعة أبناء أقوياء، لكن چوري وحده عاشَ حتى أصبحَ رجلًا، ولمَّا قُتِلَ ماتَ معه نسل مارتن. لا شيء مؤكَّدًا أبدًا عندما نتكلَّم عن الغد».

جاءَ دور ليوبولد تولهارت في اليوم التَّالي، وتكلَّم عن تنبُّؤات الطَّقس وبلاهة العامَّة، وقال لهم إن ابن أخيه يتحرَّق شوقًا للمعركة. «بنفريد جمعَ فرقته الخاصَّة من حاملي الرِّماح، صِبية لا يتجاوَزون التَّاسعة عشر، لكن كلًّا منهم يحسب نفسه ذئبًا صغيرًا آخَر، وعندما قلتُ لهم إنهم مجرَّد أرانب صغيرة ضحكوا مني، والآن يُسَمُّون أنفسهم الأرانب الضَّارية، وينطلقون في جنبات الرِّيف وقد ربطوا فرو الأرانب على رؤوس رماحهم، مردِّدين أغنياتٍ عن الفُروسيَّة».

خطرَ لبران أن هذا عظيم حقًّا، وتذكر بنفريد تولهارت، الصَّبي المحتال كبير الحجم الذي زارَ وينترفل كثيرًا مع أبيه السير هلمان، وكان صديقًا لروب وثيون جرايچوي. على أن من الجليِّ أن السير رودريك لم يرضَ عمَّا سمعَ، وقال: «إذا احتاجَ الملك مزيدًا من الرِّجال، سيُرسِل في طلبهم. مُر ابن أخيك بالمكوث في «مربَّع تورين» كما أمرَ السيِّد والده».

– «سأفعلُ يا سيِّدي»، قال ليوبولد، وعندها فقط فتحَ موضوع الليدي هورنوود المسكينة، التي بلا زوجٍ يُدافِع عن أراضيها أو ابنٍ يرثها، وأضافَ أن

السيِّدة زوجته من عائلة هورنوود، أخت اللورد هاليس الرَّاحل كما يَذكُرون بلا شَك. «البيت الفارغ بيت حزين. لقد فكَّرتُ في إرسال ابني الأصغر إلى الليدي دونيلا لتُرَبِّيه كابنها. برين يكاد يَبلُغ العاشرة، صبيٌّ لا بأس به، وابن أختها. إنني واثق بأنه سيُبهِجها، ولربما يأخذ اسم هورنوود...».

قال المِايستر لوين: «إذا سمَّته وريثًا؟».

أنهى ليوبولد عبارته: «... بغية أن تستمرَّ العائلة».

كان بران يعرف الرَّدَّ المناسب، فاندفعَ يقول قبل أن ينطق السير رودريك: «نشكرك على اقتراحك يا سيِّدي. سنعرض الأمر على أخي روب. أوه، والليدي هورنوود أيضًا».

بدَت الدَّهشة على ليوبولد لأن بران تكلَّم، فقال له: «ممتنٌّ يا سمو الأمير»، لكن بران رأى الشَّفقة في عينيه الزَّرقاوين الباهتتين، شفقةً امتزجَت ربما بالسُّرور لأن الصَّبي المشلول ليس ابنه، وللحظةٍ شعرَ بران بالمقت نحو الرَّجل، وإن ظَلَّ يروق المِايستر لوين، الذي قال لهما بَعد انصراف ليوبولد: «قد يكون برين تولهارت أفضل الحلول. إنه نِصف هورنوود بالفعل بحُكم الدَّم، فإذا أخذَ اسم زوج خالته...».

قاطَعه السير رودريك: «سيظلُّ مجرَّد صبي، ومطلوب منه أن يُدافِع عن أراضيه ضد أمثال مورس أومبر أو نغل رووس بولتون. يجب أن نُفَكِّر في الأمر بعناية، قبل أن نُعطي روب أفضل مشورةٍ لدينا».

قال المِايستر لوين: «قد يحسم خيار عملي المسألة، بمعنى أن يكون أكثر لوردٍ منهم يحتاج روب أن يتودَّد إليه. إن أراضي النَّهر جزء من مملكته، وقد يرغب في أن يُزَوِّج الليدي هورنوود من أحد لوردات الثَّالوث، من عائلة بلاكوورد ربما، أو فراي».

قال بران: «من الممكن أن تتزوَّج الليدي هورنوود أحد صبيَّي فراي اللذين لدينا، أو لتأخذ الاثنين إذا أرادَت».

أجابَه السير رودريك بتأنيب هادئ: «أنت لست عطوفًا يا سمو الأمير».

ولا الوالدران كذلك. خفضَ بران رأسه إلى الطَّاولة عابسًا ولم يُعَلِّق.

في الأيام التَّالية وصلَت غِدفان من عائلاتٍ أخرى تحمل رسائل الأسف.

لن ينضمَّ نغل «معقل الخوف» إليهم، ورجال مورمونت وكارستارك ذهبوا جَنوبًا جميعًا مع روب، واللورد لوك مسنٌّ ولن يقوى على الرِّحلة، والليدي فلينت حبلى، وثمَّة مرض في قلعة الأرملة. أخيرًا مثلَ كلُّ ممثِّلي العائلات الأساسيَّة الحليفة لعائلة ستارك أمامهم وأدلوا بما لديهم، باستثناء هاولاند ريد رجل المستنقعات، الذي لم يخطُ خارج مستنقعاته منذ سنواتٍ عديدة، بالإضافة إلى عائلة سروين التي تقع قلعتها على بُعد نِصف يوم بالحصان من وينترفل. اللورد سروين أسير لدى آل لانستر، لكن ابنه الذي يَبلُغ الرَّابعة عشر وصلَ ذات صباح ساطع على رأس دستتين من حاملي الرِّماح. كان بران راكبًا دانسر في السَّاحة عندما دخلوا، وتقدَّم يُحَيِّيهم، فلطالما كان كلاي سروين صديقًا له ولأخويه.

قال له كلاي بمرح: «طابَ صباحك يا بران، أم أن عليَّ مخاطَبتك بالأمير بران الآن؟».

– «فقط إذا أردتَ».

ضحكَ كلاي قائلًا: «ولِمَ لا؟ الجميع ملوك أو أمراء هذه الأيام. هل كتبَ ستانيس لوينترفل أيضًا؟».

– «ستانيس؟ لا أدري».

– «هو أيضًا ملك الآن. يقول إن الملكة سرسي ضاجعَت أخاها، ما يعني أن چوفري نغل».

دمدمَ أحد فُرسان سروين: «چوفري الدَّنِس. لا عجب أنه بلا شَرف وأبوه هو قاتِل الملك».

قال آخَر: «نعم، الآلهة تبغض زنى المحارم. انظُر كيف أهلكَت عائلة تارجاريَن».

مرَّت وهلة شعرَ خلالها بران بأنه عاجز عن التقاط أنفاسه، واعتصرَت يد عملاقة قلبه وأحسَّ بالأرض تميد به، فتمسَّك بعِنان دانسر باستماتة.

ولا بُدَّ أن الرُّعب الذي أصابَه لاحَ على ملامحه، إذ قال كلاي سروين: «بران، أأنت بخير؟ إنه مجرَّد ملكٍ آخَر».

غمغمَ بران: «سيهزمه روب أيضًا»، ودارَ بدانسر نحو الاسطبلات غافلًا

عن نظرات الدَّهشة التي رمقَه بها رجال سروين. كانت الدِّماء تغلي في أُذنيه، ولو لم يكن مربوطًا بسَرجه لسقطَ بكلِّ تأكيد.

ليلتها توسَّل بران من آلهة أبيه نومًا بلا أحلام، وإذا كانت الآلهة قد سمعَته فقد هزأَت بآماله، فالكابوس الذي أرسلَته إليه كان أسوأ من أيٍّ من أحلام الذِّئاب.

- طِر أو مُت! صرخَ الغُراب ذو الأعيُن الثَّلاث وهو يَنقُره، وبكى بران واستعطفَ، لكن الغُراب ظَلَّ يَنقُر بلا شفقةٍ أو هوادة، وفقأ عينه اليُسرى ثم اليُمنى، وعندما أصبحَ أعمى في الظَّلام، بدأ الغُراب يَنقُر جبهته، دافنًا منقاره الحادَّ الرَّهيب في جمجمته، وصرخَ بران وصرخَ حتى أيقنَ أن رِئتيه ستنفجران. كان الألم فأسًا تشجُّ رأسه، لكن عندما حرَّر الغُراب منقاره اللَّزج بقِطع من العظام والمُخ، استطاعَ بران الرُّؤية من جديد، وما رآه حدا به إلى أن يشهق خوفًا. كان متعلِّقًا ببُرج يرتفع أميالًا وأميالًا، وأصابعه تنزلق بالفعل فتخدش أظفاره الحجر، وساقاه تَجُرَّانه إلى أسفل، ساقاه السَّخيفتان الميتتان عديمتا القيمة. صرخَ: «ساعِدني!»، فظهرَ رجل ذهبي في السَّماء من فوقه وسحبَه إلى أعلى، ثم بنعومةٍ تمتمَ: «يا للأشياء التي أفعلها من أجل الحُب»، وألقى به في الهواء ليهوي من حالِق.

تيريون

قال له المِايستر الأكبر پايسل على سبيل الاعتذار لإجراء اللِّقاء فَجرًا: «لم أعُد أنام كما كنتُ أفعلُ وأنا أصغر سِنًّا، والآن أوثرُ النُّهوض من الفِراش والعالم لا يزال مظلمًا، على الاضطجاع فيه ومعاناة الضَّجر والقلق من الواجبات غير المنجَزة». كان يتكلَّم بينما تُعطي عيناه ذات الجفنين الثَّقيلين إيحاءً بأنه ما زال نِصف غافٍ بالفعل. في مسكن المِايستر طلْق الهواء، الذي تعلوه المِغدفة، قدَّمت لهما خادمته البيض المسلوق والبرقوق المطبوخ والثَّريد، بينما لعبَ پايسل دور الزَّاهد قائلًا: «في أوقاتنا الحزينة هذه وكثيرون جياع، أرى أن من اللِّياقة أن تكون مائدتي متواضعةً».

- «سلوك محمود»، قال تيريون وهو يُقَشِّر بيضةً حمراء، ذكَّرته في الوقت غير المناسب برأس المِايستر الأكبر الأصلع المبقَّع. «لكن لديَّ وجهة نظرٍ مختلفة. إذا كان هناك طعام فإنني آكُله، فربما لا أجدُ لقمةً واحدةً غدًا»، وابتسمَ وسألَه: «أخبِرني، هل تستيقظ غِدفانك مبكِّرًا مِثلك؟».

ملَّس پايسل على لحيته ناصعة البياض التي تتدلَّى حتى صدره، وأجابَ: «بالتَّأكيد. هل أرسلُ في طلب الحبر والرِّيشة بَعد أن نأكل؟».

قال تيريون: «لا داعي»، ووضعَ الرِّسالتين على المائدة إلى جوارِ وعاء الثَّريد، رَقَّين متماثلين، كلاهما مطويٌّ بإحكامٍ ومختوم بالشَّمع من الطَّرفين. «اصرِف خادمتك ودَعنا نتكلَّم».

قال پايسل للفتاة: «اترُكينا يا صغيرتي»، ولمَّا أسرعَت الخادمة مغادرةً الغُرفة، التفتَ إلى تيريون قائلًا: «هاتان الرِّسالتان...».

- «لعينيْ دوران مارتل أمير دورن فقط»، وقشَّر تيريون بيضته وقضمَ منها، ثم قرَّر أنها تحتاج ملحًا. «إنهما نُسختان من رسالةٍ واحدة. أريدك أن تُرسِل أسرع طائرين لديك، فالمسألة في غاية الأهميَّة».

- «بمجرَّد أن نتناوَل إفطارنا».

- «أرسِلهما الآن. البرقوق سيبقى، أمَّا البلاد فقد لا تبقى. اللورد رنلي يقود جيشه على الطَّريق الوردي، ولا أحد يدري متى يُبحِر اللورد ستانيس من دراجونستون».

طرفَ پايسلِ بعينيه قائلًا: «إذا كان سيِّدي يُفَضِّل...».

- «هذا ما يُفَضِّله».

قال المِايستر: «أنا هنا لأخدم»، ونهضَ متثاقلًا وحلقات سلسلته ترنُّ بخفوت. ليست سلسلته بالشَّيء الخفيف على الإطلاق، تتألَّف من دستةٍ من أطواق المِايسترات الملولبة حول وعبر بعضها بعضًا، والمزيَّنة بشتَّى الأحجار الكريمة؛ وبدا لتيريون أن الحلقات المصنوعة من الذَّهب والفضَّة والپلاتين تفوق في عددها تلك المصنوعة من معادن أدنى بكثير.

تحرَّك پايسل بتؤدةٍ بالغة، حتى إن تيريون أنهى بيضته وبدأ يتذوَّق البرقوق (ووجدَه مطهوًّا أكثر من اللَّازم وكثير الماء، ليس كما يُحِبُّ)، قبل أن يُعطيه صوت الأجنحة إشارة النُّهوض. لمحَ الغُداف الذي بدا داكنًا في نور الفَجر، ثم التفتَ بسرعةٍ إلى متاهة الأرفُف الواقعة في طرف الغُرفة القصي.

صنعَت أدوية وعقاقير المِايستر منظرًا مثيرًا للإعجاب، عشرات الجرار المسدودة بالشَّمع، ومئات من القوارير ذات السِّدادات ومن القناني المصنوعة من الزُّجاج اللَّبني، وبرطمانات بلا عددٍ ملأى بالأعشاب المجفَّفة؛ وكلٍّ وعاءٍ يحمل اسم محتواه بخَطِّ پايسل المنمَّق. قال تيريون لنفسه: عقل منظَّم. وبالفعل، بمجرَّد أن تُدرِك التَّرتيب، ستجد أن لكلِّ عقَّارٍ مكانه. وأشياء مثيرة للاهتمام حقًّا. سجَّل عقلُه وجود كلٍّ من حُلو الكَرى، وعنب الثَّعلب، وحليب الخشخاش، ودموع لِيس، وفِطر الغاريقون الرَّمادي، وآفة الذِّئب، ورقصة الشَّيطان، وزُعاف البازيليسق[1]، والعين العمياء، ودم الأرملة...

(1) البازيليسق مخلوق زاحف أسطوري، يتميَّز بالقُدرة على القتل بسُمِّه الزُّعاف، ويُقال إنه ملك الأفاعي.

وقفَ على أصابع قدميه وشَبَّ إلى أعلى، وسحبَ قارورةً صغيرةً مغبَّرةً من على الرَّفِّ العالي، ولمَّا قرأ المكتوب عليها ابتسمَ ودسَّها في كُمِّه.

كان قد عادَ يجلس إلى المائدة ويُقَشِّر بيضةً أخرى بالفعل، عندما نزلَ المِايستر الأكبر پايسل سلالم المِغدفة بتوانٍ، ثم قال العجوز وهو يجلس: «تَمَّ يا سيِّدي. مسألة كهذه من الأفضل أن تتمَّ بلا إبطاء، بالفعل، بالفعل... تقول إنها في غاية الأهميَّة؟».

- «أوه، بكلِّ تأكيد». وجدَ تيريون الثَّريد ثخينًا أكثر من اللَّازم، ويحتاج عسلًا وزُبدًا. الواقع أن العسل والزُّبد صارا سلعتين نادرتين في كينجز لاندنج في الآونة الأخيرة، وإن ظَلَّ اللورد جايلز يُزَوِّد القلعة بكمِّيَّاتٍ كبيرة منهما. نِصف الطَّعام الذي يأكلونه هذه الأيام يأتي من أراضيه أو أراضي الليدي تاندا، خصوصًا أن روزبي وستوكوورث تقعان على مقربةٍ من المدينة شَمالًا، وما زالت الحرب لم تمسَّهما.

- «أمير دورن بنفسه. إذا سمحت لي بالسُّؤال...».

- «يَحسُن ألَّا تسأل».

الآن كان فضول پايسل على شفا الانفجار من فرط اشتعاله، لدرجة أن تيريون كادَ يَشعُر بمذاقه على لسانه بالفعل وهو يسمع المِايستر يُهَمهِم: «كما تقول. ربما إذن... مجلس الملك...».

نقرَ تيريون بملعقته الخشبيَّة على حافة الوعاء قائلًا: «وظيفة المجلس أن ينصح الملك أيها المِايستر».

- «تمامًا، والملك...».

- «... صبيٌّ في الثَّالثة عشر، وأنا أتكلَّم بصوته».

- «نعم، بكلِّ تأكيد، أنت حضرة يد الملك، لكن... أختك الكريمة، ملكتنا الوصيَّة على العرش، إنها...».

- «... تحمل عبئًا ثقيلًا على كتفيها البيضاوين الجميلتين، ولا أرغبُ في زيادة تلك الأثقال. أهذا ما تُريده أنت؟»، وحنى رأسه وحدجَ المِايستر الأكبر بنظرةٍ متسائلة.

خفضَ پايسل ناظريه إلى طعامه. شيءٌ ما في عيني تيريون غير المتماثلتين،

ونظراتهما نِصف الخضراء ونِصف السَّوداء، يُصيب النَّاس بالارتباك، وقد تسلَّح تيريون بهذه المعرفة واستغلَّها جيِّدًا. غمغمَ العجوز مكلِّمًا البرقوق: «آه، لا شَكَّ أن لديك كلَّ الحق يا سيِّدي. مراعاة منك أن... أن تُوَفِّر عليها هذا... العبء».

عادَ تيريون إلى الثَّريد غير المُشبِع قائلًا: «أنا من هذا الطِّراز من النَّاس، مُراعٍ للغير، وسرسي أختي الحبيبة رغم كلِّ شيء».

قَال المِايستر الأكبر پايسل: «وامرأة كذلك، امرأة غير تقليديَّة على الإطلاق بحق، لكن... ليس من الهيِّن أن تُعنى بشؤون البلاد كلها على الرغم من هشاشة جنسها...».

أوه، صحيح، إنها يمامة مهيضة الجناح حقًّا، سَل إدارد ستارك. «يَسُرُّني أنك تُشارِكني اهتمامي، وأشكرك على كرم ضيافتك، لكن يومًا طويلًا ينتظرني»، وأرجحَ ساقيه إلى الخارج لينزل من مقعده، وأردفَ: «أرجو أن تتكرَّم بإبلاغي في الحال بمجرَّد أن يأتينا رَدٌّ من دورن».

- «كما تأمر يا سيِّدي».

- «وستُبَلِّغني أنا فقط؟»

- «آه... بكلِّ تأكيد». كانت يد پايسل المبقَّعة قابضةً على لحيته كما يقبض الغريق على حبل، الشَّيء الذي أثلجَ صدر تيريون كثيرًا، وقال لنفسه: الأول.

خرجَ إلى الفِناء السُّفلي وصعدَ السَّلالم شاعرًا بالألم في ساقيه ناقصتي النُّمو. كانت الشَّمس قد ارتفعَت في السَّماء بالفعل، والحركة تدبُّ في أرجاء القلعة، يذرع الحُرَّاس الأسوار، ويتدرَّب الفُرسان والرِّجال المسلَّحون بأسلحةٍ ثلمة. جلسَ برون على مقربةٍ عند فم بئر، ومرَّت به خادمتان حسناوان متهاديتان وقد حملتا بينهما سلَّةً من الأماليد المجدولة تحوي ملاءات، لكن المرتزِق لم يُعِرهما نظرةً واحدةً، فأشارَ تيريون ناحيتهما قائلًا: «يئستُ منك يا برون. مناظر جميلة كتلك أمام عينيك مباشرةً، لكنك لا ترى غير قطيعٍ من الأجلاف يُصدِر الضَّوضاء».

رَدَّ برون: «في هذه المدينة مئة ماخور أستطيعُ أن أشتري فيها كلَّ ما أريدُ من فروجٍ بقطعةٍ نُحاسيَّة معوجَّة، لكن قد يأتي يوم تعتمد فيه حياتي على

يقظتي في مراقَبة أجلافك هؤلاء»، ونهضَ قائلًا: «مَن هذا الذي يرتدي السُّترة ذات المربَّعات الزَّرقاء، وعلى تُرسه الأعيُن الثَّلاث؟».

- «فارس جوَّال اسمه تالارد. لماذا؟».

أزاحَ برون خصلةً من شَعره عن عينيه مجيبًا: «إنه أفضلهم، لكن راقِبه وستراه يتحرَّك بإيقاع، يُسَدِّد الضَّربات نفسها بالتَّرتيب ذاته كلما هاجمَ»، وابتسمَ مضيفًا: «سيكون في هذا موته يوم يُواجِهني».

- «إنه متعهِّد بالولاء لجوفري، فليس من الوارد أن يُواجِهك». قطعا السَّاحة وقد راعى برون الفارق بين خطواته الواسعة وخطوات تيريون. يكاد المرتزِق يبدو محترمًا هذه الأيام، فشَعره الفاحم مغسول ومصفَّف، ووجهه حليق، ويرتدي واقي الصَّدر الأسود المميِّز لضبَّاط حَرس المدينة، ومن على كتفيه ينسدل معطف بلون لانستر القرمزي المنقوش بأيادٍ ذهبيَّة. كان تيريون قد أهداه إياه بَعدما عيَّنه قائد حَرسه الشَّخصي. «كم واحدًا يلتمسون المثول أمامنا اليوم؟».

أجابَ برون: «ثلاثون ونيِّف، معظمهم يُريد تقديم شكوى أو أخرى، أو لديه مطلب ما كالعادة، كما أن حيوانتك الأليفة عادَت».

زمجرَ تيريون: «الليدي تاندا؟».

- «خادمتها. إنها تدعوك لتناوُل العَشاء معها ثانيةً. تقول إنها ستُقَدِّم فخذ غزال، وزوجًا من الإوز المحشو، مع صلصة التُّوت الأسود، و...».

ختمَ تيريون العبارة بلهجة جافَّة: «... وابنتها». منذ وصوله إلى كينجز لاندنج والليدي تاندا تتعقَّب خُطاه، مسلَّحةً بترسانةٍ لا تنتهي من فطائر سمك الشِّلْق، والخنازير البرِّيَّة، ويخنات من مختلف الأنواع. بشكلٍ ما راودَتها فكرة أن لوردًا قزمًا مِثله هو الأنسب ليكون بعل ابنتها لوليس، تلك الفتاة البلهاء كبيرة الحجم، التي تقول عنها الشَّائعة إنها لا تزال عذراء في سِنِّ الحادية والثَّلاثين. قال: «بلِّغها اعتذاري».

قال برون وعلى شفتيه ابتسامة شرِّيرة: «لا رغبة لديك في إوزَّة محشوَّة؟».

- «ربما يَجدُر بك أن تأكل الإوزَّة وتتزوَّج الفتاة، أو من الأفضل أن تُرسِل لها شاجا».

- «كان شاجا ليأكل الفتاة ويتزوَّج الإوزَّة، ثم إن لوليس تفوقه وزنًا على كلِّ حال».

- «هذا صحيح»، قال تيريون وهما يَمُرَّان في ظِلِّ ممشى مغطَّى بين بُرجين، ثم سألَه: «من يُريدني غيرها؟».

اكتسَت نبرة المرتزق بالجدِّيَّة وهو يُجيب: «ثمَّة دائن من براڤوس يحمل أوراقًا أنيقةً وما إلى ذلك، ويَطلُب أن يرى الملك بشأن رَدِّ قرض ما».

- «كأن چوفري يستطيع العَدَّ بَعد العشرين. أرسِله إلى الإصبع الصَّغير، سيجد هو وسيلةً لتأجيل الدَّفع. ماذا بَعد؟».

- «لورد صغير جاءَ من الثَّالوث، يقول إن رجال أبيك أحرَقوا حصنه واغتصَبوا زوجته وقتَلوا كلَّ فلَّاحيه».

- «أعتقدُ أن هذا ما يُسَمُّونه الحرب». اشتمَّ تيريون رائحة جريجور كليجاين في الأمر، أو السير آموري لورك، أو كلب الجحيم الآخَر المدلَّل لدى أبيه، ذلك الكوهوري. «ما الذي يُريده من چوفري؟».

أجابَ برون: «فلَّاحون جُدد. لقد قطعَ الطَّريق سيرًا ليُرَدِّد كم هو مخلص ويتوسَّل تعويضًا».

- «سأجدُ له وقتًا غدًا». سواء أكان مخلصًا حقًّا أم يائسًا فقط، فخضوع واحد من لوردات النَّهر لهم قد يكون نافعًا. «اعمل على أن ينزل في غُرفةٍ مريحة ويتناوَل وجبةً ساخنةً، وأرسِل له حذاءً جديدًا كذلك، حذاءً جيِّدًا، مع تحيَّات الملك چوفري». إبداء القليل من الكرم لن يضرَّ أبدًا.

أومأَ برون برأسه باقتضاب، وقال: «ثمَّة مجموعة كبيرة من الخبَّازين والجزَّارين والبقَّالين يُصِرُّون بصخب على أن تسمع ما لديهم».

- «قلتُ لهم المرَّة السَّابقة إني لا أملكُ ما أعطيهم إياه». لا يَدخُل كينجز لاندنج الآن غير النَّزر اليسير من الطَّعام، ومعظمه مخصَّص للقلعة والحامية، فارتفعَت أسعار الخضراوات والجذور والفاكهة والدَّقيق على نحو مغثٍ، ما جعلَ تيريون لا يرغب في مجرَّد تخيُّل أنواع اللَّحم التي تُطبَخ في قدور «جُحر البراغيث»، وتمنَّى أن يكون لحم أسماك. ما زال لديهم النَّهر والبحر... على الأقل حتى يُبحِر اللورد ستانيس.

- «يُريدون الحماية. ليلة أمس شُوِيَ خبّاز حيًّا في فُرنه. ادَّعى الدَّهماء أنه يبيع الخُبز بثمنٍ مبالغ فيه».

- «أهذا صحيح؟».

- «ليس في وسعه الإنكار الآن».

- «إنهم لم يأكلوه، أليس كذلك؟».

- «ليس حسبما سمعتُ».

قال تيريون مكشِّرًا: «المرَّة القادمة سيفعلون. إنني أعطيهم ما أستطيعُ من حماية، وذوو المعاطف الذَّهبيَّة...».

- «يدَّعون إن الدَّهماء كان بينهم رجال من ذوي المعاطف الذَّهبيَّة، ويُطالِبون بأن يُكلِّموا الملك بنفسه».

- «حمقى». سيصرفهم تيريون مع اعتذاره، بينما كان ابن أخته ليصرفهم والسِّياط والحِراب في أعقابهم. أغرَته فكرة أن يسمح بهذا... لكن لا، إنه لا يجرؤ، فعاجِلًا أو آجلًا سيزحف عدوٌّ ما على كينجز لاندنج، وآخِر شيءٍ يرغب فيه أن يصنع متطوِّعين للخيانة داخل أسوار المدينة. «قُل لهم إن الملك چوفري يُشارِكهم مخاوفهم، وسيفعل ما يقدر عليه من أجلهم».

- «إنهم يُريدون الخُبز لا الوعود».

- «إذا أعطيتهم خُبزًا اليوم، سأجدُ ضِعف عددهم على البوَّابة غدًا. مَن غيرهم؟».

- «أخ أسود من «الجِدار». يقول الوكيل إنه أحضرَ يدًا متعفِّنةً في برطمان».

ارتسمَت ابتسامة خافتة على شفتي تيريون، وقال: «يُدهِشني أن أحدًا لم يأكلها. أعتقدُ أن عليَّ أن أراه. إنه ليس يورن، أليس كذلك؟».

- «نعم، إنه فارس ما، اسمه ثورن».

- «السير أليسر ثورن؟». من بين كلِّ الإخوة السُّود الذين قابلَهم تيريون على «الجِدار»، كان السير أليسر ثورن أقلَّ من راقَه بينهم. إنه رجل رذيل كريه المعشر، يُغالي في قيمة نفسه. «في الواقع لا أجدُ لديَّ رغبةً في رؤية السير أليسر الآن. اعثُر له على حُجيرةٍ ضيِّقة لم يُبَدِّلوا فيها الملاءات منذ عام، ودَع يده تتعفَّن أكثر قليلًا».

أطلقَ برون ضحكةً امتزجَت بنخيره وانصرفَ، فيما جاهدَ تيريون لصعود السَّلالم الملتفَّة، وبينما قطعَ السَّاحة الخارجيَّة بخطواتٍ عرجاء من فرط الألم، سمعَ صلصلة الشَّبكة الحديديَّة وهي تُرفَع، ورأى أخته تنتظر مع مجموعةٍ كبيرةٍ من الأتباع عند البوَّابة الرَّئيسة.

على متن حصانها الأبيض الصَّغير ارتفعَت سرسي عاليًا فوقه كإلهةٍ ترتدي الأخضر، ونادَته بلهجةٍ خالية من الدِّفء: «أخي». ما زالت الملكة غير مسرورة من الطَّريقة التي تعاملَ بها مع چانوس سلينت.

انحنى تيريون بأدبٍ قائلًا: «جلالة الملكة، تبدين جميلةً جدًّا هذا الصَّباح». كانت ترتدي تاجًا من الذَّهب ومعطفًا من فرو القاقوم[1]، وقد ركبَ رجال حاشيتها خيولهم وراءها؛ السير بوروس بلاونت فارس الحَرس الملكي الذي يرتدي دِرعًا من الصَّفائح المعدنيَّة البيضاء ونظرته المتجهِّمة المفضَّلة، والسير بالون سوان الذي يتدلَّى قوسه من سَرجه المطعَّم بالفضَّة، واللورد جايلز روزبي بسُعاله المتفاقم، وهالاين الپايرومانسر[2] رئيس رابطة الخيميائيِّين، بالإضافة إلى رفيق الملكة المفضَّل الجديد، السير لانسل لانستر ابن عمِّهما، ومُرافِق زوجها الرَّاحل الذي ترقَّى إلى فارسٍ بإلحاح من أرملته. كان ڤايلار وعشرون من الحَرس يصحبونهم، فسألَها تيريون: «إلى أين أنتِ ذاهبة يا أختاه؟».

- «أقومُ بجولةٍ على البوَّابات لتفقُّد العرَّادات ونافثات اللَّهب الجديدة، فلا أريدُ أن يعتقد أحد أننا كلنا لا نعبأ بدفاعات المدينة مِثلك»، وسلَّطت سرسي عليه تلكما العينين الخضراوين الصَّافيتين، اللتين لا يتوارى جمالهما حتى عندما يملأهما الامتعاض، وواصلَت: «بلغَني أن رنلي باراثيون خرجَ من هايجاردن، ويزحف على الطَّريق الوردي بكامل قوَّته».

(1) القاقوم حيوان ثديي ينتمي إلى فصيلة العرسيَّات، وهو من أخطر حيوانات هذه الفصيلة، على الرغم من لُطف وجمال شكله.

(2) الپايرومانسر كلمة يونانيَّة تعني «كاهن النَّار»، وكانت تُستخدَم قديمًا للإشارة إلى كلِّ من يحترف فَنَّ التَّعامل مع النَّار لمختلف الأغراض.

- «ڤارس أبلغَني بالشَّيء نفسه».
- «قد يصل مع اكتمال القمر».
- «ليس بحركته المتمهِّلة الحاليَّة. إنه يولِم كلَّ ليلةٍ في قلعةٍ مختلفة، ويعقد بلاطه على كلِّ مفتَرق طُرق يمرُّ به».
- «وفي كلِّ يومٍ ينضمُّ المزيد إلى راياته. يُقال إن جيشه يضمُّ مئة ألف الآن».
- «يبدو رقمًا مبالَغًا فيه».

ردَّت سرسي بحدَّة: «إن وراءه قوَّة ستورمز إند وهايجاردن أيها الأحمق الصَّغير، جميع حمَلة راية تايرل باستثناء ردواين، ولك أن تَشكُرني على هذا، فما دمتُ محتفظةً بتوأميه المجدورين هذين، سيبقى اللورد ﭘاكستر في «الكرمة» ويعدُّ نفسه محظوظًا لأنه خارج الصِّراع».

- «من المؤسف أنكِ سمحتِ لفارس الزُّهور بالانسلال من بين أصابعكِ الجميلة. على كلِّ حال، رنلي لديه هموم أخرى بخلافنا؛ أبونا في هارنهال، وروب ستارك في ريڤررَن... لو كنتُ مكانه لما اختلفَ ما أفعله كثيرًا، أتقدَّمُ وأزدهي بقوَّتي أمام البلاد كلها، وأراقبُ وأنتظرُ، أدعُ خصومي يتنافَسون بينما أتحيَّنُ الفُرصة بكاملِ راحتي. إذا هزمَنا ستارك، سيَسقُط الجَنوب في يد رنلي كما تَسقُط أوراق الشَّجر، ولن يكون قد خسرَ رجلًا واحدًا. وإذا حدثَ العكس، فيُمكنه أن ينقضَّ علينا ونحن مثخنون بجراح المعركة».

لم يُفلِح كلامه في إرضاء سرسي، التي قالت: «أريدك أن تجعل أبي يأتي بجيشه إلى كينجز لاندنج».

حيث لا نفع منه غير إشعارِك بالأمان. «منذ متى أستطيعُ أن أجعل أبي يفعل أيَّ شيء؟».

تجاهلَت سؤاله قائلةً: «ومتى تنوي تحرير چايمي؟ إنه يُساوي مئةً منك».

قال تيريون بابتسامةٍ معوجَّة: «أتوسَّلُ إليكِ ألَّا تُخبِري الليدي ستارك، فليس لدينا مئة تيريون نُبادِلهم به».

قالت الملكة: «لا بُدَّ أن أبي فقدَ عقله عندما أرسلَك. أنت عديم الفائدة»،

وسحبَت عِنانها ودارَت بحصانها، وخرجَت مسرعةً من البوَّابة ومعطفها يخفق من ورائها، فأسرعَ رجال الحاشية يلحقون بها.

الحق أن خوف تيريون من رنلي باراثيون يكاد لا يَبلُغ نِصف خوفه من أخيه ستانيس، فرنلي محبوب من العوام، لكنه لم يَقُد رجالًا إلى الحرب من قبل قَطُّ، بينما ستانيس مختلف تمامًا، صُلب وبارد وعنيد. ليتهم يجدون وسيلةً يعرفون بها ما يجري في دراجونستون... لكن لا أحد من الصيَّادين الذين دفعَ لهم للتلصُّص على الجزيرة عادَ ثانيةً، والمُخبِرون الذين يدَّعي ڤارس أنه زرعَهم في بيت ستانيس لائذون بالصَّمت على نحو يُثير التوجُّس. على أن السُّفن اللايسينيَّة ذات الأبدان المخطَّطة شوهدَت بالقُرب من ساحل الجزيرة، ولدى ڤارس تقارير من مير تفيد أن عددًا من مرتزِقة البحر تعهَّدوا بخدمة دراجونستون. إذا هاجمَ ستانيس من البحر بينما يقتحم أخوه البوَّابات، فلن يمضي وقت طويل قبل أن يُعَلَّق رأس چوفري على خازوق، والأسوأ أن رأسي سيكون إلى جواره. عليه أن يضع خطَّةً لإخراج شِاي بأمانٍ من المدينة، إذا بدا أن الأسوأ على وشك الوقوع.

كان پودريك پاين واقفًا على باب غُرفته الشَّمسيَّة، يتفحَّص الأرض كالمعتاد، وخاطبَ إبزيم حزام تيريون قائلًا: «إنه في الدَّاخل، في غُرفتك يا سيِّدي، معذرةً».

زفرَ تيريون وقال: «انظُر إليَّ يا پود. إنك تُثير أعصابي عندما تُوَجِّه كلامك لواقي الصَّفَن(1) وليس لي، خصوصًا وأنا لا أرتدي واحدًا أصلًا! مَن الذي في غُرفتي؟».

رفعَ پودريك عينيه إلى وجهه، قبل أن يخفضهما سريعًا ويُجيب: «اللورد الإصبع الصَّغير، أعني اللورد پيتر، اللورد بايلش، أمين النَّقد».

قال تيريون: «تتكلَّم كأن هناك مجموعة كاملة في الدَّاخل»، فانكمشَ الصَّبي على نفسه كمن تلقَّى ضربةً، ما أشعرَ تيريون بقدرٍ مفرطٍ من الذَّنب.

كان اللورد پيتر جالسًا على المقعد المجاور للنَّافذة، يبدو عليه الخمول،

(1) واقي الصَّفَن نوع من الدُّروع يُثَبَّت حول الحوض وبين السَّاقين لحماية الخصيتين.

وقد تأنَّق بسُترةٍ من القطيفة بلون الخوخ وحرملةٍ حريريَّة صفراء، وأراحَ يده المغطَّاة بقُفَّازٍ على رُكبته. قال عندما دخلَ تيريون: «الملك يُقاتِل الأرانب البرِّيَّة بالقوس والنُّشَّاب، والأرانب متفوِّقة عليه. تعالَ وانظُر».

اضطرَّ تيريون للوقوف على أصابع قدميه ليُلقي نظرةً. في الأسفل كان أرنب برِّي ميتًا على الأرض، وآخَر ترتجف أذناه الطَّويلتان وهو على وشك النُّفوق من سهم في جانبه، بينما تناثرَت السِّهام المهدرَة على أرض السَّاحة نِصف الممهَّدة، كأعوادٍ من القَشِّ بعثرَتها عاصفة. صاحَ چوفري: «الآن!»، ليُطلِق عامل الألعاب سراح الأرنبِ الذي يُمسِكه، فيتواثَب مبتعدًا. شَدَّ چوفري زناد قوسه، لكن السَّهم أخطأَ الأرنب بقدمين، ووقفَ الحيوان على قائمتيه الخلفيَّتين وأنفه يختلج في وجه الملك. لاعنًا، دوَّر چوفري البكرة ليجذب الوتر ثانيةً، لكن الأرنب كان قد اختفى قبل أن يُلَقِّم القوس سهمًا جديدًا، فصاحَ: «آخَر!»، ليمدَّ عامل الألعاب يده داخل القفص، ثم يُخرِجها بأرنب بنِّي انطلقَ يجري وسط الحجارة، بينما كادَ سهم چوفري المتعجِّل يُصيب السير پرستون بين ساقيه.

التفتَ الإصبع الصَّغير عن النَّافذة، وسألَ پودريك پاين: «أتروقك الأرانب البرِّيَّة المطبوخة أيها الصَّبي؟».

حدَّق پود في حذاء الزَّائر المصنوع من جِلدٍ مصبوغ بالأحمر ومزيَّن بالنُّقوش السَّوداء، وقال: «للأكل يا سيِّدي؟».

قال الإصبع الصَّغير: «استمِر في قدور الطَّهي، فقريبًا ستجتاح الأرانب البرِّيَّة القلعة، وسنأكلها ثلاثًا كلَّ يوم».

قال تيريون: «أفضل من الجرذان على الأسياخ. اترُكنا الآن يا پود، ما لم يكن اللورد پيتر يرغب في شراب».

أجابَ الإصبع الصَّغير بابتسامته السَّاخرة: «أشكرك، لكن لا. يقولون إن من يشرب مع القزم يستيقظ ليجد نفسه يَحرُس «الجِدار»، وارتداء الأسود يجعلني أبدو شاحبًا كالمرضى».

لا تخف يا سيِّدي، فليس «الجِدار» ما أدَّخره لك. جلسَ تيريون على مقعدٍ عالٍ تكوَّمت عليه الوسائد، وقال: «تبدو شديد الأناقة اليوم يا سيِّدي».

- «أنت تجرحني. إنني أثابرُ لأبدو أنيقًا كلَّ يوم».
- «أهذه سُترة جديدة؟».
- «هي كذلك. أنت ثاقب البصر حقًّا».
- «خوخي وأصفر، ألوان عائلتك؟».
- «كلا، لكن لا مفرَّ من الإصابة بالملل من ارتداء الألوان نفسها يوميًّا، أو أن هذا ما اكتشَفته».
- «وهذا الخنجر أنيق كذلك».

قال الإصبع الصَّغير وقد لاحَ الخُبث في عينيه: «حقًّا؟»، وسحبَ الخنجر وألقى عليه نظرةً عابرةً كأنه لم يرَه من قبل قَطُّ، وأردفَ: «إنه من الفولاذ الڤاليري، والمقبض من عظام التنِّين، لكن تقليدي بعض الشَّيء. إنه ملكك إذا أردتَ».

قال تيريون: «ملكي؟»، وحدجَه بنظرةٍ طويلة، ثم تابعَ: «لا، لا أظنُّ، ليس ملكي أبدًا». الحقير الوقح يعرف، يعرف ويعرف أني أعرفُ، ويحسب أني لا أستطيعُ المساس به.

إذا كان هناك رجل يُدَرِّع نفسه بالذَّهب حقًّا، فهو پيتر بايلش وليس چايمي لانستر، فدِرع چايمي الشَّهيرة مجرَّد فولاذ مذهَّب، لكن الإصبع الصَّغير، آه... لقد تعلَّم تيريون عدَّة أشياء عن پيتر العزيز، أشياء جعلَت قلقه يتزايَد.

قبل عشرة أعوام عيَّنه چون آرن في وظيفةٍ سهلةٍ في الجمارك أدرَّت عليه دخلًا بلا جهدٍ يُذكَر، وسرعان ما ميَّز اللورد پيتر نفسه بتحصيل ثلاثة أضعاف المبالغ التي يُحَصِّلها الجُباة الآخَرون للملك، وكان الملك روبرت شديد التَّبذير، فمن الطَّبيعي أن يُصبِح رجل على شاكلة پيتر بايلش -لديه موهبة تجعله يَفرُك تنِّينين ذهبيَّين معًا ليبيضا ثالثًا- عظيم القيمة لدى يد الملك. صعدَ الإصبع الصَّغير بسرعة السَّهم، وفي غضون ثلاث سنواتٍ من مجيئه إلى البلاط، أصبحَ أمين النَّقد وعضوًا في المجلس الصَّغير، واليوم تَبلُغ إيرادات التَّاج عشرة أضعاف ما كانت تحت إشراف سلفه... وإن تضاعفَت ديون التَّاج مرارًا كذلك. أستاذ حقيقي في الحواية پيتر بايلش هذا.

أوه، إنه ذكيٌّ حقًّا، فهو لا يجمع الذَّهب ويكتنزه ببساطةٍ في خزينة، لا،

بل يُسَدِّد ديون الملك وعودًا ويُشَغِّل الذَّهب، يشتري عربات ومحالًا وسُفنًا وبيوتًا، ويشتري الحبوب وقت وفرتها ويبيع الخُبز وقت شُحِّها، ويشتري الصُّوف من الشَّمال والكتَّان من الجَنوب والحرير من لِيس، ويُخَزِّن الأقمشة وينقلها ويَصبُغها ويبيعها؛ وهكذا توالدَت التَّنانين الذَّهبيَّة وتكاثرَت، ليُقرِضها الإصبع الصَّغير فتعود إليه وقد فقسَ مزيدٌ منها.

تضمَّن هذا أن ينقل رجاله إلى الأماكن المطلوبة، فحفَظة المفاتيح الأربعة رجاله، وعدَّاد وميزان الملك رجلان عيَّنهما بنفسه، وكذلك الموظَّفون المسؤولون عن دور سَكِّ العُملة الثَّلاث، وأمناء الميناء، ومأمورو الضَّرائب والجمارك، والصوَّافون والخمَّارون، وجُباة الرُّسوم، ومُحاسبو السُّفن— تسعة من كلِّ عشرةٍ ينتمون للإصبع الصَّغير، وهُم رجال تقليديُّون إجمالًا، أبناء تجَّار ولوردات ضئيلو الشَّأن، وأجانب أحيانًا كذلك، لكن النَّتائج التي يُقَدِّمونها تقول بوضوح إنهم أبرع كثيرًا من سابقيهم النُّبلاء.

لم يَخطُر لأحدٍ قَطّ أن يستجوبه عن هذه التَّعيينات، فما الدَّاعي؟ الإصبع الصَّغير لا يُشَكِّل تهديدًا لأحد، رجل ذكي باسم كريم، وصديق الجميع، ودومًا يتمكَّن من العثور على ما يحتاجه الملك أو يده من ذهب، ومع ذلك لا نسب مميَّزًا له على الإطلاق، ووضْعه قاب قوسين أو أعلى من مجرَّد فارسٍ متجوِّل، ما يجعله رجلًا لا خشية منه. إنه بلا راياتٍ يستدعيها، ولا جيشٍ من الأتباع، ولا معقلٍ عظيم، ولا أملاك تُذكَر، ولا احتمال لزيجةٍ من عائلةٍ ثريَّة.

لكن هل أجرؤ على المساس به؟ حتى إذا كان خائنًا؟ لم يكن واثقًا على الإطلاق باستطاعته ذلك، سيَّما الآن والحرب مضطرمة. مع الوقت يستطيع أن يستبدل رجاله برجال الإصبع الصَّغير في المواقع الأساسيَّة، لكن...

دوَّت صيحة من السَّاحة، فقال اللورد بايلش: «آه، جلالته قتلَ أرنبًا».

- «لا شَكَّ أنه أرنب بطيء. سيِّدي، أنت نشأت في ريفرزن، وسمعتُ أنك كنت قريبًا من آل تَلي».

- «يُمكنك أن تقول هذا، من الفتاتين بالتَّحديد».

- «وكم اقتربت؟».

- «فضضتُ بكارتهما. أهذا قريب بما فيه الكفاية؟».

أُلقيَت الكذبة (وتيريون واثق تمامًا بكونها كذبةً) بأسلوب مغرق في اللا مبالاة، لدرجة أنك تكاد تُصَدِّقها. أمن الممكن أن كاتلين ستارك هي الكاذبة؟ كذبَت بشأن بتوليَّتها والخنجر كذلك؟ كلما عاشَ تيريون أدركَ أن لا شيء بسيطًا والقليل جدًّا حقيقي. قال: «ابنتا اللورد هوستر لا تُكِنَّان لي حُبًّا، وأشكُّ في قبولهما الإصغاء لأيِّ عرضٍ مني، لكن إذا جاءَت الكلمات نفسها منك فقد تتقبَّلها آذانهما أكثر».

- «سيعتمد هذا على الكلمات نفسها. إذا كنت تنوي أن تعرض عليها سانزا مقابل أخيك، فأرجو أن تُضَيِّع وقت أحدٍ آخَر، فچوفري لن يتنازل عن لُعبته أبدًا، والليدي كاتلين ليست بالحمقاء كي تُقايِض قاتِل الملك بمجرَّد فتاة».

- «أعتزمُ أن أعثر على آريا كذلك، ولديَّ رجال يبحثون عنها».

- «البحث عن شيءٍ لا يعني العثور عليه».

- «سأتذكَّرُ هذا يا سيِّدي. على كلِّ حال، الليدي لايسا هي من آملُ أن تستميلها، فلديَّ لها عرض أفضل».

- «لايسا أسهل انقيادًا من كاتلين، هذا صحيح... لكنها مخيفة أكثر منها، وأعتقدُ أنها تكرهك».

- «لأنها تظنُّ أن لديها سببًا وجيهًا. عندما كنتُ ضيفها في «العُش»، أصرَّت أني قتلتُ زوجها، ولم ترغب في سماع إنكاري»، ومالَ تيريون إلى الأمام مضيفًا: «إذا أعطيتها قاتل چون آرن الحقيقي، فقد يتغيَّر رأيها فيَّ إلى الأحسن».

جعلَ قوله الإصبع الصَّغير يعتدل منتبهًا ويقول: «القاتل الحقيقي؟ أعترفُ بأنك أثرت فضولي. عمَّن تتكلَّم؟».

كان هذا دور تيريون ليبتسم، وقال: «الهدايا أعطيها لأصدقائي بلا مقابل، وعلى لايسا آرن أن تتفهَّم هذا».

- «أتبغي صداقتها أم سيوفها؟».

- «هذه وتلك».

ملَّس الإصبع الصَّغير على لحيته المشذَّبة بعناية، وقال: «لايسا لديها

نصيبها من المتاعب، رجال القبائل ينزلون من جبال القمر ويشنُّون الغارات، وأعدادهم أكبر من أيِّ وقتٍ سابق... وتسليحهم أفضل».

قال تيريون الذي سلَّحهم: «هذا مؤسف. يُمكنني أن أساعدها في ذلك الصَّدد. كلمة منيٍ...».

- «وماذا ستُكلِّفها هذه الكلمة؟».

- «أريدُ أن تُعلِن لايسا آرن وابنها أن چوفري الملك، وأن يُقسِما له على الولاء، و...».

قاطَعه الإصبع الصَّغير: «ويُعلِنا الحرب على آل ستارك وتَلي؟»، وهَزَّ رأسه قائلًا: «ها هو السُّم الذي في عسلك يا لانستر، فلايسا لن تُطلِق فُرسانها ضد ريڤررَن أبدًا».

- «ولن أطلب منها أن تفعل. إننا لا نُعاني نقصًا من الأعداء. سأستخدمُ قوَّتها لمواجَهة اللورد رنلي، أو اللورد ستانيس إذا أبحرَ من دراجونستون، وفي المقابل سأحقِّقُ لها العدالة لموت چون آرن والسَّلام في «الوادي»، بل وسأسمِّي طفلها الكريه هذا حاكمًا للشَّرق كما كان أبوه من قبله». في أغوار ذاكرته همسَ صوت وانٍ: أريدُ أن أراه يطير. «ولإقرار الصَّفقة، سأعطيها ابنة أختي».

سرَّه حقًّا أن يرى نظرة الدَّهشة الخالصة في عيني پيتر بايلش الخضراوين المشوَّبتين بالرَّمادي، وهو يقول: «مارسلا؟».

- «يُمكنها أن تتزوَّج روبرت الصَّغير عندما تَبلُغ، وحتى ذلك الحين ستكون ربيبة الليدي لايسا في «العُش»».

سألَه الإصبع الصَّغير: «وما رأي جلالة الملكة في تلك الحيلة؟»، وعندما اكتفى تيريون بهَزِّ كتفيه، انفجرَ ضاحكًا وقال: «كما حسبتُ. أنت رجل صغير خطِر يا لانستر. نعم، يُمكنني ترديد تلك الأغنيَّة على مسامع لايسا...»، ومرَّةً أخرى ارتسمَت الابتسامة الماكرة على وجهه ولاحَ الخُبث في نظرته وهو يختم عبارته: «... إذا وجدتُ نفسي راغبًا». أومأ تيريون برأسه وانتظرَ عالمًا أن الإصبع الصَّغير لا يحتمل الصَّمت طويلًا، وبالفعل أكملَ اللورد پيتر بَعد هنيهةٍ دون أن يبدو عليه أيُّ تأثُّر: «ماذا أنالُ من كلِّ هذا؟».

- «هارنهال».

كان من المثير أن يُراقِب وجهه لحظتها. أبو اللورد پيتر كان أصغر صغار اللوردات، وجدُّه فارسًا جوَّالًا بلا أرض أو أملاك، وبالوراثة لا يملك هو غير بضعة فدادين من الحجارة على ساحلِ «الأصابع» العاصف، بينما هارنهال واحدة من أثرى البقاع في الممالك السَّبع، أراضيها شاسعة وخصبة ومعطاءة، وقلعتها العظيمة مهيبة كأفضل قلاع البلاد... كما أنها ضخمة لدرجة تجعل ريڤررَن تتقزَّم أمامها، تلك القلعة التي نشأ فيها پيتر بايلش وسط عائلة تَلي، فقط ليُطرَد بفظاظةٍ عندما جرؤَ على أن يرفع عينيه إلى ابنة اللورد هوستر.

استغرقَ الإصبع الصَّغير لحظةً ليُعَدِّل حرملته على كتفيه، لكن تيريون رأى بريق الجوع في عيني القِطِّ الماكرتين، وحدَّث نفسه: إنه لي. قال اللورد پيتر بَعد لحظاتٍ متظاهرًا بالملل: «هارنهال ملعونة».

- «فلتَدُكَّها عن آخِرها إذن وتُشَيِّدها من جديدٍ كما يُناسِبك. ولن تفتقر إلى التَّمويل، لأني أنوي أن أجعلك اللورد وليَّ أمر الثَّالوث. لوردات النَّهر هؤلاء أثبتوا أنهم غير جديرين بالثِّقة. فليُقسِموا لك على الولاء إذن مقابل احتفاظهم بأراضيهم».

- «حتى عائلة تَلي؟».

- «إذا تبقَّى أحد منها عندما ننتهي».

بدا الإصبع الصَّغير كصبيٍّ استرقَ قضمةً من قُرص عسل. إنه يُحاوِل تجنُّب النَّحل، لكن ما ينتظره من رحيقٍ شديد العذوبة، ويجعله عاجزًا عن الصَّبر. قال متأمِّلًا: «هارنهال وكلُّ أراضيها ودخولها. بجرَّة ريشةٍ ستجعلني واحدًا من أعظم اللوردات في البلاد. لستُ ناكرًا للجميل يا سيِّدي... لكن لماذا؟».

- «لقد خدمت أختي بإخلاصٍ في مسألة الخلافة».

- «كما خدمَها چانوس سلينت، الذي أُسبِغَت عليه قلعة هارنهال ذاتها، فقط لتُنتزَع منه عندما انتهَت الحاجة إليه».

ضحكَ تيريون قائلًا: «مضطرٌّ أنا يا سيِّدي، ماذا يُمكنني أن أقول؟ إنني أحتاجك لتمنحني الليدي لايسا، ولم أحتج چانوس سلينت»، وهَزَّ كتفيه

المعوجَّتين مواصلًا: «أوثرُ أن تجلس أنت في هارنهال على أن يجلس رنلي على العرش الحديدي. ظننتُ هذا واضحًا».

- «حقًّا. إنك تُدرِك أني ربما أضطرُّ لأن أفترش لايسا ثانيةً كي تُوافِق على تلك الزِّيجة، أليس كذلك؟».

- «ليس لديَّ شَكٌّ في أنك أهل للمهمَّة».

قال الإصبع الصَّغير: «ذات مرَّةٍ قلتُ لند ستارك: إذا وجدت نفسك عاريًا مع امرأةٍ قبيحة، فخيارك الوحيد أن تُغمِض عينيك وتَفرُغ من الأمر»، وشبَّك أصابعه وحدَّق في عيني تيريون غير المتماثلتين، وأردف: «أعطني أسبوعين لأرتِّب أموري وأجد سفينةً تحملني إلى بلدة النَّوارس».

- «لا بأس على الإطلاق».

نهضَ ضيفه قائلًا: «صباح يسرُّ الأنفُس حقًّا يا لانستر، ومفيد... مفيد لكلينا بالتَّأكيد»، وانحنى ثم عمدَ إلى الباب بخطواتٍ واسعةٍ وحرملته تدور كدوَّامةٍ صفراء وراء ظَهره.

الثَّاني.

صعدَ تيريون إلى غُرفة نومه لينتظر ڤارس الذي سيظهر بَعد قليل، مع حلول المساء على حَدِّ تخمينه، أو ربما يتأخَّر حتى يطلع القمر، وإن تمنَّى ألَّا يَحدُث ذلك، فهو يأمل في زيارة شِاي اللَّيلة. المفاجأة السَّارَّة أن ساعةً واحدةً مرَّت، قبل أن يُعلِمه جالت رجل قبيلة الغِربان الحجريَّة بأن الرَّجل المعطَّر ينتظر على الباب.

قال الخصيُّ مؤنِّبًا بَعدما دخلَ: «رجل قاسٍ أنت كي تجعل المِايستر الأكبر يتحرَّق فضولًا هكذا. إنه لا يطيق الأسرار».

- «أأسمعُ غُدافًا يُعَيِّرُ الغُراب بلونه الأسود؟ أم أنك لا ترغب حقًّا في سماع ما عرضته على دوران مارتل؟».

قهقه ڤارس وقال: «ربما أخبرَتني به طيوري الصَّغيرة بالفعل».

أرادَ تيريون أن يسمع هذا، فقال: «حقًّا؟ قُل إذن».

- «الدورنيُّون ظلُّوا بمنأى عن تلك الحروب طيلة الوقت، فقط استدعى دوران مارتل راياته، لكن لا شيء أكثر من ذلك. كراهيته لعائلة لانستر

معروفة، ويعتقد السَّواد الأعظم من النَّاس أنه سينضمُّ إلى اللورد رنلي، وأنت تُريد إثناءه عن هذا».

- «كلُّ هذا واضح».

- «اللُّغز الوحيد هو ما عرضته عليه لقاء ولائه. الأمير رجل عاطفي، ولا يزال مفجوعًا في أخته إليا وطفلها الجميل».

- «قال لي أبي ذات مرَّةٍ إن اللورد الحق لا يسمح للعاطفة باعتراض طريق الطُّموح أبدًا... ويتصادَف أن لدينا مقعدًا شاغرًا في المجلس الصَّغير الآن، بَعد أن لبسَ اللورد چانوس الأسود».

قال ڤارس: «مقعد في المجلس شيء لا يُستهان به أ لكن هل سيكفي لأن يجعل رجلًا أبيًّا مِثله ينسى قتْل أخته؟».

ابتسمَ تيريون مجيبًا: «ولِمَ ينسى؟ لقد وعدته بأن أسلِّمه قتَلة أخته، أحياء أو موتى، كما يرغب... بَعد انتهاء الحرب بالتَّأكيد».

رمقَه ڤارس بنظرةٍ أريبة، وقال: «طيوري الصَّغيرة أخبرَتني أن الأميرة إليا صرخَت... صرخَت اسمًا معيَّنًا عندما تهجَّموا عليها».

- «أيبقى السِّرُّ سِرًّا إذا كان الكلُّ يعرفونه؟». معلوم في كاسترلي روك أن جريجور كليجاين قتلَ إليا وطفلها، ويقولون إنه اغتصبَ الأميرة ويداه ما زالتا ملطَّختين بدم ابنها وفُتات دماغه.

- «هذا السِّر يعني واحدًا من رجال السيِّد والدك المخلصين».

- «أبي سيكون أول من يقول لك إن خمسين ألفًا من الدورنيِّين يستحقُّون التَّضحية بكلبٍ مسعورٍ واحد».

ملَّس ڤارس على وجنته المغطَّاة بالمساحيق، وقال: «وإذا طالبَ الأمير دوران بدم اللورد الذي أعطى الأمر بالإضافة للفارس الذي نفَّذه؟».

- «روبرت باراثيون هو من قادَ الثَّورة، وجميع الأوامر أتَت منه في النِّهاية».

- «روبرت لم يكن في كينجز لاندنج».

- «ولا دوران مارتل».

- «إذن، الدَّم من أجل كبريائه، ومقعد في المجلس الصَّغير من أجل طموحاته، وذهب وأراضٍ بالطَّبع. عرض حُلو... لكن دَسَّ السُّم في الحُلو

وارد. لو كنتُ في مكان الأمير، لطلبتُ شيئًا آخَر قبل أن أمدَّ يدي إلى قُرص العسل، أمارةً ما على حُسنِ النِّيَّة، وسيلةً مضمونةً تحميني من الخيانة»، وابتسمَ ڤارس ابتسامته شديدة اللُّزوجة تلك، وأكملَ: «أيهما ستُعطيه يا تُرى؟».

تنهَّد تيريون وقال: «أنت تعرف، أليس كذلك؟».

- «ما دمت قلتها بهذه الطَّريقة، فبلى... إنه تومن، فلا يُمكنك أن تعرض مارسلا على لايسا آرن ودوران مارتل معًا».

- «ذكِّرني ألَّا أدخل في ألعاب التَّخمين هذه ثانيةً معك. إنك تغش».

- «الأمير تومن صبيٌّ طيِّب».

- «وإذا نأيتُ به عن سرسي وهو لا يزال صغيرًا، فلربما يَكبُر ليصير رجلًا صالحًا».

- «وملكًا صالحًا؟».

- «چوفري هو الملك».

- «وتومنِ هو الوريث إذا تعرَّض جلالته لأذًى ما، تومن الدَّمث العذب بطبيعته... والواضح أنه سهل الانقياد».

- «لديك عقل شكَّاك يا ڤارس».

- «سأعتبرُ هذا ثناءً يا سيِّدي. على كلِّ حال، لا شَكَّ أن الأمير دوران سيأخذ الشَّرف الذي تعرضه عليه بجدِّيَّة. لعبتها بمنتهى البراعة في الحقيقة... لولا أن هناك ثغرة واحدة».

ضحكَ تيريون وقال: «اسمها سرسي؟».

- «وهل تُغني شؤون البلاد وما فيها أمًّا عن حُبِّها لثمار رَحِمها النَّضرةِ؟ ربما، من أجل مجد عائلتها وأمان بلادها، من الممكن إقناع الملكة بالتخلِّي عن تومن أو مارسلا. لكن كليهما؟ لا أظنُّ».

- «ما لا تعرفه سرسي لن يَضُرَّني أبدًا».

- «وإذا اكتشفَت جلالتها مخطَّطاتك قبل أن تكتمل؟».

قال تيريون: «إذن سأعرفُ أن الرَّجل الذي أخبرَها عدوٌّ مؤكَّد لي»، ولمَّا قهقه ڤارس، قال في قرارة نفسه: الثَّالث.

سانزا

تعالي إلى أيكة الآلهة اللَّيلة إذا أردتِ العودة إلى ديارِك.

لم يختلف حرف واحد من الكلمات عندما قرأتها سانزا للمرَّة المئة عن أول مرَّة، عندما اكتشفَت الرَّقَّ المطويَّ تحت وسادتها. لا تعرف كيف وُضِعَت الرِّسالة هناك أو ممَّن جاءَت، بما أنها لا تتضمَّن توقيعًا أو ختمًا، كما أن خَطَّ يد كاتبها غير مألوف. ضمَّت الرَّقَّ إلى صدرها بشدَّة، وردَّدت الكلمات لنفسها همسًا: «تعالي إلى أيكة الآلهة اللَّيلة إذا أردتِ العودة إلى ديارِك»، وخرجَت منها تنهيدة شديدة الخفوت.

ما معنى هذا؟ أينبغي أن تأخذ الرِّسالة إلى الملكة، لتُثبِت أنها تُحسِن التصرُّف؟ دلَّكت بطنها بعصبيَّة. كدمة الغضب الأرجوانيَّة التي خلَّفتها ضربة السير مرين استحالَت إلى لونٍ أصفر قبيح، لكن ما زالت تُؤلِمها. كانت قبضته مغطَّاة بقُفَّازٍ من الحلقات المعدنيَّة عندما ضربَها، لكن الغلطة غلطتها، وعليها أن تتعلَّم مواراة مشاعرها تحت السَّطح بصورةٍ أفضل، كي لا تُثير غضب چوفري. عندما علمَت أن العِفريت أرسلَ اللورد سلينت إلى «الجدار»، نسيَت نفسها واندفعَت تقول: «أتمنَّى أن ينال «الآخَرون» منه»، وبالطَّبع لم يرضَ الملك عن هذا.

تعالي إلى أيكة الآلهة اللَّيلة إذا أردتِ العودة إلى ديارِك.

لقد تضرَّعت سانزا للآلهة بكلِّ جوارحها. أمن الممكن إذن أن تكون هذه إجابتها؟ فارس حقيقي بعثَته لإنقاذها؟ من الجائز أنه أحد التَّوأمين ردواين،

أو اللورد بالون الجَسور... أو حتى بريك دونداريون، اللورد الشَّاب الذي فُتِنَت به صديقتها چين پوول، بشَعره الأحمر الذَّهبي وكوكبات النُّجوم على معطفه الأسود.

تعالي إلى أيكة الآلهة اللَّيلة إذا أردتِ العودة إلى ديارِك.

ماذا لو أنها دعابة قاسية من چوفري، كيوم أخذَها إلى الشُّرفات ليُريها رأس أبيها؟ أو لعلَّه شَرك خبيث بغية إثبات عدم إخلاصها. إذا ذهبَت إلى أيكة الآلهة، تُرى هل ستجد السير إلين پاين ينتظرها جالسًا بصمتٍ تحت شجرة القلوب، في يده «جَليد»، وعيناه الشَّاحبتان تترصَّدان مجيئها؟

تعالي إلى أيكة الآلهة اللَّيلة إذا أردتِ العودة إلى ديارِك.

عندما انفتحَ الباب، أسرعَت تدسُّ الرِّسالة تحت ملاءتها وجلسَت فوقها. كانت خادمتها، تلك الفتاة ذات الشَّعر البنِّي المتهدِّل، التي تُذَكِّرها بالفئران. سألَتها سانزا: «ماذا تُريدين؟».

- «هل ترغب سيِّدتي في حمَّام اللَّيلة؟».

- «أريدُ نارًا، إنني أشعرُ بالبرد». كانت ترتجف حقًّا على الرَّغم من حرارة اليوم.

- «كما تأمرين».

راقبَت سانزا الفتاة بنظراتٍ مرتابة. هل رأت الرِّسالة؟ أهي من وضعَتها تحت وسادتها؟ لم يبدُ هذا محتملًا، فالفتاة تلوح على ملامحها البلاهة، وليست شخصًا يُؤتمَن على توصيل رسالةٍ سرِّيَّة، لكن سانزا لا تعرفها حقًّا، فالملكة تُبَدِّل خادماتها كلَّ أسبوعين، لتضمن ألَّا تُصادِقها إحداهن.

عندما تأجَّجت النَّار في المستوقَد، شكرَت سانزا الفتاة باقتضابٍ وأمرَتها بالخروج، فأسرعَت تُطيع الأمير كعادتها، لكن سانزا قرَّرت أن في عينيها شيئًا ما خبيثًا. لا شَكَّ أنها تهرع الآن لإعطاء تقريرها للملكة، أو ربما ڤارس. إنها موقنة تمامًا من أن كلَّ خادماتها يتجسَّسن عليها.

بمجرَّد أن انفردَت بنفسها ألقَت الرِّسالة في اللَّهب، وشاهدَت ورق الرَّقوق يتجعَّد ويسودُّ. تعالي إلى أيكة الآلهة اللَّيلة إذا أردتِ العودة إلى

ديارِك. سارَت إلى نافذتها، وفي الأسفل رأت الفارس القصير الذي يرتدي دِرعًا شاحبةً كالقمر ومعطفًا أبيض ثقيلًا، ويذرع الجسر المتحرِّك. قدَّرت من طول قامته أنه لا يُمكن أن يكون غير السير پرستون جرينفيلد. كانت الملكة قد سمحَت لها بحرِّيَّة التِّجوال في القلعة، ومع ذلك سيُصِرُّ على معرفة وجهتها إذا غادرَت حصن ميجور في هذه السَّاعة من اللَّيل. ماذا تقول له؟ فجأةً أحسَّت بالسُّرور لأنها أحرقَت الرِّسالة.

خلعَت فستانها ودخلَت فِراشها، لكنها لم تنم. ألا يزال هناك؟ وكم سينتظر ؟ من القسوة أن تأتيها الرِّسالة دون إخبارها بأيِّ تفاصيل.

ودارَت الأفكار وطافَت في رأسها.

ليت لديها من يُخبِرها ماذا تفعل. إنها تفتقد السِّپتة موردن، وأكثر منها چين پوول أخلص صديقاتها. السِّپتة فقدَت رأسها مع الآخَرين، وجريرتها أنها كانت تخدم عائلة ستارك، أمَّا چين فلا تدري سانزا ماذا جرى لها، فقد اختفَت من مسكنها بَعد المذبحة، دون أن يأتي أحد على سيرتها ثانيةً. كانت تُحاوِل ألَّا تُفَكِّر فيمن ترَكوها كثيرًا، لكن الذِّكريات تأتي بلا دعوةٍ أحيانًا، وعندها يتعذَّر عليها أن تحبس دموعها. بين الحين والآخَر تفتقد سانزا أختها أيضًا. لا بُدَّ أن آريا في وينترفل الآن، تَرقُص وتحيك، وتلعب مع بران وريكون الصَّغير، بل وتركب إلى البلدة الشِّتويَّة إذا أرادَت. مسموح لسانزا بالرُّكوب أيضًا، لكن في السَّاحة فقط، ولذا سرعان ما أصابَها السَّأم من الدَّوران في دائرة بالحصان طول اليوم.

كانت يقِظةً تمامًا عندما سمعَت الصِّياح، الذي أتى من بعيدٍ في البداية ثم اقتربَ. ارتفعَت عقيرة كثيرين بالزَّعيق في آنٍ واحد، فلم تُمَيِّز الكلام، وكانت هناك خيول أيضًا، وأقدام تدقُّ الأرض، ومن يصيح بالأوامر. انسلَّت إلى نافذتها ورأت رجالًا يجرون على الأسوار، يحملون الحراب والمشاعل، فقالت لنفسها: عودي إلى فِراشِك. لا شأن لكِ بشيءٍ من هذا، إنها مجرَّد مشكلة جديدة في المدينة. معظم الكلام حول آبار القلعة هذه الأيام عن مشكلات المدينة، فالنَّاس يتزاحَمون وقد أتوا هاربين من الحرب، وكثيرون

لا سبيل لديهم للحياة غير أن يسرقوا ويَقتُلوا بعضهم بعضًا. عودي إلى الفِراش.

غير أن الفارس الأبيض كان قد اختفى عندما نظرَت، والجسر مُنزَل فوق الخندق الجاف، لكن بلا حراسة.

دارَت سانزا على عقبيها بلا تردُّدٍ وهرعَت إلى الصُّوان، وإذ ارتدَت ثيابها قالت نفسها: أوه، ماذا أفعلُ؟ هذا جنون. رأت أضواء مشاعل كثيرة على الأسوار الواقية. هل جاءَ ستانيس ورنلي أخيرًا للفتك بچوفري وأخْذ عرش أخيهما؟ كان الحُرَّاس ليرفعوا الجسر المتحرِّك في تلك الحالة، لقطْع حصن ميجور عن القلعة الخارجيَّة. ألقَت سانزا معطفًا رماديًّا بلا زينةٍ على كتفيها، والتقطَت السكِّين الذي تُقَطِّع به اللَّحم قائلةً لنفسها: إذا كان فخًّا، فخيرٌ لي أن أقتل نفسي بدلًا من تركهم يؤلمونني أكثر، وخبَّأت السِّلاح تحت معطفها.

مَرَّ طابور من المُبارِزين ذوي المعاطف الحمراء وهي تَخرُج متسلِّلةً إلى اللَّيل، فانتظرَت حتى ابتعدوا مسافةً كافيةً، قبل أن تنطلق كالسَّهم عبر الجسر المتحرِّك الخالي من الحراسة. في السَّاحة كان الرِّجال يربطون أحزمة سيوفهم ويُثبِّتون السُّروج على مِتان الخيول، ولمحَت سانزا السير پرستون بالقُرب من الاسطبلات مع ثلاثةٍ آخَرين من فُرسان الحَرس الملكي يُساعِدون چوفري على ارتداء دِرعه ومعاطفهم النَّاصعة تنسدل على ظهورهم. احتبسَت أنفاسها عندما رأت الملك، لكن من حُسن الحَظِّ أنه لم يرَها وهو يزعق طالبًا سيفه ونُشَّابيَّته[1].

تراجعَت الضَّجة مع توغُّلها أكثر في القلعة، وإن لم تقوَ على النَّظر خلفها خشية أن يكون چوفري يُراقِب... أو أسوأ، يتبعها. ارتفعَت السَّلالم الملتفَّة أمامها، وقد خطَّطتها شرائط من الضَّوء المتذبذب من النَّوافذ في الأعلى. كانت تلهث مع بلوغها قمَّة السَّلالم، فجرَت عبر صَفِّ أعمدةٍ تحفُّه الظِّلال، حيث ضغطَت جسدها في حائطٍ لتلتقط أنفاسها. عندما احتكَّ شيء ما بساقها

(1) النُّشَّابيَّة آلة حربيَّة قديمة، عبارة عن قوسٍ صغير يُستخدَم لإطلاق نوعٍ من السِّهام يُسَمَّى النُّشَّاب.

كادَت تثب خارج جِلدها رُعبًا، لكنه كان مجرَّد قِط، قِط أسود أشعث له أُذن واحدة، هَسَّ في وجهها ثم أسرعَ مبتعدًا.

عندما وصلت إلى أيكة الآلهة، كانت ضوضاء الفولاذ والحُلوق قد انحسرَت وخفتَت إلى حَدٍ كبير. شدَّت سانزا معطفها على جسدها أكثر، وتشمَّمت الهواء الغني بروائح أوراق الشَّجر والتُّربة قائلةً لنفسها: كانت ليدي لتُحِبَّ المكان هنا. ثمَّة شيء ما من الضَّراوة في أيكِ الآلهة كلها، وحتى هنا في قلب القلعة في قلب المدينة، يُمكنك أن تَشعُر بالآلهة القديمة تُراقِب بألف عينٍ خفيَّة.

كانت سانزا تُفضِّل آلهة أمِّها على آلهة أبيها، وأحبَّت التَّماثيل والصُّور المرسومة على الزُّجاج المطلي بالرَّصاص، وشذى البخور المشتعل، والسِّپتونات بأرديتهم وبلَّوراتهم، ولعب ألوان قوس قزح السِّحري على المذابح المرصَّعة بعِرق اللُّؤلؤ والجَزْع واللازورد، ومع ذلك لم تكن تستطيع أن تُنكِر أن أيكة الآلهة تحوي طاقةً ما أيضًا، خاصَّةً عندما يجنُّ اللَّيل. هكذا صلَّت للآلهة قائلةً: ساعديني، ابعثي لي صديقًا، فارسًا حَقًّا ينصُرني...

تحرَّكت من شجرةٍ إلى أخرى شاعرةً بخشونة اللِّحاء تحت أصابعها، واحتكَّت الأوراق بوجنتيها. هل جاءَت متأخِّرةً؟ إنه لن يأتي ويُغادِر بَعد فترةٍ قصيرة، أليس كذلك؟ وهل أتى أصلًا؟ هل تجرؤ على رفْع صوتها ومناداته؟ المكان صامت ساكن تمامًا هنا...

- «خشيتُ ألَّا تأتي يا صغيرتي».

التفتَت سانزا مسرعةً، وخرجَ رجل من بين الظِّلال، ثقيل الوزن ثخين العُنق، يمشي مترنِّحًا ويرتدي معطفًا داكنًا تُغَطِّي قلنسوته وجهه، لكن عندما مَسَّ خيط رفيع من نور القمر وجنته، تعرَّفته على الفور من بشرته المبقَّعة وشبكة الأوردة البارزة من أسفلها، وشهقَت شاعرةً بقلبها ينكسر: «سير دونتوس، أهو أنت؟».

- «نعم يا سيِّدتي». شمَّت رائحة النَّبيذ الكريهة في أنفاسه عندما دنا منها قائلًا: «أنا»، ومَدَّ يده صوبها.

تراجعَت سانزا قائلةً: «إياك!»، ودسَّت يدها في طيَّات معطفها حيث السكِّين المخبَّأ، وقالت: «ماذا... ماذا تُريد مني؟».

قال السير دونتوس: «أن أساعدكِ فقط كما ساعدتِني».

- «أنت سكران، أليس كذلك؟».

- «شربتُ كأسًا واحدةً فقط لأستجمع شَجاعتي. إذا أمسَكوا بي الآن، سيَسلُخون الجِلد عن ظَهري».

وماذا سيفعلون بي؟ وجدَت سانزا نفسها تُفَكِّر في ليدي من جديد. كانت تستطيع أن تشمَّ رائحة الكذب، وكانت لتفعلها الآن، لكنها ماتَت، قتلَها أبوها بسبب آريا.

سحبَت السكِّين وحملَته أمامها بكلتا يديها، فسألَها السير دونتوس: «هل ستطعنينني؟».

- «سأفعلُ. قُل لي مَن أرسلَك».

- «لا أحد يا سيِّدتي الجميلة، أقسمُ على هذا بشَرفي كفارس».

- «فارس؟». كان چوفري قد قضى ألَّا يعود فارسًا، بل يُصبِح مجرَّد مهرِّج، وأقلَّ منزلةً من فتى القمر كذلك. «لقد دعوتُ الآلهة أن تبعث فارسًا ينجدني، دعوتُ ودعوتُ، فلِمَ تُرسل لي مهرِّجًا عجوزًا سكِّيرًا؟».

- «أستحقُّ هذا، وإنما... أعرفُ أن ما سأقوله غريب، لكنني كنتُ مهرِّجًا طيلة سنيني وأنا فارس، والآن وقد أصبحتُ مهرِّجًا حقًّا، أعتقدُ... أعتقدُ أني قد أجد في نفسي القُدرة على أن أكون فارسًا من جديد يا سيِّدتي الجميلة، وكلُّ هذا بسببكِ... بسبب إحسانكِ وشَجاعتكِ. لقد أنقذتِني، ليس من چوفري فقط، بل من نفسي أيضًا»، وخفضَ صوته مردفًا: «المغنُّون يقولون إن مهرِّجًا آخَر كان أعظم الفُرسان على الإطلاق...».

همسَت وقد سرَت في جسدها رعدة: «فلوريان».

قال دونتوس بخنوعٍ وهو ينزل على رُكبتيه أمامها: «سيِّدتي الجميلة، سأكونُ لكِ فلوريان».

خفضَت سانزا السكِّين ببُطءٍ وقد دارَ رأسها كأنها سابحة في الهواء. هذا\

جنون، أن أأتمن هذا السِّكِّير على نفسي، لكن لو رفضتُ فهل ستُقَدِّم الفُرصة نفسها مجدَّدًا؟ «كيف... كيف ستفعلها؟ كيف ستُهَرِّبني؟».

رفعَ السير دونتوس وجهه إليها، وأجابَ: «الخروج بكِ من القلعة سيكون الجزء الأصعب، لكن بمجرَّد خروجكِ فثمَّة سُفن تأخذكِ إلى وطنكِ. أحتاجُ أن أجد المال وأُجري التَّرتيبات فحسب».

سألَته وهي تكاد لا تجرؤ على الأمل: «هل يُمكننا أن نذهب الآن؟».

- «اللَّيلة؟ لا يا سيِّدتي، أخشى أننا لا نستطيع. عليَّ أولًا أن أعثر على وسيلةٍ أكيدة لإخراجكِ من القلعة عندما يحين الوقت المناسب، ولن يتمَّ هذا بسهولةٍ أو سرعة، فهُم يُراقِبونني بدوري»، ولعقَ شفتيه بتوتُّرٍ وقال: «هلَّا أبعدتِ سكِّينكِ؟».

دسَّت سانزا السكِّين تحت معطفها، وقالت: «انهض يا سيِّدي».

قال السير دونتوس: «أشكركِ يا سيِّدتي الجميلة»، ونهضَ متثاقلًا ونفضَ أوراق الشَّجر والتُّراب عن رُكبتيه، ثم قال: «السيِّد والدكِ كان رجلًا حقيقيًّا لم تعرف البلاد له مثيلًا، لكني لم أحرِّك ساكنًا وتركتهم يَقتُلوه، لم أقل شيئًا أو أفعل شيئًا... ومع ذلك، عندما أرادَ چوفري أن يَقتُلني، تكلَّمتِ أنتِ. سيِّدتي، إنني لم أكن بطلًا قَطُّ، لا ردواين ولا باريستان الباسل، ولم أفز بأيِّ دورات ألعاب أو أحقِّق مجدًا في الحرب... لكني كنتُ فارسًا ذات يوم، وأنتِ ساعدتِني على تذكُّر ما يعنيه هذا. إن حياتي رخيصة، لكنها ملككِ»، وأراحَ السير دونتوس يده على جذع الشَّجرة الأبيض كثير العُقد، وتابعَ: «أقسمُ والآلهة أبوكِ تشهد أني سأعيدكِ إلى ديارِكِ».

لقد أقسمَ، أخذَ على نفسه عهدًا مقدَّسًا أمام الآلهة. «إذن... سأضعُ نفسي بين يديك أيها الفارس، لكن كيف أعرفُ عندما يحين وقت الرَّحيل؟ هل ستُرسِلِ لي رسالةً أخرى؟».

تطلَّع السير دونتوس حوله متوتِّرًا، وقال: «المخاطرة كبيرة. يجب أن تأتي إلى هنا، إلى أيكة الآلهة، كلما استطعتِ، فهنا أأمن مكان، أو المكان الوحيد الآمن بالأحرى، وليس مكانًا آخَر، لا مسكنك أو مسكني أو على السَّلالم أو

في السَّاحة، حتى لو بدا أننا وحدنا. الأحجار لها آذان في القلعة الحمراء، وهنا فقط يُمكننا أن نتكلَّم بحرِّيَّة».

- «هنا فقط، لن أنسى».

- «وإذا وجدتِ أني قاس أو ساخر أو لا مبالٍ في وجود الآخَرين، فسامحيني يا صغيرتي، فلديَّ دور ألعبه، ويجب أن تفعلي مِثلي. خطوة واحدة خاطئة وسيُزَيِّن رأسانا الأسوار كرأس أبيكِ من قبل».

أومأت سانزا قائلةً: «مفهوم».

- «يجب أن تكوني شُجاعةً وقويَّةً... وصبورةً، الصَّبر فوق كلِّ ما عداه».

قالت: «سأصبرُ، لكن... أرجوك... نفِّذ في أقرب وقتٍ ممكن. إنني خائفة...».

رَدَّ السير دونتوس مبتسمًا بشحوب: «وأنا كذلك. والآن يجب أن تذهبي قبل أن ينتبهوا لغيابكِ».

- «ألن تأتي معي؟».

- «الأفضل ألَّا نُرى معًا أبدًا».

أومأت سانزا ثانيةً، ثم ابتعدَت خطوةً، قبل أن تدور بحركةٍ متوتِّرة وتطبع قُبلةً ناعمةً على خدِّه وقد أغلقَت عينيها، وتهمس: «فارسي فلوريان، الآلهة أجابَت دُعائي».

هرعَت تقطع الممشى المجاور للنَّهر، ومرَّت بالمطبخ الصَّغير ثم من خلال فِناء الخنازير، وقد دفنَ صرير الخنازير في أقفاصها وقع خطواتها العَجول، بينما قالت لنفسها: الوطن، الوطن، سيأخذني إلى الوطن، سيحميني، فارسي فلوريان. كانت الأغاني التي تحكي عن فلوريان وچونكويل أثيرةً إليها عن الأخرى كلها. فلوريان أيضًا كان دميمًا، وإن لم يكن عجوزًا هكذا.

كانت تعدو عدوًا على السَّلالم الملتفَّة، عندما خرجَ رجل فجأةً من بابٍ غير مرئي، فارتطمَت به مباشرةً وفقدَت توازُنها، لكن أصابع من حديدٍ أطبقَت على معصمها قبل أن تَسقُط، وسمعَت صوتًا أجشَّ غليظًا يقول لها: «سقوط هذه الدَّرجات مميت أيتها الطَّائر الصَّغير. أتُريدين قتلنا معًا؟»، وأصدرَ ضحكةً خشنةً كصوت منشارٍ يحتكُّ بحجر، وأضافَ: «لعلَّ هذا ما تُريدينه».

كلب الصَّيد. قالت سانزا حاجبةً عينيها: «لا يا سيِّدي، مستحيل أن أفعل هذا»، لكنه كان قد رأى وجهها. حاولَت التملُّص قائلةً: «أرجوك، إنك تُؤلِمني».

- «وما الذي يجعل طائر جوف الصَّغير يجري على السَّلالم في هذه السَّاعة من اللَّيل؟»، وعندما لم تُحِر جوابًا هَزَّها قائلًا بحدَّة: «أين كنتِ؟».

أجابَت دون أن تَجسُر على الكذب: «في أ-أ-أيكة الآلهة يا سيِّدي... أصلِّي... أصلِّي من أجل أبي و... والملك، أصلِّي ألَّا يمسَّه أذى».

قال: «أتحسبينني سكرانًا لدرجة أن أصدِّق هذا؟»، وأطلقَ سراحها وهو يتمايَل بعض الشَّيء في وقفته، وشرائط من الضَّوء والظَّلام تَسقُط متوازيةً على وجهه المحروق البشع. «تكادي تبدين امرأةً... لديكِ الوجه والثَّديان، وقامتكِ تبدو أطول بعض الشَّيء كذلك... آه، لكنكِ ما زلتِ طائرًا صغيرًا مغفَّلًا، أليس كذلك؟ تُرَدِّدين كلَّ الأغاني التي علَّموكِ إياها... فلتُغَنِّي لي إذن، هيا، غنِّي لي، أغنيَّةً ما عن الفُرسان والحسناوات. تُحِبِّين الفُرسان، أليس كذلك؟».

كان يُخيفها حقًّا الآن، فأجابَت: «أحبُّ الفُرسان الحقيقيِّين يا سيِّدي».

- «الفُرسان الحقيقيِّين»، ردَّد ساخرًا. «وأنا لستُ سيِّدًا أكثر من كوني فارسًا. أيجب أن أضربكِ حتى تتذكَّري هذا؟»، وترنَّح كليجاين وكادَ يقع، فقال: «نبيذ كثير جدًّا بحَقِّ الآلهة. أتُحِبِّين النَّبيذ أيتها الطَّائر الصَّغير؟ النَّبيذ الحقيقي؟ إبريق من الأحمر المُر هو كلُّ ما يحتاجه الرَّجل، أو المرأة»، وضحك وهَزَّ رأسه متابعًا: «سكران كالكلاب عليَّ اللَّعنة. هلمِّي، يجب أن تعودي إلى قفصكِ أيتها الطَّائر الصَّغير، سأصحبكِ إلى هناك، أحافظُ على سلامتكِ من أجل الملك»، وأعطاها كلب الصَّيد دَفعةً رقيقةً أدهشَتها، وتبعَها نزولًا على السَّلالم، ولمَّا بلغا القاع كان قد لاذَ بصمتٍ مُطبِق كأنه نسيَ وجودها. عندما وصلا إلى حصن ميجور أثارَ ارتياعها أن ترى السير بوروس بلاونت يَحرُس الجسر الآن. استدارَت خوذته البيضاء العالية بجمودٍ على وقع خطواتهما، وجفلَت سانزا من نظرته. السير بوروس هو أسوأ فُرسان الحَرس الملكي طرًّا، رجل قبيح معتلُّ المزاج، كبير اللُّغد وعابس النَّظرات.

وضعَ كلب الصَّيد يده الثَّقيلة على كتفها قائلًا: «هذا الرَّجل ليس بالمخيف حقًّا يا فتاة. إذا رسمتِ شرائط على ضفدع، فلن يجعله هذا نمرًا».

رفعَ السير بوروس مقدِّمة خوذته قائلًا: «أيها الفارس، أين...».

- «سُحقًا لهذا اللَّقب القبيح يا بوروس، أنت الفارس وليس أنا. إنني كلب الملك، أتَذكُر؟».

- «الملك كان يبحث عن كلبه منذ فترة».

- «والكلب كان يَلغُ في شرابه. من المفترَض أن تَحرُسه أنت اللَّيلة أيها الفارس، أليس كذلك؟ أنت وإخوتي الآخَرون».

التفتَ السير بوروس إلى سانزا قائلًا: «ماذا تفعلين خارج مسكنكِ في هذه السَّاعة أيتها السيِّدة؟».

- «ذهبتُ إلى أيكة الآلهة لأصلِّي من أجل الملك». بدَت الكذبة أفضل على مسامعها هذه المرَّة، تكاد تكون صِدقًا.

قال كليجاين: «أتتوقَّع أن تستطيع الفتاة النَّوم مع كلِّ هذا الضَّجيج؟ ماذا حدثَ؟».

أجابَ بوروس: «بعض الحمقى على البوَّابة. ثمَّة ألسنة فالِتة نشرَت حكاياتٍ عن الاستعدادات لمأدبة زفاف تايرك لانستر، واعتقدَ هؤلاء المأفونون بشكلٍ ما أن من الواجب أن تُقام لهم مأدبة بدورهم، فقادَ جلالته فِرقةً وجعلَهم يُوَلُّون الأدبار».

قال كليجاين وفمه يرتعش: «صبيٌّ شجاع».

سنرى شَجاعته الحقيقيّة عندما يُواجِه أخي. اصطحبَها كلب الصَّيد عبر الجسر المتحرِّك، وبينما صعدا الدَّرجات إلى مسكنها قالت له: «لماذا تسمح لهم بمُناداتك بالكلب؟ إنك لا تسمح لأحدٍ بأن يدعوك بالفارس».

- «أحبُّ الكلاب أكثر من الفُرسان. أبو أبِي كان قيِّم الوَجار في «الصَّخرة»، وفي عام خريفي اعترضَ اللورد تايتوس الطَّريق بين لبؤةٍ وفريستها، ولم تُبالِ اللَّبؤة مقْدار قطعة خراء بأنها رمز عائلة لانستر. أنشبَت اللَّعينة أنيابها ومخالبها في حصان سيِّدي، وكانت لتُمَزِّق الرَّجل إربًا كذلك، لولا أن جدِّي جاءَ ومعه كلاب الصَّيد. ماتَ ثلاثة من الكلاب وهُم يُحاوِلون طردها، وفقدَ جدِّي

ساقًا، فدفعَ له لانستر ثَمنها أرضًا ومنزلًا ذا بُرج، وأخذَ أبي مُرافِقًا له. الكلاب الثَّلاثة على رايتنا هي الكلاب التي ماتَت وسط أصفر عُشب الخريف. كلب الصَّيد سيموت من أجلكِ، لكن لن يكذب عليكِ أبدًا، وسيَنظُر في وجهكِ مباشرةً»، وأمسكَ وجهها من تحت الفَكِّ رافعًا ذقنها، لتقرصها أصابعه على نحو مؤلم، وقال: «وهذا أكثر مما تستطيع الطُّيور الصَّغيرة أن تفعله، أليس كذلك؟ لم أحصل على أغنيَّتي بعدُ».

- «أعرفُ... أعرفُ واحدةً عن فلوريان وچونكويل».

- «فلوريان وچونكويل؟ مهرِّج وساقطته! اعفيني. لكن ذات يومٍ سأنالُ منكِ أغنيَّةً، شئتِ أم أبيتِ».

- «سيُسعِدني أن أغنِّيها لك».

أطلقَ ساندور كليجاين نخيرًا، وقال متهكِّمًا: «جميلة أنت، وخائبة جدًّا في الكذب. الكلاب تشمُّ رائحة الكذب كما تعرفين، فانظُري حولكِ واستنشِقي جيِّدًا. كلهم كذَّابون هنا... وكلهم أبرع منكِ».

آريا

عندما تسلَّقت حتى بلغَت أعلى الغُصون، رأت آريا المداخن بارزةً من بين قمم الأشجار، وقد احتشدَت البيوت المسقوفة بالقَشِّ بطول شاطئ البحيرة والنُّهير الصَّغير الذي يصبُّ فيها، بينما يمتدُّ رصيف خشبي في الماء بمحاذاة مبنى طويل واطئ ذي سقفٍ مكسو بألواح الأردواز. زحفَت إلى الخارج أكثر حتى بدأ الغُصن يرتخي تحت ثقلها، لكنها لم ترَ قوارب مربوطةً بالرَّصيف، وإن لمحَت خيوطًا رفيعةً من الدُّخان تتصاعَد من إحدى المداخن، وجزءًا من عربةٍ يَبرُز من وراء اسطبل. قالت آريا لنفسها ماضغةً شفتها: أحدهم هناك. كلُّ الأماكن الأخرى التي صادفَتهم كانت خاويةً مهجورةً؛ المَزارع والقُرى والقلاع والسِّبتات والحظائر، لا فارق. إذا كان ثمَّة شيء قابل للاحتراق، فرجال لانستر أحرَقوه، وإذا كان قابلًا للموت قتَلوه، حتى إنهم أضرَموا النَّار في الغابات حيثما استطاعوا، وإن كانت أوراق الشَّجر لا تزال خضراء مبتلَّةً إثر الأمطار الأخيرة، فلم تنتشر النِّيران. قال لها جندري: «كانوا ليُحرِقون البحيرة نفسها إذا استطاعوا»، وعرفَت آريا أنه على حق. ليلة هروبهم توهَّج انعكاس اللَّهب الذي التهمَ البلدة التهامًا على صفحة الماء بشدَّة، حتى بدَت البحيرة مشتعلةً بالفعل.

عندما استطاعَت وجندري أخيرًا لملمة الشَّجاعة الكافية للتسلُّل إلى خرائب البلدة في اللَّيلة التَّالية، لم يَعثُرا على شيءٍ تبقَّى غير الحجارة المسودَّة وهياكل البيوت الجوفاء والجُثث، وفي بعض البقاع كان الدُّخان الباهت لا

يزال يتصاعَد من الرَّماد. قبلها توسَّل هوت پاي إليهما ألَّا يعودا، ونعتَهما لومي بالحُمق وأقسمَ أن السير آموري سيقبض عليهما ويَقتُلهما أيضًا، لكن لورك ورجاله كانوا قد رحَلوا بالفعل منذ فترةٍ طويلة عند وصول آريا وجندري إلى المعقل، حيث وجدا الأبواب محطَّمةً والأسوار متهدِّمةً إلى حَدٍّ كبير، بينما تناثرَت جثامين الأموات هنا وهناك. نظرة واحدة كانت تكفي جندري، فقال: «لقد قُتِلوا عن آخِرهم، والكلاب نالَت منهم كذلك، انظُر».

- «أو الذِّئاب».

- «كلاب أو ذئاب، لا فارق. كلُّ شيءٍ انتهى هنا».

لكن آريا رفضَت المغادَرة حتى يَعثُرا على يورن. قالت لنفسها إن من غير الممكن أنهم قتَلوه، إنه قويٌّ عنيد، وأخ في حَرس اللَّيل فضلًا عن ذلك، وردَّدت هذا على مسامع جندري وهما يبحثان بين الجُثث.

ضربة الفأس التي قتلَته قصمَت جمجمته شطرين، لكن اللِّحية المشعثة الكثَّة لا يُمكن أن تكون لأحدٍ آخَر، وكذلك الثِّياب المتَّسخة المرقَّعة التي لوَّحتها الشَّمس حتى أصبحَت رماديَّةً أكثر من سوداء. لم يُبالِ السير آموري لورك بدفن موتاه أكثر مما فعلَ بالذين قتلَهم، فقد تكوَّمت جُثث أربعةٍ من رجال لانستر بالقُرب من جثَّة يورن، وتساءلَت آريا عن العدد الذي تطلَّب إسقاطه في النِّهاية.

قالت لنفسها وهما يَحفُران قبرًا للعجوز: كان سيأخذني إلى الدِّيار. عدد الموتى كان أكبر من أن يستطيعا دفنهم جميعًا، لكن آريا أصرَّت أن يورن على الأقل يستحقُّ قبرًا. كان سيُعيدني إلى أمان وينترفل، هكذا وعدَني.

جزء منها أرادَ أن يبكي، والجزء الآخَر أرادَ أن يَركُله.

جندري هو من فكَّر في منزل لورد البلدة والثَّلاثة الذين أمرَهم يورن بالدِّفاع عنه. لقد تعرَّضوا للهجوم أيضًا، لكن البُرج المستدير له مدخل واحد، باب في الطَّابق الثَّاني لا يُمكن بلوغه إلَّا بسُلَّم، وبمجرَّد أن رُفِعَ السُّلَّم لم يستطِع رجال السير آموري النَّيل منهم. كان رجال لانستر قد كوَّموا شجيراتٍ صغيرة حولَ قاعدة البُرج وأشعَلوها، لكن الحجر قاومَ النَّار، ولورك لم يتمتَّع

بالصَّبر كي يُجَوِّع الثَّلاثة حتى يَخرُجوا. فتحَ كتچاك الباب مع نداء جندري، وعندما قال كورز إن من الأفضل أن يتقدَّموا شَمالًا بدلًا من العودة، تمسَّكت آريا بمُرتجى الرُّجوع إلى وينترفل على الرغم مما حدثَ.

حسنٌ، هذه القرية لا تُضاهي وينترفل قطعًا، لكن سقوف البيوت المغطَّاة بالقَشِّ تعدُ بالدِّفء والمأوى، وربما الطَّعام كذلك، إذا وجدوا الجرأة الكافية للتسلُّل إليها. ما لم يكن لورك هناك. إن لديه خيولًا، ولا بُدَّ أنه تحرَّك أسرع منا. راقبَت من مكمنها على الشَّجرة فترةً طويلةً على أمل أن ترى شيئًا، سواء أكان رجلًا أم حصانًا أم رايةً، شيئًا ما يُعينها على المعرفة. لمحَت حركةً بضع مرَّات، لكن المباني بعيدة وتجعل التأكُّد عصيًّا، لكنها سمعَت صهيل حصان بوضوح تام.

امتلأَ الهواء بالطُّيور، أغلبها غِربان بدَت من بعيدٍ بحجم الذُّباب وهي تُحَلِّق وتدور حول السُّقوف. إلى الشَّرق كان سطح «عين الآلهة» كلوحٍ أزرق ضخم طرَّقته الشَّمس ويملأ نِصف العالم. في بعض الأيام، إذ يقطعون دربهم البطيء على الشَّاطئ الموحل (فجندري رفضَ التحرُّك على أيِّ طريقٍ رئيس أيًّا كان، وحتى هوت پاي ولومي رأيا الصَّواب في هذا)، كانت آريا تحسُّ كأن البحيرة تُناديها، وتُريد أن تثب في تلك المياه الزَّرقاء الرَّائقة، أن تَشعُر بالنَّظافة مجدَّدًا وتسبح وتَنثُر الماء وتتشمَّس، لكنها لم تجرؤ على خلع ثيابها في وجود الآخَرين، ولا حتى لتغسلها. هكذا، في نهاية اليوم، كانت غالبًا ما تجلس على صخرةٍ وتُدَلِّي قدميها في المياه الباردة. لقد تخلَّصت أخيرًا من حذائها المشقَّق الذي تعفَّن جِلده، ومع أنها وجدَت السَّير حافية القدمين صعبًا في البداية، لكن البثور انفتحَت أخيرًا، وشُفيَت الجروح، واكتسى باطن قدميها بطبقةٍ جِلديَّةٍ سميكة. أحبَّت الشُّعور بالطَّمي بين أصابع قدميها، وبالتُّربة تحتها وهي تمشي.

من مكمنها العالي رأت جزيرةً صغيرةً غزيرة الأشجار تقع إلى الشَّمال الشَّرقي، بينما من بُعد ثلاثين ياردةً من الشَّاطئ كانت ثلاث بجعات سوداء تنزلق على الماء بمنتهى السَّكينة... لا أحد أخبرَها أن الحرب احتدمَت، وهي

لا تكترث بالبلدات المحروقة وأهاليها المذبوحين. حدَّقت فيها آريا بحنين، وجزء منها يرغب في أن تكون بجعةً، فيما يرغب الجزء الثَّاني في أن تأكل واحدةً، فقد أفطرَت على معجون جوز البلُّوط وحفنةٍ من الحشرات. ليست الحشرات بهذا السُّوء عندما تعتاد عليها، لكن الدُّود أسوأ، وإن لم يكن بسوء الجوع الذي يُشعِل بطنك وجعًا بَعد أيام بلا طعام؛ والعثور على الحشرات سهل، فكلُّ ما عليك أن تقلب صخرةً فقَط. أكلَت آريا حشرةً ذات مرَّةٍ في صِغرها، فقط لتُثير هلع سانزا، وهكذا لم تخشَ أن تأكل حشرةً أخرى. الفتاة الصَّغيرة لم تخشَ أكل الحشرات كذلك، لكن هوت پاي تقيَّأ الخُنفساء التي حاولَ أن يزدردها، ولومي وجندري رفضا التَّجربة أصلًا. بالأمس اصطادَ جندري ضفدعةً وتقاسَمها مع لومي، وقبلها ببضعة أيام وجدَ هوت پاي دغلًا من التُّوت الأسود فاقتطفَ كلَّ ما فيه من ثمار، لكنهم تعيَّشوا في الغالب على الماء والبلُّوط. أراهم كورز كيف يستخدمون صخرةً لعمل معجون الجوز، وكان مذاقه مريعًا.

تمنَّت لو أن لِصَّ الصَّيد لم يَمُت، إذ كان يعرف عن الغابات أكثر من بقيَّتهم مجتمعين، لكنه أُصيبَ بسهم في كتفه وهو يرفع سُلَّم البُرج. غطَّى تاربر الجرح بالطِّين والطَّحالب، وطَيلة يوم أو اثنين راح كورز يحلف إن الجرح لا يُزعِجه على الإطلاق، على الرغم من أن لون حَلقه استحالَ داكنًا وزحفَت انتفاخات حمراء غاضبة على فَكِّه وصدره. ثم جاءَ صباح خارَت فيه قُدرته على النُّهوض، وفي الصَّباح التَّالي فارقَ الحياة.

دفَنوه تحت كومةٍ من الحجارة، واستحوذَ كتچاك على سيفه وبوقه، بينما أخذَ تاربر قوسه وسكِّينه وحذاءه... ثم إنهما أخذا كلَّ شيءٍ عندما رحلا. في البدء ظَنَّ البقيَّة أنهما ذهبا للصَّيد وعمَّا قريب سيعودان ومعهما ما يُطعِمهم جميعًا، لكنهم انتظَروا وانتظَروا حتى جعلَهم جندري يتحرَّكون في النِّهاية. لعلَّ تاربر وكتچاك قرَّرا أن فُرصتهما أفضل دون أن يضطرَّا للعناية بمجموعةٍ من الصِّبية اليتامى. كانوا ليفعلون المِثل لو تبدَّلت الأدوار، لكن هذا لم يمنع آريا من كراهيتهما لتخلِّيهما عنهم.

بدأ هوت پاي ينبح تحت شجرتها كالكلاب. كان كورز قد قال لهم أن يستخدموا أصوات الحيوانات لتبادُل الإشارات فيما بينهم، مفسِّرًا أنها حيلة قديمة يُمارِسها لصوص الصَّيد، لكنه ماتَ قبل أن يُعَلِّمهم كيفيَّة إصدار الأصوات بشكلٍ سليم، ما جعلَ أصوات طيور هوت پاي شنيعةً، بينما صوت الكلب أفضل، وإن لم يكن كثيرًا.

وثبَت آريا من الغُصن العالي إلى آخَر أسفله وقد بسطَت يديها طلبًا للتَّوازُن. راقص المياه لا يَسقُط أبدًا! كوَّرت أصابع قدميها الرَّشيقتين حول الغُصن بإحكامٍ وسارَت بضعة أقدام، ثم وثبَت إلى فرعٍ أكبر، قبل أن تتأرجَح منه إلى غيره، وهكذا بين الأوراق المتشابكة، حتى بلغَت الجذع. كان اللِّحاء خشنًا تحت أصابع يديها وقدميها، لكنها نزلَت بسرعة، قافزةً الأقدام السِّتَّة الأخيرة التي تفصلها عن الأرض، لتتدحرَج فور أن حطَّت.

مَدَّ جندري يده يُساعِدها على النُّهوض قائلًا: «قضيت وقتًا طويلًا في الأعلى. ماذا رأيت؟».

- «قرية صيَّادين، مجرَّد مكان صغير شَمالًا على الشَّاطئ، ستَّة وعشرون من الأسقُف المغطَّاة بالقَشِّ وواحد بألواح الأردواز حسبما أحصيتُ. رأيتُ جزءًا من عربة، فلا بُدَّ أن أحدهم هناك».

خرجَت بنت عرس زاحفةً من بين الشُّجيرات على وقع صوتها. كان لومي قد أطلقَ عليها هذا اللَّقب لأنها تبدو كبنات عرس، وهذا ليس صحيحًا، لكنهم لا يستطيعون مناداتها بالفتاة الباكية بَعد أن كفَّت أخيرًا عن البكاء. رأت فمها متَّسخًا، فتمنَّت آريا أنها لم تكن تأكل الطِّين مرَّةً أخرى.

سألَها جندري: «هل رأيت ناسًا؟».

أجابَت: «أغلب ما رأيته سقوف، لكن الدُّخان يَخرُج من بعض المداخن، وسمعتُ صهيل حصان».

طوَّقت بنت عرس ساقي آريا بذراعيها وتمسَّكت بهما بشدَّة، كما أصبحَت تفعل أحيانًا، بينما قال هوت پاي بصوتٍ أعلى من اللَّازم: «ما دام هناك ناس

فهناك طعام». دائمًا يُنبِّهه جندري إلى التزام الهدوء، لكنه لا يتعلَّم أبدًا. «قد يُعطوننا شيئًا نأكله».

قال جندري: «وقد يَقتُلوننا أيضًا».

- «كأن لومي مَن يتكلَّم!».

جلسَ لومي أخضر اليد مستندًا إلى جذع شجرة بلُّوط بين اثنين من جذورها الغليظة. كان رُمح قد اخترقَ رَبلة ساقه اليُسرى أثناء القتال في المعقل، ومع نهاية اليوم التَّالي أصبحَ من الضَّروري أن يمشي على ساقٍ واحدة وقد وضعَ ذراعه حول جندري، لكن حتى ذلك لم يَعُد قادرًا عليه الآن. قطعوا فروع أشجار وصنعوا منها محفَّةً، وإن اتَّضح أن حمله عمل بطيء وينطوي على الكثير من المشقَّة، كما أنه يئنُّ كلما ارتجَّت به المحفَّة. قال لهم: «كان يجب أن يستسلم، هذا ما كان ينبغي أن يفعله يورن، يفتح البوَّابات كما قالوا».

ضاقَت آريا ذرعًا بقول لومي مرارًا وتكرارًا بأن يورن كان ينبغي أن يستسلم، فهذا كلُّ ما يتكلَّم عنه وهُم يحملونه، هذا وساقه ومعدته الخالية.

قال هوت پاي: «قالوا ليورن أن يفتح البوَّابات، قالوا له باسم الملك، وعلى المرء أن يُطيع ما يأمرونه به باسم الملك. إنها غلطة العجوز كريه الرَّائحة، لو أنه استسلمَ لتركونا وشأننا».

قطَّب جندري وجهه قائلًا: «الفُرسان وصغار اللوردات يأسرون بعضهم بعضًا ويدفعون فديةً، لكنهم لا يُبالون باستسلام أمثالك من عدمه»، ثم التفتَ مخاطبًا آريا: «ماذا رأيت غير ذلك؟».

لكن هوت پاي هو من رَدَّ: «إنها قرية صيَّادين، فأراهنُ أن لديهم سمكًا يبيعوننا إياه». البحيرة زاخرة بأنواع طيِّبة من الأسماك حقًّا، لكنهم لا يملكون شيئًا يصيدونها به، وقد حاولَت آريا استخدام يديها، كما رأت كوس يفعل، إلَّا أن السَّمك أسرع من الحمام، والمياه خدَّاعة لعينيها.

قالت آريا وهي تشدُّ شَعر بنت عرس الملبَّد، مفكِّرةً أن من الأفضل أن يُقَصَّ: «لا أدري إن كانت هناك أسماك حقًّا، فهناك غِربان عند الماء. شيء ما ميت هناك».

قال هوت پاي: «إنها أسماك جرفَها التيّار إلى الشّاطئ. إذا كانت الغِربان تأكلها، فيمكننا أن نأكلها أيضًا».

قال لومي: «يُمكننا أن نصطاد بعض الغِربان ونأكلها، نوقد نارًا ونشويها كالدَّجاج».

رَدَّ جندري وقد بدَت عليه الشَّراسة كعادته عندما يعبس، خصوصًا أن لحيته صارَت كثَّةً حالكة السَّواد: «قلتُ لن نُشعِل نارًا».

قال هوت پاي متأفِّفًا: «لومي جائع، وأنا أيضًا».

قالت آريا: «كلنا جائعون».

زعقَ لومي من مكانه على الأرض: «أنت لست جائعًا يا أنفاس الدِّيدان!».

أرادَت آريا أن تَركُله في جرحه، لكنها قالت: «قلتُ إنني سأجدُ دودًا لك أيضًا إذا أردت».

قال لومي باشمئزاز: «لولا ساقي لاصطدتُ لنا خنازير برِّيَّة».

علَّقت ساخرةً: «خنازير برِّيَّة! تحتاج رُمحًا خاصًّا لاصطياد خنزيرٍ برِّي، وخيولًا وكلابًا أيضًا، ورجال يستدرجون الحيوان من مخبأه». كان أبوها يصطاد الخنازير البرِّيَّة في غابة الذِّئاب مع روب وجون، وذات مرَّةٍ أخذوا بران معهم، لكن ليس آريا قَطُّ، على الرغم من أنها أكبر منه سِنًّا. قالت السِّپتة موردن إن الصَّيد ليس نشاطًا تُمارِسه ليدي، بينما وعدَت السيِّدة والدتها فقط بأنها قد تحظى بصقرٍ عندما تكبُر أكثر.

إنها أكبر الآن، لكن لو كان لديها صقر لالتهمَته التهامًا.

قال هوت پاي: «ما الذي تعلمه أنت عن صيد الخنازير البرِّيَّة؟».

- «أعلمُ أكثر منك».

لم يكن جندري في مزاجٍ يسمح بسماع هذا الجدل، فقال: «فليَصمُت كلاكما، أريدُ أن أفكِّر فيما نفعله». دائمًا ما يبدو كأنه يتألَّم وهو يُحاوِل التَّفكير، كأن التَّفكير موجع له حقًّا.

قال لومي: «نستسلم».

- «قلتُ لك أن تخرس بشأن الاستسلام. إننا لا نعرف مَن هناك حتى. قد نستطيع أن نسرق القليل من الطَّعام».

قال هوت پاي: «كان لومي ليسرقه لولا ساقه، فقد كان لِصًّا في المدينة».

ردَّت آريا: «لِصًّا سيِّئًا، وإلَّا لما قُبِضَ عليه».

رمقَ جندري الشَّمس مضيِّقًا عينيه، وقال: «المساء أفضل وقتٍ للتسلُّل. سأذهبُ للاستطلاع مع حلول الظَّلام».

قالت آريا: «كلا، سأذهبُ أنا، لأنك تُصدِر جلبةً عاليةً».

لاحَت النَّظرة الشَّرسة إياها في عيني جندري وهو يقول: «كلانا سيذهب إذن».

قال لومي: «يَحسُن أن يذهب آري، فهو يُجيد التسلُّل أكثر منك».

- «قلتُ إننا سنذهب معًا».

- «لكن ماذا لو لم تعودا؟ هوت پاي لا يقوى على حملي وحده، وأنت تعرف هذا...».

أضافَ هوت پاي: «وهناك ذئاب، سمعتها ليلة أمس أثناء نوبة حراستي، وبدا صوتها قريبًا».

آريا أيضًا سمعَتها. كانت نائمةً على فروع شجرة دردار، لكن العُواء أيقظَها، وجلسَت تُصغي له ساعةً كاملةً والوخز يزحف على عمودها الفقري.

قال هوت پاي: «كما أنك لا تسمح لنا بإشعال النَّار كي نُبعِدها عنا حتى. ليس عدلًا أن تَترُكنا للذِّئاب».

قال جندري بامتعاض: «لا أحد سيَترُككم. لومي معه رُمحه إذا هاجمَتكم الذِّئاب، وأنت معه. سوف نذهب ونُلقي نظرةً فقط ثم نعود».

متذمِّرًا قال لومي: «أيًّا كان الذين هناك، فعليكما الاستسلام لهم. أحتاجُ دواءً لساقي، إنها تُؤلِمني جدًّا».

رَدَّ جندري: «إذا رأينا دواءً للسِّيقان، سنأخذه. آري، هيا بنا. أريدُ أن أقترب من القرية قبل أن تنخفض الشَّمس. هوت پاي، أبقِ بنت عرس هنا، فلا أريدها أن تتبعنا».

- «المرَّة السَّابقة ركلَتني».

قال جندري: «وسأركلك أنا إذا لم تُبقِها هنا»، ودون أن ينتظر ردًّا اعتمرَ خوذته الفولاذيَّة وتحرَّك، واضطرَّت آريا للإسراع كي تُواكِبه، فجندري أكبر منها بخمسة أعوام وأطول منها بقدم كامل، وطويل السَّاقين كذلك. لم يَقُل شيئًا فترةً، واكتفى بالخوض بين الأشجار مُصدرًا الكثير من الضجَّة، وقد اعتلَت وجهه نظرة غاضبة، لكنه توقَّف أخيرًا وقال: «أظنُّ أن لومي سيموت».

لم تندهش، فكورز ماتَ بفِعل جرحه مع أنه كان أقوى كثيرًا من لومي. كلما جاءَ دور آريا للمساعَدة على حمله، شعرَت بدِفء بشرته وشمَّت الرَّائحة الكريهة المنبعثة من ساقه. قالت: «قد نستطيع أن نَعثُر على مِايستر...».

قال جندري: «المِايسترات لا يوجَدون إلَّا في القلاع، وحتى لو وجدنا واحدًا، فلن يُوَسِّخ يديه بأمثال لومي»، وطأطأ رأسه أسفل فرعِ شجرةٍ واطئ.

- «غير صحيح». إنها تعلم أن المِايستر لوين يُساعِد كلَّ من يأتيه طالبًا العون.

كرَّر: «سيموت، وخير لبقيَّتنا أن يموت سريعًا. يَجدُر بنا أن نَترُكه كما يقول. لو كان المصاب أحدنا لتركَه لا محالة»، ثم إنهما نزلا منحدرًا يُفضي إلى بُقعةٍ منخفضة وصعدا من الجانب الآخَر، قبل أن يُضيف جندري: «تعبتُ من حمله، وسئمتُ كلامه عن الاستسلام. لو كان يستطيع الوقوف لحطَّمت أسنانه. لومي عديم الفائدة، والفتاة الباكية كذلك».

قالت آريا: «دَع بنت عرس وشأنها، إنها خائفة وجائعة لا أكثر»، وتطلَّعت وراءها، لكن الفتاة لم تأتِ في أعقابها هذه المرَّة على الأقل. لا بُدَّ أن هوت پاي أمسكَها كما قال له جندري.

ردَّد جندري بعناد: «إنها عديمة الفائدة، هي وهوت پاي ولومي، كلهم يُعَرقِلون حركتنا، وسيتسبَّبون في مصرعنا. الشَّخص الوحيد ذو النَّفع الحقيقي في هذه المجموعة هو أنتِ... على الرغم من كونكِ بنتًا».

تجمَّدت آريا في مكانها، وقالت ضاغطةً كلماتها: «لستُ بنتًا!».

- «بل بنت. أتحسبينني غبيًّا مِثلهم؟».

- «لا، بل أغبى. حَرس اللَّيل لا يُجَنِّدون الفتيات، الكلُّ يعرف هذا».
- «هذا صحيح. لا أدري لِمَ أخذكِ يورن معه، لكن لا بُدَّ أنه كان لديه أسبابه. أنتِ بنت».
- «لا!».
- «أخرجي قضيبكِ إذن وتبوَّلي، هيا».
- «لا أَريدُ أن أتبوَّل، لكني سأفعلُ إذا أردتُ».
- «كاذبة. لا يُمكنكِ أن تُخرجي قضيبكِ لأنكِ لا تملكين واحدًا أصلًا. لم ألاحظ من قبل عندما كان عددنا ثلاثين، لكنكِ تَدخُلين الغابة دائمًا لتقضي حاجتكِ، ولا ترين هوت باي يفعل ذلك، ولا أنا. إذا لم تكوني فتاةً، فأنتِ خَصِي».
- «أنت الخَصي!».
قال جندري مبتسمًا: «تعرفين أني لستُ كذلك. أتريدين أن أُخرج قضيبي وأثبت لكِ؟ ليس لديَّ ما أخفيه».
ردَّت آريا في محاولةٍ يائسة للهرب من موضوع القضيب الذي لا تملكه: «بل لديك. عند الخان كان ذوو المعاطف الذَّهبيَّة يبحثون عنك، وتَرفُض إخبارنا بالسَّبب».
- «ليتني أعرفُ. أعتقدُ أن يورن كان يعرف، لكنه لم يُخبِرني بشيء. لماذا حسبتِ أنهم يبحثون عنكِ أنتِ؟».
عضَّت آريا شفتها متذكِّرةً ما قاله يورن يوم جَزَّ شَعرها: نِصف هؤلاء الشِّرذمة على استعدادٍ لتسليمكِ إلى الملكة في غمضة عين من أجل الحصول على عفو، ولربما بعض القِطع الفضِّيَّة كذلك، ونِصفهم الثَّاني سيفعل المِثل، لكن بعَدما يغتصبونكِ أولًا. الفارق أن جندري يختلف، بما أن الملكة تُريده أيضًا. هكذا قالت بحذر: «سأُخبرك إذا أخبرتَني».
- «كنتُ لأُخبِرك لو استطعتُ يا آري... أهذا اسمكِ الحقيقي أم أن لكِ اسم فتاةٍ فعليًّا؟».
أطرقَت آريا برأسها إلى جذر الشَّجرة كثير العُقد، وأدركَت أن التمثيليَّة

انتهَت. جندري يعرف، وليس في سراويلها ما يُقنِعه بالعكس. الآن إمَّا أن تستلَّ إبرتها وتَقتُله حيث يقف، أو تثق به، وهي غير متأكِّدة من قُدرتها على قتله، حتى لو حاولَت، فلديه سيفه هو الآخَر، كما أنه أقوى منها مرارًا. كلُّ ما تبقَّى هو الحقيقة، وهكذا قالت: «لا يُمكن أن يعرف لومي وهوت پاي».

- «لن يعرفا شيئًا مني».

رفعَت عينيها إليه قائلةً: «آريا. اسمي آريا، سليلة عائلة ستارك».

- «سليلة عائلة...». استغرقَ وهلةً قبل أن يقول: «يد الملك كان اسمه ستارك، ذلك الذي قتلوه لخيانته».

- «لم يكن خائنًا قَطُّ، وكان أبي».

اتَّسعت عينا جندري، وقال: «لهذا إذن حسبتِ...».

أومأَت برأسها إيجابًا، وقالت: «نعم. يورن كان سيأخذني إلى وينترفل».

- «أنا... أنتِ من علية القوم إذن... ستصيرين ليدي...».

تطلَّعت آريا إلى الأسمال التي ترتديها وقدميها الحافيتين اللتين تشقَّق جِلدهما وثخنَ، ورأت الأوساخ تحتِ أظفارها، والكشوط على مِرفقيها، والخدوش على يديها، وقالت لنفسها: أراهنُ أن السِّپتة موردن لم تكن لتتعرَّفني الآن. قد تتعرَّفني سانزا، لكنها ستتظاهَر بالعكس، ثم إنها قالت لجندري: «أمِّي هي الليدي، وأختي أيضًا، لكني لم أكن كذلك قَطُّ».

- «بل كنتِ، كنتِ ابنة لورد وعشتِ في قلعة، أليس كذلك؟ وأنتِ... لتُسامِحني الآلهة، إنني لم...»، وبدَت على جندري الحيرة فجأةً، وشيء من الخوف وهو يُكمِل: «كلُّ هذا الكلام عن القضبان، لم يكن ينبغي أن أقوله، وكنتُ أتبوَّلُ أمامكِ كذلك... اغفري لي يا سيِّدتي».

قالت آريا بصوتٍ كالفحيح: «كُفَّ عن هذا!». أيسخر منها؟

قال جندري بعناده الدَّائم: «إنني أعرفُ الأصول يا سيِّدتي. كلما جاءَت بنات علية القوم إلى الورشة مع آبائهن، كان سيِّدي يقول لي أن أركع وأتكلَّم فقط عندما يُوَجَّه لي كلام، وأخاطبهن بـ«سيِّدتي»».

- «إذا خاطبتني هكذا، حتى هوت پاي نفسه سيُلاحِظ، وخير لك أن تظلَّ تتبوَّل كما تفعل دائمًا».

- «كما تأمر سيِّدتي».

هوَت آريا بقبضتيها على صدره، فتعثَّر في حجرٍ وسقطَ على مؤخِّرته محدثًا صوتًا مكتومًا، وسألَها ضاحكًا: «أيُّ نوعٍ من بنات اللوردات أنتِ؟».

- «هذا النَّوع»، ردَّت راكلةً إياه في جانبه، لكن هذا جعلَه يضحك أكثر، فقالت له: «اضحك كما تشاء، أمَّا أنا فسأذهبُ لأرى مَن في القرية». كانت الشَّمس قد انخفضَت تحت مستوى الأشجار بالفعل، وسرعان ما يحلُّ الغَسق. هذه المرَّة كان جندري هو من أسرعَ وراءها، وسألَته: «أتشمُّ هذه الرَّائحة؟».

تشمَّم الهواء، ثم قال: «أسماك متعفِّنة؟».

- «تعرف أنها ليست كذلك».

- «يجب أن نتوخَّى الحذر. سأدورُ غربًا وأرى إن كان هناك طريق ما. لا بُدَّ أن هنالك واحدًا ما دمتِ رأيتِ عجلةً. خُذي الشَّاطئ، وإذا احتجتِ نجدةً، انبحي كالكلاب».

قالت: «هذا سُخف. إذا احتجتُ نجدةً، سأصيحُ: النَّجدة!»، وانطلقَت مبتعدةً دون أن تُصدِر قدماها الحافيتان صوتًا على العُشب، وعندما ألقَت نظرةً وراءها، كان جندري لا يزال يُراقِبها وعلى وجهه تعبير الألم الذي يعني أنه يُفكِّر. غالبًا يُفكِّر أنه لا ينبغي أن يترُك «سيِّدتي» تذهب لسرقة الطَّعام. إنها تعرف أنه سيتصرَّف بغباء الآن.

صارَت الرَّائحة أقوى مع اقترابها من القرية، وجعلَتها تُكوِّر أنفها باشمئزاز. كانت تختلف عن رائحة الأسماك المتعفِّنة، مُنتِنة وكريهة أكثر.

بدأت الأشجار تُصبِح أقلَّ كثافةً وتشابُكًا، فانسلَّت آريا بين الشُّجيرات الصَّغيرة النَّامية تحتها بهدوء الظِّلال، تتوقَّف كلَّ بضع ياردات لتُصيخ السَّمع، وفي المرَّة الثَّالثة سمعَت حصانًا وصوت رجلٍ كذلك، وساءَت الرَّائحة أكثر وأكثر. رائحة الموتى. لقد شمَّتها من قبل، مع يورن والآخَرين.

دغل كثيف من العُلَّيق كان ينمو جَنوب القرية، ومع صولها إليه كانت ظلال الغروب الطَّويلة قد بدأت تذوي بدورها، والحشرات المضيئة تَخرُج. رأت السُّقوف المغطَّاة بالقَشِّ من وراء سياج الشُّجيرات، فزحفَت حتى وجدَت ثغرةً مرَّت منها على بطنها متلويةً كالدِّيدان، وقد حرصَت على التَّواري حتى رأت مصدر الرَّائحة.

على ضفَّة «عينِ الآلهة»، التي تتكسَّر أمواجها الهادئة على الصُّخور بنعومة، نُصِبَ صَفٌّ طويل من المشانق المصنوعة من الخشب الأخضر الخام، ومنها تدلَّت أشياء كانت بَشرًا ذات يوم، الأقدام مقيَّدة بالسَّلاسل، بينما تقتات الغِربان على اللَّحم وتطير من جثَّةٍ إلى أخرى، ويحوم الذُّباب بالآلاف. عندما هبَّت الرِّيح من البحيرة، دارَت أقرب الجُثث إليها على سلسلتها بعض الشَّيء، ورأت آريا أن الغِربان أكلَت معظم الوجه، كما أن شيئًا آخَر نهشَ لحم الجسد كذلك، شيئًا أكبر حجمًا بكثير، فقد تمزَّقت الرَّقبة والصَّدر تمامًا، وتدلَّت الأمعاء الخضراء وشرائط من اللَّحم المتهتِّك من البطن المفتوح. كانت إحدى الذِّراعين مقتلَعة اقتلاعًا من الكتف، ولمحَت آريا العظام على بُعد بضعة أقدام، مقروضة ومهشَّمة، وعاريةً تمامًا من اللَّحم.

جعلَت نفسها تَنظُر إلى الرَّجل التَّالي، والذي يليه، والذي يليه، قائلةً لنفسها إنها بصلابة الحجر. كلها جُثث، وكلها منتهَك وبالٍ لدرجةٍ جعلَت آريا تستغرق فترةً حتى أدركَت أن أصحابها جُرِّدوا من ثيابهم تمامًا قبل أن يُشنَقوا. لكنهم لم يبدوا كأناسٍ عراة، بل كادوا لا يبدون أناسًا على الإطلاق. الغِربان أكلَت عيونهم، وأكلَت بعض وجوههم، ومن الجثَّة السَّادسة في الصَّفِّ لم يتبقَّ غير ساقٍ واحدة لا تزال عالقةً بالسِّلسلة، تتأرجَح مع كلِّ نسمة هواء.

ضربة الخوف أمضى من السَّيف.

الموتى لا يستطيعون مسَّها بأذى، لكن مَن قتَلوهم يقدرون. بعيدًا عن المشانق وقفَ رجلان يرتديان قميصين من الحلقات المعدنيَّة، ويستندان إلى رُمحين أمام المبنى الطَّويل الواطئ الذي يطلُّ على الماء، ذلك المسقوف بألواح الأردواز. أمام المبنى كانت ساريتان طويلتان مغروستين في الأرض

الموحلة، ومن كلٍّ منهما تتدلَّى راية، واحدة بدَت حمراء، والثَّانية ذات لونٍ فاتح أقرب إلى الأصفر أو الأبيض، لكن الاثنتين متهدِّلتان، ومع حلول الغَسق لا سبيل لآريا لأن تتأكَّد من أن الحمراء تحمل صبغة لانستر القرمزيَّة. ليس من الضَّروري أن أرى الأسد، فقد رأيتُ الموتى. مَن يُمكن أن يكون هؤلاء غير رجال لانستر؟

ثم إنها سمعَت صيحةً.

التفتَ حاملا الرِّماح، وظهرَ رجل ثالث يدفع أسيرًا أمامه. كان الظَّلام لا يسمح بتعرُّف الوجوه، لكن الأسير اعتمرَ خوذةً فولاذيَّةً لامعةً، وعندما أبصرَت آريا القرنين عرفَت أنه جندري. يا لك من أحمق أحمق أحمق أحمق! كانت لتَركُله ثانيةً لو كان معها الآن.

تكلَّم الحُرَّاس بصوتٍ عالٍ، لكنها كانت أبعد من أن تتبيَّن ما يقولون، بالذَّات والغِربان تنعب وتخفق بأجنحتها على مقربةٍ منها. اختطفَ أحد حاملي الرِّماح الخوذة من على رأس جندري وألقى عليه سؤالًا، لكن لا بُدَّ أن الإجابة لم تَرُقه، لأنه ضربَه على وجهه بكعب رُمحه وطرحَه أرضًا، وركلَه الرَّجل الذي قبضَ عليه، بينما جرَّب حامل الرِّماح الثَّاني ارتداء رأس الثَّور. بَعدها سحَبوه ليقف، وقادوه إلى المستودع؛ وعندما فتحوا الباب الخشبي الثَّقيل، اندفعَ ولد صغير إلى الخارج، لكن أحد الحُرَّاس أطبقَ على ذراعه وألقى به في الدَّاخل. سمعَت آريا نحيبًا قادمًا من المبنى، ثم دوَّت صرخة صاخبة ومفعمة بالألم جعلَتها تعضُّ شفتها.

دفعَ الحُرَّاس جندري إلى الدَّاخل وأوصَدوا الباب وراءهم، وحينها فقط هَبَّ النَّسيم يتنهَّد من البحيرة، وتحرَّكت الرَّايتان وارتفعتا. تلك التي على السَّارية الأطول تحمل الأسد الذَّهبي كما كانت آريا تخشى، وعلى الأخرى تعدو ثلاثة أشباح سوداء رشيقة على خلفيَّةٍ بصُفرة الزُّبد. كلاب. لقد رأت هذه الكلاب من قبل، لكن أين؟

لا يهمُّ... كلُّ المهمِّ الآن أنهم أسَروا جندري، وحتى إذا كان عنيدًا وأحمق، فعليها أن تُنقِذه. تساءلَت إن كانوا يعرفون أن الملكة تُريده.

خلعَ واحد من الحُرَّاس خوذته وارتدى خوذة جندري بدلًا منها، وأثارَ حنقها أن رأته يفعل هذا، وإن أدركَت أن ما بيدها حيلة. خُيِّلَ لها أنها سمعَت صراخًا كتمَته الحجارة من داخل المستودع الخالي من النَّوافذ، لكن التيقُّن عسير.

ظلَّت في مكمنها حتى رأت حُرَّاسًا جُددًا يحلُّون محلَّ الحاليِّين، ورأت أكثر من هذا، رجالًا يأتون ويذهبون، يقودون خيولهم إلى النُّهير لتشرب، وعادَت فرقة صيدٍ من الغابة ومعها جثَّة غزال معلَّقة من سارية. رأتهم يُنَظِّفونه وينزعون الأحشاء، ثم يُشعِلون نارًا للطَّهي على جانب النُّهير الآخَر، وامتزجَت رائحة الشِّواء برائحة العفن على نحوٍ غريب، فتهيَّجت معدتها الخالية حتى ظنَّت أنها ستتقيَّأ. جذبَت رائحة الطَّعام رجالًا آخَرين من البيوت، كلهم تقريبًا يرتدي قطعةً واقيةً أو أخرى الحلقات المعدنيَّة، أو الجِلد المقوَّى بالزَّيت المغلي، وعندما نضجَ الغزال أخذَ أحدهم أفضل قِطع اللَّحم إلى أحد البيوت.

خطرَ لها أنها تستطيع أن تدنو مستترةً بالظَّلام وتُحَرِّر جندري، لكن الحُرَّاس أوقَدوا مشاعل من نار الطَّهي، وأحضرَ مُرافِق فارس القليل من اللَّحم والخُبز للاثنين اللذين يَحرُسانِ المستودع، وفيما بَعد انضمَّ إليهما اثنان آخَران، وتقاسَموا جميعًا قِربةً من النَّبيذ، وعندما فرغَت القِربة غادرَا، لكن الحارسين ظلَّا مستندين إلى رُمحيهما.

شعرَت آريا بتيبُّسِ ساقيها وذراعيها عندما خرجَت متلويةً من الدَّغل إلى سواد الغابة. كانت ليلةً مظلمةً، والقمر ليس أكثر من شريطٍ رفيع يلوح من وراء السُّحب ويغيب. قالت لنفسها وهي تتحرَّك بين الأشجار: بصمت الظِّلال. لا تجرؤ على المجازَفة بالرَّكض في هذا الظَّلام، خشية أن تتعثَّر في جذرٍ لم تلحظه أو تضلَّ الطَّريق. إلى يسارها راحَت مياه «عين الآلهة» تتكسَّر بخفَّةٍ على الشَّاطئ، وإلى يمينها تنهَّدت الرِّيح بين الأغصان، فتحرَّكت الأوراق مصدرةً حفيفها.

ومن بعيدٍ تناهى إلى مسامعها عُواء الذِّئاب.

كادَ لومي وهوت پاي يتغوَّطا في ثيابهما عندما خرجَت من بين الأشجار

من ورائهما، فقالت لهما: «صمتًا»، ثم طوَّقت بنت عرس بذراعها عندما جاءَت الصَّغيرة تجري إليها.

سألَها لومي: «أين الثَّور؟».

أجابَت هامسةً: «أمسَكوه. يجب أن نُخرِجه من هناك، ويجب أن تُساعِدني يا هوت پاي. سنتسلَّل ونَقتُل الحارسين، ثم سأفتحُ الباب».

تبادلَ هوت پاي نظرةً مع لومي، ثم قال: «كم عددهم؟».

- «لم أستطِع أن أحصيهم، عشرون على الأقل، لكن اثنين فقط يَحرُسان الباب».

بدا هوت پاي على وشك الانفجار في البكاء وهو يقول: «لا يُمكننا أن نُقاتِل عشرينًا!».

- «عليك أن تُقاتِل واحدًا فقط، وسأتخلَّص أنا من الآخَر ونأخذ جندري ونهرب».

قال لومي: «يجب أن نستسلم، فقط نذهب إليهم ونستسلم»، ولمَّا هزَّت آريا رأسها نفيًا بعناد، قال: «لنَترُكه إذن. إنهم لا يعلمون بوجودنا. إذا اختبأنا سيُغادِرون، أنت تعرف هذا، ليست غلطتنا أنهم أمسَكوا جندري».

قالت آريا غاضبةً: «أنت أبله يا لومي، لأنك ستموت إذا لم نُحَرِّر جندري. مَن سيحملك؟».

- «أنت وهوت پاي».

- «طول الوقت وبلا مساعدةٍ من أحد؟ لن نقدر أبدًا. جندري هو القوي، وعلى كلِّ حالٍ لا أهتمُّ برأيك. سأعودُ إليه»، ونظرَت إلى هوت پاي قائلةً: «هل ستأتي؟».

نظرَ إلى لومي، ثم إلى آريا، ثم إلى لومي مجدَّدًا، قبل أن يقول على مضض: «سآتِ».

- «لومي، أبقِ بنت عرس هنا».

أمسكَ الفتاة من يدها وشدَّها إليه قائلًا: «وماذا لو جاءَت الذِّئاب؟».

- «استسلم».

بدا كأن شَقَّ طريق العودة إلى القرية استغرقَ منهما ساعات، إذ ظَلَّ هوت پاي يتعثَّر ويضلُّ طريقه، واضطرَّت آريا لانتظاره أو الذَّهاب إليه والعودة به عدَّة مرَّات، قبل أن تُمسِكه من يده أخيرًا وتقوده وسط الأشجار قائلةً: «الزم الهدوء واتبعني»، وعندما تبيَّنا نزرًا يسيرًا من وهج النَّار في القرية، قالت له: «هناك موتى مشنوقون على الجانب الآخَر من سياج الشُّجيرات، لكن لا يوجد ما يدعو للخوف، تذكَّر فقط أن ضربة الخوف أمضى من السَّيف، ويجب أن نتحرَّك بمنتهى الهدوء والبُطء». أومأ هوت پاي برأسه منصاعًا، فتلوَّت داخلةً الدَّغل أولًا وانتظرَته على الجانب الآخَر، وبَعد قليلٍ خرجَ شاحبًا يلهث وعلى وجهه وذراعيه خدوش طويلة. كان يوشك على أن يقول شيئًا، لكن آريا وضعَت إصبعها على فمه لتُخرِسه، ثم بدآ يزحفان على الأرجُل والأذرُع بطول المشانق تحت الموتى المتأرجحين، ولم يرفع هوت پاي عينيه إلى أعلى مرَّةً، أو يُصدِر صوتًا...

... حتى حَطَّ الغُراب على ظَهره، فأطلقَ شهقةً مكتومةً، كانت كافيةً لأن يُدَوِّي صوت بغتةً من الظَّلام: «مَن هناك؟».

وثبَ هوت پاي واقفًا وصاحَ: «أستسلمُ!»، وألقى سيفه بينما حلَّقت الغِربان المتذمِّرة صارخةً بالعشرات، ودارَت حول الجُثث. تمسَّكت آريا بساقه وحاولَت أن تسحبه إلى أسفل، لكنه تملَّص منها وهرعَ إلى الأمام ملوِّحًا بذراعيه ومردِّدًا: «أستسلمُ! أستسلمُ!».

وثبَت واقفةً بدورها واستلَّت إبرتها، لكن الرِّجال كانوا قد تحلَّقوا حولها بالفعل، وحاولَت آريا أن تهوي بضربةٍ على أحدهم، إلَّا أنه صدَّها بذراعٍ مدرَّعة بالفولاذ، وارتطمَ آخَر بها وطرحَها أرضًا، بينما انتزعَ ثالث السَّيف من قبضتها؛ وعندما حاولَت أن تعضَّ، أطبقَت أسنانها على حلقاتٍ معدنيَّة باردة متَّسخة، فقال الرَّجل ضاحكًا: «أوهو! يا للشَّراسة!»، قبل أن تكاد لكمة قبضته المغطَّاة بالحديد تخلع رأسها عن كتفيها.

تبادَلوا الكلام بينما ارتمَت هي تتألَّم على الأرض، لكن آريا لم تستوعب كلمةً من جرَّاء الرَّنين في أُذنيها، وعندما حاولَت الزَّحف مادَت بها الأرض.

لقد أخذوا «الإبرة». ما في هذا من عارٍ آلَمَها أكثر من الألم نفسه، والألم كان بالغًا حقًّا. چون أعطاها هذا السَّيف، وسيريو علَّمها كيف تستعمله.

أخيرًا قبضَ أحدهم على مقدِّمة سُترتها وجَرَّها جَرًّا لتركع على رُكبتيها. هوت پاي كان راكعًا أيضًا أمام أطول رجلٍ رأته آريا في حياتها على الإطلاق، وحش من قِصص العجوز نان القديمة. لم ترَ من أين جاءَ العملاق، لكن ثلاثة كلاب سوداء كانت تَركُض على معطفه الأصفر الباهت، وبدا وجهه صُلبًا كأنما قُدَّ من الصَّخر. تذكَّرت آريا فجأةً أين رأت تلك الكلاب من قبل. عشيَّة دورة المباريات في كينجز لاندنج، علَّق كلُّ الفُرسان تروسهم التي تحمل رموزهم خارج السُّرادقات، وقالت لها سانزا وهما تَمُرَّان بالكلاب السَّوداء على الخلفيَّة الصَّفراء: «هذا رمز شقيق كلب الصَّيد. إنه أكبر حجمًا من هودور، سترين، ويُلَقِّبونه بالجبل راكب الخيول».

تركَت آريا رأسها يتدلَّى على صدرها، غير واعيةٍ لِنصف ما يدور حولها. كان هوت پاي يُؤكِّد استسلامه، أمَّا الجبل فقال: «ستقودانا إلى الآخَرين»، ثم انصرفَ. بَعدها أحسَّت بنفسها تمشي متعثِّرةً إلى جوار الموتى المعلَّقين في المشانق، بينما قال هوت پاي لآسريهم إنه سيخبز لهم فطيرًا وكعكًا إذا لم يُؤذوه. ذهبَ معهما أربعة رجال، أحدهم يحمل مشعلًا، والثَّاني سيفًا طويلًا، والآخَران رُمحين.

كان لومي في مكانه تحت شجرة البلُّوط، وبمجرَّد أن رآهم صاحَ: «أستسلمُ!»، وألقى رُمحه بعيدًا، ورفعَ يديه الملطَّختين بأخضر الصِّباغة القديم. «أرجوكم، إنني أستسلمُ».

بحثَ حامل المشعل تحت الأشجار، ثم قال: «أأنت آخِرهم؟ الخبَّاز قال إن هناك فتاة».

قال لومي: «هربَت عندما سمعَتكم قادمين، فقد أصدرتم ضجَّةً عالية»، فقالت آريا في قرارة نفسها: اركُضي يا بنت عرس، اركُضي بأقصى لديكِ من سرعة، اهرُبي واختبئي ولا تعودي أبدًا.

- «قُل لنا أين نجد ابن العاهرة دونداريون ولك وجبة ساخنة».

قال لومي ببلاهة: «مَن؟».

- «قلتُ لكم إن هؤلاء لا يعرفون أكثر من أولاد الزَّواني الآخَرين في القرية، مجرَّد مضيعة للوقت».

دنا أحد حاملي الرِّماح من لومي قائلًا: «ماذا حدثَ لساقك يا ولد؟».

- «أصيبَت».

بدا الاهتمام في صوته وهو يسأله: «أتستطيع المشي؟».

أجاب لومي: «كلا، عليك أن تحملني».

قال الرَّجل: «أهذا رأيك؟»، ورفعَ رُمحه بلا اكتراثٍ وغرسَ رأسه في حَلق الصَّبي الرَّخو، فلم يجد لومي وقتًا لأن يستسلم من جديد، بل انتفضَ جسده مرَّةً، وهذا كلُّ شيء. ثم إن الرَّجل سحبَ رُمحه لتتفجَّر نافورة قانية من الدَّم، وهمهمَ لنفسه ضاحكًا: «عليَّ أن أحمله!».

تيريون

نصَحوه بأن يرتدي ثيابًا تُدَفِّئه جيِّدًا، وأذعنَ تيريون لانستر لنصيحتهم، فتدثَّر بسراويل مبطَّنة ثقيلة وصُدرةٍ من الصُّوف، وفوق كلِّ شيءٍ ارتدى المعطف المصنوع من فرو قِطِّ الظِّل الذي حصلَ عليه في جبال القمر. كان المعطف أطول من قامته كثيرًا، فهو مُفَصَّل لرجلٍ بضِعف قامته، والوسيلة الوحيدة لارتدائه عندما لا يكون راكبًا الحصان، أن يلفَّه حول جسده عدَّة مرَّات، ما يجعله يبدو ككرةٍ من الفرو المخطَّط.

على الرغم من ذلك سرَّه أنه أصغى للنَّصيحة، فالبرودة السَّائدة في السِّرداب الرَّطب الطَّويل تَنخُر العظام حقًّا، لدرجة أن تيميت قرَّر أن يعود أدراجه إلى القبو بَعد أن جرَّب النَّزر اليسير من البرد في الأسفل. كانوا في مكانٍ ما تحت تَلِّ رينس، وراء مقرِّ رابطة الخيميائيِّين. تلطَّخت الجدران الحجريَّة الرَّطبة بالنَّطرون، والضَّوء يأتي من مصدرٍ وحيد، هو مصباح الزَّيت المصنوع من الحديد والزُّجاج، الذي حملَه هالاين الپايرومانسر بمنتهى الحرص.

بمنتهى الحرص بالفعل... لا بديل مع تلك الجرار. رفعَ تيريون جرَّةً وتفحَّصها. كانت مستديرةً ضاربةً إلى الحُمرة، كحبَّةٍ ممتلئة من ليمون الجنَّة، لكن مصنوعة من الفخَّار، وكبيرة بعض الشَّيء على يده، لكنها تُناسِب راحة يد أيِّ رجلٍ عادي، وجدارها رقيق وشديد الهشاشة، حتى إنهم حذَّروه من اعتصارها بشدَّةٍ في قبضته، خشية أن تنكسر. وكان الفخَّار خشن الملمس

كذلك، كأن هناك حصى على سطحه، فقال له هالاين إن هذا مقصود، وأضافَ: «احتمال سقوط الجرَّة الملساء أكبر».

سالَت النَّار الشَّعواء ببُطءٍ نحو فوَّهة الجرَّة عندما أمالها تيريون ليَنظُر داخلها. يعرف أن اللَّون سيكون أخضر قاتمًا، لكن الضَّوء الضَّعيف جعلَ التأكُّد من هذا مستحيلًا. قال: «السَّائل ثخين القوام».

- «هذا بفِعل البرودة يا سيِّدي»، رَدَّ هالاين، الرَّجل الشَّاحب ذو اليدين النَّاعمتين الرَّطبتين والأسلوب المتزلِّف. كان يرتدي ثوبًا مخطَّطًا بالأسود والقرمزي، ومبطَّنًا بفرو السَّمُّور، لكن العثَّة تغذَّت على الفرو حتى اهترأ. «كلما صارَ الجَوُّ أكثر دفئًا، تزداد انسيابية المادَّة، كزيت المصابيح».

«المادَّة» هي المصطلح الذي يُطلِقه الپايرومانسرات على النَّار الشَّعواء، كما أنهم يدعون بعضهم بعضًا بـ«صاحِب الحكمة»، الشَّيء الذي وجده تيريون مثيرًا للضِّيق، تمامًا كديدنهم في التَّلميح إلى خزائنِ المعارف السرِّيَّة الهائلة التي لديهم، راغبين في أن يعتقد أنهم يملكونها حقًّا. كانت رابطتهم قويَّةً ذات يوم، لكن خلال القرون الأخيرة حَلَّ مِايسترات «القلعة» محلَّ الخيميائيِّين في كلِّ مكانٍ تقريبًا، والآن لم يتبقَّ سوى عدد قليل من قُدماء الرَّابطة، الذين كفُّوا عن التَّظاهر بأنهم يستطيعون تحويل النُّحاس إلى ذهب...

... لكنهم يستطيعون تصنيع النَّار الشَّعواء على الأقل.

- «قيلَ لي إن الماء لا يُخمِدها».

- «هذا صحيح. بمجرَّد أن تشتعل المادَّة، ستظلُّ تحترق حتى تفنى، والأهمُّ أنها تتخلَّل الأقمشة والأخشاب والجلود، وحتى الفولاذ، فتتأجَّج أكثر».

تذكَّر تيريون الرَّاهب الأحمر ثوروس المايري وسيفه النَّاري، الذي كان يطليه بطبقةٍ خفيفةٍ من النَّار الشَّعواء، تكفي لأن تشتعل ساعةً كاملةً. دائمًا ما كان ثوروس يحتاج سيفًا جديدًا بَعد انتهاء الالتحام الجماعي، لكن روبرت كان مولعًا بالرَّجل، وأسعدَه دائمًا تزويده بسيفٍ جديد. «ولماذا لا تتخلَّل الفخَّار أيضًا؟».

قال هالاين: «أوه، إنها تتخلَّله. ثمَّة سرداب آخَر أسفلِ هذا نُخَزِّن فيه الجرار الأقدم، من أيام الملك إيرس. كان يستهويه أن يُشَكِّل الفخَّار على شكل فواكه... فواكه شديدة الخطر بالفعل يا حضرة اليد، و... هممم، ناضجة جدًّا الآن، إذا كنت تفهم ما أعنيه. سددنا تلك الجرار بالشَّمع، وضخخنا الماء في السِّرداب السُّفلي حتى ملأه تمامًا، ومع ذلك... الحق أنه كان من الواجب أن تُدَمَّر، لكن الكثير من عُمدائنا قُتِلوا أثناء نهْب كينجز لاندنج، والتَّلامذة القلائل الذين بقيوا لم يكونوا أهلًا للمهمَّة، كما أن كثيرًا من المخزون الذي صُنِعَ لإيرس فُقِدَ، والعام الماضي فقط تَمَّ اكتشاف مئتي جرَّةٍ في مخزنٍ أسفل سِبت بيلور الكبير. لا أحد يتذكَّر كيف وُضِعَت هناك، لكن من نافلة القول أن أُخبِرك أن السِّپتون الأعلى أصيبَ بهلعٍ شديد. أشرفتُ بنفسي على نقلها بأسلوبٍ آمن، فملأتُ عربةً بالرَّمل، وكلَّفتُ أقدر تلامذتنا بعمليَّة النَّقل، وعملنا ليلًا فقط، و...».

قاطَعه تيريون: «... أبليتم بلاءً رائعًا بلا شَك»، ووضعَ الجرَّة التي يحملها في مكانها بين أقرانها، الذين غطَّوا الطَّاولة في صفوفٍ مرتَّبةٍ من أربع، وامتدُّوا حتى تواروا في عتمة ما تحت الأرض؛ وكانت هناك طاولة أخرى بَعدها، وأخرى، وأخرى. «هذه الـ... آه، الفواكه التي زُرِعَت للملك الرَّاحل إيرس، أما زال من الممكن استخدامها؟».

- «أوه، نعم، بكلِّ تأكيد... لكن بحذرٍ شديد يا سيِّدي، بمنتهى الحذر، فكلما تقدَّم بها العُمر، تُصبِح المادَّة، هممم، متقلقلة، ومن شأن أيِّ لهبٍ أن يُشعِلها، أيِّ مستصغَر شرر. الحرارة العالية تجعل الجرار تشتعل من تلقاء ذاتها كذلك، وليس من الحكمة أن تضعها في نور الشَّمس، ولو فترةً قصيرةً. بمجرَّد أن تتَّقد النَّار في الدَّاخل، تتسبَّب الحرارة في تمدُّد المادَّة بصورةٍ عنيفة، وسرعان ما تنفجر الجرار إلى شظايا، وإذا تصادفَ وجود جرارٍ أخرى مخزَّنة على مقربة، فستشتعل بدورها، ثم...».

- «كم جرَّةً لديكم حاليًّا؟».

- «هذا الصَّباح أخبرَني صاحِب الحكمة مونشر أن لدينا سبعة آلاف وثمانمئة وأربعين، ويضمُّ هذا أربعة آلاف جرَّةٍ من عهد الملك إيرس بالطَّبع».

- «فواكهنا النَّاضجة أكثر من اللَّازم؟».

أومأَ هالاين الپايرومانسر برأسه قائلًا: «صاحِب الحكمة ماليارد على ثقةٍ بأننا سنُنتِج العشرة آلاف جرَّة التي وعَدنا بها الملكة، وأنا أتَّفقُ معه»، وبدا أنه مسرور على نحوٍ غير لائق بتلك الفكرة.

بافتراض أن يمنحك أعداؤنا الوقت. يُحافِظ الپايرومانسرات على سرِّيَّة وصفة النَّار الشَّعواء، لكن تيريون يعلم أنها عمليَّة طويلة وخطرة وتستهلك الوقت. كان يحسب أن وعد العشرة آلاف جرَّة ما هو إلَّا زهو فارغ، كحامل رايةٍ يتعهَّد بحشد عشرة آلاف محارب لحضرة اللورد، ثم يظهر يوم المعركة ومعه مئة واثنان. إذا استطاعوا حقًّا أن يصنعوا عشرة آلاف...

لا يدري إن كان عليه أن يَشعُر بالسُّرور أم الرُّعب. القليل من هذا والقليل من ذاك ربما. «أفترضُ أن إخوانك في الرَّابطة لا يعملون بأيِّ عجلةٍ لا داعي لها يا صاحِب الحكمة، فلسنا نُريد عشرة آلاف جرَّة من النَّار الشَّعواء المعيوبة، ولا جرَّةً واحدةً حتى... وبكلِّ تأكيدٍ لا نرغب في وقوعِ أيِّ حوادث».

- «لن تقع أيُّ حوادث يا حضرة اليد، فالمادَّة تُحَضَّر على يد تلامذةٍ مدرَّبين، في مجموعةٍ من الحُجيرات الحجريَّة العارية، وكلُّ جرَّةٍ ينقلها رجل متمرِّس إلى هنا بمجرَّد أن تجهز؛ وفوق كلِّ حُجيرة عمل هناك حُجرة مملوءة بالكامل بالرَّمل، وتَمَّ إلقاء تعويذة واقية على الأرضيَّات، هممم، قويَّة للغاية. أيُّ حريقٍ في حُجيرة عمل يجعل السَّقف ينهار، فتُخمِد الرِّمال اللَّهب في الحال».

- «ناهيك بأنها ستدفن التِّلميذ الأرعن». خطرَ لتيريون أن هالاين يعني «حيلة بارعة» عندما يقول «تعويذة»، وفكَّر أنه يُريد أن يتفحَّص واحدةً من تلك الحُجيرات ذات السُّقوف الهشَّة، ليرى طريقة العمل، لكن الوقت غير مناسب. بَعدما يربحون الحرب ربما.

- «إخواني لا يتصرَّفون برعونةٍ أبدًا»، قال هالاين بإصرار، ثم أردفَ: «أرجو أن تسمح لي بأن أتكلَّم، هممم، بصراحة...».

- «أوه، تفضَّل».

- «المادَّة تسري في عروقي، وتعيش في قلب كلِّ پايرومانسر. إننا نحترم قوَّتها، لكن الجندي التَّقليدي، هممم، في طاقم واحدةٍ من نافثات لهب الملكة على سبيل المثال، في خضمِّ المعمعة حيث لا يوجد وقت للتَّفكير... من شأن أيِّ خطأ صغير أن يُفضي إلى كارثة، ولا يُمكن المبالَغة أبدًا في توكيد هذه الحقيقة. كثيرًا ما كان أبي يُرَدِّد هذا التَّحذير على مسامع الملك إيرس، تمامًا كما فعلَ أبوه مع الملك چهيرس من قبله».

قال تيريون: «لا بُدَّ أنهما أصغيا إذن. كان أحدهم ليُخبِرني لو أن المدينة احترقَت عن بكرة أبيها. نصيحتك إذن أن نتوخَّى الحذر؟».

أجابَ هالاين: «الحذر الشَّديد جدًّا، الشَّديد جدًّا جدًّا».

- «تلك الجرار الفخَّاريَّة، ألديكم مخزون كبير منها؟».

- «أجل يا سيِّدي، ونَشكُرك على السُّؤال».

- «لن تُمانِعوا أن آخذ بعضها إذن، بضعة آلاف».

- «بضعة آلاف؟».

- «أو أيًّا كان العدد الذي تستطيع رابطتكم الاستغناء عنه دون تعطيل الإنتاج. افهم أني أطلبُ جرارًا خاليةً. أريدك أن تُرسِلها إلى قادة الحَرس على كلٍّ من بوَّابات المدينة».

- «سأفعلُ يا سيِّدي، لكن لماذا؟».

رفعَ تيريون وجهه إليه مبتسمًا، وقال: «عندما تقول لي أن أرتدي ثيابًا ثقيلةً، أرتدي ثيابًا ثقيلةً، وعندما تقول لي أن أتوخَّى الحذر... لا داعي لأن أُكمِل»، وهَزَّ كتفيه وأعلنَ: «رأيتُ ما يكفي. هلَّا تفضَّلت باصطحابي إلى نقَّالتي؟».

قال هالاين: «من دواعي، هممم، سروري أن أفعل يا سيِّدي»، ورفعَ المصباح وقادَ الطَّريق المفضي إلى السَّلالم، وتابعَ: «تلطُّف بالغ منك أن تزورنا، شَرف عظيم، هممم، فقد مضى وقت طويل منذ مَنَّ يد الملك علينا

بحضوره، منذ أيام اللورد روسارت الذي كان ينتمي لرابطتنا. كان هذا في عهد الملك إيرس، الذي أبدى اهتمامًا عظيمًا بعملنا».

الملك إيرس استغلَّكم لشواء لحم أعدائه وهُم على قيد الحياة. لقد قَصَّ عليه أخوه چايمي بضع حكاياتٍ عن الملك المجنون وپايرومانسراته المدلَّلين. قال: «لا شَكَّ أن چوفري سيهتمُّ بدوره»، ولهذا ينبغي أن أُبعده عنك تمامًا.

- «أملنا عظيم في أن يزور جلالته مقرَّ الرَّابطة بذاته الملكيَّة. تكلَّمتُ عن هذا مع السيِّدة أختك، احتفال عظيم...».

قال تيريون شاعرًا بالجَوِّ يزداد دفئًا مع صعودهما: «جلالته منعَ كلَّ الاحتفالات حتى تضع الحرب أوزارها». بإصرارٍ مني. «الملك يرى أن من غير اللَّائق أن نستمتع بأفضل الأطعمة بينما لا يجد شعبه كسرة خُبز».

- «لفتة، هممم، في غاية العطف يا سيِّدي. ربما يُمكن لبعضنا بدلًا من هذا أن يزوروا الملك في القلعة الحمراء إذن، نُقَدِّم عرضًا صغيرًا لقُدراتنا، إذا جازَ التَّعبير، لإلهاء جلالته عن مشاغله الكثيرة مدَّة أمسيَّة. النَّار الشَّعواء ليست إلَّا سرًّا واحدًا من الأسرار الرَّهيبة التي تحتفظ بها رابطتنا العتيقة، ونستطيع أن نُريكم العجب العُجاب».

- «سأعرضُ الأمر على أختي». ليس لدى تيريون اعتراض على بضع حيلٍ سحريَّة، لكن ولع چوف بجعل الرِّجال يتقاتَلون حتى الموت بلاء في حَدِّ ذاته، يكفي ويزيد، وهو لا ينوي أن يسمح للصَّبي بتذوُّق ما تعدُ به احتمالات حرق النَّاس أحياء كذلك.

عندما بلغا قمَّة السَّلالم أخيرًا، خلعَ تيريون معطفه وطواه على ذراعه. مقرُّ رابطة الخيميائيِّين عبارة عن جُحرٍ مهيب من الحجارة السَّوداء، لكن هالاين قادَه عبر المنعطفات والمنحنيات حتى وصلا إلى دهليز المشاعل الحديديَّة، رواق طويل يرتدُّ صدى الصَّوت عن جُدرانه، وتَرقُص فيه ألسنة طويلة من النِّيران الخضراء وتتلوَّى حول أعمدةٍ معدنيَّةٍ سوداء ترتفع عشرين قدمًا؛ يومض اللَّهب الشَّبحي على رخام الجُدران والأرضيَّة الأسود المصقول،

ويُغرِق الدِّهليز ببريقٍ زمرُّدي. كان تيريون لينبهر بالعرض أكثر لو لم يعلم أن المشاعل الحديديَّة أوقِدَت هذا الصَّباح فقط على شَرف زيارته، وستُطفَأ لحظة أن يُغلَق الباب وراءه، فالتَّبذير في استخدام النَّار الشَّعواء يُكَلِّف الكثير.

خرجا على قمَّة الدَّرجات العريضة المنحنية التي تطلُّ على شارع الأخوات، بالقُرب من سفح تَلِّ ڤيزينيا، ثم ودَّع تيريون هالاين، وتوجَّه متمايلًا نحو تيميت بن تيميت الذي ينتظره مع فرقةٍ من الرِّجال المحروقين. مع وضع مهمَّته اليوم في الاعتبار، وجدَ أن اختيارهم لحراسته هو القرار الأصحُّ على الإطلاق، كما أن ندوبهم تُثير الخوف في قلوب صعاليك المدينة، وهذا مفيد جدًّا هذه الأيام، فقبل ثلاث ليالٍ فقط احتشدَت طغمة أخرى منهم عند بوَّابات القلعة الحمراء، تزعق طالبةً الطَّعام، فأطلقَ عليهم چوفري عاصفةً من السِّهام ليَقتُل أربعةً منهم، ثم صاحَ فيهم أن لديهم إذنه بأكل موتاهم. ليكسب لنا مزيدًا من الأصدقاء.

أدهشَ تيريون أن رأى برون واقفًا أيضًا إلى جوار المحفَّة، فسألَه: «ماذا تفعل هنا؟».

أجابَ برون: «أوصِّلُ رسائلك. چاسلين ذو القبضة الحديديَّة يُريدك لأمرٍ مُلِحٍّ عند بوَّابة الآلهة، ويَرفُض أن يقول السَّبب، كما أنك مُستدعى إلى حصن ميجور كذلك».

- «مُستدعى؟». يعرف تيريون أن شخصًا واحدًا فقط يتجرَّأ على استخدام تلك الكلمة، فقال: «وما الذي تُريده سرسي مني؟».

هَزَّ برون كتفيه، وقال: «الملكة تأمرك بالعودة إلى القلعة في الحال والمثول أمامها في مسكنها. ابن عمِّك إياه الذي يُقارب الرُّشد هو من وصَّل الرِّسالة. أربع شُعيرات فوق شفته ويحسب نفسه رجلًا».

- «أربع شُعيرات وفُروسيَّة. إنه السير لانسل الآن، لا تنسَ هذا أبدًا». فكَّر تيريون أن السير چاسلين لن يُرسِل في طلبه ما لم تكن المسألة ملحَّةً حقًّا، فقال: «الأفضل أن أرى ما يُريده بايووتر. بلِّغ أختي أني سأمثلُ أمامها بَعد عودتي».

قال برون منذرًا: «لن يروقها هذا».

- «جميل. كلما انتظرَت سرسي مدَّةً أطول توهَّج غضبها أكثر، والغضب يجعلها حمقاء، وأنا أوثرُ الغاضب الأحمق على رابط الجأش الأريب»، ثم ألقى تيريون معطفه المطوي داخل النقَّالة، وساعدَه تيميت على الصُّعود وراءه.

ميدان السُّوق الواقع داخل بوَّابة الآلهة، والذي يكتظُّ في الأوقات العاديَّة بالمُزارعين الذين يبيعون خضراواتهم، كان شِبه مهجورٍ عندما عبرَه تيريون، ثم قابَله السير چاسلين عند البوَّابة، ورفعَ يده الحديد بتحيَّةٍ جافَّة، وقال: «سيِّدي، كليوس فراي ابن عمِّك هنا، جاءَ من ريفرران تحت راية سلامٍ حاملًا رسالةً من روب ستارك».

- «شروط سلام؟».

- «هذا ما يقوله».

- «ابن عمِّي العزيز أرني إياه».

كان ذوو المعاطف الذَّهبيَّة قد احتجَزوا السير كليوس في غُرفة حراسةٍ بلا نوافذ في مبنى البوَّابة، وعندما دخَل تيريون وبايوود، نهضَ قائلًا: «تيريون، رؤيتك تسرُّني حقًّا».

- «لا أسمعُ من يقول لي هذا كثيرًا يا ابن العم».

- «هل أتَت سرسي معك؟».

قال تيريون: «أختي مشغولة بأمورٍ أخرى. أهذه رسالة ستارك؟»، واختطفَ الرَّقَّ من على الطَّاولة قائلًا: «سير چاسلين، يُمكنك أن تترُكنا الآن».

حنى بايوود رأسه وخرجَ، وقال السير كليوس بَعدما انغلقَ الباب: «طُلِبَ مني أن يُقَدَّم هذا العرض للملكة الوصيَّة على العرش».

قال تيريون: «هذا ما سأفعله»، وجاسَت عيناه في الخارطة التي أرفقَها روب ستارك بالرِّسالة، وأضافَ: «كلُّ شيءٍ في أوانه يا ابن العم. استرِح، فأنت تبدو هزيلًا مُضنى». كان كليوس يبدو أسوأ من هذا في الحقيقة.

قال كليوس وهو يُعاوِد الجلوس على الدِّكَّة: «نعم. الأوضاع سيِّئة في

أراضي النَّهر يا تيريون، حول «عين الآلهة» وعلى طريق الملوك بالذَّات. لوردات النَّهر يُحرقون محاصيلهم بأنفسهم كي يُجَوِّعونا، ومُغيرو أبيك يُشعِلون النَّار في كلِّ قريةٍ يأخذونها ويُقَتِّلون أهلها».

سَمْتُ الحرب أن يُذَبَّح العامَّة، بينما يُؤسَر النُّبلاء ويُطلَق سراحهم مقابل فدية. ذكِّرني أن أشكر الآلهة لأني وُلدتُ لانستر.

مرَّر السير كليوس يده في شَعره البنِّي الخفيف، وقال: «هوجِمنا مرَّتين على الرغم من راية السَّلام، ذئاب ترتدي الحديد، متعطِّشة لسَفك دم كلِّ مَن هُم أضعف منها. الآلهة وحدها تعلم أيُّ جانبٍ كانوا يُناصِرون في البداية، لكنهم في صَفِّ أنفسهم فقط الآن. فقدتُ ثلاثة رجال، وجُرِحَ ضِعف هذا العدد».

عادَ تيريون يصبُّ انتباهه على شروط ستارك، وسألَ: «ما أخبار عدوِّنا؟». الصَّبي لا يُريد الكثير، نصف البلاد فقط، وإطلاق سراح رجاله الأسرى، وبضع رهائن، وسيف أبيه... أوه، وأختيه طبعًا.

- «الصَّبي يتلكَّأ في ريفررَن. أعتقدُ أنه يخشى مواجَهة أبيك في ميدان المعركة، وقُواه تضعف كلَّ يوم، فقد رحلَ لوردات النَّهر، ليعتني كلٌّ منهم بأراضيه».

أهذا ما يهدف إليه أبي؟ طوى تيريون خريطة ستارك، وقال: «هذه الشُّروط لن تَصلُح أبدًا».

سألَه السير كليوس بأسى: «هل ستُوافِق على الأقل على مبادَلة ابنتي ستارك بتيون وويلم؟».

تذكَّر تيريون أن تيون فراي أخو كليوس الصَّغير، وقال برفق: «كلا، لكننا سنُقَدِّم عرضنا الخاص لتبادُل الأسرى. دعني أتشاوَر مع سرسي والمجلس، وسنُرسِلك إلى ريفررَن بشروطنا نحن».

من الواضح أن إمكانيَّة نجاح هذا لم تسرَّه، فقال: «سيِّدي، لا أعتقدُ أن روب ستارك سيُذعِن بسهولة. الليدي كاتلين هي الرَّاغبة في السَّلام، وليس الصَّبي».

قال تيريون: «الليدي كاتلين تُريد ابنتيها»، ثم نزلَ من على الدَّكَّة وفي يده الرِّسالة والخريطة، وأردفَ: «سيحرص السير چاسلين على تزويدك بالطَّعام ونارٍ للتَّدفئة. إنك تبدو في أمسِّ الحاجة إلى النَّوم يا ابن العم. سأرسلُ في طلبك عندما نعرف المزيد».

وجدَ السير چاسلين على الأسوار، يُراقِب عدَّة مئات من المجنَّدين الجُدد الذين يتدرَّبون في الحقل في الأسفل. كثيرون جدًّا يبحثون عن ملاذٍ في كينجز لاندنج، وبالتَّالي ليس هناك نقص في الرِّجال الرَّاغبين في الانضمام إلى حَرس المدينة، في سبيل معدةٍ ممتلئةٍ وسريرٍ من القَشِّ في الثُّكنات، لكن لم تكن لدى تيريون أوهام بخصوص براعة هؤلاء البائسين في الدِّفاع عن المدينة إذا شبَّت المعركة.

قال تيريون: «أحسنت التصرُّف عندما أرسلت إليَّ. سأتركُ السير كليوس بين يديك. أريده أن يُعامَل بكلِّ حفاوة».

سألَه قائد الحَرس: «وماذا عن الفرقة المصاحبة له؟».

- «أعطِهم طعامًا وثيابًا نظيفةً، واعثُر على مِايستر يُداوي إصاباتهم، لكن إياك أن يخطوا خطوةً واحدةً داخل المدينة، مفهوم؟». لن ينفعهم أبدًا أن تَبلُغ حقيقة الأوضاع في كينجز لاندنج روب ستارك في ريڤررَن.

- «مفهوم تمامًا يا سيِّدي».

- «أوه، وشيء آخَر. سيُرسِل الخيميائيُّون مخزونًا كبيرًا من الجرار الفخَّاريَّة إلى كلٍّ من بوَّابات المدينة، وستستخدمها لتدريب الرِّجال الذين سيعملون على نافثات اللَّهب. املأ الجرار بطلاءٍ أخضر ودرِّبهم على تلقيمها وإطلاقها. أيُّ رجلٍ يَنثُر قطرةً يجب استبداله في الحال، وعندما يتمرَّسون على التَّعامُل مع جرار الطِّلاء، استخدم زيت المصابيح، واجعلهم يتمرَّنون على إيقاد الجرار وإطلاقها وهي مشتعلة. بمجرَّد أن يتعلَّموا هذا دون أن يُحرِقوا أنفسهم، فربما يكونون مستعدِّين للنَّار الشَّعواء».

حَكَّ السير چاسلين خدَّه بيده الحديديَّة، وقال: «إجراءات حكيمة، وإن كنتُ لا أكنُّ حبًّا لبول الخيميائيِّين هذا».

- «ولا أنا، لكني أستغلُّ ما في متناوَلي».

عندما عادَ إلى نقَّالته، أغلقَ تيريون لانستر السَّتائر وطوى وسادةً تحت مِرفقه. سيُكَدِّر سرسي أن تعرف أنه اعترضَ سبيل رسالة ستارك، لكن أباه أرسلَه إلى هنا ليَحكُم، لا ليُرضي سرسي.

يبدو له أن روب ستارك أعطاهم فرصةً ذهبيَّةً. فليبقَ الصَّبي في ريڤررَن يَحلُم بسلام سهل. سيردُّ تيريون بشروطه الخاصَّة، ويُلَبِّي من مَطالب الملك في الشَّمال ما يكفي لأن يظلَّ متمسِّكًا بالأمل. دَع كليوس فراي يُبلي عجيزته على ظهور الخيول ذهابًا وإيابًا بالعروض والعروض المضادَّة، وبينما يدور كلُّ هذا سيستمرُّ السير ستافورد في تدريب وتسليح الجيش الجديد الذي حشدَه في كاسترلي روك، وبمجرَّد أن يستعدَّ، يُمكنه مع اللورد تايوين أن يسحقا آل تَلي وستارك معًا بينهما.

ألا ليت ستانيس ورنلي يكونان بهذا التَّعاوُن. على الرغم من تقدُّمه البطيء، فما زال رنلي باراثيون يزحف شَمالًا وشَرقًا بجيشٍ جَنوبيٍّ عرمرم، ولا تكاد ليلة تمرُّ دون أن يخشى تيريون أن يستيقظ على خبر دخول أسطول اللورد ستانيس النَّهر الأسود. طيِّب، يبدو أن لديَّ مخزونًا كبيرًا من النَّار الشَّعواء، ومع ذلك...

قاطعَ لغط في الشَّارع أفكاره القلقة، فألقى نظرةً حذرةً من بين السَّتائر. كانوا يقطعون ميدان الأساكفة، حيث تجمهرَ حشد كبير تحت مظلَّات النَّوافذ الجِلديَّة، ليُصغوا إلى نبيٍّ يتشدَّق بالكلام. هتفَ الرَّجل بصوتٍ مجلجِل: «الفساد! ها هي الآية! أبصِروا سَوط «الأب»!»، وأشارَ إلى الجرح الأحمر النَّازف في السَّماء. من هذا الموقع تلوح القلعة البعيدة على تَلِّ إجون العالي من ورائه مباشرةً، والمذنَّب معلَّق فوق أبراجها منذرًا بالويل، فقال تيريون لنفسه: اختيار ذكي للمسرح، بينما تابعَ الرَّجل: «لقد انتفَخنا، تورَّمنا، تعفَّنَّا. الأخ يُجامِع أخته في فِراش الملوك، ويتبختر نِتاج سِفاحهما في قصره على أنغام مزمار قردٍ شيطاني منحرف. والنَّبيلات عاليات المقام يزنين مع المهرِّجين ويُنجِبن وحوشًا! حتى السِّپتون الأعلى نفسه نسيَ الآلهة! يستحمُّ

بالماء المعطَّر ويسمن يومًا بَعد يوم بينما يتضوَّر ناسه جوعًا! العنجهيَّة تسبق خشوع الصَّلاة، والذُّود يَحكُم فيِ القلاع، والذَّهب كلُّ شيء... لكن ليس بَعد اليوم! انقضى الصَّيف العفِن، وسقطَ الملك زير النِّساء! عندما فتحَ الخنزير بطنه تصاعدَت رائحة مُنتِنة إلى السَّماوات، وخرجَت ألف حيَّةٍ من معدته، تهسُّ وتلدغ!»، ولوَّح بإصبعه الرَّفيع في اتِّجاه القلعة والمذنَّب ثانيةً، وواصلَ: «قد أتى النَّذير، والآلهة تصيح فيكم أن تُطَهِّروا أنفسكم وإلَّا تُطَهَّرون! تحمَّموا بخمر الاستقامة أو ستُحَمَّمون بالسَّعير! السَّعير!».

- «السَّعير!»، ردَّدت أصوات أخرى، لكن صيحات الاستهزاء والاستهجان أغرقَتها، ووجدَ تيريون في هذا شيئًا من العزاء. ألقى الأمر بمواصَلة التقدُّم، واهتزَّت النقَّالة كسفينةٍ في بحرٍ ثائرٍ والرِّجال المحروقون يُفسِحون الطَّريق. قرد شيطاني منحرف بالفعل. لدى المأفون حَقٌّ إزاء السِّپتون الأعلى. ما الذي قاله فتى القمر عنه منذ أيام؟ رجل بار يَعبُد «السَّبعة» بحماسةٍ شديدة، حتى إنه يأكل وجبةً لكلٍّ منهم كلما جلسَ إلى مائدة. رسمَت ذكرى مزحة المهرِّج ابتسامةً على شفتي تيريون.

سرَّه أنه بلغَ القلعة الحمراء دون أن يعترض طريقه شيء آخَر، وشعرَ وهو يصعد الدَّرجات إلى مسكنه بأملٍ أكبر مما كان لديه فَجر اليوم. الوقت هو كلُّ ما أحتاجه حقًّا، الوقت لوضْع كلِّ شيءٍ في مكانه. بمجرَّد أن تنتهي السِّلسلة...

فتحَ باب غُرفته الشَّمسيَّة، فالتفتَت سرسي عن النَّافذة وفُستانها يلتفُّ كدوَّامةٍ حول وَركيها النَّحيلين، وقالت غاضبةً: «كيف تجرؤ على تجاهُل استدعائي لك؟!».

- «من أدخَلكِ بُرجي؟».

- «بُرجك؟ هذه قلعة ابني الملكيَّة».

- «سمعتُ هذا». شعرَ تيريون بالاستياء، ولا بُدَّ أن كرون سيَشعُر باستياءٍ أكبر، فرجاله من إخوة القمر يتولَّون الحراسة اليوم. «كنتُ على وشك أن آتي إليكِ في الواقع».

- «حقًّا؟».

دفعَ الباب ليُغلِقه وراءه، وقال: «أترتابين في كلامي؟».

- «دائمًا، ولأسبابٍ وجيهة».

قال تيريون: «كلماتك تُؤلِم»، وسارَ متهاديًا إلى الخُوان ناشدًا كأسًا من النَّبيذ، فهو لا يعرف طريقةً للإصابة بالعطش الشَّديد أضمن من الكلام مع سرسي. «إذا كنتُ أسأتُ إليكِ بشكلٍ ما، فأريدُ أن أعرف كيف».

- «يا لك من دودةٍ حقيرة مُقرفة! مارسلا ابنتي الوحيدة. أكنت تتخيَّل حقًّا أني سأسمحُ لك ببيعها كجوالٍ من الدَّقيق؟».

مارسلا. عظيم، فقسَت البيضة إذن، لنرَ لون الفرخ. «ليست جوال دقيق على الإطلاق. مارسلا أميرة، وسيقول لك البعض إن هذا ما وُلِدَت لتكونه. أم أنكِ كنتِ تُخَطِّطين لتزويجها تومن؟».

اندفعَت يدها كالسَّوط ضاربةً كأس النَّبيذ من يده لتنسكِب على الأرض، وقالت: «حريٌّ بي أن أقطع لسانك لقولك هذا، سواء أكنت أخي أم لا. إنني الوصيَّة على چوفري، وليس أنت، وأقولُ إن مارسلا لن تُسَلَّم إلى ذلك الدورني كما سُلِّمتُ إلى روبرت باراثيون».

نفضَ تيريون النَّبيذ عن أصابعه، وتنهَّد قائلًا: «ولِمَ لا؟ في دورن ستكون في أمانٍ أكثر من هنا بكثير».

- «أأنت غِرٌّ ساذج أم مجرَّد منحرف؟ إنك تعلم مثلي تمامًا أن آل مارتل لا يُحِبُّوننا».

- «آل مارتل لديهم كلُّ الأسباب التي تحضُّهم على كراهيتنا، وعلى الرغم من ذلك أتوقَّعُ أن يقبلوا، فعداوة الأمير دوران لعائلة لانستر ترجع جيلًا واحدًا فقط، بينما حاربَ الدورنيُّون كلًّا من ستورمز إند وهايجاردن ألف سنة، ورنلي يعتبر ولاء دورن له أمرًا مسلَّمًا به. مارسلا في التَّاسعة، وتريستان مارتل في الحادية عشر، وقد عرضتُ أن يتزوَّجا عندما تَبلُغ الرَّابعة عشر، وحتى ذلك الحين ستنزل ضيفةً معزَّزةً مكرَّمةً في صنسپير، تحت حماية الأمير دوران».

قالت سرسي وفمها ينقبض: «تقصد رهينةً».

- «ضيفة معزَّزة مكرَّمة»، كرَّر تيريون بإصرار. «وأومنُ بأن مارتل سيُعامِل مارسلا بكياسةٍ أكبر مما عاملَ چوفري سانزا ستارك. أفكِّرُ في إرسال السير آريس أوكهارت معها أيضًا، فمع وجود فارسٍ من الحَرس الملكي كحارسٍ شخصيٍّ لها، لن ينسى أحد مَن أو ماذا تكون».

- «لن ينفعها السير أوكهارت كثيرًا إذا قرَّر دوران مارتل أن دم ابنتي سيُعَوِّضه عن دم أخته».

- «مارتل أشرف من أن يَقتلُ فتاةً في التَّاسعة، بالذَّات فتاة بريئة عذبة مِثل مارسلا. ما دامَت عنده، فسيظلُّ واثقًا إلى حَدٍّ كبير بالتزامنا بالاتِّفاق، وإغراء العرض أقوى من أن يَرفُضه. مارسلا أقلُّ ما في الأمر، لأني عرضتُ عليه أيضًا قاتِل أخته، ومقعدًا في المجلس، وبضع قلاع في تخوم دورن...».

قاطعَته سرسي وهي تبتعد عنه بتحفُّز اللَّبؤة وفُستانها يتموَّج: «كثير جدًّا، عرضت الكثير جدًّا، ودون موافَقتي أو موافَقة المجلس».

- «إننا نتكلَّم عن أمير دورن. لو عرضتُ أقلَّ من هذا لبصقَ في وجهي».

التفتَت إليه مسرعةً، وردَّدت: «كثير جدًّا!».

صاحَ تيريون وقد بدأت جذوة غضبه تتَّقد: «ما الذي كنتِ لتعرضينه عليه إذن؟ تلك الفُرجة بين ساقيكِ؟».

هذه المرَّة رأى الصَّفعة تهوي على وجهه، ودار عُنقه مصدرًا طقطقةً، فقال لها: «أختي الجميلة الغالية، إنها آخِر مرَّةٍ تضربينني، هذا وعد».

ضحكَت أخته قائلةً: «لا تُهَدِّدني أيها الصَّغير. أتحسب أن رسالة أبي تضمن لك الأمان؟ إنها مجرَّد قطعة ورق. إدارد ستارك كان يحمل قطعة ورقٍ أيضًا، فبِمَ نفعَته؟».

إدارد ستارك لم يكن يملك حَرس المدينة، ولا رجال القبائل، ولا المرتزِقة الذين استأجرَهم برون، أمَّا أنا فلديَّ كلُّ هؤلاء. أو أن هذا ما يأمله. الثِّقة بڤارس، والسير چاسلين بايووتر، وبرون... لا بُدَّ أن اللورد ستارك كانت لديه أوهامه أيضًا. على أنه لم يقل شيئًا، فالحكيم لا يصبُّ نارًا شعواء على مستوقَدٍ مشتعل، وبدلًا من هذا صَبَّ كأس نبيذٍ أخرى، وقال لسرسي:

«كم ستكون مارسلا آمنةً في رأيكِ إذا سقطَت كينجز لاندنج؟ سيُعَلِّق رنلي وستانيس رأسها على خازوقٍ إلى جوار رأسكِ».

وانهمرَت دموع سرسي.

لو أن إجون الفاتح نفسه اقتحمَ الغُرفة الآن على متن تنِّين وهو يُشَقلِب فطائر اللَّيمون في الهواء، لما ازدادَ الذُّهول الذي أصابَه في تلك اللَّحظة. إنه لم يرَ أخته تبكي منذ كانا طفلين في كاسترلي روك. بارتباكٍ تقدَّم منها خطوةً، فمن المفترَض عندما تبكي أختك أن تُواسيها... لكن هذه سرسي! متردِّدًا مَدَّ يده إلى كتفها، لكنها صاحَت مجفلةً: «لا تلمسني!». لم يكن ينبغي أن تجرحه الكلمة، لكنها فعلَت. بوجهٍ محتقن غضبًا وألَمًا جاهدَت سرسي لالتقاط أنفاسها متمتمةً: «لا تَنظُر إليَّ، ليس... ليس هكذا... ليس أنت!».

أدارَ تيريون ظَهره لها بأدب، وقال: «أؤكِّدُ لكِ أني لم أقصد أن أخيفكِ. لا شيء سيَحدُث لمارسلا».

قالت من ورائه: «كاذب. إنني لستُ طفلةً تُهَدِّئ روعها بالوعود الفارغة. سبقَ أن قُلت لي إنك ستُحَرِّر چايمي أيضًا، فأين هو؟».

- «في ريڤررَن على حَدِّ علمي، آمن وتحت الحراسة، إلى أن أجد وسيلةً لتحريره».

تنشَّقت سرسي وقالت: «كان ينبغي أن أُولَد رجلًا، وحينئذٍ لم أكن لأحتاج أحدًا منكم، أو أسمح لشيءٍ من هذا بالحدوث. كيف تركَ چايمي ذلك الصَّبي يأسره؟ وأبي، لحماقتي اتَّكلتُ عليه، لكن أين هو الآن ونحن نحتاجه؟ ماذا يفعل بالضَّبط؟».

- «يخوض حربًا».

قالت باستهجان: «من وراء أسوار هارنهال؟ طريقة مريبة للقتال، تجعَله يبدو للنَّاظر كأنه مختبئ».

- «أعيدي النَّظر».

- «ماذا يكون هذا إذن إن لم يكن اختباءً؟ أبي جالس في قلعة، وروب ستارك في أخرى، ولا أحد يُحَرِّك ساكنًا».

- «ثمَّة جلوس وثمَّة جلوس. كلٌّ منهما ينتظر أن يتحرَّك الآخَر، لكن الأسد ثابت ومنتبه وذيله يختلج، بينما الظَّبي الصَّغير متجمِّد خوفًا، ويكاد يتغوَّط على نفسه، فأينما ذهبَ سينال منه الأسد، وهو يعرف هذا».

- «وأنت موقن من أن أبانا هو الأسد؟».

قال تيريون مبتسمًا: «الأسد على راياتنا كلها».

تجاهلَت الدُّعابة، وقالت: «لو أن أبي هو الأسير، فلم يكن چايمي ليُضَيِّع الوقت سُدى».

كان چايمي ليُمَزِّق جيشه إلى أشلاء دامية على أسوار ريفررَن، وليأخذ «الآخَرون» فُرصتهم في النَّصر. إنه لم يكن من النَّوع الصَّبور قَطُّ، ولا أنتِ كذلك يا أختاه. «لسنا جميعًا بجسارة چايمي، لكن هناك طرائق أخرى للفوز في الحروب. هارنهال قويَّة وموقعها ممتاز».

- «وكينجز لاندنج ليست كذلك، كما يعلم كلانا جيِّدًا، وبينما يلعب أبي الأسد والظَّبي مع ابن ستارك، يزحف رنلي على الطَّريق الوردي، ويُمكن أن نجده على الأبواب في أيِّ يومٍ الآن!».

- «المدينة لن تَسقُط في يوم، والزَّحف من هارنهال على طريق الملوك سريع وفي خَطٍّ مستقيم. لن يكون رنلي قد انتهى من نصْب آلات الحصار قبل أن يُهاجِمه أبي من المؤخِّرة، وسيكون جيشه المطرقة وأسوار المدينة السِّندان. صورة جميلة».

أمعنَت عينا سرسي الخضراوان النَّظر فيه كالمسبار، بحذرٍ لكن بنهمٍ للطَّمأنة التي يُطعِمها إياها، وقالت: «وإذا بدأ روب ستارك الزَّحف؟».

- «هارنهال قريبة من مخاضات الثَّالوث، بحيث لا تسمح لرووس بولتون بأن يَعبُر بالمُشاة الشَّماليِّين للانضمام إلى خيَّالة الذِّئب الصَّغير. ستارك لا يستطيع الزَّحف إلى كينجز لاندنج دون الاستيلاء على هارنهال أولًا، ثم إنه ليس قويًّا كفايةً ليفعل ذلك، حتى ومُشاة بولتون معه»، ورسمَ تيريون على وجهه أوسع ابتسامةٍ ظافرةٍ يقدر عليها مضيفًا: «وفي تلك الأثناء يتغذَّى أبي على خير أراضي النَّهر، بينما يحشد السير ستافورد جُندًا جُددًا في «الصَّخرة»».

رمقَته سرسي بشَكٍّ قائلةً: «كيف تعرف كلَّ هذا؟ هل أخبرَك أبي بنيَّاته قبل أن يُرسِلك؟».

- «كلا، بل ألقيتُ نظرةً على خارطة».

استحالَت نظرتها إلى الازدراء وهي تقول: «لقد أعددت كلَّ كلمةٍ من هذا في عقلك المريض، أليس كذلك أيها العِفريت؟».

طقطقَ تيريون بلسانه، وقال: «أختي العزيزة، دعيني أسألكِ، لو لم نكن الرَّابحين، فهل كان آل ستارك ليَطلُبوا السَّلام؟»، ثم أخرجَ الرِّسالة التي أحضرَها كليوس فراي، وتابعَ: «الذِّئب الصَّغير أرسلَ لنا شروطًا، شروطًا غير مقبولةٍ بالتَّأكيد، لكنها بداية. أترغبين في الاطِّلاع عليها؟».

- «نعم». بهذه السُّرعة عادَت سرسي ملكةً من جديد. «كيف وصلَتك؟ المفترَض أن تأتيني مباشرةً».

قال تيريون: «وما فائدة يد الملك إن لم يُناوِلكِ شيئًا أو آخر؟». كانت وجنته لا تزال تُؤلِمه حيث تركَت يد سرسي أثرها. فلتَسلُخ نصف وجهي. ثمن زهيد لموافَقتها على مصاهَرة دورن. إنه يعرف الآن أنه سيَحصُل على هذه الموافَقة.

ويعرف هويَّة الجاسوس الآن كذلك... صفقة رابحة حقًّا.

بران

وضَعوا على دانسر كسوةً من الصُّوف الأبيض النَّاصع كالثَّلج، مزيَّنةً بذئب عائلة ستارك الرَّهيب بلونه الرَّمادي، بينما ارتدى بران سراويل رماديَّةً وسُترةً بيضاء موشَّاة بالفرو عند الكُمَّين والياقة، وفوق قلبه ثبَّت دبُّوسه ذا شكل رأس الذِّئب، المصنوع من الفضَّة والكهرمان الأسود المصقول. إنه يُحَبِّذ أن يكون سَمر إلى جانبه بدلًا من وجود الذِّئب الفضِّي على صدره، لكن رفْض السير رودريك كان قاطعًا.

أعاقَت الدَّرجات الحجريَّة الواطئة دانسر لحظةً واحدةً فقط، لكنها صعدَتها بيُسرٍ عندما حثَّها بران، ووراء مصراعي الباب المصنوعين من السِّنديان والحديد، ملأَت ثمانية صفوفٍ طويلة من الموائد قاعة وينترفل الكُبرى، أربعة على كلِّ جانبٍ من الممشى الذي يشقُّ منتصَف المكان. تزاحمَ الرِّجال بأكتافٍ متلاصقةٍ على الدِّكك، وهتفوا ناهضين حين مَرَّ بهم بران على فَرسه. «ستارك! وينترفل! وينترفل!».

كان كبيرًا بما يكفي لأن يعرف أنهم لا يهتفون له هو حقًّا، بل هُم متهلِّلون للحصاد، لروب وانتصاراته، والسيِّد والده وجدِّه وكلِّ أسلاف عائلة ستارك المتجذِّرة منذ ثمانية آلاف عام. غير أن هذا لم يمنع أوداجه من الانتفاخ زهوًا، وطيلة المدَّة التي استغرقَها في قطْع القاعة حتى نهايتها، نسيَ أنه مكسور.

لكن عندما بلغَ المنصَّة وكلُّ عينٍ مسلَّطة عليه، حلَّت أوشا وهودور الأربطة والأحزمة، ورفعاه عن ظَهر دانسر، ثم حملاه إلى مقعد آبائه العالي.

جلسَ السير رودريك إلى يسار بران، وإلى جواره ابنته بِث، بينما جلسَ

ريكون إلى يمينه، وقد استطالَ شَعره الكستنائي الأشعث كثيرًا حتى تدلَّى على معطفه المصنوع من فرو القاقوم. منذ رحلَت أمُّهما وريكون يَرفُض السَّماح لأيِّ أحدٍ بقصِّه، وآخِر فتاةٍ حاولَت تلقَّت عضَّةً. قال ريكون بينما قادَ هودور دانسر من القاعة: «أردتُ أن أركب أيضًا. إنني أركبُ أفضل منك».

قال بران لأخيه: «غير صحيح، فاصمُت»، ثم هدرَ السير رودريك في الجموع طالبًا منهم الصَّمت، ليرفع بران صوته بالكلام. رحَّب بهم باسم أخيه روب الملك في الشَّمال، وطلبَ منهم أن يَشكُروا الآلهة القديمة والجديدة على انتصارات روب والحصاد الوفير، وختمَ كلمته رافعًا كأس أبيه الفضِّيَّة: «عسى أن نُرزَق بمئة حصادٍ آخَر».

ردَّد الرِّجال: «مئة حصادٍ آخَر!»، وقُرِعَت الدَّوارق القصدير والأكواب الفخَّار وقرون الشَّراب المطعَّمة بالحديد ببعضها بعضًا. كان نبيذ بران محلًّى بالعسل ومعطَّرًا بالقرفة والقرنفل، لكن أقوى مما تعوَّد، وأشعرَه بأصابع ثعبانيَّة ساخنة تتلوَّى في صدره وهو يبتلع، ولمَّا وضعَ الكأس كان رأسه يدور بالفعل.

قال له السير رودريك: «أحسنت يا بران. كان اللورد إدارد ليفخر بك جدًّا»، فهَزَّ المِايستر لوين رأسه موافقًا من مكانه على المائدة.

بدأ الخدم يُقَدِّمون الأطباق، ولم يرَ بران كلَّ هذا الكَمِّ من الأطعمة من قبل، وقد ظلَّت تتوالى صنفًا بَعد صنفٍ بَعد صنف، حتى إنه لم يقدر على أكثر من قضمةٍ أو اثنتين من كلِّ طبق. قُدِّمَت أوصال من لحم الثِّيران البرِّيَّة المشوي مع الكرفس، وفطائر من لحم الغزال مع الكثير من الجزر والفِطر واللَّحم المقدَّد، وضلوع الضَّأن الغارقة في العسل والقرنفل، والبط بالزَّعتر البرِّي، والخنازير البرِّيَّة بالفلفل، والإوز، وأسياخ من الحمام والدُّيوك السَّمينة، ويخنة اللَّحم البقري والشَّعير، وحَساء فواكه بارد. وكان اللورد وايمان قد أحضرَ عشرين برميلًا من الأسماك المحفوظة في الملح والطَّحالب البحريَّة من الميناء الأبيض، تنوَّعت بين السَّمك الأبيض والسَّرطان البحري، وقواقع البرونق وبلح البحر، والمحار والرِّنجة، والقُد والسلمون، والكركند والشِّلق. جاءَت كذلك أطباق من اللِّفت والبازلاء والشَّمندر، والفاصوليا والقرع

والبصل الأحمر الضَّخم، وأطباق أخرى من التُّفَّاح المخبوز وفطائر التُّوت والإجاص المسلوق في النَّبيذ القوي، كما وُضِعَت قوالب من الجبن الأبيض على كلِّ مائدة، فوق الملح وتحته، ومرَّت على الجميع أباريق من النَّبيذ المتبَّل السَّاخن والمِزر الخريفي المبرَّد.

عزفَ موسيقيُّو اللورد وايمان ألحانًا أطربَت الجميع، لكن سرعان ما غرقَت أنغام القيثارة والكمنجة والمزمار تحت أمواج الكلام والضَّحك وتضارُب الأكواب والأطباق وزمجرة الكلاب المتصارعة على بقايا الطَّعام. صدحَ المغنِّي بعددٍ من الأغاني المحبوبة، مِثل «حِراب الحديد» و«حريق السُّفن» و«الدُّب والحسناء»، وإن بدا أن هودور الوحيد الذي يُصغي، حيث أخذَ يتواثَب من قدم إلى أخرى إلى جوار الزمَّار.

تزايدَت الضجَّة حتى أصبحَت هديرًا ثابتًا امتزجَ فيه شتَّى الأصوات. تكلَّم السير رودريك مع المِايستر لوين من فوق رأس بِث ذي الشَّعر المعقوص، بينما صاحَ ريكون بسعادةٍ في الصَّبيَّين والدر. لم يرغب بران في وجود ابني فراي على المائدة العالية، لكن المِايستر ذكَّره بأنهما سيُصبحان من أقربائه عمَّا قريب، عندما يتزوَّج روب واحدةً من عمَّاتهما، وآريا أحد أعمامهما، فقال بران: «آريا لن تفعل هذا أبدًا»، لكن المِايستر لوين أصرَّ، ومن ثَمَّ جلسَ الاثنان إلى جوار ريكون.

عرضَ الخدم كلًّا من الأصناف على بران أولًا، كي يقتطِع نصيب اللورد لنفسه إذا أرادَ، لكن مع بلوغهم طبق البَط كانت معدته متخمةً تمامًا، وبَعد ذلك اكتفى بالإيماء برأسه استحسانًا لكلِّ صنفٍ بدوره ثم التَّلويح بيده ممتنعًا، وإذا كانت للطَّبق رائحة مميَّزة، فإنه يُرسِله إلى أحد اللوردات على المنصَّة، كعلامةٍ على الصَّداقة والمحاباة شدَّد المِايستر لوين على ضرورة إبدائها. هكذا أرسلَ القليل من السلمون إلى المسكينة الحزينة الليدي هورنوود، ولحم الخنزير البرِّي إلى الأخوين أومبر الصَّاخبين، وطبقًا من الإوز بالتُّوت إلى كلاي سروين، وفردًا ضخمًا من السَّرطان البحري إلى چوزث قيِّم الخيول، الذي لا يُعَدُّ لوردًا أو ضيفًا، وإن أخلصَ في تدريب دانسر وجعلَ ركوب بران إياها ممكنًا، وأرسلَ أصنافًا من الحُلو إلى هودور

والعجوز نان كذلك، بلا سبب غير محبَّته لهما. قال السير رودريك ألَّا ينسى أخويه بالتَّربية، فأرسلَ إلى والْدر الصَّغير القليل من الشَّمندر المسلوق، وإلى والدر الكبير لِفتًا بالزُّبد.

على الدِّكك في الأسفل، اختلطَ رجال وينترفل بالعامَّة من البلدة الشِّتويَّة، والأصدقاء من المعاقل القريبة، ومُرافِقي اللوردات الضُّيوف. بعض الوجوه لم يرَه بران من قبل، والبعض الآخَر يعرفه كما يعرف وجهه هو، لكن الجميع على حَدٍّ سواء بدوا له أغرابًا، إذ يُراقِبهم من بُعدٍ كأنه لا يزال جالسًا عند نافذة غُرفة نومه، يتطلَّع إلى السَّاحة في الأسفل ويرى كلَّ شيءٍ لكن لا يُشارِك في شيء.

تحرَّكت أوشا بين الموائد تصبُّ المِزر، ودَسَّ أحد رجال ليوبولد تولهارت يده تحت تنُّورتها، فحطَّمت الإبريق على رأسه لتتفجَّر ضحكات الرِّجال. على أن ميكن كان يدسُّ يده بدوره في صِدار امرأة، ولم يبدُ أنها تُمانِع. راقبَ بران فارلن يُجبِر كلبته الحمراء على توسُّل العظام، وابتسمَ لمرأى العجوز نان تقتطِع بأصابعها العظميَّة لقيماتٍ من قاعدة فطيرةٍ ساخنة التصقَت بقاع الوعاء، بينما على المنصَّة انقضَّ اللورد وايمان على طبقٍ من سَمك الشِّلق السَّاخن كأنه جيش العدُو. كان بالِغ السِّمنة لدرجة أن السير رودريك أمرَ بصُنع مقعدٍ عريض يحتمل وزنه، لكن الرَّجل يضحك عاليًا وكثيرًا، وخطرَ لبران أنه يروقه. إلى جواره جلسَت الليدي هورنوود ممتقعة الوجه، ملامحها قناع من حَجر وهي تتناوَل طعامها بلا شهيَّة، وعلى الجانب المواجه من المائدة العالية انخرطَ هوثر ومورس في لُعبة شراب، يقرعان قرنيهما معًا كفارسين في النِّزال.

الجَوُّ حار جدًّا هنا، والأصوات صاخبة للغاية، وكلهم يسكرون. كان يحسُّ بالحكَّة تحت طبقات الصُّوف الرَّمادي والأبيض، وتمنَّى فجأةً أن يكون في أيِّ مكانٍ سوى هنا. الجَوُّ معتدل في أيكة الآلهة الآن، البُخار يتصاعَد من الينابيع السَّاخنة، وأوراق الويروود تحفُّ، والرَّوائح أطيب من هنا، وسرعان ما سيصعد القمر إلى السَّماء ويُغنِّي له أخي.

قال السير رودريك: «بران، إنك لا تأكل».

كان حُلم اليقظة شديد الوضوح، حتى إن بران استغرقَ لحظةً حتى أدركَ أين هو، ثم قال: «سآكلُ المزيد فيما بَعد، فمعدتي ممتلئة حتى الانفجار».

كان شارب الفارس العجوز ورديًّا بفِعل النَّبيذ وهو يقول: «أبليت بلاءً حسنًا يا بران، هنا وفي الاجتماعات، ورأيي أنك ستُصبِح لوردًا صالحًا للغاية ذات يوم».

أريدُ أن أكون فارسًا. رشفَ بران من النَّبيذ في كأس أبيه، شاعرًا بالامتنان لأن هناك شيئًا يقبض عليه. على جانب الكأس كان رأس الذِّئب الرَّهيب المزمجر مرفوعًا ويكاد يبدو حيًّا، وشعرَ بران بالخَطم الفضِّي يضغط على راحة يده، وتذكَّر آخِر مرَّةٍ رأى فيها أباه يشرب من تلك الكأس.

كانت ليلة مأدبة التَّرحيب التي أقيمَت على شرف الملك روبرت، عندما أتى ببلاطه إلى وينترفل. كان الصَّيف لا يزال سائدًا حينها، وتقاسمَ والداه المنصَّة مع الملك وملكته وأخويها إلى جوارها. عمُّه بنچن حضرَ المأدبة أيضًا بثيابه السَّوداء، وجلسَ بران وأخواه وأختاه مع أطفال الملك، چوفري وتومن والأميرة مارسلا، التي أمضَت الوقت كله في التَّحديق في روب بعينين ولهانتين. صنعَت آريا تعبيراتٍ مضحكة بوجهها عندما لم يكن هناك من يَنظُر إليها، وأرهفَت سانزا السَّمع حين أنشدَ مغنِّي الملك أغانٍ عن الفروسيَّة عازفًا على القيثارة السَّامية(1)، وظَلَّ ريكون يسأله عن سبب عدم انضمام چون إليهم، فاضطرَّ بران في النِّهاية لأن يُجيبه همسًا: «لأنه نغل».

وكلهم رحَلوا. كأن إلهًا متوحِّشًا مَدَّ يدًا عملاقةً من السَّماء واكتسحَهم جميعًا، الفتاتين إلى الأَسر، وچون إلى «الجِدار»، وروب وأمَّهم إلى الحرب، والملك روبرت وأباهم إلى القبر، وربما العم بنچن كذلك...

حتى على الدِّكك جلسَ رجال جُدد إلى الموائد، فقد ماتَ چوري، وتوم السَّمين، وپورثر، وآلين، ودزموند، وهالن قيِّم الخيول، وهاروين ابنه... كلُّ من ذهبوا جَنوبًا مع أبيه، حتى السِّپتة موردن وڤايون پوول. البقيَّة خرجوا إلى الحرب مع روب، وقد لا يمضي وقت طويل حتى يموتوا بدورهم. لا بأس

(1) القيثارة السَّامية آلة موسيقيَّة من خيال المؤلِّف.

على الإطلاق بهايهِد وتيم المجدور وسكيتريك وبقيَّة الرِّجال الجُدد، لكنه يفتقد أصدقاءه القُدامى.

جاسَ بناظريه بين الدِّكك متطلِّعًا إلى الوجوه السَّعيدة والحزينة، وتساءلَ أيها لن يكون هنا العام المقبل والذي يليه. كان ليبكي لحظتها، لكنه لم يستطِع. إنه ابن ستارك في وينترفل، وابن أبيه ووريث أخيه، ويُوشِك أن يُصبِح رجلًا بالغًا.

في آخِر القاعة انفتحَت الأبواب، فهبَّ الهواء البارد جاعلًا لهب المشاعل يتأجَّج أكثر لحظةً، وقادَ الحارس الممتلئ آلبلي ضيفين جديدين إلى المأدبة، ورفعَ عقيرته فوق الصَّخب السَّائد معلنًا: «الليدي ميرا وأخوها چوچن، سليلا آل ريد أولاد قلعة المياه الرَّماديَّة».

رفعَ الرِّجال أنظارهم من الأكواب والأطباق ليُلقوا نظرةً على الوافدَيْن الجديدَيْن، وسمعَ بران والدر الصَّغير يُخاطِب والدر الكبير قائلًا: «آكلو الضَّفادع»، فيما نهضَ السير رودريك وقال: «مرحبًا بكما أيها الصَّديقان، لتُشارِكانا الاحتفال»، فأسرعَ الخدم يمدُّون طول المائدة العالية ويُحضِرون كرسيَّين.

سألَ ريكون: «مَن هذان؟».

أجابَه والدر الصَّغير بازدراء: «قوم الأوحال. إنهم لصوص وجبناء، وأسنانهم خضراء بسبب أكْل الضَّفادع».

انحنى المايستر لوين إلى جوار مقعد بران، وقال له همسًا: «يجب أن تُحَيِّي هذين الاثنين بكلِّ حفاوة. لم أتوقَّع أن أراهما هنا، لكن... أتعرف مَن هما؟».

أومأَ بران برأسه مجيبًا: «إنهما من أهل المستنقعات، من «العُنق»».

قال له السير رودريك: «هاولاند ريد كان من أخلص أصدقاء أبيك، وهذان طفلاه على ما يبدو».

بدأ الوافدان الجديدان يقطعان القاعة، فرأى بران أن إحداهما فتاة بالفعل، وإن لم تكن ثيابها ما أفصحَ عن هذا، فقد ارتدَت سراويل من جِلد الحملان الذي نعَّمه فرط الاستعمال، وسُترةً بلا كُمَّين مدرَّعةً بأقراصٍ من البرونز.

وعلى الرغم من أن الفتاة تُقارِب روب في العُمر، فهي نحيلة كالصِّبيان، وشَعرها بنِّي طويل معقود وراء رأسها، وانتفاخ ثدييها يكاد لا يُذكَر. على وَركها النَّحيف تدلَّت شبكة صيد، وعلى الآخَر سكِّين برونزي طويل، وتحت إبطها حملَت خوذةً عظيمةً من الحديد يبدو عليها القِدم ويشيع فيها الصَّدأ، بينما علَّقت على ظَهرها رُمحًا لصيد الضَّفادع وتُرسًا جِلديًّا مستديرًا.

أمَّا أخوها فيَصغُرها بعدَّة سنوات ولا يحمل أسلحةً، ثيابه كلها خضراء، حتى الحذاء الجِلدي طويل العُنق، وعندما اقتربَ رأى بران أن عينيه بلون الطَّحالب، وإن كانت أسنانه بيضاء كأيِّ أحدٍ آخَر. كلا الأخوان ريد هزيل القوام ورفيع كسيف، ولا يزيد طولهما على طول بران كثيرًا.

ركعَ الاثنان أمام المنصَّة، وقالت الفتاة: «أيها السَّادة أبناء ستارك، مرَّت السنِّين بالمئات والآلاف منذ أقسمَ أهلي على الولاء للملك في الشَّمال، وقد أرسلَنا السيِّد والدي لنُجَدِّد العهد نيابةً عن أهلنا كلهم».

إنها تَنظُر إليَّ. كان عليه أن يَرُدَّ بشيءٍ ما، فقال: «أخي روب يُحارِب في الجَنوب، لكن يُمكنكما ترديد الكلمات لي إذا شئتما».

قالا معًا: «لوينترفل نتعهَّد بإخلاص القلعة الرَّماديَّة، ولك يا سيِّدي نمنح الوداد والفؤاد والحصاد، سيوفنا ورماحنا وسهامنا رهن إشارتك، فامنح ضُعفاءنا الرَّحمة، وعاجزينا العون، والجميع العدل، ولن نخذلك أبدًا».

وقال الصَّبي المسربل بالأخضر: «أقسمُ باليابسة والماء».

وقالت أخته: «أقسمُ بالبرونز والحديد».

وختما معًا: «نُقسِم بالجَليد والنَّار».

فحصَ بران عقله بحثًا عن رد. أمن المفترَض أن يُقسِم لهما بشيءٍ بدوره؟ إنه لم يتعلَّم هذا القَسم قَطُّ. هكذا قال: «عسى أن تكون أشتيتكم قصيرةً وأصيافكم مثمرةً». من اللَّائق أن يُقال هذا دائمًا. «انهضا. أنا براندون ستارك».

نهضَت الفتاة ميرا وساعدَت أخاها على النُّهوض. كان الصبيُّ يُحَدِّق في بران طول الوقت، وقال: «أحضرنا لكم هدايا من الأسماك والضَّفادع والدَّواجن».

أجابَ بران متسائلًا إن كان عليه أن يأكل ضفدعًا على سبيل التَّهذيب:

«أشكركما، وأقدِّمُ لكما طعام وشراب وينترفل». حاولَ أن يتذكَّر كلَّ ما تعلَّمه عن هؤلاء القوم الذين يَسكُنون مستنقعات «العُنق» ونادرًا ما يُغادِرون أراضيهم الرَّطبة. إنهم أناس فقراء، صيَّادو سَمك وضفادع يقطنون بيوتًا من القَشِّ والبوص المجدول، على جُزرٍ طافية متوارية في خبايا المستنقعات. يُقال إنهم جبناء يُقاتِلون بالأسلحة المسمومة ويُفَضِّلون الاختباء من أعدائهم على مواجَهتهم في المعركة، وعلى الرغم من ذلك كان هاولاند ريد من أوفى أصدقاء أبيه خلال حرب الملك روبرت من أجل العرش، قبل أن يُولَد بران.

جابَ الصَّبي چوچن القاعة بعينيه بفضولٍ وهو يجلس، وسألَ: «أين الذِّئبان الرَّهيبان؟».

أجابَ ريكون: «في أيكة الآلهة. شاجي أساءَ الأدب».

قالت الفتاة: «أخي يرغب في رؤيتهما».

رفعَ والدر الصَّغير صوته قائلًا: «فليحذر من أن يلحظا وجوده، وإلَّا عقَراه».

قال بران المسرور برغبتهما في رؤية الذِّئبين: «لن يفعلا ذلك في وجودي. سَمر لن يفعل على الأقل، وسيُبقي شاجيدوج بعيدًا». شعرَ بالفضول إزاء ساكني المستنقعات هؤلاء، ولم يتذكَّر أنه رأى أحدهم من قبل. أرسلَ أبوه كثيرًا من الرَّسائل إلى قلعة المياه الرَّماديَّة على مَرِّ السِّنين، لكن أحدًا منهم لم يَزُر وينترفل قَطُّ. أرادَ أن يتكلَّم مع الأخوين ريد أكثر، لكن صخب القاعة الكُبرى شديد لدرجةٍ لا تسمح لك بأن تسمع محدِّثك دون أن يجلس إلى جانبك مباشرةً.

السير رودريك كان إلى جانب بران مباشرةً، فسألَه: «أيأكلون الضَّفادع حقًّا؟».

أجابَ الفارس العجوز: «أجل، الضَّفادع والأسماك والأسود الزَّواحف[1]، والطُّيور بشتَّى أنواعها».

---

(1) الاسم الذي يُطلَق على الكائنات التي تعيش في مستنقعات وستروس، وهي أقرب إلى التَّماسيح.

ربما ليس لديهم غنم وأبقار. أمرَ بران الخدم بأن يُقَدِّموا لهما ضلوع الضَّأن وشرائح من لحم الثِّيران البرِّيَّة المشوي ويخنة اللَّحم والشَّعير، وبدا أن الطَّعام راقَهما. ضبطَته الفتاة يَنظُر إليها وابتسمَت، فتورَّد وجه بران خجلًا وأشاحَ بعينيه.

بَعد ذلك بفترةٍ طويلة، بَعد تقديم أطباق الحُلو كلها وابتلاع الرِّجال إياها بجالونات من النَّبيذ الصَّيفي، رُفِعَت الأواني وأزيحَت الموائد ناحية الجدران لإفساح مكانٍ للرَّقص. علا صوت الموسيقى، وانضمَّ الطبَّالون إلى العازفين، وأخرجَ هوثر أومبر بوقًا حربيًّا مقوَّسًا ضخمًا تُطَعِّمه الفضَّة، وعندما بلغَ المغنِّي ذلك الجزء من «اللَّيل الذي انتهى»، عندما خرجَ حَرس اللَّيل لمواجَهة «الآخَرين» في معركة الفَجر، أطلقَ نفيرًا جعلَ الكلاب كلها تنبح.

عزفَ اثنان من رجال جلوفر لحن رقصةٍ دوَّارة على مزمار القِرَب والقيثارة الخشبيَّة، وكان مورس أومبر أول من نهضَ ليَرقُص، فأطبقَ على ذراع خادمةٍ مارَّة مُسقِطًا إبريق النَّبيذ من يدها ليتهشَّم على الأرض، ودوَّرها ودوَّمها بين الحصير والعظام وفُتات الخبز وألقاها في الهواء، وضحكَت الفتاة واحمرَّ وجهها عندما انحسرَت تنُّورتها كاشفةً ساقيها.

سرعان ما انخرطَ آخَرون في الرَّقص، وبدأ هودور يَرقُص وحده، بينما طلبَ اللورد وايمان من بِث كاسل الصَّغيرة أن تنضمَّ إليه، والغريب أنه تحرَّك برشاقةٍ على الرغم من حجمه، ثم حَلَّ كلاي سروين محلَّه عندما تعبَ، بينما طلبَ السير رودريك من الليدي هورنوود أن تُشارِكه الرَّقص، لكنها تعلَّلت بشيءٍ ما واستأذنَت بالانصراف. تفرَّج بران على كلِّ هذا فترةً مناسبةً على سبيل التَّهذيب، ثم استدعى هودور. كان يَشعُر بالحَرِّ والتَّعب، ومتورِّدًا تمامًا بفِعل الخمر، كما أن الرَّقص أثارَ فيه الحُزن، فهو شيء آخَر لم يَعُد يقدر عليه. صاحَ في هودور: «أريدُ أن أذهب».

صاحَ هودور: «هودور»، وركعَ، ورفعَ المِايستر لوين وهايهد بران إلى السلَّة. كان أهل وينترفل قد رأوا هذا المنظر مرارًا، لكن لا شَكَّ أنه بدا غريبًا لعددٍ من ضيوفهم، الذين تغلَّب فضول بعضهم على أدبه، وشعرَ بران بنظراتهم المحملقة.

خرجا من المؤخِّرة بدلًا من قطْع طول القاعة، وطأطأَ بران رأسه وهما يَمُرَّان من باب اللورد. في الشُّرفة خافتة الإضاءة خارج القاعة الكُبرى، وجدا چوزث قيِّم الخيول منغمسًا في نوعٍ آخَر من الرُّكوب. كان يضغط امرأةً ما لا يعرفها بران إلى الجدار، وقد ارتفَعَ ثوبها حول خصرها، وكانت تضحك حتى توقَّف هودور ليتفرَّج فصرخَت، وقال بران: «دعهما وشأنهما يا هودور، خُذني إلى غُرفتي».

حملَه هودور على السَّلالم الملتفَّة إلى غُرفة البُرج، وركعَ إلى جوار واحدٍ من قضبان الحديد التي ثبَّتها ميكن في الحائط، فنقلَ بران نفسه إلى فِراشه، وخلعَ هودور حذاءه وسراويله، ثم قال له بران: «يُمكنك أن تعود إلى الاحتفال الآن، لكن لا تُزعِج چوزث وتلك المرأة».

أومأَ هودور برأسه قائلًا: «هودور».

غطَّته الظُّلمة كدثارٍ مألوف الملمس ناعِمه عندما أطفأَ الشَّمعة المجاورة لفِراشه، بينما ترامَت إليه أنغام الموسيقى الخافتة من بين خصاص النَّافذة.

شيءٌ ما أخبرَه به أبوه في صِغره وثبَ إلى عقله فجأةً. كان قد سألَ اللورد إدارد إن كان رجال الحَرس الملكي أفضل الفُرسان في الممالك السَّبع حقًّا، فأجابَ: «لم يعودوا كذلك، لكنهم كانوا أعجوبةً للنَّاظرين في الماضي، قدوةً لامعةً للعالم كله».

- «أكان هناك منهم من فاقَ الجميع؟».

- «أفضل فارسٍ رأيته في حياتي كلها كان السير آرثر داين، الذي كان يُقاتِل بسيفٍ اسمه «فَجر»، مصنوع من قلب نجم هوى. كانوا يُلَقِّبونه بسيف الصَّباح، وكان ليَقتُلني لولا هاولاند ريد». لاحَ الحُزن على أبيه عندئذٍ ولم يبُح بالمزيد، وتمنَّى بران لو أنه سألَه عمَّا يعنيه.

خلدَ إلى النَّوم برأسٍ مشغول بالفُرسان والدُّروع، والقتال بسيوفٍ تلمع كنور النُّجوم، لكن عندما جاءَه الحُلم وجدَ نفسه في أيكة الآلهة مجدَّدًا. كانت الرَّوائح القادمة من المطبخ والقاعة الكُبرى شديدة القوَّة، كأنه لم يُغادِر المأدبة حقًّا. طافَ بين الأشجار وأخوه يتبعه من قُرب، وقد امتلأَ اللَّيل حياةً

وأفعمَه عُواء قطيع بني الإنسان اللّاهين. جعلَته الأصوات يتململ رغبةً في الحركة، وأرادَ أن يجري ويصطاد، أرادَ أن...

انتصبَت أُذناه على وقع صلصلة الحديد، وسمعَ أخوه ما سمعَه، فانطلقا وسط الشُّجيرات الصَّغيرة صوب الصَّوت. ثم إنه وثبَ فوق المياه الرَّاكدة عند قاعدة الشَّجرة البيضاء العتيقة، واشتمَّ رائحة غريب، رائحة الإنسان الممتزجة بروائح الجِلد والتُّربة والحديد.

توغَّل المتطفِّلان بضع ياردات في الأيكة حتى وجداه أمامهما. أنثى وذَكر صغير هما، ولا رائحة للخوف فيهما على الإطلاق، حتى عندما كشَّر لهما عن أسنانه البيضاء، بينما زامَ أخوه بصوتٍ عميق، لكنهما لم يتزحزحا خطوةً.

قالت الأنثى: «ها هما ذان»، وهمسَ جزء منه: ميرا، لمحة من الصَّبي النَّائم الضَّائع في حُلم الذِّئب. «أكنت تعرف أنهما بهذا الحجم؟».

- «وسينمو حجمهما أكثر حتى يَكبُران»، أجابَ الذَّكر الصَّغير وهو يُراقِبهما بعينين خضراوين واسعتين خاليتين من الخوف. «الأسود يموج بالخوف والغضب، لكن الرَّمادي قوي... أقوى مما يحسب... أتشعُرين به يا أختاه؟».

ردَّت محرِّكةً يدها إلى مقبض السِّكين البُنِّي الطَّويل الذي تحمله: «كلا. خُذ الحذر يا چوچن».

قال الذَّكر: «إنه لن يُؤذيني. اليوم ليس يوم مماتي»، واتَّجه نحوهما بلا خوف، ومَدَّ يده إلى خَطمه ومسَّه مسَّةً بخفَّة نسيم الصَّيف، لكن مع لمسة هذه الأصابع تبدَّدت الغابة من حوله، واستحالَت الأرض تحت قدميه دخانًا وتخلَّت عنه ضاحكةً، ثم إنه وجدَ نفسه يدور ويَسقُط، ويَسقُط، ويَسقُط...

كاتلين

نائمةً كانت كاتلين على كلأ المرج الرَّحب، ترى في حُلمها بران مكتملًا من جديد، وآريا وسانزا متعانقتي اليدين، وريكون لا يزال رضيعًا على صدرها، وروب بلا تاج، يلعب بسيفٍ من الخشب؛ وعندما خلدوا جميعًا إلى النَّوم آمنين، وجدَت ند في فِراشها يبتسم.

والحُلم كان جميلًا، جميلًا وانتهى سريعًا، عندما جاءَ الفَجر يقطعه بقسوة خنجرٍ من نور، فاستيقظَت وحيدةً متوجِّعةً متعَبةً... متعبَةً من الرُّكوب، ومن الآلامِ، ومن الواجب. أريدُ أن أنام، أريدُ من يُواسيني. القوَّة أضنَتني، وأريدُ أن أتصرَّف بخوفٍ وحمقٍ ولو مرَّة، فترةً قصيرة فقط... يومًا... ساعةً...

كان الرِّجال يتحرَّكون خارج خيمتها، وسمعَت صهيل الخيول وشكوى شاد من التيبُّس في ظَهره، والسير وندل يَطلُب قوسه. تمنَّت كاتلين أن يرحَلوا جميعًا. إنهم رجال صالحون مخلصون، لكنها تحسُّ بالتَّعب منهم كلهم، وتحنُّ إلى أطفالها. وعدَت نفسها وهي متمدِّدة في فِراشها بأن اليوم سيأتي، يوم تسمح لنفسها بالتخلِّي عن شيءٍ من قوَّتها.

لكن ليس اليوم، لا يُمكن أن يَحدُث هذا اليوم.

شعرَت وهي ترتدي ثيابها بحركة أصابعها خرقاء أكثر من المعتاد، وخطرَ لها أنها ينبغي أن تكون ممتنَّةً لأنها تستطيع استخدام يديها من الأساس، فالخنجر كان من الفولاذ الفاليري، وضربة الفولاذ الفاليري أمضى وأعمق من كلِّ ما عداه، وما عليها إلَّا أن تَنظُر للنُّدوب لتتذكَّر.

في الخارج كان شاد يُقلِّب الشُّوفان في قِدر، بينما جلسَ السير وندل

ماندرلي يُوتِر قوسه، وقال عندما خرجَت كاتلين: «سيِّدتي، ثمَّة طيور في العُشب، فهل ترغبين في سمَّان مشوي على إفطارك؟».

- «الشُّوفان والخُبز كافيان... لنا جميعًا. ما زالت أمامنا فراسخ كثيرة يجب أن نقطعها يا سير وندل».

بدَت خيبة الأملِ على وجه الفارس المدوَّر، وارتعشَ طرفا شاربه الضَّخم الشَّبيه بشارب الفَظِّ[1] وهو يقول: «شوفان وخُبز، لا شيء أفضل من هذا». كان من أسمن الرِّجال الذين عرفَتهم كاتلين على الإطلاق، لكن أيًّا كان قَدر حُبِّه للطَّعام، فهو يحبُّ شَرفه أكثر.

قال شاد: «وجدتُ بعض القُرَّاص[2] وغليته مع الشَّاي، فهل ترغب سيِّدتي في كوب؟».

- «نعم، أشكرك».

أمسكَت شايها بيديها النَّديبتيْن ونفخَت فيه لتُدَفِّئه. شاد واحد من رجال وينترفل، إذ أرسلَ روب عشرينًا من أفضل رجاله ليصحبوها بأمانٍ إلى رنلي، كما أرسلَ أيضًا خمسةً من اللوردات الصِّغار، الذين من شأن أسمائهم وأنسابهم السَّامية أن تُضيف وزنًا واعتبارًا لمهمَّتها. في طريقهم جَنوبًا، بمنأى عن المعاقل والبلدات، رأوا جماعاتٍ من الرِّجال المدرَّعين بالمعدن أكثر من مرَّة، ولمحوا دخانًا في الأُفق الشَّرقي، لكن أحدًا لم يجرؤ على التحرُّش بهم، فهُم أضعف من أن يُشَكِّلوا تهديدًا، لكن أكثر نفرًا من أن يكونوا لقمةً سائغةً. تركوا الخطر وراءهم بمجرَّد أن عبروا النَّهر الأسود، وطيلة الأيام الأربعة الماضية لم يلمحوا أثرًا للحرب.

لم تكن رغبة كاتلين أن تقطع هذه الرِّحلة، وهذا ما قالَته لروب في ريڤررَن: «عندما رأيتُ رنلي آخِر مرَّة، كان صبيًّا لا يتعدَّى بران عُمرًا. إنني لا أعرفه. أرسِل أحدًا غيري، فمكاني هنا مع أبي ما تبقَّى له من وقت».

---

(1) الفَظ حيوان بحري شبيه بالفقمة، يتميَّز بشاربه الكثيف وفمه العريض الذي يَخرُج منه زوج من الأنياب العاجيَّة الحادَّة.

(2) القُرَّاص نبات عُشبي معمِّر يُستخدَم كدواء منظِّف للمعدة.

رمقَها ابنها عندئذٍ بضيقٍ، وقال: «ليس هناك غيرك. لا يُمكنني الذَّهاب بنفسي، وأبوكِ طريح فِراش المرض، والسَّمكة السَّوداء بمثابة عينيَّ وأُذنيَّ، فلا أستطيعُ الاستغناء عنه، وأخوكِ أحتاجه لقيادة ريڤررَن عندما نزحف».

- «تزحفون؟». لم يَذكُر لها أحد كلمةً واحدةً عن الزَّحف.

- «لا يُمكنني الجلوس في ريڤررَن منتظرًا السَّلام، لأن هذا يجعلني أبدو خائفًا من النُّزول إلى الميدان ثانيةً. عندما لا تكون هناك معارك، يبدأ الرِّجال في التَّفكير في الدِّيار والحصاد، كما قال لي أبي، وحتى رجالي الشَّماليُّون يتململَون بالفعل».

رجالي الشَّماليُّون. بدأ يتكلَّم كملك كذلك. «لم يسبق أن ماتَ أحد من التَّململ، لكن الاندفاع شيء آخَر. لقد بذَرنا البذور، فدعها تنمو».

هَزَّ روب رأسه بعناد، وقال: «بل ألقينا بذورًا في الرِّيح، وهذا كلُّ شيء. لو كانت أختكِ لايسا قادمةً لمسانَدتنا، لأتانا منها خبر. كم طائرًا أرسَلنا إلى «العُش»؟ أربعةً؟ أنا أيضًا أريدُ السَّلام، لكن لِمَ يمنحني آل لانستر أيَّ شيءٍ وكلُّ ما أفعله هو الجلوس هنا، بينما يتآكَل جيشي من حولي كما يذوب الثَّلج في الصَّيف؟».

- «ستَرقُص على لحن اللورد تايوين إذن بدلًا من أن تبدو جبانًا؟ إنه يُريدك أن تزحف على هارنهال. سَل خالك برايندن إن...».

قاطعَها روب: «لم أذكر شيئًا عن هارنهال. والآن، هل ستذهبين إلى رنلي من أجلي، أم أن عليَّ إرسال چون الكبير؟».

رسمَت الذِّكرى بسمةً على شفتيها. حيلة مكشوفة، لكن لا تخلو من حذقٍ بالنِّسبة لصبيٍّ في الخامسة عشر، فروب يعلم أن رجلًا مِثل چون أومبر الكبير ليس كفؤًا أبدًا للتَّعامُل مع رجلٍ مِثل رنلي باراثيون، ويعلم أنها تعلم كذلك. ماذا كان بيدها إذن غير أن تُذعِن وتدعو الآلهة أن يظلَّ أبوها حيًّا حتى ترجع؟ لو كان اللورد هوستر بصحَّته لذهبَ بنفسه، كما تعرف جيِّدًا، لكن الرَّحيل ظَلَّ بالغ الصُّعوبة رغم ذلك. لم يتعرَّفها أبوها عندما ذهبَت تُوَدِّعه، وناداها باسم أُمِّها مينيسا، قائلًا لها: «أين البنتان؟ كات الصَّغيرة ولايسا الجميلة...»، فقبَّلت كاتلين جبهته وردَّت بأن طفلتيه بخير، وأردفَت وعيناه تنغلقان:

«انتظرني يا سيِّدي. لقد انتظرتك مرارًا وتكرارًا، وعليك أن تنتظرني أنت هذه المرَّة».

فكَّرت كاتلين وهي ترشف الشَّاي اللَّاذع: القَدر يدفعني جَنوبًا ثانيةً، بينما حريٌّ بي أن أتوجَّه شَمالًا، شَمالًا وإلى الدِّيار. في تلك اللَّيلة الأخيرة في ريفَررَن كتبَت لبران وريكون قائلةً: إنني لم أنسكما أيها الغاليان، صدِّقاني، وكلُّ ما هنالك أن أخاكما يحتاجني أكثر.

قال السير وندل بينما اغترفَ شاد الثَّريد من القِدر: «من المفترَض أن نَبلُغ أعالي نهر الماندر اليوم يا سيِّدتي، ولن يكون اللورد رنلي بعيدًا عن هناك، إذا صدقَ ما لدينا من معلومات».

وماذا أقولُ له عندما أجده؟ إن ابني لا يعترف به كملكٍ حقيقي؟ لم تكن تستسيغ تلك المقابَلة المرتقَبة. إنهم يحتاجون أصدقاءً وليس مزيدًا من الأعداء، لكن مُحال أن يركع روب مبايعًا رجلًا يَعتبر أن لا حَقَّ له في العرش.

كان وعاؤها فارغًا، وإن تذكَّرت بالكاد أنها تذوَّقت الثَّريد، فنحَّته جانبًا وقالت: «حان الوقت لأن نتحرَّك». كلَّما بكَّرت في الكلام مع رنلي صارَت عودتها إلى الدِّيار أسرع، وهكذا كانت أول من امتطى حصانه، وحدَّدت السُّرعة التي تتقدَّم بها المجموعة، وركبَ هال مولين إلى جوارها حاملًا راية عائلة ستارك، الذِّئب الرَّهيب الرَّمادي على خلفيَّة الجليد الأبيض.

كانوا ما زالوا يَبعُدون مسافة نِصف يوم من الرُّكوب عن معسكر رنلي عندما أخَذوهم. روبن فلينت الذي خرجَ للاستطلاع عادَ مسرعًا بخبرٍ عن كشَّافٍ يُراقِب من فوق سطح طاحونة هواءٍ بعيدة، ولدى وصول كاتلين ومجموعتها إلى تلك الطَّاحونة، كان الرَّجل قد اختفى. هكذا تقدَّموا، ليقطعوا أقلَّ من ميلٍ واحدٍ قبل أن يُطبق رجال رنلي عليهم، عشرون رجلًا يرتدون الحلقات المعدنيَّة على متن الخيول، يقودهم فارس أشيب الرَّأس واللِّحية، على معطفه نقوش اتَّخذت شكل طائر القيق الأزرق.

عندما رأى الفارس رايتها، دنا منها وحده قائلًا: «سيِّدتي، أنا السير كولن من منطقة «البِرك الخضراء»، إذا سمحتِ لي بتقديم نفسي. إنكم تَعبُرون أراضٍ خطِرة».

أجابَته: «شأننا مُلِحٌّ. جئتُ مندوبةً عن ابني روب ستارك، الملك في الشَّمال، للتحدُّث مع رنلي باراثيون، الملك في الجَنوب».

- «رنلي ملك على الممالك السَّبع كافَّة يا سيِّدتي»، علَّق السير كولن، وإن تكلَّم بدماثة. «جلالته معسكِر مع جيشه على مقربةٍ من قلعة «جِسر العلقم»، حيث يَعبُر الطَّريق الورديّ نهر الماندر. من عظيم شَرفي أن أصحبكِ إليه»، ورفعَ الفارس يده المغطَّاة بالمعدن، فكوَّن رجاله صفَّين أحاطا بكاتلين وحَرسها. تصحبني أم تأسرني؟ لم تجد بيدها حيلة غير الثِّقة بشَرف السير كولن واللورد رنلي.

رأوا دخان نيران المعسكر قبل ساعةٍ كاملةٍ من بلوغهم النَّهر، ثم ساقَ الهواء الأصوات إلى آذانهم عبر المَزارع والحقول والسُّهول المتموِّجة، مبهمةً في البداية كهدير بحرٍ بعيد، قبل أن تتضَّح شيئًا فشيئًا مع دنوِّهم، وعندما أبصَروا مياه الماندر الغَنيَّة بالطَّمي تتألَّق في نور الشَّمس، تناهَت إلى مسامعهم أصوات الرِّجال وصلصلة الفولاذ وصهيل الخيول، وإن لم يكفِ الصَّوت أو الدُّخان لتهيأتهم لمنظر الجيش نفسه.

آلاف من حُفر نار الطَّهي أفعمَت الهواء بغشاوة دخانيَّة باهتة، وصفوف الخيول وحدها امتدَّت فراسخ وفراسخ، ولا شَكَّ أن غابةً كاملةً أزيلَت من الوجود من أجل عمل السَّواري الطَّويلة التي ارتفعَت عليها الرَّايات، بينما اصطفَّت آلات الحصار على حافة الطَّريق الوردي المعشوشبة، مجانيق وقاذفات حجارة، وكِباش لدَكِّ البوَّابات مُركَّبة على عجلاتٍ أعلى من رجلٍ على متن حصان. توهَّجت رؤوس الرِّماح الفولاذيَّة بالأحمر في الشَّمس، كأنها تخضَّبت بالدَّم بالفعل، وبدَت سُرادقات الفُرسان وكبار اللوردات كأنها نابتة من العُشب كعيش الغُراب لو أنه من الحرير. رأت كاتلين رجالًا يحملون الحراب ورجالًا يحملون السُّيوف، ورجالًا يرتدون خوذاتٍ من الفولاذ وقمصانًا من حلقات المعدن، وتابعات المعسكر اللاتي يعرضن مفاتنهن مختالات، ورُماةً يُزوِّدون السِّهام بريشاتها، وحوذيِّين يسوقون العربات، ورُعاةً يسوقون الخنازير، وخدمًا يهرعون هنا وهناك بالرَّسائل، ومُرافِقين يشحذون السُّيوف، وفُرسانًا يمتطون الجياد، وساسةً يقودون خيولًا معتلَّة المزاج.

قال السير وندل وهُم يَعبُرون الامتداد الحجري العتيق الذي استمدَّت «جسر العلقم» منه اسمها: «أعداد مخيفة».

قالت كاتلين: «صحيح».

بدا لها أن جميع فُرسان الجَنوب تقريبًا لبَّوا نداء رنلي، ورأت زهرة هايجاردن الذَّهبيَّة في كلِّ مكان، مخيَّطةً على الجانب الأيمن من صدور المُحارِبين والخدم، وخافقةً على الرَّايات الحريريَّة الخضراء التي زيَّنت الرِّماح والحراب، ومرسومةً على التُّروس المعلَّقة خارج سُرادقات أبناء وإخوة وأبناء أعمام عائلة تايرل. كذلك لمحَت كاتلين ثعلب وزهور عائلة فلورنت، وتُفَّاح عائلة فوسواي بفرعيها الأحمر والأخضر، وصيَّاد اللورد تارلي واسع الخُطى، وأوراق سنديان عائلة أوكهارت، وغرانيق عائلة كرين، وسحابة فراشات عائلة مالندور ذات الأسود والبرتقالي.

على الضفَّة الأخرى من الماندر كان لوردات أراضي العواصف قد رفعوا راياتهم كذلك، حمَلة راية رنلي المقسمون على الولاء لعائلة باراثيون وستورمز إند. تعرَّفت كاتلين عنادل برايس كارون، وريشتي عائلة پنروز، وسلحفاة اللورد إسترمونت البحريَّة الخضراء على خلفيَّةٍ خضراء أيضًا. على أن كلَّ رمزٍ عرفَته قابَله عشرة جُدد عليها، يحملها اللوردات الصِّغار المقسمون لحمَلة الرَّاية، والفُرسان المتجوِّلون والمُحارِبون غير النِّظاميِّين الذين أتوا أفواجًا ليجعلوا رنلي باراثيون ملكًا فعلًا كما هو اسمًا.

خفقَت راية رنلي فوق الأخريات كلهن، فمِن قمَّة أعلى أبراج الحصار -ذلك الوحش العملاق ذو العجلات، المصنوع من خشب البلُّوط، والمغطَّى بالجلود غير المدبوغة- رفرفَت أضخم راية حربٍ رأتها كاتلين في حياتها على الإطلاق؛ قطعة من القُماش تكفي لتغطية أرضِ قاعاتٍ وقاعات، تتوهَّج بالذَّهبي ويتوسَّطها وعل عائلة باراثيون المتوَّج، يرمح بزهوٍ وشَمم.

سألَها هالس مولين وهو يدنو بحصانه: «أتسمعين هذه الضجَّة يا سيِّدتي؟ ما هذا؟».

أصغَت كاتلين. هتافات وصراخ خيول وصليل فولاذ، و... «تشجيع».

كانوا يصعدون منحدَرًا خفيفًا نحو صَفٍّ من السُّرادقات زاهية الألوان على

قمَّة المرتفَع، وبينما شقُّوا طريقهم وسطها ازدادَ الزِّحام وعلا الصَّوت... ثم إنها رأت.

في الأسفل، تحت شُرفات القلعة الصَّغيرة المشيَّدة من الحجارة والأخشاب، كان التحام جماعي يدور.

كان الحقل قد أُخليَ، ونُصِبَت الأسيجة والمنصَّات وحواجز النِّزال، وقد احتشدَ المئات -وربما الآلاف- للمشاهَدة، ووشى منظر الأرض الموحلة غير الممهَّدة، التي تناثرَت فيها قِطع من الدُّروع المنبعجة والرِّماح المكسورة، أن المباريات مستمرَّة منذ يوم أو أكثر، وإن صارَت النِّهاية دانيةً الآن، إذ تبقَّى أقلُّ من عشرين فارسًا فوقَ خيولهم، ينقضُّون ويهوون بأسلحتهم على بعضهم بعضًا، بينما يهتف لهم المتفرِّجون والمتنافسون الذين خرَجوا. رأت جوادين بدِرعٍ كاملةٍ يتصادَمان ويَسقُطان في كُتلةٍ متشابكةٍ من الفولاذ ولحم الخيل، وقالَ هال مولين الذي يجنح دائمًا إلى تفسير الماء بالماء: «إنها دورة مباريات».

قال السير وندل: «أوه، رائع»، بينما دارَ فارس يرتدي معطفًا مخطَّطًا بألوان قوس قزح، وسدَّد ضربةً خلفيَّةً ببلطةٍ طويلة المقبض، حطَّمت تُرس الرَّجل الذي سعى لمهاجَمته، وجعلَته يترنَّح فوق سَرجه.

صعَّب الزِّحام الكثيف تقدُّمهم أكثر من هذا، فقال السير كولن: «ليدي ستارك، إذا تفضَّل رجالكِ بالانتظار هنا، سأقدِّمكِ إلى الملك».

قالت: «ليكن»، وألقَت الأمر على رجالها، وإن اضطرَّت لرفع صوتها كي يسمعوها وسط هذا الضَّجيج، ثم قادَ السير كولن حصانه على مهلٍ بين الجموع، بينما ركبَت كاتلين وراءه مباشرةً. تردَّد هدير الجمهور مع سقوط رجلٍ أحمر اللِّحية لا يضع خوذةً وعلى تُرسه رمز الجريفين، أمام فارسٍ كبير الحجم يرتدي دِرعًا زرقاء، وفولاذ سلاحه كله أزرق داكن كالكوبالت، حتى الكرة الشَّائكة غير الحادَّة التي تحكَّم فيها بقوَّةٍ وبراعةٍ ماحقتين، بينما حملَت كسوة حصانه رمز عائلة تارث المتألِّف من أربعة مربَّعاتٍ تحوي شمسين وقمرين.

قال رجلٌ ما حانقًا: «رونيت الأحمر سقطَ، على الآلهة اللَّعنة».

- «لوراس سيُطيح بهذا الأزرق...»، أجابَ رفيقه قبل أن يُغرِق هدير المشجِّعين بقيَّة العبارة.

رجلٌ آخَر سقطَ تحت حصانه الجريح، وكلاهما يَصرُخ ألمًا، فهرعَ المُرافِقون لمساعَدتهما، بينما قالت كاتلين لنفسها: هذا جنون. على كلِّ جانبٍ أعداء حقيقيُّون، ونِصف البلاد مشتعل، وها هو رنلي جالس هنا يتعامَل مع الحرب كأنها لُعبة، كصبيٍّ يُمسِك سيفه الخشبيَّ الأول.

كان اللوردات والليديهات على المنصَّات مستغرقين في الالتحام الجماعي كالمتقاتلين أنفسهم، وفحصَتهم كاتلين بنظراتٍ متمعِّنة. كثيرًا ما تعاملَ أبوها مع لوردات الجَنوب، وكثيرون منهم حلُّوا ضيوفًا في ريڤررَن، فتعرَّفت اللورد ماثيس روان الأكثر سِمنةً وبهرجةً من ذي قبل، وقد فردَت شجرة عائلته الذَّهبيَّة فروعها على سُترته البيضاء، بينما جلسَت على مقعدٍ أدنى منه الليدي أوكهارت الرَّقيقة صغيرة الحجم، وإلى يسارها اللورد راندل تارلي سيِّد هورن هيل، وقد ثبَّت سيفه العظيم «آفة القلوب» منتصبًا على ظَهر مقعده. وهناك آخَرون تعرَّفتهم من رموزهم، وغيرهم لم تتعرَّفهم البتَّة.

ووسطهم، يتفرَّج ويضحك وإلى جانبه ملكته الشَّابَّة، جلسَ شبح يعتمر تاجًا ذهبيًّا.

لا غرو أن اللوردات يتحلَّقون حوله بهذه الحماسة. إنه روبرت وقد وُلدَ من جديد. وسيمٌ رنلي مِثلما كان روبرت وسيمًا، طويل الأطراف وعريض المنكبين، ويُكَلِّل رأسه الشَّعر الأسود الفاحم النَّاعم المسترسل ذاته، ولديه العينان الزَّرقاوان العميقتان نفسيهما، والابتسامة الحاضرة. بدَت الدَّائرة الرَّفيعة على رأسه ملائمةً له تمامًا، حلقة ورودٍ من الذَّهب الخالص مشكَّلة بمنتهى البراعة والجَمال، على مقدِّمتها رأس وعلٍ من اليشب الأخضر الدَّاكن، مزيَّن بعينين وقرنين من الذَّهب.

زيَّن الوعل المتوَّج سُترة الملك المخمليَّة الخضراء كذلك، بالخيوط الذَّهبيَّة المشغولة على صدره؛ رمز باراثيون بلوني هايجاردن. والفتاة التي احتلَّت المقعد العالي إلى جانبه من هايجاردن أيضًا، ملكته الشَّابَّة مارچري، ابنة اللورد مايس تايرل. تعلم كاتلين أن زواجهما هو ما يُحافِظ على ثبات

التَّحالف الجَنوبي العظيم. رنلي في الحادية والعشرين من العُمر، والفتاة لا تتعدَّى سِنَّ روب، فاتنة الملامح ولها عينا ظبيَّةٍ ناعمتا النَّظرات، وشَعر بنِّي مموَّج ينسدل على كتفيها في حلقاتٍ صغيرة بسيطة.

في المضمار سقطَ رجل آخَر عن حصانه أمام الفارس ذي المعطف المخطَّط بألوان قوس قزح، وصاحَ الملك مستحسِنًا مع الآخَرين، وسمعَته كاتلين يهتف: «لوراس! لوراس! هايجاردن!»، بينما صفَّقت الملكة متحمِّسةً.

التفتَت كاتلين لترى نهاية القتال. لم يتبقَّ هنالك غير أربعةٍ من الرِّجال، ولا مجال للخطأ في هويَّة مَن يُناصِره الملك والملكة والعامَّة. إنها لم تلتقِ السير لوراس تايرل من قبل، لكن حتى في الشَّمال البعيد سمعَت حكاياتٍ عن بطولة فارس الزُّهور الشَّاب. امتطى السير لوراس فحلًا أبيض طويلًا عليه كسوة من الحلقات الفضِّيَّة، وقاتلَ ببلطةٍ طويلة المقبض، وقد توسَّطَت مقدِّمة خوذته ريشة من الورد الذَّهبي. قرَّر اثنان من الباقين الآخَرين الاتِّحاد، واندفعا بحصانيهما صوب الفارس ذي الدِّرع الزَّرقاء الدَّاكنة، فاندفعَ الفارس الأزرق نحوهما بدوره بقوَّة، ليقرع وجه أحدهما بتُرسه المكسَّر، بينما رفعَ حصانه الأسود حدوته الفولاذيَّة ضاربًا الثَّاني في الآن نفسه، وفي غمضة عينٍ كان أحد الحليفين طريح الأرض والثَّاني يترنَّح. أسقطَ الفارس الأزرق تُرسه الذي تهشَّم ليُحَرِّر يده اليُسرى، ثم انقضَّ عليه فارس الزُّهور. لم يبدُ لوزن دِرع السير لوراس أثر يُذكَر على السُّرعة والرَّشاقة اللتين تحرَّك بهما، وألوان قوس قزح على معطفه تلتفُّ حوله كدوَّامة.

دارَ الحصانان الأبيض والأسود كحبيبين في رقصة عيد الحصاد، بينما تبادلَ راكباهما ضربات الفولاذ بدلًا من القُبلات، وتألَّقت البلطة الطَّويلة، وشقَّت الكرة الشَّائكة الهواء. كلا السِّلاحين غير حاد، لكنهما ظلَّا قادرَيْن على إصدار قعقعةٍ رهيبة على الرغم من ذلك. بلا تُرس كان الفارس الأزرق في وضع أسوأ، وقد هوى السير لوراس بضربةٍ تلو الضَّربة على رأسه وكتفيه على خلفيَّةٍ من الهتاف باسم هايجاردن من الجماهير، ورَدَّ الفارس الأزرق الضَّربات بهرَّاوته، لكن كلما اقتربَ رأسها الكروي من السير لوراس، رفعَ تُرسه الأخضر المكسَّر المزيَّن بثلاث ورودٍ ذهبيَّة. ثم، عندما ارتطمَت البلطة

الطَّويلة بيد الفارس الأزرق بضربةٍ عكسيَّة، جاعلةً الهرَّاوة تُفلِت من يده، صرخَ الجمهور كوحشٍ مهتاج.

ورفعَ فارس الزُّهور بلطته استعدادًا للضَّربة القاضية.

وانقضَّ الفارس الأزرق، ليرتطم الحصانان ببعضهما بعضًا، ويضرب رأس البلطة واقي الصَّدر الأزرق المشوَّه... لكن بشكلٍ ما ظَلَّ الفارس الأزرق قابضًا على المقبض بأصابع مغطَّاة بالفولاذ، واختطفَ البلطة من يد السير لوراس، قبل أن يشتبك الاثنان فجأةً وهما على ظَهري الحصانين، فقط ليَسقُطا بَعد لحظةٍ واحدة، وإذ انفصلَ حصاناهما هوى الاثنان أرضًا بعُنفٍ رَجَّ كيانيهما رَجًّا. كانت الصَّدمة أثقل وطأةً على لوراس تايرل لسقوطه أسفل الفارس الأزرق، الذي استلَّ خنجرًا طويلًا وفتحَ مقدِّمة خوذة تايرل، وهدرَ المتفرِّجون بصوتٍ أصخب من أن تسمع كاتلين ما قاله السير لوراس، لكنها رأت الكلمة على شفتيه المشقوقتين الدَّاميتين: أستسلمُ.

نهضَ الفارس الأزرق بلا ثباتٍ ورفعَ خنجره في اتِّجاه رنلي باراثيون، تحيَّة البطل لملكه، ثم هرعَ المُرافِقون إلى المضمار يُساعِدون الفارس المهزوم على النُّهوض، وبُهِتَت كاتلين لمرأى سِنِّه الصَّغيرة عندما خلعوا خوذته، فلا بُدَّ أنه يسبق روب في العُمر بعامين على الأكثر. قد يكون الصَّبي جميل القسمات كأخته، لكن الشَّفتين المشقوقتين والعينين الزَّائغتين والدَّم المتقاطر من شَعره الملبَّد جعلوا التأكُّد عصيًّا.

قال الملك للفائز: «يُمكنك الاقتراب».

تقدَّم الفارس من منصَّة الملك بخطواتٍ عرجاء، ومن مقربةٍ بدَت دِرعه الزَّرقاء البديعة في حالةٍ مزرية؛ الخدوش منتشرة في كلِّ شِبرٍ منها، والانبعاجات التي خلَّفتها القضبان الشَّائكة والمطارق الحربيَّة، والشُّقوق الطَّويلة التي تركَتها السُّيوف، والكسور في واقي الصَّدر والخوذة المطليَّين بالمينا. معطفه أيضًا استحالَ إلى أسمال، ووشَت الطَّريقة التي تحرَّك بها بأن حال الرَّجل الذي في داخل الدِّرع لا تقلُّ سوءًا. حيَّته بضعة أصوات هاتفةً: «تارث!»، لكن الغريب أن البعض هتفَ: «المليحة! المليحة!»، بينما لاذَت

الأكثريَّة بالصَّمت. ركعَ الفارس الأزرق أمام الملك قائلًا بصوتٍ مكتوم من داخل خوذته العظيمة المنبعجة: «مولاي».

قال رنلي بصوتٍ بلغَ مسامع الجميع: «اللورد سلوين كان صادقًا فيما قاله. لقد رأيتُ السير لوراس يُسقَط عن حصانه مرَّةً أو مرَّتين... لكن ليس بهذه الطَّريقة قَطُّ».

على مقربةٍ قال قوَّاس سكران على سُترته وردة عائلة تايرل متذمِّرًا: «لم يَسقُط بطريقةٍ لائقة. كانت حيلةً وضيعة».

كان الازدحام قد بدأ يخفُّ، وقالت كاتلين لمُرافِقها: «سير كولن، مَن هذا الرَّجل، ولماذا يكرهونه هكذا؟».

أجابَ السير كولن مقطِّبًا وجهه: «لأنه ليس رجلًا يا سيِّدتي. إنها بِريان التارثيَّة، ابنة اللورد سلوين نجم المساء».

مرتاعةً ردَّدت كاتلين: «ابنة؟!».

- «يُلَقِّبونها ببِريان المليحة... وإن لم يكن في وجهها، خشية أن يجدوا أنفسهم مرغَمين على الدِّفاع عن كلامهم بأجسادهم».

سمعَت الملك رنلي يُعلِن الليدي بِريان التارثيَّة المنتصرة في الالتحام الجماعي العظيم في «جسر العلقم»، بصفتها آخِر مَن ظَلَّ على حصانه مِن مئة وستَّة عشر فارسًا، ثم قال لها: «باعتباركِ البطلة، يُمكنكِ أن تَطلُبي مني أيَّ هبةٍ تشائين، وإذا كانت تقع في نطاق قُدرتي، فهي لكِ».

أجابَت بِريان: «جلالة الملك، إنني أطلبُ شَرف أن يكون لي مكان في حَرس قوس قزح. أريدُ أن أكون من حَرسك السَّبعة، أن أتعهَّد بحماية حياتك بحياتي، وأن أتبعك حيثما ذهبت، وأركب إلى جانبك، وأقيك من كلِّ سوءٍ وأذى».

قال: «لكِ هذا. انهضي واخلعي خوذتكِ».

فعلَت كما أمرَها، ولمَّا رُفِعَت الخوذة العظيمة، استوعبَت كاتلين كلام السير كولن.

بالمليحة يُلَقِّبونها... لكن ساخرين. كشفَت الخوذة عندما خلعَتها عن شَعرٍ كعُشٍّ سنجابٍ من القَشِّ المتَّسخ، أمَّا وجهها... لبِريان عينان واسعتان

بالِغتا الزُّرقة، عينا فتاةٍ صغيرة، واثقتان وبريئتان، بينما الباقي... ملامحها عريضة خشنة، وأسنانها ناتئة معوجَّة، وفمها واسع للغاية، وشفتاها ممتلئتان وتكادا تبدوان متورِّمتين، بينما انتشرَ النَّمش بغزارةٍ على وجنتيها وجبهتها، كما أن من الواضح أن أنفها كُسِرَ أكثر من مرَّة. ملأت الشَّفقة قلب كاتلين، وقالت لنفسها: أفي الدُّنيا مخلوق أشقى من امرأةٍ قبيحة؟

وعلى الرغم من ذلك، عندما خلعَ رنلي معطفها الممزَّق وألبسَها آخَر بألوان قوس قزح، لم تبدُ برِيان بذلك الشَّقاء، إذ أضاءَت بسمتها وجهها، وخرجَ صوتها قويًّا أبيًّا وهي تقول: «حياتي لك يا جلالة الملك. من الآن فصاعدًا أنا تُرسك، وأقسمُ على هذا بالآلهة القديمة والجديدة». كانت الطَّريقة التي تتطلَّع بها إلى الملك، تتطلَّع بها من أعلى بالأحرى، فهي أطول منه قامةً بشِبرٍ كامل، وإن كان رنلي يُقارِب أخاه الرَّاحل طولًا—رؤية تلك النَّظرات كانت مؤلمةً حقًّا.

ترجَّل السير كولن ليقترب من المنصَّة، وقال: «جلالة الملك، يُشَرِّفني أن أقدِّم لك اللَيدي كاتلين ستارك، التي جاءتنا مبعوثةً من ابنها روب، سيِّد وينترفل».

قالت: «سيِّد وينترفل والملك في الشَّمال»، وترجَّلت بدورها لتقف إلى جوار السير كولن.

لاحَت الدَّهشة على رنلي وهو يُخاطِبها قائلًا: «الليدي كاتلين؟ يا لها من مفاجأةٍ سارَّة»، والتفتَ إلى ملكته الشَّابَّة، وقال: «مارچري يا جميلتي، هذه هي الليدي كاتلين ستارك من وينترفل».

قالت الفتاة بدماثةٍ ناعمة: «مرحبًا بكِ أيتها الليدي ستارك، وآسفةٌ لمصيبتكِ».

- «هذا لُطف منكِ».

قال الملك: «سيِّدتي، أقسمُ لكِ أني سأعملُ على أن يدفع آل لانستر ثمن قتْل زوجكِ. عندما آخذُ كينجز لاندنج، سأرسلُ لكِ رأس سرسي».

وهل سيُعيد ذلك ند إليَّ؟ «سيكفيني أن أعرف أن العدالة أُنجِزَت يا سيِّدي».

قالت بِريان الزَّرقاء مصحِّحةً بحزم: «يا جلالة الملك. وعليكِ أن تركعي عندما تُخاطِبين الملك».

ردَّت كاتلين: «المسافة بين «سيِّدي» و«جلالة الملك» قصيرة يا سيِّدتي. اللورد رنلي يرتدي تاجًا، وكذلك ابني. إذا أردتِ، يُمكننا أن نقف هنا في الوحل ونتجادَل حول الألقاب المستحقَّة لهذا وذاك، لكن لدينا أمورًا أهمَّ علينا مناقَشتها».

همهمَ بعض لوردات رنلي اعتراضًا، لكن الملك ضحكَ قائلًا: «أحسنتِ القول يا سيِّدتي. سيكون هناك وقت للألقاب بَعدما تضع الحرب أوزارها. أخبِريني، متى ينوي ابنكِ الزَّحف على هارنهال؟».

إلى أن تعرف كاتلين إن كان هذا الملك صديقًا أم عدوًّا، فإنها لن تُفصِح عن أضأل جزءٍ من ترتيبات روب. هكذا قالت: «لا أشاركُ في مجلس ابني الحربي يا سيِّدي».

- «ما دامَ سيَترُك لي بعضًا من آل لانستر، فلن أشكو. ماذا فعلَ بقاتِل الملك؟».

- «چايمي لانستر أسير في ريڤررَن».

قال اللورد ماثيس روان وقد بدا عليه الذُّعر: «أما زال حيًّا؟».

وبدهشةٍ قال رنلي: «يبدو أن الذِّئب الرَّهيب أرقُّ من الأسد».

غمغمَت الليدي أوكهارت بابتسامةٍ مريرة: «الأرقُّ من عائلة لانستر كالأكثر جفافًا من البحر».

قال اللورد راندل تارلي ذو اللِّحية القصيرة الخشنة، والمعروف بفظاظته: «أرى هذا ضَعفًا. لا أقصدُ إهانتكِ أيتها الليدي ستارك، لكن كان من الأليق أن يأتي اللورد روب ليُبايِع الملك بنفسه بدلًا من الاختباء وراء ثوب أمِّه».

ردَّت كاتلين بكياسةٍ باردة الجليد: «الملك روب يخوض حربًا يا سيِّدي، ولا يلعب في دورة مباريات».

قال رنلي وقد ارتسمَت ابتسامة عريضة على وجهه: «على رسلك يا لورد راندل، فأخشى أنك لست نِدًّا لها»، ثم استدعى وكيلًا يرتدي الزِّيَّ المميِّز لستورمز إند، وقال: «جِد مكانًا لرفاق الليدي، واحرص على تزويدهم بجميع

وسائل الرَّاحة. ستنزل الليدي كاتلين في سُرادقي الخاص، فلستُ أحتاجه بما أن اللورد كازويل تلطَّف بالسَّماح لي باستخدام قلعته. سيِّدتي، سيُشَرِّفني بَعدما تستريحين أن تُشاركينا الطَّعام والشَّراب في المأدبة التي سيُقيمها اللورد كازويل لنا اللَّيلة. إنها مأدبة وداع، فأخشى أن حضرة اللورد يرغب في رؤية أدبار قطيعي الجائع».

قال شابٌّ نحيل لا بُدَّ أنه كازويل هذا: «غير صحيح يا جلالة الملك، ما أملكه مِلكك».

قال رنلي: «كلما قال أحدهم هذا لأخي روبرت، ألزمَه بكلمته. ألديك بنات؟».

- «نعم يا جلالة الملك، اثنتان».

- «عليك أن تَشكُر الآلهة إذن أني لستُ روبرت، فملكتي الجميلة كلُّ مَن أشتهي مِن النِّساء»، ثم مَدَّ رنلي يده يُساعِد مارچري على النُّهوض، وقال لكاتلين: «سنتكلَّم ثانيةً عندما تستريحين يا سيِّدتي».

لم تستطِع كاتلين أن تتخيَّل شيئًا تحتاجه وغير متوفِّر بالفعل، فالسُّرادق أكبر حجمًا من القاعة العامَّة في أيِّ خان، ومزوَّد بكلِّ وسائل الرَّاحة: حشيَّة فِراش من الرِّيش، وأغطية من الفرو، وحوض استحمام من الخشب والنُّحاس يكفي فردين، ومستوقَد للتَّدفئة من برودة اللَّيل، وكراسي نقَّالة وثيرة من الجِلد، ومنضدة للكتابة عليها الرِّيش والحبر، وأوعية من الخوخ والبرقوق والكمِّثرى، وإبريق من النَّبيذ مع طقم متماثل من الكؤوس الفضِّيَّة، وصناديق من خشب الأَرز معبَّأة بثياب رنلي، وكُتب وخرائط ورُقع ألعاب وقيثارة سامية، وقوس طويل وكنانة، وزوج من صقور الصَّيد حمراء الذَّيل، وترسانة متنوِّعة من الأسلحة الممتازة. قالت لنفسها متطلِّعةً إلى كلِّ هذا: رنلي هذا لا يبخل على نفسه بشيء. لا عجب أن جيشه يتحرَّك بمنتهى البطء.

إلى جوار المدخل وقفَت دِرع الملك كالحارس؛ بذلة من الصَّفائح الفولاذيَّة الملوَّنة بأخضر الغابات، ملحقاتها مطعَّمة بالذَّهب، والخوذة متوَّجة بقرنين ذهبيَّين عظيمين، والفولاذ ملمَّع بمنتهى العناية حتى إن كاتلين شاهدَت انعكاسها على واقي الصَّدر، يُحَدِّق فيها من قاع بِركةٍ خضراء عميقة.

وجه امرأةٍ غريقة. أمن الممكن أن يغرق المرء في الحُزن؟ أشاحَت بوجهها بحدَّةٍ وقد أصابَها الغضب من هذه الهفوة. إنها لا تملك الوقت لرِّثاء الذَّات، وعليها أن تغسل شَعرها من التُّراب وترتدي فُستانًا يليق بمأدبة الملك.

اصطحبَها السير وندل ماندرلي ولوكاس بلاكوود والسير پروين فراي وبقيَّة رفاقها من النُّبلاء إلى القلعة. لا يُمكن القول بأن القاعة الكُبرى في حصن اللورد كازويل كُبرى إلَّا مجامَلةً، لكنهم وجدوا أماكن لرجال كاتلين على الدِّكك المزدحمة، بينما خُصِّص لكاتلين نفسها مكان على المنصَّة بين اللورد ماثيس روان ذي الوجه المتورِّد، والفارس الدَّمث چون فوسواي من فرع التُّفَّاحة الخضراء في عائلة فوسواي. ألقى السير چون عددًا من الدُّعابات، فيما استعلمَ اللورد ماثيس بأدبٍ عن صحَّة أبيها وأخيها وأطفالها.

جلسَت بِريان التارثيَّة على الطَّرف القصيِّ من المائدة العالية، وقد ارتدَت بدلًا من ثياب السيِّدات ملابس فارسٍ أنيقة؛ سُترةً من المخمل نُقِشَ عليها مربَّعان بالوردي وآخَران بالأزرق السَّماوي، وسراويل وحذاءً طويل العُنق، وحزام سيفٍ مزخرَف، بينما انسدلَ معطفها الجديد ذو ألوان قوس قزح على ظَهرها. غير أن لا ثياب من شأنها صرْف الأنظار عن ملامحها، عن الوجه المسطَّح العريض، واليدين المنمَّشتين، والأسنان البارزة، وقد بدا جسدها خارج الدِّرع غير متناسق، ولاحَ وَركاها العريضان وأطرافها الغليظة وكتفاها المتحدِّبتان بعضلاتهما المفتولة، بينما يكاد لا يكون لها ثديان على الإطلاق... ومن الجليِّ من كلِّ حركةٍ أن بِريان تعي كلَّ هذا وتُعاني بسببه، فكانت تتكلَّم ردًّا فقط، وقلَّما رفعَت عينيها عن طعامها.

والطَّعام كان وفيرًا حقًّا، فالحرب لم تمسَّ أراضي هايجاردن المعطاءة، وبينما غنَّى المغنُّون ومارسَ المهرِّجون ألعابهم، بدأت المأدبة بالكمِّثرى المسلوقة في النَّبيذ، واستمرَّت لتشمل نوعًا صغيرًا لذيذًا من السَّمك مطهيًّا حتى النُّضوج التَّام ومدحرَجًا في الملح، وديوكًا محشوَّة بالبصلِ والفِطر، بالإضافة إلى أرغفةٍ كبيرة من الخُبز الأسمر، وأكوام من اللِّفت والذُّرة الحُلوة والبازلاء، وأفخاذ خنازير ضخمة، وإوزٍ مشويٍ، وصِحاف ممتلئة بلحم الغزلان المطبوخ بالبيرة والشَّعير. وجاءَ خدم اللورد كازويل بأطباق من

الحلويَّات من مطابخ القلعة، ضمَّت الكريمة على شكل البجعة، وغزل البنات على شكل اليونيكورن(1)، وكعكات اللَّيمون على شكل الورد، والبسكويت بالعسل والتَّوابل، وكعكات التُّوت الأسود، ورقائق التُّفَّاح، وقوالب الجبن المزبَّد.

أشعرَت الأطعمة الدَّسمة كاتلين بالغثيان، لكن لن ينفعها أبدًا أن تُبدي أيَّ ضَعفٍ بينما يعتمد الكثير جدًّا على قوَّتها، فاكتفَت بلقيماتٍ صغيرة وهي تَرقُب هذا الرَّجل الذي يُريد أن يكون ملكًا. جلسَ رنلي وإلى يساره عروسه الشَّابَّة، وإلى يمينه أخوها، وبغَضِّ النَّظر عن الضمَّادة الكتَّان البيضاء حول جبهته، لم يبدُ السير لوراس في حالٍ سيِّئةٍ مع وضع إصابات اليوم في الاعتبار. إنه وسيم بالفعل كما خطرَ لها، والآن وقد غابَت عن عينيه الغمامة وجدَتهما مفعمتين بالحيويَّة والذَّكاء، ورأت شَعره شلَّالًا طبيعيًّا من الخُصل البنِّيَّة التي تحسده عليها فتيات كثيرات. كان قد ارتدى معطفًا جديدًا بدلًا من الذي مزَّقه القتال، حريره مصبوغ بألوان حَرس قوس قزح، ويُثبِّته مشبك على شكل وردة هايجاردن الذَّهبيَّة.

بين الحين والآخَر كان الملك يُطعِم مارچري قطعة طعام منتقاة من على طرف خنجره، أو يميل ليطبع قُبلةً شديدة الخفَّة على وجنتها، لكن السير لوراس هو من تقاسمَ معه أغلب مُزاحه وكلامه الهامس. من الواضح أن الملك يستمتع بالطَّعام والشَّراب، لكنه لم يبدُ شرهًا أو سكِّيرًا، وعندما يضحك يتردَّد ضحكه عاليًا طويلًا، كما أنه يُخاطِب كبار السَّادة وصُغريات الخادمات بالدَّماثة نفسها.

على أن بعض ضيوفه كانوا أقلَّ اعتدالًا، فقد شربوا كثيرًا ورفعوا عقيرتهم بعبارات تباهٍ أصخب من اللَّازم في رأيها. دخلَ جوسوا وإلاياس ابنا اللورد ويلوم في جدلٍ محتدم حول مَن منهما سيَعبُر أسوار كينجز لاندنج أولًا، وهزهزَ اللورد ڤارنر خادمةً على رُكبتيه، ممرِّغًا أنفه في عُنقها وقد زحفَت يده تحت صِدارها، بينما داعبَ جايارد الأخضر -الذي يحسب أنه يُجيد الغناء-

(1) اليونيكورن مخلوق أسطوري عبارة عن حصان له قرن واحد ويتمتَّع بقدرات سحريَّة.

قيثارةً، وغنَّى لهم مقطعًا بعض أجزائه مقفًّى عن ربْط ذيول الأسود في عُقد، وأحضرَ السير مارك مالندور قردًا أبيض وأسود وأطعمَه من طبقه الخاص، أمَّا السير تانتون ابن فرع التُّفَّاحة الخضراء من عائلة فوسواي، فصعدَ على المائدة وأقسمَ أن يَقتُل ساندور كليجاين في نزالٍ فردي، وكان القَسم ليبدو أكثر مهابةً لو لم تكن إحدى قدمي السير تانتون في قارب المرق عندما ألقاه.

بلغَت الملهاة ذُروتها عندما ظهرَ مهرِّج ممتلئ متواثبًا وقد ارتدى الصَّفيح المطلي بالذَّهبي ورأس أسدٍ من القُماش، وراحَ يُطارِد قزمًا بين الموائد ويضربه على رأسه بكيس هواءٍ مملوء، حتى طالبَ الملك بمعرفة سبب ضربه أخيه، فأجابَ المهرِّج: «لأني قاتِل أهلي يا جلالة الملك».

قال رنلي: «تقصد قاتِل الملك يا أحمق المهرِّجين»، فتفجَّر الضَّحك في القاعة.

لم يُشارِك اللورد روان الجالس إلى جوار كاتلين في المرح، وقال: «كلهم صغار السِّنِّ للغاية».

إنه محقٌّ، ففارس الزهور لم يكن قد شهدَ يوم ميلاده الثَّاني عندما قتلَ روبرت الأمير ريجار في معركة الثَّالوث، وقِلَّة من الآخَرين يَكبُرونه، إذ كانوا رُضَّعًا عندما نُهِبَت كينجز لاندنج، ومجرَّد صِبيةٍ عندما قادَ بالون جرايچوي تمرُّد جُزر الحديد. قالت لنفسها وهي تُشاهِد اللورد برايس يحثُّ السير روبار على إلقاء وتدوير زوجٍ من الخناجر في الهواء: مازالوا لا يعرفون مذاق الدَّم، وكلُّ هذا مجرَّد لُعبةٍ في أنظارهم، دورة مباريات على نطاقٍ أكبر، ولا يرون إلَّا فُرصة نيل المجد والشَّرف والغنائم. إنهم صِبية أسكرَتهم الأغاني والقصص، وككلِّ الصِّبية يحسبون أنفسهم خالدين.

قالت كاتلين: «ستجعلهم الحرب يَكبُرون كما جعلَتنا». كانت فتاةً عندما رفعَ روبرت وند وچون آرن راياتهم ضد إيرس تارجارين، وامرأةً عندما انتهى القتال. «إنني أشفقُ عليهم».

قال اللورد روان: «لماذا؟ انظُري إليهم، إنهم شباب أقوياء، مفعَمون بالحياة والضَّحك، والشَّهوة كذلك، نعم، شهوة لا يدرون ماذا يفعلون بها. أؤكِّدُ لك أن بذور نغولٍ كُثر ستُزرَع اللَّيلة، فلِمَ تُشفِقين عليهم؟».

أجابَت بحُزن: «لأن هذا لن يدوم، لأنهم فُرسان الصَّيف، والشِّتاء قادم».

رمقَتها بِريان بعينيها الزَّرقاوين كدِرعها قائلةً: «أنتِ مخطئة يا ليدي كاتلين. الشِّتاء لن يأتي من هُم مِثلنا أبدًا. إذا سقَطنا في المعركة، فلا بُدَّ أنهم سيُؤَلِّفون أغاني عنا، وفي الأغاني الصَّيف أمدي، وفي الأغاني كلُّ الفُرسان بواسلٍ، وكلُّ الفتيات جميلات، والشَّمس ساطعة دومًا».

فكَّرت كاتلين: الشِّتاء يأتينا جميعًا، أتاني عندما ماتَ ند، وسيأتيكِ أيضًا يا صغيرتي، أسرع مما تحسبين، لكن قلبها لم يُطاوِعها على التلفُّظ بأفكارها.

أنقذَها الملك رنلي عندما ناداها قائلًا: «ليدي كاتلين، أرغبُ في القليل من الهواء النَّقي، فهلَّا تمشَّيتِ معي؟».

نهضَت من فورها مجيبةً: «يُشَرِّفني أن أفعل».

نهضَت بِريان بدورها، وقالت: «جلالة الملك، امنحني لحظةً أرتدي دِرعي، فلا ينبغي أن تكون بلا حماية».

ابتسمَ رنلي وقال لها: «لو لم أكن آمنًا في قلب قلعة اللورد كازويل، وجيشي يُحيط بي، فلن يصنع سيف واحد فارقًا، حتى سيفكِ أنتِ يا بِريان. اجلسي وكُلي، وإذا احتجتكِ سأستدعيكِ».

بدا وقْع كلماته على الفتاة أعنف من أيِّ ضربةٍ تلقَّتها اليوم ظُهرًا، وقالت كاسفة البال: «كما ترغب يا جلالة الملك»، فتأبَّط رنلي ذراع كاتلين وقادَها من القاعة مرورًا بحارسٍ يقف بتراخٍ، أسرعَ يعتدل فكادَ يُسقِط رُمحه، لكن رنلي ربَّت على كتفه وألقى دُعابةً.

قال الملك: «من هنا يا سيِّدتي»، وخرجَ بها من بابٍ واطئ يقود إلى سُلَّم، ثم سألَها وهما يبدآن الصُّعود: «بالمناسَبة، هل السير باريستان سلمي مع ابنكِ في ريڤررَن؟».

أجابَت حائرةً: «كلا. ألم يَعُد مع چوفري؟ إنه قائد الحَرس الملكي».

هَزَّ رنلي رأسه قائلًا: «قال له أولاد لانستر إنه مسنٌّ جدًّا وأعطوا معطفه لكلب الصَّيد، وقيلَ لي إنه غادرَ كينجز لاندنج مقسمًا أن يلتحق بخدمة الملك الحقيقي. كنتُ محتفظًا بذلك المعطف الذي حازَته بِريان اليوم من

أجل سلمي، على أمل أن يعرض عليَّ سيفه، وعندما لم يظهر في هايجاردن، خطرَ لي أنه ذهبَ إلى ريفرزن ربما».

- «لم نرَه».

قال رنلي: «كان مسنًّا، نعم، لكنه يبقى رجلًا صالحًا، وأتمنَّى أن سوءًا لم يمسَّه. آل لانستر حمقى كبار حقًّا»، وصعدا بضع درجاتٍ أخرى قبل أن يُواصِل: «ليلة ماتَ روبرت، عرضتُ على زوجكِ أن أمدَّه بمئة رجل، وألححتُ عليه أن يفرض سيطرته على چوفري، فلو أصغي إليَّ لكان وصيًّا على العرش اليوم، ولما كنتُ لأجد حاجةً للمطالَبة بالتَّاج».

لم تكن تحتاج من يُخبِرها هذا، فقالت له: «ورفضَ ند».

- «لقد أقسمَ على حماية أطفال روبرت. كنتُ أفتقر للقوَّة الكافية للتصرُّف وحدي، فلم أجد لديَّ خيارًا غير الهرب عندما رفضَ اللورد إدارد عرضي. كنتُ أعرفُ أن الملكة لن تسمح لي بالحياة طويلًا بَعد زوجها لو أني بقيتُ».

فكَّرت كاتلين بمرارة: لو أنك بقيت وساندت ند، لكان حيًّا ما زال.

- «كنتُ معجبًا بزوجكِ للغاية يا سيِّدتي، وأعلمُ أنه كان صديقًا مخلصًا لروبرت... لكنه رفضَ الإصغاء والإذعان. مِن هنا، أريدُ أن أريكِ شيئًا». كانا قد بلغا قمَّة السُّلَّم، وفتحَ رنلي بابًا خشبيًّا خرجا منه إلى السَّطح.

لا يرتفع حصن اللورد كازويل عاليًا لدرجة أن تُسَمِّيه بُرجًا، لكن هذه المنطقة من الرِّيف واطئة ومسطَّحة، فاستطاعَت كاتلين أن ترى مسافة فراسخ عديدة في كلِّ الاتِّجاهات، وحيثما نظرَت رأت بؤر نارٍ تُغَطِّي الأرض كالنُّجوم الهاوية، وكالنُّجوم لا آخِر لها. قال رنلي بهدوء: «جرِّبي العَدَّ إذا أردتِ يا سيِّدتي، وستجدين نفسكِ لم تَفرُغي بعدُ عندما يبزغ الفَجر في الشَّرق. كم بؤرة نارٍ تتَّقد حول ريفررَن اللَّيلة يا تُرى؟».

كانت كاتلين تسمع أنغام الموسيقى الخافتة الآتية من القاعة الكُبرى متخلِّلةً اللَّيل، ولم تجرؤ على عَدِّ النُّجوم.

تابعَ رنلي: «بلغَني أن ابنكِ عبرَ «العُنق» بعشرين ألف رجل، والآن وقد انضمَّ إليه لوردات الثَّالوث، فلعلَّه يقود أربعين ألفًا».

لا، ليس عددًا قريبًا من هذا حتى. لقد فقدنا كثيرين في القِتال، وآخَرين ترَكونا في سبيل الحصاد.

قال رنلي: «إن معي ضِعف هذا العدد هنا، وهذا مجرَّد جزء من قوَّتي، فمايس تايرل في هايجاردن معه عشرة آلاف آخَرون، ولديَّ حامية قويَّة تُحافِظ على ستورمز إند، وقريبًا سينضمُّ إليَّ الدورنيُّون بكلِّ قوَّتهم. وإياكِ أن تنسي أخي ستانيس، الذي يتسيَّد دراجونستون ويقود لوردات البحر الضيِّق».

ردَّت كاتلين بحدَّةٍ أشد مما أرادَت: «يبدو أنك أنت مَن نسيت ستانيس».

ضاحكًا قال رنلي: «أتقصدين دعواه؟ لنتكلَّم بمنتهى الصَّراحة يا سيِّدتي، كان ستانيس ليُصبِح ملكًا شنيعًا، وليس من المحتمَل أن يصير واحدًا على كلِّ حال. النَّاس يحترمون ستانيس، بل ويخافونه، لكن قِلَّةً قليلةً منهم تُحِبُّه».

- «لكنه ما زال أخاك الأكبر، وإذا كان لأحدكما حَقٌّ في العرش الحديدي، فلا بُدَّ أن يكون اللورد ستانيس».

هَزَّ رنليَ كتفيه، وقال: «أخبِريني، أكان هناك أيُّ حَقٍّ لأخي روبرت في العرش الحديدي؟»، ولم ينتظر منها إجابةً، بل أكملَ: «أوه، كان هناك كلام عن صِلة قرابةٍ بين عائلتي باراثيون وتارجارين، عن زيجاتٍ تمَّت قبل مئة عام، عن الأبناء الثَّانين والبنات البِكر، لكن لا أحد غير المِايسترات يُبالي بشيءٍ من هذا. روبرت ظفرَ بالعرشِ بواسطة مِطرقته الحربيَّة»، ولوَّح بيده مشيرًا إلى بؤر النَّار المشتعلة من الأفق إلى الأُفق، وواصلَ: «حسنٌ، ها هي دعواي، تمامًا كما كانت دعوى روبرت. إذا ساندَني ابنكِ كماساندَ أبوه روبرت، فلن يجدني بخيلًا، وسيُسعِدُني أن أصدِّق على امتلاكه جميع أراضيه وألقابه ومراتب شَرفه. يُمكنه أن يَحكُم من وينترفل كما يشاء، بل ويُمكنه أن يستمرَّ في تسمية نفسه الملك في الشَّمال إذا أرادَ، ما دامَ سيركع أمامي ويُبايِعني باعتباري سيِّده الأعلى. «الملك» مجرَّد كلمة، لكن الوفاء والإخلاص والخدمة... هذا ما يجب أن أحظى به».

- «وإذا لم يمنحك تلك الأشياء يا سيِّدي؟».

- «إنني أنوي أن أكون ملكًا يا سيِّدتي، وليس على مملكةٍ منقوصة. لا يُمكنني أن أقولها بوضوحٍ أكبر. منذ ثلاثمئة عامٍ ركعَ واحد من ملوك ستارك

أمام إجون التنِّين، عندما رأى أن لا أمل له في النَّصر. تلك كانت حكمة منه، وعلى ابنكِ أن يكون حكيمًا كذلك. بمجرَّد أن ينضمَّ إليَّ، فهذه الحرب في حُكم المنتهية. إننا...»، وبترَ رنلي كلامه فجأةً وقد جذبَ انتباهه شيء ما، وقال: «ما هذا؟».

أفصحَت صلصلة السَّلاسل عن رفْع الشَّبكة الحديديَّة، وفي السَّاحة في الأسفل همزَ خيَّال يعتمر خوذةً مجنَّحةً حصانه المنهَك ليمرَّ تحت القضبان المدبَّبة، وصاحَ: «استدعوا الملك!».

وثبَ رنلي إلى أعلى ليقف في فُرجةٍ بين جدارين في الشُّرفة، وقال: «أنا هنا أيها الفارس».

تقدَّم الخيَّال بحصانه قائلًا: «جلالة الملك، لقد أتيتُ بأقصى سرعتي من ستورمز إند. إننا محاصَرون يا جلالة الملك. السير كورتناي يتحدَّاهم، وإنما...».

- «لكن... هذا مستحيل. كان الخبر ليَبلُغني لو أن اللورد تايوين غادرَ هارنهال».

- «إنه ليس جيش لانستر يا مولاي، بل هو اللورد ستانيس على بوَّاباتك، الملك ستانيس كما يدعو نفسه الآن».

جون

انهمرَ المطر مدرارًا ليضرب وجه جون كالسِّياط، وهو يهمز حصانه عابرًا به الجدول الذي فاضَت مياهه، وإلى جواره شَدَّ حضرة القائد مورمونت قلنسوته على رأسه أكثر، وراحَ يصبُّ لعناته على الطَّقس، بينما استقرَّ غُدافه على كتفه نافشًا ريشه، وقد تعكَّر مزاجه كالدُّب العجوز نفسه. هبَّت الرِّيح لتُطَيِّر أوراق الشَّجر المبتلَّة حولهم كسرب من الطُّيور الميتة، وفكَّر جون بكآبة: الغابة المسكونة... الغابة الغارقة بالأحرى.

تمنَّى أن يكون سام صامدًا وهو يتحرَّك في مؤخِّرة الرَّكب، فهو ليس بارعًا في الرُّكوب، حتى في الأجواء المعتدلة، ناهيك بهذا الجَوِّ الذي ينزل فيه الغيث منذ ستَّة أيام كاملة بلا انقطاع، جاعلًا الأرض خدَّاعةً، كلها وحل رخو وصخور خفيَّة. عندما تهبُّ الرِّيح، فإنها تدفع الماء في أعيُنهم مباشرةً، فلا شَكَّ أن أجزاءً صغيرةً من «الجِدار» تتطايَر جَنوبًا، ثلوجًا ذائبةً تتَّحد مع قطرات الأمطار الدَّافئة لتمتزج بمياه الجداول والأنهار. ولا بُدَّ أن پيپ وتودر جالسان الآن بالقُرب من النَّار في قاعة القلعة السَّوداء العامَّة، يحتسيان النَّبيذ المتبَّل قبل العَشاء. شعرَ جون بالحسد نحوهما، فقد التصقَت ثيابه الصُّوف المشبَّعة بالماء بجسده وأشعرَته بالحكَّة، وآلمَته رقبته وكتفاه بشدَّة بسبب وزن قميص الحلقات المعدنيَّة والسَّيف الثَّقيل، بالإضافة إلى السَّأم التَّام الذي أصابَه من سمك القُد واللَّحم المملَّح والجبن الجامد.

من أمامهم تردَّد نفير مرتعش من بوق صيد، وقد طغَى عليه صوت المطر المتساقط بلا توقُّف، فأعلنَ الدُّب العجوز: «بوق بكويل. الشُّكر للآلهة، ما

زال كراستر هنا»، وخفقَ غُدافه بجناحيه الواسعين مرَّةً ناعبًا: «ذُرة!»، ثم عادَ ينفش ريشه.

كثيرًا ما سمعَ چون الإخوة السُّود يتحاكون عن كراستر وقلعته، والآن سيراها بأُمِّ عينيه. بَعد سبع قُرى خاوية على عروشها، كانوا يتوجَّسون خيفةً جميعًا من أن يجدوا مقرَّ كراستر خاليًا مهجورًا كغيره، لكن يبدو أن ذلك لن يتكرَّر هنا. قد يتحصَّل الدُّب العجوز على بعض الإجابات أخيرًا، وعلى كلِّ حالٍ سنجد ساترًا من المطر.

أقسمَ ثورين سمولوود أن كراستر صديق لحَرس اللَّيل، على الرغم من سُمعته السيِّئة، وقال للدُّب العجوز: «لن أنكر أن الرَّجل شِبه مخبول، لكنك كنت لتُصاب بالخبال مِثله لو أنك قضيت حياتك في هذه الغابة الملعونة، ومع ذلك فهو لم يبخل بناره على أحد الجوَّالة قَطُّ، كما أنه لا يحبُّ مانس رايدر. سيمنحنا مشورةً مفيدةً».

ما دامَ سيُعطينا وجبةً ساخنةً والفُرصة لتجفيف ملابسنا، سأكونُ راضيًا. قال دايوين إن كراستر يَقتُل ذويه، وإنه كذَّاب ومغتصِب وجبان، ولمَّح إلى أن له تعامُلات ما مع النخَّاسين والشَّياطين، وأضافَ الحطَّاب العجوز مطقطقًا بأسنانه الخشبيَّة: «وأسوأ... ثمَّة رائحة باردة تنبعث من هذا الرَّجل حقًّا».

قال اللورد مورمونت آمرًا: «چون، اركب حتى نهاية الطَّابور وانشُر الخبر، وذكِّر القيِّمين بأني لا أريدُ أيَّ متاعب مع زوجات كراستر. على الرِّجال أن يصونوا أيديهم، ويُوَجِّهوا أقلَّ القليل من الكلام لهؤلاء النِّسوة».

قال چون: «أمرك يا سيِّدي»، ودارَ بحصانه عائدًا أدراجه من حيث أتوا، شاعرًا بالسُّرور لابتعاد المطر عن وجهه ولو فترةً قصيرةً، بينما بدا كلُّ مَن مَرَّ بهم كأنهم يبكون، وقد امتدَّت مسيرتهم مسافة نِصف ميلٍ في الغابة. وجدَ ساموِيل تارلي في منتصَف طابور عربات الأمتعة، يجلس محنيَّ الظَّهر فوق سَرجه وتحت قبَّعةٍ عريضةٍ مرنة وقد امتطى واحدًا من أحصنة الجَرِّ بينما يقود البقيَّة. دفعَ صوت قطرات المطر التي لا تنفكُّ ترتطم بأغطية الأقفاص الغِدفان إلى الصُّراخ والرَّفرفة بأجنحتها بهياج، فسألَه چون رافعًا صوته: «هل حبست ثعلبًا معها أم ماذا؟».

جرى الماء على حافة قبَّعة سام عندما رفعَ رأسه قائلًا: «أوه، أهلًا چون. لا، إنها تكره المطر فقط، تمامًا مِثلنا».

- «كيف حالك يا سام؟».

أجابَ الصَّبي البدين وقد رسمَ على وجهه ابتسامةً خفيفةً: «مبتلٌّ تمامًا، لكن لا شيءَ قتلَني حتى الآن».

- «عظيم. قلعة كراستر أمامنا مباشرةً، وبمشيئة الآلهة سيسمح لنا بالنَّوم حول النَّار».

بدا الشَّكُّ على ملامح سام وهو يقول: «إد الكئيب يقول إن كراستر همجي فظيع، إنه يتزوَّج بناته ولا يُطيع أيَّ قوانين غير التي يستنُّها بنفسه. ودايوين قال لجرن إن هناك دماءً سوداء تسري في عروقه، فأمُّه كانت همجيَّةً ضاجعَت جوَّالًا، ولذا فهو نغـ...»، وبترَ عبارته وقد أدركَ فجأةً ما أوشكَ على أن يقوله.

إلَّا أن چون قال ضاحكًا: «نغل؟ يُمكنك أن تقولها يا سام، إنها ليست أول مرَّةٍ أسمعها»، ثم همزَ حصانه صغير الحجم واثق الخُطى قائلًا: «يجب أن أجد السير أوتين. توخَّ الحذر في وجود نسوة كراستر». كأن ساموِيل تارلي في حاجةٍ حقًّا إلى تحذيرٍ في هذا الصَّدد. «سنتكلَّم لاحقًا بَعد أن ننصب المخيَّم».

ذهبَ چون بالخبر إلى السير أوتين ويذرز، الذي يتقدَّم بتثاقُلٍ مع حَرس المؤخِّرة. كان رجلًا صغير الحجم، تنتشر في وجهه التَّجاعيد، ويُقارِب الدُّب العجوز في السِّن، ودائمًا ما يبدو عليه الإنهاك، حتى عندما يكونون في القلعة السَّوداء، وقد زادَه المطر المنصبُّ بلا رحمةٍ إنهاكًا، فرَدَّ على چون قائلًا: «أخبار سارَّة. البلل تخلَّل عظامي ذاتها، وحتى أوجاع الرُّكوب التي أشعرُ بها تشتكي من أوجاعها الخاصَّة!».

في طريق العودة دارَ چون دورةً واسعةً حول خَطِّ سير الرَّكب، وسلكَ طريقًا أقصر عبر الغابة المتشابكة. شيئًا فشيئًا خفتَت أصوات الرِّجال والخيول، ابتلعَتها البريَّة الخضراء البليلة، وسرعان ما أصبحَ الصَّوت الوحيد الذي يسمعه هو خرير المطر السَّائل على الأشجار والأعشاب والصُّخور. كانوا في منتصَف الظَّهيرة، لكن الغابة بدَت مظلمةً كأنه الغَسق، وشَقَّ چون

طريقًا ملتفًّا بين الصُّخور وبرك الوحل، مارًّا بأشجار السَّنديان الضَّخمة، وأشجار الحارس الخضراء الرَّماديَّة، وأشجار الصُّلب سوداء اللِّحاء. في بعض البقاع كوَّنت الأغصان الكثيفة مظلَّةً في الأعلى، فاستراحَ قليلًا من الأمطار التي تقرع رأسه، وبينما مَرَّ بشجرة كستناء ضربَها البرق ونما عليها الورد البرِّي الأبيض بغزارة، سمعَ حفيفًا وسط الشُّجيرات الصَّغيرة، فنادى: «جوست، جوست، إليَّ».

لكن دايوين هو من خرجَ من قلب الخُضرة، يقود حصانًا رماديًّا أشعث، وإلى جواره جرِن على متن حصانٍ آخَر. كان الدُّب العجوز قد نشرَ كشَّافةً على جانبي الرَّكب الرَّئيس، بغية حماية مسيرتهم وتحذيرهم من أيِّ عدوٍّ يقترب؛ وحتى في هذا الصَّدد لم يُغامِر، فكان يُرسِل الرِّجال أزواجًا دائمًا.

ابتسمَ دايوين كاشفًا أسنانه المنحوتة من خشب البلُّوط التي لا تُناسِب فمه، وقال: «آه، إنه أنت يا لورد سنو. حسبتُ أن هناك واحدًا من هؤلاء «الآخَرين» علينا أن نتعامَل معه. هل فقدت ذئبك؟».

- «إنه يصطاد في مكانٍ ما». لا يحبُّ جوست التحرُّك مع الرَّكب، لكنه لا يبتعد كثيرًا، وعندما يُخَيِّمون ليلًا، يجد طريقه إلى خيمة حضرة القائد.

قال دايوين: « مع كلِّ هذا الماء، لا بُدَّ أن ما يصطاده سَمك».

قال جرِن بأمل: «كانت أمِّي تقول دومًا إن المطر خير، لأنه يجعل المحاصيل تنمو».

رَدَّ دايوين: «نعم، سينمو محصول وفير من العفن الفطري. أفضل ما في مطرٍ كهذا أنه يُوَفِّر عليك الاستحمام»، وطقطقَ بأسنانه الخشبيَّة.

قال لهما چون: «بكويل وجدَ كراستر».

قال دايوين ضاحكًا: «وهل كان قد فقدَه؟ احرصوا على عدم التعرُّض لزوجات كراستر أيها الصِّغار، مفهوم؟».

سألَه چون مبتسمًا: «أتُريدهن جميعًا لنفسك يا دايوين؟».

طقطقَ دايوين بأسنانه مجدَّدًا، وقال: «ربما. كراستر لديه عشرة أصابع وقضيب واحد، أي أنه لا يعرف العَدَّ بَعد أحد عشر، فلن يفتقد واحدةً أو اثنتين».

سألَ جرِن: «كم زوجةً لديه حقًّا؟».

- «أكثرَ مما سيكون لديك من زوجاتٍ يا أخي. ليست المسألة بهذه الصُّعوبة عندما تُنجِب زوجاتك بنفسك. ها هو ذئبك يا سنو».

كان جوست يخبُّ إلى جوار حصان چون، وقد رفعَ ذيله عاليًا وانتفشَ فروه الأبيض الكثيف بفِعل المطر. كان يتحرَّك بلا صوتٍ على الإطلاق، حتى إن چون لم يدرِ متى ظهرَ، وجفلَ حصان جرِن لمَّا اشتمَّ رائحته، فإلى الآن، بَعد مرور أكثر من عام، ما زالت الخيول تضطرب في وجود الذِّئب الرَّهيب. وكزَ چون حصانه في اتِّجاه قلعة كراستر قائلًا: «معي يا جوست».

لم يكن ينتظر أن يجد قلعةً من الحجر على الجانب الآخَر من «الجِدار»، لكنه تخيَّل على الأقل حصنًا ببُرجٍ خشبي يقع على رابيةٍ مرتفعة، وتُحيط به ساحة ويُطَوِّقه خندق فيه أوتاد، أمَّا ما وجدوه بدلًا من هذا فكان كومة قاذورات وزريبة خنازير وحظيرة غنم فارغة، وقاعةً مبنيَّةً من الجِصِّ والأغصان المجدولة لا تستحقُّ أن تُسَمَّى قاعةً، فهي طويلة واطئة، ودعائمها من جذوع الأشجار وسقفها من النَّجيل. استقرَّت الأبنية المتواضعة على مرتفَعٍ أكثر تواضُعًا من أن يُسَمَّى تَلًّا، يُحيط بها سياج من التُّربة، بينما يسيل الماءُ مصطبغًا بلون الأوحال البنِّي في مجارٍ ضيِّقة على المنحدَر، حيث التهمَ المطر أجزاءً من الدِّفاعات وحوَّلها إلى ثغراتٍ متَّسعة، ليمتزج بمياه غديرٍ تجري مسرعةً في منعطَفٍ إلى الشَّمال، وقد حوَّلها الوابل الهاطل من السَّماء إلى سيلٍ داكن.

وجدَ إلى الجَنوب الغَربي بوَّابةً مفتوحةً على جانبيها جمجمتا حيوانين مثبَّتين على ساريتين طويلتين، إحداهما لدُبٍّ والثَّانية لكبش، ولاحظَ چون وهو يُعاوِد الانضمام إلى الطَّابور أن قِطعًا من اللَّحم لا تزال عالقةً بجمجمة الدُّب. في الدَّاخل كان كشَّافة چارمان بكويل، ورجال من حَرس الطَّليعة تحت قيادة ثورين سمولوود، يُنَظِّمون صفوف الخيول وينصبون الخيام بصعوبة، وفي الزَّريبة استقرَّت مجموعة كبيرة من الخنازير الوليدة حول ثلاث خنزيرات ضخمات، بينما كانت فتاة صغيرة تقطف الجزر من حديقةٍ على مقربةٍ وهي عارية على الرغم من المطر، وقيَّدت اثنتان من زوجات

كراستر خنزيرًا توطئةً لذبحه، فتردَّد قباع الحيوان عاليًا شنيعًا، يكاد مما فيه من رُعبٍ يكون صراخًا بَشريًّا، وردَّت عليه كلاب تشِت نباحًا وهي تزوم وتنهش الهواءَ متحديةً الشَّتائم التي انهالَ بها عليها، ليردَّ اثنان من كلاب كراستر النَّباح بالنِّباح. مع ظهور جوست بترَ بعض الكلاب نباحه وفرَّ، وكلاب أخرى راحَت تعوي وتُزَمجِر، بينما تجاهَلها الذِّئب الرَّهيب كلها تمامًا، وكذلك جون.

قال جون لنفسه بمجرَّد أن ألقى نظرةً شاملةً على القاعة: ثلاثون منا سينعمون بالدِّفء والجفاف، خمسون على أقصى تقدير. كان المكان أصغر من أن ينام فيه مئتا رجلٍ دُفعةً واحدةً، ما يعني أن أغلبهم سيضطرُّ للبقاء في الخارج، لكن أين بالضَّبط؟ لقد ملأَ المطر نِصف السَّاحة ببِرَكٍ ترتفع حتى الكاحل، وأحالَ الباقي إلى أوحالٍ رخوة. ها هي ليلة مزرية أخرى تنتظرهم.

عهدَ حضرة القائد بحصانه لإد الكئيب، الذي كان يُنَظِّف الحوافر من الطِّين عندما ترجَّل جون، فقال له: «اللورد مورمونت في القاعة، وطلبَ أن تنضمَّ إليه. من الأفضل أن تَترُك الذِّئب في الخارج، لأنه يبدو جائعًا بما فيه الكفاية لالتهام أحد أطفال كراستر. الحقيقة أني جائع بما فيه الكفاية لالتهام أحد أطفال كراستر، ما دامَ سيُقَدَّم ساخنًا. اذهب أنت وسأعتني بحصانك، ولا تُخبِرني إن كان الجَوُّ دافئًا في الدَّاخل، فلم يُؤذَن لي بالدُّخول»، ونقرَ كُتلةً من الطِّين المبتلِّ من تحت حدوة الحصان قائلًا: «أيبدو لك هذا الطِّين كالخراء؟ أمن الممكن أن هذا التَّلَّ كله تكوَّن من خراء كراستر؟».

مبتسمًا قال جون: «محتمَل. سمعتُ أنه هنا منذ زمنٍ طويل».

- «إنك تملأ نفسي بهجةً حقًّا. اذهب إلى الدُّب العجوز».

قال جون لذئبه آمرًا: «جوست، ابقَ هنا».

كان باب قلعة كراستر عبارةً عن سديلتين من جِلد الأيل غير المدبوغ، فدَسَّ جون جسده بينهما برأسٍ محني، ليمرَّ من تحت العتبة العُليا الواطئة. كان عشرون ونيِّف من كبار الجوَّالة قد سبقوه إلى الدَّاخل، ويقفون حول حُفرة النَّار في منتصف الأرض التُّرابيَّة، بينما تتجمَّع بِركٌ صغيرة من الماء حول أحذيتهم، ومن القاعة كلها فاحَت رائحة كريهة هي مزيج من السِّناج والرَّوث والكلاب المبتلَّة، وامتلأَ الهواء بالدُّخان وإن ظَلَّ رطبًا بشكلٍ ما،

وتسرَّب ماء المطر من فتحة التَّهوية في السَّقف. رأى چون أن المكان كله يتكوَّن من غُرفةٍ واحدة، وثمَّة زوج من السَّلالم المتهالكة يقود إلى علِّيَّة نومٍ في الأعلى.

تذكَّر چون شعوره يوم تركوا «الجِدار»، وكيف كان متوتِّرًا كعذراء في خدرها، لكن توَّاقًا إلى رؤية الغوامض والعجائب الواقعة وراء كلِّ أُفقٍ جديد. طيِّب، ها هي واحدة من العجائب، قال لنفسه وهو يتطلَّع إلى أنحاء القاعة القذرة كريهة الرَّائحة، وقد جعلَ الدُّخان الكثيف عينيه تدمعان. من المؤسف أن پيپ وتودر لا يريان ما فاتَهما.

جلسَ كراستر عاليًا عن النَّار، باعتباره الرَّجل الوحيد الذي يتمتَّع بمقعده الخاص، فحتى حضرة القائد مورمونت اضطرَّ للجلوس على الدِّكَّة المشترَكة، وغُدافه على كتفه يُهَمهِم، بينما وقفَ چارمان بكويل وراءه والماء يقطر من قميص الحلقات المعدنيَّة المرقَّع والجِلد اللَّامع المبتل، إلى جوار ثورين سمولوَود الذي يرتدي واقي الصَّدر الثَّقيل والمعطف المبطَّن بفرو السَّمُّور، اللذين كانا ملكًا للسير چارمي الرَّاحل.

صنعَت سُترة كراستر المفصَّلة من جِلد الغنم، ومعطفه المصنوع من جلودٍ مختلفة مخيَّطة معًا، منظرًا رَثًّا متناقضًا، لكن حول أحد معصميه الثَّخينين كانت حلقة ثقيلة لها لمعة الذَّهب. بدا الرَّجل قويًّا، وإن كان في شتاء العُمر الآن، وقد بدأ البياض يزحف على شَعره الرَّمادي، بينما أعطاه الأنف المسطَّح والفم المتدلِّي مظهرًا قاسيًا، بالإضافة إلى أن إحدى أذنيه مبتورة. هكذا يبدو الهمجي إذن. تذكَّر چون حكايات العجوز نان عن القوم المتوحِّشين الذين يشربون الدَّم من جماجم بشريَّة، بينما كان كراستر يشرب بيرةً صفراء خفيفةً من كوبٍ حجريٍّ مكسور الحافة. لعلَّه لم يسمع تلك الحكايات!

كان كراستر يقول لمورمونت: «لم أرَ بنچن ستارك منذ ثلاثة أعوام، وأصدقُك القول إنني لم أفتقده لحظةً». كان نِصف دستة من الجراء السَّوداء وخنزير أو اثنان يتسكَّعون بين الدِّكك، بينما مرَّت على الرِّجال بقرون البيرة نساء ترتدي جِلد الأيل البالي، وحرَّكن النَّار، وقطَّعن البصل والجزر في قِدر.

قال ثورين سمولوود: «لا بُدَّ أنه مَرَّ من هنا العام الماضي». جاءَ كلب يتشمَّم حول ساقه، فركلَه ركلةً جعلَته يجري نابحًا.

قال اللورد مورمونت: «بن كان يبحث عن وايمار رويس، الذي اختفى مع كلٍّ من چارد وويل الشَّاب».

رَدَّ كراستر: «نعم، أذكرُ هؤلاء الثَّلاثة. اللورد الصغير كان أكبر من تلك الجراء بالكاد، وأكثر اعتزازًا بنفسه من أن ينام تحت سقفي، بمعطفه الثَّمين وفولاذه الأسود، لكن زوجاتي تطلَّعن إليه بافتتانٍ على الرغم من ذلك»، وضيَّق عينيه رامقًا أقرب النِّساء إليه، وتابعَ: «قال چارد إنهم يُطارِدون مجموعةً من المُغيرين، فقلتُ له إن خيرًا لهم ألَّا يلحقوا بهم ومعهم قائد معدوم الخبرة مِثل هذا. لم يكن چارد بذلك السُّوء بالنِّسبة لغُراب، وكانت يملك من الآذان أقلَّ مني. قضمة الصَّقيع أخذَت أُذنيه كما أخذَت أُذني»، ثم ضحكَ مضيفًا: «والآن أسمعُ أنه صارَ بلا رأسٍ أيضًا. هل قضمَه الصَّقيع بدوره؟».

تذكَّر چون الدَّم الأحمر المتناثر على الثَّلج الأبيض، وكيف ركلَ ثيون جرايچوي رأس الرَّجل الميت. كان متهرِّبًا من الخدمة. في طريق العودة إلى وينترفل تسابقَ چون وروب، وعثرا على جِراء أنثى الذِّئب الرَّهيب السِّتَّة وسط الثُّلوج. كان هذا منذ ألف عام.

- «إلى أين اتَّجه السير وايمار بَعد أن تركك؟».

هَزَّ كراستر كتفيه وقال: «لديَّ أشياء أهتمُّ بها أكثر من ذهاب الغِربان وإيابهم»، وأخذَ جرعة من البيرة ونحَّى الكوب جانبًا، وواصلَ: «لم أحظَ بنبيذٍ جَنوبيٍّ جيِّد هنا منذ زمن. أحتاجُ القليل من النَّبيذ حقًّا، وبلطةً جديدةً كذلك، لأن بلطتي فقدَت حدَّتها، ولا يُمكنني تجاهُل هذا ولديَّ نساء أحميهن»، ونقلَ بصره بين زوجاته اللاتي يتحرَّكن في المكان.

قال مورمونت: «أنتم قِلَّة هنا، ومعزولون. سأعيِّنُ بعض الرِّجال ليصحبوكم جَنوبًا إلى «الجِدار» إذا أردت»، وبدا أن الفكرة راقَت الغُداف الذي صرخَ: «جِدار!»، وقد فردَ جناحيه الأسودين كياقةٍ عالية وراء رأس مورمونت.

ارتسمَت ابتسامة كريهة على وجه مضيفهم كشفَت أسنانه البنِّيَّة المكسَّرة،

وقال: «وماذا نفعل هناك؟ نخدمكم بينما تتناوَلون العَشاء؟ إننا أحرار هنا، وكراستر ليس خادمًا لأحد».

- «سُكنى البراري في أوقاتٍ كهذه سيِّئ حقًّا، فالرِّيح الباردة تهبُّ».

قال كراستر: «دَعها تهبُّ، فجذوري شديدة العُمق»، وجذبَ امرأةً عابرةً من معصمها قائلًا لها: «أخبِريه يا زوجتي، أخبِري اللورد الغُراب كم نحن قانعون هنا».

لعقَت المرأة شفتيها الرَّفيعتين، وقالت: «هذا مكاننا، وكراستر يُحافِظ على سلامتنا. الموت أحرارًا خير من الحياة عبيدًا».

ردَّد الغُداف: «عبيدًا!».

مالَ مورمونت إلى الأمام قائلًا: «كلُّ القرى التي مررنا بها مهجورة، ووجوهكم أول وجوهٍ حيَّة نراها منذ تركنا «الجِدار». النَّاس اختفوا تمامًا... ولا أدري إن كانوا موتى أم هاربين أم أسرى، والحيوانات اختفَت كذلك، ولم يتبقَّ شيء. منذ فترةٍ وجدنا جثتي اثنين من جوَّالة بن ستارك على بُعد فراسخ معدودة من «الجِدار». كانتا شاحبتين باردتين، وأيديهما وأقدامهما سوداء، وجروحهما لا تنزف، لكن عندما أخَذناهما إلى القلعة السَّوداء، نهضَتا في جوف اللَّيل قاصدتين القتل. إحداهما قتلَت السير چارمي ريكر، والأخرى هاجمَتني، ما يجعلني أفكِّرُ أن تلك الجُثث الحيَّة تتذكَّر القليل مما كانت تعرفه قبل موتها، وإن لم تتبقَّ فيها رحمة إنسانيَّة على الإطلاق».

فغرَت المرأة فاها عن آخِره ككهفٍورديٍّ مبتل، لكن كراستر أطلقَ نخيرًا ساخرًا، وقال: «لم تُواجِهنا متاعب مشابهة هنا... وأشكرك إذا لم تحكِ حكاياتٍ شرِّيرة كهذه تحت سقفي. إنني رجل تقي، والآلهة تحميني، وإذا وجدتُ جُثثًا حيَّةً تمشي هنا، فسأعرفُ كيف أعيدها إلى قبورها، وإن كنتُ أحتاجُ بلطةً حادَّةً جديدةً»، وصفعَ زوجته على مؤخِّرة ساقها زاعقًا: «المزيد من البيرة، وبسرعة».

قال چارمان بكويل: «لا متاعب من الموتى، لكن ماذا عن الأحياء يا سيِّدي؟ ماذا عن ملكك؟».

صاحَ غُداف مورمونت: «ملك، ملك، ملك، ملك!».

رَدَّ كراستر: «مانس رايدر؟»، وبصقَ في النَّار قبل أن يُغَمغِم: «ملك ما وراء الجدار. لماذا يُريد شعب الأحرار ملكًا؟»، ثم التفتَ إلى مورمونت قائلًا: «يُمكنني أن أخبركم بالكثير عن رايدر وما يفعله إذا واتَتني الرَّغبة. القُرى الخالية، هذا من صُنعه، وكنت لتجد هذه القاعة مهجورةً بدورها لو كنتُ رجلًا ينصاع لأمثاله. لقد أرسلَ لي خيَّالًا قال لي إن عليَّ أن أترك قلعتي وأذهب لأتذلَّل عند قدمي مانس، فأعدته إليه دون لسانه. علَّقته بمسمارٍ على الحائط»، وأشارَ مضيفًا: «ربما يُمكنني أن أقول لكم أين تبحثون عن مانس رايدر إذا واتَتني الرَّغبة»، ثم ابتسمَ ابتسامته البنِّيَّة تلك من جديد وأردفَ: «لكننا سنجد وقتًا لهذا. لا بُدَّ أنكم ترغبون في النَّوم تحت سقفي والتهام ما لديَّ من خنازير».

قال مورمونت: «نُرَحِّب بالسَّقف كلَّ التَّرحيب يا سيِّدي، فقد قطعنا مسافةً طويلةً شاقَّةً وعانينا الكثير من البلل».

- «ستنزلون ضيوفًا هنا مدَّة ليلةٍ لا أكثر، فلستُ مغرمًا لهذه الدَّرجة بالغِربان. العلِّيَّة لي ولزوجاتي، لكن الأرض كلها لكم. لديَّ لحم وبيرة تكفي عشرينًا لا أكثر، أمَّا بقيَّتكم أيها الغِربان السَّوداء فيمكنهم العثور على ذُرةٍ يأكلونها».

قال الدُّب العجوز: «لقد حزمنا مؤننا الخاصَّة يا سيِّدي، ويُسعِدنا أن نتقاسَم طعامنا ونبيذنا».

مسحَ كراستر فمه المتدلِّي بظَهر يده المشعرة، وقال: «سأتذوَّقُ نبيذكم أيها اللورد الغُراب، لا شَكَّ في هذا. ثمَّة شيء آخَر: أيُّ رجلٍ يمسُّ واحدةً من زوجاتي سيفقد يده».

قال ثورين سمولوود: «تحت سقفك تسري قواعدك»، وأومأَ اللورد مورمونت برأسه بجمود، وإن بدا عليه عدم الرِّضا.

قال كراستر: «اتَّفقنا إذن»، ثم سألَ بفظاظة: «ألديكم من يستطيع رسم الخرائط؟».

تقدَّم چون قائلًا: «سام تارلي يستطيع. إنه يحبُّ الخرائط».

أشارَ له مورمونت بالاقتراب، وقال: «قُل له أن يأتي بَعد أن يأكل، واجعله

يجلب ريش الكتابة والرَّقوق. وجِد توليت كذلك وقُل له أن يُحضِر بلطتي. إنها هديَّتي كضيفٍ لمضيفنا».

قال كراستر قبل أن يَخرُج چون: «من هذا؟ إن لديه ملامح أولاد ستارك».

- «إنه وكيلي ومُرافِقي چون سنو».

تطلَّع كراستر إلى چون من أعلى إلى أسفل، وقال: «نغل، هه؟ إذا أرادَ الرَّجل أن يُضاجِع امرأةً، فليتزوَّجها. هذا ما أفعله أنا»، ولوَّح بيده صارفًا چون قائلًا: «طيِّب، اذهب وقُم بواجبك أيها النَّغل، وتأكَّد من أن تلك البلطة حادَّة، فلا حاجة لديَّ إلى الفولاذ الثَّلم».

انحنى چون بحركةٍ جامدة وغادرَ. كان السير أوتين ويذرز في طريقه إلى الدَّاخل بينما خرجَ، وكاد الاثنان يتصادَمان عند الباب المصنوع من جِلد الأيل. في الخارج بدا أن الأمطار خفَّت أخيرًا، ونُصِبَت الخيام في كلِّ مكانٍ بين المباني، ورأى چون قمم خيام أخرى تحت الأشجار.

قال إد الكئيب بينما يُطعِم الخيول: «نُعطي الهمجي بلطةً، ولِمَ لا؟»، وأشارَ إلى بلطة مورمونت الحربيَّة ذات المقبض القصير والزَّخارف الذَّهبيَّة المنقوشة على الفولاذ الأسود، وأضافَ: «أؤكِّدُ لك أنه سيُعيدها، لكن مغروسةً في جمجمة الدُّب العجوز غالبًا. لِمَ لا نعطيه بلطاتنا كلها وسيوفنا أيضًا؟ إنني أكرهُ الطَّريقة التي تُصَلصِل وتُخَشخِش بها ونحن راكبون. ستكون حركتنا أسرع دونها، إلى أبواب الجحيم مباشرةً. تُرى هل يهطل المطر في الجحيم؟ ربما يُريد كراستر قبَّعةً بدلًا من البلطة».

قال چون مبتسمًا: «يُريد بلطةً، ونبيذًا كذلك».

- «أترى؟ الدُّب العجوز ذكيٌّ حقًّا. إذا جعلْنا الهمجيَّ يشرب حتى الثُّمالة ويسكر، فلربما يقطع أُذنًا واحدةً عندما يُحاوِل قتلنا بهذه البلطة. إن لديَّ أُذنين، لكن رأسًا واحدًا».

- «سمولوود يقول إن كراستر صديق لحَرس اللَّيل».

قال الأخ الكئيب: «أتدري الفارق بين الهمجي صديق حَرس اللَّيل والهمجي الذي ليس كذلك؟ أن أعداءنا يَترُكون جُثثنا للغِربان والذِّئاب، بينما يدفننا أصدقاؤنا في قبورٍ سرِّيَّة. منذ متى وجمجمة الدُّب معلَّقة على البوَّابة يا

تُرى؟ وماذا كان كراستر يفعل قبل أن نظهر؟»، ورمقَ إد البلطة بشَكٍّ والمطر يجري على وجهه الطَّويل، وسأَلَ: «هل المكان جافٌّ في الدَّاخل؟».

- «أكثر جفافًا من هنا».

- «إذا كمنتُ هناك بَعد أن يَفرُغوا، وليس على مقربةٍ من النَّار، فربما لا يلحظون وجودي قبل طلوع النَّهار. من ينامون تحت هذا السَّقف سيكونون أول من يُقتَلون، لكننا سنموت جافِّين على الأقل».

ضحكَ چون رغمًا عنه، وقال: «كراستر رجل واحد ونحن مئتان. أشكُّ أنه سيَقتُل أحدًا».

قال إد ولهجته مفعمة تمامًا بالجِهامة: «إنك تُثير بهجتي حقًّا. ثم إن البلطة الحادَّة لها مميِّزاتها، لأني أكرهُ أن أُقتَل بمطرقة. رأيتُ رجلًا تلقَّى ضربةً على الجبهة بمطرقةٍ من قبل، فلم يتأذَّى الجِلد كثيرًا، لكن العظام أسفله تفتَّتت، وتورَّم رأسه حتى صار كحبَّة اليقطين لو أن لونه أرجواني محمرّ. كان رجلًا وسيمًا، لكنه ماتَ قبيحًا. من الجيِّد أننا لن نُعطيهم مطارق»، وابتعدَ وهو يهزُّ رأسه، ومياه المطر تقطر من معطفه الغارق تمامًا.

أطعمَ چون الخيول قبل أن يتوقَّف للتَّفكير في عَشائه، وكان يتساءَل أين يجد سام عندما سمعَ من تصيح مرتعبةً: «ذئب!»، فانطلقَ يعدو حول القاعة نحو مصدر الصَّيحة والتُّربة الرَّخوة تمتصٍّ حذاءه، ليجد واحدةً من نسوة كراستر ملصقةً ظَهرها بالجِدار الملطَّخ بالطِّين، وتصيح في جوست: «ابتعد عني! ابتعد عني!». كان الذِّئب الرَّهيب يحمل أرنبًا في فمه، وعلى الأرض إلى جواره واحد آخَر دامٍ ميت. قالت المرأة متوسِّلةً عندما رأت چون: «أبعِده يا سيِّدي».

- «لن يُؤذيكِ»، قال چون وقد أدركَ ما حدثَ في الحال من منظر القفص الخشبي، الذي تحطَّمت أضلاعه وانقلبَ على جانبه وسط العُشب المبتل. «لا بُدَّ أنه جائع، فلم نرَ طرائد كثيرةً في طريقنا»، ثم أطلقَ صفيرًا فازدردَ الذِّئب الرَّهيب الأرنب محطِّمًا العظام الصَّغيرة بين أسنانه، ثم اتَّجه إلى صاحِبه.

حدجَتهما المرأة بنظراتٍ عصبيَّة. كانت أصغر سِنًّا مما حسبَ في البداية، وقدَّر أن عُمرها خمسة أو ستَّة عشر عامًا، شَعرها الدَّاكن ملتصق بوجهها

الكئيب بسبب المطر، وقدماها الحافيتان ملوَّثتان بالوحل حتى الكاحلين، بينما يشي انتفاخ بطنها من تحت ثوبها الجِلدي بأنها في شهور الحمل الأولى. سألَها: «أأنتِ واحدة من بنات كراستر؟».

وضعَت يدها على بطنها مجيبةً: «زوجته الآن»، وركعَت إلى جوار القفص المكسور متحاشيةً الذِّئب، وقالت بأسى: «كنتُ سأستولدُ هذين الأرنبين، فلم تَعُد لدينا أغنام».

قال چون: «سيُعَوِّضكِ حَرس اللَّيل عنهما». إنه لا يملك أيَّ مال، وإلَّا لكان عرضَه عليها... مع أنه لا يدري بِمَ ستنفعها بِضع عُملاتٍ نُحاسيَّة أو حتى قطعة فضِّيَّة هنا وراء «الجِدار». «سأكلِّمُ اللورد مورمونت غدًا».

مسحَت يديها على تنُّورتها قائلةً: «سيِّدي...».

- «لستُ سيِّدًا».

كان آخَرون قد تحلَّقوا حول المكان وقد جذبَهم صراخ المرأة وصوت تحطُّم قفص الأرانب، وصاحَ الجوَّال الوضيع كالكلاب لارك رجل الأخوات: «لا تُصَدِّقيه يا فتاة، فهذا هو اللورد سنو بنفسه».

وبسخريةٍ قال تشِت الذي تركَ كلابه ليرى سبب الجلبة: «نغل وينترفل وأخو الملوك».

قال لارك: «الذِّئب يَرمُقكِ بنظراتٍ جائعة يا فتاة، فلعلَّه يرغب في قطعة اللَّحم الطَّريَّة في بطنك».

قال چون بصرامة: «إنك تُخيفها».

- «يُحَذِّرها بالأحرى»، قال تشِت بابتسامته القبيحة كالبثور التي غطَّت أغلب وجهه.

بدا أن الفتاة تذكَّرت فجأةً، فقالت: «ليس مسموحًا لنا بالكلام معكم».

- «مهلًا»، قال چون لكن متأخِّرًا، فقد انطلقَت تَركُض مبتعدةً.

مَدَّ لارك يده إلى الأرنب الثَّاني، لكن جوست كان أسرع، وعندما كشَّر عن أنيابه انزلقَ رجل الأخواتِ في الوحل وسقطَ على عجيزته العظميَّة، فضحكَ الآخَرون، بينما التقطَ الذِّئب الرَّهيب الأرنب بفمه وذهبَ به إلى چون.

قال لهم: «لم يكن هناك داعٍ لإخافة تلك الفتاة».

- «لن نقبل تقريعًا منك أيها النغل». كان تشِت يلوم چون على فقدان عمله المريح مع المِايستر إيمون، وليس ظُلمًا، فلو لم يذهب چون إلى إيمون بخصوص سام تارلي، لكان تشِت لا يزال يخدم العجوز الضَّرير بدلًا من قطيع من كلاب الصَّيد معتلَّة المزاج. «قد تكون حيوان حضرة القائد المدلَّل، لكنكَ لست حضرة القائد... ولم تكن لتتكلَّم بهذه الجرأة لو لم يكن وحشك اللَّعين هذا معك دائمًا».

رَدَّ چون بصوتٍ أبرد من مشاعره: «لن أتعارَك مع أخٍ ونحن وراء «الجِدار»».

اعتدلَ لارك راكعًا على رُكبةٍ واحدة، وقال: «إنه خائف منك يا تِشت. في «الأخوات» لدينا اسم نُطلقه على أمثاله».

قال چون: «أعرفُ كلَّ الأسماء، فوفِّر كلامك»، وابتعدَ وجوست إلى جانبه. كان المطر قد استحالَ إلى رذاذٍ خفيف عندما وصلَ إلى البوَّابة. سرعان ما سيحلُّ الغَسق، تتبعه ليلة أخرى كئيبة كلها بلل، وستُخفي السُّحب القمر والنُّجوم وشُعلة مورمونت، لتُغرِق الغابة في ظلام حالك، وستكون كلُّ مرَّةٍ يذهب فيها ليقضي حاجته بمثابة مغامَرة، وإن لمَ تكن من النَّوع الذي تصوَّره چون سنو من قبل.

تحت الأشجار كان بعض الجوَّالة قد وجدوا ما يكفي من الفحم والحطب الجافَّين لإشعال نارٍ أسفل بروزٍ مائلٍ من الأردواز، ونصبَ آخَرون خيامًا أو صنعوا سواتر بمعاطفهم المفرودة على الفروع الواطئة، بينما دَسَّ العملاق جسده في تجويفٍ في شجرة بلُّوط ميتة، وخاطبَ چون قائلًا: «ما رأيك في قلعتي يا لوردِ سنو؟».

- «تبدو مريحةً. أتعرف أين أجد سام؟».

أجابَ العملاق: «استمر على طريقك، وإذا مررت بسُرادق السير أوتين، ستكون قد تجاوَزت سام بالفعل»، وابتسمَ مردفًا: «ما لم يكن قد عثرَ على شجرةٍ أيضًا، ويا لها من شجرة!».

جوست هو من عثرَ على سام في النِّهاية. اندفعَ الذِّئب الرَّهيب فجأةً كالسَّهم من القوس، وتحت بروزٍ صخري مَدَّه بشيءٍ من الوقاية من المطر،

كان سام يُطعِم الغِدفان. أصدرَ حذاؤه أصوات تخويض وهو يتحرَّك، وقال بتعاسة: «قدماي غارقتان تمامًا. عندما نزلتُ من فوق حصاني، خطوتُ في حُفرةٍ وغصتُ فيها حتى الرُّكبتين».

قال چون: «اخلع حذاءك وجفِّف جواربك، وسأجدُ حطبًا جافًّا. إذا لم تكن الأرض مبتلَّةً تحت الصُّخور، فربما يُمكننا أن نُشعِل نارًا»، وأراه الأرنب مضيفًا: «ونولِم!».

- «ألن تخدم حضرة القائد في القاعة؟».

- «نعم، لكن أنت ستفعل. الدُّب العجوز يُريدك أن ترسم خريطةً له، فكراستر يقول إنه سيُرينا مكان مانس رايدر».

تمتمَ سام: «أوه»، دون أن تبدو عليه لهفة لرؤية كراستر، حتى إذا كان هذا يعني دفء النَّار.

- «لكنه قال أن تأكل أولًا. جفِّف قدميك إذن». ذهبَ چون يبحث عن وقودٍ للنَّار، ونقَّب تحت الشُّجيرات السَّاقطة عن الأخشاب الأكثر جفافًا من غيرها، وقشَّر طبقاتٍ من أوراق الصَّنوبر المشبَّعة بالماء حتى عثرَ على ضَرَم مناسب، وعلى الرغم من ذلك استغرقَ إشعال الشَّرارة الأولى وقتًا طويلًا للغاية. ثم إنه علَّق معطفه على الصخر، ليحمي ناره الصَّغيرة الدَّاخنة من المطر، صانعًا فجوةً صغيرةً مريحةً.

جلسَ على رُكبتيه يَسلُخ الأرنب، بينما خلعَ سام حذاءه قائلًا ببؤسٍ وهو يلوي أصابع قدميه: «أعتقدُ أن الطَّحالب بدأت تنمو على قدميَّ»، ثم غمغمَ رامقًا الأرنب: «سيكون مذاقه طيِّبًا. حتى منظر الدَّم لا يُزعِجني»، وأشاحَ بوجهه مضيفًا: «ليس كثيرًا...».

ثبَّت چون جثَّة الحيوان على سيخ، وأحاطَ النَّار بصخرتين وضعَ وجبة اللَّيلة فوقهما. كان الأرنب هزيلًا، لكن رائحة نضوجه جعلَته وليمة ملك، فحدجَهما جوَّالة آخَرون بنظرات الحسد، وحتى جوست تطلَّع إلى الأرنب بجوعٍ واللَّهب ينعكس في عينيه الحمراوين وهو يتشمَّم الهواء، لكن چون قال لَه: «أنت أكلت أرنبك بالفعل».

لم يكتمل نُضج الأرنب تمامًا، لكن مذاقه كان رائعًا على الرغم من ذلك،

وسألَ سام چون وهو يأكل: «هل كراستر متوحِّش حقًّا كما يقول الجوَّالة؟ كيف تبدو قلعته؟».

- «مقلب قمامة بسقفٍ وحُفرة نار»، أجابَ چون، ثم أخبرَ سام بما رآه وسمعه في قلعة كراستر.

مع انتهاء الحكي، كان الظَّلام قد حَلَّ في الخارج وسام يلعق أصابعه قائلًا: «كان مذاقه شهيًّا بحق، لكني أريدُ فخذ ضأن الآن، فخذًا كاملةً لي وحدي، متبَّلةً بالنَّعناع والعسل والقرنفل. هل رأيت حملانًا؟».

- «رأيتُ حظيرة غنم خاليةً».

- «كيف يُطعِم رجالَه إذن؟».

- «لم أرَ رجالًا، فقط كراستر ونسوته وبضع فتياتٍ صغيرات. أتساءلُ إن كان قادرًا فعلًا على الدِّفاع عن المكان، فدفاعاته لا تُذكَر، مجرَّد خندقٍ موحل. هل ستجد طريقك إلى هناك؟».

قال سام: «إذا لم أسقط في الطِّين»، وعادَ ينتعل حذاءه بصعوبة، ثم التقطَ ريش الكتابة وورق الرَّقوق وخرجَ إلى اللَّيل، والمطر ينهمر على معطفه وقبَّعته المرنة.

أسندَ جوست رأسه إلى قوائمه وغابَ في النَّوم إلى جوار النَّار، وتمدَّد چون إلى جواره شاعرًا بالامتنان للدِّفء. كان لا يزال باردًا مبتلًّا، لكن ليس كما كان منذ قليل. قد يعرف الدُّب العجوز معلومةً اللَّيلة تقودنا إلى العمِّ بنچن.

استيقظَ على مشهد أنفاسه تتحوَّل إلى بُخارٍ في هواء الصُّبح البارد، وعندما تحرَّك أحسَّ بالوجع في عظامه، ووجدَ النَّار وقد خمدَت، بينما لم يَعُد جوست هناك. مَدَّ يده يسحب المعطف الذي علَّقه على الصَّخرة، ووجدَه متيبِّسًا متجمِّدًا، فنهضَ ووقفَ تحته وسط غابةٍ تحوَّلت إلى بلَّور.

تألَّق نور الفَجر الوردي على الأغصان والأوراق والأحجار، وبدا كلُّ عود عُشبٍ كأنه منحوت من الزمرُّد، وكلُّ قطرة ماءٍ كأنها استحالَت إلى ماس، وأحاطَ بالورد والفِطر على حَدٍّ سواءٍ غُلاف من زجاج، وحتى بِرك الوحل

نفسها كانت لها لمعة بنِّيَّة، بينما لاحَت خيام إخوته السَّوداء وسط الخُضرة وقد اكتسَت بطبقةٍ رقيقةٍ من الجليد اللَّامع.

ثمَّةَ سِحر وراء «الجِدار» إذن. وجدَ نفسه يُفكِّر في أختيه، ربما لأنه حلمَ بهما ليلة أمس. كانت سانزا لتصف المشهد بالسِّحري وقد اغرورِقَت عيناها بالدُّموع من فرط الجمال، بينما كانت آريا لتجري ضاحكةً صائحةً وترغب في أن تلمس كلَّ شيء.

سمعَ الصَّوت الرَّقيق الخانع يُناديه: «لورد سنو؟»، فالتفتَ.

جاثمةً فوق الصَّخرة التي وقَته ليلًا كانت صاحِبة الأرنبين، ترتدي معطفًا أسود ضخمًا للغاية، وأدركَ چون في الحال أنه معطف سام. لماذا ترتدي معطف سام؟

قالت: «السَّمين قال إنني سأجدك هنا يا سيِّدي».

- «لقد أكلنا الأرنب لو أن هذا ما جئتِ من أجله»، قالها فأشعرَه الاعتراف بذنبٍ شديد.

- «اللورد الغُراب العجوز، ذلك الذي معه الطَّائر المتكلِّم، أعطى كراستر نُشَّابيَّة تسوى مئة أرنب»، وضمَّت ذراعيها حول بطنها المنتفخ متسائلةً: «هل ما قالوه صحيح يا سيِّدي؟ أأنت أخ لمَلك؟».

- «أخ غير شقيق. أنا نغل ند ستارك، وأخي روب هو الملك في الشَّمال. ماذا تفعلين هنا؟».

- «السَّمين، سام هذا، قال أن آتي إليك، وأعطاني معطفه كي لا ألفت انتباه أحد».

- «ألن يغضب كراستر منكِ؟».

قالت وأنفاسها المتوتِّرة تَخرُج لتتجمَّد في الهواء: «أبي أفرطَ في الشَّراب من نبيذ اللورد الغُراب ليلة أمس، وسينام معظم النَّهار. يقولون إن الملك يمنح العدالة والحماية للضُّعفاء»، وبدأت تنزل الصَّخرة بلا اتِّزان، لكنها كانت زلقةً بفِعل الجليد، فانزلقَت قدم الفتاة رغمًا عنها، إلَّا أن چون أمسكَها قبل أن تَسقُط، وساعدَها على النُّزول بأمان، فركعَت على الأرض الجليديَّة قائلةً: «سيِّدي، أتوسَّـ...».

- «لا تتوسَّلي مني شيئًا وعودي إلى القاعة. إن لدينا أوامر بعدم الكلام مع نسوة كراستر».

- «ليس عليك أن تتكلَّم معي يا سيِّدي، فقط خُذني معك عندما تذهب، هذا كلُّ ما أطلبه».

كلُّ ما تَطلُبه، كأن هذا ليس بالخطب الكبير.

- «سأكونُ... سأكونُ زوجتك إذا أردت. أبي لديه تسع عشرة زوجةً الآن، ولن يضرَّه أن يفقد واحدةً».

- «الإخوة السُّود يُقسِمون ألَّا يتزوَّجوا أبدًا، ألا تعرفين هذا؟ كما أننا ضيوف على أبيكِ».

- «ليس أنت. لقد راقبتك، ولم أرَك تأكل على مائدته قَطُّ أو تنم إلى جوار ناره. إنه لم يُعطِك حَقَّ الضَّيف، فلست ملزَمًا بشيءٍ نحوه. يجب أن أرحل من أجل طفلي».

- «إنني لا أعرفُ اسمكِ حتى».

- «سمَّاني جيلي، على اسم الزَّهرة».

- «اسم جميل». تذكَّر أن سانزا قالت له ذات مرَّةٍ إن عليه أن يقول هذا متى أخبرَته امرأة باسمها، وهو لا يستطيع أن يُساعِد الفتاة، لكن ربما تسرُّها المجامَلة. «هل يُخيفكِ كراستر يا جيلي؟».

- «خوفي على الطِّفل لا على نفسي. إذا كان فتاةً فلا بأس، فستَكبُر خلال سنواتٍ قليلة ويتزوَّجها أبي، لكن نِلا تقول إنه سيكون صبيًّا، وقد أنجبَت ستَّةً وتعرف هذه الأشياء. إنه يُعطي الصِّبيان للآلهة، يفعل هذا كلما جاءَ البرد الأبيض، ومؤخَّرًا يأتي البرد الأبيض بكثرة، ولهذا السَّبب بدأ يُعطي الأغنام للآلهة، على الرغم من أنه يحبُّ الضَّأن، لكن الأغنام نفدَت، وبَعدها سيأتي دور الكلاب، إلى أن...»، وخفضَت عينيها وملَّست على بطنها.

- «أيُّ آلهة؟». كان يُفَكِّر الآن أنهم لم يروا أيَّ صبيانٍ في قلعة كراستر، ولا رجالًا كذلك باستثناء كراستر نفسه.

أجابَت: «آلهة الزَّمهرير التي تأتي ليلًا، الظِّلال البيضاء».

وعلى حين غرَّةٍ وجدَ چون نفسه في بُرج حضرة القائد من جديد. كانت

اليد المبتورة تتسلَّق رَبلة ساقه عندما انتزعَها برأس سيفه الطَّويل، فراحَت تتلوَّى على الأرض وأصابعها تنفتح وتنغلق، ونهضَ الرَّجل الميت بعينين تلمعان بالأزرق وسط وجهه المنتفخ المشجوج، بينما تدلَّى اللَّحم الممزَّق كالحبال من جرح بطنه الكبير، ومع ذلك لم تَسِل منه دماء على الإطلاق.

سألَها: «ما لون أعيُنهم؟».

- «زرقاء، زرقاء لامعة كالنُّجوم، ومِثلها باردة».

لقد رأتهم. كان كراستر يكذب.

- «هل ستأخذني؟ حتى «الجِدار» فقط، و...».

- «لسنا متَّجهين إلى «الجِدار»، بل شَمالًا وراء مانس رايدر وهؤلاء «الآخَرين»، الظِّلال البيضاء والجُثث الحيَّة. إننا نسعى إليهم يا جيلي، فلن يكون صغيركِ آمنًا معنا».

كان خوفها جليًّا على وجهها وهي تقول: «لكنكم ستعودون، عندما تَفرُغون من قتالكم ستمرُّون من هنا ثانيةً».

- «قد نفعل». إذا ظللنا أحياءً. «إنه قرار الدُّب العجوز، مَن تُسَمُّونه اللورد الغُراب. إنني مُرافِقه لا أكثر، ولا أختارُ الطُّرق التي نَسلُكها».

سمعَ نبرة الهزيمة في صوتها إذ غمغمَت: «لا. آسفةٌ لأني أزعجتك يا سيِّدي، لكني فقط... يقولون إن الملك يُحافِظ على سلامة النَّاس، وخطرَ لي...»، واندفعَت تجري مبتعدةً بيأس، ومعطف سام يخفق وراء ظَهرها كجناحين أسودين ضخمين.

راقَبها چون تبتعد وقد زالَت بهجته بجَمال الصَّباح العابر، وفكَّر باستياء: عليها اللَّعنة، وعلى سام اللَّعنة مرَّتين لأنه أرسلَها لي. ما الذي حسبَ أني أستطيعُ أن أفعله من أجلها؟ إننا هنا لقتال الهَمج وليس إنقاذهم.

بدأ رجال آخَرون يَخرُجون من ملاجئهم وهُم يتثاءبون ويتمطُّون، وقد تلاشى السِّحر بالفعل، واستحالَ الألَق الجليدي إلى ندى تقليدي في نور الشَّمس المشرقة. كان أحدهم قد أشعلَ نارًا، وشَمَّ چون رائحة الحطب المحترق المتسلِّلة بين الأشجار، ورائحة اللَّحم المقدَّد الدُّخانيَّة، فأنزلَ معطفه وخبطَه على الصَّخرة ليُحَطِّم القشرة الجليديَّة الرَّقيقة التي تكوَّنت

عليه ليلًا، ثم التقطَ سيفه «المخلب الطَّويل» ودَسَّ ذراعه في حزام الكتف، قبل أن يتَّجه إلى دغلٍ متجمِّدٍ قريب ليتبوَّل، فنزلَ البول والبُخار ينبعث منه، ليُذَوِّب الجليد أينما سقطَ، وبَعدها ربطَ جون سراويله الصُّوف السَّوداء، وسارَ نحو مصدر الرَّوائح.

كان جرن ودايوين بين الإخوة الذين اجتمَعوا حول النَّار، وناولَ هاك جون رغيفًا مفرَّغًا من الخُبز السَّميك، مملوءًا باللَّحم المقدَّد المحروق وقِطع السَّمك المملَّح المدفَّأة في دُهن اللَّحم، والتهمَ جون الطَّعام بنهمٍ بينما أصغى لدايوين الذي يتباهى بأنه ضاجعَ ثلاثًا من نسوة كراستر خلال اللَّيل.

قال جرِن عابسًا: «لم يَحدُث. كنتُ لأراك».

صفعَه دايوين على أُذنه بظَهر كفِّه قائلًا: «أنت؟ ترى؟ إنك أعمى كالمِايستر إيمون تمامًا، ولم ترَ الدُّبَّ حتى».

- «أيُّ دُب؟ أكان هناك دُب؟».

قال إد الكئيب بلهجته المستسلمة المعتادة: «هناك دُبٌّ دائمًا، كالذي قتلَ أخي لمَّا كنتُ صغيرًا، وبَعدها علَّق أسنانه في شريطٍ جِلديٍّ حول عُنقه. كانت أسنانًا نضيدةً أيضًا، أفضل من أسناني التي لم أعرف معها غير المتاعب».

سألَه جون: «هل نامَ سام في القاعة؟».

- «لا أسمِّي ذلك نومًا، فالأرض كانت صُلبةً والبُسط كريهة الرَّائحة، وغطيط إخوتي كفيل بإيقاظ الموتى. تكلَّموا عن الدِّببة إذا أردتم، فسهيف أيُّ دُبٍّ لا يُضاهي غطيط برنار البنِّي أبدًا. لكني حظيتُ بالدِّفء على الأقل، عندما نامَ عدد من الكلاب فوقي، وكان معطفي يكاد يجفُّ تمامًا بالفعل عندما بالَ أحدها عليه، أو لعلَّ برنار البنِّي مَن فعلَها. هل لاحظتم أن المطر توقَّف بمجرَّد أن أصبحَ هناك سقف فوقي؟ وطبعًا سيُعاوِد النُّزول الآن ما دمتُ خرجتُ. الآلهة والكلاب على حَدٍّ سواء يطيب لها التبوُّل عليَّ».

قال جون: «من الأفضلِ أن أذهب لأرى اللورد مورمونت».

صحيحٌ أن الأمطار توقَّفت، لكن الأرض ظلَّت أقرب إلى مستنقعٍ من البِرك الضَّحلة والأوحال الزَّلقة. كان الإخوة السُّود يطوون خيامهم ويُطعِمون خيولهم ويلوكون شرائح من اللَّحم المملَّح، بينما شَدَّ كشَّافة چارمان بكويل

أحزمة سروجهم قبل التحرُّك، وحيَّاه بكويل من على ظَهر حصانه قائلًا: «چون، فلتُحافِظ على حدَّة سيفك النَّغل هذا، لأننا سنحتاجه قريبًا».

كانت قاعة كراستر معتمةً في عينيه بَعد نور النَّهار، وفي الدَّاخل كانت المشاعل التي أوقِدَت ليلًا تكاد تخبو، ومن الصَّعب أن تُدرِك أن الشَّمس أشرقَت بالفعل. غُداف اللورد مورمونت كان أول من لمحَه يدلف، فخفقَ بجناحيه الأسودين الواسعين ثلاث مرَّاتٍ بكسل، ثم حَطَّ على مقبض «المخلب الطَّويل»، وأخذَ يُعَضعِض خصلةً من شَعر چون وهو يتساءَل: «ذُرة؟».

قال مورمونت: «تجاهَل هذا الطَّائر الشحَّاذ المأفون يا چون، فقد التهمَ نِصف لحمي المقدَّد لتوِّه». كان الدُّب العجوز جالسًا إلى مائدة كراستر يتناوَل فطوره مع القيِّمين الآخَرين، والذي تكوَّن من الخُبز المحمَّر واللَّحم المقدَّد وسجق أمعاء الخراف. استقرَّت بلطة كراستر الجديدة على المائدة، تلمع زخارفها الذَّهبيَّة بخفوتٍ في ضوء المشاعل، أمَّا صاحِبها فقد تمدَّد فاقد الوعي في علِّيَّة النَّوم فوقهم، بينما كانت النِّسوة كلهن مستيقظات، يتحرَّكن هنا وهناك ويُقَدِّمن الطَّعام. «كيف يبدو اليوم الذي ينتظرنا؟».

- «باردًا، لكن المطر انقطعَ».

- «عظيم. احرص على تجهيز حصاني، لأني أنوي أن نتحرَّك خلال ساعة. هل أكلت؟ طعام كراستر بسيط لكن مُشبِع».

اتَّخذ چون قراره فجأةً، وقال لنفسه: لن آكل طعام كراستر، ثم أجابَ: «أفطرتُ مع الرِّجال يا سيِّدي»، وهَشَّ الغُداف من على مقبض سيفه، فوثبَ الطَّائر إلى كتف مورمونت، حيث تبرَّز في الحال، فدمدمَ الدُّب العجوز: «كان يُمكنك أن تفعل هذا على سنو بدلًا من ادِّخار الخراء لي»، واكتفى الغُداف بالنَّعيب.

وجدَ سام واقفًا مع جيلي وراء القاعة بالقُرب من قفص الأرانب المحطَّم. كانت تُساعِده على ارتداء معطفه، لكنها انسلَّت مبتعدةً حين رأت چون، ورمقَه سام بنظرة لومٍ جريحة قائلًا: «حسبتُ أنك ستُساعِدها».

قال چون محتدًّا: «وكيف كنتُ لأساعدها؟ آخذها معنا مدَّثِّرةً بمعطفك؟ إن لدينا أوامر بعدم الـ...».

قال سام وقد بدا عليه الإحساس بالذَّنب: «أعرفُ، لكنها كانت خائفةً، وأنا أعرفُ معنى الخوف تمام المعرفة. قلتُ لها...»، وبترَ عبارته وابتلعَ لُعابه.

- «ماذا؟ إننا سنأخذها معنا؟».

احتقنَ وجه سام السَّمين وهو يُجيب دون أن يقوى على النَّظر في عيني چون: «في طريق العودة. سوف تُنجِب طفلًا».

- «سام، هل فقدت كلَّ ما لديك من عقل؟ قد لا نعود من هذا الطَّريق، وإذا فعلنا، فهل تتصوَّر أن الدُّب العجوز سيسمح لك بأخذ واحدةٍ من زوجات كراستر؟».

- «خطرَ لي... ربما كنتُ لأفكِّر في وسيلةٍ حتى ذلك الحين...».

- «لا أملكُ وقتًا لهذا»، وابتعدَ چون شاعرًا بالحيرة ممتزجةً بالغضب. لسام قلب كبير حقًّا كبقيَّة جسده، لكن على الرغم من قراءته المستمرَّة يظلُّ أحمق كجرِن أحيانًا. إن ما يرغب فيه مُحال، ومُخِلٌّ بالشَّرف علاوةً على ذلك... فلِمَ أشعرُ بالخجل يُكَلِّلني إذن؟

اتَّخذ چون مكانه المعتاد إلى جانب مورمونت بينما خرجَ حَرس اللَّيل من بوَّابة كراستر مارِّين بالجمجمتين. تحرَّكوا شَمالًا وغَربًا على طريقٍ معوجٍّ مجهَّز لاصطياد الفرائس، وتقاطرَ الجليد الذَّائب من كلِّ موضعٍ حولهم كنوعٍ أبطأ من المطر له موسيقاه الخاصَّة. شَمال قلعة كراستر كانَ الغدير يتدفَّقَ فائضًا عن آخِره، وقد سَدَّته أوراق الأشجار وقِطع الخشب، لكن الكشَّافة عثروا على المخاضة واستطاعَ الرَّكب العبور. ارتفعَت المياه حتى بطون الخيول، وسبحَ جوست حتى الضفَّة، ليَخرُج والماء يقطر من فروه الأبيض بنِّيًّا، وعندما نفضَ نفسه ناثرًا الماء والوحل في كلِّ اتِّجاه، لم يُعَلِّق مورمونت، وإن أطلقَ غُدافه صيحةً.

بهدوءٍ قال چون والغابة تُطبِق عليهم من جديد: «سيِّدي، كراستر ليس لديه أغنام، أو أبناء»، فلمَّا لم يُجِب مورمونت، تابعَ: «واحدة من الخادمات

في وينترفل حكَت لنا أشياء، كانت تقول إن هناك هَمجًا يُضاجِعون «الآخَرين» لإنجاب أطفالٍ نِصف بَشريِّين».

- «مجرَّد حكاياتٍ مخيفة تُروى حول النَّار ليلًا. هل يبدو كراستر أقلَّ من إنسانٍ في رأيك؟».

من نواحٍ كثيرة، أجل. «إنه يُعطي أبناءه للغابة».

صمتٌ طويل، ثم: «نعم»، و«نعم» أخرى ردَّدها الغُداف نافشًا ريشه. «نعم، نعم، نعم!».

- «كنت تعرف؟».

- «سمولوود أخبرَني منذ زمنٍ طويل. كلُّ الجوَّالة يعرفون، لكن قلائل يتكلَّمون عن هذا».

- «هل كان عمِّي يعرف؟».

- «كلُّ الجوَّالة. إنك ترى أن عليَّ أن أوقِفه، أن أقتله إذا دعَت الحاجة»، وزفرَ الدُّب العجوز وأضافَ: «لو أن الأمر كان ببساطة أن يرغب في تخليص نفسه من بعضَ الأفواه الجائعة، فكان ليُسعِدني أن أرسل يورن أو كونوي لأخذ الصِّبية، وكنا لنُرَبِّيهم على الأسود ويزداد حَرس اللَّيل قوَّةً، لكن الهَمج يَعبُدون آلهةً أقسى مما نَعبُد. هؤلاء الصِّبية قرابين كراستر، أو صلواته».

لا بُدَّ أن زوجاته يُقَدِّمن قرابين من نوعٍ آخَر.

سألَه الدُّب العجوز: «من أين عرفت هذا؟ من إحدى زوجات كراستر؟».

أجابَ چون معترفًا: «نعم يا سيِّدي، وأفضِّلُ ألَّا أقول لك أيهن، لأنها كانت خائفةً وأرادَت العون».

- «العالم الواسع يزخر بمن يحتاجون العون يا چون، وليت البعض يجد الشَّجاعة ليُعين نفسه. كراستر نائم في علِّيَّته الآن، غائب عن الوعي وتفوح منه رائحة النَّبيذ الكريهة، وعلى المائدة في الأسفل ثمَّة بلطة حادَّة جديدة. لو كنتُ مكانه لسمَّيتها «الدُّعاء المستجاب» وفرغت من الأمر».

نعم. فكَّر چون في جيلي وأخواتها. عددهن تسعة عشر، وكراستر رجل واحد، لكن...

- «إلَّا أنه سيكون من حظِّنا العاثر أن يموت كراستر. كان عمُّك ليحكي

لك عن المرَّات التي صنعَت فيها قلعة كراستر فارقًا بين الحياة والموت لجوَّالتنا».

بدأ چون يقول: «أبي...»، لكنه صمتَ متردِّدًا.

- «هلمَّ يا چون، قُل ما تُريد أن تقوله».

- «أبي قال لي ذات مرَّةٍ إن هناك رجالًا لا يستحقُّون أن نحظى بهم. حامل الرَّاية الوحشي أو الظَّالم يُلَوِّث شَرف اللورد وليِّ أمره تمامًا كشَرفه هو».

- «لا وليَّ أمرٍ لكراستر غير نفسه. إنه لم يتعهَّد لنا بشيء، ولا يخضع لقوانيننا. لديك قلْب نبيل يا چون، لكن عليك أن تتعلَّم درسًا. نحن لا نستطيع إصلاح الكون، فهذا ليس عملنا. حَرس اللَّيل أمامهم حروب أخرى يخوضونها».

حروب أخرى. نعم، يجب أن أتذكَّر هذا. «چارمان بكويل قال إني قد أحتاجُ سيفي قريبًا».

قال مورمونت دون أن يبدو عليه الرِّضا: «حقًّا؟ كراستر قال أكثر من هذا بكثير ليلة أمس، وأكَّد من مخاوفي ما كان كفيلًا بحرماني النَّوم على أرض قاعته. مانس رايدر يجمع قومه معًا في منطقة «أنياب الصَّقيع»، ولهذا خلَت القُرى، وهذا ما عرفَه السير دينس ماليستر من الهمجي الذي أسرَه رجاله في «الغور»، لكن كراستر أضافَ المكان، وهذا يصنع كلَّ الفارق».

- «هل يبني مدينةً أم جيشًا؟».

- «هذا هو السُّؤال. كم همجيًّا هناك؟ كم رجلًا في سِنِّ القتال؟ لا أحد يعرف على وجه الدِّقَّة، فـ«أنياب الصَّقيع» منطقة شديدة القسوة ولا تَصلُح للمعيشة، برارٍ من الحجارة والجليد، فلن يحتمل عدد ضخم من النَّاس المعيشة هناك طويلًا. لا أرى إلَّا غرضًا واحدًا من هذا الحشد. مانس رايدر ينوي الزَّحف جَنوبًا، إلى الممالك السَّبع».

- «سبقَ أن غزا الهَمج البلاد من قبل». لقد سمعَ چون الحكايات من العجوز نان والمِايستر لوين في وينترفل. «رايمون ذو اللِّحية الحمراء قادَهم جَنوبًا في زمن جَدِّ جدِّي، وقبله كان هناك ملك اسمه بايل الشَّاعر».

- «أجل، وقبلهما بزمنٍ طويل جاءَ اللورد ذو القرون، والأخوان الملكان

جندل وجورن، وفي الماضي السَّحيقِ چورامون الذي نفخَ في بوق الشِّتاء وأيقظَ العمالقة من قلبِ الأرض. كلٌّ منهم حطَّم قوَّته على «الجدارِ»، أو حطَّمته قوَّة وينترفل على الجانب الآخَر... لكن حَرس اللَّيل مجرَّد ظِلٍّ الآن لما كانوا من قبل، ومن تبقَّى لمواجَهة الهَمج غيرنا؟ لقد ماتَ سيِّد وينترفل، ووريثه زحفَ بقوَّاته جَنوبًا ضد آل لانستر. قد لا يحظى الهَمج بفُرصةٍ كهذه ثانيةً أبدًا. كنتُ أعرفُ مانس رايدر يا چون. إنه حانث بالقَسم، نعم... لكنه ليس أعمى، كما أن أحدًا لم يجرؤ قَطُّ على وصفه بالجُبن».

سألَه چون: «وماذا سنفعل؟».

أجابَ مورمونت: «سنجده، ونُقاتِله، ونوقِفه».

وقال چون لنفسه وأصابعه تنقبض وتنبسط: ثلاثمئة رجلٍ نحن... ضد ضراوة البراري.

ثيون

كانت رائعة الجَمال بحق، وتطلَّع ثيون جرايچوي إليها مفكِّرًا: لكن الأولى جميلة دومًا.

جاءَ صوت امرأةٍ من ورائه يقول: «هكذا تكون الابتسامة الحُلوة. يبدو أنها أعجبَت اللورد الصَّغير، أليس كذلك؟».

التفتَ يَرمُقها بنظرةٍ فاحصة، وراقَه ما رأى. من الوهلة الأولى عرفَ أنها حديديَّة الميلاد، نحيلة القوام وطويلة السَّاقين، وشَعرها أسود قصير ويداها قويَّتان واثقتان، وتشي بشرتها بتعرُّضها المستمرِّ للرِّيح، بينما يتدلَّى من حزامها خنجر، ويبدو أنفها كبيرًا وحادًّا بالنِّسبة لوجهها الصَّغير، وإن عوَّضتها ابتسامتها عن ذلك. قدَّر أنها تَكبُره ببضع سنوات، لكن لا تتجاوَز الخامسة والعشرين، وتتحرَّك كمن اعتادَ على وجود سطح سفينةٍ تحت قدميه.

قال لها: «نعم، منظرها يسرُّ الأنفُس حقًّا، لكنها لا تدنو من نِصف جمالكِ».

ردَّت بابتسامةٍ واسعة: «أوهو، عليَّ أن آخذ حذري، فاللورد الصَّغير معسول اللِّسان».

- «تذوَّقيه واعرفي بنفسكِ».

قالت مسدِّدةً إليه نظراتها الجريئة: «هكذا إذن؟». في جُزر الحديد إناث -قليل منهن- يعملن على السُّفن الطَّويلة مع الملَّاحين الرِّجال، ويُقال إن الملح والبحر يُغيِّرانهن، ويُكسِبانهن شهوات الذُّكور. «هل غِبت وقتًا طويلًا في البحر أيها اللورد الصَّغير؟ أم أن لا نساء حيث كنت؟».

- «نساء كثيرات، لكن ولا واحدة منهن مِثلكِ».

- «وكيف لك أن تعرفني؟».

- «عيناي تريان وجهكِ، وأُذناي تسمعان ضحككِ، وقضيبي انتصبَ كالسَّارية لمرآكِ».

تقدَّمت المرأة وضغطَت مقدِّمة سراويله بيدها، ثم قالت: «لست تكذب»، واعتصرَت ذَكره مرَّةً من فوق القُماش مضيفةً: «أيُؤلمك كثيرًا؟».

- «بعُنف».

تخلَّت عنه وتراجعَت قائلةً: «اللورد الصَّغير المسكين. الحقيقة أني امرأة متزوِّجة، وحديثة الحمل».

- «الشُّكر للآلهة، فلا فُرصة إذن لأن تحملي نغلًا مني».

- «وإن يكن، لن يَشكُرك رجلي على شيءٍ كهذا».

- «نعم، لكن قد تَشكُرينني أنتِ».

- «ولِمَ؟ لقد جرَّبتُ اللوردات من قبل، ولا فارق بينهم وبين غيرهم من الرِّجال».

- «وهل سبقَ أن جرَّبتِ أميرًا؟ عندما يتغضَّن وجهكِ ويشيب شَعركِ ويترهَّل ثدياكِ إلى ما بَعد بطنكِ، يُمكنكِ أن تحكي لأولاد أولادكِ أنكِ أحببتِ ملكًا ذات يوم».

- «أوه، أنتكلَّم عن الحُبِّ الآن؟ وكنتُ أتصوَّرُ أن الأمر يقتصِر على الفروج والقضبان فقط».

- «أهو الحُبُّ ما تشتهين؟». قرَّر أن هذه الفتاة -أيًّا كانت- تستهويه حقًّا، خصوصًا أن بديهتها الحاضرة وحِسَّها العالي في الدُّعابة بمثابة مهرب محبَّذ من كآبة پايك ورطوبتها. «هل أطلقُ اسمكِ على سفينتي الطَّويلة، وأعزِفُ لكِ على القيثارة السَّامية، وأُسكِنكِ غُرفةً في بُرجٍ في قلعتي، لا ترتدين فيها غير الجواهر كالأميرات في الأغاني؟».

قالت متجاهلةً الباقي: «الواجب حقًّا أن تُطلِق اسمي على سفينتك الطَّويلة، فأنا من بنيتها».

- «سيجرين سفَّان السيِّد والدي هو من بناها».

- «وأنا إسجريد، ابنة أمبرود وزوجة سيجرين».

لم يكن يعرف أن أمبرود أنجبَ بنتًا، ولا أن سيجرين تزوَّج... لكنه التقى السَّفَّان الشَّاب مرَّةً واحدةً فقط، أمَّا العجوز فيكاد لا يَذكُره. قال لها: «خسارة أنتِ في سيجرين فعلًا».

- «أوهو، سيجرين قال لي إن هذه السَّفينة الجميلة خسارة فيك».

قال ثيون بخشونة: «أتعرفين مَن أكونُ؟».

- «الأمير ثيون سليل عائلة جرايچوي، مَن غيره؟ اصدُقني القول يا سيِّدي، كم تروقك فتاتك الجديدة؟ سيُريد سيجرين أن يعرف».

كانت السَّفينة الطَّويلة جديدةً تمامًا، حتى إن رائحة القار والراتنج[1] لا تزال تنبعث منها. سوف يُباركها عمُّه آرون غدًا، لكن ثيون جاءَ على متن حصانٍ من پايك كي يُلقي نظرةً عليها قبل أن تنزل إلى البحر. إنها ليست ضخمةً كسفينة اللورد بالون «الكراكن العظيم»، أو «النَّصر الحديدي» سفينة عمِّه ڤيكتاريون، لكنها تبدو سريعةً رشيقةً، حتى وهي مستقرَّة في حوضها الخشبي على الشَّاطئ. بدنها أسود رفيع طوله مئة قدم، ويرتفع منها صارٍ واحد طويل، ومزوَّدة بخمسين مجذافًا طويلًا، وسطحها يتَّسع لمئة رجل... ومن المقدِّمة يَخرُج الكبش الحديدي الضَّخم على شكل رأس السَّهم.

قال: «سيجرين أسداني خدمةً عظيمةً. أهي بالسُّرعة التي تبدو عليها؟».

- «وأسرع... لو أن رُبَّانها يعرف كيف يتحكَّم فيها».

- «مضَت سنوات منذ أبحرتُ بسفينة». ولم أكن رُبَّانًا على واحدةٍ قَطُّ في الحقيقة. «لكني من آل جرايچوي، والبحر يجري في دمي».

- «ودمك سيجري في البحر لو أنك تُبحِر مِثلما تتكلَّم».

- «لا يُمكنني أبدًا أن أسيء معامَلة حسناء كهذه».

قالت ضاحكةً: «حسناء؟ إنها كلبة بحر».

- «ليكن، ها أنتِ قد اخترتِ اسمها، «كلبة البحر»».

وشَت اللَّمعة في عينيها الذَّاكنتين بأن هذا سرَّها، وقالت بنبرةٍ تُحاكي التَّأنيب الجريح: «قلت إنك ستُطلِق عليها اسمي».

---

(1) الراتنج مادَّة عضويَّة صمغيَّة تُستخدَم في الطِّلاء والغراء.

قال: «هذا ما فعلته»، والتقطَ يديها مضيفًا: «ساعِديني يا سيِّدتي. في الأراضي الخضراء يُؤمِنون بأن الحبلى تجلب البخت السَّعيد لأيِّ رجلٍ يفترشها».

– «وماذا يعرفون عن السُّفن في الأراضي الخضراء؟ أو عن النِّساء؟ كما أني أعتقدُ أن هذا الكلام من تأليفك».

– «أستظلِّين تُحِبِّيني إذا اعترَفتُ؟».

– «أظلُّ؟ ومتى أحببتك أصلًا؟».

قال: «لم تُحِبِّيني قَطُّ، لكني أحاولُ تعويض نفسي عن هذا يا حُلوتي إسجريد. الرِّيح باردة، فتعالي معي على متن سفينتي ودعيني أدفِّئكِ. غدًا سيصبُّ عمِّي آرون مياه البحر على مقدِّمتها ويُهَمهِم بصلاةٍ ما للإله الغريق، لكني أوثرُ أن أباركها بلبني ولبنكِ».

– «قد يُغضِب ذلك الإله الغريق».

– «فليذهب الإله الغريق إلى حيث ألقت. سوف أُغرقه ثانيةً إذا أزعجَنا. إننا ذاهبون إلى الحرب خلال أسبوعين لا أكثر، فهل يُرضيكِ أن أدخل المعركة وأنا أعاني السُّهاد والاشتياق؟».

– «بكلِّ سرور».

– «فتاة قاسية. سفينتي اسم على مسمًّى حقًّا. إذا قادَني شرودي فيكِ لتحطيمها على الصُّخور، فلا تلومي إلَّا نفسكِ».

قالت إسجريد: «أتنوي قيادتها بهذا؟»، وتحسَّست مقدِّمة سراويله مرَّةً أخرى بخفَّة، وابتسمَت ممرِّرةً إصبعها على بروز ذَكره المنتصب عن آخِره.

– «تعالي معي إلى بايك»، قال فجأةً وهو يُفَكِّر: ماذا سيقول اللورد بالون؟ ولماذا أبالي بما يقوله؟ إنني رجل بالغ، وإذا أردتُ أن آخذ فتاةً إلى فِراشي، فهذا شأني وحدي.

قالت وقد ظلَّت يدها في مكانها: «وماذا أفعلُ في بايك؟».

– «سيقيم أبي مأدبةً لِربابنته اللَّيلة». إنه يُقيم لهم المآدب كلَّ ليلةٍ في الحقيقة، بينما ينتظر المتلكِّئين عن الوصول، لكن ثيون لم يرَ داعيًا لأن تعرف هي هذا.

قالت وعلى شفتيها أمكر ابتسامةٍ رأى امرأةً تبتسمها على الإطلاق: «هلَّا جعلتَني رُبَّانتك اللَّيلة يا سيِّدي الأمير؟».

- «قد أفعلُ، إذا تأكَّدتُ من أنكِ تستطيعين قيادتي إلى المرفأ».

- «أعرفُ أيُّ طرفيِّ المجذاف يوضَع في الماء، وليست هناك من هي أبرع مني في التَّعامُل مع الحبال والعُقد»، وبيدٍ واحدةٍ حلَّت أربطة سراويله، ثم ابتسمَت وتراجعَت مبتعدةً عنه بحركةٍ سريعة، وأضافَت: «لكني للأسف امرأة متزوِّجة، وحديثة الحمل».

عادَ ثيون يربط سراويله بارتباكٍ قائلًا: «يجب أن أرجع إلى القلعة. إذا لم تأتي معي، فقد أضلُّ طريقي من فرط حُزني، فتصير الجُزر أفقر».

- «لا يُمكننا أن نسمح بهذا... لكني لا أملكُ حصانًا يا سيِّدي».

- «تستطيعين ركوب حصان مُرافِقي».

- «وأجعلُ مُرافِقك المسكين يمشي حتى بايك؟».

- «اركبي معي إذن».

عادَت الابتسامة إلى وجهها وهي تقول: «يروقك أن أفعل، هه؟ هل أركبُ وراءك أم أمامك؟».

- «حيثما شئتِ».

- «أحبُّ أن أكون على القمَّة».

أين كانت هذه الفتاة طيلة حياتي؟ «قاعة أبي مظلمة ورطبة، وتحتاج إسجريد لتُؤَجِّج نارها».

- «اللورد الصَّغير معسول اللِّسان».

- «ألم نبدأ من هنا؟».

رفعَت يديها في الهواء قائلةً: «وهنا ننتهي! إسجريد لك يا أميري الجميل. خُذني إلى قلعتك، وأرِني أبراجك الشَّامخة ترتفع من البحر».

قال: «تركتُ حصاني عند الخان. تعالي»، وسارا على الشَّاطئ معًا، ولم تُجفِل عندما تأبَّط ثيون ذراعها. راقَته الطَّريقة التي تسير بها، ملأى بالجرأة وتجمع بين المشي الهوينى والتَّمايُل، وتشي بأنها لا تقلُّ جرأةً تحت الأغطية.

كانت لوردزپورت مزدحمةً على نحوٍ لم يرَه من قبل، تعجُّ بأطقُم السُّفن

الطَّويلة التي ارتصَّت على حصى السَّاحل، ورسَت في صفوفٍ طويلة تتجاوَز حائلِ الأمواج. لا يُبدي الحديديُّون ذِلَّةً أو مَسكنةً ببساطةٍ أو كثيرًا، لكن ثيون لاحظَ أن البحَّارة وأهل البلدة لاذوا بالصَّمت مع مرورهما، وأوفوه إيماءات الاحترام، ففكَّر: أخيرًا يعلمون من أنا، وآنَ أوان أن يعلموا.

كان اللورد جودبراذر قد وصلَ من ويك الكُبرى اللَّيلة السَّابقة مع قوَّاته كلها، ما يَقرُب من أربعين سفينةٍ طويلة، ورجاله في كلِّ مكان، يلفتون الأنظار بأوشحتهم المخطَّطة المصنوعة من شَعر الماعز. تردَّد الكلام حول الخان عن أن سيقان عاهرات أوتر جيمپني تقوَّست من كثرة امتطاء الصِّبية الحليقين ذوي الأوشحة لهن. فليهنأ الصِّبية بهن، فبيت البغايا الوضيع هذا أشبه بمعقلٍ للأمراض كان ثيون يأمل ألَّا يراه أبدًا، بينما تُناسِب رفيقته الحاليَّة ذوقه أكثر، وحقيقة أنها زوجة سفَّان أبيه -وحبلى كذلك- جعلَتها أكثر جاذبيَّة.

سألَته إسجريد وهما يَشُقَّان طريقهما إلى الاسطبل: «هل بدأ سيِّدي الأمير ينتقي طاقمه؟»، ثم إنها لمحَت ملَّاحًا طويل القامة يرتدي صُدرةً من جِلد الدِّببة وخوذةً ذات جناحي غُداف، فرفعَت عقيرتها قائلةً له: «هوه! ذو السِّن الزَّرقاء، كيف حال عروسك؟».

- «بطنها منتفخ بالحمل، وتقول إنها ستلد توأمين».

قالت إسجريد بتلك الابتسامة الماكرة: «بهذه السُّرعة؟ لا بُدَّ أنك غمست مجذافك في الماء على الفور».

صاح الرَّجل بضحكةٍ هادرة: «أجل، وجذفتُ، وجذفتُ وجذفتُ!».

قال ثيون: «رجل كبير الحجم. اسمه ذو السِّن الزَّرقاء؟ هل أختاره لـ«كلبة البحر»؟».

- «فقط إذا أردت أن تُهينه، فلديه سفينته الخاصَّة».

- «الحقَّ أني غِبتُ طويلًا، فلم أعُد أعرفُ رجلًا من غيره». كان قد بحثَ عن بعض الأصدقاء الذين لعبَ معهم في صِباه، لكنهم إمَّا رحَلوا أو ماتوا أو أصبحوا أغرابًا. «أعارَني عمِّي ڤيكتاريون قائد دفَّته».

قالت: «رايمولف ستورمدرنك؟ إنه رجل صالح ما دامَ بوعيه»، ثم إنها

لمحَت مزيدًا من الوجوه التي تعرفها، فنادَت ثلاثة رجالٍ مارِّين قائلةً: «أولر، كارل، سكايت، أين أخوكم؟».

أجابَ الرَّجل الممتلئ الذي وخطَ الشَّيب لحيته: «أخشى أن الإله الغريق احتاج مجذفًا قويًّا».

وقال الشَّاب متورِّد الوجه إلى جانبه: «ما يعنيه أن إلديس ظَلَّ يشرب النَّبيذ حتى انفجرَ بطنه السَّمين».

قالت إسجريد: «عسى الميِّت ألَّا يموت أبدًا».

- «عسى الميِّت ألَّا يموت أبدًا».

تمتمَ ثيون بالكلمات معهم، ثم قال لها بَعد أن ابتعدَ الرِّجال: «تبدين معروفةً جدًّا».

- «كلُّ رجلٍ يُحِبُّ زوجة السفَّان، وخيرٌ له أن يُحِبَّها لو أنه يُريد ألَّا تغرق سفينته. إذا كنتَ تحتاج مجذفين، فهؤلاء الثَّلاثة أفضل من غيرهم».

- «لوردزپورت لا تفتقر لأصحاب الأذرُع القويَّة». كان ثيون قد فكَّر مليًّا في الأمر، فهو يرغب في مُقاتِلين، ولا بُدَّ أن يكونوا رجالًا موالين له هو، وليس للسيِّد والده أو أعمامه. إنه يلعب دور الأمير الشَّاب المطيع في الوقت الرَّاهن، بينما ينتظر أن يُفصِح اللورد بالون عن مخطَّطاته كاملةً، لكن إذا تبيَّن أن ثيون غير راضٍ عن تلك الخطط أو دوره فيها...

- «القوَّة لا تكَفي. يجب أن تتحرَّك مجاذيف السَّفينة الطَّويلة معًا كمجذافٍ واحد لو أردتها أن تنطلق بكامل سرعتها. إذا كنت حكيمًا، فاختر رجالًا سبق لهم التَّجذيف معًا».

- «نصيحة سديدة. ربما يُمكنكِ مساعَدتي على اختيارهم». دَعها تعتقد أني أنشدُ حكمتها، فهذا ما يُعجب النِّساء.

- «قد أفعلُ إذا عامَلتني برقَّة».

- «وهل من سبيلٍ آخَر لمعامَلتكِ؟».

حَثَّ ثيون الخُطى مع اقترابهما من «الميراهام» التي تتأرجح عاليةً فارغةً على الرَّصيف. كان رُبَّانها قد حاولَ الإبحار قبل أسبوعين، لكن اللورد بالون لم يسمح له، كما لم يسمح لأيٍّ من التُّجَّار الذين توقَّفوا في لوردزپورت

بالمغادَرة ثانيةً، فأبوه لا يرغب في وصول أنباء احتشاد السُّفن الطَّويلة إلى البَرِّ قبل أن يضرب ضربته.

ناداه الصَّوت الأسيان من أعلى مقدِّمة السَّفينة التِّجاريَّة، وقد مالَت ابنة الرُّبَّان على الحاجز تلتهمه بنظراتها. كان أبوها قد حرَّم عليها النُّزول إلى اليابسة، لكن كلما أتى ثيون إلى لوردزپورت لمحَها تذرع سطح السَّفينة بشرودٍ ويأس، والآن سمعَها تصيح بتوسُّل: «سيِّدي، إذا طابَ لسيِّدي أن...».

سألَته إسجريد وهو يهرع متجاوزًا الكوج: «هل طابَت هي لسيِّدها؟».

لم يرَ مغزى لادِّعاء الحياء مع واحدةٍ مِثلها، فقال: «فترةً من الوقت، والآن تُريد أن تكون زوجتي الملحيَّة».

- «أوهو، سيُفيدها القليل من التَّمليح بلا شَك، فهي لينة جدًّا وبلا طعمٍ مميَّز، أم أني مخطئة؟».

- «لستِ مخطئةً». لينة جدًّا وبلا طعم مميَّز، بالضبط. كيف عرفَت؟

كان قد أمرَ وِكس بانتظاره في الخان، ووجدَ ثيون القاعة العامَّة مكتظَّةً عن آخِرها، حتى إنه اضطرَّ لحشْر نفسه حشرًا كي يَدخُل، ليرى أن لا مكان شاغرًا على الدِّكك أو الطاولات. لم يلمح مُرافِقه، فرفعَ صوته فوق الضَّجيج زاعقًا: «وِكس!»، وقال لنفسه حانقًا: لو أنه مع واحدةٍ من تلك العاهرات القذرات، فأقسمُ أن أسلخ جِلده، قبل أن تقع عيناه على الصَّبي أخيرًا، يلعب النَّرد إلى جوار المستوقَد... ويربح كذلك كما يشي منظر كومة العُملات أمامه.

أعلنَ ثيون: «سنُغادِر الآن»، ولمَّا لم يُعِره الصَّبي انتباهًا، قبضَ على أُذنه بقوَّةٍ وشَدَّه بعيدًا عن اللُّعبة، فالتقطَ وِكس حفنة العُملات النُّحاسيَّة، وذهبَ معه دون أن ينبس بكلمةٍ واحدة. صمته هذا واحد من الأشياء التي تروق ثيون فيه، فمعظم مُرافِقي النُّبلاء والفُرسان لا يصونون ألسنتهم أبدًا، بينما وُلِدَ وِكس أبكم... وإن لم يَعُقه هذا خطوةً عن أن يكون أذكى من أيِّ صبيٍّ تقليدي في الثَّانية عشرة من العُمر. إنه الابن غير الشَّرعي لأحد إخوة اللورد بوتلي غير الأشقَّاء، وتعيينه مُرافِقًا لثيون كان جزءًا من الثَّمن الذي دفعَه لقاء حصانه.

اتَّسعت عينا وِكس عندما رأى إسجريد، فقال ثيون لنفسه: كأنه لم يرَ

امرأةً من قبل، وخاطبَ الصَّبي قائلًا: «إسجريد ستركب معي إلى پايك. جهِّز الحصانين بسرعة».

ركبَ الصَّبي حصانًا ناحلًا صغير الحجم من اسطبل اللورد بوتلي، أمَّا حصان ثيون فيختلف تمامًا. سألَته إسجريد حين رأته: «من أين أتيت بجواد الجحيم هذا؟»، لكن ضحكتها أفصحَت لثيون عن إعجابها بالدَّابَّة.

- «اللورد بوتلي اشتراه من لانسپورت قبل عام، لكنه أثبتَ أنه أكثر جموحًا من أن يستطيع بوتلي ترويضه، فسرَّه أن يبيعه». جُزر الحديد أصغر مساحةً وأكثر امتلاءً بالصُّخور من أن تُتيح استيلاد وتربية خيلٍ جيِّدة، ومعظم سُكَّان الجُزر لا يعبأون بالرُّكوب، ناهيك بإجادته، ويَشعُرونَ بالرَّاحة والأُلفة فوق أسطُح السُّفن الطَّويلة أكثر من السُّروج. حتى اللوردات هنا يمتطون أحصنةً صغيرةً أقرب إلى المهور، أو خيولًا قزمةً من هارلو، بينما تنتشر العربات التي تجرُّها الثِّيران أكثر من تلك التي تجرُّها الخيول بكثير، والعوام الأفقر من أن يمتلكوا هذه أو تلك يَجُرُّون محاريثهم بأنفسهم على التُّربة الحجريَّة الفقيرة. غير أن ثيون أمضى عشر سنواتٍ في وينترفل، ولا ينوي الذَّهاب إلى الحرب دون مطيَّةٍ تَصلُح، وهكذا كان سوء تقدير اللورد بوتلي بمثابة حظِّه الحَسن، فمزاج هذا الفحل أكثر سوادًا من جِلده، وحجمه أكبر من خيول السِّباق لكن لا يُضاهي الجياد الحربيَّة الضَّخمة، وبما أن ثيون ليس كبير الحجم كمعظم الفُرسان، فقد ناسبَه هذا تمامًا. في عيني الحصان نار موقدة، وعندما قابلَ مالكه الجديد أول مرَّة، كشفَ أسنانه وحاولَ أن يقضم وجهه.

سألَته إسجريد وهو يمتطي الحصان: «أله اسم؟».

أجابَ: «سمايلر»، ومَدَّ يده يُساعِدها على الصُّعود لتركب أمامه، حيث يستطيع أن يُطَوِّقها بذراعيه، وأردفَ: «عرفتُ رجلًا قال لي ذات مرَّةٍ إنني أبتسمُ للأسباب الخطأ».

- «وهل هذا صحيح؟».

قال: «فقط في رأي من لا يبتسمون لشيءٍ أبدًا»، ووجدَ نفسه يُفَكِّر في أبيه وعمِّه آرون.

- «هل تبتسم الآن يا سيِّدي الأمير؟».

قال ثيون: «أوه، بالتَّأكيد»، ومَدَّ يديه حولها يلتقط العِنان. إنها تكاد تُناهِزه طولًا، يحتاج شَعرها غسلًا، وثمَّة ندب وردي باهت على عُنقها الجميل، لكنه أحبَّ رائحتها التي تتمازَج فيها الملوحة والعذوبة بالأنوثة.

الآن تُبَشِّر رحلة العودة إلى پايك بأنها ستكون أمتع كثيرًا من رحلة الذَّهاب.

عندما ابتعدا مسافةً لا بأس بها عن لوردزپورت، رفعَ ثيون كفَّه وطوَّق بها ثدي إسجريد، التي أسرعَت تُزيحها قائلةً: «خيرٌ لك أن تبقى يداك على العِنان، وإلَّا ألقانا وحشك الأسود هذا من فوقه وركلَنا حتى الموت».

- «لقد قهرتُ هذه النَّزعة فيه». شاعرًا بالاستمتاع، أحسنَ ثيون الأدب فترةً من الوقت وثرثرَ بأسلوبٍ لطيف عن الطَّقس (السَّماء ملبَّدة بالغيوم الرَّماديَّة المكفهرَّة كما كانت منذ عادَ، والأمطار متكرِّرة)، وحكى لها عن الرِّجال الذين قتلَهم في معركة الغابة الهامسة، وعندما بلغَ الجزء الذي كان فيه على مرمى حجرٍ من قاتِل الملك، رفعَ يده إلى ثديها ثانيةً. ثدياها صغيران، لكنه يُحِبُّ اكتنازهما.

- «لست تُريد أن تفعل هذا يا سيِّدي الأمير».

اعتصرَ ثيون الثَّدي قائلًا: «أوه، لكني أريدُ حقًّا».

- «مُرافِقك يُراقِبك».

- «دَعيه يُراقِب. إنه لن يحكي لأحدٍ أبدًا، أقسمُ لكِ».

انتزعَت إسجريد أصابعه عن ثديها، وهذه المرَّة ظلَّت مُطبقةً عليها بعيدًا عنها بيديها القويَّتين.

- «أحبُّ المرأة ذات القبضة القويَّة المُحكمة».

قالت متهكِّمةً: «ما كنتُ لأتصوَّر ذلك منذ رأيتُ تلك الفتاة على السَّاحل».

- «لا تَحكُمي عليَّ من خلالها، فقد كانت الأنثى الوحيدة على السَّفينة».

- «حدِّثني عن أبيك. هل سيُرَحِّب بي في قلعته؟».

- «ولِمَ؟ لقد رحَّب بي أنا بالكاد مع أني لحمه ودمه، ووريث پايك وجُزر الحديد».

سألَته بلهجةٍ محايدة: «أأنت كذلك حقًّا؟ يُقال إن لديك أعمامًا وأخوين وأختًا».

- «أخواي ماتا منذ زمن، أمَّا أختي... يقولون إن ثوب آشا المفضَّل عبارة عن قميصٍ طويلٍ من الحلقات المعدنيَّة يتجاوَز رُكبتيها، بينما ترتدي تحته ثيابًا داخليَّةً من الجِلد المقوَّى، لكن ثياب الرِّجال لن تصنع منها رجلًا. سأرتِّبُ لها زيجةً تحالفيَّةً مناسبةً عقب فوزنا بالحرب، لو وجدتُ رجلًا يرضى بها. كما أذكرُ، فأنفها معقوف كمنقار النَّسر، ووجهها مليء بالبثور المتفخة، ولا فارق بين صدرها وصدور الصِّبيان».

قالت إسجريد: «يُمكنك أن تُزَوِّج أختك، لكن ماذا عن أعمامك؟».

- «أعمامي...». الواقع أن ثيون يسبق إخوة أبيه الثَّلاثة في أحقيَّة الخلافة، لكن المرأة ضربَت وترًا حسَّاسًا على الرغم من هذا، فليست حادثةً نادرةً في جُزر الحديد أن يُجَرِّد عَمٌّ أو خالٌ قويٌّ ابن أخيه أو أخته من حقوقه، وعادةً ما يَقتُله كذلك. لكني لستُ ضعيفًا، وأنوي أن أكون أقوى وأقوى إلى أن تحين ساعة أبي. «أعمامي لا يُشَكِّلون تهديدًا لي. آرون سكران بماء البحر والورع، ويحيا من أجل إلهه فقط».

- «إلهه وليس إلهك؟».

- «وإلهي كذلك. عسى الميِّت ألَّا يموت أبدًا»، وابتسمَ ابتسامةً خفيفةً وأكملَ: «إذا تظاهَرتُ بالتَّقوى والتديُّن، سيدعني ذو الشَّعر الرَّطب وشأني، وبالنِّسبة لعمِّي ڤيكتاريون...».

- «حضرة قائد الأسطول الحديدي والمحارب المغوار. سمعتهم يُغَنُّون عنه في الحانات».

- «أثناء ثورة أبي، أبحرَ إلى لانسپورت مع عمِّي يورون وأحرقَ أسطول لانستر في مرساه، لكن يورون هو من وضعَ الخطَّة. ڤيكتاريون كالعِجل الضَّخم العجوز، قوي ومخلص ولا يكلُّ، لكنه لن يفوز في أيِّ سباق. لا ريب أنه سيخدمني بولاءٍ كما خدمَ أبي، فهو لا يتمتَّع بذكاءٍ أو طموحٍ يُخَوِّلان له إضمار المكائد».

- «لكن يورون عين الغُراب لا يَنقُصه الدَّهاء. سمعتُ حكاياتٍ رهيبة تُروى عنه».

اعتدلَ ثيون فوق سَرجه، وقال: «لم يظهر عمِّي يورون في الجُزر منذ ما يَقرُب من عامين. قد يكون ميتًا». ولو أنه ماتَ حقًّا فقد يكون هذا خيرًا، فأخو اللورد بالون الأكبر لم يتخلَّ قَطُّ عن «النَّهج القديم» ولو يومًا واحدًا، ويُقال إن سُمعة سفينته «الصَّمت» بأشرعتها السَّوداء وبدنها الأحمر القاني سيِّئة في كلِّ الموانئ من إيبن إلى آشاي.

قالت إسجريد: «قد يكون ميتًا، وإذا كان حيًّا فقد أمضى وقتًا طويلًا في البحر على كلِّ حال، وسيبدو هنا أقرب إلى الغُرباء. الحديديُّون لن يُجلِسوا غريبًا على كرسي حجر اليَمِّ أبدًا».

رَدَّ ثيون: «أعتقدُ هذا»، قبل أن يَخطُر له أن البعض يُمكنهم وصْفه بالغريب بدوره، وجعلَه الخاطر يُقطِّب وجهه عابسًا. عشرة أعوام زمن طويل، لكني رجعتُ، وأبي لن يموت قريبًا. لديَّ وقت يكفي لإثبات نفسي.

فكَّر في مداعَبة ثدي إسجريد ثانيةً، لكنها ستُزيح يده غالبًا، كما أن الكلام عن أعمامه ثبَّط فورته إلى حَدٍّ ما. سيجد وقتًا كافيًا للعب بَعدما يعود إلى خصوصيَّة مسكنه في القلعة. قال لها: «سأكلِّمُ هيليا عندما نَبلُغ بايك، وأحرصُ على أن تجلسي في مكان شَرفٍ في المأدبة. عليَّ أن أجلس على المنصَّة إلى يمين أبي، لكني سأنزلُ وأنضمُّ إليكِ عندما يُغادِر القاعة. نادرًا ما يبقى وقتًا طويلًا هناك، فمعدته لا تحتمل الشَّراب هذه الأيام».

- «شيء حزين أن يشيخ العُظماء».

- «اللورد بالون ليس أكثر من أبٍ لرجلٍ عظيم».

- «لورد صغير متواضع أنت».

رَدَّ: «فقط الأحمق يَذِلُّ والعالم يعجُّ بمَن يُمكنهم أن يفعلوا هذا بدلًا منه»، ولثَمَ مؤخِّرة عُنقها بخفَّة.

مدَّت يدها إلى الخلف دافعةً وجهه، وقالت: «ماذا سأرتدي لهذه المأدبة العظيمة؟».

- «سأطلبُ من هيليا أن تجد لكِ ثيابًا. قد يَصلُح لكِ واحد من فساتين السيِّدة والدتي. لقد رحلَت إلى هارلو، وليس من المتوقَّع أن تعود».

- «سمعتُ أن الرِّياح الباردة استنزفَت قُواها. ألن تذهب لزيارتها؟ هارلو تَبعُد يومًا واحدًا، ومؤكَّد أن الليدي جرايچوي تتوق لرؤية ابنها مرَّةً أخيرةً».

- «ليتني أستطيعُ، لكني كثير الأشغال هنا، وأبي يعتمد عليَّ بما أني عدتُ. عندما يحلّ السَّلام ربما...».

- «قد يمنحها ذهابك إليها السَّلام».

قال متذمِّرًا: «تتكلَّمين كامرأةٍ الآن».

- «أعترفُ أني كذلك... وحديثة الحمل».

بشكلٍ ما أثارَته الفكرة، فقال: «هذا ما تقولين، لكن جسدكِ يشي بالعكس، فكيف تُثبِتين صحَّة كلامكِ؟ قبل أن أصدِّقكِ، عليَّ أن أرى ثدياك يَنضُجان وأتذوَّق لبنكِ».

- «وماذا سيقول زوجي عن هذا؟ إنه رجل وخادم أبيك المخلص».

- «سنجعله يبني سُفنًا كثيرةً للغاية، فلن يُلاحِظ أنكِ تركتِه».

قالت ضاحكةً: «اللورد الصَّغير الذي أسرَني قاسٍ بحق. إذا وعدتك أنك ستُشاهِد صغيري يرضع ذات يوم، فهل ستحكي لي المزيد عن حربك يا ثيون يا سليل عائلة جرايچوي؟ ما زالت أمامنا جبال وأميال، وأريدُ أن أسمع عن ذلك الملك الذِّئب الذي كنت تخدمه، والأسود الذَّهبيَّة التي يُقاتِلها».

متلهِّفًا على إرضائها، انصاعَ ثيون، ومضى الجزء الباقي من الرِّحلة سريعًا وهو يملأ رأسها الجميل بحكاياتٍ عن وينترفل والحرب، حتى إن بعض الأشياء التي قالها أدهشَته هو نفسه. الكلام معها سهلٌ حقًّا، باركَتها الآلهة. أشعرُ كأني أعرفها منذ سنين. لو أن لعبها في السَّرير يَبلُغ نِصف فطنتها، فعليَّ أن أحتفظ بها... فكَّر في سيجرين السَّفَّان، الرَّجل ثخين الجسد والعقل، الذي بدأ شَعره الكتَّاني ينحسر عن جبهته ذات البثور، وهَزَّ رأسه قائلًا لنفسه: خسارة، خسارة فاجعة حقيقةً.

لم يبدُ أن وقتًا مَرَّ على الإطلاق قبل أن يلوح سور پايك الواقي العظيم أمامهما.

كانت البوَّابات مفتوحةً، فهمزَ ثيون حصانه سمايلر بقوَّةٍ ليتقدَّم مسرعًا، وفي الدَّاخل نبحَت الكلاب بضراوةٍ بينما ساعدَ إسجريد على الترجُل، واندفعَت مجموعة كبيرة منها نحوهما بذيولٍ تتراقَص، وتجاوزَته قافزةً على المرأة وحولها حتى كادت تَسقُط، وأخذَت تلعقَها نابحةً بسعادة. زعقَ ثيون آمرًا الكلاب بالابتعاد وهو يُسَدِّد ركلةً غير مؤثِّرةٍ لكلبةٍ بنِّيَّة كبيرة الحجم، لكن إسجريد كانت تضحك وتتدحرَج وسطها.

جاءَ عامل اسطبل يجري وراء الكلاب، فقال له ثيون: «خُذ الحصان، وأبعِد هذه الكلابِ اللَّعينة...»، لكن الأحمق لم ينتبه له، وعلى وجهه ارتسمَت ابتسامة ملأَت شِدقيه وكشفَت أسنانه المتباعدة وهو يقول: «ليدي آشا، لقد عُدتِ».

قالت: «ليلة أمس. أبحرتُ من ويك القديمة مع اللورد جودبراذر، وبِتُّ في الخان. أخي الصَّغير كان كريمًا وسمحَ لي بالرُّكوب معه من لوردزپورت»، وقبَّلت أحد الكلاب على أنفه ورفعَت وجهها إلى ثيون بابتسامةٍ واسعة.

كلُّ ما كان في وسعه لحظتها هو الوقوف والتَّحديق فيها مبهوتًا. آشا. لا. مستحيل أن تكون آشا. أدركَ فجأةً أن هناك اثنتين منها في مخيِّلته؛ إحداهما الفتاة الصَّغيرة التي عرفَها قديمًا، والثَّانية يتخيَّل بشكلٍ مبهَم أنها تُشبِه أمَّها، لكن لا هذه ولا تلك تُشبه هذه الـ... الـ... الـ...

قالت وهي تُصارِع كلبًا: «البثور راحَت عندما كبرَ الثَّديان، لكني احتفَظتُ بمنقار النَّسر».

استطاعَ ثيون أن ينطق أخيرًا، فقال ضاغطًا على كلماته: «لماذا لم تُخبِريني؟».

تركَت آشا كلب الصَّيد واعتدلَت مجيبةً: «أردتُ أن أعرف مَن تكون أولًا، وقد فعلتُ»، وبسخريةٍ انحنَت نِصف انحناءةٍ مضيفةً: «والآن يا أخي الصَّغير، اسمح لي بالانصراف، فعليَّ أن أستحمَّ وأبدِّل ثيابي للمأدبة. تُرى أما زلتُ أملكُ الثَّوب المعدني الذي أحبُّ ارتداءه فوق الثِّياب الدَّاخليَّة الجِلد؟»، ومنحَته البسمة الشرِّيرة مجدَّدًا، وقطعَت الجسر بتلك المشية التي أحبَّها، التَّمايُل الممتزج بالسَّير المتهادي.

ابتسامة ساخرة كانت تحتلُّ وجه وِكس حين التفتَ ثيون إليه، فهوى على صُدغ الصَّبي بضربةٍ قائلًا: «هذه لاستمتاعك الشَّديد بالمشهد»، ثم بضربةٍ ثانية أقوى وهو يُواصِل: «وهذه لعدم تحذيري. فليَنَمُ لك لسانِ المرَّة القادمة».

لم يَشعُر ببرودةٍ مماثلةٍ في مسكنه في الحصن الكبير قَطُّ، مع أن الخدم كانوا قد تركوا مستوقَدًا مشتعلًا. طوَّح ثيون حذاءه عن قدميه، وتركَ المعطف يَسقُط أرضًا، وصَبَّ لنفسه كأسًا من النَّبيذ وهو يتذكَّر فتاةً خرقاء ذات رُكبتين مرضوضتين ووجهٍ مليء بالبثور. قال لنفسه مغضبًا: لقد حلَّت سراويلي، وقالت... يا للآلهة، وقلتُ أنا... أطلقَ أنينًا ساخطًا. لقد جعلَ من نفسه أكبر أحمق في العالم. ثم إنه وجدَ نفسه تردُّ قائلةً: كلا، بل هي التي جعلَتني أبدو كالأحمق. لا بُدَّ أن الشرِّيرة الحقيرة استمتعَت بكلِّ لحظة... والطَّريقة التي ظلَّت تمدُّ بها يدها على قضيبي...

حملَ كأسه إلى الكرسي المجاور للنَّافذة، حيث جلسَ يشرب ويتفرَّج على البحر بينما تُظلِم السَّماء فوق پايك. ليس لي مكان هنا، والسَّبب آشا، فليأخذها «الآخَرون»! استحالَ لون المياه في الأسفل من الأخضر إلى الرَّمادي إلى الأسود، ووقتها كانت الموسيقى الخافتة تترامى إلى مسامعه من بعيدٍ بالفعل، فعرفَ أن الوقت حان لتبديل ثيابه للمأدبة.

اختارَ ثيون حذاءً تقليديًّا وملابس لا يُمَيِّزها شيء، كلها درجات داكنة من الأسود والرَّمادي تتماشى مع مزاجه الحالي، ولم يضع أيَّ حُلِيٍّ أو زينة، فهو لا يملك شيئًا دفعَ فيه الثَّمن الحديدي. كنتُ لآخذ شيئًا من جثَّة الهمجي الذي قتلته لإنقاذ بران ستارك، لكنه لم يملك شيئًا يستحقُّ الأخذ. حظِّي الملعون أني أقتلُ المعدِمين.

وجدَ القاعة الطَّويلة مليئةً بالدُّخان ولوردات وربابنة أبيه عندما دخلَ. كان عددهم يدنو من الأربعمئة، وإن لم يرجع داجمر ذو الفك المفلوق من ويك القديمة بعدُ مع رجال عائلتي دروم وستونهاوس، لكن البقيَّة كلهم موجودون؛ رجال هارلو من هارلو، ورجال بلاكتايد من بلاكتايد، ورجال سپار ومرلين وجودبراذر من ويك الكُبرى، ورجال سولتكليف وساندرلي من سولتكليف، ورجال بوتلي وويَنش من النَّاحية الأخرى من پايك. كان

الخدم يصبُّون المِزر في الأقداح، ولعبَ العازفون على الكمنجات والقِرب والطُّبول، بينما اشتركَ ثلاثة رجالٍ ضخام الجثَّة في رقصة الأصابع، يقذفون بلطات قصيرة المقابض نحو بعضهم بعضًا، بهدف إمساك البلطة أو الوثوب فوقها دون تعثُّر؛ ويُسَمُّونها رقصة الأصابع لأنها تنتهي عادةً بأن يفقد أحد الرَّاقصين إصبعًا... أو اثنين... أو الخمسة.

لم ينتبه الرَّاقصون أو الشَّاربون كثيرًا لثيون جرايچوي الذي قطعَ القاعة بخطواتٍ واسعة نحو المنصَّة. كان اللورد بالون يحتلُّ كرسي حجر اليَم، المنحوت على شكل كراكن عظيم من قالبٍ ضخم من الحجر الزَّيتي الأسود. تقول الأسطورة إن البَشر الأوائل وجَدوه على ساحل ويك القديمة عندما أتوا إلى جُزر الحديد. إلى يسار الكرسي العالي جلسَ عمَّا ثيون، بينما استقرَّت آشا عند يد أبيهما اليُمنى في مكان الشَّرف.

قال اللورد بالون: «تأخَّرت يا ثيون».

رَدَّ ثيون: «تقبَّل اعتذاري»، وجلسَ في المقعد الشَّاغر المجاور لآشا، ومالَ على أُذنها هامسًا بصوتٍ كالفحيح: «أنتِ في مكاني».

التفتَت إليه بعينين بريئتين قائلةً: «لا بُدَّ أنك مخطئ يا أخي، فمكانك في وينترفل»، وأضافَت بابتسامةٍ ماضية كسكِّين: «وأين ثيابك الفاخرة؟ سمعتُ أنك تُحِبُّ ملمس الحرير والقطيفة على بشرتك». كانت ترتدي ثوبًا من الصُّوف الأخضر النَّاعم، بسيط التَّفصيل ويتمسَّك بخطوط جسدها النَّاحل.

رَدَّ عليها: «لا بُدَّ أن الصَّدأ أصابَ قميصكِ المعدني يا أختاه. خسارة، أردتُ أن أراكِ ترتدين الحديد».

ضحكَت آشا قائلةً: «قد تفعل يا أخي الصَّغير... إذا كنت تعتقد أن كلبتك تستطيع مجاراة سفينتي «الرِّيح السَّوداء»». اقتربَ أحد خدم أبيهما حاملًا إبريقًا من النَّبيذ، فسألَته: «أترغب في احتساء المِزر أم النَّبيذ اللَّيلة يا ثيون؟»، ومالَت عليه متابعةً: «أم ما زلت تُريد تذوُّق لبني؟».

احتقنَ وجهه، وقال للخادم: «نبيذ»، فالتفتَت آشا عنه ودقَّت على المائدة طالبةً المِزر.

قسمَ ثيون رغيفًا من الخُبز إلى نِصفين، وفرَّغه صانعًا طبقًا، ثم استدعى

خادمًا يملأه ببخنة السَّمك. أصابَته رائحة القشدة الثَّخينة بشيءٍ من الغثيان، لكنه أرغمَ نفسه على أن يتناوَل القليل، فقد شربَ من الخمر ما يكفي وجبتين كاملتين. إذا تقيَّأتُ، سأتقيَّأ عليها. سألَ أخته: «هل يعرف أبونا أنكِ تزوَّجتِ سفَّانه؟».

هزَّت كتفيها مجيبةً: «سيجرين نفسه لا يعرف. إسجريد كان اسم أول سفينةٍ بناها، وسمَّاها على اسم أمِّه. أجدُ صعوبةً حقًّا في معرفة مَن منهما يُحِبُّ أكثر».

- «كلُّ كلمةٍ قُلتِها لي كانت كذبًا».

بالابتسامة الواسعة إياها قالت آشا: «ليس كلَّ كلمة. أتذكُر عندما قلتُ لك إني أحبُّ أن أكون على القمَّة؟».

أجَّج هذا غضبته أكثر، فقال: «كلُّ ذلك الكلام عن كونكِ امرأةً متزوِّجةً وتحملين طفلًا...».

قالت آشا: «أوه، هذا الجزء حقيقي»، وانتفضَت واقفةً ورفعَت يدها وصاحَت في واحدٍ من راقصي الأصابع: «روفل، هنا!»، فرآها الرَّجل ودارَ على عقبيه، وفجأةً جاءَت البلطة تشقُّ الهواء، يلمع نصلها وهو يدور ويدور في ضوء المشاعل، ولم يجد ثيون وقتًا إلَّا لإطلاق شهقةٍ مختنقة، قبل أن تختطف آشا البلطة في الهواء وتغرسها في المائدة، قاسمةً طبقه المرتجَل إلى نِصفين وناثرةً الطَّعام على معطفه. «ها هو السيِّد زوجي...»، قالت أخته، ودسَّت يدها في ثوبها وسحبَت خنجرًا من بين ثدييها، وأكملَت: «... وهذا طفلي الرَّضيع».

لا يتخيَّل كيف بدا في تلك اللَّحظة، لكن ثيون جرايچوي أدركَ فجأةً أن القاعة الكُبرى تهدر بالضَّحك... بالضَّحك منه هو. حتى أبوه كان مبتسمًا، على الآلهة اللَّعنة، بينما قهقهَ عمُّه ڤيكتاريون بصوتٍ عالٍ. أفضل ردَّة فعلٍ استطاعَ استحضارها لحظتها كانت أن تختلج ابتسامة صغيرة على شفتيه، بينما في قرارة نفسه قال: سنرى من يضحك عندما ينتهي كلُّ هذا أيتها الحقيرة.

انتزعَت آشا البلطة من المائدة، وعادَت تُلقيها إلى الرَّاقصين على خلفيَّةٍ من الصَّفير والتَّهليل الصَّاخب، ثم التفتَت إليه قائلةً: «خيرٌ لك أن تُصغي لما

قُلته لك عن اختيار طاقمك»، ثم عرضَ خادم عليهما طبقًا، فغرسَت خنجرها في سمكةٍ مملَّحة وأكلَتها من على طرفه، وتابعَت: «لو أنك كلَّفت نفسك تعلُّم أيِّ شيءٍ عن سيجرين، فلم أكن لأستطيع خداعك أبدًا. قضيت عشرة أعوام ذئبًا، ثم تحسب أنك تستطيع أن تجوب الجُزر مختالًا كأمير، بينما لا تعرفً شيئًا أو أحدًا هنا. ما الذي يحثُّ الرِّجال على القتال والموت من أجلك؟».

أجابَ ثيون بجمود: «أنا أميرهم شرعًا وقانونًا».

– «وَفقًا لقوانين الأراضي الخضراء ربما، لكننا نستنُّ قوانيننا الخاصَّة ها هنا، أم أنك نسيت؟».

بوجهٍ مربد التفتَ ثيون إلى الطَّبق الذي تسيل منه اليخنة فتقترب من حِجره بسرعة، فزعقَ في أحد الخدم أن يُنَظِّف المائدة. انتظرتُ نصف حياتي أن أعود إلى الوطن، فمن أجل ماذا؟ السُّخرية والاستخفاف؟ لم تكن هذه پايك التي يتذكَّرها. لكن هل يتذكَّرها حقًّا؟ لقد كان صغيرًا عندما أخذوه رهينةً.

كانت المأدبة متواضعةً جدًّا، لم تتوالَ فيها غير أطباق يخنة السَّمك والخُبز الأسمر ولحم الماعز غير المتبَّل، وألذُّ شيءٍ استطاعَ ثيون أن يأكله كان فطيرة بصل، لكن المِزر والنَّبيذ ظلَّا يتدفَّقان طويلًا بَعد رفع أطباق الطَّعام.

نهضَ اللورد بالون جرايچوي من كرسي حجر اليَم، وقال آمرًا لمَن شارَكوه المنصَّة: «افرغوا من شرابكم والحقوا بي في غُرفتي، فلدينا خُطط علينا وضعها»، وتركَهم بلا كلمةٍ أخرى وقد أحاطَ به اثنان من حُرَّاسه من الجانبين، ثم نهضَ أخواه يتبعانه بَعد مدَّةٍ قصيرة، ونهضَ ثيون ليلحق بهما.

قالت آشا: «أخي الصَّغير متلهِّف على المغادَرة»، ورفعَت بوق الشَّراب وأشارَت طالبةً مزيدًا من المِزر.

– «السيِّد والدنا ينتظر».

– «إنه ينتظر منذ سنواتٍ طويلة، فلن يضرَّه أن ينتظر فترةً أطول قليلًا... لكن إذا كنت تخشى غضبته، فاجرِ وراءه طبعًا، ولن تجد مشكلةً في اللَّحاق بعمَّينا»، وابتسمَت مضيفةً: «فأحدهما سكران بماء البحر، والآخر عِجل ضخم عجوز سيضلُّ الطَّريق من فرط غبائه».

عادَ ثيون يجلس، وقال بضيق: «لا أجري وراء أيِّ رجل».

- «لكن وراء كلِّ امرأة؟».
- «ليس أنا من أمسكَ قضيبكِ».
- «ليس لديَّ قضيب، أنسيت؟ لكنك أسرعت بإمساك كلِّ جزءٍ آخَر مني».
شعرَ بالدِّماء تصعد إلى وجهه وهو يقول: «أنا رجل ولديَّ شهوات الرِّجال، فأيُّ مخلوقٍ شاذ أنتِ؟».
قالت آشا: «مجرَّد فتاةٍ خجول»، واندفعَت يدها كالسَّهم تعتصر قضيبه تحت المائدة، فكادَ ثيون يثب من مقعده، فقالت له: «ماذا؟ ألا تُريدني أن أقودك إلى الشَّاطئ يا أخي؟».
قال ثيون بحزم: «لا زواج لك. أعتقدُ أني سأرسلكِ للالتحاق بالأخوات الصَّامتات عندما أحكمُ»، ونهضَ بحركةٍ حادَّة وتحرَّك بلا ثباتٍ تابعًا أباه.
كان المطر يَسقُط لمَّا بلغَ الجسر المتأرجح الذي يقود إلى بُرجِ البحر، ومعدته تتقلَّب كالأمواج في الأسفل وقد جعلَ النَّبيذ حركته مضطربةً. ضغطَ ثيون على أسنانه وقبضَ على الحبل بإحكامٍ وهو يَعبُر متظاهرًا بأنه يقبض على عُنق آشا.
غُرفة أبيه الشَّمسيَّة كانت رطبةً وتسري فيها تيَّارات الهواء الباردة كالعادة، وجلسَ أبوه أمام المدفأة مدفونًا تحت ثوبه الضَّخم المصنوع من جِلد الفقمات، بينما جلسَ أخواه على جانبيه. كان ڤيكتاريون يتكلَّم عن حركة المَدِّ والجَزر والرِّيح عندما دخلَ ثيون، لكن اللورد بالون أشارَ له بالصَّمت، وقال: «لقد وضعتُ خُططي، وحان الوقت لأن تسمعوها».
- «لديَّ بعض الاقتراحات...».
قاطَعه أبوه: «سأطلبُ نصيحتك عندما أحتاجها. جاءَنا طائر من ويك القديمة، داجمر سيعود ومعه رجال دروم وستونهاوس، وإذا أنعمَ الإله علينا بريحٍ مواتية، سنُبحِر عندما يصلون... أو ستُبحِر أنت بالأحرى. أريدك أن تضرِب الضَّربة الأولى يا ثيون، لذا ستقود ثماني سُفن طويلة شَمالًا و...».
قال وقد احتقنَ وجهه: «ثماني سُفن؟ وما الذي يُمكنني تحقيقه بثماني سُفن طويلة؟».
- «ستُداهِم السَّاحل الحجري وتُغير على قُرى الصَّيد وتُغرِق أيَّ سفينةٍ

تُصادِفك، وقد تستدرج بعضًا من لوردات الشَّمال من وراء أسوارهم الحجريَّة. سيصحبك آرون، وداجمر ذو الفك المفلوق».

قال الرَّاهب: «باركَ الإله الغريق في سيوفنا».

أحسَّ ثيون كأنه صُفِعَ على وجهه. سيُرسِله أبوه ليقوم بعمل مُغيرٍ تقليدي، يُحرِق بيوت الصيَّادين ويغتصب بناتهم القبيحات، ومع ذلك لاَ يبدو أن اللورد بالون يثق بمقدرته على القيام بهذا القَدر الضَّئيل حتى. سيِّئ بما فيه الكفاية أن يتحمَّل توبيخ وتعنيف ذي الشَّعر الرَّطب، وفي وجود داجمر ذي الفك المفلوق كذلك، فإنه لن يتولَّى سوى الحَدِّ الأدنى من القيادة.

واصلَ اللورد بالون: «آشا يا ابنتي»، فلاحظَ ثيون أن أخته انسلَّت إلى المكان بصمت. «ستقودين ثلاثين سفينةً طويلةً عليها نخبةٌ منتقاة من الرِّجال حول «رأس التنِّين البحري»، ثم ترسين على السَّاحل الموحل شَمال «ربوة الغابة». ازحفي بسرعة، وقد تَسقُط القلعة قبل أن يُدرِكوا أنكم تُهاجِموهم».

ابتسمَت آشا كقطَّةٍ تتلذَّذ بوعاءٍ من بالقشدة، وقالت بعذوبة: «لطالما أردتُ قلعةً».

- «خُذيها إذن».

اضطرَّ ثيون لأن يحبس لسانه. «ربوة الغابة» معقل عائلة جلوڤر، وفي غياب روبت وجالبارت في الحرب جَنوبًا، فلا بُدَّ أن دفاعاتها ضعيفة، وبمجرَّد أن تَسقُط القلعة، سيكون الرِّجال الحديديُّون قد أمَّنوا قاعدةً لهم في قلب الشَّمال. من المفترَض أن يُرسِلني أنا إلى «ربوة الغابة». إنه يعرفها جيِّدًا، وزارَ آل جلوڤر هناك مرارًا مع إدارد ستارك.

خاطبَ اللورد بالون أخاه قائلًا: «ڤيكتاريون، الحِمل الأكبر يقع عليك أنت. عندما يضرب ولداي ضربتهما، فلا بُدَّ أن وينترفل سترُدُّ، لكنك ستجد مقاومةً محدودةً أثناء ملاحتك في خليج «الرُّمح الملحي» والنَّهر المحموم. عندما تَبلُغ منبع النَّهر، ستفصلك عشرون ميلًا لا أكثر عن خندق كايلن. «العُنق» مفتاح المملكة، ونحن نُسَيطِر على البحر من الغَرب بالفعل، وبمجرَّد أن نستحوذ على «الخندق»، فلن يستطيع الجرو الانسحاب شَمالًا... وإذا كان بالحماقة الكافية لأن يُحاوِل، سيُغلِق أعداؤه طرف الطَّريق الجَنوبي

وراءه، وسيجد روب الصَّبي نفسه حبيسًا كجرذٍ في زجاجة».

لم يقدر ثيون على الصَّمت أكثر، فقال: «خطَّة جريئة يا أبي، لكن اللوردات في قلاعهم...».

ضحكَ اللورد بالون رأيه في الحال قائلًا: «اللوردات ذهبوا جَنوبًا مع الجرو، ولم يتبقَّ غير المسنِّين والجُبناء والصِّبية الخُضر. سوف يستسلمون أو يَسقُطون واحدًا تلو الآخَر. قد تتحدَّانا وينترفل عامًا، لكن ماذا في هذا؟ بقيَّة الشَّمال ستكون ملكنا، الغابات والحقول والأبهاء، وسنجعل سُكَّانه خدمنا وزوجاتنا الملحيَّات».

رفعَ آرون ذو الشَّعر الرَّطب يديه هاتفًا: «وستفيض مياه الغضب وترتفع عاليًا، ويفرض الإله الغريق سُلطانه على الأراضي الخضراء!».

قال ڤيكتاريون بوقار: «عسى الميِّت ألَّا يموت أبدًا»، فردَّد اللورد بالون وآشا الكلمات، ولم يجد ثيون خيارًا غير التَّمتمة بها معهما.

وهكذا قُضِيَ الأمر.

في الخارج كانت الأمطار تنهال بغزارةٍ عن ذي قبل، وتلوَّى الجسر المصنوع من الحبال وتمعَّج تحت قدميه، فتوقَّف ثيون جرايچوي في منتصَفه وتأمَّل الصُّخور في الأسفل. هدرَت الأمواج المتكسِّرة بعُنف، وشعرَ بمذاق الرَّذاذ المالح على شفتيه، ثم هبَّت الرِّيح فجأةً جاعلةً إياه يفقد توازُنه ويَسقُط، فعادَ ينهض متعثِّرًا.

وساعدَته آشا على النُّهوض قائلةً: «لا تحتمل الشُّرب كثيرًا كذلك يا أخي».

اتَّكأ ثيون على كتفها وتركَها تقوده فوق ألواح الخشب الزَّلقة، وقال لها بلهجةٍ فاترة: «كنتِ تروقينني أكثر وأنتِ إسجريد».

فضحكَت وردَّت: «هذا عادل، لأنك كنت تروقني أكثر وأنت في التَّاسعة».

تيريون

تسلَّلت أنغام القيثارة السَّامية عبر الباب ممتزجةً بصوت المزمار الرَّاجف، بينما كتمَت الجدران السَّميكة صوت المغنِّي، لكن تيريون تعرَّف المقطع الذي يشدو به، واستعادَه في قرارة نفسه: عشقتُ بنتًا بهيَّةً كالصَّيف، في شَعرها نور الشَّمس...

كان السير مرين ترانت يَحرُس باب الملكة اللَّيلة، وعندما تمتمَ: «سيِّدي»، كان لنبرته وقْع عُدواني بعض الشَّيء على أُذني تيريون، لكنه فتحَ الباب على الرغم من هذا، فتوقَّفت أغنيَّة «مواسم حبيبتي» فجأةً وهو يدلف إلى غُرفة نوم أخته.

وجدَ سرسي مضطجعةً على كومةٍ من الوسائد، حافية القدمين وشَعرها الذَّهبي منفوش بأناقة، وقد برقَ ثوبها المفصَّل من السَّميت الأخضر المقصَّب بالذَّهبي في ضوء الشُّموع وهي ترفع عينيها إليه، فقال: «شقيقتي العزيزة، تبدين رائعة الجَمال اللَّيلة»، والتفتَ إلى المغنِّي مضيفًا: «وأنت أيضًا يا ابن العم. لم أكن أعرف أنك تتمتَّع بهذا الصَّوت الرَّخيم».

حدَت المجامَلة بالسير لانسل إلى العبوس، ربما لأنه حسبَ أنه يتعرَّض للسُّخرية. بدا لتيريون أن طول الصَّبي زادَ ثلاث بوصاتٍ منذ تنصيبه فارسًا. للانسل شَعر كثيف بلون الرَّمل، وعينا عائلة لانستر الخضراوان، وخَطٌّ من الزَّغب الأشقر فوق شفته العُليا، وفي سِنِّ السَّادسة عشر عليه لعنة الثِّقة التَّامَّة التي تُصيب الشَّباب كافَّة، ولا يختمر في نفسه أدنى قدرٍ من حِسِّ الدُّعابة أو الشَّكِّ في الذَّات، كما أنه غارق حتى النُّخاع في عجرفةٍ وخيلاء من يُولَدون

شُقرًا أقوياء وسيمي الملامح؛ ومن ثَمَّ جعلَته ترقيته الأخيرة أسوأ وأسوأ. قال الصَّبي بلهجةٍ أنوف: «هل استدعَتك جلالتها؟».

أجابَ تيريون: «ليس حسبما أذكرُ. يُؤسِفني أن أقطع عليك مرحك يا لانسل، لكن هناك موضوعات مهمَّة أناقشها مع أختي».

رمقَته سرسي بريبةٍ قائلةً: «لو أنك هنا من أجل أولئك الإخوة الشحَّاذين يا تيريون، فوفِّر على نفسك تأنيبي، فلن أسمح لهم بنشر كلام الخونة القذر هذا في الشَّوارع. يُمكنهم أن يعظوا بعضهم بعضًا في الزَّنازين».

أضافَ لانسل: «وليعتبروا أنفسهم محظوظين لأن ملكتنا بهذه الرَّأفة، إذ كنتُ لأقطع ألسنتهم».

قالت سرسي: «أحدهم تجاسرَ على القول بأن الآلهة تُعاقِبنا لأن چايمي اغتالَ الملك الشَّرعي. لا يُمكن السَّماح بهذا يا تيريون. لقد أعطيتك فُرصةً كافيةً للتَّعامُل مع هؤلاء الحثالة، لكنك لم تفعل شيئًا، ولا رجلك السير چاسلين، فأمرتُ ڤايلار بأن يتولَّى الأمر».

- «وقد فعلَ». كان استياء عارم قد أصابَ تيريون عندما جَرَّ ذوو المعاطف الحمراء نِصف دستةٍ من الأنبياء الذين يُكَدِّرون السِّلم العام إلى الزَّنازين دون استشارته، لكنهم ليسوا بالأهميَّة التي تجعَله يتصارع مع أخته من أجلهم. «لا شَكَّ أن من الخير لنا جميعًا أن يسود الهدوء الشَّوارع بعض الشَّيء، لكني لم آتِ لهذا السَّبب، فلديَّ أنباء أعرفُ أنكِ ترغبين في سماعها يا شقيقتي العزيزة، لكن من الأفضل الكلام عنها على انفراد».

ردَّت: «ليكن»، فانحنى عازفا القيثارة والمزمار وأسرعا بالمغادَرة، بينما طبعَت سرسي قُبلةً خفيفةً على خَدِّ ابن عمِّها، وقالت له: «اترُكنا الآن يا لانسل. أخي عديم الأذى وهو وحده. لو كان قد أحضرَ حيواناته المدلَّلة، لكنا قد شمَمنا رائحتها».

حدجَ الفارس الشَّاب ابن عمِّه بنظرةٍ ناريَّة، وصفقَ الباب وراءه بعُنف، ثم قال تيريون بَعد أن غادرَ: «أريدكِ أن تعرفي أني أجعلُ شاجا يستحمُّ مرَّةً كلَّ أسبوعين!».

- «أنت في مزاجٍ رائق للغاية، أليس كذلك؟ ما السَّبب؟».

قال تيريون: «ولِمَ لا؟». طيلة اللَّيل والنَّهار تدقُّ المطارق في شارع الحديد، لتستطيل السِّلسلة الهائلة أكثر وأكثر. وثبَ إلى الفِراش الكبير المغطَّى بالسَّتائر قائلًا: «أهذا هو الفِراش الذي ماتَ فيه روبرت؟ يُدهِشني أنك احتفَظتِ به».

أجابَت: «النَّوم فيه يجعلني أرى أحلامًا حُلوةً. والآن أفرِغ ما لديك من كلام وانصرِف إلى حال سبيلك أيها العِفريت».

ابتسمَ تيريون وقال: «اللورد ستانيس أبحرَ من دراجونستون».

انتفضَت ناهضةً وصاحَت: «وتجلس هنا مبتسمًا كيقطينةٍ في عيد الحصاد؟ هل استدعى بايووتر حَرس المدينة؟ يجب أن نُرسِل طائرًا إلى هارنهال على الفور». كان تيريون يضحك، فأطبقَت على كتفيه وهزَّته قائلةً: «كُفَّ عن هذا. أأنت مجنون أم سكران. كُفَّ عن هذا!».

بصعوبةٍ استطاع استجماع الكلمات، وقال لاهثًا: «لا أستطيعُ... الموقف... طريف للغاية بحَقِّ الآلهة.... ستانيس...».

- «ماذا؟!».

- «إنه لم يُبحِر ضدنا. لقد حاصرَ ستورمز إند، ورنلي في الطَّريق إليه».

انغرسَت أظفار أخته في ذراعيه على نحوٍ مؤلم، ومرَّت لحظات ظلَّت تَرمُقه فيها غير مصدِّقة، كأنه رطنَ شيئًا ما بلُغَةٍ غير مفهومة، ثم إنها قالت: «ستانيس ورِنلي يتقاتَلان؟»، وعندما أومأَ برأسه إيجابًا بدأت سرسي تُقَهقِه، وقالت متقطِّعة الأنفاس: «يا للآلهة، بدأتُ أعتقدُ أن روبرت كان أذكى إخوته».

ألقى تيريون رأسه إلى الوراء وانفجرَ ضاحكًا، واشتركَ الاثنان في الضَّحك، قبل أن ترفعه سرسي من على السَّرير وتدور به في هواء الغُرفة، بل وتُعانِقه لحظةً كذلك بحبور فتاةٍ صغيرة، ولمَّا تخلَّت عنه أخيرًا كان تيريون يلهث شاعرًا بالدُّوار، فتحرَّك متمايلًا صوب الخوان وأسندَ يده عليه ليُثبِّت نفسه.

- «هل تعتقد أن الحرب ستنشب بينهما حقًّا؟ إذا استطاعا التوصُّل إلى اتِّفاقٍ ما...».

- «لن يَحدُث. إنهما متباينان للغاية، لكنهما متشابهان كذلك، ولا أحد منهما يهضم الآخَر».

قالت سرسي مفكِّرةً: «وستانيس كان يرى دائمًا أن ستورمز إند سُلِبَت منه غدرًا، باعتبارها مقرَّ عائلة باراثيون المتوارَث... لو تعرف كم مرَّةً جاءَ إلى روبرت يُرَدِّد الأغنيَّة نفسها بنبرته الكئيبة المغبونة تلك. حين أعطي روبرت القلعة لرنلي، صَرَّ ستانيس بأسنانه بعُنفٍ جعلَني أحسبُ أنها ستتحطَّم».

- «اعتبرَها إهانةً».

- «كانت الإهانة مقصودةً».

- «هل نرفع كأسًا في نخب الحُبِّ الأخوي؟».

قالت وهي تنهج: «نعم، أوه، بحَقِّ الآلهة نعم».

كان ظَهره لها وهو يملأ كأسين بنبيذ «الكرمة» الأحمر الحُلو، وكان أيسر شيءٍ في العالم لحظتها أن يَنثُر المسحوق النَّاعم في شرابها. قال بينما ناولَها الكأس: «نخب ستانيس!». عديم الأذى وأنا وحدي، أليس كذلك؟

ردَّت ضاحكةً: «نخب رنلي! عسى أن تستغرقهما حرب ضَروس مديدة ويأخذهما «الآخَرون»!».

أهذه هي سرسي التي يراها چايمي؟ عندما تبتسم، فإنك ترى كم هي جميلة حقًّا. عشقتُ بنتًا بهيةً كالصَّيف، في شَعرها نور الشَّمس.

كادَ تيريون يَشعُر بالأسف لأنه سمَّمها.

في الصَّباح التَّالي جاءَه رسولها وهو يتناوَل إفطاره، قائلًا إن الملكة متوعِّكة ولن تستطيع مغادَرة مسكنها. لن تستطيع مغادَرة مرحاضها بالأحرى. ردَّد تيريون عبارات التَّعاطُف الواجبة وأرسلَ لسرسي قائلًا لها أن تستريح، وإنه سيردُّ على السير كليوس كما اتَّفقا.

عرش إجون الفاتح الحديدي كُتلة متشابكة من البروزات الحادَّة المقيتة والأنياب المعدنيَّة المحزَّزة، التي تنتظر الأحمق الذي يُحاوِل الجلوس براحة، وأصابَ صعود الدَّرجات ساقي تيريون ناقصتي النُّمو بالتَّشنُّجات، وهو يعي تمامًا أن منظره يبدو سخيفًا للعيان، لكن لا مناص من الإقرار بأن الكرسي الحديدي القبيح مرتفع حقًّا.

وقفَ حَرس لانستر صامتين في معاطفهم القرمزيَّة وخوذاتهم القصيرة ذات ريشة الأسد، وعلى الجانب الآخَر وقفَ قُبالتهم رجال السير جاسلين ذوو المعاطف الذَّهبيَّة، بينما وقفَ برون والسير پرستون فارس الحَرس الملكي على جانبي درجات العرش، وملأَ أفراد الحاشية الشُّرفة، فيما تجمَّع الملتمِسون بالقُرب من الأبواب الضَّخمة المصنوعة من السَّنديان والبرونز، وبدَت سانزا ستارك جميلةً بشكلٍ خاص هذا الصَّباح، وإن كان وجهها شاحبًا كالحليب، أمَّا اللورد جايلز فوقفَ يَسعُل، وارتدى تايرك المسكين -ابن عمِّ تيريون- معطف العرسان الجُدد المصنوع من الفراء الأبيض والقطيفة. منذ زواجه الرَّضيعة الليدي إرميساند، ومُرافِقو الفُرسان الآخَرون يُلَقِّبونه ساخرين بالمُرضعة، ويسألونه عن الحفَّاضة التي ارتدَتها عروسه ليلة زفافهما.

تطلَّع تيريون إلى جنبات القاعة من أعلى، ووجدَ أن الإحساس يروقه حقًّا. قال: «استدعوا السير كليوس فراي»، فارتدَّ صوته رنَّانًا عن الجُدران الحجريَّة التي حملَته إلى مسامع الحاضرين بطول القاعة، وراقَه هذا أيضًا، وقال لنفسه متأمِّلًا: خسارة أن شِاي ليست هنا لترى هذا! كانت قد طلبَت منه أن تأتي، لكنه وجدَ ذلك مستحيلًا.

قطعَ السير كليوس القاعة الطَّويلة بين صَفَّي ذوي المعاطف الذَّهبيَّة وتلك القرمزيَّة، دون أن يلتفت برأسه شِمالًا أو يمينًا، ولاحظَ تيريون عندما ركعَ أن ابن عمِّه بدأ يفقد شَعره.

قال الإصبع الصَّغير الجالس إلى طاولة المجلس: «سير كليوس، نَشكُرك لمجيئك إلينا بعرض السَّلام من اللورد ستارك».

تنحنحَ المِايستر الأكبر پايسل، وقال: «الملكة الوصيَّة على العرش ويد الملك والمجلس الصَّغير درَسوا الشُّروط التي يعرضها ذلك الذي يُسَمِّي نفسه ملكًا في الشَّمال، ويُؤسِفني أن أقول إنها لن تَصلُح، وعليك تبليغ الشَّماليِّين هذا أيها الفارس».

قال تيريون: «ها هي شروطنا. على روب ستارك أن يرمي سلاحه ويُقسِم على الولاء ويعود إلى وينترفل، وعليه أن يُطلِق سراح أخي دون أن يمسَّه أذى، ويضع جيشه تحت إمرة چايمي، ليقوده ضد المتمرِّديْن رنلي وستانيس

باراثيون، وعلى كلٍّ من حمَلة راية ستارك أن يُرسِل إلينا ابنًا رهينةً، وإن لم يكن لديه أبناء فلتكن بنتًا إذن. سوف يُعامَلون بكرم ويُمنَحوا مواضع عالية هنا في البلاط، ما دامَ آباؤهم ممتنعين عن ارتكاب أيِّ خياناتٍ جديدة».

بدا الغثيان على كليوس فراي وهو يقول: «يا حضرة اليد، اللورد ستارك لن يُوافِق على هذه الشُّروط أبدًا».

لم نتوقَّع قَطُّ أنه سيفعل يا كليوس. «قُل له إننا حشدنا جيشًا كبيرًا آخَر في كاسترلي روك، وإنه سيزحف ضده قريبًا من الغَرب، بينما يتقدَّم أبي من الشَّرق. قُل له إنه وحيد، بلا أملٍ في التَّحالُف مع أحَد. ستانيس ورنلي يُقاتِلان أحدهما الآخَر، وأمير دورنَ وافقَ على تزويج ابنه تريستان الأميرة مارسلا». ارتفعَت مع العبارة الأخيرة همهمات السُّرور والارتياع على حَدٍّ سواء من الشُّرفة ومؤخِّرة القاعة، بينما واصلَ تيريون: «بالنِّسبة لابني عمِّي، فإننا نعرض هاريون كارستارك ووايليس ماندرلي مقابل ويلم لانستر، واللورد سروين والسير دونل لوك مقابل أخيك تيون. قُل لستارك إن اثنين من أولاد لانستر يُساوِيان أربعةً من الشَّماليِّين في أيِّ حين»، وانتظرَ حتى خفتَ ضحك الحاضرين قبل أن يُتابِع: «أمَّا رُفات أبيه فسيحظى به، كأمارةٍ على حُسن نيَّة جوفري».

قال السير كليوس مذكِّرًا: «اللورد ستارك طلبَ أختيه وسيف أبيه كذلك».

كان السير إلين باين يقف مصابًا بالخرس كالمعتاد، بينما يرتفع مقبض سيف إدارد ستارك العظيم من وراء كتفه.

قال تيريون: ««جَليد». سوف يناله بَعدما يحلُّ السَّلام بيننا، وليس قبل ذلك».

- «كما تقول. والأختان؟».

ألقى تيريون نظرةً على سانزا، وشعرَ بالشَّفقة تطعن صدره وهو يُجيب: «إلى أن يُطلَق سراح أخي چايمي دون أن يمسَّه أذى، ستبقيان رهينتين هنا، وكيفيَّة معاملَتهما تعتمد عليه هو». وإذا منَّت علينا الآلهة، سيعثُر بايوو تر على آريا حيَّةً قبل أن يعرف روب أنها مفقودة.

- «سأحملُ رسالتك إليه يا سيِّدي».

نقرَ تيريون على أحد النِّصال الملتوية المنبثقة من ذراع العرش قائلًا لنفسه: حان وقت تسديد الطَّعنة، ثم نادى: «ڤايلار».

- «سيِّدي».

أعلنَ تيريون: «الرِّجال الذين أرسلَهم ستارك يكفون لحراسة رُفات اللورد إدارد، لكن ينبغي لواحدٍ من عائلة لانستر أن يَحرُسه رجال لانستر. السير كليوس ابن عمِّي أنا والملكة، وسننعم بنومٍ أفضل إذا اصطحَبته بأمانٍ إلى ريڤررَن».

- «كما تأمر. كم رجلًا آخذُ؟».

- «جميعهم بالطَّبع».

تجمَّد ڤايلار في مكانه كتمثالٍ من الحجر، بينما المايستر الأكبر پايسل هو من نهضَ قائلًا بلهفة: «حضرة اليد، لا يُمكن أن... السيِّد والدك اللورد تايوين نفسه هو من أرسلَ هؤلاء الرِّجال الطَّيِّبين إلى مدينتنا لحماية الملكة سرسي وأطفالها...».

- «الحَرس الملكي وحَرس المدينة يحمونهم بما فيه الكفاية. فلتهب لك الآلهة السُّرعة على الطَّريق يا ڤايلار».

على طاولة المجلس ارتسمَت ابتسامة العليم على وجه ڤارس، بينما جلسَ الإصبع الصَّغير متظاهرًا بالملل، وفغرَ پايسل فاه كسمكةٍ بارتباكٍ وقد امتقعَ وجهه. تقدَّم حاجب ورفعَ صوته قائلًا: «إذا كان لدى أحدهم مسألة يطرحها على يد الملك، فليتكلَّم الآن أو ليَصمُت».

قال رجل رشيق يرتدي الأسود دافعًا نفسه بين التَّوأمين ردواين: «أنا لديَّ ما أقوله».

صاحَ تيريون: «سير أليسر! لم أكن أعلم أنك جئت إلى البلاط. كان يجب أن تُرسِل لي خبرًا».

ثورن رجل صارم ناحل حادُّ الملامح في الخمسين من العُمر، صُلب العينين واليدين، وفي شَعره الأسود خطوط من الشَّيب، وقد رَدَّ بلهجة قاسية كالأشواك: «لقد تعرَّضتُ للنَّبذ والتَّجاهُل، وتُرِكتُ أنتظر كخادمٍ ابن حرام».

- «حقًّا؟ أسأت التصرُّف حقًّا يا برون. السير أليسر وأنا صديقان قديمان، وسِرنا على «الجِدار» معًا».

غمغمَ ڤارس: «السير أليسر العزيز، أرجو ألَّا تُسيء بنا الظَّن، فكثيرون يَطلُبون المثول أمام چوفري في أوقات القلاقل والاضطراب هذه».

- «الأوقات أكثر اضطرابًا مما تحسب أيها الخصي».

قال الإصبع الصَّغير مازحًا: «إننا نُخاطِبه باللورد الخصي في وجهه».

سألَ المِايستر الأكبر پايسل بلهجةٍ ملاطِفة: «كيف نُساعِدك أيها الأخ الكريم؟».

أجابَ ثورن: «حضرة القائد أرسلَني إلى جلالة الملك، فالأمر أخطر من أن يُترَك لخدمه».

قال تيريون: «الملك يلعب بنُشَّابيَّته الجديدة». لم يتطلَّب تخليص نفسه من چوفري غير نُشَّابيَّةٍ مايريَّة قبيحة تُطلِق ثلاثة سهامٍ في المرَّة، فلم يستطِع كبح جماح لهفته لتجربتها في الحال. «يُمكنك أن تُكَلِّم الخدم أو تَصمُت».

قال السير أليسر باستياءٍ تام: «ليكن. أُرسِلتُ لإخباركم بأننا وجدنا اثنين من الجوَّالة كانا مفقودَيْن منذ فترةٍ طويلة. كانا ميتيْن، لكن عندما عُدنا بهما إلى «الجِدار»، نهضا ليلًا، وقتلَ أحدهما السير چارمي ريكر، بينما حاولَ الثَّاني قتل حضرة القائد».

سمعَ تيريون ضحكةً مكبوتةً من بعيد، وسألَ نفسه: هل يقصد السُّخرية مني بهذا الهراء؟ اعتدلَ في جلسته متوتِّرًا، وألقى نظرةً ناحية ڤارس والإصبع الصَّغير وپايسل، متسائلًا إن كان لأحدهم يد في هذا. في أفضل الأحوال يتمتَّع القزم بقدرٍ طفيف من الكرامة، وبمجرَّد أن يبدأ البلاط والمملكة في الضَّحك منه، فهذه نهايته.

لكن مع ذلك... مع ذلك...

عادَ تيريون بذاكرته إلى ليلةٍ باردةٍ تحت النُّجوم، عندما وقفَ مع الصَّبي چون سنو وذئبٍ أبيض ضخم على قمَّة «الجِدار»، يتطلَّعان إلى الظَّلام عديم الملامح وراء حدود العالم. عندئذٍ شعرَ... شعرَ بماذا؟ بشيءٍ ما بالتَّأكيد،

برُعبٍ ينفذ في اللَّحم كرياح الشَّمال القارسة. في مكانٍ ما في اللَّيل عوى ذئب، وجعلَ الصَّوت رعدةً تسري في أوصاله.

حدَّث لنفسه: لا تكن أبله. ذئب وريح وغابة مظلمة، هذا لا يعني شيئًا. ومع ذلك... لقد أعجبَ بالعجوز چيور مورمونت حقًّا خلال الفترة التي قضاها في القلعة السَّوداء، فقال: «وهل نجا الدُّب العجوز من الهجوم؟».

- «نعم».

- «وهل قتلَ إخوتك هذين الـ... آه، الرَّجلين الميتيْن؟».

- «نعم».

سألَ تيريون بلهجةٍ لطيفة: «وهل أنت متأكِّد من أنهما ماتا هذه المرَّة؟»، فلمَّا خرجَ ضحك برون منه ممتزجًا بالنَّخير، أدركَ الأسلوب الذي عليه أن يُواصِل به: «ماتا ماتا حقًّا؟».

قال السير أليسر بحدَّة: «كانا ميتيْن أول مرَّة، جثَّتين باردتين شاحبتين، أيديهما وأقدامهما سوداء. لقد أحضرتُ يد چارد التي انتزعَها ذئب النَّغل من جثَّته».

اعتدلَ الإصبع الصَّغير قائلًا: «وأين هذا الدَّليل السَّاحر؟».

عقدَ السير أليسر حاجبيه باضطراب، وأجابَ: «لقد... تعفَّنت وتفسَّخت بينما انتظرتُ دون أن يسمعني أحد، ولم يتبقَّ منها غير العظام».

تردَّدت ضحكات التهكُّم في القاعة، بينما خاطبَ تيريون الإصبع الصَّغير قائلًا: «لورد بايلش، اشترِ لفارسنا الشُّجاع السير أليسر مئةً من المجارف يأخذها معه إلى «الجِدار»».

ضيَّق السير أليسر عينيه بشَكٍّ مردِّدًا: «مجارف؟».

- «إذا دفنتم موتاكم، فإنهم لن ينهضوا»، قال تيريون، فدوَّى ضحك الحاضرين، وواصلَ هو: «ستُنهي المجارف مشاكلكم، مع بعض الأيدي القويَّة التي تحملها. سير چاسلين، احرِص على أن يختار الأخ الكريم من يشاء من زنازين المدينة».

قال السير چاسلين بايووتر: «كما تأمر يا سيِّدي، لكن الزَّنازين شِبه خالية، فقد أخذَ يورن كلَّ الرِّجال المناسبين».

رَدَّ تيريون: «اعتقِل البعض إذن، أو انشُر خبرًا بأن على «الجِدار» خُبز ولفت، وسيذهبون من تلقاء ذاتهم». في المدينة أفواه عديدة جائعة، وحَرس اللَّيل في حاجةٍ مستمرَّةٍ إلى رجال. بإشارةٍ من تيريون أعلنَ الحاجب ختام الجلسة، وبدأت القاعة تخلو.

لكن السير أليسر ثورن لم ينصرف بهذه السُّهولة، وكان ينتظر عند قاعدة العرش الحديدي عندما نزلَ تيريون، وقال غاضبًا وقد اعترضَ الطَّريق: «هل تحسب أني أبحرتُ من قلعة البحر ليسخر مني أمثالك؟ هذه ليست مزحةً. لقد شهدتُ ما حدثَ بأُمِّ عينيَّ، وأقولُ لك إن الموتى ينهضون».

قال تيريون دافعًا نفسه ليَمُرَّ: «عليكم أن تُحاوِلوا قتلهم بعنايةٍ أكبر»، فحاولَ السير أليسر أن يُمسِك كُمَّه، لكن پرستون جرينفيلد دفعَه إلى الوراء قائلًا: «لا تقترب أيها الفارس».

كان ثورن أعقل من أن يتحدَّى فارسًا في الحَرس الملكي، فصاحَ في ظَهر تيريون: «أنت أحمق أيها العِفريت».

التفتَ القزم يُواجِهه قائلًا: «أنا؟ حقًّا؟ لماذا كانوا يضحكون منك أنت إذن يا تُرى؟»، وارتسمَت على وجهه ابتسامة خفيفة وهو يُضيف: «لقد جئت تنشد رجالًا، أليس كذلك؟».

- «الرِّيح الباردة تهبُّ، ولا بُدَّ من الدِّفاع عن «الجِدار»».

قال تيريون: «والدِّفاع عنه يتطلَّب رجالًا، ورجالًا أعطيتك إذا لاحظت، لو أن أُذنيك سمعتا شيئًا غير الإهانات. خُذهم واشكُرني وارحل قبل أن تُجبِرني على أن أخزك بشوكة سرطان البحر ثانيةً. بلِّغ اللورد مورمونت تحيَّاتي الحارَّة... وچون سنو أيضًا»، ثم أطبقَ برون على مِرفق السير أليسر، وأخرجَه رغمًا عنه من القاعة.

كان المايستر الأكبر پايسل قد انسحبَ بالفعل، بينما شهدَ ڤارس والإصبع الصَّغير كلَّ ما دارَ من البداية للنِّهاية، وقال الخصيُّ معترفًا: «إعجابي بك يزداد بحَقٍّ يا سيِّدي. تُسايِر صبيَّ ستارك برُفات أبيه، وتُجَرِّد أختك من حُماتها بضربةٍ واحدةٍ سريعة. تُعطي الأخ الأسود الرِّجال الذين يُريدهم، وتُخَلِّص

المدينة من بعض الأفواه الجائعة، لكن تجعل الأمر كله يبدو هزليًّا كي لا يقول أحد إن لا سنارك أو جرامكن[1] يُخيف القزم. أوه، أحسنت حقًّا».

ملَّس الإصبع الصَّغير على لحيته متسائلًا: «هل تنوي أن تصرف حَرسك كلهم حقًّا يا لانستر؟».

- «كلا، بل أنوي أن أصرف حَرس أختي كلهم».

- «الملكة لن تسمح بذلك أبدًا».

- «أوه، أعتقدُ أنها ستسمح. إنني أخوها، وعندما تعرفني أكثر، ستُدرِك أني أعني كلَّ شيءٍ أقوله».

- «حتى الأكاذيب؟».

- «بالذَّات الأكاذيب. يُراودني إحساس بأنك غاضب مني يا لورد بيتر».

- «لم يتبدَّل حُبِّي لك إطلاقًا يا سيِّدي، لكنني لا أستسيغُ التَّلاعُب بي وكأني أحمق. إذا تزوَّجت مارسلا تريستان مارتل، فلا يُمكنها أن تتزوَّج روبرت آرن، أليس كذلك؟».

- «ليس دون التسبُّب في فضيحةٍ مدويَّة. آسفٌ لخدعتي الصَّغيرة يا لورد بيتر، لكنني حين كلَّمتك لم أكن أدري أن الدورنيُّون سيقبلون عرضي».

لم يقتنع الإصبع الصَّغير، وقال: «لا أحبُّ أن يكذب عليَّ أحد يا سيِّدي. اترُكني بعيدًا عن خديعتك القادمة».

فكَّر تيريون رامقًا الخنجر المثبَّت في غِمده على وَرك بايلش: فقط إذا عامَلتني بالمِثل، ثم إنه قال: «تقبَّل خالص اعتذاري إذا أسأتُ إليك. الكلُّ يعلم كم نُحِبُّك يا سيِّدي، وكم نحتاجك».

قال الإصبع الصَّغير: «حاوِل أن تتذكَّر هذا»، ثم انصرفَ وتركهما.

قال تيريون: «امشِ معي يا فارس»، وخرجا من باب الملك وراء العرش، وخُفَّا الخصيِّ يُصدِران صوت احتكاكٍ ناعمًا على الأرض الحجريَّة.

- «اللورد بايلش على حق كما تعلم، فالملكة لن تسمح لك أبدًا بصرف حُرَّاسها».

---

(1) السنارك والجرامكن كائنان خياليَّان من ابتكار المؤلِّف يأتي ذِكرهما في الحكايات الشَّعبيَّة القديمة في قارَّة وستروس.

- «ستفعل، وستعمل أنت على هذا».

تلاعبَت بسمة على شفتي الخصيِّ الممتلئتين، وقال: «حقًّا؟».

- «أوه، بكلِّ تأكيد. ستُخبِرها بأن هذا جزء من خطَّتي لتحرير چايمي».

ملَّس ڤارس على وجنته المغطَّاة بالمساحيق قائلًا: «لا بُدَّ أن هذا سيتضمَّن الرِّجال الأربعة الذين بحثَ عنهم رجلك برون باجتهادٍ في الأحياء المنحطَّة من كينجز لاندنج، اللِّص والمسمِّم والممثِّل والقاتل».

- «ألبِسهم المعاطف القرمزيَّة وخوذات الأسد ولن يُمَيِّزهم شيء عن أيِّ حارسٍ آخَر. لقد فكَّرتُ مليًّا في حيلةٍ تُدخِلهم ريثما ريقررَن قبل أن يَخطُر لي أن أخبِّئهم على مرأى من الجميع. هكذا سيَدخُلون من البوَّابة الرَّئيسة رافعين رايات لانستر ويصحبون رُفات اللورد إدارد»، وابتسمَ تيريون ابتسامةً معوجَّةً، وأردفَ: «لن يلحظ أحد أربعةً وسط مئة، لذا عليَّ إرسال الحَرس الحقيقيِّين مع الزَّائفين... كما ستقول لأختي».

قال ڤارس وهما يقطعان رواقًا مهجورًا: «وستُوافِق هي في سبيل أخيها الحبيب على الرغم من هواجسها، لكن فقدان ذوي المعاطف الحمراء سيُشعِرها بالاضطراب رغم ذلك».

- «وأنا أحبُّها مضطربةً».

غادرَ السير كليوس فراي في اليوم نفسه بَعد الظُّهر، في صُحبة ڤايلار ومئة من حَرس لانستر حُمر المعاطف، وانضمَّ إليهم الرِّجال الذين أرسلَهم روب ستارك عند بوَّابة الملك، ليبدأوا الرِّحلة الطَّويلة غَربًا.

وجدَ تيريون تيميت يلعب النَّرد مع رجاله المحروقين في الثُّكنات، وقال له: «تعالَ إلى غُرفتي عند منتصَف اللَّيل»، فرمقَه تيميت بنظرةٍ قاسيةٍ بعينه الواحدة وهَزَّ رأسه باقتضاب، فلا يُحَبِّذ هذا الرَّجل الكلام الكثير.

تناولَ طعامه ليلتها مع رجال الغِربان الحجريَّة وإخوة القمر في القاعة الصَّغيرة، وإن رفضَ النَّبيذ على غير عادته، فقد أرادَ أن تكون قواه العقليَّة كلها حاضرةً. خاطبَ شاجا قائلًا: «في أيٍّ من أطوار القمر نحن؟».

أجابَ شاجا بملامحه العابسة المهيبة: «الطَّور الأسود على ما أعتقدُ».

- «في الغَرب يُسَمُّونه قمر الخونة. حاوِل ألَّا تسكر كثيرًا اللَّيلة، واحرِص على أن تكون فأسك حادَّةً».

- «فأس الغُراب الحجري حادَّة دائمًا، وفؤوس شاجا أحدُّها جميعًا. ذات مرَّةٍ قطعتُ رأس رجل، فلم يُدرِك ما حدثَ حتى حاولَ أن يُصَفِّف شَعره، وعندها سقطَ الرَّأس».

سألَه: «ألهذا لا تُصَفِّف شَعرك أبدًا؟»، فهدرَ رجال الغِربان الحجريَّة بالضَّحك ودَقُّوا الأرض بأقدامهم، وضحكَ شاجا نفسه بصخبٍ أكثر من الجميع.

كانت القلعة ساكنةً مظلمةً مع انتصاف اللَّيل، مع أن لا شَكَّ أن بعض ذوي المعاطف الذَّهبيَّة على الأسوار لمحوهم يُغادِرون بُرج اليد، لكن لا أحد منهم قال شيئًا، فهو يد الملك، وأينما يذهب شأنه وحده.

انفلقَ الباب الخشبي الرَّفيع بصوتٍ كالرَّعد بضربةٍ من كعب حذاء شاجا، وتطايرَت قِطع الخشب إلى الدَّاخل، وسمعَ تيريون امرأةً تشهق خوفًا. حطَّم شاجا الباب بثلاث ضرباتٍ عنيفة بفأسه، وركلَ ما تبقَّى منه بقدمه داخلًا، وتبعَه تيميت ثم تيريون الذي خطا بحذرٍ فوق الشَّظايا. لم يتبقَّ من النَّار في المستوقَد غير بضع جمراتٍ متوهِّجة، فغرقَت الغُرفة في الظِّلال، وعندما مزَّق تيميت ستائر الفِراش، رفعَت الخادمة العارية عينين متَّسعتين صوبهم، وقالت بضراعة: «أرجوكم يا سادتي، لا تُؤذوني»، وجفلَت مبتعدةً عن شاجا وقد تورَّدت بشرتها وتصدَّر الخوف ملامحها، تُحاوِل تغطية مفاتنها كلها فتجد أن يدًا ثالثةً تَنقُصها لتنجح في هذا.

قال تيريون: «اذهبي، فلا نُريدكِ أنتِ».

- «شاجا يُريد هذه المرأة».

قال تيميت بن تيميت متبرِّمًا: «شاجا يُريد كلَّ عاهرةٍ في مدينة العاهرات هذه».

قال شاجا بلا أدنى قدرٍ من الخجل: «نعم. سيضع شاجا في بطنها طفلًا قويًّا».

– «إذا أرادَت طفلًا قويًّا، فإنها تعرف عمَّن تبحث... تيميت، اصحبها إلى الخارج، برفقٍ إذا سمحت».

جذبَ الرَّجل المحروق الفتاة من الفِراش وقادَها عبر الغُرفة بشيءٍ من الجَرِّ وشيءٍ من الدَّفع، وراقبَهما شاجا ببالٍ كاسف كجروٍ حُرِمَ لُعبته. تعثَّرت الفتاة فوق شظايا الباب وهي تَخرُج إلى الرُّواق إذ دفعَها تيميت مرَّةً أخيرةً.

وفوق رؤوسهم كانت الغِدفان تَصرُخ.

سحبَ تيريون الغطاء النَّاعم من على الفِراش، كاشفًا المِايستر الأكبر پايسل من تحته، وقال له: «أخبِرني، هل تُوافِق «القلعة» على مضاجعتك الخادمات أيها المِايستر؟».

كان العجوز عاريًا تمامًا كالفتاة، وإن كان منظره أقلَّ جاذبيَّةً بمراحل، وعلى غير العادة كانت عيناه ذاتا الجِّفنين الثَّقيلين مفتوحتين عن آخِرهما وهو يقول: «ما... ما معنى هذا؟ إنني رجلٍ عجوز، خادمك المخلص...».

رفعَ تيريون نفسه إلى الفِراش قائلًا: «مخلص للغاية لدرجة أنك أرسلت نُسخةً واحدةً من رسالتي إلى دوران مارتل، وأعطيت الثَّانية لأختي».

قال پايسل بصوتٍ كالصَّرير: «لـ... لا، لا، هذا كذب، أقسمُ لك، لم يكن أنا، ڤارس، إنه ڤارس، العنكبوت، حذَّرتك...».

– «هل يكذب كلُّ المِايسترات بهذا الابتذال؟ لقد قلتُ لڤارس إنني سأعطي الأمير دوران ابن أختي تومن لينشأ عنده، وقلتُ للإصبع الصَّغير إنني أنوي تزويج مارسلا اللورد روبرت سيِّد «العُش»، لكني لم أقل لأحدٍ إنني عرضتُ مارسلا على الدورني... تلك الحقيقة كانت في الرِّسالة التي عهدتُ إليك بها فقط».

تمسَّك پايسل بطرف الغطاء، وقال: «الطُّيور تضلُّ الطَّريق، والرَّسائل تُسرَق وتُباع... إنه ڤارس... يُمكنني أن أحكي لك أشياء عن الخصيِّ تُجَمِّد الدِّماء في عروقك...».

– «امرأتي تُفَضِّل دمائي حارَّةً».

– «تأكَّد أن كلَّ سِرٍّ يهمس به الخصيُّ في أُذنك تُقابِله عشرة أسرارٍ يكتمها، والإصبع الصَّغير، هذا الرَّجل...».

- «أعرفُ كلَّ شيءٍ عن اللورد بايلش. إنه لا يستحقُّ الثِّقة مِثلك تمامًا. شاجا، اقطع ذَكره وأطعِمه للماعز».
قبضَ شاجا على الفأس الضَّخمة ذات النَّصلين، وقال: «لا توجد ماعز يا نِصف الرَّجل».
- «تصرَّف إذن».
وثبَ شاجا إلى الأمام هادرًا، وصرخَ بايسل وبلَّل الفِراش، ليتناثَر البول في كلِّ مكانٍ وهو يتراجَع بعيدًا، فأمسكه الهمجي من لحيته البيضاء الكبيرة، وقطعَ ثلاثة أرباعها دُفعةً واحدةً بضربةٍ واحدةٍ من فأسه.
قال تيريون وهو يُنَظِّف حذاءه من البول بجزءٍ من الملاءة: «تيميت، هل تعتقد أن صديقنا سيكون مستعدًّا أكثر للكلام دون هذه اللِّحية التي يختبئ وراءها؟».
ماجَت الظُّلمة في المحجر الخالي الذي كان عين تيميت وهو يقول: «سيقول الحقيقة قريبًا. إنني أشمُّ نتانة خوفه».
ألقى شاجا حفنةً من الشَّعر على البساط، وأطبقَ على ما تبقَّى من اللِّحية، فقال تيريون: «اثبت أيها المِايستر، فحين يغضب شاجا تهتزُّ يده».
قال الرَّجل الضَّخم محتجًّا: «يد شاجا لا تهتزُّ أبدًا»، وضغطَ النَّصل نِصف المستدير تحت ذقن بايسل المختلجة، وجَزَّ المزيد من الشَّعر.
خاطبَ تيريون المِايستر قائلًا: «منذ متى تتجسَّس لحساب أختي؟».
كانت طبقة لامعة من العَرق تُغَطِّي جبهة العجوز العريضة، بينما علقَت شُعيرات بيضاء ببشرته المتغضِّنة، وقال بايسل وأنفاسه تتلاحَق قصيرةً: «كلُّ ما فعلته كان من أجل عائلة لانستر، دائمًا... على مَرِّ السِّنين... السيِّد والدك، سَله، لطالما كنتُ خادمه المخلص... أنا من دعوتُ إيرس لفتح بوَّابات المدينة...».
أصابَ اعترافه تيريون بدهشةٍ حقيقيَّة. لقد كان مجرَّد صبيٍّ قبيح في كاسترلي روك عندما سقطَت المدينة. «إذن فنهْب كينجز لاندنج كان صنيعك أيضًا؟».
- «من أجل البلاد! لقد انتهَت الحرب بمجرَّد موت ريجار، وإيرس كان مجنونًا، وفسيرس صغيرًا للغاية، والأمير إجون رضيعًا، لكن البلاد كانت في

حاجةٍ إلى ملك... تمنَّيتُ أن يكون والدك الكريم، لكن روبرت كان قويًّا للغاية، واللورد ستارك تحرَّك بسرعةٍ بالغة...».

- «تُرى كم واحدًا خُنتَ؟ إيرس، إدارد ستارك، أنا... والملك روبرت كذلك؟ واللورد آرن والأمير ريجار؟ أين كانت البداية يا پايسل؟». إنه يعرف أين تكون النِّهاية.

حَكَّت الفأس تُفَّاحة حلق پايسل والجلد الرَّخو النَّاعم تحت فَكِّه كاشطةً آخِر الشُّعيرات، وشهقَ عندما ارتفعَ النَّصل إلى وجنتيه، وقال متلعثمًا: «أنت... لم تكن هنا. روبرت... جروحه... لو أنك رأيتها وشمَمت رائحتها، لم يكن شَكٌّ ليُخامِرك...».

- «أوه، أنا واثق بأن الخنزير البرِّي أدَّى دورك بدلًا منك... لكن لو لم يُنجِز المهمَّة، فلا بُدَّ أنك كنت لتُنهيها».

- «كان ملكًا مأفونًا... مغرورًا وسكِّيرًا وفاجرًا... كان ينوي التخلُّص من أختك، ملكته... أرجوك... رنلي كان يُخَطِّط للمجيء بفتاة هايجاردن إلى البلاط، ليُغوي أخاه... إنها الحقيقة والآلهة تشهد...».

- «وما الذي كان اللورد آرن يُدَبِّره؟».

أجابَ پايسل: «كان يعرف بأمر... بأمر...».

قاطَعه تيريون بحدَّة: «أعرفُ ما كان يعرفه». إنه لا يرغب في أن يعرف شاجا وتيميت بدورهما.

- «كان سيُعيد زوجته إلى «العُش»، ويُرسِل ابنه ليتربَّى في دراجونستون... كان ينوي أن يتَّخذ خطوةً...».

- «ولذا سمَّمته أولًا».

- «لا!». قاومَ پايسل بوهن، فدمدمَ شاجا وأطبقَ على رأسه بيده شديدة الضَّخامة، التي يُمكنه أن يسحق بها جمجمة المِايستر كقشرة بيضةٍ لو أنه ضغطَ فقط.

طقطقَ تيريون بلسانه، وقال: «لقد رأيتُ دموع لِيس وسط عقاقيرك، كما أنك صرفت مِايستر اللورد آرن الخاص وتولَّيت علاجه بنفسك، بغية أن تتيقَّن من موته».

- «كذب!».
- «أريدُ حلاقةً أنظف يا شاجا، الرَّقبة مرَّة أخرى».
تحرَّكت الفأس إلى الأمام والخلف مصدرةً صوتًا خشنًا مع احتكاكها بالجِلد، بينما تكوَّنت فقاقيع من اللُّعاب على شفتي پايسل وفمه يرتعش قائلًا: «حاولتُ إنقاذ اللورد آرن، أقسمُ لك...».
- «احترس يا شاجا، لقد جرحته».
قال شاجا بصوتٍ هادر: «أبي دولف أنجبَ مُحارِبين لا حلَّاقين».
عندما أحسَّ بخيط الدَّم يسيل على عُنقه ويقطر على صدره، ارتجفَ العجوز، وخارَ ما تبقَّى لديه من قوَّة تمامًا، وبدا منكمشًا وأصغر حجمًا وأوهن مما كان عندما اقتحَموا المكان عليه، وقال وهو ينشج: «نعم، نعم. كولمون كان يعمل على تطهير الأمعاء بالمسهِّلات، فصرفته. الملكة كانت تُريد اللورد آرن أن يموت، لكنها لم تَقُل ذلك، لم تستطِع أن تقوله، ڤارس كان يتنصَّت، دائمًا يتنصَّت، لكني عرفتُ عندما نظرتُ إليها. لكن ليس أنا من دَسَّ له السُّم، أقسمُ لك»، وأضافَ باكيًا: «ڤارس سيقول لك إنه كان الصَّبي، مُرافِق اللورد آرن، كان اسمه هيو، لا بُدَّ أنه فعلها بكلِّ تأكيد، سَل أختك، سَلها».
شاعرًا بالاشمئزاز قال تيريون: «قيِّداه وخُذاه من هنا، ألقياه في واحدةٍ من الزَّنازين السَّوداء».
جرَّه تيميت وشاجا إلى الباب المهشَّم وهو يقول نائحًا: «لانستر، كلُّ ما فعلته كان من أجل لانستر...».
بَعد غيابه، أجرى تيريون بحثًا متمهِّلًا في مسكن المِايستر، وجمعَ بضع قوارير أخرى من على الأرفُف، بينما همهمَت الغِدفان فوق رأسه وهو يعمل، وإن كانت ضوضاؤها مُطَمْئِنَةً على نحوٍ غريب. عليه أن يجد مَن يُعنى بالطُّيور إلى أن تُرسِل «القلعة» بديلًا لپايسل.
كان من أملتُ في أن أثق به. إنه يرتاب في أن ڤارس والإصبع الصَّغير ليسا أكثر إخلاصًا منه... لكنهما أذكى، ومن ثَمَّ أخطر. لعلَّ منهج أبيه أفضل الحلول على الإطلاق؛ يستدعي إلين پاين، ويُعَلِّق ثلاثة رؤوسٍ على الخوازيق فوق البوَّابات، وينتهي من الأمر تمامًا. ويا له من منظرٍ جميلٍ.

آريا

كثيرًا ردَّدت آريا لنفسها: ضربة الخوف أمضى من السَّيف، لكن هذا لم يُفلِح بتاتًا في طرْد الخوف من قلبها، إذ أصبحَ جزءًا لا يتجزَّأ من أيامها، تمامًا كالخُبز البائت وقروح أصابع قدميها بَعد السَّير طول النَّهار على الطَّريق الوعر.

كانت تعتقد أنها تعرف معنى الخوف الحقيقي، لكنها تعلَّمت غير ذلك في المستودع المقام على ضفَّة «عين الآلهة». ثمانية أيام ظلَّتها هناك قبل أن يُعطي الجبل الأمر بالتحرُّك، وكلَّ يوم شهدَت أحدًا يموت، متى أتى الجبل إلى المستودع بَعد أن تناولَ إفطاره، واختارَ واحدًا من السُّجناء للاستجواب. لم يرفع أهل القرية أنظارهم إليه قَطُّ، فلعلَّهم حسبوا أنه لن يراهم إذا لم يروه... لكنه رآهم على كلِّ حالٍ وانتقى مَن يشاء، فما مِن مكانٍ للاختباء، وما بيد أحدهم حيلة، ولا سبيل للأمان.

واحدة من الفتيات شاركَت أحد الجنود فِراشه ثلاث ليالٍ على التَّوالي، وفي اليوم الرَّابع اختارَها الجبل، ولم ينبس الجُندي بكلمةٍ واحدة.

عجوز باسم كان يرتق ثيابهم الممزَّقة، ولم ينفك يُثَرثِر عن ابنه الذي يخدم مع ذوي المعاطف الذَّهبيَّة في كينجز لاندنج، ويقول طول الوقت: «رجل الملك هو، رجل الملك الوفي مِثلي، كلٌّ لجوفري». كان يُرَدِّدها كثيرًا للغاية، فأصبحَ «كلٌّ لجوفري» لقبه بين بقيَّة الأسرى لمَّا لم يكن هناك حُرَّاس يسترقون السَّمع... وفي اليوم الخامس جاء دور الرَّجل.

أمٌّ شابَّة يزخر وجهها بالبثور عرضَت من تلقاء نفسها أن تُخبِرهم بكلِّ ما

تعرفه إذا وعدوها ألَّا يُؤذون ابنتها، فسمعَ الجبل ما لديها، وفي اليوم التَّالي انتقى ابنتها، ليتأكَّد من أن الأمَّ لم تكتم أيَّ معلومات.

دائمًا ما تَمَّ استجواب المختارين على مرأى ومسمع من بقيَّة الأسرى، كي يروا بأنفسهم مصير المتمرِّدين والخونة، وكان رجل يُلَقِّبه الآخَرون بالمُدغدِغ يُلقي الأسئلة، رجل تقليدي الملامح والثِّياب للغاية، حتى إن آريا كانت لتحسبه واحدًا من القرويِّين لو لم ترَه يُزاوِل عمله أولًا. قال لهم العجوز الأحدب تشيزويك: «المُدغدِغ يجعلهم يعوون إلى أن يبولوا على أنفسهم». إنه الرَّجل الذي حاولَت أن تعضَّه ووصفَها بالشَّراسة قبل أن يضربها على رأسها، وكان يُساعِد المُدغدِغ. في أحيانٍ أخرى ساعدَه رجال مختلفون، بينما يقف السير جريجور نفسه بلا حراك، يُشاهِد ويُصغي، إلى أن تموت الضحيَّة.

لم تتبدَّل الأسئلة على الإطلاق: هل من ذهب مخبَّأ في القرية؟ هل من فضَّة أو جواهر؟ المزيد من الطَّعام؟ أين اللورد بريك دونداريون؟ مَن عاوَنه من أهل القرية؟ عندما غادرَ، إلى أين اتَّجه؟ كم رجلًا كانوا معه؟ كم فارسًا وكم قوَّاسًا وكم مسلَّحًا؟ ما تسليحهم؟ كم منهم امتطى الخيول؟ كم منهم كان جريحًا؟ هل رأوا أعداء آخَرين؟ كم؟ متى؟ أيَّ راياتٍ حملوا؟ أين ذهبوا؟ هل من ذهب مخبَّأ في القرية؟ هل من فضَّة أو جواهر؟ أين اللورد بريك دونداريون؟ مَن عاوَنه من أهل القرية؟ عندما غادرَ، إلى أين اتَّجه؟ كم رجلًا كانوا معه؟

مع حلول اليوم الثَّالث، كانت آريا لتستطيع إلقاء الأسئلة بنفسها.

عثروا على القليل من الذَّهب والفضَّة وجوالٍ ضخم من العُملات النُّحاسيَّة، بالإضافة إلى كأسٍ منبعجة مزيَّنة بالعقيق، كادَ اثنان من الجنود يتشاجَرا بسببها، كما توصَّلوا إلى أن اللورد بريك كان معه عشرة من الرِّجال المتضوِّرين جوعًا، أو أنهم كانوا مئة فارسٍ بخيولهم، وأنه اتَّجه غربًا أو شَمالًا أو جَنوبًا، وأنه عبرَ البحيرة بقارب، وأنه قويٌّ كثورٍ برِّي أو واهن من

جرَّاء الزُّحار الدَّموي[1] الذي أصابَه. لم ينجُ أحد من القرويِّين من استجواب المُدغدِغ، لا الرِّجال ولا النِّساء ولا الأطفال، واحتملَ أفواهم حتى بُعَيد الغروب لا أكثر، ثم عُلِّقَت جُثث الجميع على المشانق وراء نار المعسكر لتفترسها الذِّئاب.

لمَّا بدأوا الزَّحف، كانت آريا تُدرِك أنها ليست راقصة مياه. سيريو فورل لم يكن ليسمح لهم أبدًا بأن يُجَندِلوه ويأخذوا سيفه، ولم يكن ليقف ساكنًا وهُم يَقتُلون لومي أخضر اليد. سيريو لم يكن ليقعد صامتًا في المستودع، أو يزحف بخنوع بين الأسرى. الذِّئب الرَّهيب رمز عائلة ستارك، لكن آريا أحسَّت أنها مجرَّد حمَل يُحيط به الخراف.

كان المقت الذي تَشعُر به إزاء أهل القرية لجُبنهم يُعادِل مقتها نفسها الخائفة.

آل لانستر سلَبوها كلَّ شيء؛ الأبَ والأصدقاء والدِّيار والأمل والشَّجاعة، وأحد رجالهم أخذَ إبرتها، وآخَر كسرَ سيفها الخشبيَّ الرَّفيع على رُكبته، بل وسلَبوها سرَّها السَّخيف كذلك. المستودع كان واسعًا بما يكفي لأن تنسلَّ وتقضي حاجتها خلسةً في أحد الأركان عندما لا يكون هناك من يراها، لكن الأمر مختلف على الطَّريق. لقد حبسَت البول في مثانتها قَدر المستطاع، لكنها في النِّهاية اضطرَّت لأن تُقَرفِص إلى جوار شجيرةٍ وتُنزِل سراويلها أمامهم جميعًا... كان إمَّا هذا أو أن تُبَلِّل ثيابها. حدَّق هوت پاي فيها بعينين متَّسعتين، لكن لا أحدَ آخَر كلَّف نفسه مجرَّد النَّظر إليها. فليكن الخروف ذَكرًا أو أنثى، فرجال السير جريجور لا يُبالون.

لم يسمح لهم آسروهم بالثَّرثرة، وتعلَّمت آريا من شفتها المشقوقة أن تُطبِق فمها على لسانها، بينما لم يتعلَّم آخَرون إطلاقًا. طفل في الثَّالثة لم يتوقَّف عن نداء أمِّه، فهشَّموا وجهه بهرَّاوةٍ شائكة، وعندما بدأت أمُّه في الصُّراخ، قتلَها رالف المعسول بدورها.

(1) الزُّحار التهاب في الأمعاء يؤدِّي إلى إسهال شديد يحتوي على الدَّم، ويُعرَف أيضًا في عالم هذه الرِّوايات باسم داء «الفَرس الصَّفراء» في قارة إسوس.

رأتهم آريا يموتون ولم تفعل شيئًا، فبِمَ تعود الشَّجاعة على المرء؟ ثمَّة امرأة اختارَها كليجاين للاستجواب حاولَت أن تكون شُجاعةً، لكنها ماتَت صارخةً كسواها. لا شُجعان في هذه المسيرة، لا أحد غير الخائفين الجائعين. الغالبيَّة من النِّساء والأطفال، والرِّجال القلائل إمَّا كبارٍ جدًّا أو صغار جدًّا، والآخَرون تُرِكوا مقيَّدين بالسَّلاسل على المشانق للذِّئاب والغِربان، ولم يحيَ جندري إلَّا لأنه أقرَّ بأنه طرَّق الخوذة ذات القرنين بنفسه، فالحدَّادون -وحتى صبيانهم- أعلى قيمةً من أن يُقتَلوا.

أخبرَهم الجبل بأنهم ذاهبون لخدمة اللورد تايوين لانستر في هارنهال، وقال لهم: «أنتم خونة ومتمرِّدون، فاشكُروا آلهتكم أن اللورد تايوين يمنحكم هذه الفُرصة، فهذا أكثر مما تنالون من الخارجين على القانون. أطيعوا الأوامر واخدِموا وعيشوا».

عندما افترَشوا الأرض ليلتها، سمعَت عجوزًا ضامرةً تقول شاكيةً: «هذا ليس عدلًا، ليس عدلًا. نحن لم نَخُن أحدًا. الآخَرون جاءوا وأخذوا ما أرادوا مِثل هؤلاء تمامًا».

همسَت صديقتها: «لكن اللورد بريك لم يمسَّنا بأذى، وذلك الرَّاهب الأحمر الذي معه دفعَ ثمن ما أخذوه».

– «دفعَ؟ لقد أخذَ اثنتين من دجاجاتي وأعطاني ورقةً عليها علامة. هل سآكلُ الورقة المهلهلة؟ هل ستبيض لي؟»، ثم تطلَّعت حولها لترى أن لا أحد قريبًا من الحُرَّاس، وبصقَت ثلاثًا وقالت: «هذه لتَلي وهذه للانستر وهذه لستارك».

قال رجل مسنٌّ بصوتٍ كالفحيح: «إنها خطيئة وعار. لم يكن الملك القديم ليسمح بهذا عندما كان حيًّا».

ناسيةً نفسها سألَته آريا: «الملك روبرت؟».

أجابَها بصوتٍ أعلى من اللَّازم: «الملك إيرس»، فتقدَّم حارس بتؤدةٍ ليُخرِسهم، وفقدَ العجوز السِّنَّين اللتين تبقَّيتا له، ولم يتفوَّه أحدهم بشيءٍ آخَر ليلتها.

بالإضافة إلى الأسرى، جلبَ السير جريجور دستةً من الخنازير، وقفصًا

من الدَّجاج، وبقرةً حلوبًا هزيلةً، وتسع عرباتٍ من السَّمك المملَّح. ركبَ الجبل ورجاله الخيول، لكن الأسرى كلهم قطعوا الطَّريق سيرًا على الأقدام، والأضعف من أن يُجاروا حركة الرَّكب قُتِلوا من فورهم، بالإضافة إلى كلِّ من سوَّلت له حماقته الفرار. كلَّ ليلةٍ كان الحَرس يأخذون نساءً بين الشُّجيرات، وبدا أن معظمهن توقَّعن هذا، فذهبن معهم مذعنات. فتاة منهن كانت أجمل من الأخريات، واعتادَ أربعة أو خمسة رجالٍ مختلفين في اللَّيلة الواحدة أخْذها، إلى أن ضربَت أحدهم بصخرة، فجعلَ السير جريجور الجميع يُشاهِدون بينما قطعَ رأسها بضربةٍ واحدةٍ من سيفه الضَّخمِ الذي يحمله بيديه معًا، ثم إنه قال آمرًا بَعدها وهو يُناوِل مُرافِقه السَّيف ليُنَظِّفه: «اترُكوا الجثَّة للذِّئاب».

ألقَت آريا نظرةً بطرف عينها على «الإبرة» الموضوع في غِمده على وَرك رجلٍ مسلَّح اسمه پوليڤر، أسود اللِّحية وبدأ الصَّلع يزحف على رأسه، وقالت لنفسها: من الجيِّد أنهم أخذوه مني، وإلَّا لكانت حاولَت أن تطعن السير جريجور، وكان ليَشُجَّها حينئذٍ إلى نِصفين، لتأكلها الذِّئاب هي الأخرى.

ليس پوليڤر بسوء عددٍ من الآخَرين، على الرغم من أنه سرقَ إبرتها. ليلة قبضوا عليها كان رجال لانستر مجرَّد أغراب بلا أسماء تتشابَه وجوههم كخوذاتهم ذات واقيات الأنوف، لكنها أصبحَت تعرفهم جميعًا الآن، وتعلَّمت مَن منهم كسول ومَن قاسٍ، ومَن ذكي ومَن غبي، وتعلَّمت أن مَن يُلَقِّبونه بفم الخراء، الذي يُرَدِّد أقذعَ كلام سمعَته في حياتها على الإطلاق، يُعطيك قطعةً إضافيَّةً من الخُبز إذا طلبتَ، بينما لو طلبتها من تشيزويك العجوز المرح أو راف الذي يتكلَّم بنعومةٍ ودماثة، فستنال ضربةً بظاهر اليد.

وتُشاهِد آريا وتُصغي وتَصقُل كراهيتها مِثلما كان جندري يَصقُل خوذته. كان دانسن يضع قرنيَّ الثَّور على رأسه الآن، وهكذا فازَ بكراهيتها. إنها تكره پوليڤر لأنه استولى على إبرتها، وتكره تشيزويك العجوز الذي يحسب نفسه طريفًا، وأكثر من هؤلاء تكره راف المعسول الذي غرسَ رأس رُمحه في حلق لومي، وتكره السير آموري لورك من أجل يورن، وتكره السير مرين ترانت من أجل سيريو، وكلب الصَّيد لقتْل صبيِّ الجزَّار مايكا، والسير إلين والأمير

چوفري والملكة من أجل أبيها وتوم السَّمين ودزموند والبقيَّة، وحتى من أجل ليدي ذئبة سانزا. أمَّا المُدغدغ فمخيف لدرجةٍ لا تجعلها تجرؤ على كراهيته. في أحيانٍ كانت تنسى أنه لا يزال معهم، فعندما لا يُلقي الأسئلة على الأسرى، يتصرَّف كأيِّ جُندي عادي، ويميل إلى الصَّمت أكثر من غيره، بينما تذوب ملامحه التي تُشبه ألفًا سواه بين ملامح الآخَرين.

في كلِّ ليلةٍ تُرَدِّد آريا الأسماء، تهمسها لوسادتها الحجريَّة: «السير جريجور، دانسن، پوليڤر، تشيزويك، راف المعسول، المُدغدِغ وكلب الصَّيد، السير آموري، السير إلين، السير مرين، الملك چوفري، الملكة سرسي». في وينترفل كانت تُصَلِّي مع أمِّها في السِّپت ومع أبيها في أيكة الآلهة، لكن على الطَّريق إلى هارنهال، كانت قائمة الأسماء الصَّلاة الوحيدة التي أرادَت أن تتذكَّرها.

كلَّ نهارٍ يمضون على الطَّريق، وكلَّ ليلةٍ تُرَدِّد الأسماء، إلى أن صارَت الأشجار أقلَّ تشابُكًا أخيرًا وأفسحَت المجال لبُقعةٍ من الرِّيف تزخر بالتِّلال المتموِّجة والنُّهيرات المتعرِّجة والحقول التي تُضيؤها الشَّمس، حيث برزَت هياكل المعاقل المحترقة سوداء كالأسنان العفنة، لكنهم ساروا يومًا طويلًا آخَر قبل أن يلمحوا أبراج هارنهال من بعيد، ترتفع قاسيةً إلى جوار مياه البحيرة الزَّرقاء.

قال الأسرى لبعضهم بعضًا إن الأوضاع ستتحسَّن عندما يصلون إلى هارنهال، لكن آريا لم تكن واثقةً بذلك، وتذكَّرت قِصص العجوز نان عن القلعة المشيَّدة على الخوف. كانت نان تحكي فتقول إن هارن الأسود كان يمزج الدَّم البشريَّ في الهاون، وقد خفضَت صوتها حتى يميل الأطفال دانين منها أكثر، لكن إجون التنِّين شوى هارن وأبناءه كلهم داخل الجُدران الحجريَّة الهائلة. مضغَت آريا شفتها وهي تمضي بقدمين اكتسيَتا بطبقةٍ من الجِلد اليابس، وقالت لنفسها إنهم سرعان ما سيصلون، فهذه الأبراج لا تَبعُد أكثر من بضعة أميال.

على أنهم ساروا ذلك النَّهار طوله، ومعظم النَّهار التَّالي، قبل أن يَبلُغوا أطراف جيش اللورد تايوين أخيرًا، والذي عسكرَ غَرب القلعة وسط بقايا

بلدةٍ محترقة. هارنهال خدَّاعة من بعيد لأنها هائلة حقًّا، ترتفع أسوارها الواقية العملاقة على ضفَّة البحيرة عموديَّةً خاطفةً كجروف الجبال، وتبدو على قِممها صفوف العرَّادات المصنوعة من الحديد والخشب صغيرةً كالعقارب.

تناهَت رائحة جيش لانستر الكريهة إلى أنف آريا بفترةٍ قبل أن تتبيَّن حتى الرُّموز التي تحملها الرَّايات فوق سُرادقات جموع الغربيِّين على شاطئ البحيرة، وجعلَتها الرَّائحة تُدرِك أن اللورد تايوين هنا منذ فترةٍ طويلة، فالمراحيض المحيطة بالمعسكر كانت فائضةً ويحتشد حولها الذُّباب بكثافة، كما أنها رأت زغبًا أخضر ناعمًا على الكثير من الخوازيق الحادَّة التي تحمي المعسكر.

رأت أن مبنى بوَّابة هارنهال -الذي يُناهِز حصن وينترفل الكبير حجمًا- مشوَّه بقَدر ما هو ضخم، أحجاره متصدِّعة ولاحَت ألوانها. من الخارج، من وراء الأسوار، لا يلوح من البروج الخمسة الشَّاهقة غير قممها، تلك البروج التي يُعادِل أقصرها أعلى بُرج في وينترفل مرَّةً ونِصفًا، وإن كانت لا ترتفع إلى عنان السَّماء بالطَّريقة المألوفة، وخطرَ لآريا أنها تبدو كأصابع رجلٍ عجوزٍ عظميَّة متغضِّنة، تُحاوِل القبض على سحابةٍ عابرة. تذكَّرت ما حكَته نان عن الحجر الذي ذابَ وسالَ كالشَّمع على السَّلالم وإلى داخل النَّوافذ، وقد توهَّج بلونٍ أحمر كئيب وهو يسعى إلى هارن في مخبئه، والآن تُصَدِّق آريا كلَّ كلمة، وقد بدا كلُّ بُرجٍ شائهًا منفِّر المنظر أكثر من سابقه، كثير النتوءات ويُشبِه الشَّمعة المطفأة وتشيع فيه الشُّقوق.

قال هوت پاي بصوتٍ راجفٍ وهارنهال تفتح بوَّاباتها لهم: «لا أريدُ أن أدخل. هناك أشباح في الدَّاخل».

سمعَه تشيزويك، لكنه ابتسمَ هذه المرَّة وخاطَبه قائلًا: «لديك خياران يا صبيَّ الخبَّاز، إمَّا أن تَدخُل إلى الأشباح أو تُصبِح واحدًا منها».

ودخلَ هوت پاي مع بقيَّتهم.

في الحمَّام الذي تُرَدِّد حوائطه أصداء كلِّ صوت، أمروا الأسرى بالتجرُّد من ثيابهم وحَكِّ وفرك أجسادهم في أحواضٍ من الماء شديد السُّخونة، وأشرفَت امرأتان عجوزان قويَّتان على العمليَّة بينما تبادَلتا الكلام عنهم كأنهم

قطيع من الحمير المشتراة حديثًا، ولمَّا جاءَ دور آريا، طقطقَت العقيلة آمابل بلسانها باستنكارٍ من منظر قدميها، بينما تحسَّست العقيلة هارا الجِلد المتيبِّس على أصابعها، الذي اكتسبَته من ساعات التَّدريب الطَّويلة بإبرتها، وقالت: «أراهِنُ أنهما صارتا هكذا من مخض الزُّبد. أنتِ بنت مُزارعٍ ما، أليس كذلك؟ لا عليكِ يا فتاة، فلديكِ فُرصة أن ترقَّي إلى مرتبةٍ أعلى في هذا العالم لو عملتِ بكدٍّ، أمَّا إذا لم تعملي بكد، فستُضرَبين. ما اسمكِ؟».

لم تَجسُر آريا على الإجابة باسمها الحقيقي، لكن آري لا يَصلُح أيضًا، فهو اسم صبي، والكلُّ يرى أنها ليست كذلك. «بنت عرس»، أجابَت قائلةً اسم أول فتاة استطاعَت التَّفكير فيه. «لومي سمَّاني بنت عرس».

قالت العقيلة آمابل متنشِّقةً: «يُمكنني أن أرى السَّبب. منظر هذا الشَّعر مرعب، كما أنه جُحر للقمل كذلك. سنحلقه، ثم تذهبين إلى المطابخ».

قالت: «أفضِّلُ العناية بالخيول». تُحِبُّ آريا الخيول، ولربما تستطيع إذا عملَت في الاسطبلات أن تسرق حصانًا وتهرب.

صفعَتها العقيلة هارا بقوَّةٍ شقَّت شفتها المتورِّمة ثانيةً، وردَّت: «واحفظي لسانكِ هذا وإلَّا ستنالين ما هو أسوأ. لم يَطلُب أحد رأيكِ».

كان للدَّم في فمها مذاق معدني مالح، وخفضَت آريا عينيها ولم تقل شيئًا، بينما فكَّرت بأسى: لم تكن لتجرؤ على ضربي لو أن «الإبرة» لا تزال معي.

قالت العقيلة آمابل: «اللورد تايوين وفُرسانه لديهم سائسون ومُرافِقون للعناية بخيولهم، ولا يحتاجون أمثالكِ. المطابخ مريحة ونظيفة، وهناك دائمًا نار تنامين إلى جوارها دافئةً والكثير من الطَّعام. كنتِ لتُبلين بلاءً حسنًا هناك، لكنني أرى أنكِ لستِ فتاةً ذكيَّةً. هارا، أعتقدُ أن علينا أن نعهد بها إلى ويز».

- «إذا كان هذا رأيكِ يا آمابل».

وهكذا أعطوها ثوبًا من الصُّوف الرَّمادي الخشن، وحذاءً لا يُناسِب مقاس قدميها، وصرَفوها.

ويز هذا وكيل مساعد في البُرج المسمَّى بُرج العويل، رجل قصير مكتنز لديه أنف كبير مليء بالدَّمامل، وبالقُرب من رُكنٍ شفتيه الممتلئتين قروح حمراء غاضبة. كانت آريا واحدةً من السِّتَّة الذين أُرسِلوا إليه، فتطلَّع إليهم

بنظرةٍ ثاقبة قائلًا: «آل لانستر كُرماء مع من يُخلِصون في خدمتهم، وهو شَرف لا يستحقُّه أمثالكم، لكن الرَّجل يستغلُّ ما لديه في حالة الحرب. اعملوا باجتهادٍ واعرفوا منزلتكم، وربما تترقُّون مِثلي ذات يوم، لكن إذا تطاوَلتم على كرم حضرة اللورد، ستجدونني في الانتظار بَعدما يرحل»، وتحرَّك متبخترًا أمامهم، وأخبرَهم أن عليهم ألَّا يرفعوا أعيُنهم إلى أعيُن النُّبلاء أبدًا، وألَّا يتكلَّموا ما لم يُوَجَّه لهم الكلام، وألَّا يعترضوا طريق حضرة اللورد، وأضافَ: «أستطيعُ أن أشمَّ رائحة التحدِّي، ورائحة الكبرياء، ورائحة العصيان. إذا شممتُ أيًّا من تلك الرَّوائح، فستُعاقَبون. عندما أتشمَّمكم، فلا أريدُ أن يلتقط أنفي غير رائحة الخوف».

دنيرس

على أسوار كَارث دَقَّ الرِّجال النَّواقيس معلنين أنها أقبلَت، بينما نفخَ آخَرون في أبواقٍ غريبة الشَّكل، تلتفُّ حول أجسادهم كأفاعٍ برونزيَّة ضخمة، وخرجَ صَفٌّ من راكبي الجِمال من المدينة ليتَّخذوا مواقعهم كحَرس شَرفٍ لها، وقد ارتدوا دروعًا من النُّحاس تُشبِه حراشف الأسماك، وخوذاتٍ ذات واقياتٍ طويلة للأنف، يَخرُج من كلٍّ منها نابان نُحاسيَّان وريشة حريريَّة طويلة، أمَّا جِمالهم فكسَتها أغطيةٍ بمئة لونٍ ولون.

كان پيات پري قد قال لها وهُم لا يزالون وسط عظام ڤايس تولورو: «كَارث أعظم مدينة كانت أو ستكون. إنها مركز العالم، البوَّابة بين الشَّمال والجَنوب، والجسر بين الشَّرق والغرب، أعتق من أن تُدرك ذاكرة البَشر منشأها، وبديعة لدرجة أن ساثوس الحكيم فقأ عينيه بَعدما تطلَّع إلى كَارث أول مرَّة، إذ علمَ أن كلَّ ما يراه من تلك اللَّحظة فصاعدًا سيكون حقيرًا قبيحًا بالمقارَنة».

ارتابَت داني كثيرًا في صحَّة كلام الدجَّال، وإن لم يكن هناك سبيل لإنكار روعة المدينة العظيمة. ثلاثة أسوار سميكة تُطَوِّق كَارث، كلها منقوش بمنتهى العناية والتَّنميق. السُّور الخارجي من الحجر الرَّملي الأحمر، يرتفع ثلاثين قدمًا، وتُزَيِّنه صُور حيوانات؛ ثعابين تزحف، وطائرات ورقيَّة محلِّقة، وأسماك تسبح متمازجةً مع ذئاب القَفر الأحمر وخيول الزورس[1] المخطَّطة والأفيال هائلة الحجم. والسُّور الأوسط يرتفع أربعين قدمًا، مشيَّد

(1) الزورس حيوان هجين يَنتُج عن زواج ذَكر الحمار الوحشي وأنثى الحصان.

من الجرانيت الرَّمادي، وبعثَت فيه الحياة مَشاهد الحرب؛ تقارُع السُّيوف والتُّروس والحراب، وتحليق السِّهام في الهواء، وأبطال يتقاتَلون وأطفال يُذبَحون، ومَحارق جثامين الموتى. أمَّا السُّور الدَّاخلي فيرتفع خمسين قدمًا من الرُّخام الأسود، وعليه صُور محفورة جعلَت وجنتيَّ داني تتورَّدان خجلًا، إلى أن قالت لنفسها إنها تتصرَّف كالحمقى، فهي ليست عذراء، وإذا استطاعَت التطلُّع إلى مَشاهد المذابح على السُّور الرَّمادي، فلِمَ تغضُّ بصرها عن مَشاهد رجالٍ ونساءٍ يتبادَلون المتعة؟

البوَّابة الخارجيَّة مدعَّمةً بالنُّحاس، والوُسطى بالحديد، أمَّا الدَّاخليَّة فمرصَّعة بالجواهر في أماكن أعيُن المرسومين؛ والبوَّابات الثَّلاث فُتِحَت مع دنوِّ داني، وإذ امتطَت فَرسها الفضِّيَّة إلى داخل المدينة، هرعَ أطفال صغار يَنثُرون الزُّهور في طريقها، وقد ارتدوا صنادل ذهبيَّةً وطُلِيَت أجسادهم العارية بألوانٍ مبهرجة.

كلُّ الألوان المفقودة في ڤايس تولورو وجدَت طريقها إلى كارث. احتشدَت المباني من حولها بشكلٍ خياليٍّ كما في حُلم محموم، بدرجاتٍ من القُرنفلي والبنفسجي والعنبري، ومرَّت تحت قنطرةٍ مشيَّدة على شكل ثُعبانين يتزاوَجان، حراشفهما من اليَشب والزُّجاج البُركاني واللازورد، بينما ارتفعَت الأبراج الرَّفيعة أعلى مما رأت داني في حياتها كلها، وضَمَّ كلُّ ميدانٍ نوافير أنيقةً تتَّخذ أشكال الجريفين والتنِّين والمانتيكور.

اصطفَّ الكارثين في الشَّوارع وتفرَّجوا من شُرفاتٍ رقيقة التَّصميم، تبدو أكثر هشاشةً من أن تتحمَّل أوزانهم. إنهم شعب من طِوال القامة شاحبي الملامح، يرتدون الكتَّان والسَّميت وفرو النَّمر، وكلُّ واحدٍ منهم في نظرها لورد أو ليدي. ترتدي النِّساء فساتين تَترُك واحدًا من الثَّديين مكشوفًا، بينما يلبس الرِّجال ثيابًا من الحرير المرصَّع بالخرز، ما أشعرَ داني بأنها تبدو كالهمج ذوي الملابس الرثَّة وهي تمرُّ بهم مرتديةً فروة الأسد وعلى كتفها دروجون. يُسَمِّي الدوثراكي الكارثين «شعب الحليب» لشحوب بشرتهم، وكان كال دروجو يَحلُم باليوم الذي ينهب فيه مُدن الشَّرق العظيمة. ألقَت نظرةً على خيَّالة دمها، بأعيُنهم اللَّوزيَّة الدَّاكنة التي لا تبوح بأفكارهم، وقالت

لنفسها متسائلةً: ألا يرون غير الغنائم؟ لا بُدَّ أننا نبدو برابرةً حقًّا في أنظار هؤلاء الكارثين.

تقدَّم بيات بري گالاسارها في منتصَف الممرِّ المقنطَر العظيم، حيث تقف تماثيل أبطال المدينة القُدامى بثلاثة أضعاف حجمهم الأصلي، على أعمدةٍ من الرُّخام الأبيض والأخضر، ومَرُّوا خلال سوقٍ تحتلُّ مبنى غائرًا فسيحًا، سقفه المرسوم على شكل عريشٍ شجري يضمُّ ألفًا من الطُّيور ذات الألوان البهيجة، بينما ازدانَت الجُدرانُ المدرَّجة فوق الأكشاك بنقوش الزُّهور والأشجار الباسقة، وبدا لداني أن المكان يحوي كلَّ ما وضعَته الآلهة على الأرض معروضًا للبيع.

جفلَت فَرسها عندما اقتربَ الأمير زارو زون داكسوس منها بجَمله، وكانت داني قد لاحظَت أن الخيول لا تطيق وجود الجِمال على مقربةٍ منها. من أعلى سَرجه الأنيق ذي القرن قال لها زارو: «إذا رأيتِ شيئًا ترغبين فيه هنا يا جميلة الجميلات، فعليكِ أن تقولي فقط، وهو لكِ».

قال بيات بري ذو الشَّفتين الزَّرقاوين برصانةٍ من على جانبها الآخَر: «كارث ذاتها لها، فهي لا تحتاج حُلِيًّا رخيصةً. كما وعدتكِ يا گاليسي، تعالي معي إلى بيت الخالدين، وستشربين من نبع الحقيقة والحكمة».

حدَّث زارو الدجَّال قائلًا: «وما حاجتها إلى قصر الغبار هذا بينما أستطيعُ أن أعطيها نور الشَّمس ومياهًا عذبةً وحريرًا تتمرَّغ فيه؟ سيضع الثَّلاثة عشر تاجًا من اليَشب الأسود والأوپال النَّاري على رأسها الجميل».

- «المكان الوحيد الذي أرغبُ فيه هو القلعة الحمراء في كينجز لاندنج يا لورد بيات». تتعامَل داني بحذرٍ مع المشعوذ، فقد سمَّمت ميري ماز دور أفكارها إزاء كلِّ من يلعبون بالسِّحر. «وإذا كان عُظماء كارث يرغبون في مُهاداتي يا زارو، فليُعطوني سُفنًا ومُقاتِلين أستردُّ بهم حقِّي».

مَطَّ بيات بري شفتيه الزَّرقاوين إلى أعلى بابتسامةٍ كيِّسة، وقال: «كما تأمرين يا گاليسي»، وابتعدَ متمايلًا مع حركة جَمله، وثوبه الطَّويل المزيَّن بالخرز ينسدل وراءه.

غمغمَ زارو زون داكوس من فوق سَرجه العالي: «الملكة الصَّغيرة أكثر

حكمةً من سنوات عُمرها. ثمَّة مقولة في كارث مفادها أن بيت الدجَّال مبنيٌّ من العظام والكذب».

- «لِمَ يخفض النَّاس أصواتهم عندما يتكلَّمون عن دجَّالي كارث إذن؟ في كلِّ أصقاع الشَّرق يحترم الناس قُواهم وحكمتهم».

قال زارو: «كانوا أقوياء حقًّا ذات يوم، لكنهم يُثيرون الضَّحك الآن، كالجُنود المسنِّين الذين يظلُّون يتباهون بشراستهم بَعدما فارقَتهم كلُّ طاقةٍ أو مهارة. إنهم يقرأون لفائفهم المتهالكة، ويشربون صبغة المساء إلى أن تكسو الزُّرقة شفاههم، ويُلَمِّحون إلى امتلاكهم قُوى مخيفة، لكنهم مجرَّد هياكل جوفاء مقارنةً بأسلافهم. احذري هدايا پيات پري، فستستحيل تُرابًا بين يديكِ»، وهوى على جَمله بضربةٍ من سوطه، وأسرعَ مبتعدًا.

تمتمَ السير چورا بلُغة وستروس العاميَّة: «الغُراب يُعَيِّر الغُداف بلونه الأسود». كان الفارس المنفي يركب إلى يمينها كالعادة، ومن أجل دخولهم كارث كان قد تخلَّى عن ثياب الدوثراكي، وعادَ يرتدي دِرعه وقميصه المعدني وسراويله الصُّوفيَّة، ثياب الممالك السَّبع الواقعة على الجانب الآخَر من العالم. «خيرٌ لكِ أن تتحاشي هذين الرَّجلين يا جلالة الملكة».

ردَّت: «هذان الرَّجلان سيُساعِداني على الفوز بتاجي. زارو فاحش الثَّراء، وپيات پري...».

قاطَعها الفارس بفظاظة: «... يتظاهَر بالقوَّة». على سُترته الخضراء الدَّاكنة وقفَ دُب عائلة مورمونت الأسود الشَّرس على قائمتيه الخلفيَّتين، ولم يبدُ چورا أقلَّ ضراوةً منه وقد عبسَ في وجوه المتزاحمين في السُّوق. «رأيي ألَّا نبقى هنا طويلًا يا مولاتي. رائحة هذه المكان ذاتها لا تروقني».

ابتسمَت داني وقالت: «لعلَّك تشمُّ رائحة الجِمال، أمَّا الكارثين أنفسهم فروائحتهم زكيَّة في أنفي».

- «أحيانا يُستخدَم الزَّكي من الرَّوائح لإخفاء النَّتن منها».

قالت داني لنفسها: دُبِّي الكبير. إنني ملكته، لكني سأظلُّ بالنِّسبة إليه ديسمًا صغيرًا كذلك، وسيحميني دائمًا. أشعرَها هذا بالأمان، لكنه أمان لا يخلو من حُزن، وتمنَّت لو أنها تستطيع أن تُحِبَّه أكثر.

عرضَ زارو زون داكُوس عليها ضيافة بيته ما دامَت في المدينة، وكانت تتوقَّع بناءً فخمًا، لكنها لم تتصوَّر حقًّا هذا القصر الأوسع من بلدة سوقٍ كاملة. إنه يجعل ضيعة الماچستر إليريو في پنتوس تبدو كزريبة خنازير. وعدَ زارو بأن بيته يتَّسع لراحة قومها كلهم بالإضافة إلى خيولهم، وقد ابتلعَهم المكان ابتلاعًا بالفعل، وخُصِّص لها جناح كامل، حيث ستحظى بحدائقها الخاصَّة، وحوض سباحةٍ من الرُّخام، وبُرجٍ لمراقَبة النُّجوم، ومتاهةٍ من تصميم الدجَّالين، بينما سيُلَبِّي العبيد حاجاتِها كافَّة. في مسكنها الخاص، كانت الأرضيَّة من الرُّخام الأخضر، وعلى الجُدران تنسدل معلَّقات من الحرير الملوَّن الذي يتموَّج لامعًا كلما هَبَّ النَّسيم.

قالت لزارو زون داكُوس: «أنت شديد الكرم».

- «لا هديَّة تغلو على أمِّ التَّنانين». زارو رجل أنيق كسول الملامح، أصلع الرَّأس ولديه أنف معقوف كبير مزيَّن بقِطعٍ صغيرة من الياقوت والأوپال واليَشب. «غدًا ستتناوَلين وليمةً من الطَّواويس ولسان طائر القُبَّرة، وتسمعين موسيقى تليق بأجمل النِّساء. سيأتي إليكِ الثَّلاثة عشر ليُقَدِّموا فروض الطَّاعة، ومعهم كلُّ عُظماء كارث».

فكَّرت داني: كلُّ عُظماء كارث سيأتون لرؤية تنانيني، لكنها شكرَت زارو على لُطفه قبل أن تصرفه، ثم استأذنَ پيات پري بالانصراف متعهِّدًا أن يلتمس من الخالدين أن تَمثُل أمامهم، وأضافَ: «إنه شَرف نادر كالثُّلوج في الصَّيف»، وقبل أن يُغادِر، لثَمَ قدميها الحافيتين بشفتيه الزَّرقاوين الشَّاحبتين، وألحَّ أن تتقبَّل منه هديَّةً عبارة عن برطمانٍ يحوي دهانًا أقسمَ أنه سيجعلها ترى أرواحًا في الهواء.

كانت كويث آسرة الظِّلال آخِر من غادرَ من السَّاعين إليها، وقالت من وراء القناع الأحمر المصقول: «حذارِ».

- «ممَّن؟».

- «من الجميع. سيأتون ليل نهار ليروا الأعجوبة التي وُلِدَت في هذا العالم من جديد، وسيشتهونها، فالتَّنانين هي النَّار وقد استحالَت لحمًا، والنَّار قوَّة».

عندما رحلَت كويث بدورها، قال السير چورا: «إنها تقول الحق يا مولاتي... وإن كانت لا تروقني أكثر من الآخَرين».

قالت: «لستُ أفهمها». لقد أمطرَها ﭘيات وزارو بالوعود بمجرَّد أن رأوا تنانينها، وأعلنا نفسيهما خادميها المخلصيْن في كلِّ شيء، بينما لم تنَل من كويث غير كلمةٍ غامضة، كما أنها منزعجة من أنها لم ترَ وجه المرأة إطلاقًا. تذكَّري ميري ماز دور، تذكَّري الخيانة. التفتَت إلى خيَّالة دمها قائلةً: «ستُعَيِّن حَرسًا منا ما دمنا هنا. لا تسمحوا لأحدٍ بدخول هذا الجناح دون إذني، واحرصوا على وضْع حراسةٍ كافية على التَّنانين طول الوقت».

قال آجو: «كما تأمرين يا ﮔاليسي».

تابعَت: «إننا لم نرَ من كارث غير البقاع التي أرادَ ﭘيات ﭘري أن نراها. راﮔارو، اذهب وألقِ نظرةً على البقيَّة، وأخبِرني بما تجده. خُذ رجالًا أقوياء معك، ونساءً كذلك، ليَدخُلن حيث يُمنَع دخول الرِّجال».

قال راﮔارو: «كلامكِ أوامر يا دم دمي».

- «سير چورا، اذهب إلى الميناء واعرف ماهية السُّفن الرَّاسية. لقد مضى نِصف عام منذ بلغَتني أيُّ أخبارٍ من الممالك السَّبع، ولربما تُنعِم الآلهة علينا برُبَّانٍ صالحٍ من وستروس لديه سفينة تحملنا إلى الوطن».

قطَّب الفارس وجهه قائلًا: «تلك ليست نعمةً، لأن الغاصِب سيَقتُلك بكلِّ تأكيد»، ودَسَّ إبهامه في حزام سيفه مضيفًا: «مكاني هنا إلى جانبكِ».

- «چوجو أيضًا يستطيع أن يَحرُسني، بينما تُجيد أنت لُغاتٍ أكثر من خيَّالة دمي، والدوثراكي لا يثقون بالبحار ومَن يُبحِرون فيها. أنت الوحيد الذي يستطيع خدمتي في هذا الصَّدد. تجوَّل بين السُّفن وتكلَّم مع أطقُمها، اعرف من أين أتوا وإلى أين هُم ذاهبون، ونوع الرِّجال الذين يقودونهم».

أومأ مورمونت برأسه، وعلى مضضٍ قال: «كما تقولين يا مولاتي».

عندما خرجَ الرِّجال كلهم، خلعَت وصيفتاها ثيابها الحريريَّة التي لوَّثها السَّفر، وخرجَت داني إلى حوض السِّباحة الرُّخامي المستظل بظِلِّ رُواقٍ معمَّد، حيث وجدَت المياه باردةً على نحوٍ منعش، كما حفلَ الحوض بأسماكٍ ذهبيَّة دقيقة أخذَت تُعَضعِض بشرتها بفضولٍ وجعلَتها تضحك.

أشعرَها بالطُّمأنينة أن تُغلِق عينيها وتطفو على سطح الماء، عالمةً أنها تستطيع الرَّاحة قدر ما شاءَت، وتساءلَت إن كانت قلعة إجون الحمراء تحوي حوضًا كهذا، وحدائق غنَّاء تعبق بالخُزامى والنَّعنع. من المؤكَّد أنها تضمُّ كلَّ هذه الأشياء. ڤسيرس قال إن الممالك السَّبع أبهى من أيِّ مكانٍ آخَر في العالم.

أصابَها التَّفكير في الوطن بالانزعاج. لو عاشَ شمسها ونجومها، لكان قد عبرَ المياه المسمومة بگالاساره واكتسحَ أعداءها، لكن قوَّته فارقَت الحياة. صحيحٌ أن خيالة دمها بقوا، وأنهم أقسَموا على الولاء لها مدى الحياة، وأنهم بارعون في فنون القتال، لكن على طريقة سادة الخيول فحسب، فالدوثراكي يجتاحون المُدن وينهبون الممالك، لكنهم لا يَحكُمونها، وداني لا ترغب في تحويل كينجز لاندنج إلى أطلال محترقة ملأى بأرواح الموتى القلقة، فقد شربَت ما يكفي من الدُّموع بالفعل. أريدُ أن أجعل مملكتي جميلةً، أن أملأَها بالرِّجال السِّمان والفتيات الحسناوات والأطفال الضَّاحكين. أريدُ أن يبتسم شعبي عندما يراني أمرُّ، مثلما كان يبتسم لأبي كما قال ڤسيرس.

لكن قبل أنَ يتسنَّى لها ذلك، عليها أن تغزو أولًا.

مورمونت قال: الغاصِب سيقتُلك بكلِّ تأكيد، وروبرت قتلَ أخاها الباسل ريجار، ثم عبرَ واحد من مخلوقاته بحر الدوثراكي ليَقتُلها وابنها الذي لم يولَد. يقولون إن روبرت قويٌّ كالثِّيران ومقدام في المعارك، إنه رجل لا يهوى شيئًا أكثر من الحرب، ومعه يقف اللوردات العظام الذين لقَّبهم أخوها بكلاب الغاصِب، إدارد ستارك ذي القلب الجليدي، وولدا لانستر الذَّهبيَّان، الأب والابن، بثرائهما وسطوتهما وخيانتهما.

مِن أين لها الأمل في الإطاحة برجالٍ كهؤلاء؟ لمَّا كان گال دروجو حيًّا، كان الرِّجال يرتجفون ويُغدِقون عليه الهدايا ليتَّقوا غضبته، وإذا لم يفعلوا، كان يأخذ مُدنهم وثرواتهم وزوجاتهم وكلَّ ما يملكون، لكن گالاسار دروجو كان ضخمًا، بينما گالاسارها هي ضئيل. لقد تبعها قومها عبر القَفر الأحمر وهي تُطارِد مذنَّبها، وسيتبعونها عبر المياه المسمومة كذلك، لكنهم لن يكْفوا. لقد آمنَ ڤسيرس بأن البلاد ستنتفض لنُصرة الملك الشَّرعي... لكن ڤسيرس كان أحمق، والحمقى يُؤمِنون بأشياء حمقاء.

جعلَتها شكوكها ترتجف، وأحسَّت داني فجأةً أن الماء أبرد من اللَّازم، وتضايقَت من وخز الأسماك الدَّقيقة لبشرتها، فنهضَت وخرجَت من الحوض مناديةً: «إيري، چيكوي».

فيما جفَّفت الوصيفتان جسدها وألبسَتاها ثوبًا من الحرير الرَّملي، دارَت أفكار داني حول الثَّلاثة الذين سعوا إليها في مدينة العظام. النَّجم النَّازف قادَني إلى كارث لسببٍ ما. سأجدُ ما أحتاجه هنا، إذا تحلَّيتُ بالقوَّة لأخذ ما يُعرَض عليَّ، والحكمة لتحاشي الشِّراك والمصايد. إذا أرادَتني الآلهة أن أغزو، فسترُسِل لي علامةً... أمَّا إذا لم ترُد... إذا لم ترُد...

كان المساء يوشك على المجيء وداني تُطعِم تنانينها، عندما دخلَت إيري من بين السَّتائر الحرير لتُخبرها بأن السير چورا عادَ من الميناء، وليس وحده، فردَّت بفضول: «دعيه يَدخُل مع من أتى في صُحبته».

كانت جالسةً على كومةٍ من الوسائد عندما دخلا، ورأت أن الرَّجل الذي جاءَ مع چورا يرتدي معطفًا من الرِّيش الأخضر والأصفر، وبشرته كالكهرمان الأسود. قال الفارس: «جلالة الملكة، أقدِّمُ لك كاهورو مو، رُبَّان «ريح القِرفة» القادمة من بلدة الأشجار الطَّويلة».

ركعَ الرَّجل الأسود قائلًا: «شَرف عظيم لي يا مولاتي». لم يَقُلها بلُغة جُزر الصَّيف التي تجهلها داني، وإنما بالڤاليريَّة المائعة التي يتحدَّثونها في المُدن الحُرَّة التِّسع.

أجابَت داني باللُّغة نفسها: «الشَّرف لي يا كاهورو مو. هل أتيت من جُزر الصَّيف؟».

- «هذا صحيح يا جلالة الملكة، لكن قبل ذلك، منذ أقلِّ من نِصف عام، رسونا في البلدة القديمة، ومن هناك أتيتكِ بهديَّةٍ ثمينة».

- «هديَّة؟».

- «هديَّة في صورة أخبار يا أمَّ التَّنانين ووليدة العاصفة. أقولُ لك صدقًا إن روبرت باراثيون ماتَ».

كان الغَسق يبسط أجنحته فوق كارث خارج الجُدران، لكن في قلب داني أشرقَت الشَّمس، فردَّدت: «ماتَ؟»، وفي حِجرها أطلق دروجون الأسود

فحيحًا وارتفعَ الدُّخان الباهت أمام وجهها كحجاب. «أأنت واثق؟ الغاصِب ماتَ؟».

- «هكذا يقولون في البلدة القديمة، وفي دورن، وفي لِيس، وكلِّ الموانئ الأخرى التي رسونا فيها».

أرسلَ لي نبيذًا مسمومًا، لكني حيّة وهو ميت. سألَته: «كيف ماتَ؟»، وعلى كتفها خفقَ ڤسيريون الشَّاحب بجناحين بلون القشدة محرِّكًا الهواء.

- «مزَّقه خنزير برِّي متوحِّش وهو يصطاد في غابة الملوك، أو أن هذا ما سمعته في البلدة القديمة. يقول آخَرون إن ملكته خانَته، أو أخاه، أو اللورد ستارك الذي كان يده، لكن الحكايات كلها تتَّفق على أن الملك روبرت ماتَ وفي قبره بالفعل».

لم ترَ داني وجه الغاصِب قَطُّ، لكن لا يكاد يوم يمرُّ دون أن تُفَكِّر فيه، فظِلُّه الشَّاسع ساقطٌ عليها منذ ساعة ميلادها، حينما جاءَت وسط الدَّم والعاصفة الهائجة إلى دنيا لم يَعُد لها فيها مكان، والآن يرفع هذا الغريب الأبنوسي الظِّلَّ عنها.

قال السير چورا: «الصَّبي يجلس على العرش الحديدي الآن».

عقَّب كاهورو مو: «الملك چوفري يَحكُم، لكن السُّلطة الحقيقيَّة في يد عائلة لانستر. لقد فرَّ أخوا روبرت من كينجز لاندنج، ويُقال إنهما ينويان المطالَبة بالتَّاج، كما أن اليد سقطَ كذلك، اللورد ستارك صديق الملك روبرت. لقد اعتقَلوه بتهمة الخيانة».

قال چورا ساخرًا: «ند ستارك خائن؟ مستحيل. سيحلُّ الصَّيف الطَّويل من جديد قبل أن يُدَنِّس هذا الرَّجل شَرفه الغالي».

قالت داني: «أيُّ شَرفٍ هذا؟ لقد خانَ ملكه الحقيقي، تمامًا مِثل آل لانستر». سرَّها أن تعرف أن كلاب الغاصِب يتصارَعون، وإن لم تندهش، فالشَّيء نفسه حدثَ بحذافيره عندما ماتَ دروجو، ومزَّق كالاساره العظيم نفسه إلى أشلاء. قالت لرجل جُزر الصَّيف: «أخي ماتَ كذلك، ڤسيرس الذي كان الملك الشَّرعي. السيِّد زوجي كال دروجو قتلَه بتاجٍ من الذَّهب

الذَّائب». لو أن أخاها كان أكثر حكمةً، فهل كان ليُدرِك أن القصاص الذي تمنَّاه من الآلهة قريب لهذا الحد؟

- «إنني حزين من أجلكِ يا أمَّ التَّنانين، ومن أجل وستروس التي تنزف محرومةً ملكها الشَّرعي».

تحت أصابع داني الرَّقيقة، حدَّق ريجال الأخضر في الغريب بعينين من الذَّهب المصهور، وعندما فتحَ فمه لمعَت أسنانه كإبرٍ سوداء. سألَت: «متى تعود سفينتك إلى وستروس أيها الرُّبَّان؟».

- «أخشى أننا لن نعود قبل عام أو يزيد، فمِن هنا ستُبحِر «ريح القِرفة» شَرقًا لتقوم بدورة التِّجارة في أنحاء بحر اليَشب».

قالت داني شاعرةً بخيبة الأمل: «مفهوم. أتمنَّى لك ريحًا مواتيةً وتجارةً رابحةً إذن. لقد جئتني بهديَّةٍ نفيسة».

- «وقد تلقَّيتُ المقابل أضعافًا يا مولاتي».

تساءلَت حائرةً: «كيف؟».

أجابَ بعينين تتألَّقان: «لقد رأيتُ التَّنانين».

قالت ضاحكةً: «آملُ أن تراها أكثر ذات يوم. تعالَ إليَّ في كينجز لاندنج عندما أجلسُ على عرش أبي، وستنال مني مكافأةً سخيَّةً».

وعدَها رجل جُزر الصَّيف بأنه سيفعل، وطبعَ قُبلةً خفيفةً على أصابعها وهو يستأذن بالانصراف، ثم صحبَته چيكوي إلى الخارج، بينما ظَلَّ السير چورا مورمونت، وقال لمَّا أصبحا وحدهما: «گاليسي، لو كنتُ مكانكِ لما تكلَّمتُ بهذا الانفتاح عن خُططي، فهذا الرَّجل سيَنشُر الحكاية أينما ذهبَ».

قالت: «دَعه يَنشُرها، دَع العالم كله يعرف مرامي. لقد ماتَ الغاصِب، فما الفارق؟».

أجابَها السير چورا بنبرةٍ تحذيريَّة: «ليست كلُّ حكايات البحَّارة حقيقيَّة، وحتى لو ماتَ روبرت حقًّا، فابنه يَحكُم مكانه، وهذا لا يُغيِّر شيئًا حقًّا».

قالت داني: «بل يُغيِّر كلَّ شيء»، ونهضَت بحركةٍ حادَّة، فاعتدلَ تنانينها وبسَطوا أجنحتهم، وخفقَ دروجون وتسلَّق المدخل المقنطَر غارسًا فيه أنيابه حتى بلغَ العتبة العُليا، بينما تسكَّع الآخَران على الأرض وأطراف أجنحتهما

تحتكُّ بالرُّخام. «في السَّابق كانت الممالك السَّبع مِثل گاالاسار دروجو، مئة ألفٍ وحَّدتهم قوَّته، والآن انفطرَ هذا الرَّابط كما حدثَ مع الگاالاسار بَعد موت گالي».

- «لطالما تقاتلَ اللوردات الكبار. أخبِريني من فازَ وسأخبركِ ما يعنيه هذا. گاليسي، الممالك السَّبع لن تَسقُط في يديكِ كثمار الخوخ النَّاضجة على الشَّجر. سوف تحتاجين أسطولًا، وذهبًا، وجُندًا، وتحالُفات...».

قاطعَتهُ قائلةً: «كلُّ هذا أعيه»، وأخذَت يديه بين يديها ورفعَت عينيها إلى عينيه الدَّاكنتين الشَّكَّاكتين. أحيانًا يُفَكِّر فيَّ كأني طفلة يجب أن يحميها، وأحيانًا كامرأةٍ يرغب في أن يُطارِحها الغرام، لكن هل يراني ملكته حقًّا؟ «لستُ الفتاة الخائفة التي التقيتَها في پنتوس. أي نعم لا يتعدَّى عُمري الخمسة عشر عامًا، لكني عجوز كحيزبونات الدوش گالين، وصغيرة كتنانيني يا چورا. لقد حملتُ طفلًا، وأحرقتُ گالًا، وعبرتُ القَفر الأحمر وبحر الدوثراكي، ودمائي دماء التنِّين».

قال بعناد: «كَما كانت دماء أخيكِ».

- «أنا لستُ ڤسيرس».

قال: «نعم، لستِ هو. أعتقدِ أن فيكِ من ريجار أكثر من ڤسيرس، لكن حتى ريجار نفسه كان قابلًا للقتل، وروبرت أثبتَ هذا في معركة الثَّالوث دون أن يحتاج أكثر من مطرقةٍ حربيَّة. حتى التَّنانين تموت».

شبَّت على أصابع قدميها ولثمَته برفقٍ على خدِّه غير الحليق، وقالت: «التَّنانين تموت، لكن قاتليها يموتون كذلك».

بران

تحرَّكت ميرا بحذرٍ في دائرة، وقد تدلَّت شبكتها من يدها اليُسرى، بينما وازنَت بيُمناها رُمح صيد الضَّفادع الرَّفيع ذا الشُّعب الثَّلاث، وتابعَها سَمر بعينيه الذَّهبيَّتين وهو يدور رافعًا ذيله الطَّويل، ويُراقِب، ويُراقِب...

صاحَت الفتاة والرُّمح يندفع: «ياي!»، وانزلقَ الذِّئب يسارًا ووثبَ قبل أن تتمكَّن من سحْب الرُّمح إلى الوراء، فألقَت الشَّبكة التي انحلَّت عُقدها في الهواء أمامها، لتلتفَّ حول سَمر الذي ألقَته الوثبة داخلها مباشرةً، وجرَّها معه وهو يرتطم بصدر ميرا، ليُسقِطها على ظَهرها ويطير الرُّمح من يدها. خفَّف الكلأ الرَّطب سقطتها، وإن أفرغَت رئتاها كلَّ ما فيهما من هواءٍ بصوت «أووف» عالٍ، ثم جثمَ الذِّئب فوقها.

وصاحَ بران بجذلٍ ظافر: «خسرتِ».

قال أخوها چوچن: «بل كسبَت، سَمر وقعَ في الشَّرك».

رأى بران أنه محقٌّ، إذ أخذَ سَمر يتقلَّب بعُنفٍ ويُزَمجِر محاولًا تحرير نفسه من الشَّبكة، فقط ليُوَرِّط نفسه فيها أكثر، خصوصًا أنه لا يستطيع تمزيقها بأسنانه، فقال بران: «أخرِجيه».

ضاحكةً، طوَّقت ابنة ريد الذِّئب العالق في الشَّبكة بذراعيها وتدحرجَت معه، فأطلقَ سَمر أنينًا مثيرًا للشَّفقة وقوائمه تَركُل الحبال التي قيَّدته، ثم ركعَت ميرا إلى جواره وحلَّت حبلين محبوكيْن، وسحبَت جزءًا من رُكن، وشدَّت هنا وهناك بحركاتٍ رشيقة بأصابعها، وفجأةً كان الذِّئب الرَّهيب يتواثَب حُرًّا.

قال بران: «سَمر، إليَّ»، ثم عقَّب: «تفرَّجي»، قبل أن يرتطم به الذِّئب

بلحظةٍ واحدة، فتمسَّك به بكلِّ قوَّته وهو يَجُرُّه على الكلأ، وتصارعَ الاثنان وتدحرجا وتشبَّثا ببعضهما بعضًا، أحدهما يزوم وينبح، والثَّاني يضحك، وفي النِّهاية استلقى بران فوق الذِّئب الرَّهيب الذي وسَّخه الوحل، وقال لاهثًا: «ذئب طيِّبَ»، فلعقَ سَمر أُذنه.

هزَّت ميرا رأسها متسائلةً: «ألا يغضب أبدًا؟».

أجابَ بران: «ليس مني»، وشَدَّ الذِّئب من أُذنيه، فنهشَ سَمر الهواء أمام وجهه بشراسة، لكن على سبيل اللَّعب لا أكثر، فواصلَ بران: «أحيانًا يُمَزِّق ثيابي، لكنه لم يُرِق الدَّم قَطُّ».

- «تعني أنه لم يُرِق دمك أنت، فلو أنه تملَّص من شبكتي...».

- «لم يكن ليُؤذيكِ، فهو يعرف أني أعزُّكِ». كان جميع اللوردات والفُرسان الآخَرين قد رحلوا عقب احتفال الحصاد بيوم أو اثنين، باستثناء الأخوين ريد اللذين بقيا وأصبحا رفيقيَّ بران الدَّائميْن. كان چوچن شديد الرَّزانة، حتى إن العجوز نان لقَّبته بالجَدِّ الصَّغير، بينما تُذَكِّر ميرا بران بأخته آريا، فهي لا تخشى أن تتَّسخ، وتُجيد العدْو والقتال والتَّسديد كأيِّ صبي، وإن كانت تكبُر آريا عُمرًا، تكاد تَبلُغ عامها السَّادس عشر لتصير امرأةً ناضجةً، وكلا الأخوان أكبر من بران في الحقيقة، على الرغم من أن يوم ميلاده التَّاسع جاءَ أخيرًا ومضى، لكنهما لا يُعامِلانه كطفلٍ إطلاقًا.

قال: «ليتكما كنتما ربيبينا بدلًا من الوالدرين»، ثم بدأ يُكافِح للزَّحف صوب أقرب شجرة، فكان من غير اللَّائق الاكتفاء بمراقَبته يجرُّ قدميه ويتلوَّى، لكن عندما تحرَّكت ميرا لترفعه، قال لها: «لا، لا تُساعِديني»، وتدحرجَ بحركةٍ خرقاء ودفعَ نفسه إلى الخلف معتمدًا على قوَّة ذراعيه، إلى أن جلسَ وظَهره إلى جذع شجرة ردرار عالية، ثم قال وقد تمدَّد سَمر إلى جانبه ووضعَ رأسه في حِجره: «أرأيتِ؟ كما قلتُ لكِ»، ثم أردفَ وهو يحكُّ الذِّئب الرَّهيب بين الأذنين: «لم أعرف أحدًا يُقاتِل بشبكةٍ من قبل. هل علَّمكِ قيِّم السِّلاح في قلعتكم القتال بالشِّباك؟».

- «أبي علَّمني، فليس لدينا فُرسان في القلعة الرَّماديَّة، ولا قيِّم سلاح أو مِايستر».

- «ومَن يُعنى بغِدفانكم إذن؟».

أجابَت مبتسمةً: «الغِدفان لا تستطيع العثور على قلعة المياه الرَّماديَّة، تمامًا مِثل أعدائنا».

- «ولِمَ لا؟».

- «لأنها تتحرَّك».

لم يسمع بران من قبل قَطُّ بشيءٍ كقلعةٍ متحرِّكة، فرمقَها مرتابًا، وإن لم يستطِع أن يستَقرئ من ملامحها إن كانت تُعابِثه أم لا، فقال لها: «أتمنَّى أن أراها. هل تحسبين أن السيِّد والدكِ سيسمح لي بالزِّيارة بَعد الحرب؟».

- «أنت على الرَّحب والسِّعة يا سموَّ الأمير، حينها أو الآن».

ردَّد بران الذي أمضى حياته كلها في وينترفل ويتوق لرؤية البقاع البعيدة: «الآن؟ يُمكنني أن أسأل السير رودريك عندما يعود». كان الفارس العجوز قد ذهبَ شَرقًا، بغية أن يُحاول تصحيح الأوضاع المضطربة هناك، بَعد أن بدأ ابن رووس بولتون غير الشَّرعي المتاعب بالقبض على الليدي هورنوود فور عودتها من احتفال الحصاد، وتزوَّجا في اللَّيلة نفسها على الرغم من أنه في سِنِّ أولادها، ثم استولى اللورد ماندرلي على قلعتها، ليحمي أملاك عائلة هورنوود من آل بولتون كما زعمَ في رسالته، ومع ذلك قاربَت غضبة السير رودريك منه غضبته من النَّغل. «قد يَترُكني السير رودريك أذهب، أمَّا المِايستر لوين فلن يُوافِق أبدًا».

حدجَه چوچن ريد الجالس متقاطع السَّاقين تحت شجرة الويروود بنظرةٍ مكفهرَّة، وقال: «من الخير أن تُغادِر وينترفل يا بران».

- «حقًّا؟».

- «نعم، وعاجلًا قبل آجلًا».

قالت ميرا: «أخي يتمتَّع بالبصيرة الخضراء، يَحلُم بأشياء لم تَحدُث بعدُ، لكنها تتحقَّق أحيانًا».

بادرَها أخوها: «ليس هناك «أحيانًا» يا ميرا»، وتبادلَ الاثنان نظرةً تقاسمَت حُزنه وتحدِّيها.

قال بران: «أخبِرني بما سيَحدُث».

رَدَّ چوچن: «سأفعلُ إذا حكيت لي عن أحلامك».

خيَّم صمت مطبِق على أيكة الآلهة، فلم يسمع بران غير حفيف أوراق الأشجار وصوت المياه التي يَنثُرها هودور بعيدًا في الينابيع السَّاخنة، ووجدَ أفكاره تتَّجه إلى الرَّجل الذَّهبي والغُراب ذي الأعيُن الثَّلاث، متذكِّرًا العظام تنسحق بين فكَّيه ومذاق الدَّم النُّحاسي على لسانه، ثم إنه قال: «لستُ أحلم. المِايستر لوين يسقيني عقاقير النَّوم».

- «وهل تُساعِدك؟».

- «أحيانًا».

قالت ميرا: «وينترفل كلها تعرف أنك تصحو ليلًا تَصرُخ وتتصبَّب عَرقًا يا بران. النِّساء يتكلَّمن عند البئر، وكذا الحُرَّاس في قاعتهم».

وقال چوچن: «أخبِرنا بما يُخيفك إلى هذا الحَد».

- «لا أريدُ، ثم إنها مجرَّد أحلام على كلِّ حال. المِايستر لوين قال إن الأحلام قد تعني أيَّ شيء أو لا شيء على الإطلاق».

قالت ميرا: «أخي يرى أحلامًا عاديَّةً كغيره من الصِّبية، وتلك الأحلام قد تُفَسَّر بأيِّ شكل، لكن الأحلام الخضراء مختلفة».

لچوچن عينان بلون الطُّحلب، وأحيانًا عندما يتطلَّع إليك، فإنه يبدو كأنه يرى شيئًا آخَر... مِثل الآن وهو يقول لبران: «رأيتُ في منامي ذئبًا مجنَّحًا مقيَّدًا إلى الأرض بأغلالٍ من الحجر الرَّمادي. كان حُلمًا أخضر، فعرفتُ أنه حقيقي. كان هناك غُرابٌ يُحاوِل تكسير الأغلال بمنقاره، إلَّا أن الحجر كان شديد الصَّلادة، فلم يستطِع المنقار غير أن يخدشه».

- «أكان للغُراب ثلاث أعيُن؟».

أومأَ چوچن برأسه إيجابًا، فرفعَ سَمر رأسه من حِجر بران، ورمقَ بعينيه الذَّهبيَّتين الدَّاكنتين ولد الأوحال الذي قال: «في طفولتي كدتُ أموتُ بحُمَّى المستنقعات، وعندئذٍ أتاني الغُراب».

اندفعَ بران يقول: «لقد أتاني بَعدما سقطتُ، وظللتُ غائبًا عن الوعي فترةً طويلةً. قال إن عليَّ أن أطير أو أموت، ثم استيقظتُ مكسورًا ولم أطِر على الإطلاق».

قالت ميرا: «يُمكنك أن تفعلها إذا أردت»، والتقطَت شبكتها وهزَّتها لتنحلَّ عُقدها الأخيرة، ثم بدأت تُسَوِّيها في طيَّاتٍ فضفاضة.

قال چوچن: «أنت الذِّئب المجنَّح يا بران. لم أكن متأكِّدًا في بداية مجيئنا، لكني متأكِّد الآن. الغُراب أرسلَنا إلى هنا لنُحَطِّم أغلالك».

- «أهو في القلعة الرَّماديَّة؟».

- «لا، الغُراب في الشَّمال».

- «على «الجِدار»؟». لطالما أرادَ بران أن يرى «الجِدار»، لا سيَّما أن أخاه النَّغل چون هناكَ الآن، رجل في حَرس اللَّيل.

أجابَت ميرا ريد وهي تُعَلِّق الشَّبكة في حزامها: «وراء «الجِدار». السيِّد والدنا أرسلَنا إلى وينترفلٍ عندما أخبرَه چوچن بحُلمه».

سألَ بران: «كيف أحطِّمُ الأغلال يا چوچن؟».

- «افتح عينك».

- «إنهما مفتوحتان، ألا ترى؟».

أجابَ چوچن مشيرًا: «اثنتان فقط مفتوحتان. واحد، اثنان».

- «وأنا لا أملكُ غير اثنتين!».

قال چوچن بطريقة كلامه المتمهِّلة الرَّفيقة: «بل تملك ثلاثًا. الغُراب أعطاك العين الثَّالثة، لكنك تَرفُض أن تفتحها. بعينين ترى وجهي، وبثلاث يُمكنك أن ترى قلبي. بعينين ترى شجرة البلُّوط هذه، وبثلاث يُمكنك أن ترى الجوزة التي نمَت الشَّجرة منها والبقايا التي ستصيرها ذات يوم. بعينين لا ترى أبعد من أسوارك، وبثلاث يُمكنك أن تَنظُر جَنوبًا إلى بحر الصَّيف وشَمالًا إلى ما وراء «الجِدار»».

نهضَ سَمر، بينما ارتسمَت ابتسامة متوتِّرة على وجه بران وهو يقول: «لا أحتاجُ إلى النَّظر بعيدًا هكذا. لقد سئمتُ الكلام عن الغِربان. لنتكلَّم عن الذِّئاب، أو الأسود الزَّواحف. هل اصطدتِ أحدها من قبل يا ميرا؟ إنها لا تعيش في هذه الأنحاء».

التقطَت ميرا رُمح صيد الضَّفادع من بين الشُّجيرات مجيبةً: «تعيش في الماء، في النُّهيرات البطيئة والمستنقعات العميقة...».

قاطَعها أخوها سائلًا بران: «هل حلمت بأسدٍ زاحف؟».
- «كلا. قلتُ لك إنني لا أريدُ...».
- «هل حلمت بذئب؟».
قال بران وقد بدأ الغضب ينتابه: «لستُ مضطرًّا لأن أحكي لك عن أحلامي. إنني الأمير، ابن ستارك في وينترفل».
- «هل كان سَمر؟».
- «صمتًا!».
- «ليلة مأدبة الحصاد حلمت أنك سَمر في أيكة الآلهة، أليس كذلك؟».
صاحَ بران: «كفى!»، فانسلَّ سَمر تجاه شجرة الويروود وقد كشفَ أسنانه.
تجاهَله چوچن ريد، وتابعَ: «عندما لمستُ سَمر، شعرتُ بك في داخله، تمامًا مِثلما أنت في داخله الآن».
- «لم يكن بإمكانك أن تفعل، لأني كنتُ نائمًا في سريري».
- «كنت في أيكة الآلهة والرَّمادي يكتنفك».
- «كان مجرَّد حُلم سيِّئ...».
نهضَ چوچن قائلًا: «لقد شعرتُ بك، شعرتُ بك تَسقُط. أهذا ما يُخيفك؟ السُّقوط؟».
السُّقوط، والرَّجل الذَّهبي، شقيق الملكة، هو أيضًا يُخيفني، لكن السُّقوط يُخيفني أكثر. غير أن بران لم يَبُح بأفكاره، فكيف يستطيع؟ إنه لم يقوَ على إخبار السير رودريك أو المِايستر لوين حتى، ولا يستطيع أيضًا أن يُخبر الأخوين ريد. عساه ينسى إذا ظَلَّ لائذًا بالصَّمت، فهو لم يرغب في أن يتذكَّر إطلاقًا، وقد لا يكون ما يتذكَّره صحيحًا من الأساس.
سألَه چوچن بهدوء: «هل تَسقُط كلَّ ليلةٍ يا بران؟».
خرجَت من حَلق سَمر زمجرة غاضبة واطئة خالية تمامًا من حِسِّ اللَّعب، وتقدَّم مكشوف الأسنان متَّقد العينين، فتقدَّمت ميرا بدورها لتحول بين الذِّئب وأخيها رافعةً رُمحها، وقالت: «اجعله يتوقَّف يا بران».
- «چوچن يُثير غضبه».
فضَّت ميرا شبكتها، بينما قال أخوها: «إنه غضبك أنت يا بران، وخوفك».

- «كلا، أنا لستُ ذئبًا»، قال بران على الرغم من أنه كان يعوي مع الذِّئبين ليلًا وعرفَ طَعم الدَّم في أحلامه.

- «سَمر جزء منك، وأنت جزء منه. إنك تعرف هذا يا بران».

اندفعَ سَمر إلى الأمام مسرعًا، لكن ميرا سدَّت الطَّريق في وجهه ملوِّحةً برُمحها ثُلاثي الشُّعب، فانزلقَ الذِّئب جانبًا ودارَ متحيِّنًا فُرصة الهجوم، والتفتَت ميرا تُواجِهه قائلةً: «اجعله يرجع يا بران».

صاحَ بران: «سَمر! سَمر، إليَّ!»، وخبطَ براحة يده المفتوحة على لحم فخذه، فاستشعرَ وخزًا في يده، بينما لم تَشعُر ساقه الميتة بشيء.

انقضَّ الذِّئب الرَّهيب ثانيةً، وثانيةً اندفعَ رُمح ميرا، وتفاداه سَمر ودارَ متراجعًا، ثم صدرَ حفيف من وسط الشُّجيرات، وخرجَ جسم أسود رشيق من وراء شجرة الويروود كاشفًا أسنانه. كانت الرَّائحة قويَّةً، واشتمَّ أخوه غضبه. أحسَّ بران بالشُّعيرات تنتصب على مؤخِّرة عُنقه، وقد وقفَت ميرا إلى جوار أخيها وعلى جانبيهما الذِّئبان، وصاحَت: «بران، اجعلهما يرجعان!».

- «لا أستطيعُ!».

- «چوچن، تسلَّق الشَّجرة».

- «لا داعي. اليوم ليس يوم مماتي».

صرخَت فيه: «تسلَّق!»، فبدأ أخوها يصعد مستخدمًا ملامح الوجه المحفور كدعامات، وانقضَّ الذِّئبان معًا، فتخلَّت ميرا عن الشَّبكة والرُّمح، ووثبَت إلى أعلى متمسِّكةً بالغُصن الذي يعلوها، ليُطبِق فَكَّا شاجي على الهواء تحت كاحلها مباشرةً وهي تتأرجَح إلى أعلى لتقف فوق الغُصن. جلسَ سَمر على قائمتيه الخلفيَّتين وراحَ يعوي، بينما افترسَ شاجيدوج الشَّبكة ومزَّقها بأسنانه.

حينئذٍ فقط تذكَّر بران أنهم ليسوا وحدهم، فكوَّر يديه حول فمه صائحًا: «هودور! هودور! هودور!». كان يرتجف خوفًا، وبشكلٍ ما يحسُّ بالخزي أيضًا، فقال لصديقيه العالقيْن فوق الشَّجرة: «لن يمسَّا هودور بأذى».

مرَّت لحظات قليلة قبل أن يسمعوا دندنةً بلا لحن، وظهرَ هودور نِصف

عارٍ وملوَّث بوحل الينابيع السَّاخنة، لكن بران لم يَشعُر بمِثل هذا السُّرور لرؤيته من قبل، وقال: «هودور، ساعِدني، اطرُد الذِّئبين، اطرُدهما».

لبَّى هودور الأمر بمرحٍ وقد أخذَ يُلَوِّح بذراعيه ويدقُّ الأرض بقدميه صائحًا: «هودور، هودور»، بينما يجري نحو ذئب ثم الثَّاني، فانسحبَ شاجيدوج أولًا وانسلَّ بين الشُّجيرات مطلقًا زمجرةً أخيرةً، ثم عندما اكتفى سَمر، عادَ إلى بران واستلقى إلى جواره.

اختطفَت ميرا شبكتها ورُمحها بمجرَّد أن لمسَت قدماها الأرض، أمَّا چوچن فلم يرفع عينيه عن سَمر لحظةً، وقال لبران بنبرة من يقطع وعدًا: «سنتكلَّم ثانيةً».

لا يفهم حقًّا كيف تصرَّف الذِّئبان بهذا الهياج. هما من فعلا هذا وليس أنا. لعلَّ المِايستر لوين كان محقًّا عندما حبسَهما في أيكة الآلهة. قال: «هودور، خُذني إلى المِايستر لوين».

كان بُرجَ المِايستر الواقع تحت المِغدفة من أماكن بران المفضَّلة دائمًا، وعلى الرغم من أن لا أمل في تعلُّم لوين ترتيب حاجياته، فمنظر الكُتب واللَّفائف والقوارير المكوَّمة بلا نظام يظلُّ مألوفًا ومريحًا لبران، تمامًا كالبُقعة الصَّلعاء على رأس المِايستر وكُمَّي ثوبه الرَّمادي الفضفاض، كما أن الصَّبي يُحِبُّ الغِدفان أيضًا.

وجدَ لوين جالسًا على كرسي مرتفع ويَكتُب، ففي غياب السير رودريك وقعَ عبء حُكمِ القلعة بأكملها على عاتقه. قال عندما دخلَ هودور: «سمو الأمير، جئت مبكرًا إلى دروسك اليوم». جرَت العادة على أن يقضي المِايستر عدَّة ساعاتٍ كلَّ يومٍ بَعد الظُّهر في تعليم بران وريكون والصَّبيَّين والدر فراي.

قال بران: «هودور، قِف ثابتًا»، ثم تمسَّك بشمعدان مثبَّت إلى الحائط بكلتا يديه، واعتمدَ عليه ليسحب نفسه إلى أعلى وخارج السلَّة، ثم تدلَّى من ذراعيه في الهواء لحظةً، قبل أن يحمله هودور ويضعه في أحد الكراسي، حيث جلسَ وقال: «ميرا تقول إن أخاها يتمتَّع بالبصيرة الخضراء».

حَكَّ المِايستر لوين جانب أنفه بريشة الكتابة قائلًا: «حقًّا؟».

أومأَ برأسه إيجابًا، وقال: «أذكرُ أنك أخبرتَني بأن أطفال الغابة كانوا يتمتَّعون بها».

- «البعض يَزعُم أنهم كانوا يملكون تلك القُدرة، وكان حُكماؤهم يُسَمُّون الأنبياء الخُضر».

- «أكان هذا سِحرًا؟».

- «يُمكنك أن تُسَمِّيه سِحرًا لافتقارنا لتعبيرٍ أفضل، لكنه كان مجرَّد ضربٍ مختلف من المعرفة في جوهره».

- «وماذا كان؟».

وضعَ المِايستر لوين ريشته، وأجابَ: «لا أحد يعرف على وجه اليقين يا بران، فقد غابَ الأطفال من العالم، وغابَت معهم حكمتهم. نعتقد أن للأمر علاقة ما بالوجوه المحفورة على الأشجار، وقد آمنَ البَشر الأوائل بأن الأنبياء الخُضر كانوا يستطيعون النَّظر من خلال عيون أشجار الويروود، ولهذا السَّبب قطعوها متى خاضوا معركةً من أطفال الغابة. يُعتقَد أيضًا أن الأنبياء الخُضر كانوا يملكون سُلطانًا على حيوانات الغاب وطيور الشَّجر، وحتى الأسماك. هل يدَّعي ابن ريد امتلاكه شيئًا من تلك القُوى؟».

- «لا، لا أظنُّ، لكن ميرا تقول إنه يرى أحلامًا تتحقَّق أحيانًا».

- «كلنا نَحلُم بأشياء تتحقَّق أحيانًا. أنت نفسك حلمت بالسيِّد والدك في السَّراديب قبل أن يَبلُغنا خبر موته، أتَذكُر؟».

- «وريكون كذلك، كلانا رأى الحُلم ذاته».

- «اعتبِرها البصيرة الخضراء إذا أردت... لكن تذكَّر أيضًا عشرات الآلاف من الأحلام الأخرى التي رأيتها أنت وريكون ولم تتحقَّق. هل تَذكُر ما علَّمتك إياه عن طوق الحلقات الذي يرتديه كلُّ مِايستر؟».

فكَّر بران برهةً محاولًا التذكُّر، ثم أجابَ: «المِايستر يُكَوِّن حلقات سلسلته في قلعة البلدة القديمة، وهي سلسلة لأنك تُقسِم على الخدمة، ومصنوعة من معادن مختلفة لأنك تخدم البلاد، والبلاد فيها مختلف أنواع النَّاس، وكلما تعلَّمت شيئًا جديدًا تُضيف حلقةً؛ الحديد الأسود لفَنِّ الغدفنة، والفضَّة للعلاج، والذَّهب للحسابات والأرقام... لا أذكرُها كلها».

دَسَّ لوين إصبعًا تحت سلسلته وبدأ يُدَوِّرها بوصةً بوصةً حول عُنقه الثَّخين مقارنةً بجسده الصَّغير، لكنه سرعان ما دوَّرها بالكامل، وقال عندما تدلَّت حلقة مصنوعة من معدنٍ رماديٍّ داكن فوق تُفَّاحة حَلقه: «هذا فولاذ ڤاليري. مِايستر واحد من كلِّ مئةٍ يضع حلقةً كهذه، تُشير إلى أني درستُ ما يُسَمُّونه «الغوامض العُليا» في «القلعة»، أي السِّحر لعدم وجود مصطلح أوفى. إنه مسعى مشوِّق حقًّا، لكن محدود الفائدة، ولهذا السَّبب يُجَشِّم عددٌ قليل جدًّا من المِايسترات نفسه عناء الاهتمام به. كلُّ مَن يدرسون الغوامض العُليا يُجَرِّبون التَّعامُل مع التَّعاويذ عاجلًا أم آجلًا، ويجب أن أعترف بأني استسلمتُ لهذا الإغراء، لكني كنتُ صبيًّا، وأيُّ صبيٍّ لا يتمنَّى سِرًّا أن يكتشف قُوى خفيَّةً في نفسه؟ على أن جهودي لم تُثمِر أكثر مما أثمرَت جهود ألفٍ قبلي وألفٍ غيرهم منذ ذلك الحين. يُؤسِفني أن أقول إن السِّحر لا يعمل».

قال بران معترضًا: «إنه يعمل أحيانًا. لقد رأيتُ ذلك الحُلم، وريكون أيضًا، كما أن هناك سحَرة ومشعوذين في الشَّرق...».

قال المِايستر لوين: «هناك مَن يُسَمُّون أنفسهم سحَرةً ومشعوذين. كان لديَّ صديق في «القلعة» يستطيع أن يُخرِج وردةً من أُذنك، لكنه لم يكن يتمتَّع بأيِّ قُدراتٍ سِحريَّة. أوه، بالتَّأكيد هناك الكثير مما لا نفهمه، فالسِّنون تمرُّ بالمئات والآلاف، وماذا يرى الإنسان من الحياة غير بضع أصيافٍ وأشتية؟ إننا نتطلَّع إلى الجبال ونقول إنها أبديَّة خالدة، وهكذا تبدو بالفعل... لكن في مجرى الزَّمن ترتفع الجبال وتَسقُط، وتُغَيِّر الأنهار مجاريها، وتهوي النُّجوم من السَّماء، وتغرق المُدن العُظمى في أعماق البحار، وحتى الآلهة تموت حسبما نعتقد. لا شيء يبقى على حاله أبدًا. لعلَّ السِّحر كان من القُوى الخارقة التي عرفَها العالم في الماضي، لكنه لم يَعُد كذلك، وما تبقَّى منه ليس أكثر من خيط الدُّخان الذي يظلُّ في الهواء بَعدما يهمد الحريق العظيم، وحتى هذا الخيط باهت الآن. ڤاليريا كانت الجمرة الأخيرة، وڤاليريا هلكَت، والتَّنانين انقرضَت، وماتَ العمالقة، وراحَ أطفال الغابة في غياهب النِّسيان بكلِّ معارفهم. لا يا سموَّ الأمير، ربما رأى چوچن ريد حُلمًا أو اثنين يُصَدِّق أنهما تحقَّقا، لكنه لا يتمتَّع بالبصيرة الخضراء، ولا رجل حيًّا لديه هذه القُدرة».

كان هذا ما أعادَه بران على مسامع ميرا ريد عندما جاءَته عند الغَسق، إذ جلسَ على مقعده المجاور للنَّافذة يتفرَّج على أضواء القلعة والحياة تنبعث فيها، ثم قال لها: «آسفٌ لما حدثَ مع الذئبين. لم يكن ينبغي لسَمر أن يُحاوِل إيذاء چوچن، لكن لم يكن يَجدُر بچوچن أن يقول كلَّ ما قاله عن أحلامي. لقد كذبَ الغُراب عندما قال إنني سأطيرُ، وأخوكِ كذبَ كذلك».

- «أو لعلَّ مِايسترك مخطئ».

- «كلا. أبي نفسه كان يعتمد على نصيحته».

- «ليس لديَّ شَكٌّ في أن أباك كان يُصغي إليه، لكنه اتَّخذ قراراته بنفسه في النِّهاية. بران، هل تسمح بأن أحكي لك حُلمًا لچوچن رآك فيه مع أخويك بالتَّربية؟».

- «الوالدران ليسا أخويَّ».

لم تُعِر تعليقه انتباهًا، وقالت: «كنت جالسًا تتناوَل العَشاء، لكن المِايستر لوين قدَّم لك طعامك بدلًا من أحد الخدم، نصيب الملك من الشِّواء، لكن اللَّحم كان نيئًا وداميًا، وإنما شهي الرَّائحة لدرجةٍ أسالَت لُعاب الجميع، بينما كان اللَّحم الذي قدَّمه لولديِّ فراي قديمًا ورماديًّا وميتًا، وعلى الرغم من ذلك راقَهم طعامهم أكثر مما راقَك طعامك».

- «لستُ أفهمُ».

- «أخي يقول إنك ستفعل، وعندها سنتكلَّم ثانيةً».

شعرَ بران بالتوجُّس من الجلوس إلى العَشاء ليلتها، لكنهم قدَّموا له فطير الحمام الذي قدَّموه للجميع، ولم يرَ عيبًا في نصيب الوالدرين من الطَّعام، فقال لنفسه: المِايستر لوين على حق. لا شيء سيِّئًا سيأتي إلى وينترفل مهما قال چوچن، ما أشعرَ بران بالرَّاحة... وبخيبة الأمل أيضًا، فما دامَ هناك سِحر فكلُّ شيءٍ ممكن، أشباح تمشي على الأرض، أشجار تتكلَّم... ويُمكن أن يَكبُر صبيٌّ مكسور ليُصبِح فارسًا. «لكن ليس هناك سِحر»، حدَّث نفسه بصوتٍ عالٍ في ظُلمة غُرفته. «ليس هناك سُحر، والقِصص مجرَّد قِصص».

ولن يمشي بران أبدًا، ولن يطير، ولن يكون فارسًا.

تيريون

كان البساط شائكًا تحت قدمي تيريون الحافيتين وهو يقول لپودريك پاين، الذي أتاه نِصف نائم، ومتوقِّعًا لا شَكَّ أن يشويه حيًّا لإيقاظه: «ساعة غريبة يختارَها ابن عمِّي للزِّيارة. اصحبه إلى غُرفتي الشَّمسيَّة وقُل له إنني سأنزلُ بَعد قليل».

خمَّن من السَّواد السَّائد خارج النَّافذة أن الوقت تجاوزَ منتصَف اللَّيل بكثير، وقال لنفسه متسائلًا: هل يُفَكِّر لانسل أنه سيجدني نعسانًا بطيء البديهة في هذه السَّاعة؟ كلا، لانسل يكاد لا يُفَكِّر أبدًا. سرسي هي التي وراء هذا. لكن أخته ستُصاب بالإحباط، فتيريون يعمل -حتى وهو في الفِراش- إلى الصَّباح الباكر؛ يقرأ على ضوء الشُّموع المتذبذب، ويُدَقِّق في تقارير جواسيس ڤارس، ويُراجِع دفاتر حسابات الإصبع الصَّغير، إلى أن تتشوَّش الأعمدة والسُّطور أمام عينيه الموجوعتين.

رَشَّ وجهه بالقليل من الماء الفاتر من الحوض المجاور لسريره، ثم استغرقَ وقته وقد قرفصَ في بيت الرَّاحة شاعرًا بهواء اللَّيل البارد على جِلده. السير لانسل في السادسة عشر من العُمر، وليس معروفًا بتمتُّعه بفضيلة الصَّبر. فلينتظر إذن وينمو توتُّره مع طول الانتظار. بَعدما أفرغَ أمعاءه، ارتدى تيريون معطف النَّوم ونفشَ شَعره الكتَّاني الخفيف بأصابعه، ليبدو أكثر وأكثر كأنه أوقِظَ من نومه.

كان لانسل يتحرَّك جيئةً وذهابًا بعصبيَّةٍ أمام رماد المستوقَد، وقد ارتدى سُترةً من المخمل الأحمر، يَبرُز من تحت كُمَّيها المُشَرَّطين كُمَّان آخَران من

الحرير الأسود، بينما تدلَّى من حزام سيفه غِمد مذهَّب فيه خنجر مقبضه مطعَّم بالجواهر. حيَّاه تيريون قائلًا: «أهلًا يا ابن العم. زياراتك قليلة حقًّا. لأيِّ شيءٍ أدينُ بهذه البهجة غير المستحَقَّة؟».

أجابَ السير لانسل: «جلالة الملكة الوصيَّة على العرش أرسلَتني لآمُرك بالإفراج عن المِايستر الأكبر پايسل»، وعرضَ على تيريون شريطًا قرمزيًّا يحمل خَتم سرسي، الأسد المطبوع في الشَّمع الذَّهبي، وأضافَ: «ها هو تفويضها».

لوَّح تيريون بيده دلالةً على عدم اكترائه بالاطِّلاع على التَّفويض، وقال: «بالتَّأكيد. آملُ أن أختي لا تُجهِد نفسها أكثر من اللَّازم بَعد وعكتها. سيكون مؤسفًا حقًّا أن تُصاب بانتكاسة».

قال السير لانسل باقتضاب: «جلالتها تعافَت تمامًا».

- «خبر له وقْع الموسيقى على أُذنيَّ». مع أني لستُ مغرمًا بهذا اللَّحن. كان عليَّ أن أضع لها جرعةً أكبر. كان تيريون يأمل في قضاء بضعة أيام إضافيَّة دون تدخُّل سرسي، لكن استردادها صحَّتها بهذه السُّرعة لم يُدهِشه كثيرًا، فهي توأمة چايمي في النِّهاية. رسمَ ابتسامةً كيِّسةً على وجهه، وقال: «أشعِل لنا نارًا يا پود، فالهواء بارد للغاية. هلَّا احتسيت كأسًا معي يا لانسل؟ النَّبيذ المتبَّل يُساعِد على النَّوم».

أجابَ لانسل: «لا أحتاجُ مساعدةً لأنام. لقد جئتُ لتبليغ رسالةٍ نيابةً عن جلالتها، لا لأشرب معك أيها العِفريت».

فكَّر تيريون أن الفُروسيَّة أصابَت الصَّبي بالجرأة، بالإضافة إلى الدَّور البائس الذي لعبَه في اغتيال الملك روبرت، ثم إنه ابتسمَ قائلًا وهو يصبُّ: «النَّبيذ له أخطاره... بالنِّسبة للمِايستر الأكبر پايسل، فأعتقدُ أن أختي الجميلة كانت لتأتيني بنفسها لو أنها قلقة عليه حقًّا، لكن ها هي تُرسِلك أنت، فماذا أستنتجُ من هذا؟».

- «استنتِج ما شِئت ما دُمت ستُطلِق سراح السَّجين. المِايستر الأكبر صديق وفي للملكة الوصيَّة على العرش، وتحت حمايتها شخصيًّا»، وتراقصَت لمحة من الاستهزاء على شفتي الصَّبي تشي باستمتاعه، ما جعلَ تيريون يقول

لنفسه: إنه يتلقَّى دروسه من سرسي، بينما تابعَ لانسل: «جلالتها لن تُوافِق أبدًا على هذا الاعتداء، وتُذَكِّرك بأنها هي الوصيَّة على چوفري».

- «كما أني يد چوفري».

رَدَّ الفارس الشَّاب بلا مبالاة: «اليد يخدم، أمَّا الوصيُّ فيَحكُم حتى يَبلُغ الملك».

قال تيريون: «ربما يَجدُر بك أن تُدَوِّن هذا كي أتذكَّره لاحقًا». كانت النَّار تُطَقطِق بمرح في المستوقَد، فالتفتَ إلى مُرافِقه قائلًا: «يُمكنك أن تَترُكنا الآن يا پود»، ولمَّا خرجَ الصَّبي عادَ إلى لانسل وسأله: «أهناك المزيد؟».

- «نعم. جلالتها طلبَت مني إبلاغك بأن السير چاسلين بايووتر عصى أمرًا باسم الملك».

ما يعني أن سرسي أمرَت بايووتر بإطلاق سراح پايسل بالفعل، فرفضَ أن يُلَبِّي. «مفهوم».

- «إنها تصرُّ أن يُعزَل الرَّجل من منصبه ويوضَع رهن الاعتقال بتهمة الخيانة، وأحذِّرك أن...».

قاطَعه تيريون منحِّيًا كأسه جانبًا: «لن أقبل منك أيَّ تحذيرات يا ولد».

قال لانسل بجمود: «قُل «أيها الفارس»»، ومَسَّ سيفه، ربما ليُذَكِّر تيريون بأنه يحمل واحدًا، وتابعَ: «احذر كيف تُخاطِبني أيها العِفريت». لا شَكَّ أنه يقصد أن يبدو مهدِّدًا، لكن شاربه الخفيف السَّخيف أفسدَ التَّأثير.

- «أوه، اترُك السَّيف. صيحة واحدة مني ويقتحم شاجا المكان ليَقتُلك، بفأس وليس قِربة نبيذ».

احتقنَ وجه لانسل. أهو أبله لدرجة أن يُصَدِّق أن دوره في موت روبرت مَرَّ مرور الكرام؟ بدأ يقول: «إنني فارس...».

لكن تيريون بادَره مقاطعًا: «هذا ما سمعته. أخبِرني، هل أنعمَت سرسي عليك بالفُروسيَّة قبل أن تأخذك إلى فِراشها أم بَعدها؟». الاضطراب في نظرة لانسل كان كلَّ الاعتراف الذي احتاجَه تيريون لأن يتأكَّد من أن ما قاله ڤارس حقيقي. على الأقل لا أحد يُمكنه أن يدَّعي أن أختي لا تُحِبُّ عائلتها. «ماذا؟ أليس لديك ما تقوله؟ لا تحذيرات أخرى لي... أيها الفارس؟».

- «ستسحب هذه الاتِّهامات القذرة، وإلَّا ...».
- «صَهٍ. هل فكَّرت مرَّةً فيما سيفعله چوفري عندما أُخبره أنك قتلت أباه لتُضاجِع أمَّه؟».
صاحَ لانسل مرتعبًا: «ليس هذا ما حدثَ!».
- «حقًّا؟ ما الذي حدثَ إذن؟».
- «الملكة هي من أعطَتني النَّبيذ القوي! أبوك اللورد تايوين قال لي بنفسه يوم تعييني مُرافِقًا للملك أن أطيعها في كلِّ شيء».
- «وهل قال لك أن تنكحها كذلك؟». انظُرْ إليه، ليس طويلًا أو وسيم الملامح لهذه الدَّرجة، وشَعره يُشبه الرَّمل لا الذَّهب المغزول، ومع ذلك... حتى هذه النُّسخة الرَّديئة من چايمي أفضل من الفِراش الخالي على ما أعتقدُ. «لا، لا أظنُّ أنه قالها».
- «لم أقصد قَطُّ أن... لقد فعلتُ كما أُمِرتُ... إنني...».
- «تكره كلَّ لحظةٍ من كلِّ هذا، أليس كذلك؟ أهذا ما تُريدني أن أصدِّقه؟ المكان العالي في البلاط، الفُروسية، وأختي تفتح لك ساقيها كلَّ ليلة... أوه، حقًّا، لا ريب أنك تُعاني أيما معاناة!»، ثم نهضَ تيريون قائلًا: «انتظر هنا. لا بُدَّ أن جلالته سيرغب في سماع هذا».
تسرَّب آخِر ما تبقَّى في لانسل من تحدٍّ في الحال، وهوى الفارس الشَّاب على رُكبتيه وقد استحال صبيًّا راجفًا، وقال بضراعة: «الرَّحمة يا سيِّدي، أتوسَّلُ إليك».
- «وفِّر التوسُّلات لچوفري، فهو يُحِبُّها حقًّا».
- «سيِّدي، كان هذا أمر أختك الملكة كما قلت أنت، لكن جلالته... إنه لن يتفهَّم أبدًا...».
- «هل تُريدني أن أكتم الحقيقة عن الملك؟».
- «من أجل خاطر أبي! سأغادرُ المدينة وكأن شيئًا لم يكن! أقسمُ أنني سأنهي...».
كان عصيًّا على تيريون ألَّا يضحك لحظتها وهو يقول: «لا، لا أظنُّ».
بدا الصَّبي حائرًا، وقال: «سيِّدي؟».

- «كما سمعتني. أبي قال لك أن تُطيع أختي؟ ليكن إذن، أطِعها، ابقَ إلى جانبها وحافظ على ثقتها ومتِّعها كلما أرادَت. لن يعرف أحد أبدًا... ما دُمت ملتزمًا بإخلاصك لي. أريدُ أن أعرف ما تفعله سرسي، أين تذهب، مَنِ تُقابِل، عمَّ يتكلَّمون، الخُطط التي تُضمِرها، كلَّ شيء، وأنت ستُخبِرني بكل شيء، أليس كذلك؟».

أجابَ لانسل دون لحظة تردُّدٍ واحدة، الشَّيء الذي راقَ تيريون: «بلى يا سيِّدي، أقسمُ لك، كما تأمر».

قال تيريون: «انهض»، وملأَ كأسًا ثانيةً بالنَّبيذ ودَسَّها بين يدي لانسل مواصلًا: «اشرب نخب تفاهُمنا. تأكَّد أن لا خنازير برِّيَّة موجودة في القلعة على حَدِّ علمي»، فرفعَ الصَّبي الكأس ورشفَ منها، وإن على مضض، بينما تابعَ تيريون: «ابتسم يا ابن العم، فأختي امرأة جميلة، وكلُّ هذا في صالح البلاد. يُمكنك أن تستفيد كثيرًا من الموقف، فالفُروسية شيء لا يُذكَر، وإذا تصرَّفت بذكاء، ستنال اللورديَّة مني قبل أن ينتهي عملك»، ودوَّر النَّبيذ في كأسه مكملًا: «نُريد أن تثق بك سرسي تمامًا. عُد لها وأخبِرها أني أطلبُ منها الصَّفح، قُل لها إنك أخفتَني وإني لا أريدُ أيَّ خلافاتٍ بيننا، وإنني لن أفعل شيئًا دون موافقتها من الآن فصاعدًا».

- «لكن... مطالبها...».

- «أوه، سأعطيها پايسل».

لاحَت الدَّهشة على لانسل وهو يقول: «حقًّا؟».

أجابَ تيريون مبتسمًا: «سأفرجُ عنه غدًا. يُمكنني أن أقسم أني لم ألمس شعرةً من رأسه، لكن ذلك لن يكون صحيحًا تمامًا. إنه في حالٍ لا بأس بها عمومًا، وإن كنتُ لا أزعمُ تمتُّعه بالحيويَّة، فالزَّنازين السَّوداء ليست بالمكان الصحِّي لرجلٍ في سِنِّه. فلتحتفظ به سرسي حيوانًا أليفًا لها أو تُرسِله إلى «الجِدار»، لا أُبالي، لكني لا أريده في المجلس».

- «والسير چاسلين؟».

- «قُل لأختي إنك واثق بقُدرتك على استمالته بعيدًا عني مع الوقت. من شأن هذا أن يجعلها تبقى قانعةً فترةً».

قال لانسل: «كما تقول»، وأنهى نبيذه.

- «ثمَّة شيء أخير. مع موت الملك روبرت، سيكون الحرج عظيمًا إذا انتفخَ بطن أرملته بطفل».

قال الصَّبي متلعثمًا: «سيِّدي، إنني... نحن... الملكة أمرَتني بألَّا...»، واكتسبَت أُذناه لون لانستر القرمزي وهو يُتابع: «إنني أفرغُ نُطفتي على بطنها يا سيِّدي».

- «وليس لديَّ شَكٌّ في جَمال بطنها. رطِّبه كما وكلما شئت... لكن احرِص على عدم إراقة سائلك في أيِّ مكانٍ آخَر، فلستُ أريدُ المزيد من أولاد الأخت، مفهوم؟».

حنى السير لانسل رأسه بجمود، واستأذنَ بالانصراف.

سمحَ تيريون لنفسه بالشُّعور بالشَّفقة على الصَّبي وهلةً وهو يُفكِّر: أحمق آخَر، وضعيف كذلك، لكنه لا يستحقُّ ما نفعله به أنا وسرسي. من الرَّحمة أن لعمِّه كيفان ابنين آخَرين، فليس من المحتمَل أن يظلَّ هذا الابن حيًّا حتى نهاية العام. سوف تَقتُله سرسي في التَّوِّ واللَّحظة إذا علمَت أنه يخونها، وإذا لم يَحدُث ذلك بسبب عنايةٍ إلهيَّةٍ ما، فلن يعيش لانسل يومًا بَعد رجوع چايمي إلى كينجز لاندنج. السؤال إن كان چايمي سيَقتُله في نوبة الغيرة الغاضبة، أم ستسبقه سرسي لتحول دون معرفة چايمي بما كانت تفعله في غيابه. رهان تيريون على سرسي.

انتابَته حالة من الضَّجر، فأدركَ أنه لن يَخلُد إلى النَّوم اللَّيلة. ليس هنا على الأقل. وجدَ پودريك پاين نائمًا على كرسيٍّ خارج الباب، فهَزَّه من كتفه قائلًا: «استدعِ برون، ثم اجرِ إلى الاسطبلات وجهِّز حصانين».

ردَّدَ المُرافِق بعينين عليهما غمامة النَّوم: «حصانين».

- «تلك الحيوانات البنِّيَّة الكبيرة التي تُحِبُّ التُّفَّاح، أنا واثق بأنك رأيتها من قبل، أربع سيقان وذيل... لكن برون أولًا».

لم يمضِ وقت طويل قبل ظهور المرتزِق، الذي قال لتيريون: «من بالَ في حسائك وكدَّرك هكذا؟».

- «سرسي كالمعتاد. كنتُ أحسبني اعتدتُ الطَّعم، لكن لا عليك بهذا. يبدو أن أختي الرَّقيقة تحسبني ند ستارك».

- «سمعتُ أنه كان أطول منك».

- «ليس بَعد أن بترَ جوف رأسه. كان حريًّا بك أن ترتدي ثيابًا أثقل، فاللَّيلة باردة».

- «أنحن ذاهبان إلى مكانٍ ما؟».

- «أكلُّ المرتزِقة بذكائك؟».

على الرغم من المخاطر التي تحفُّ شوارع المدينة، شعرَ تيريون بالأمان في وجود برون. أخرجَهما الحُرَّاس من بوَّابةٍ جانبيَّة في السُّور الشَّمالي، ومن هناك قطعا الدَّرب المظلَّل بحصانيهما حتى سفح تَلِّ إجون العالي، ثم اتَّجها إلى زُقاق الخنازير، حيث مرَّا بصفوفٍ من النَّوافذ المغطَّاة بالسَّتائر، والمباني الطَّويلة المبنيَّة بالخشب والحجارة، التي تميل طوابقها العُليا فوق الشَّارع بزوايا حادَّة تجعلها تلوح كأنها على وشك تبادُل القُبلات. بدا أن القمر يتبعهما أينما ذهبا، يختلس النَّظر إليهما ثم يتوارى وراء مدخنة، وهكذا دواليك، بينما لم يُصادِفا أحدًا باستثناء عجوزٍ شمطاء وحيدة تحمل قِطَّةً ميتةً من ذيلها، رمقَتهما بنظرةٍ خائفة، كأنها تخشى أن يُحاوِلا سرقة عشائها، ثم انسلَّت وسط الظِّلال بلا كلمةٍ واحدة.

أجالَ تيريون فِكره في الرَّجلين اللذين شغلا منصب يد الملك قبله، واللذين أثبتا أنهما لا يُدانِيان سرسي في الكيد. وكيف يُمكنهما مُباراتها؟ رجال كهذين الاثنين... إنهم أشرف من أن يعيشوا وأنبل من أن يُخادِعوا، وسرسي تلتهم أمثال أولئك الحمقى على الإفطار يوميًّا. السَّبيل الوحيد لهزيمة أختي أن تلعب لُعبتها، الشَّيء الذي رفضَ اللوردان ستارك وآرن أن يفعلاه تمامًا. لا عجبٍ أن كليهما ميت الآن، بينما لم يَشعُر تيريون لانستر بالحياة هكذا من قبل قَطُّ. قد تجعله ساقاه ناقصتا النُّمو يبدو كفقرة تسليةٍ في احتفال الحصاد، لكن هذه هي الرَّقصة التي يُجيدها.

كان الماخور مزدحمًا على الرغم من تأخُّر السَّاعة، وحيَّتهما شاتايا ببشاشةٍ واصطحبَتهما إلى القاعة العامَّة. صعدَ برون إلى الطَّابق العُلوي مع فتاةٍ داكنة

العينين من دورن، لكن ألايايا كانت منشغلةً مع أحد الزَّبائن، فقالت شاتايا: «ستُسَرُّ كثيرًا عندما تعرف أنك أتيت. سأحرِصُ على تجهيز غُرفة البُرج لك. هل يرغب سيِّدي في كأسٍ من النَّبيذ بينما ينتظر؟».

– «نعم».

وجدَ النَّبيذ رديئًا مقارنةً بخمور «الكرمة» المعتَّقة التي يُقَدِّمها المكان عادةً، فقالت شاتايا: «سامِحنا يا سيِّدي، لكني لا أستطيعُ العثور على نبيذٍ طيِّب بأيِّ سعر مؤخَّرًا».

– «أخشى أنكِ لستِ الوحيدة».

تبادلَت شاتايا معه بضع عبارات الشَّكوى والمواساة التَّقليديَّة، ثم استأذنَت وابتعدَت، وفكَّر تيريون وهو يُراقِبها تذهب: امرأة حسناء. لم يرَ من قبل أناقةً ورُقِيًّا كهذين في عاهرة، وإن كانت هي ترى نفسها راهبةً ما. لعلَّ هذا هو السِّر، العبرة ليست بما نفعله، وإنما بالسَّبب الذي نفعله من أجله. بشكلٍ ما بَثَّ فيه هذا الخاطر الرَّاحة.

كان عدد من مُرتادي المكان الآخَرين يحدجونه بنظراتٍ جانبيَّة. آخِر مرَّةٍ غامرَ فيها بالخروج، بصقَ رجل عليه... أو أنه حاولَ، لكن البصقة حطَّت على برون بدلًا منه، وفي المستقبَل سيَبصُق الرَّجل بلا أسنان.

– «أيَشعُر سيِّدي بأنه منبوذ؟»، قالت دانسي وهي تجلس في حِجره، وعضعضَت أُذنه مضيفةً: «لديَّ علاج لهذا».

هَزَّ تيريون رأسه مبتسمًا، وقال: «أنتِ أجمل من أن توصَفي بكلماتٍ يا حُلوتي، لكني صرتُ مولعًا بعلاج ألايايا».

– «لكنك لم تُجَرِّب علاجي. سيِّدي لا يختار أحدًا أبدًا غير يايا. إنها بارعة، لكني أبرع. ألا تُريد أن ترى؟».

– «المرَّة القادمة ربما». ليس لدى تيريون شَكٌّ في أن دانسي ستكون شديدة الإمتاع، فهي مرنة وذات أنفٍ أفطس، وعلى وجهها نمش، وتتمتَّع بشَعرٍ أحمر كثيف ينسدل إلى ما بَعد خصرها... لكن شِاي تنتظره في إيوانها.

ضاحكةً، وضعَت يدها بين ساقيه واعتصرَت من فوق السَّراويل قائلةً:

«لا أظنُّه يرغب في الانتظار حتى المرَّة القادمة. أعتقدُ أنه يُريد أن يَخرُج ويعدُّ نمشاتي».

– «دانسي»، قالت ألايايا التي وقفَت في المدخل ببشرتها الدَّاكنة وملامحها الهادئة، وقد ارتدَت الحرير الأخضر الشفَّاف. «حضرة اللورد أتى لزيارتي أنا».

خلّص تيريون نفسه برفقٍ من الفتاة الأخرى ونهضَ، ولم يبدُ على دانسي أنها تُمانِع، وإن قالت مذكِّرةً: «المرَّة القادمة»، ووضعَت إصبعًا في فمها ومصَّته.

قالت الفتاة سوداء البشرة ريثما قادَته على السَّلالم: «مسكينة دانسي. أمامها أسبوعان ليختارها سيِّدي، وإلَّا ستخسر رهانها مع ماريي وتُعطيها لآلئها السَّوداء».

ماريي تلك فتاة هادئة رقيقة شاحبة الملامح سبقَ أن لاحظَها تيريون مرَّةً أو اثنتين، خضراء العينين وبشرتها كالپورسلين، وشَعرها الشَّبيه بالفضَّة طويل مسترسل، رائعة الجمال حقًّا، لكن شديدة الكآبة. قال: «أكرهُ أن تخسر المسكينة لآلئها بسببي».

– «خُذها إلى الطَّابق العُلوي المرَّة القادمة إذن».

– «قد أفعلُ».

ابتسمَت قائلةً: «لا أظنُّ يا سيِّدي».

إنها محقَّة، لن أفعل. قد تكون شاي مجرَّد عاهرة، لكني مخلصٌ لها بشكلٍ ما.

في غُرفة البُرج، وهو يفتح باب الصُّوان، التفتَ إلى ألايايا وسألَها بفضول: «ماذا تفعلين في غيابي؟».

رفعَت ذراعيها وتمطَّت كهرَّةٍ سوداء رشيقة، وأجابَت: «أنامُ. إنني أنالُ راحةً كافيةً منذ بدأت زيارتنا يا سيِّدي، كما أن ماريي تُعَلِّمنا القراءة، وقد أتمكَّنُ قريبًا من تزجية الوقت بكتاب».

قال: «النَّوم جيِّد، والكُتب أفضل»، ثم قبَّلها سريعًا على وجنتها، قبل أن ينزل البئر ويقطع النَّفق.

بينما خرجَ تيريون من الاسطبل على حصانه الأرقط، تناهَت إلى مسامعه أنغام الموسيقى الطَّافية في الهواء فوق أسطُح المباني، وكان من السَّار أن يُفكِّر أن النَّاس ما زالوا يُغنُّون، حتى في وسط المذابح والمجاعة. أفعمَت عقله الألحان المتدفِّقة في ذاكرته، ومرَّت لحظة كادَ يستطيع فيها أن يسمع تايشا إذ غنَّت له منذ نِصف عُمر، ولمَّا جذبَ عِنان الحصان ليُوقِفه، وجدَ اللَّحن غير صحيح، والكلمات أبعد من أن يُمَيِّزها. إنها أغنيَّة أخرى. ولِمَ لا؟ من البداية إلى النِّهاية وتايشا البريئة العذبة محض كذبة، مجرَّد عاهرةٍ استأجرَها أخوه چايمي لتصنع منه رجلًا.

إنني حُرٌّ من تايشا الآن. لقد لاحقَتني ذِكراها نصف حياتي، لكني لم أعُد أحتاجها، تمامًا كما لا أحتاجُ ألايايا أو دانسي أو ماريي، أو المئات من أمثالهن اللائي عاشرتهن على مَرِّ السِّنين. إن لديَّ شِاي الآن، شِاي.

كانت أبواب الإيوان مغلقةً وموصدةً، ودَقَّ تيريون حتى انفتحَت الكوَّة البرونزيَّة المنمَّقة، فقال: «إنه أنا».

الرَّجل الذي فتحَ له وأدخَله واحد من اكتشافات ڤارس الممتازة، مُقاتِل بالخناجر من براڤوس لديه شفة أرنبيَّة مشقوقة ومصاب بالغَمَش[1]. لم يرغب تيريون في وجود حَرس شباب وسيمي الطَّلعة حول شِاي يومًا تلو اليوم، وقال للخصي: «اعثُر لي على رجالٍ قِباحٍ في وجوههم ندوب، ويُفَضَّل أن يكونوا عاجزين جنسيًّا كذلك، رجال يُفَضِّلون الغِلمان، أو يُفَضِّلون الماعز حتى، لا فارق». لم يجد ڤارس أحدًا من محبِّي الماشية، لكنه عثرَ على خنَّاقٍ مخصي، ورجلين مقيتي الرَّائحة من إيبن، لا يقلُّ غرامهما بالفؤوس عن غرامهما ببعضهما بعضًا، أمَّا الآخَرون فنخبة منتقاة من المرتزِقة الذين خبرَتهم الزَّنازين وخبروها، وكلٌّ منهم أقبح من الآخَر. عندما عرضَهم ڤارس عليه، خشيَ تيريون أنه تمادى، لكن شِاي لم تنبس بشكوى واحدة.

---

(1) الغَمَش أو العين الكسول ضَعف في الرُّؤية المركزيَّة للعين دون سبب عضوي، بحيث يَحدُث خلل في انتقال إشارات العصب البصري إلى المخ.

ولِمَ تشتكي؟ إنها لم تشتكِ مني قَطُّ على الرغم من أني أقبح من حُرَّاسها مجتمعين. لعلَّها لا ترى القُبح أصلًا.

ومع ذلك كان تيريون يُفَضِّل أن يَحرُس بعض رجال قبائل الجبال الإيوان بدلًا من هؤلاء، رجال تشلا من الآذان السَّوداء ربما، أو إخوة القمر، فثقته في إخلاصهم الحديدي وحاسَّة الشَّرف لديهم تفوق ثقته في جشع المرتزقة كثيرًا. غير أن المخاطَرة كبيرة، فكينجز لاندنج كلها تعلم أن الهمج رجالَه، وإذا أرسلَ الآذان السَّوداء إلى هنا، فهي مسألة وقتٍ فحسب حتى تعرف المدينة كلها أن يد الملك لديه محظيَّة.

أخذَ واحد من الاثنين الإيبنيزيِّين حصانه، فسألَه تيريون: «هل أيقظتموها؟».

- «كلا يا سيِّدي».

- «عظيم».

لم يتبقَّ من النَّار في غُرفة النَّوم غير بضع جمراتٍ صغيرة، لكن المكان لا يزال محتفظًا بدفئه. كانت شِاي قد أزاحَت الأغطية والملاءات في نومها، وتمدَّدت عاريةً على الفِراش المحشوِّ بالرِّيش، وقد تخطَّطت منحنيات جسدها النَّاعمة بالوهج الخافت القادم من المستوقَد. وقفَ تيريون في المدخل ينهل من منظرها مفكِّرًا: أصغر من ماربي، وأعذب من دانسي، وأجمل من ألايايا. إنها كلُّ مَن أحتاجُ وأكثر. كيف يُمكن لعاهرةٍ أن تبدو بهذه النَّظافة والجاذبيَّة والبراءة؟

لم يكن ينوي أن يُقلِق نومها، لكن منظرها كان قمينًا بأن يجعل ذَكره ينتصِب بشدَّة، فتركَ ثيابه تَسقُط أرضًا، ثم صعدَ إلى الفِراش وباعدَ بين ساقيها برفقٍ وقبَّلها بين الفخذين، ولمَّا غمغمَت شِاي بشيءٍ ما في نومها قبَّلها ثانيةً ولعقَ حلاوتها السرِّيَّة، وأخذَ يلعق ويلعق حتى غرقَت لحيته وفرجها تمامًا، وعندما أطلقَت أنَّةً خافتةً وارتعدَت، اعتلاها ودفعَ نفسه في داخلها، لتتفجَّر ذُروته بَعد لحظاتٍ معدودة.

كانت عيناها مفتوحتين، وتبسَّمت وملَّست على شَعره هامسةً: «رأيتُ أجمل حُلمٍ على الإطلاق لتوِّي يا سيِّدي».

عَضَّ تيريون حلمتها الصَّغيرة المنتصبة ووسَّد رأسه كتفها دون أن يُخرِج نفسه من داخلها، متمنيًا لو أن من الممكن ألَّا يَخرُج أبدًا، وقال: «لم يكن حُلمًا». إنها حقيقة، كلُّ هذا حقيقة، الحروب والدَّسائس ولُعبة العروش الدَّامية، وأنا في مركزها بالضَّبط... أنا، القزم، الوحش، الذي تهكَّموا عليه وضحكوا منه، لكني أملكُ كلَّ شيءٍ الآن، السَّطوة والمدينة والفتاة. هذا ما خُلِقتُ من أجله، ولتُسامِحني الآلهة، هذا ما أحبُّه...

وأحبُّها... وأحبُّها.

آريا

أيًّا كانت الأسماء التي انتوى هارن الأسود إطلاقها على أبراج قلعته، فقد طواها النِّسيان منذ زمنٍ بعيد، والآن تحمل الأبراج أسماءً أخرى، هي بُرج الفزع، وبُرج الأرملة، وبُرج العويل، وبُرج الأشباح، وبُرج محرقة الملك. تنام آريا على فِراشٍ من القَشِّ في كُوَّةٍ غير عميقة في الحائط في السَّراديب الغائرة تحت بُرج العويل، حيث لديها ماء وصابون تغتسل بهما متى أحبَّت، وعلى الرغم من أنها وجدَت العمل شاقًّا، فهو ليس أشقَّ من المشي أميالًا كلَّ يوم، كما أن بنت عرس ليست مضطرَّةً للتَّنقيب عن ديدان وحشرات تأكلها مِثلما كان آري يفعل، فهناك خُبز بصفةٍ يوميَّة، ويخنة الشَّعير بالجزر واللِّفت، بالإضافة إلى مقدارٍ صغيرٍ من اللَّحم يُوَزَّع عليهم مرَّةً كلَّ أسبوعين.

كان هوت پاي يأكل أفضل منها بكثير، بما إنه في المكان الذي ينتمي إليه، المطابخ التي تحتلُّ مبنى حجريًّا مستديرًا تُغَطِّيه قُبَّة، وتُعَدُّ عالمًا قائمًا بذاته. تتناوَل آريا وجباتها على مائدةٍ قابلة للفَكِّ والتَّركيب في سردابٍ تحت الأرض مع ويز وعامليه، لكنها تُكَلَّف أحيانًا بإحضار طعامهم، وعندها تسترق برهةً لتتكلَّم مع هوت پاي، الذي لا يتذكَّر أبدًا أن اسمها بنت عرس الآن، ويصرُّ على دعوتها بآري، على الرغم من أنه يعرف أنها فتاة. ذات مرَّةٍ حاولَ أن يسرق لها فطيرة تُفَّاح ساخنة، لكنه تصرَّف برعونة ورآه اثنان من الطُّهاة، فأخذا الفطيرة منه وتبادَلا ضربه بملعقةٍ خشبيَّةٍ كبيرة.

أُرسِل جندري إلى ورشة الحدادة، فكان نادرًا ما تراه آريا، أمَّا من تخدم

معهم فلم تَشعُر برغبةٍ في معرفة أسمائهم حتى، الشَّيء الذي يُصيبها بألم أكبر حينما يموت أحدهم. معظمهم أكبر منها، ولا يُمانِعون أن يدَعوها وشأنَها.

هارنهال شاسعة حقًّا، وإن طالَ الاضمحلال معظمها. كانت الليدي ونت تُحافِظ على القلعة باعتبارها حاملة راية عائلة تَلي، لكنها استخدمَت الثُّلثين السُّفليَّين فقط من اثنين من الأبراج الخمسة، وتركَت الخراب يُحيق بالباقي، قبل أن تفرَّ من المكان تاركةً عددًا محدودًا من الأتباع، لا يكفي على الإطلاق لتلبية احتياجات جميع الفُرسان واللوردات والأسرى النُّبلاء الذين جاءَ بهم اللورد تايوين معه، ومن ثَمَّ كان على رجال لانستر البحث عن الخدم بالإضافة إلى كلِّ ما هو قابلٌ للسَّلب والنَّهب. يقول الكلام الدَّائر إن اللورد تايوين يُزمِع إعادة هارنهال إلى مجدها الغابر، ويجعلها مقرَّه الجديد بمجرَّد أن تضع الحرب أوزارها.

يُكَلَّف ويز آريا بحمل الرَّسائل ورفْع المياه من البئر وإحضار الطَّعام، وأحيانًا بالتَّخديم على الموائد في قاعة الثُّكنات الواقعة فوق مستودع السِّلاح، حيث يأكل الجنود وجباتهم، وإن كانت غالبًا ما تعمل في التَّنظيف. خُصِّصَ الطَّابق الأرضي من بُرج العويل لتخزين الأطعمة والغلال، واحتوى طابقان آخَران فوقه جزءًا من رجال الحامية، بينما ظلَّت الطَّوابق العُليا مهجورةً طيلة ثمانين عامًا كاملة، والآن أمرَ اللورد تايوين بجعلها صالحةً للسُّكنى من جديد، فكان لا بُدَّ من دعْك الأرضيَّات، وغسيل النَّوافذ مما عليها من سُخام، والتخلُّص من المقاعد المكسورة والأسِرَّة المتعفِّنة. وجدوا الطَّابق الأعلى يعجُّ بأعشاش الخفافيش السَّوداء الضَّخمة، التي تتَّخذها عائلة ونت رمزًا لها، بالإضافة إلى الجرذان التي وجدوها في الأقبية... والأشباح التي يقول البعض إنها تَسكُن المكان، أرواح هارن الأسود وأبنائه.

خطرَ لآريا أن الاعتقاد في ذلك سُخف حقيقي، فهارن وأبناؤه ماتوا في بُرج محرقة الملك، الذي استمدَّ اسمه من هذه الحادثة بالتَّحديد، فلِمَ تَعبُر أشباحهم السَّاحة لتُلاحِقها؟ أمَّا بُرج العويل فلا يُعْوِل إلَّا حينما تهبُّ الرِّيح من الشَّمال، وليس ذلك أكثر من الصَّوت الذي يُصدِره الهواء إذ يمرُّ من صُدوع الحجر الذي تشقَّق من فرط الحرارة في الماضي. لو أن هناك

أشباحًا في هارنهال، فهي لا تُزعِجها بتاتًا، بينما أخشى مَن تخشاهم أحياء؛ ويز والسير جريجور واللورد تايوين لانستر نفسه، المستقرُّ في بُرج محرقة الملك، الذي يظلُّ أعلى بروج القلعة وأقواها، وإن مالَ تحت ضغط الحجارة المصهورة التي جعلَته يبدو كشمعةٍ سوداء عملاقة نِصف ذائبة.

تساءلَت كيف ستكون ردَّة فعل اللورد تايوين، لو أنها ذهبَت إليه الآن واعترفَت بكونها آريا ستارك، لكنها تُدرك أنها لن تستطيع الاقتراب منه أبدًا لتُخبِره بأيِّ شيء، كما أنه لن يُصَدِّقها أَبدًا إذا فعلَت على أيِّ حال، وبَعدها سيضربها ويز حتى يُدميها.

على طريقته المختالة الخاصَّة، يكاد ويز يكون مخيفًا كالسير جريجور ذاته، فالجبل يسحق النَّاس كأنهم ذُباب، وإن كان لا يبدو في أغلب الآونة أنه يلحظ وجودك أصلًا، أمَّا ويز فيعرف دومًا أنك هناك، وما تفعله، وأحيانًا ما تُفَكِّر فيه كذلك. إنه يضرب لأهون استفزاز، كما أن لديه كلبةً تُناهِزه في سوء الطِّباع، كلبة قبيحة مرقَّطة رائحتها ألعن من أيِّ كلب شمَّته آريا في حياتها كلها، وقد رأته مرَّةً يُطلِقها على عامل مراحيضٍ أثارَ ضيقه، فمزَّقت قطعةً كبيرةً من رَبلة ساق الصَّبي بينما انفجرَ ويز ضاحكًا.

استغرقَ ويز أيامًا ثلاثة فقط حتى احتلَّ موضع شَرفٍ في صلواتها اللَّيليَّة، فتبدأ آريا هامسةً اسمه: «ويز»، قبل أن تستكمل القائمة: «دانسن، تشيزويك، پوليڤر، راف المعسول، المُدغدِغ وكلب الصَّيد، السير جريجور، السير آموري، السير إلين، السير مرين، الملك چوفري، الملكة سرسي». إذا سمحَت لنفسها بأن تنسى واحدًا فقط من تلك الأسماء، فكيف ستَعثُر على صاحِبه ذات يوم وتَقتُله؟

على الطَّريقِ شعرَت آريا كأنها شاة، لكن هارنهال حوَّلتها إلى فأر، وهي تبدو كالفئران بالفعل بثوبها الرَّمادي المصنوع من الصُّوف الخشن، وكالفئران لزمَت شقوق القلعة وفتحاتها ودروبها المظلمة، زاحفةً بعيدًا عن طريق الأقوياء.

بين الفينة والفينة يَخطُر لها أنهم جميعًا فئران وراء تلك الأسوار السَّميكة، حتى الفُرسان واللوردات الكبار، وقد جعلَ حجم القلعة الهائل السير

جريجور نفسه يبدو ضئيلًا، فهارنهال تُغَطِّي ثلاثة أضعاف مساحة وينترفل، وبناياتها أضخم كثيرًا، حتى إن لا مجال للمقارَنة بين هذه وتلك، وتتَّسع اسطبلاتها لألفٍ من الخيول، بينما تحتلُّ أيكة الآلهة عشرين فدَّانًا كاملةً، وتُماثِل المطابخ قاعة وينترفل الكُبرى في الحجم، أمَّا قاعة هارنهال الكُبرى فتحمل الاسم المهيب «قاعة المئة مستوقَد»، على الرغم من أنها لا تضمُّ غير ما يزيد على الثَّلاثين مستوقدًا بقليل (وقد حاولَت آريا أن تُحصيها مرَّتين، فعدَّت تارةً حتى 33 وتارةً حتى 35)، غير أن القاعة فسيحة للغاية، لدرجة أن اللورد تايوين يستطيع إقامة مأدبةٍ لجيشه كله هناك إذا أرادَ، وإن لم يفعلها قَطُّ. الجُدران والأبواب والقاعات والدَّرجات، كلُّ شيءٍ مشيَّد بمقياسٍ غير إنساني حدا بآريا لأن تتذكَّر القِصص القديمة التي كانت العجوز نان تحكيها عن العمالقة الذين عاشوا وراء «الجِدار» في سالف الزَّمان.

ولأن اللوردات والليديهات لا يُلاحِظون الفئران الرَّماديَّة الصَّغيرة تحت أقدامهم، فقد اطَّلعت آريا على أسرارٍ من شتَّى الأنواع، لمجرَّد أنها تفتح أُذنيها بينما تُمارِس واجباتها. پيا الحسناء التي تعمل في مخزن المؤن فتاة فاسقة تتنقَّل بين جميع فُرسان القلعة، وزوجة السَّجَّان حبلى، لكن الأب الحقيقي إمَّا السير آلين ستاكسپير أو مطرب اسمه وات ذو البسمة البيضاء، واللورد ليفورد يسخر من حكايات الأشباح على الملأ، وعلى الرغم من ذلك يُبقي شمعةً موقدةً دائمًا إلى جوار فِراشه، ومُرافِق السير دوناڤر المدعو چودچ لا يستطيع حبْس بوله وهو نائم، والطُّهاة يحتقرون السير هاريس سويفت ويُتَبِّلون طعامه كله ببُصاقهم، كما أن آريا سمعَت مرَّةً خادمة المِايستر توثميور إذ أسرَّت إلى أخيها بكلام عن رسالةٍ تقول إن چوفري نغل وليس الملك الشَّرعي على الإطلاق، وأضافَت الفتاة هامسةً: «قال له اللورد تايوين أن يُحرِق الرِّسالة ولا يتكلَّم عن تلك القاذورات ثانيةً».

سمعَت أن ستانيس ورنلي أخوي الملك روبرت قد انضمَّا إلى القتال، وقال ويز: «وكلاهما ملك الآن. في البلاد ملوك أكثر مما في القلاع من جرذان». حتى رجال لانستر تساءَلوا كم من الوقت سيستطيع چوفري الحفاظ على العرش الحديدي، وسمعَت لوردًا صغيرًا يُغَمغِم وهو سكران: «الفتى لا

يملك جيشًا غير ذوي المعاطف الذَّهبيَّة، ويتحكَّم فيه خصيٌّ وقزم وامرأة. كيف سيُفيده أمثال هؤلاء إذا اشتعلَت المعركة؟». كما أن هناك دائمًا كلام عن اللورد بريك دونداريون، وقال قوَّاس بدين في مرَّةٍ إن الممثِّلين السَّفَّاحين قتَلوه، إلَّا أن زملاءه ضحكوا ساخرين، وقال أحدهم: «لورك قتلَه في منطقة الشلَّالات الدَّافقة، والجبل فتكَ به مرَّتين. أراهنُ بأيلٍ فضِّي أنه لن يظلَّ ميتًا هذه المرَّة أيضًا».

لم تعرف آريا مَن يكون الممثِّلون السَّفَّاحون هؤلاء إلَّا بَعد أسبوعين، عندما وصلَت أغرب جماعةٍ رأتها على الإطلاق من الرِّجال إلى هارنهال. تحت رايةٍ عليها كبش أسود ذو قرنين داميين، ركبَ رجال نُحاسيُّو البشرة في جدائل شَعرهم أجراس، ورمَّاحون يمتطون خيولًا مخطَّطةً بالأبيض والأسود، ورُماة ذوو وجوه مدهونة بالمساحيق، ورجال خشنون مُشعِرون قصار القامة يحملون تروسًا متواضعةً، ورجال بنِّيُّو البشرة يرتدون معاطف مزيَّنة بالرِّيش، ومهرِّج ناعم الملامح يرتدي ثيابًا من الأخضر والوردي، ومُبارِزون لهم لحى متشعِّبة غريبة مطليَّة بالأخضر والأرجواني والفضِّي، وحاملو حِراب ذوو ندوب ملوَّنة تُغَطِّي خدودهم، ورجل ناحل يرتدي ثوب السِّپتونات، وثانٍ عطوف الملامح يرتدي ملابس المِايسترات الرَّماديَّة، وثالث يبدو عليه السَّقم ويرتدي معطفًا جِلديًّا موشًّى بشَعرٍ أشقر طويل.

وعلى رأسهم كان رجل فارِع الطُّول رفيع كعصا، وجهه أعجف مسحوب، ويبدو مستطيلًا أكثر بسبب اللِّحية السَّوداء الطَّويلة المجدولة كالحبال، التي تنبت من ذقنه المدبَّب وتكاد تَبلُغ خصره. من قرن سَرجه تدلَّت خوذة من الفولاذ الأسود، مطرَّقة على شكل رأس كبش، بينما أحاطَت بعُنقه سلسلة حلقاتها من العُملات مختلفة الأحجام والأشكال والمعادن، أمَّا حصانه فواحد من تلك الأحصنة الغريبة المخطَّطة.

قال لها ويز لمَّا رآها تتطلَّع إلى الرَّجل ذي خوذة رأس الكبش: «الستِ ترغبين في معرفة هذه الشِّرذمة يا بنت عرس». كان معه اثنان من نُدمائه، رجلان مسلَّحان في خدمة اللورد ليفورد، ولمَّا سألَت عمَّن يكون هؤلاء الغُرباء، ضحكَ أحد الجُنديَّين وأجابَ: «إنهم رجال الأقدام يا فتاة، أصابع

الكبش، ممثِّلو اللورد تايوين السَّفَّاحون»، فأسرعَ ويز يقول: «يا لك من أبله! إذا تسبَّبت في أن يُسلَخ جِلدها، فلتُنَظِّف أنت السَّلالم!»، ثم خاطبَ آريا قائلًا: «إنهم مرتزِقة يا فتاة، يُسَمُّون أنفسهم رِفقة الشُّجعان، فلا تستخدمي أيًّا من تلك الأسماء الأخرى على مقربةٍ من أحدٍ منهم أبدًا، وإلَّا ستتأذِّين كثيرًا. صاحِب خوذة رأس الكبش قائدهم، اللورد ڤارجو هوت».

قال الجُندي الثَّاني: «ليس لوردًا أو أيَّ خراء مشابه. سمعتُ السير آموري يقول ذلك. إنه مجرَّد مرتزِق فمه مليء بالرِّيالة ويُغالي في تقدير نفسه».

رَدَّ ويز: «أجل، لكن من الخير لها أن تُلَقِّبه هي باللورد إذا أرادَت الاحتفاظ بكلٍّ أعضائها».

تطلَّعت آريا إلى ڤارجو هوت ثانيةً، وتساءلَت: كم وحشًا يملك اللورد تايوين؟

سكنَ رجال رِفقة الشُّجعان بُرج الأرملة، فلم يكن على آريا أن تخدمهم، الشَّيء الذي أراحَها، ففي ليلة وصولهم ذاتها نشبَ عراك بين المرتزِقة وبعض رجال لانستر، فطُعِنَ مُرافِق السير هاريس سويفت حتى الموت، وجُرِحَ اثنان من الممثِّلين السَّفَّاحين، وفي اليوم التَّالي شنقَهما اللورد تايوين على جُدران مبنى البوَّابة، ومعهما واحد من رُماة اللورد ليدن. قال ويز إن الرَّامي هو من بدأ المشكلة كلها عندما استفزَّ المرتزِقة بذِكر بريك دونداريون، وبَعد أن كَفَّ المشنوقون عن ركل الهواء، تعانقَ ڤارجو هوت والسير هاريس وتبادَلا القُبلات على الخدود، وأقسَما أن تجمع بينهما المحبَّة دائمًا، بينما راقبَهما اللورد تايوين. فكَّرت آريا أن لثغة ڤارجو هوت ولُعابه السَّائل دائمًا شيء طريف حقًّا، وإن كانت أعقل من أن تضحك.

لم يبقَ الممثِّلون السَّفَّاحون في هارنهال طويلًا، لكن قبل أن يُغادِروا مجدَّدًا، سمعَت آريا أحدهم يقول إن جيشًا شَماليًّا تحت قيادة رووس بولتون احتلَّ مخاضة الياقوت في نهر الثَّالوث، فقال أحد رجال لانستر: «إذا عبرَ، سيسحقه اللورد تايوين ثانيةً مِثلما فعلَ في معركة الفرع الأخضر»، لكن رفاقه تهكَّموا عليه، وقال أحدهم: «بولتون لن يَعبُر أبدًا قبل أن يزحف الذِّئب الصَّغير من ريڤرران مع رجاله الشَّماليِّين الهمج وقطيع الذِّئاب».

آريا لم تكن تعلم أن أخاها قريب إلى هذا الحَد، فريفررَن أقرب كثيرًا إلى وينترفل، وإن كانت لا تدري أين تقع بالنِّسبة لهارنهال. يُمكنني أن أعرف بوسيلةٍ ما، أعلمُ أني أقدرُ، فقط إذا استطعتُ الفرار. عضَّت شفتها عندما فكَّرت في رؤية وجه روب ثانيةً، وقالت لنفسها: وأريدُ أن أرى چون أيضًا، وبران وريكون وأمِّي، وحتى سانزا... سأقبِّلها وأطلبُ منها السَّماح كما تفعل الليدي الحقَّة، سيروقها هذا.

عرفَت من الكلام في السَّاحة أن الغُرف العُلويَّة في بُرج الفزع تضمُّ أكثر من ثلاثين من الأسرى الذين سقطوا في معركةٍ ما دارَت على فرع الثَّالوث الأخضر. مُنِحَ معظمهم حرِّيَّة التَّجوال في القلعة، مقابل تعهُّدهم بعدم محاوَلة الهرب، ففكَّرت آريا: لقد أقسَموا على عدم الفرار، لكنهم لم يُقسِموا على عدم مساعَدتي عليه!

يتناوَل الأسرى وجباتهم على مائدةٍ خاصَّة بهم في قاعة المئة مستوقَد، وكثيرًا ما تراهم هنا أو هناك، ومنهم أربعة إخوة يتمرَّنون مع بعضهم بعضًا كلَّ يوم، فيُقاتِلون بالهرَّاوات والتُّروس الخشبيَّة في ساحة الحجر المصهور. ثلاثة منهم من آل فراي سادة «المعبر»، والرَّابع أخوهم النَّغل، ولم يَطُل بقاؤهم في هارنهال، إذ وصلَ أخوان آخَران ذات صباح تحت راية السَّلام ومعهما صندوق من الذَّهب، الذي دُفِعَ فديةً للفُرسان الذين أسَروا إخوتهما، ثم رحلَ أبناء فراي الستَّة معًا.

غير أن أحدًا لم يدفع فديةً لإطلاق سراح مجرَّد واحدٍ من الشَّماليِّين.

قال لها هوت پاي إن لوردًا صغيرًا سمينًا يتردَّد إلى المطابخ طول الوقت، دائمًا يبحث عن لقمةٍ يأكلها، شاربه كَثٌّ للغاية ويُغَطِّي فمه، والمشبك الذي يُثبِّت معطفه عبارة عن رُمح ثُلاثي الشُّعب من الفضَّة والياقوت الأزرق، وهو من أسرى اللورد تايوين. أمَّا الشَّاب القوي الملتحي الذي أحبَّ أن يذرع الشُّرفات بمفرده، مرتديًا معطفه الأسود المزيَّن بالشُّموس البيضاء، فقد أخذه فارس متجوِّل ينوي أن يُثري من ورائه. كانت سانزا ستعرف من يكون، هو والآخَر البدين، بينما لم تعبأ آريا قَطُّ بالألقاب والرُّموز، وكلما ثرثرَت السِّپتة موردن عن تاريخ هذه العائلة أو تلك، كانت تشرد دائمًا وتَحلُم وتتساءَل متى ينتهي الدَّرس.

على أنها تذكَّرت اللورد سروين، الذي تقع أراضيه قريبًا من وينترفل، وهكذا كان يأتي مع ابنه كلاي للزِّيارة باستمرار. لكن شاءَت الأقدار أن يكون اللورد سروين الأسير الوحيد الذي لا يراه أحد أبدًا، إذ ظَلَّ طريح الفِراش في حُجيرةٍ في بُرج، يتعافى من جرحٍ أصيبَ به في المعركة. أيامًا وأيامًا حاولَت آريا التوصُّل إلى وسيلةٍ تنسلُّ بها من وراء حارسيه لتراه، فلا بُدَّ أن معه ذهبًا بما أنه لورد، كلهم معهم ذهب، ولربما يرشو بعض مرتزقة اللورد تايوين ليأخذوها إلى ريڤررَن. لقد قال أبوها إن المرتزِقة يخونونَ أيَّ أحدٍ لقاء ما يكفي من الذَّهب.

ثم جاءَ صباح لمحَت فيه ثلاث نساء في ثياب الأخوات الصَّامتات الرَّماديَّة ذات القلنسوات، يرفعن جثَّةً إلى عربتهن. كانت الجثَّة ملفوفةً بمعطفٍ من الحرير الثَّمين، مزيَّن برمز البلطة الحربيَّة، وحين استفسرَت آريا عن الميت، أجابَها أحد الحُرَّاس أنه اللورد سروين. أحسَّت بالكلمات كركلةٍ تلقَّتها في بطنها، وقالت لنفسها والأخوات يَخرُجن بالعربة من البوَّابة: لم يكن ليستطيع مساعَدتي على كلِّ حال، بل لم يستطِع أن يُساعِد نفسه حتى أيتها الفأر المغفَّل.

بَعد ذلك عادَت إلى التَّنظيف والانسلال والتَّنصُّت على الأبواب. سمعَت أن اللورد تايوين سيزحف عمَّا قريب إلى ريڤررَن، أو أنه سيتَّجه جَنوبًا إلى هايجاردن، فلا أحد سيتوقَّع ذلك. لا، بل عليه أن يُدافِع عن كينجز لاندنج، لأن ستانيس يُشَكِّل التَّهديد الأكبر. سمعَت أنه أرسلَ جريجور كليجاين وڤارجو هوت لتدمير رووس بولتون ونزْع هذه الشَّوكة من ظَهره، وأنه أرسلَ طيورًا إلى «العُش» عارضًا الزَّواج على لايسا آرن بغرض أن يضمَّ «الوادي» إلى صَفِّه، وأنه جلبَ أطنانًا من الفضَّة لصناعة سيوفٍ سِحريَّة من أجل القضاء على أوْراج[1] جيش ستارك، وأنه يَكتُب لليدي ستارك ليتَّفق معها على شروط السَّلام، بما أن قاتِل الملك سيُطلَق سراحه قريبًا.

(1) الوارْج كلمة ذات أصول نورديَّة وجِرمانيَّة وفارسيَّة قديمة بمعنى «ذئب»، وفي عالم الرِّواية يُسَمَّى البَشري الذي يستطيع تلبُّس الحيوانات بعقله ليتحكَّم فيها «مبدِّل الجِلدة»، والوارْج فئة نادرة من مبدِّلي الجِلدة، تستطيع تلبُّس الذِّئاب والكلاب على وجه التَّحديد.

وعلى الرغم من أن الغِدفان تروح وتجيء طيلة اليوم، فاللورد تايوين نفسه يقضي السَّواد الأعظم من وقته وراء الأبواب المغلقة مع مجلسه الحربي. أحيانًا ما تلمحه آريا، لكن من بعيدٍ دومًا، مرَّةً وهو يتجوَّل على الأسوار في صُحبة ثلاثة مِايسترات والأسير البدين ذي الشَّارب الكَث، ومرَّةً وهو يُغادِر مع اللوردات حمَلة رايته لزيارة المعسكرات، لكن غالبًا ما تراه يقف في واحدةٍ من قناطر الشُّرفة المسقوفة، يُشاهِد تدريبات الرِّجال في السَّاحة في الأسفل، يقف دائمًا مشبِّكًا يديه معًا على قبيعة سيفه الطَّويل الذَّهبيَّة. يقولون إن اللورد تايوين يُحِبُّ الذَّهب أكثر من أيِّ شيءٍ آخَر، وسمعَت آريا واحدًا من مُرافِقي الفُرسان يقول مازحًا ذات مرَّةٍ إنه يتبرَّز ذهبًا كذلك. يبدو اللورد لانستر قويًّا بالنِّسبة لرجلٍ متقدِّمٍ في السِّن، ولديه لحية ذهبيَّة متيبِّسة ورأس أصلع، وثمَّة شيء في وجهه يُذَكِّرها بأبيها، على الرغم من أن لا تشابُه على الإطلاق بين ملامح الاثنين. قالت لنفسها: إنه يملك وجه لورد، وهذا كلُّ شيء، وتذكَّرت أنها سمعَت السيِّدة والدتها تقول لأبيها يومًا أن يرتدي وجه اللورد ويذهب ليتعامَل مع مسألةٍ ما، فضحكَ أبوها، لكنها لا تتخيَّل أن يضحك اللورد تايوين على أيِّ شيءٍ كان.

ثم جاءَت ظهيرة، بينما تنتظر دورها في سحْب دلوٍ من الماء من البئر، عندما سمعَت صرير مفصلات البوَّابة الشَّرقيَّة، وببُطءٍ عبرَت مجموعة من الرِّجال على متن الخيول تحت الشَّبكة الحديديَّة، وحين لمحَت المانتيكور الزَّاحف على تُرس قائدهم، شعرَت بطعنة الكراهية الماضية في أعماقها.

لا يبدو السير آموري لورك مخيفًا في نور النَّهار كما كان في ضوء المشاعل، لكنه لا يزال يملك العينين الخنزيريَّتين اللتين تَذكُرهما. قالت إحدى النِّسوة إنه دارَ مع رجاله دورةً كاملةً حول «عين الآلهة» ليُطارِدوا بريك دونداريون ويَقتُلوا المتمرِّدين، فحدَّثت آريا نفسها: لم نكن متمرِّدين، بل حَرس اللَّيل، وحَرس اللَّيل لا يتدخَّلون في شؤون البلاد. على أن عددًا أقلَّ مما تَذكُره من الرِّجال عادَ مع السير آموري، بينهم جرحى كُثر، فقالت في قرارتها: أتمنَّى أن تتعفَّن جروحهم ويموتوا جميعًا.

ثم إنها رأت الثَّلاثة الرَّاكبين قُرب نهاية الطَّابور.

كان رورج يضع خوذةً قصيرةً سوداء ذات واقي أنف حديديٍّ عريض، يجعل من الصَّعب أن تتبيَّن أنه بلا أنف، وإلى جواره ركبَ العضَّاض بتثاقُل فوق يبدو على وشك الانهيار تحت وزنه، وقد غطَّت الحروق نِصف المندملة جسده، جاعلةً منظره أشنع مما كان من قبل.

لكن چاكن هاجار كان لا يزال يبتسم. رأت أنه ما زال يرتدي ثيابًا باليةً متَّسخةً، لكنه وجدَ الوقت لغسْل وتصفيف شَعره، الذي انسدلَ على كتفيه أحمر وأبيض ولامعًا، وسمعَت آريا الفتيات يتبادَلن ضحكات الإعجاب.

كان ينبغي لي أن أتركَ النَّار تلتهمهم، هذا ما قاله جندري، وكان عليَّ أن أسمع كلامه. لو أنها لم تُلقِ لهم تلك البلطة، لكان ثلاثتهم موتى الآن. شعرَت بالخوف لحظةً، لكنهم مرُّوا بها دون أدنى لمحةٍ من الاكتراث، وكان چاكن هاجار الوحيد الذي ألقى نظرةً عابرةً في اتِّجاهها، وتجاوزَتها النَّظرة مباشرةً، ففكَّرت: لم يتعرَّفني. آري كان ولدًا صغيرًا شرسًا يحمل سيفًا، لكني مجرَّد فأرٍ رمادي يحمل دلوًا.

أمضَت بقيَّة اليوم في دعْك السَّلالم في بُرج العويل، ومع حلول المساء كانت يداها مسحوجتين داميتين، وذراعاها تُؤلِمانها للغاية، حتى إنهما اهتزَّتا وهي تعود إلى القبو حاملةً الدَّلو. شاعرةً بتعبٍ لا يجعلها تقوى على الأكل حتى، استأذنَت آريا من ويز وذهبَت إلى فِراشها القَشِّ لتنام، ثم قالت متثائبةً: «ويز، دانسن، تشيزويك، پوليڤر، راف المعسول، المُدغدِغ وكلب الصَّيد، السير جريجور، السير آموري، السير إلين، السير مرين، الملك چوفري، الملكة سرسي». خطرَ لها أن تُضيف ثلاثة أسماء أخرى إلى صلاتها، لكنها أكثر إرهاقًا من أن تُقرِّر اللَّيلة.

كانت آريا تَحلُم بالذِّئاب تعدو حُرَّةً في الغابة، عندما أطبقَت يد قويَّة على فمها كحجرٍ أملس دافئ، صُلبة ولا تتزحزَح، فأفاقَت في الحال مقاومةً تُحاوِل التملُّص، فهمسَ صوت من وراء أُذنها: «الفتاة لن تقول شيئًا، الفتاة ستُبقي فمها مغلقًا فلا يسمع أحد، ثم يتكلَّم الصَّديقان سِرًّا، اتَّفقنا؟».

بقلبٍ يدقُّ بعُنف، حرَّكت آريا رأسها بتؤدةٍ بالغة لتُومئ إيجابًا.

رفعَ چاكن هاجار يده. كان ظلام القبو حالكًا فلم ترَ وجهه الدَّاني منها

للغاية، وإن شمَّت رائحة الصَّابون النَّظيفة على بشرته والعِطر في شَعره، أمَّا هو فغمغمَ: «الصَّبي أصبحَ بنتًا».

- «كنتُ بنتًا طول الوقت. لم أحسب أنك رأيتني».

- «الرَّجل يرى، الرَّجل يعرف».

تذكَّرت أنها تكرهه، فقالت: «لقد أخفتني. إنك واحد منهم الآن. كان يجب أن أترُككم تحترقون. ماذا تفعل هنا؟ اذهب وإلَّا ناديتُ ويز».

- «الرَّجل يُسَدِّد ديونه، الرَّجل مدين بثلاث».

- «ثلاث؟».

- «لا بُدَّ أن يُوَفَّى الإله الأحمر حقُّه أيتها الفتاة الحُلوة، والموت وحده ثَمن الحياة. هذه الفتاة أخذَت ثلاث أنفُسٍ كانت له، وعلى هذه الفتاة أن تُعطيه ثلاثًا بدلًا منها. قولي الأسماء وسيتولَّى الرَّجل الباقي».

إنه يُريد أن يُساعِدني، قالت آريا لنفسها مع دفقة الأمل التي أحسَّت بها وأصابَتها بالدُّوار، فاندفعَت تقول: «خُذني إلى ريڤرَن. إنها ليست بعيدةً. إذا سرَقنا خيولًا فيُمكننا...».

وضعَ إصبعه على شفتها قائلًا: «ثلاث أنفُسٍ ستنالين مني، لا أكثر ولا أقل، ثلاثًا ثم نَنتهي. على الفتاة أن تُفكِّر إذن»، وطبعَ قُبلةً ناعمةً على شَعرها مضيفًا: «لكن ليس طويلًا».

لمَّا أشعلَت آريا عُقب شمعتها، لم يكن قد تبقَّى منه غير رائحةٍ واهية، نفحة من الزَّنجبيل والقرنفل ظلَّت في الهواء.

انقلبَت المرأة النَّائمة في الكُوَّة المجاورة على فِراشها القَش متذمِّرةً من الضَّوء، فنفخَت آريا في الشَّمعة وأطفأَتها، وعندما أغلقَت عينيها من جديد، رأت الوجوه طافيةً أمامها؛ چوفري وأمَّه، إلين پاين ومرين ترانت وساندور كليجاين... لكنهم على بُعد مئات الأميال في كينجز لاندنج، أمَّا السير جريجور فلم يبقَ غير بضع ليالٍ قبل أن يرحل ثانيةً بحثًا عن المزيد من الخدم والغنائم، وأخذَ معه راف وتشيزويك والمُدغدِغ. لكن السير آموري لورك هنا، وهي تكاد تبغضه مِثلما تبغض الآخَرين، أليس كذلك؟ إنها ليست واثقةً، كما أن هناك ويز دائمًا.

فكَّرت فيه ثانيةً في الصَّباح التَّالي عندما جعلَتها الحاجة إلى النَّوم تتثاءَب، فقال ويز بصوتٍ كالقرقرة: «بنت عِرس، إذا رأيتُ فمكِ مفتوحًا ثانيةً، سأقطعُ لسانكِ وأطعِمه لكلبتي»، ولوى أُذنها بأصابعه ليتأكَّد من أنها أصغَت إليه، وقال لها أن تعود إلى دعْك السَّلالم، فهو يريدها نظيفةً حتى البسطة الثَّالثة مع حلول المساء.

فكَّرت آريا وهي تعمل فيمن تُريدهم موتى، وتظاهرَت بأنها ترى وجوههم على السَّلالم، فكانت تدعك بقوَّةٍ أكبر لتمسحها. عائلة ستارك في حربٍ مع عائلة لانستر، وهي من عائلة ستارك، فعليها إذن أن تَقتُل أكبر عددٍ ممكن من رجال لانستر، فهذا ما يَحدُث في الحروب، لكنها لا تحسب أنها تستطيع الثِّقة بچاكن. يجب أن أقتلهم بنفسي. كلما حكمَ أبوها على أحدٍ بالموت، كان يُنَفِّذ الحُكم بنفسه بسيفه العظيم «جَليد»، وذات مرَّةٍ سمعَته يقول لروب وچون: «إذا كنت ستسلب رجلًا ما حياته، فأنت مدين له بأن تَنظُر في عينيه وتسمع كلماته الأخيرة».

تحاشَت چاكن هاجار في اليوم التَّالي واليوم الذي تلاه، ولم يكن هذا عسيرًا، فهي ضئيلة للغاية وهارنهال ضخمة للغاية، وملأى بالجحور التي تستطيع الفئران التَّواري فيها.

ثم عادَ السير جريجور مبكِّرًا عن المتوقَّع، سائقًا قطيعًا من الماعز هذه المرَّة بدلًا من السُّجناء، وسمعَت أنه فقدَ أربعة رجالٍ في واحدةٍ من غارات اللورد بريك اللَّيليَّة، لكن مَن تَمقُتهم آريا عادوا دون أنْ يُصيبهم خدش واحد، وسكنوا الطَّابق الثَّاني من بُرج العويل، فحرصَ ويز على تزويدهم المستمر بالشَّراب، وتمتمَ بتبرُّم: «هؤلاء الثُّلَّة يَشعُرون بالعطش دائمًا. بنت عرس، اصعدي إليهم وسليهم إن كانت لديهم ملابس تحتاج رتقًا، وسأجعلُ النِّساء يُصلِحنها».

انطلقَت آريا تصعد السَّلالم التي نظَّفتها بإتقان، ولم يُعِرها أحدهم انتباهًا عندما دخلَت. كان تشيزويك جالسًا بالقُرب من النَّار وفي يده قرن من المِزر، يحكي واحدةً من قِصصه الطَّريفة، فلم تجرؤ على مقاطعته خشية أن يُدمي شفتها بضربةٍ منه.

كان تشيزويك يقول: «كان هذا بَعد دورة مباريات يد الملك، قبل الحرب، وكنا في طريق العودة غَربًا، سبعة منا مع السير جريجور. كان راف معي، والشَّاب چوس ستيلوود الذي خدمَ سيِّدي في مضمار النِّزال. طيِّب، ثم إذا بنا نتوقَّف عند ذلك النَّهر القذر الفائض بسبب الأمطار التي هطلَت قبلها، ولا سبيل لدينا للعبور، لكننا وجدنا حانةً قريبةً فذهبنا إليها، وهناك يُوقِظ سيِّدي الخمَّار ويقول له أن يحرص على امتلاء قروننا حتى تنحسر المياه، وكان حريًّا بكم أن تروا عيني الرَّجل الشَّبيهتين بعيني خنزير وهما تلمعان مع مرأى الفضَّة. هكذا يجلب لنا المِزر، هو وابنته، وكان نوعًا رديئًا جدًّا أقرب إلى البول البنِّي، الشَّيء الذي لم يُرضِني أو يُرضِ سيِّدي طبعًا. وطول الوقت يُرَدِّد ذلك الخمَّار أنه مسرور للغاية لاستضافتنا، فالزَّبائن قليلون بسبب المطر، ولا يخرس الأحمق أبدًا على الرغم من أن سيِّدي لم يَقُل كلمةً واحدةً، فقط يُفَكِّر عابسًا في فارس الورد إياه والحيلة القذرة التي مارسَها، وكان من الواضح أن فمه مزموم تمامًا، وأنا والأولاد أعقل من أن نقول حرفًا واحدًا له في حالته هذه، لكن الخمَّار لم يزل يتكلَّم، بل ويسأل كيف أبلى سيِّدي في النِّزال، فرمقَه سيِّدي بهذه النَّظرة فقط»، وقهقهَ تيشزويك وجرعَ من مِزره ثم مسحَ الرَّغوة بظَهر يده مواصلًا: «في تلك الأثناء كانت ابنته تُحضِر الشَّراب وتصبُّه، فتاة بدينة، في الثَّامنة عشر أو نحوها...».

لوى راف المعسول شِدقيه، وقال متفاصحًا: «كانت أقرب إلى الثَّالثة عشر».

- «أيًّا كان، فلم يكن منظرها سارًّا كثيرًا، لكن أجون شربَ كثيرًا وبدأ يتحسَّسها، ولربما تحسَّستها بعض الشَّيء بدوري، ثم يقول راف للشَّاب ستيلوود إن عليه أن يَجُرَّ الفتاة إلى الطَّابق العُلوي ويصنع من نفسه رجلًا، هكذا على سبيل تشجيع الصَّبي، وأخيرًا يمدُّ چوس يده تحت تنُّورتها، فتَصرُخ وتُسقِط الإبريق الذي تحمله وتهرع إلى المطبخ. كان من الممكن أن ينتهي الأمر عند هذا الحَد، لولا أن الأحمق العجوز ذهبَ بَعدها إلى سيِّدي وطلبَ منه أن يجعلنا ندع الفتاة وشأنها، بما أنه فارس منصَّب وما إلى ذلك. السير جريجور لم يكن منتبهًا لمرحنا، لكنه يرفع عينيه الآن ويَنظُر، تعلمون

نظرته تلك، ويأمر بمثول الفتاة أمامه، والآن يجرُّها العجوز من المطبخ ولا يلومنَّ إلَّا نفسه، ثم يتطلَّع سيِّدي إلى الفتاة ويقول: هذه إذن هي العاهرة التي تشغل نفسك بها، فيردُّ العجوز المخبول: ابنتي ليانا ليست عاهرةً أيها الفارس، يقولها في وجه السير جريجور مباشرةً، ولا يطرف جفن لسيِّدي، ويقول من فوره: إنها كذلك الآن، ويُلقي أيلًا فضِّيًّا آخَر للرَّجل، ثم يُمَزِّق ثياب البنت ويأخذها هناك على المائدة أمام أبيها، بينما تتلوَّى هي وتُحاوِل التملُّص كالأرانب وتُصدِر الأصوات إياها. النَّظرة على وجه العجوز جعلَتني أنفجر ضحكًا حتى خرجَ المِزر من أنفي، ثم يسمع ذلك الصَّبي الجلبة، الابن كما خمَّنتُ، ويأتي مندفعًا من القبو، فيغرس راف خنجرًا في بطنه. كان سيِّدي قد فرغَ عندئذٍ، وعادَ إلى الشُّرب ونالَ كلٌّ منا دوره. توبوت، إنكم تعرفونه، يقلبها على بطنها ويَدخُل من الباب الخلفي، ولمَّا حانَ دوري كانت الفتاة قد كفَّت عن المقاوَمة، لعلَّها قرَّرت أن هذا يروقها، وإن لم أكن لأمانع القليل من التلوِّي في الحقيقة. أمَّا أفضل جزء على الإطلاق... عندما انتهى كلُّ شيء، يقول سيِّدي للرَّجل إنه يُريد باقي نقوده، فالفتاة لا تسوى قطعةً فضِّيَّة... ولتحلَّ بي اللَّعنة إن لم يُخرِج العجوز حفنةً من القِطع النُّحاسيَّة ويعتذر لسيِّدي ويَشكُره على الزِّيارة!».

هدرَ الرِّجال ضاحكين، أصخبهم تشيزويك نفسه، الذي ضحكَ بعُنفٍ على القصَّة التي رواها حتى سالَ المخاط من أنفه إلى لحيته الشَّائبة الخشنة. وقفَت آريا وسط ظلال بئر السُّلَّم وراقبَته، ثم إنها رجعَت إلى القبو دون أن تقول كلمةً، ولمَّا عرفَ ويز أنها لم تسأل عن الثِّياب، أنزلَ سراويلها وضربَها على مؤخِّرتها بالعصا حتى سالَت الدِّماء على وَركيها، لكن آريا أغلقَت عينيها وفكَّرت في كلِّ الأقوال التي علَّمها سيريو فورل إياها، فشعرَت بالألم بالكاد.

بَعد ليلتين أرسلَها إلى قاعة الثُّكنات للتَّخديم على الموائد، وكانت تحمل إبريق نبيذٍ وتصبُّ حين لمحَت چاكِن هاجار الجالسِ أمام صحفة طعام على الجانب الآخَر من الممشى. مضغَت آريا شفتها وتطلَّعت حولها بحذرٍ لتتأكَّد من عدم وجود ويز في الجوار، وقالت لنفسها: ضربة الخوف أمضَى من السَّيف.

تحرَّكت خطوةً، ثم أخرى، ومع كلِّ خطوةٍ إضافيَّة كان شعورها بأنها فأر يتخلَّى عنها، وشقَّت طريقها بطول الدِّكَّة مالئةً الأقداح. جلسَ رورچ إلى يمين چاكِن سكرانًا تمامًا، لكنه لم يُلاحِظها، فمالَت آريا وهمسَت: «تشيزويك» في أُذن چاكِن مباشرةً، فلم يُبدِ اللوراثي أمارةً على أنه سمعها.

عندما فرغَ الإبريق، هرعَت آريا إلى القبو لتملأه من البرميل، ثم عادَت مسرعةً إلى صَبِّ النَّبيذ للرِّجال، لكن أحدًا لم يَمُت من الظَّمأ في غيابها، أو لاحظَ أنها غابَت أصلًا.

ولم يَحدُث شيء في اليوم التَّالي أو الذي تلاه، لكن في اليوم الثَّالث ذهبَت آريا إلى المطابخ مع ويز ليُحضِرا طعام الغداء، وسمعَت ويز يقول لإحدى الطَّاهيات: «أحد رجال الجبل سقطَ من فوق سورٍ ليلة أمس وكسرَ عُنقه الأحمق».

سألَته المرأة: «أكان سكرانًا؟».

- «ليس أكثر من المعتاد. يقول البعض إن شبح هارن هو مَن ألقاه»، وأطلقَ نخيرًا ليُريها رأيه في الأفكار المشابهة.

أرادَت آريا أن تقول: لم يكن هارن، بل أنا. لقد قتلَت تشيزويك بهمسة، وما زال هناك اثنان آخَران ستَقتُلهما قبل أن تنتهي. قالت لنفسها: أنا الشَّبح الذي يَسكُن هارنهال، وتلك اللَّيلة نقصَت الأسماء التي تكرهها آريا واحدًا.

كاتلين

كان موقع اللِّقاء مرجًا عُشبيًّا انتشرَ فيه الفِطر الرَّمادي الباهت وبقايا الأشجار المقطوعة.

- «نحن أول الواصلين يا سيِّدتي»، قال هالس مولين بينما توقَّفا بحصانيهما وحدهما وسط الجذوع المبتورة وبين الجيشين، وقد خفقَت راية ذئب ستارك الرَّهيب على السَّارية التي يحملها. لم تستطِع كاتلين أن ترى البحر من مكانهما هذا، وإن أحسَّت بقُربه الشَّديد، إذ هبَّت الرِّيح من الشَّرق محمَّلةً برائحة الملح القويَّة.

كان رجال ستانيس باراثيون قد قطَعوا الأشجار من أجل بناء أبراج الحصار والمجانيق، وتساءلَت كاتلين كم من الزَّمن احتلَّ البُستان هذه المنطقة قبل أن تأتي عليه الحرب، وإن كان نِد قد استراحَ هنا عندما قادَ جيشه جَنوبًا، ليرفع الحصار السَّابق عن ستورمز إند. يومها حقَّق انتصارًا عظيمًا، أعظم ما فيه أن دماءً لم تُرَق.

قالت كاتلين في قرارة نفسها: فلتِهب لي الآلهة القُدرة على تحقيق المِثل. كان أتباعها المخلصون أنفسهم قد حسبوها مجنونةً لمجرَّد المجيء إلى هنا، وقال السير وندل ماندرلي: «هذه ليست معركتنا يا سيِّدتي. أعرفُ أن الملك لم يكن ليرغب في أن تُعَرِّض أمُّه نفسها للخطر».

أجابَته بلهجةٍ ربما كانت أحدَّ من اللَّازم: «كلنا في خطرٍ بالفعل. أتحسب أني أريدُ أن أكون هنا أيها الفارس؟». مكاني في ريفَررَن مع أبي المحتضر، في وينترفل مع ولديَّ. «روب بعثَني جَنوبًا لأتكلَّم نيابةً عنه، وهذا ما أنوي

أن أفعله». إنها تعلم أن إقامة السَّلام بين هذين الأخوين لن تكون بالمهمَّة اليسيرة، لكن عليها أن تُحاول في سبيل البلاد.

وراء المرتفَعات الحجريَّة والحقول المشبَّعة بمياه الأمطار، ارتفعَت قلعة ستورمز إند العظيمة كأنما تَبلُغ عنان السَّماء، وقد ولَّت البحر غير المرئي ظَهرها، وبدت قوَّات ستانيس باراثيون التي تُطوِّق أسوارها الرَّماديَّة الباهتة ضئيلةً تافهةً كفئران تحمل الرَّايات.

يُحكى في الأغاني أن ستورمز إند شُيِّدَت في عصرٍ سحيق على يد داران أول ملوك العواصف، الذي فازَ بحُبِّ الجميلة إليني، ابنة إله البحر وإلهة الرِّيح، وفي ليلة زفافهما تخلَّت إليني عن بكارتها للفاني الذي أحبَّته، ومن ثَمَّ حكمَت على نفسها بالموت كما الفانين، فأطلقَ أبواها الثَّكلانان غضبتهما كلها في صورة الرِّياح والأمواج التي انقضَّت على معقل داران لتَدُكَّه، وانسحقَ أصدقاؤه وإخوته وضيوف زفافه جميعًا تحت الجُدران المتهاوية، أو طيَّرهم الهواءِ العاصف إلى البحر، لكن إليني وقَت داران بذراعيها فلم يمسَّه أذًى، ولمَّا طلعَ الفَجر أخيرًا، أعلنَ الملك الحرب على الآلهة، وتعهَّد بإعادة بناء القلعة.

خمس قلاعٍ أخرى شيَّدها داران، كلٌّ منها أكبر وأقوى من سابقتها، فقط ليشهدها تُدَمَّر واحدةً تلو الأخرى وسط الأعاصير الجارفة التي هبَّت عاويةً من خليج السُّفن الغارقة، تدفع أمامها جُدرانًا هائلةً من المياه. ناشَده لورداته أن يبني إلى الدَّاخل، وقال له كهنته أن عليه مهادَنة الآلهة بإعادة إليني إلى البحر، وحتى رعيَّته استعطَفوه كي يلين، لكن إصرار داران لم يتزحزَح قيد أُنملة، وشُيِّدَت القلعة السَّابعة أضخم من السَّابقات كلهن. قال البعض إن أطفال الغابة ساعَدوه على بنائها بتشكيل الحجارة بالسِّحر، وزعمَ آخَرون أن صبيًّا صغيرًا أخبرَه بما يجب أن يفعله، صبيًّا سيَكبُر ليُصبِح براندون البنَّاء. لكن مهما حُكِيَت الحكاية، فخاتمتها واحدة، تقول إن الآلهة هاجمَت القلعة بعاصفةٍ تلو العاصفة، لكن القلعة السَّابعة تحدَّتها وتصدَّت لها كلها، وعاشَ داران وَيل الآلهة والجميلة إليني معًا حتى نهاية أيامهما.

الآلهة لا تنسى، وتظلُّ العواصف الثَّائرة تهبُّ من البحر الضيِّق، لكن

ستورمز إند بقيَت صامدةً على مَرِّ القرون وعشرات القرون، قلعةً لا مثيل لها. يرتفع السُّور الواقي العظيم مئة قدم كاملةً، لا تتخلَّله أيُّ فتحاتٍ لإطلاق السِّهام أو أبواب جانبيَّة، وكلُّ جزء منه منحنٍ مستدير وأملس تمامًا، كما ترتصُّ الأحجار معًا بدقَّةٍ متناهية لم تَترُك صدعًا أو زاويةً أو ثغرةً تَدخُل منها الرِّيح. يُقال إن سُمك السُّور يَبلُغ أربعين قدمًا في أضيق نقاطه، ونحو ثمانين في الجزء المواجه للبحر، ويتشكَّل من صفَّين متوازييْن من الأحجار صُبَّ بينهما الرَّمل والدَّبش، وفي داخل هذا الحصن الجبَّار تبقى المطابخ والاسطبلات والسَّاحات في أمانٍ من الرِّيح والأمواج. من الأبراج ليس هناك غير واحد، بُرج دائري عملاق بلا نوافذ حيث يُواجِه البحر، وواسع للغاية لدرجة أنه يضمُّ صومعة الغلال والثُّكنات وقاعة الاحتفالات ومسكن اللورد في آنٍ واحد، وتُتَوِّجه شُرفة هائلة تجعله يبدو من بعيدٍ كقبضةٍ شائكةٍ في نهاية ذراع مرفوعة إلى السَّماء.

خرجَ راكبان من المعسكر الصَّغير المنظَّم تحت أسوار القلعة، واتَّجها نحوهما ببُطء، فقال هال مولين: «سيِّدتي، لا بُدَّ أنه الملك ستانيس».

قالت كاتلين وهي تُراقِبهما يدنوان: «لا شَك». لا بُدَّ أنه ستانيس، لكن هذه ليست راية باراثيون. كانت الرَّاية ذات لونٍ أصفر فاقع، وليس الذَّهبي الفاخر كرايات رنلي، والرَّمز الذي تحمله أحمر، وإن لم تستطِع كاتلين تمييز شكله.

سيكون رنلي آخِر من يصل، فهذا ما قاله لها قبل أن تُغادِر، وبالفعل لم يتحرَّك لامتطاء حصانه حتى رأى أخاه في طريقه بالفعل. على أول من يصل أن ينتظر الآخَر، ورنلي لا ينتظر أحدًا. قالت لنفسها: إنها لُعبة يُحِبُّها الملوك. حسنٌ، إنها ليست ملكًا، وعليه فليست مضطرَّةً لأن تشترك في اللَّعب، كما أنها متمرِّسة في الانتظار.

مع اقترابه، رأت أن ستانيس يعتمر تاجًا من الذَّهب الأحمر، رؤوسه المدبَّبة مطرَّقة على شكل ألسنة اللَّهب، بينما طُعِّمَ حزامه بالعقيق الأحمر والتوپاز الأصفر، واستقرَّت ياقوتة مربَّعة كبيرة في مقبض السَّيف الذي يحمله، لكن فيما عدا ذلك فثيابه تقليديَّة تمامًا، سُترة جلديَّة أزرارها من الحديد فوق صُدرةٍ مبطَّنة، مع حذاء بالٍ وسراويل من الصُّوف البنِّي الخشن. كان الرَّمز

على رايته الصَّفراء كالشَّمس عبارةً عن قلب أحمر محاط باللَّهب البرتقالي المتَّقد، وصحيحٌ أن الوعل المتوَّج موجود أيضًا، إلَّا أنه منكمش ومحصور داخل القلب. الأكثر إثارةً للفضول من الرَّاية كانت حاملتها، تلك المرأة التي ترتدي ثيابًا حمراء بالكامل، ويتوارى وجهها تحت قلنسوة معطفها القُرمزي الواسعة. قالت كاتلين لنفسها حائرةً: راهبة حمراء. لهذه الطَّائفة أتباع كُثر وسُلطة لا يُستهان بها في المُدن الحُرَّة والشَّرق البعيد، لكن عدد المنتمين إليها في الممالك السَّبع محدود.

قال ستانيس باراثيون بكياسةٍ باردةٍ وهو يتوقَّف بحصانه: «ليدي ستارك»، وحنى رأسه الذي زحفَ عليه الصَّلع أكثر عن آخِر مرَّةٍ رأته فيها.

أجابَت: «لورد ستانيس».

أطبقَ فكَّيه الثَّقيلين بقوَّةٍ تحت لحيته المشذَّبة بعناية، لكن أشعرَها بالامتنان أنه لم يترفَّع عليها إزاء الألقاب، بل قال: «لم أتوقَّع أن أجدكِ عند ستورمز إند».

- «لم أتوقَّع أن أكون هنا».

رمقَتها عيناه العميقتان بانزعاج، فهذا الرَّجل ليس مخلوقًا لتبادُل عبارات المجامَلة، وقال لها: «آسفٌ لموت السيِّد زوجكِ، مع أن إدارد ستارك لم يكن صديقًا لي».

- «لكنه لم يكن عدوَّك قَطُّ يا سيِّدي. عندما سجنَك اللوردان تايرل وردواين في هذه القلعة وجعلاك تتضوَّر جوعًا، كان إدارد ستارك مَن كسرَ الحصار».

رَدَّ ستانيس: «بأمر أخي، لا لمحبَّته لي. لن أنكر أن اللورد إدارد أدَّى واجبه، فهل أقلَّ عنه في هذا؟ كان يجب أن أكون أنا يد روبرت».

- «تلك كانت رغبة أخيك، لكن ند لم يرغب في المنصب قَطُّ».

- «لكنه أخذَه بينما كان المفترَض أن يكون لي. ومع ذلك أعطيكِ كلمتي، ستنالين العدالة لمقتله».

كم يُحِبُّ هؤلاء الرِّجال الذين يُريدون ملوكًا أن يَعِدوا بالرُّؤوس المبتورة. «أخوك وعدَني بالشَّيء نفسه، لكن الحَقَّ أني أوثرُ أن أستعيد ابنتيَّ وأدع إنجاز

العدالة للآلهة. ما زالت سرسي تحتجز ابنتي سانزا، ولا توجد أخبار عن آريا منذ يوم موت روبرت».

رَدَّ: «إذا عثرنا على ابنتيكِ عندما آخذُ المدينة، سنُرسِلهما إليكِ»، بينما قالت نبرته: حيَّين أو ميتتين.

- «ومتى سيكون هذا يا لورد ستانيس؟ كينجز لاندنج قريبة من جزيرتك دراجونستون، لكني أجدك هنا بدلًا من ذلك».

- «أنتِ صريحة يا ليدي ستارك. ليكن، سأجيبكِ بصراحةٍ إذن. كي آخذ المدينة، فإنني أحتاجُ قوَّة هؤلاء اللوردات الجَنوبيِّين الذين أراهم عبر المرج. إنهم مع أخي، ويجب أن آخذهم منه».

- «النَّاس يمنحون ولاءهم لمن يشاؤون يا سيِّدي، وهؤلاء اللوردات أقسَموا على الولاء لروبرت وعائلة باراثيون. إذا نحَّيت أنت وأخوك خلافكما جانبًا...».

- «ليس لديَّ خلاف مع رنلي إذا أثبتَ طاعته لي. إنني أخوه الأكبر ومليكه، ولا أريدُ إلَّا ما هو حقِّي شرعًا. رنلي مدين لي بالإخلاص والطَّاعة، وأنوي أن أنالهما منه ومن أولئك اللوردات الآخَرين»، وتمعَّن في وجهها متسائلًا: «لكن ماذا أتى بكِ إلى هذا المكان يا سيِّدتي؟ هل ضَمَّت عائلة ستارك رجالها إلى أخي؟ أهذا ما حدثَ؟».

فكَّرت: هذا الرَّجل لن يلين أبدًا، لكن عليها أن تُحاوِل على الرغم من هذا، فالكثير جدًّا على المحك. هكذا قالت: «ابني يَحكُم بصفته الملك في الشَّمال، لكن برغبة لورداتنا وشعبنا، ولا يركع أمام أحد، وإن كان يمدُّ يد الصَّداقة للجميع».

قال ستانيس بجفاء: «الملوك ليس لديهم أصدقاء، بل رعايا وأعداء فقط».

- «وإخوة!»، قال صوت مرح من ورائها، فألقَت كاتلين نظرةً من فوق كتفها لترى فَرس اللورد رنلي تشقُّ طريقها بين بقايا الأشجار. بدا الأخ باراثيون الصَّغير شديد الأناقة في سُترةٍ من المخمل الأخضر ومعطفٍ من الحرير الموشَّى بالفراء، بينما طوَّق تاج الورود الذَّهبيَّة رأسه وارتفعَ رأس الوعل المنحوت من اليَشب فوق جبهته، ومن تحته استرسلَ شَعره الفاحم

الطَّويل، وزيَّنت كُتل مدبَّبة من الماس الأسود حزام سيفه، فيما أحاطَت بعُنقه سلسلة من الذَّهب والزمرُّد.

رنلي أيضًا اختارَ امرأةً تحمل رايته، على الرغم من أن بِريان أخفَت وجهها وجسدها تحت دِرع من الصَّفائح المعدنيَّة لا تدلُّ على جِنسها إطلاقًا، وعلى السَّارية التي ترتفع اثني عشر قدمًا جعلَت رياح البحر الوعل المتوَّج الأسود يتواثَب على الخلفيَّة الذَّهبيَّة.

حيَّاه أخوه باقتضاب: «لورد رنلي».

- «الملك رنلي. أهذا أنت حقًّا يا ستانيس؟».

قطَّب ستانيس وجهه قائلًا: «ومَن غيري؟».

هَزَّ رنلي كتفيه باستهتار، وأجابَ: «لم أكن واثقًا حين رأيتُ هذه الرَّاية. راية مَن هذه التي تحملها؟».

- «رايتي أنا».

تكلَّمت الرَّاهبة الحمراء قائلةً: «الملك اتَّخذ قلب إله الضِّياء النَّاري رمزًا له».

بدا أن رنلي وجدَ هذا طريفًا، فقال: «أفضل كثيرًا. إذا استخدمَ كلانا الرَّاية نفسها، ستكون المعركة مربكةً تمامًا».

قالت كاتلين: «لنأمل ألَّا تقع معركة. نحن الثَّلاثة لدينا عدوٌّ مشترَك يسعى إلى تدميرنا جميعًا».

رمقَها ستانيس بنظرةٍ فاحصة، وقال بوجهٍ جامد: «العرش الحديدي من حقِّي، وكلُّ مَن يُنكِرون هذا أعدائي».

قال رنلي: «البلاد كلها تُنكِره يا أخي، المسنُّون يُنكِرونه وهُم يلفظون آخِر أنفاسهم، والأجِنَّة يُنكِرونه في بطون أمَّهاتهم، يُنكِرونه في دورن ويُنكِرونه على «الجدار». لا أحد يُريدك ملكًا، آسف».

انقبضَ فكَّا ستانيس وشَدَّ وجهه، وقال: «لقد أقسمتُ أني لن أتعامَل معك أبدًا ما دُمت ترتدي تاج الخيانة هذا، فليتني حافظتُ على قَسمي».

تدخَّلت كاتلين قائلةً بحدَّة: «هذه حماقة. اللورد تايوين جالسٌ في هارنهال ومعه عشرون ألف مُحارِب، وفلول جيش قاتِل الملك عادوا يُنَظِّمون

صفوفهم عند قلعة «النَّاب الذَّهبي»، بينما يحتشد جيش لانستر آخَر في ظِلِّ كاسترلي روك، وسرسي وابنها يُسَيطِران على كينجز لاندنج وعرشكما الحديدي الغالي. كلاكما يُسَمِّي نفسه ملكًا، لكن المملكة تنزف، ولا أحد يرفع سيفه دفاعًا عنها سوى ابني».

هَزَّ رنلي كتفيه قائلًا: «ابنكِ ربحَ بضع معارك، لكنني سأربحُ الحرب، ولينتظر آل لانستر كلَّ الأشياء الجميلة التي أعدُّها لهم».

قال ستانيس بغِلظة: «إذا كان لديك ما تعرضه، فاعرضه وإلَّا رحلتُ».

- «ليكن إذن. أعرضُ أن تترجَّل وتركع وتُقسِم لي على الولاء».

كبتَ ستانيس غضبته السَّوداء، وقال: «هذا ما لن تناله مني أبدًا».

- «لقد خدمت روبرت، فلِمَ لا تخدمني؟».

- «روبرت كان أخي الأكبر، وأنت أخي الأصغر».

- «الأصغر والأجرأ والأوسم بمراحل...».

- «ولِصٌّ وغاصِب كذلك».

هَزَّ رنلي كتفيه من جديدٍ قائلًا: «آل تارجاريَن لقَّبوا روبرت بالغاصِب، لكنه بدا قادرًا على حمْل هذا العار، وكذا أنا».

فكَّرت كاتلين: لن يَصلُح هذا أبدًا، ثم رفعَت صوتها قائلةً: «اسمعا نفسيكما! لو كنتما ابنيَّ، لضربتُ رأسيكما معًا وحبستكما في غُرفةٍ حتى تتذكَّرا أنكما أخوان!».

عبسَ ستانيس في وجهها، وقال: «إنكِ تتجرَّئين كثيرًا يا ليدي ستارك. أنا الملك الشَّرعي، وخيانة ابنكِ لا تقلُّ عن خيانة أخي هذا، وسوف يأتي يومه».

أشعلَ التَّهديد السَّافر غضبها، فقالت: «أنت حُرٌّ في اعتبار الآخَرين خونةً وغاصِبين يا سيِّدي، لكن فيمَ تختلف أنت عنهم بالتَّحديد؟ تقول إنك وحدك الملك الشَّرعيّ، بينما يبدو لي أن روبرت أنجبَ ابنين، ووَفقًا لكلِّ قوانين الممالك السَّبع، فالأمير چوفري هو الوريث الشَّرعي، وتومن مِن بَعده... وكلنا خونة مهما كانت وجاهة أسبابنا».

ضحكَ رنلي، وقال: «يجب أن تُسامِح الليدي ستارك يا ستانيس، فقد

قطعَت الطَّريق الطَّويل من ريفرزن إلى هنا على ظَهر حصان، وأخشى أنها لم ترَ رسالتك».

قال ستانيس بلهجةٍ جافَّة: «چوفري ليس من صُلب أخي، ولا تومن. إنهما نغلان، والفتاة كذلك. ثلاثتهم مسوخ مولودون من زنى المحارم».

مصعوقةً تساءلَت كاتلين: أمن الممكن أن تكون سرسي نفسها بهذا الجنون؟

قال رنلي: «أليست قِصَّةً ممتازةً يا سيِّدتي؟ كنتُ معسكِرًا في هورن هيل عندما تلقَّى اللورد تارلي نُسخته من الرِّسالة، ويجب أن أعترف بأنها أبهرَتني حقًّا»، وابتسمَ لأخيه متابعًا: «لم أتوقَّع قَطُّ أنك بهذه البراعة يا ستانيس. ليتها قِصَّة صحيحة، لكنتَ وريث روبرت حقًّا».

- «ليتها قِصَّة صحيحة؟ أتقول إنني كاذب؟».

- «هل يُمكِنك إثبات كلمة واحدة من هذه الخرافة؟».

وكَزَّ ستانيس على أسنانه.

فكَّرت كاتلين: ليس ممكنًا أن روبرت كان يعلم، وإلَّا لفقدَت سرسي رأسها في لحظة، ثم قالت: «لورد ستانيس، إذا كنت على درايةٍ بارتكاب الملكة تلك الجرائم الوحشيَّة، فلِمَ لُذت بالصَّمت؟».

أجابَ ستانيس: «لم ألذ بالصَّمت، بل ذهبتُ بشكوكي إلى چون آرن».

- «بدلًا من الذَّهاب إلى أخيك؟».

قال ستانيس: «كلُّ اعتبار أخي لي كان بدافع الواجب لا أكثر، وإذا أتَت تلك الاتِّهامات مني، لكانت قد بدَت بدافع الحقد والأنانية، مجرَّد وسيلة لوضْع نفسي في تسلسُل الخلافة، فخطرَ لي أن روبرت سيُصغي إذا جاءَت الاتِّهامات من اللورد آرن، الذي كان يُحِبُّه».

قال رنلي: «آه، إذن فليس لدينا إلَّا كلمة رجل ميت».

- «أتعتقد أن موته كان مصادفةً أيها الأحمق الأعمى؟ لقد سمَّمته سرسي خشية أن يفضح سِرَّها. اللورد چون كان يجمع أدلَّةً معيَّنةً...».

- «... ماتَت معه بلا شَك. يا لها من صُدفة!».

كانت كاتلين تتذكَّر وترصُّ قِطع اللُّغز معًا، فقالت: «أختي لايسا اتَّهمت

الملكة بقتل زوجها في رسالةٍ أتتني منها في وينترفل، وبَعد ذلك، في «العُش»، ألقَت التُّهمة على شقيق الملكة تيريون».

قال ستانيس ساخرًا: «إذا دخلتِ بيت الأفاعي، فهل يهمُّ مَن يلدغكِ أو لَا؟».

قال رنلي: «كلُّ هذا الكلام عن الأفاعي وزنى المحارم مسلٍّ حقًّا، لكنه لا يُغَيِّر شيئًا. قد تكون صاحِب الدَّعوى الأفضل يا ستانيس، لكني ما زلتُ أملك الجيش الأكبر»، ودَسَّ يده في معطفه، فلاحظَ ستانيس ومَدَّ يده من فوره إلى مقبض سيفه، لكن قبل أن يستلَّه... أخرجَ أخوه خوخةً، وسألَه مبتسمًا: «أترغب في واحدةٍ يا أخي؟ إنها من هايجاردن، وأؤكِّدُ لك أنك لم تتذوَّق شيئًا بهذه الحلاوة من قبل»، وقضمَ من الثَّمرة ليسيل العصير على جانب فمه.

رَدَّ ستانيس وهو يتميَّز من الغيظ: «لم آتِ إلى هنا لآكل الفاكهة».

صاحَت كاتلين: «أيها السيِّدان! يَجدُر بنا أن نسنَّ شروطًا للتَّحالُف، لا أن نتبادَل عبارات الاستفزاز».

قال رنلي وهو يُلقي النَّواة: «لا يجب أن يَرفُض أحد تذوُّق الخوخ أبدًا، فقد لا ينال الفرصة ثانيةً. الحياة قصيرة يا ستانيس. تذكَّر ما يقوله آل ستارك... الشِّتاء قادم»، ومسحَ فمه بظَهر كفِّه.

- «لم آتِ إلى هنا لأتلقَّى التَّهديدات كذلك».

رَدَّ رنلي بحدَّة: «وأنا لم أهدِّدك، فستعرف عندما أهدِّدُ. إذا كنت تُريد الحَق، فأنا لم أحبَّك قَطُّ يا ستانيس، لكنك من دمي في النِّهاية، ولا أرغبُ إطلاقًا في مصرعك. إذا كانت ستورمز إند هي ما تروم، فخُذها... كهديَّةٍ أخويَّة. كما أهدانيها روبرت من قبل، ها أنا أهديك إياها».

- «إنها ليست مِلكك لتُهديها، بل مِلكي أنا شرعًا».

متنهِّدًا، التفتَ رنلي بِنصف التفاتةٍ فوق سَرجه، وقال: «ماذا أفعلُ مع أخي هذا يا بِريان؟ يَرفُض خوختي، ويَرفُض قلعتي، بل واجتنبَ حضور زفافي كذلك...».

- «كلانا يعلم أن زواجك مسرحيَّة هزليَّة. منذ عامٍ واحدٍ كنت تُخَطِّط لجعْل الفتاة واحدةً من بغايا روبرت».

- «منذ عامٍ واحدٍ كنتُ أخطِّطُ لجعْل الفتاة ملكة روبرت، لكن ما أهميَّة هذا الآن؟ الخَنزير البرِّي نالَ من روبرت، ونلتُ أنا مارچري. سيسرُّك أن تعرف أنها جاءَتني عذراء.».

- «وفي فِراشك ستموت عذراء غالبًا».

- «أوه، إنني أتوقَّعُ أن أزرع فيها بذرة ابني قبل نهاية العام. قُل لي، كم ابنًا لديك يا ستانيس؟ أوه، هذا صحيح، ولا واحد»، ورسمَ رنلي على وجهه ابتسامةً بريئةً وهو يُواصِل: «وبالنِّسبة لابنتك، فأنا متفهِّم. لو أن زوجتي تُشبِه زوجتك، لأرسلتُ مهرِّجي لمعاشَرتها أيضًا».

بصوتٍ هادرٍ صاحَ ستانيس: «كفى! لن أسمح لك بالسُّخرية مني في وجهي، هل تفهم؟ لن أسمح!»، وسحبَ سيفه الطَّويل من غِمده، فتألَّق الفولاذ على نحوٍ عجيب في نور الشَّمس الشَّاحب، لحظةً أحمر، ولحظةً أصفر، ولحظةً أبيَض وهَّاجًا، وبدا الهواء من حوله ملتهبًا كأنه يبثُّ الحرارة.

صهلَ حصان كاتلين وتراجعَ خطوةً، لكن بريان تقدَّمت تحول بين الأخوين وسيفها في يدها، وهتفَت في ستانيس: «نَحِّ سيفك جانبًا!».

لنفسها قالت كاتلين بتعب: لا بُدَّ أن سرسي لانستر تضحك حتى تتقطَّع أنفاسها.

أشارَ ستانيس بسيفه إلى أخيه، وبصوتٍ كالرَّعد قال الرَّجل الشَّهير بعدم الرَّحمة: «أنا لستُ عديم الرَّحمة، ولا رغبة لديَّ في تلويث «جالِب الضِّياء» بدماء أخي. لأجل خاطِر الأمِّ التي حملتنا، سأعطيك اللَّيلة لتُعيد التَّفكير في حماقاتك يا رنلي. أنزل راياتك وتعالَ إليَّ قبل الفَجر، وسأعطيك ستورمز إند ومقعدك السَّابق في المجلس، بل وسأسمِّيك وريثي إلى أن يولَد لي ابن. إمَّا هذا أو أدمِّرك تدميرًا».

ضحكَ رنلي، وقال: «ستانيس، أقرُّ بأنه سيف جميل، لكني أخشى أن وهجه أضعفَ بصرك. انظُر عبر المرج يا أخي. أترى كلَّ تلك الرَّايات؟».

- «أتحسب أن بضع لفائف من القُماش ستجعلك ملكًا؟».

- «سيوف تايرل ستجعلني ملكًا، روان وتارلي وكارون سيجعلونني ملكًا بالفأس والصَّولجان الشَّائك ومطرقة الحرب، سيوف تارث ورماح

بنروز، وفوسواي، وكوي، ومالندور، وإسترمونت، وسلمي، وهايتاور، وأوكهارت، وكرين، وكازويل، وبلاكبار، وموريجن، وبيزبوري، وشريمر، ودون، وفوتلي... وحتى عائلة فلورنت، إخوة زوجتك وأعمامها، كلُّ هؤلاء سيجعلونني ملكًا. سلاح فُرسان الجَنوب كله معي، وهذا أقلُّ جزءٍ من قوَّتي، فما زال مُشاتي في الطَّريق، مئة ألفٍ من حاملي السُّيوف والرِّماح والحراب... وستُدَمِّرني؟! بماذا؟ بهؤلاء الغوغاء الذين أراهم متحلِّقين حول أسوار القلعة؟ سأكون كريمًا وأحصي خمسة آلافٍ منهم، لوردات السَّمك وفُرسان البصل والمرتزقة. أراهنُ أن نِصفهم سينضمُّ إليَّ قبل بدء المعركة، كما أن كشَّافتي أبلَغوني أن لديك أقلَّ من أربعمئةٍ من الخيَّالة، أنهم مُحارِبون غير نظاميِّين يرتدون الجِلد المقوَّى، ولن يَصمُدوا لحظةً أمام حاملي الرِّماح المدرَّعين. لا أبالي بأنك تحسب نفسك مقاتلًا مخضرمًا يا ستانيس، فجيشك هذا لن يحتمل أكثر من هجمةٍ واحدةٍ من طليعة جيشي».

قال ستانيس: «سنرى يا أخي»، وبدا لكاتلين أن شيئًا من نور الدُّنيا انطفأَ عندما دَسَّ ستانيس سيفه في غِمده وأكملَ: «سنرى حينما يطلع الفَجر».

- «آملُ أن إلهك الجديد رحيم يا أخي».

أطلقَ ستانيس نخيرًا ساخرًا، وابتعدَ بسرعةٍ وقد لاحَ عليه بالازدراء، بينما تخلَّفت الرَّاهبة الحمراء عنه لحظةً، وقالت وهي تدور بحصانها: «تأمَّل في إصر الخطايا الذي تحمله يا لورد رنلي».

رجعَت كاتلين واللورد رنلي معًا إلى المعسكر، حيث ينتظر آلافه وقِلَّتها عودتهما، وعلَّق رنلي قائلًا: «كان هذا مسلِّيًا، إن لم يكن مفيدًا لأقصى درجة. تُرى أين يُمكنني الحصول على سيفٍ كهذا؟ لا شَكَّ أن لوراس سيُهديني إياه بَعد المعركة. يُحزِنني أن تصل الأمور إلى هذا الحَد».

قالت كاتلين، التي تَشعُر بالغَمِّ حقًّا ولا تتصنَّعه: «إنك تُعبِّر عن حُزنك بطريقةٍ بهيجةٍ فعلًا».

تساءلَ رنلي: «حقًّا؟»، وهَزَّ كتفيه متابعًا: «ليكن إذن، أعترفُ بأن ستانيس لم يكن أحبَّ أخٍ لي قَطُّ. أتحسبين أن حكايته تلك حقيقيَّة؟ إذا كان چوفري ابن قاتِل الملك حقًّا...».

- «... فأخوكَ الوريث الشَّرعي».

- «ما دامَ حيًّا، على الرغم من أنه قانون سخيف، ألا ترين ذلك؟ لماذا الابن الأكبر وليس الأصلح؟ سيُلائِمني التَّاج كما لم يُلائِم روبرت قَطُّ ولا يُلائِم ستانيس البتَّة. إنني أملكُ القُدرة على أن أكون ملكًا عظيمًا، قويًّا لكن كريمًا، ذكيًّا وعادلًا ومثابرًا ومخلصًا لأصدقائي ومروِّعًا مع أعدائي، لكن قادرًا على الغفران، وصبورًا...».

أضافَت كاتلين: «ومتواضعًا؟».

ضحكَ رنلي قائلًا: «عليكِ أن تسمحي لي بالقليل من العيوب يا سيِّدتي».

شعرَت كاتلين بإنهاكٍ بالِغ. كلُّ هذا كان بلا طائل، وسيُغرِق الأخوان باراثيون بعضهما بعضًا في الدِّماء، بينما يُواجِه ابنها جيوش لانستر وحده، ولا شيء يُمكنها أن تقوله أو تفعله سيُغَيِّر هذا. آن أوان عودتي إلى ريفَررَن لأُغلق عينيَّ أبي. أستطيعُ أن أفعلِ هذا على الأقل. قد أكونُ مبعوثةً فاشلةً، لكني محنَّكة في الأحزان، ولتتولَّني الآلهة برحمتها.

أقيمَ معسكرهم في موقع جيِّدٍ فوق مرتفَعٍ حجريٍّ واطئ يمتدُّ من الشَّمال إلى الجَنوب، وبدا أكثر تنظُيمًا بمراحل منَ المعسكر الآخَر المنتشر على نهر الماندر، وإن كان يَبلُغ رُبع حجمه فقط. عندما علمَ رنلي بهجوم أخيه على ستورمز إند، قسَّمَ قوَّاته مِثلما فعلَ روب عند «التَّوأمتين»، وتركَ مُشاته بأعدادهم الغفيرة في «جسر العلقم» مع ملكته الشَّابَّة ومركباته وعرباته وحيوانات الجَرِّ وجميع آلات الحصار الثَّقيلة، بينما قادَ رنلي نفسه فُرسانه ومُحارِبيه غير النِّظاميِّين سريعًا إلى الشَّرق.

كم يُشبِه أخاه روبرت، حتى في هذا... غير أن روبرت كان يحظى دومًا بإدارد ستارك ليُهَدِّئ اندفاعه وينصحه بالحِرص. مؤكَّد أن ند كان ليَحُثَّ رنلي على المجيء بقوَّته كاملةً ليُطَوِّق ستانيس ويُحاصِر المحاصِرين، لكن رنلي حرمَ نفسه ذلك الخيار بلهفته المتهوِّرة لمواجَهة أخيه، فابتعدَ عن خطوط إمداده، وأخَّر الطَّعام والمؤن أيامًا عن الوصول إليه مع جميع مركباته وثيرانه وبغاله.

يجب أن يَدخُل المعركة قريبًا إذن، أو يجوع جيشه.

أرسلَت كاتلين هال مولين للعناية بالخيول، بينما سارَت في صُحبة رنلي إلى السُّرادق الملكي في قلب المعسكر، وكان قادته واللوردات حمَلة رايته جالسين في الخيمة ذات الحوائط الحرير الخضراء، ينتظرون أن يعرفوا نتيجة المفاوَضة، فقال لهم ملكهم الشَّاب ريثما خلعَت بِريان معطفه ورفعَت تاج الذَّهب واليَشب عن جبهته: «أخي لم يتغيَّر، لن يقنع بالقلاع والمجامَلات، ويُريد الدَّم. حسنٌ، أفكِّرُ في أن أحقِّق له رغبته».

قال اللورد ماثيس روان: «لا أرى حاجةً لخوض معركةٍ هنا يا جلالة الملك، فحامية القلعة قويَّة ومزوَّدة بالكثير من المؤن، والسير كورتناي پنروز قائد مخضرم، ولم يُبنَ بعدُ المنجنيق الذي يستطيع اختراق أسوار ستورمز إند. دَع اللورد ستانيس يُحاصِر القلعة، فلن يجد أيَّ مسرَّةٍ في هذا، وبينما يجلس في مكانه باردًا جائعًا دون أن يُثمِر حصاره شيئًا، سنأخذ نحن كينجز لاندنج».

- «وأجعلُ النَّاس يقولون إنني خفتُ من مواجَهة ستانيس؟».

قال اللورد ماثيس بإلحاح: «لن يقول ذلك غير الحمقى».

نظرَ رنلي إلى الآخَرين متسائلًا: «وما رأيكم أنتم؟».

أعلنَ اللورد راندل تارلي: «رأيي أن ستانيس خطر عليك. دَعه بلا إراقة دماءٍ وسيستقوي أكثر، بينما تخور قوَّتك من معركةٍ إلى أخرى. آل لانستر لن يُهزَموا في يومٍ واحد، ومع فروغك منهم قد يكون اللورد ستانيس قد أصبحَ في مِثل قوَّتك... أو أقوى».

ردَّد آخَرون موافقتهم، ما جعلَ الملك يبدو مسرورًا، وقال: «سنُقاتِل إذن».

حدَّثت كاتلين نفسها: لقد خذلتُ روب كما خذلتُ ند، ثم خاطبَت رنلي قائلةً: «سيِّدي، ما دُمت عازمًا على القتال، فقد انتهى الغرض من وجودي هنا. أطلبُ منك الإذن بالعودة إلى ريڤرزن».

أجابَ رنلي وهو يجلس على واحدٍ من كراسي المعسكرات: «لا أعطيكِ الإذن».

تخشَّبت في مكانها قائلةً: «لقد أملتُ في مساعَدتك على تحقيق السَّلام يا سيِّدي، لكنني لن أعينك على الحرب».

هَزَّ رنلي كتفيه مغمغمًا: «أجسرُ على القول بأننا سننتصر دون رجالكِ الخمسة وعشرين يا سيِّدتي. لستُ أريدكِ أن تُشارِكي في المعركة، بل أن تشهديها فحسب».

- «كنتُ في الغابة الهامسة بالفعل يا سيِّدي، ورأيتُ ما يكفي من الذَّبح. لقد أتيتُ مبعوثةً...».

- «وستُغادِرين مبعوثةً، لكن أكثر حكمةً مما كنتِ حين أتيتِ. سترين بأُمِّ عينيكِ ما يَحدُث للمتمرِّدين، كي يسمع ابنكِ التَّفاصيل كلها من فمكِ. سنُحافِظ على سلامتك، فلا تخشي شيئًا»، والتفتَ رنلي عنها لعمل ترتيباته، وكلَّم رجاله قائلًا: «لورد ماثيس، ستقود قلب قوَّتي الأساسيَّة. برايس، الميسرة لك، والميمنة لي. لورد إسترمونت، ستقود قوَّات الاحتياط».

أجابَ اللوردِ إسترمونت: «لن أخذلك يا سيِّدي».

رفعَ اللورد ماثيس روان صوته متسائلًا: «من سيقود الطَّليعة؟».

قال السير چون فوسواي: «جلالة الملك، أناشدك المَنَّ عليَّ بهذا الشَّرف».

قال السير جايارد الأخضر: «ناشِده كما تشاء، لكن الحَقَّ أن يُسَدِّد واحد من حَرسه السَّبعة الضَّربة الأولى».

تدخَّل اللورد راندل تارلي قائلًا: «الهجوم على حائطٍ من التُّروس يتطلَّب أكثر من معطفٍ أنيق. لقد كنتُ أقودُ طليعة جيش مايس تايرل وأنت لا تزال ترضع من حلمة أمِّك يا جايارد».

ذاعَ الهرج والمرج في السُّرادق إذ اندفعَ الرِّجال الآخَرون يُطالِبون بقيادة الطَّليعة، فقالت كاتلين لنفسها: فُرسان الصَّيف. ثم إن رنلي رفعَ يده قائلًا: «أيها السَّادة، لو كانت لدي دستة من الطَّلائع، لولَّيت كلًّا منكم على واحدة، لكن الحَقَّ ينصُّ على أن المجد الأعظم ينتمي للفارس الأعظم. السير لوراس هو مَن سيقود الهجمة الأولى».

ركعَ فارس الزُّهور أمام مليكه، وقال: «بقلبٍ فَرِح يا جلالة الملك.

امنحني مبارَكتك وفارسًا يركب إلى جواري حاملًا رايتك. فليَدخُل الوعل والوردة المعركة جنبًا إلى جنب».

تطلَّع رنلي حوله، وقال: «برِيان».

غمغمَت: «جلالة الملك؟». كانت لا تزال ترتدي دِرعها الفولاذيَّة الزَّرقاء، وإن خلعَت خوذتها، وجعلَت حرارة السُّرادق المزدحم العَرق يلصق شَعرها الأصفر المتهدِّل بوجهها العريض الدَّميم. «مكاني إلى جوارك. إنني حاميتك التي...».

قاطَعها الملك مذكِّرًا: «واحدة من سبعة. لا تخافي، فأربعة من رفاقك سيكونون معي خلال القتال».

هوَت برِيان على رُكبتيها قائلةً: «إن كان لا مناص من فراق جلالتك، فامنحني شَرف تسليحك للمعركة».

سمعَت كاتلين أحدًا يُطلِق ضحكةً مكتومةً وراءها، ففكَّرت بأسف: المسكينة تُحِبُّه، تلعب دور مُرافقه لمجرَّد أن تلمسه، ولا تُبالي بأنهم يعدُّونها بلهاء كبيرة.

قال رنلي: «لكِ هذا. والآن اترُكوني كلكم، فحتى الملوك يجب أن يستريحوا قبل المعركة».

قالت كاتلين: «سيِّدي، ثمَّة سِپت صغير في آخِر قريةٍ مررنا بها. ما دُمت لن تأذن لي بالعودة إلى ريڤرَرَن، فاسمح لي بأن أذهب إلى هناك وأصلِّي».

- «كما تشائين. سير روبار، اعمل على اصطحاب الليدي ستارك بأمانٍ إلى ذلك السِّپت... لكن احرِص على عودتها إلينا قبل الفَجر».

قالت كاتلين: «قد يُفيدك أن تُصلِّي أنت أيضًا».

- «للنَّصر؟».

- «للحكمة».

ضحكَ رنلي، وقال: «لوراس، ابقَ معي وساعِدني على الصَّلاة، فقد مضى وقت طويل منذ آخِر مرَّةٍ ونسيتُ كيف أصلِّي. أمَّا بقيَّتكم، فأريدُ كلَّ رجلٍ في موقعه مع خيوط النَّهار الأولى، مسلَّحين ومدرَّعين وعلى متن خيولكم. ستُري ستانيس فَجرًا لن ينساه قريبًا».

كان الغَسق قد بدأ يحلُّ لمَّا غادرَت كاتلين السُّرادق، وخرجَ السير روبار رويس في أعقابها. إنها تعرفه بعض الشَّيء، فهو واحد من أبناء يون البرونزي، وسيم على نحوٍ خشن، ومُحارِب حقَّق نوعًا من الشُّهرة في دورات المباريات. كان رنلي قد أنعمَ عليه بمعطفٍ بألوان قوس قزح ودِرعًا قانيةً كالدَّم، وعيَّنه واحدًا من حَرسه الملكي السَّبعة. قالت له: «بعيد أنت جدًّا عن «الوادي» أيها الفارس».

- «وبعيدة أنتِ جدًّا عن وينترفل يا سيِّدتي».

- «أعرفُ ما جاءَ بي إلى هنا، فلِمَ جئت أنت؟ هذه ليست معركتك كما أنها ليست معركتي».

- «جعلتُها معركتي عندما جعلتُ رنلي مليكي».

- «عائلة رويس تحمل راية عائلة آرن».

- «السيِّد والدي يدين لليدي لايسا بالولاء، ووريثه كذلك، بينما على الابن الثَّاني أن يسعى إلى المجد حيثما يستطيع»، وهَزَّ السير روبار كتفيه مضيفًا: «وسئمتُ المباريات».

خمَّنت كاتلين أن عُمره لا يتعدَّى الحادية والعشرين، يُقارِب ملكه في السِّن... لكن ملكها هي، ابنها روب، يتحلَّى في سِنِّ الخامسة عشر بحكمةٍ أكثر مما تعلَّم هذا الشَّاب في حياته كلها، أو أن هذا ما تتمنَّاه من الآلهة.

في رُكن كاتلين الصَّغير من المعسكر، كان شاد يُقَطِّع الجزر في قِدر، بينما انغمسَ هال مولين في لعب النَّرد مع ثلاثةٍ من رجال وينترفل، وجلسَ لوكاس بلاكوود يشحذ خنجره، وعندما رآها قال: «ليدي ستارك، مولين يقول إن المعركة ستبدأ عند الفَجر».

ردَّت: «هال مُحِق»، ولا يستطيع أن يكتم سِرًّا على ما يبدو.

- «هل نُحارِب أم نهرب؟».

أجابَته: «نُصَلِّي يا لوكاس، نُصَلِّي».

سانزا

قال لهاساندور كليجاين محذِّرًا: «كلما تركتِه ينتظر مدَّةً أطول، ستكون العاقبة أوخم».

حاولَت سانزا أن تُسرِع، لكن أصابعها تلمَّست أزرار وعُقد ثيابها باضطرابٍ بالغ. كلب الصَّيد خشن اللِّسان دائمًا، لكن شيئًا ما في نظرته إليها أفعمَها رهبةً. هل علمَ چوفري بلقائها بالسير دونتوس؟ فكَّرت وهي تُمَشِّط شَعرها: أرجوكِ لا أيتها الآلهة. السير دونتوس أملها الأوحد. يجب أن أبدو جميلةً، چوفري يُحِبُّني جميلةً، ودائمًا استحسنَ رؤيتي في هذا الفُستان وهذا اللَّون. سوَّت نسيج الفُستان، وأحسَّت به مشدودًا على صدرها.

سارَت سانزا على يسار كلب الصَّيد عندما خرجَت من غُرفتها، بعيدًا عن جانب وجهه المحروق، وقالت: «أخبِرني ماذا فعلتُ».

- «ليس أنتِ، بل أخوكِ الملوكي».

تحفظ سانزا الكلمات صمًّا، وهكذا ردَّدت: «روب خائن، وليس لي دور فيما فعلَه أيًّا كان». أرجوكِ أيتها الآلهة، لا تجعليه قاتِل الملك. إن آذى روب چايمي لانستر، فسيعني هذا حياتها. فكَّرت في السير إلين وهاتين العينين الشَّاحبتين الفظيعتين، اللتين تُحَدِّقان بلا أدنى أثرٍ للرَّحمة فيهما من وجهه الضَّاوي المجدور.

قال كلب الصَّيد ساخرًا: «درَّبوكِ جيِّدًا أيتها الطَّائر الصَّغير».

قادَها إلى الفِناء السُّفلي، حيث احتشدَ رهط حول أهداف الرِّماية، وأفسحَ لها الحاضرون الطَّريق. سمعَت سُعال اللورد جايلز، بينما رمقَها عُمَّال

الاسطبلات المتسكِّعين حول المكان بنظراتٍ وقحة، لكن السير هوراس ردواين حوَّل بصره عنها وهي تمرُّ، أمَّا أخوه هوبر فتظاهرَ بأنه لا يراها من الأصل. على الأرض كانت قِطَّة صفراء تحتضر، تُطلِق مواءً واهنًا يُمَزِّق نياط القلوب، وقد اخترقَ سهم نُشَّابيَّة ضلوعها، فدارَت سانزا حولها شاعرةً بالغثيان.

منذ لم يستطِع السير دونتوس امتطاء حصانه في دورة المباريات بسبب ثَمَله الشَّديد، قضى الملك ألَّا يذهب إلى أيِّ مكانٍ بلا حصان، وهكذا اقتربَ منها على حصانه الخشبي المصنوع من عصا مكنسة، وهمسَ معتصرًا ذراعها: «كوني شُجاعةً».

وقفَ چوفري في مركز الحشد، يُدَوِّر بكرة نُشَّابيَّةٍ مزخرَفة، ومعه السير بوروس والسير مرين، اللذين كان منظرهما كفيلًا بأن تنقلب معدتها تمامًا.

ركعَت قائلةً: «جلالة الملك».

قال الملكِ: «لن يُنقِذكِ الرُّكوع. قفي. إنكِ هنا لتُكَفِّري عن خيانات أخيكِ الأخيرة».

- «جلالة الملك، أيًّا كان ما فعلَه أخي الخائن، فلم يكن لي دور فيه. إنك تعلم هذا، أتوسَّلُ إليك، أرجوك...».

- «أنهِضها!».

وجذبَها كلب الصَّيد لتقف، وإنما ليس بخشونة.

قال چوفري: «سير لانسل، أخبِرها باعتداء أخيها».

لطالما رأت سانزا لانسل لانستر وسيمًا لبقًا، لكن النَّظرة التي حدجَها بها لم تحمل أيَّ عطفٍ أو رأفة إذ قال: «أخوكِ استخدمَ حيلةً سِحريَّةً وضيعةً وكَرَّ على السير ستافورد لانستر بجيشٍ من الأَوْراج، على بُعد أقلِّ من ثلاثة أيام بالحصان من لانسپورت. آلاف من الرِّجال الصَّالحين ذُبِحوا في نومهم، دونَ أن ينالوا فُرصة رفْع سيفٍ واحد، وعقب المذبحة أقامَ الشَّماليُّون وليمةً من لحم القتلى».

وطوَّق الرُّعب عُنق سانزا بيدين باردتين.

سألَها چوفري: «أليس لديكِ ما تقولينه؟».

تمتمَ السير دونتوس: «المسكينة مصدومة يا جلالة الملك».

صاحَ چوفري: «اخرس أيها المهرِّج»، ثم صوَّب نُشَّابيَّته إلى وجهها قائلًا: «أنتم كائنات غير طبيعيَّة حقًّا يا معشر الشَّماليِّين، تمامًا كذئابكم تلك. إنني لم أنسَ كيف حاولَ وحشك افتراسي».

قالت: «كانت ذئبة آريا. ليدي لم تمسَّك بأيِّ أذى، لكنك قتلتها على كلِّ حال».

قال چوف: «لا، أبوكِ هو مَن قتلَها، وأنا قتلتُ أبوكِ، وليتني فعلتها بنفسي. لقد قتلتُ رجلًا أكبر حجمًا منه ليلة أمس. جاءوا إلى البوَّابة يصيحون باسمي ويَطلُبون الخُبز كأني خبَّاز، لكني لقَّنتهم درسًا، وأصبتُ أصخبهم في حَلقه مباشرةً».

- «وهل ماتَ؟». كان عصيًّا عليها التَّفكير في شيءٍ آخَر تردُّ به بينما ترى رأس السَّهم الحديدي القبيح مصوَّبًا إلى وجهها.

- «طبعًا ماتَ، لقد اخترقَ سهم حَلقه. كانت هناك امرأة تقذف الحجارة، وأصبتها أيضًا لكن في ذراعها فقط»، وعقدَ چوف حاجبيه وهو يخفض النُّشَّابيَّة مردفًا: «كنتُ لأرميكِ بسهم أيضًا، لكن أمِّي تقول إنهم سيَقتُلون خالي چايمي لو فعلتُ. إلَّا أنكِ ستُعَاقَبين بدلًا من هذا، وسنُرسِل خبرًا إلى أخيكِ يُعلِمه بما سيجري لكِ إذا لم يستسلم. أيها الكلب، اضربها».

- «دَعني أنا أضربها!»، صاحَ السير دونتوس دافعًا نفسه بين الحاضرين ودِرعه الصَّفيح تُصَلصِل. كان مسلَّحًا بـ«هرَّاوةٍ شائكة» رأسها عبارة عن ثمرة شمَّام. فارسي فلوريان. كانت لتُقَبِّله لحظتها ببشرته المبقَّعة وشبكة الأوردة البارزة من تحتها، ودارَ هو بحصانه الخشبي حولها صائحًا: «خائنة! خائنة!»، بينما يضربها بالشمَّامة على رأسها، فرفعَت سانزا يديها تقي نفسها، مترنِّحةً كلما ضربَتها الثَّمرة، وقد تلزَّج شَعرها مع الضَّربة الثَّانية فقط. كان الموجودون يضحكون، وتفسَّخت الشمَّامة تمامًا، فقالت سانزا لنفسها والعُصارة تسيل على وجهها وصدر فُستانها الحريري الأزرق: اضحك يا چوفري، اضحك وارضَ.

لكن چوفري لم يُصدِر مجرَّد ضحكةٍ مكبوتة، وقال: «بوروس، مرين».

أطبقَ السير مرين ترانت على ذراع دونتوس، ودفعَه بعيدًا بغلظة، فانطرحَ المهرِّج ذو الوجه المشرَّب الحُمرة أرضًا ومعه عصا المكنسة والشمَّامة، بينما أمسكَ السير بوروس بسانزا.

قال چوفري آمرًا: «اترُكا وجهها. أحبُّها جميلةً».

هوى بوروس بلكمةٍ على بطن سانزا أفرغَت ما في صدرها من هواء، فلمَّا انحنَت إلى الأمام، جذبَها الفارس من شَعرها واستلَّ سيفه، ومرَّت لحظة شنيعة أيقنَت خلالها سانزا أنه سيشقُّ حَلقها، لكن عندما نزلَ بالجانب المسطَّح من السَّيف على ظَهر فخذيها، أحسَّت بساقيها على وشك الانكسار من عُنف الضَّربة، وصرخَت واحتشدَت الدُّموع في مُقلتيها. سرعان ما ينتهي هذا... لكن سرعان ما عجزَت هي عن عَدِّ الضَّربات التي توالَت.

سمعَت صوت كلب الصَّيد الأجشَّ يقول: «هذا يكفي».

قال الملك: «كلا، لا يكفي. بوروس، عرِّها».

دَسَّ بوروس يده اللَّحيمة داخل صِدار سانزا من الأمام وشَدَّه بعُنف، فتمزَّق الحرير ليُعَرِّيها حتى الخصر، وغطَّت سانزا ثدييها بيديها بينما تناهَت إلى أُذنيها ضحكات هازئة بعيدة، وقال چوفري: «اضربها حتى يسيل دمها. سنرى كيف يروق أخاها أن...».

- «ما الذي يَحدُث هنا؟». شَقَّ صوت العِفريت الهواء كالسَّوط، وفجأةً وجدَت سانزا نفسها طليقةً، فنهضَت مترنِّحةً وقد تقاطعَت ذراعاها على صدرها وتقطَّعت أنفاسها. قال تيريون لانستر غاضبًا: «أهذه فكرتك عن الفُروسيَّة يا سير بوروس؟». كان مرتزِقه المدلَّل يقف معه، بالإضافة إلى واحدٍ من رجاله الهمج، صاحِب العينِ المحروقة. «أيُّ فارسٍ هذا الذي يضرب الفتيات العاجزات؟».

قال السير بوروس: «الفارس الذي يُطيع ملكه أيها العِفريت»، ورفعَ سيفه، فتقدَّم السير مرين يقف إلى جواره مستلًّا سيفه من غِمده.

قال مرتزِق القزم: «توخَّيا الحذر مع هذين السَّيفين، فلستما تُريدان تلويث معطفيكما الأبيضين الجميلين بالدِّماء».

قال العِفريت: «فليُعطِ أحدكم الفتاة شيئًا تَستُر نفسها به»، فخلعَ ساندور

كليجاين معطفه وألقاه إليها، وضمَّته سانزا إلى صدرها غارسةً قبضتيها في الصُّوف الأبيض، وشعرَت بالنَّسيج الخشن يحكُّ جِلدها، لكنها لم تحسَّ براحةٍ كهذه مع أيِّ مخملٍ ارتدَته من قبل.

خاطبَ العِفريت چوفري قائلًا: «هذه الفتاة ستُصبِح ملكتك. ألَّا يعنيك شَرفها؟».

- «إنني أعاقبها».
- «بأيِّ جريرة؟ إنها لم تُقاتِل في معركة أخيها».
- «دماء الذِّئب في عروقها».
- «وأنت في رأسك عقل إوزَّة!».
- «لا يُمكنك أن تُكَلِّمني هكذا. الملك يفعل كما يُريد».
- «إيرس تارجاريَن فعلَ كما أرادَ، فهل حكَت لك أمُّك ما حاقَ به؟».

تنحنحَ السير بوروس منذرًا، وقال: «لا أحد يُهَدِّد جلالته في حضور الحَرس الملكي».

رفعَ تيريون لانستر حاجبًا، وردَّ: «لا أهدِّدُ الملك أيها الفارس، بل أهذِّبُ ابن أختي. برون، تيميت، إذا فتحَ السير بوروس فمه مرَّةً أخرى، اقتُلاه»، وابتسم القزم وأردفَ: «هذا يكون التَّهديد أيها الفارس. أترى الفارق؟».

احتقنَ وجه السير بوروس تمامًا، وقال: «ستسمع الملكة بهذا!».

- «لا شَك، فلِمَ الانتظار إذن؟ چوفري، هل نستدعي أمَّك؟».

واحتقنَ وجه الملك هو الآخَر.

واصلَ خاله: «أليس لديك ما تقوله يا جلالة الملك؟ عظيم. تعلَّم أن تستخدم أذنيك أكثر وفمك أقل، وإلَّا سيكون حُكمك أقصر مني. الوحشيَّة الغاشمة ليست وسيلةً تكسب بها حُبَّ شعبك... أو ملكتك».

قال چوفري: «أمِّي تقول إن الخوف أفضل من الحُب»، وأشارَ إلى سانزا مضيفًا: «هي تخافني».

زفرَ تيريون قائلًا: «نعم، مفهوم. من المؤسف أن ستانيس ورنلي ليستا فتاتين في الثَّانية عشرة أيضًا. برون، تيميت، أحضِراها».

تحرَّكت سانزا كأنها في حُلم. حسبَت أن رجليَّ العِفريت سيُعيدانها إلى

غُرفة نومها في حصن ميجور، لكنهما قاداها إلى بُرج اليد. لم تكن قدماها قد وطأتا هذا المكان منذ يوم سقوط أبيها من النِّعمة إلى النِّقمة، وأشعرَها صعود هذه الدَّرجات من جديد بالدُّوار.

تولَّت بضع خادماتٍ أمرها، فخلعَت واحدة أسمال فُستانها وثيابها الدَّاخليَّة، وحمَّمتها أخرى وغسلَت شَعرها ووجهها من العُصارة اللَّزجة، وبينما نظَّفنها بالصَّابون وصببن الماء الدَّافئ على رأسها، لم ترَ أمامها غير وجوه الحاضرين في الفِناء. الفُرسان يُقسِمون على الدِّفاع عن الضُّعفاء وحماية النِّساء والقتال في سبيل الحَق، لكن أحدًا منهم لم يُحَرِّك ساكنًا. وحده السير دونتوس حاولَ أن يُساعِدها على الرغم من أنه لم يَعُد فارسًا، تمامًا مِثل العِفريت الذي ليس بفارس، أو كلب الصَّيد... كلب الصَّيد يبغض الفُرسان... وأنا أيضًا أبغضهم. هؤلاء ليسوا فُرسانًا حقيقيِّين، لا أحد منهم.

بَعدما عادَت نظيفةً، أتى المِايستر فرنكن ذو الجسد الممتلئ والشَّعر البنِّي المحمر، وطلبَ منها أن تتمدَّد على بطنها على الفِراش، ثم دهنَ مرهمًا على الكدمات الحمراء الغاضبة التي غطَّت رَبلتيَّ ساقيها، قبل أن يمزج لها جرعةً من نبيذ النَّوم ويُضيف إليه العسل ليُساعِدها على الابتلاع، وقال لها: «نامي قليلًا يا صغيرتي، وسيبدو كلُّ هذا حُلمًا مزعجًا فحسب عندما تستيقظين».

فكَّرت سانزا: كلا، لن يبدو كذلك أيها الأبله، لكنها احتسَت النَّبيذ على كلِّ حالٍ وغابَت في النَّوم.

وكان الظَّلام قد حَلَّ حين استيقظَت غير مستوعبةٍ أين هي بالضَّبط، إذ بدَت لها الغُرفة غريبةً وفي الآن نفسه مألوفةً على نحوٍ غريب، ثم إنها نهضَت فشعرَت بالوجع يسري كالبرق في ساقيها ويُعيد إليها الذِّكرى كلها، فاغرورقَت عيناها بالعبرات. كان أحدهم قد بسطَ معطفًا لها إلى جوار الفِراش، فارتدَته سانزا وفتحَت الباب، وفي الخارج وقفَت امرأة صارمة الملامح ذات بشرةٍ بنِّيَّة متينة، تُحيط بعُنقها النَّاحل ثلاث قلادات، واحدة من الذَّهب والثَّانية من الفضَّة والثَّالثة حلقاتها آذان بَشريَّة. سألَتها المرأة المستندة إلى رُمحٍ طويل: «أين تحسب نفسها ذاهبةً؟».

- «أيكة الآلهة». يجب أن تجد السير دونتوس وتستجديه أن يأخذها إلى الدِّيار الآن وفورًا قبل أن يفوت الأوان.

أجابَت المرأة: «النِّصف رجل قال ألَّا أتركك تُغادِرين. صلِّي هنا، فالآلهة ستسمع».

بخنوع خفضَت سانزا ناظريها وعادَت إلى الدَّاخل، وأدركَت بغتةً لِمَ يبدو المكان مألوفًا لهذه الدَّرجة. لقد وضَعوني في غُرفة آريا القديمة، عندما كان أبونا يد الملك. أغراضها كلها اختفَت ومواضع الأثاث تبدَّلت، لكنها الغُرفة ذاتها...

بَعد مدَّةٍ قصيرة، جلبَت خادمة صحفةً من الجبن والخُبز والزَّيتون وإبريقًا من الماء البارد، فقالت لها سانزا آمرةً: «ارفعي هذا الطَّعام»، لكن الفتاة تركَته على المائدة. على أنها أدركَت أنها ظمآنة جدًّا، وكانت كلُّ خطوةٍ أخذَتها نحو المائدة بمثابة سكاكين تطعن فخذيها، وإن أجبرَت نفسها على عبور الغُرفة، فشربَت كوبين من الماء، وكانت تقضم زيتونةً عندما سمعَت الطَّرقة.

التفتَت متوتِّرةً إلى الباب، وسوَّت طيَّات معطفها قائلةً: «نعم؟».

انفتحَ الباب، ودخلَ تيريون لانستر وقال لها: «سيِّدتي، أتمنَّى أني لم أزعجكِ».

- «أأنا سجينتك؟».

كان يرتدي سلسلة منصبه، القلادة المصنوعة على شكل أيادٍ ذهبيَّة متعانقة، وقد أجابَها: «ضيفتي، وخطرَ لي أن نتكلَّم».

وجدَت سانزا عدم التَّحديق فيه صعبًا، فقسمات وجهه قبيحة لدرجةٍ تُصيبها بنوع عجيب من الافتتان، لكنها قالت: «كما يأمر سيِّدي».

قال: «هل حازَ الطَّعام والملبس رضاكِ؟ إذا كنتِ تحتاجين شيئًا آخَر، فما عليكِ إلَّا أن تَطلُبي».

- «أنت شديد اللُّطف، وهذا الصَّباح... كان رائعًا منك أن تُساعِدني».

- «لديكَ حَقٌّ في معرفة سبب غضبة چوفري. قبل ستِّ ليالٍ، انقضَّ أخوكِ على عمِّي ستافورد المعسكِر مع جيشه في قريةٍ اسمها أوكسكروس تَبعُد أقلَّ

من ثلاثة أيام بالحصان عن كاسترلي روك. لقد حقَّق قومكِ الشَّماليُّون نصرًا ماحقًا، ولم يَبلُغنا الخبر حتى صباح اليوم».

فكَّرت مغتبطةً: روب سيقتُلكم جميعًا. «هذا... شنيع يا سيِّدي. أخي خائن آثم».

قال القزم بابتسامةٍ واهنة: «إنه ليس ظبيًّا على الأقل، فقد جعلَ هذا واضحًا جدًّا».

- «السير لانسل قال إن روب قادَ جيشًا من الأَوْراج».

أطلقَ العِفريت ضحكة ازدراء، وقال: «السير لانسل مُحارِب قِرب النَّبيذ، وأجهل من دابَّة. ذئب أخيكِ الرَّهيب كان معه، لكني أشكُّ في أن الأمر تجاوزَ هذا. لقد تسلَّل الشَّماليُّون إلى معسكر عمِّي وقطَعوا عنه خطوط الخيول، ثم أطلقَ اللورد ستارك ذئبه بينها، وحتى الخيول المدرَّبة على الحرب أصابَها الجنون، فدعسَت الفُرسان حتى الموت في خيامهم، واستيقظَ الجنود الأوباش مرعوبين وألقوا أسلحتهم كي يفرُّوا أسرع. قُتِلَ السير ستافورد وهو يُطارِد حصانًا، إذ غرسَ اللورد ريكارد كارستارك حربةً في صدره، وماتَ السير روبرت براكس أيضًا، بالإضافة إلى كلٍّ من السير ليموند ڤيكاري واللورد كراكهول واللورد چاست، وسقطَ نِصفمئة آخَرون أسرى، بمن فيهم أبناء چاست ومارتن لانستر ابن عمِّي كيڤان. النَّاجون يَنشُرون حكاياتٍ مخيفة، ويُقسِمون أن آلهة الشَّمال القديمة تزحف مع جيش أخيكِ».

- «هل... استُخدِم السِّحر إذن؟».

أجابَ تيريون ساخرًا: «السِّحر صلصة يغرفها البُله على وجه الفشل ليُخَبِّئوا مذاق عجزهم. عمِّي الأحمق لم يُجَشِّم نفسه عناء تعيين حراسة على ما يبدو، كما أن أفراد جيشه لم يتمتَّعوا بأيِّ خبرة، مجرَّد صِبية ورِش وعُمَّال مناجم وحقول وصيَّادين، كُناسة لانسپورت. اللُّغز الوحيد هو كيف وصلَ أخوكِ إلى هناك، فقوَّاتنا لا تزال تُسَيطِر على معقل «النَّاب الذَّهبي»، ويُقسِمون أنه لم يمرَّ إطلاقًا»، وهَزَّ القزم كتفيه بضيق، وأردفَ: «طيِّب، روب ستارك مشكلة أبي، وچوفري مشكلتي أنا. أخبِريني، بِمَ تَشعُرين تجاه ابن أخي الملوكي؟».

أجابَت سانزا على الفور: «أحبُّه من صميم قلبي».
لم يبدُ عليه الاقتناع وهو يسألها: «حقًّا؟ حتى الآن؟».
- «حُبِّي لجلالته أكبر مما كان في أيِّ وقتٍ سابقٍ».
ضحكَ العِفريت بصوتٍ عالٍ، وقال: «أحدهم علَّمك أن تُحسِني الكذب، وقد تجدين نفسكِ ممتنَّةً لهذا ذات يومٍ يا طفلتي. إنكِ ما زلتِ طفلةً، أليس كذلك؟ أم أنكِ أزهرتِ؟».
تورَّد وجهها. كان السُّؤال وقحًا، لكن الخجل من التعرِّي أمام نِصف القلعة جعلَه تافهًا بالمقارَنة، فقالت: «بلى يا سيِّدي».
- «هذا أفضل كثيرًا. لو أن في هذا عزاءً ما، فأنا لا أنوي أن تتمَّ زيجتكِ چوفري أبدًا، إذ أخشى أن لا زواج سيُثمِر صُلحًا بين ستارك ولانستر بَعد كلِّ ما حدثَ، وهذا مؤسف أكثر، لأن تلك كانت واحدةً من أفضل الأفكار التي تفتَّق عنها ذهن الملك روبرت، لولا أن چوفري أفسدَ الأمر كله».
أدركَت أن عليها أن تقول شيئًا، لكن الكلام احتبسَ في حَلقها.
قال تيريون لانستر: «أراكِ لائذةً بالصَّمت. أهذا ما تُريدين؟ نهايةً لخطبتكِ؟».
- «أنا...». لم تعرف سانزا ماذا تقول. أهذه خدعة؟ هل سيُعاقِبني إذا قلتُ الحقيقة؟ حدَّقت في جبهة القزم البارزة جدًّا، والعين السَّوداء القاسية والثَّانية الخضراء اللَّامعة، والأسنان المعوجَّة واللِّحية الخشنة. «أريدُ أن أكون وفيَّةً فقط».
قال القزم متأمِّلًا: «وفيَّةً، وبعيدةً عن أيِّ لانستر، ولا ألومكِ على هذا. لقد أردتُ الشَّيء نفسه عندما كنتُ في سِنِّكِ»، وابتسمَ مضيفًا: «يقولون لي إنكِ تتردَّدين إلى أيكة الآلهة يوميًّا، فلأيِّ شيءٍ تُصَلِّين يا سانزا؟».
أصلِّي لانتصار روب وموت چوفري... وللوطن، لوينترفل. «أصلِّي لأن ينتهي القتال».
- «سيَحدُث هذا عمَّا قريب. ستدور معركة أخرى بين أخيكِ روب والسيِّد والدي، وعندها ستُسَوَّى المسألة».
سيهزمه روب. لقد هزمَ عمَّك وأخاك چايمي، وسيهزم أباك أيضًا.

كأن وجهها كتاب مفتوح قرأ فيه القزم آمالها بمنتهى اليُسر، فقال لها بلهجةٍ رفيقة: «لا يَغُرَّنكِ ما حدثَ في أوكسكروس يا سيِّدتي، فالمعركة ليست حربًا، والسيِّد والدي ليس عمِّي ستافورد بكلِّ تأكيد. عندما تزورين أيكة الآلهة المرَّة القادمة، فادعي أن يتحلَّى أخوكِ بالحكمة ويركع، فبمجرَّد أن يرجع الشَّمال إلى سلام الملك، سأعيدكِ إلى ديارِكِ»، ونزلَ من على مقعد النَّافذة قائلًا: «يُمكنكِ قضاء اللَّيلة هنا. سآمرُ عددًا من رجالي بحراستكِ، من الغِربان الحجريَّة ربما...».

اندفعَت سانزا تقول مذعورةً: «لا!». إذا ظلَّت حبيسةً في بُرج اليد، تحت حراسة رجال القزم، فكيف سيُهَرِّبها السير دونتوس إلى الحرِّيَّة؟

- «هل تُحَبِّذين الآذان السَّوداء؟ سأعطيكِ تشلا إذا كنتِ تشعرين بالطُّمأنينة أكثر في وجود امرأة».

- «لا، أرجوك يا سيِّدي، الهمج يُخيفونني».

ابتسمَ قائلًا: «ويُخيفونني كذلك، لكن الأهمَّ أنهم يُخيفون چوفري والأفاعي الخبيثة والكلاب المسعورة التي يُسَمِّيها حَرسًا ملكيًّا. في وجود تشلا أو تيميت إلى جانبكِ، فلن يجرؤ أحد على التعرُّض لكِ».

قالت: «أفضِّلُ العودة إلى فِراشي»، ثم خطرَت لها الكذبة فجأةً، فأضافَت: «رجال أبي قُتِلوا في هذا البُرج، وستُصيبني أشباحهم بكوابيس شنيعة، وسأرى دماءهم أينما نظرتُ».

تمعَّن تيريون لانستر في وجهها، ثم قال: «ليست الكوابيس بالشَّيء الغريب عليَّ يا سانزا. لعلكِ أكثر حكمةً مما ظننتُ. اسمحي لي على الأقل إذن بأن أصحبكِ بأمانٍ إلى مسكنكِ».

الرواية التي تحولت إلى ظاهرة

«مارتن راوي قصص بالفطرة يتمتَّع بخيال واحد في المليون، والمسلسل المأخوذ عن سلسلته رائع، لكن الكُتب أفضل بكثير». **ستيڤن كينج**

«نجحت سلسلة مارتن الخيالية في إشعال خيال الملايين للسبب نفسه الذي جعل أعمال هوميروس وسوفوكليس وشكسبير تدوم عصورًا». **الجارديان**

«مارتن هو الأفضل على الإطلاق بين من يكتبون في مجال الفانتازيا الملحميَّة في العصر الحالي، ولا مبالغة في وصفه بأنه تولكين الأمريكي». **تايم**

«موهبة مارتن في الحكي تكاد تكون خارقة للطبيعة». **نيويورك تايمز**

في «صِدام الملوك» يواصل چورچ ر. ر. مارتن أحداث تحفته الفنيَّة الأصيلة، التي تحوي أفضل ما في الأدب الخيالي من إثارة وغموض ومغامرة، على مستوى أكبر من الواقع، بالإضافة إلى مجموعةٍ كبيرة من الشخصيات الأساسيَّة والفرعيَّة المثيرة لاهتمام وتفاعُل القارئ، ما جعل الملايين من عشاق الفانتازيا حول العالم يقعون في غرامها ويتابعون أجزاء ملحمة «أغنية الجليد والنار» بمنتهى الشغف.

من حيث انتهَت أحداث الكتاب الأول مباشرةً تبدأ أحداث الكتاب الثاني هذا. فبينما يشقُّ السماء مذنَّب بلون الدم واللهب، تضرب ويلات الحرب البلاد إذ يتصارع خمسة ملوك على عرش الممالك السبع الحديدي، في صِدامٍ عنيف تظل فيه عجلة الدسائس والمؤامرات والخيانة والسحر الأسود دائرةً بلا انقطاع، لتسلب الآلاف من الأبرياء والمذنبين أرواحهم على حد سواء. فيما يبدأ الخطر القادم من الشمال في الإفصاح عن وجهه، وتواصل الملكة المنفية إلى بلادٍ أخرى سعيها إلى استعادة عرش أبيها. في هذه الحرب تولد التحالفات وتموت في غمضة عين وتسيل الدماء، فحين يتصادم الملوك تنزف البلاد بأكملها.

ISBN 978-977-6483-92-7
9 789776 483927

التنوير للطباعة والنشر والتوزيع
تونس - بيروت - القاهرة